يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم

(الأنفال ٨ / ٢٤)

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

المجلد الخامس

الجزءان ٩ - ١٠

دار الفكر

آفاق معرفة متجددة

!!؟
القدس
2009

دار الفكر - دمشق - البرامكة

٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣

٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ.د. وهبة الزحيلي

المجلد الخامس

الرقم الاصطلاحي: ٥- ٠١١,١٦٩٠

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه)

٧٢٠ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م

ط٢ / ٢٠٠٣م

© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

المجلد الخامس

الجزءان ٩ - ١٠

بقية قصة شعيب مع قومه
محاورته الملأ وعقابهم بالزلزلة

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ
مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا
بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا
إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾
فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ
عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

الإعراب:

﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ الهمزة للاستفهام، والاستفهام هنا للإنكار، والواو واو الحال، تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا؟.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: أن وصلتها في موضع نصب على الاستثناء المنقطع، تقديره: وما يكون لنا أن نعود فيها إلا بمشيئة الله. وقوله: نعود فيها: أي نصير، ولا يريد به أن يرجع؛ لأنه لم يكن في ملة الكفر، فخرج منها حتى يعود ﴿عِلْمًا﴾ تمييز منصوب ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ﴾ اللام لام القسم.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ الذين: في موضع رفع؛ لأنه صفة أو بدل من الذين كفروا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. ويجوز أن يكون في موضع مبتدأ مرفوع، وخبره جملة ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ واسمها محذوف أي

كأنهم ويجوز أن يكون خبره جملة ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ و﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾ في موضع نصب على الحال.

البلاغة:

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾: تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر، وإظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرع.

المفردات اللغوية:

﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ ترجعن إلى ديننا، وغلبوا في الخطاب الجمع على الواحد؛ لأن شعيباً لم يكن في ملتهم قط. وعلى نحوه أجاب بقوله: أنعود فيها ولو كنا كارهين؟ والاستفهام للإنكار.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ ينبغي ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ أي وسع علمه كل شيء، ومنه حالي وحالكم ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ﴾ احكم، والفاتح: الحاكم ﴿ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ الحاكمين. والفتاح: الحاكم، بطريق المبالغة .﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ أي قال بعضهم لبعض.

﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة، وأصل معنى الرجفة: الحركة والاضطراب ﴿جَٰثِمِينَ﴾ باركين على الركب، ميتين ﴿لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾ يقيموا في ديارهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ التأكيد بإعادة الموصول وغيره للرد عليهم في قولهم السابق: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ﴾ فلم تؤمنوا ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ﴾ أحزن ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ استفهام بمعنى النفي.

التفسير والبيان:

هذه تتمة قصة شعيب مع قومه تضمنت موضوعين: الأول - محاورة شعيب لأشراف قومه، وبيان عاقبة الكافرين بإنزال العذاب العام عليهم.

أما المحاورة: فقال زعماء القوم الذين تكبروا عن الإيمان وعن اتباع ما أمرهم به وما نهاهم عنه من عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وعدم الفساد في الأرض، وإنذارهم بالعذاب بقوله: فاصبروا، قالوا في توعدهم شعيباً ومن معه من المؤمنين: قسماً لنخرجنك ياشعيب ومن آمن معك من بلادنا كلها، أو لترجعن إلى ملتنا وديننا الموروث عن الآباء.

وهذا تهديد منهم بأحد أمرين: إما النفي والطرد من القرية، وإما الإكراه والقهر على الرجوع في ملتهم. وهذا الخطاب مع الرسول شعيب، والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة.

قال شعيب مستفهماً استفهاماً إنكارياً ومتعجباً: أتفعلون ذلك وتأمروننا بالعود في ملتكم، ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه من أحد الأمرين؟.

إنكم تجهلون مانحن عليه من ثبات العقيدة في القلب، فلا ينزعها أحد، وتجهلون أن حب الوطن لا يزعزع العقيدة، ولا يجعلنا نؤثر الإقامة في بلادنا على مرضاة الله بتوحيده وعبادته واتباع أوامره.

ثم أعلن رفضه التام العودة إلى ملة الكفر قائلاً: إنا إذا رجعنا إلى ملتكم واتبعنا دينكم القائم على الشرك، فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً، بعد أن نجانا الله من تلك الملة الباطلة، وهدانا إلى ملة التوحيد واتباع الصراط المستقيم. إن هذا لأمر عجيب. وهذا تنفير من شعيب عن اتباعهم.

وقوله: ﴿إِذْ نَجَّىٰنَا﴾ أي نجى أصحابنا منها، من طريق التغليب بإدخال نفسه في زمرتهم، مع أن الأنبياء معصومون من الكفر.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أي ما ينبغي لنا وليس من شأننا أن نعود في ملتكم أبداً، ولن يحوِّلنا أحد عما نحن فيه من الاستقامة، لاعتقادنا الجازم أننا

على الحق الأبلج، وأنتم على الملة الباطلة - ملة الكفر والشرك. لكن إيماناً منا بمشيئة الله يجعلنا نفوض الأمر لله، فإن شاء الله الذي يعلم كل شيء، وله الحكمة البالغة في كل شيء، أن يفعل شيئاً، فذلك مرجعه إلى الله؛ لأنه المتصرف في أمورنا كلها. وهذا تأكيد لرفض العود إلى ملتهم بأبلغ التأكيد. ولا طمع لكم في مشيئة الله الذي يثبّت عباده المخلصين على الإيمان والقول الثابت في الحياة الدنيا أن يعيدنا إلى الضلال؛ لأن الله متعال عن أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم إلى الكفر، فذلك خارج عن الحكمة.

إن الله تعالى أحاط علمه بكل شيء، فهو واسع العلم، كثير الفضل، يتصرف بحكمة، ومشيئته تكون بحسب الحكمة، ولا يشاء إلا الخير للناس. ومعنى الآية: أنه عالم بكل شيء مما كان ومما يكون، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول، وقلوبهم كيف تتقلب، وكيف تقسو بعد الرقة، وتمرض بعد الصحة، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان.

وعلى الله توكلنا في أمورنا، مع القيام بما يجب علينا من الحفاظ على شرعه ودينه، وتوكلنا في أن يثبتنا على الإيمان، ويوفقنا لازدياد اليقين: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٣] ومن شروط التوكل الصحيح تنفيذ الأحكام الشرعية ومراعاة السنن المطلوبة في الحياة من اتخاذ الأسباب ثم تفويض الأمر إلى الله تعالى. سأل أعرابي النبي ﷺ أيعقل ناقته أم يتركها سائبة ويتوكل على الله؟ فأجابه فيما روى الترمذي: «اعقلها وتوكل».

وهذا رفض آخر للمساومة ومحاولة إعادتهم إلى ملتهم بالدليل.

ثم دعا شعيب على قومه لما يئس منهم فقال: ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق، وانصرنا عليهم، وأنت خير الفاتحين مثل قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٧] أي إنك العادل الذي لا يجور أبداً، تحكم بالحق في النزاع بين المرسلين والكافرين، وبين المحقين والمبطلين.

ثم بعد أن يئس الكفار من عودة المؤمنين برسالة شعيب إلى ملتهم، لجؤوا إلى استخدام التهديد والوعيد، فقال أشرافهم لمن دونهم من المستضعفين المؤمنين، لتثبيطهم عن الإيمان: تالله لئن اتبعتم شعيباً فيما يقول وآمنتم به إنكم لخاسرون خسارة معنوية في فعلكم بترككم ملة الآباء والأجداد العريقين إلى دين جديد يدعوكم إليه، لم تألفوه، ولم تعرفوا مصداقيته، وخاسرون خسارة مادية إذ لم تزيدوا ثروتكم بتطفيف الكيل والميزان وأخذ أموال الآخرين؛ وتخسرون باتباع شعيب فوائد البخس والتطفيف؛ لأنه ينهاكم عنهما، ويحملكم على الإيفاء والتسوية.

ويلاحظ أن القرآن وصف الأشراف والسادة أولاً بالاستكبار عن الإيمان بالله وبرسالة شعيب عليه السلام، ثم وصفهم بالإغواء والإضلال ومحاولة تكفير المؤمنين بشعيب، ثم وصفهم بالكفر والإرهاب ثم أعقب ذلك ببيان عاقبة أمرهم وتعذيبهم فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧/ ٩١] أي إنهم أبيدوا وأهلكوا بالزلزلة الشديدة، والصيحة المرعبة، كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالطرد والإجلاء، فأصبحوا منكبين على وجوههم ميتين. وقد عبر عن عذابهم هنا بالرجفة، وفي سورة هود بالصيحة كعذاب ثمود؛ لأن الرجفة أي الزلزلة لاتنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: ١١/ ٩٥].

وفي سورة الشعراء بيّن سبحانه أنه أرسل شعيباً إلى أصحاب الأيكة وهم إخوة مدين في النسب، والأيكة: الغيضة بين ساحل البحر ومدين، وكان عذاب مدين بالصيحة والرجفة المصاحبة لها. وعذاب أصحاب الأيكة بالسَّموم والحر الشديد بعد أن تجمعوا تحت ظُلَّة من السحاب يتفيئون بظلها من وهج الشمس، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا. فالظلة: هي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم. والخلاصة: لقد اجتمع على قوم شعيب

ذلك كله، أصابهم عذاب يوم الظلة، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت أرواحهم وجمدت أجسامهم(١).

فمن الخاسر إذن؟ الحقيقة أن الذين كذبوا شعيباً هم الخاسرون على سبيل الحصر، وهم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا، كأن لم يقيموا في دارهم، وهو رد على قولهم السابق: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ والمراد من هذا الرد: المبالغة في الذم والتوبيخ، وأما الإعادة فهي لتعظيم الأمر وتفخيمه وتهويل ما يستحقون من الجزاء على جهلهم، لذا كرر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبًا﴾.

الحق أن الكافرين هم الذين خسروا خسراناً عظيماً في الدنيا والآخرة، دون المؤمنين؛ لأن الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله، فهم الرابحون. كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾ [هود: ١١/ ٩٤].

وفي هذا دلالة واضحة على أن العاقبة للمتقين، والربح الحقيقي لمن يأكل الحلال، ويترفع عن الحرام، وأن الدمار والهلاك والإفلاس للكافرين الذين ينغمسون في الحرام، ويأكلون أموال الناس بالباطل.

وأما شعيب فقد أدبر عنهم وتولى عنهم بعدما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال، وقال موبخاً لهم ومقرعاً: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ﴾ أي قد أديت إليكم ما أرسلت به، فلا آسف عليكم، وقد كفرتم بما جئتكم به، كما قال: ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾؟! أي فكيف أحزن على قوم أنكروا وحدانية الله، وكذبوا رسوله، ولقد أعذر من أنذر. قال الكلبي: خرج من بين أظهرهم، ولم يُعذب قوم نبي حتى أخرج من بينهم.

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٣٢

فقه الحياة أو الأحكام:

كان من أثر دعوة شعيب خطيب الأنبياء قومه إلى عبادة الله وترك أكل أموال الناس بالباطل، أنهم واجهوه بالتخيير بين أمرين خطيرين: إما الطرد والجلاء، وإما الصيرورة إلى ملتهم، وهذا هو المقصود بقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ أي لتصيرن إلى ملتنا، فوقع العود بمعنى الابتداء، تقولُ العرب: قد عاد إلي من فلان مكروه، يريدون قد صار إلي منه المكروه، ولا يعني ذلك أن شعيباً كان قبل النبوة على ملتهم، فهو معصوم من الكفر، وكذلك كان خطاب شعيب من قبيل التغليب، فإنهم خاطبوه بخطاب أتباعه، وأجروا عليه أحكامهم.

والحزم يقابله الحزم والإصرار، فكان رد شعيب حاسماً وقاطعاً بأنه لن يفعل ما يريدون، ولن يعود أي يصير إلى ملتهم، فإنه إن فعل ذلك بعد أن تبين له الحق، فقد افترى على الله، وكذلك كان أتباعه صريحين صارمين، وجوابه جوابهم. وهذا نابع من أصل النبوة والرسالة، فإنها تتميز بصدق اللهجة، والبراءة عن الكذب، فالعود في ملتهم يبطل النبوة، ويزيل الرسالة.

وقد نظم شعيب نفسه مع قومه بقوله: ﴿إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ أي من الملة، وإن كان بريئاً منها، إجراءً للكلام على حكم التغليب، كما ذكروا في كلامهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

وتمسك الأشاعرة بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ على أنه تعالى قد يشاء الكفر؛ لأن المعنى: إلا أن يشاء الله أن يعيدنا إلى ملتكم، وكانت تلك الملة كفراً. وقال المعتزلة: لا يشاء تعالى إلا الخير والصلاح؛ لأن هذا الاستثناء وهو: إلا أن يشاء الله أن يعيدنا إلى ملتكم قضية شرطية، وليس فيها بيان أنه تعالى شاء ذلك أو ما شاء، وهذا أيضاً مذكور على سبيل التبعيد، كما يقال: لا أفعل ذلك إلا إذا ابيضَّ القار (الزفت) وشاب الغراب.

ووجه تعلق قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ بما قبله: أنه ربما كان في علمه تعالى حصول أمر ثالث غير الإخراج والعود إلى الملة، وهو البقاء في هذه القرية من غير أن نعود إلى ملتكم، ويجعلكم مقهورين تحت أمرنا، خاضعين تحت حكمنا.

ودل قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ على أنه تعالى كان عالماً في الأزل بجميع الأشياء؛ لأن قوله: ﴿وَسِعَ﴾ فعل ماض، فيتناول كل ماض، بل إنه يتناول علم الحاضر والمستقبل وعلم المعدوم؛ لأن التعبير بالماضي يفيد الجزم بحصول العلم بكل الأشياء.

ودل قوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ﴾ على أن النبيَّ وُكلَّ مؤمن ينبغي أن يظل على صلة بالله وتفويض كامل في أموره له، فقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ يفيد الحصر، أي عليه توكلنا لا على غيره، وقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ﴾ يراد به تفويض الحكم إلى الله والدعاء له واللجوء إليه، وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ يراد به الثناء على الله تعالى.

واستدل الأشاعرة بقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ على أنه تعالى هو الذي يخلق الإيمان في العبد.

ودلت آية ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ على أن قوم شعيب استحقوا عذاب الإهلاك أو الاستئصال بأمرين: الكفر أو الضلال، والإضلال لغيرهم أو الإغواء.

وتعذيبهم كان بالرجفة (وهي الزلزلة الشديدة المهلكة) وبالصيحة (وهي الصوت الشديد المهلك) معاً التي تلازم الرجفة ولا تنفك عنها. وذلك العذاب كان مختصاً بأولئك المكذبين، ونجّى الله المؤمنين، وذلك يدل على ثلاثة أمور: أن ذلك العذاب إنما حدث بخلق فاعل مختار، وليس أثر الكواكب والطبيعة، وإلا لعم أتباع شعيب، وذلك الفاعل المختار عالم بجميع

الجزئيات، حتى يمكنه التمييز بين المطيع والعاصي، واختصاص العذاب بقوم دون قوم من أعظم المعجزات لشعيب عليه السلام.

سنة الله في التضييق والتوسعة قبل إهلاك الأمم

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

القراءات:

﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾:

وقرأ نافع (من نبيء).

﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (بالباساء).

البلاغة:

﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ فيه حذف وإضمار، والتقدير: من نبي فكُذّب أو كذبه أهلها.

﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ و﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿قَرۡيَةٖ﴾ مدينة جامعة تجمع الزعماء كالعاصمة، وإنما ذكر القرية؛ لأنها مجتمع القوم الذين يبعث الرسل إليهم، ويدخل تحت هذا اللفظ المدينة؛ لأنها مجتمع الأقوام ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي فكذبوه ﴿أَخَذۡنَآ﴾ عاقبنا ﴿أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ البأساء: الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر، والضراء:

ما يضر الإنسان في نفسه أو معيشته كالمرض، وقيل: في كل بالعكس. ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ يتذللون فيؤمنوا. وقوله ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لا يمكن حمله على الشك في حق الله تعالى، فيحمل على أن المراد أنه تعالى فعل هذا الفعل لكي يتضرعوا. والتضرع: إظهار الضراعة أي الضعف والخضوع.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾ أعطيناهم ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾ العذاب ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾ الغنى والصحة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ كثروا ونموا، من قولهم: عفا النبات والشعر: إذا كثر ﴿وَّقَالُوا۟﴾ كفراً للنعمة ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ كما مسنا، وهذه عادة الدهر، وليست بعقوبة من الله، فكونوا على ما أنتم عليه ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أخذناهم بالعذاب فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه قبله.

المناسبة:

لما ذكر الله تعالى أحوال الأنبياء مع أقوامهم، وما حلَّ بهم من العذاب، بيَّن في هذه الآية أن جنس هذا الهلاك أو الاستئصال لم يقتصر على زمن هؤلاء الأنبياء فقط، وإنما قد فعله بغيرهم، وبيَّن أيضاً سنته الإلهية في الانتقام ممن كذَّب الأنبياء، وهي التدرج بهم من التضييق عليهم بالبأساء (شدة الفقر) والضراء (المرض ونحوه) ثم إلى السعة والرخاء والرفاه، ثم يأتي إنزال العذاب فجأة من غير شعور بمجيئه. وفي ذلك تحذير لقريش وأمثالهم وتخويفهم، وحمل لهم على الإيمان برسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن سنته المتبعة في تعذيب الأمم والشعوب الضالة، سواء في زمن الأنبياء أو في غير زمنهم، وتلك السنة فيها إنذار وإعذار، ومقدمات توحي بضرورة تغيير الأوضاع، والانتقال من الكفر والضلال إلى الإيمان والهدى.

والمعنى: إننا إذا أرسلنا نبياً إلى قوم، فكذبوه، فلا نعاجلهم بالعذاب، وإنما نتدرج في إمهالهم وتذكيرهم بتقليب الأحوال، فنبدؤهم بالعقاب بإنزال شيء من الشدة والمكروه، بتعريضهم لسوء الحال المادية وإفقارهم، ثم بتسليط الأمراض والبلايا والأسقام عليهم، أو بالعكس، المرض أولاً، ثم الفقر، لكي يتضرعوا أي يدعوا الله ويخشعوا ويبتهلوا إلى الله تعالى في كشف مانزل بهم.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾: ثم حولنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن فقر إلى غنى، ومن مرض إلى صحة وعافية، ليشكروا على ذلك فما فعلوا. فالسيئة: كل مايسوء صاحبه، والحسنة: مايستحسنه الطبع والعقل.

﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء: إذا كثر، وذلك لأن الرخاء يكون عادة سبباً في كثرة النسل.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ﴾ أي ابتليناهم بالشدة والرخاء ليتضرعوا وينيبوا إلى الله، فما أفاد هذا ولا هذا، وقالوا غير معتبرين بالأحداث: قد مسّنا من البأساء والضراء، وما بعده من الرخاء، مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان، ولم يتفهموا سنن الله في تهيئة الأسباب للسعادة والشقاء في البشر. وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء، كما ثبت في الصحيحين: «عجباً لأمر المؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضرَّاء صبر، فكان خيراً له، وإن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيراً له» فالمؤمن يتنبه لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار، لا يدري فيم ربطه أهله، ولا فيم أرسلوه».

وتغيير الحال من سوء إلى حسن أمر ضروري للتخلص من البلاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١].

أما مصير غير المعتبرين بأحداث الزمان وتقلباته فكما ذكر تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أي فكان عاقبة أمرهم أنا أخذناهم أي عاقبناهم بالعقوبة على بغتة، أي فجأة، من غير شعور منهم بما سينزل بهم من العقاب، ليكون أكثر حسرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٤] وكما جاء في الحديث الذي رواه أحمد والبيهقي عن عائشة: «موت الفجأة رحمة للمؤمن، وأخذة أسف للكافر».

فما على الناس مؤمنين وكفاراً إلا الاتعاظ بما حل بغيرهم، فالمؤمن بالله لا يغتر بالزمان، وتكون الشدائد والمصائب صقلاً له، وتمحيصاً لنفسه، وتربية لها، والكافر إذا مسه الشر يئس، وإذا مسَّه الخير بطر واستكبر وبغى في الأرض، فكانت عاقبته الدمار.

فقه الحياة أو الأحكام:

الحلم والإمهال من خصائص صنع الله وسنته الدائمة في خلقه، لكي يتعظوا بالأحداث ويصححوا مسيرتهم في الحياة، ويقلعوا عما هم عليه من معاص وموبقات. والابتلاء يكون بالشر وبالخير .﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٥] والعاقل المفكر المتدبر أحوال الماضي وتقلبات المستقبل هو الذي يستفيد من دروس الحياة: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٨].

ودل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ في رأي المعتزلة: على أنه تعالى أراد من كل المكلفين الإيمان والطاعة. وقال أهل السنة: إن الله يدبر أهل القرى بما يكون إلى الإيمان أقرب، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ لأن ورود النعمة في البدن والمال بعد البأساء والضراء، يدعو إلى الانقياد والاشتغال بالشكر.

ولكن الناس لا يعتبرون، فبالرغم من أنه تعالى أخذهم بالشدة والرخاء، فلم يزدجروا ولم يشكروا، وهذا يدل على أنهم لم ينتفعوا بما دبرهم الله عليه من رخاء بعد شدة، وأمن بعد خوف، بل رأوا أن هذه عادة الزمان في أهله، فمرة يحصل فيهم الشدة والنكد، ومرة يحصل لهم الرخاء والراحة.

أما الحق تعالى فقد أزال عذرهم وأمهلهم، لكنهم لم ينقادوا ولم ينتفعوا بذلك الإمهال.

الترغيب بالإيمان لزيادة الخير والترهيب من الكفر بالعذاب المبكّر

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ
وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم
بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ
يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ
(٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾

القراءات:

﴿لَفَتَحْنَا﴾:

وقرأ ابن عامر (لفتَّحنا).

﴿بَأْسُنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً: (باسنا).

﴿أَوَ أَمِنَ﴾: قرئ:

١- (أوْ أَمِن) وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وابن عامر.

٢- (أوَ أَمِن) وهي قراءة الباقين.

﴿نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾:

بإبدال الهمزة الثانية واواً خالصة قرأ: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.

وقرأ الباقون بتحقيقها.

الإعراب:

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ بفتح الواو، تكون الهمزة للاستفهام، والواو حرف عطف. وبإسكان الواو: تكون ﴿أَوَ﴾ التي يراد بها أحد الشيئين، والمعنى: أو كان الأمر من أحد هذين الشيئين من إتيان العذاب ليلاً أو ضحى. ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾ أن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي أنه، والجملة فاعل ﴿يَهْدِ﴾. والهمزة في المواضع الأربعة في الآيات للتوبيخ، والفاء والواو الداخلة عليها للعطف.

البلاغة:

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ تكرار الجملة للإنذار، ويسمى هذا في البلاغة إطناباً.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ هذا تكرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ وتكرار الإنكار للتأكيد وزيادة التقرير، ومكر الله: استعارة لاستدراج العبد والتمهيد لعقابه. قال الزمخشري في الكشاف: ٢/ ٥٦٣، مكر الله: استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر ولاستدراجه، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوّه الكمين والبَيَات والغِيْلَة.

المفردات اللغوية:

﴿أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الذين أرسل إليهم الرسل فكذبوا ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسلهم ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ الكفر والمعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ لسهلنا عليهم ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ونحوه من حرارة الشمس لتوفير الخصب في الأرض ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالنبات والمعادن ونحوها ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ الرسل ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ عاقبناهم.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ المكذبون ﴿بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ ليلاً ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ غافلون عنه ﴿ضُحًى﴾ نهاراً، وأصل معنى الضحى: وقت ارتفاع الشمس وإضاءة الدنيا أول النهار ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يلهون ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ استدراجه إياهم بالنعمة وأخذهم بغتة. والمكر: التدبير الخفي الذي يؤدي إلى مالا يحتسبه الإنسان.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يتبين، يقال: هداه السبيل، وهداه له وإليه، أي دلّه عليه وبيَّنه له ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ بالسكنى ﴿مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ أي بعد هلاك أهلها ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ بالعذاب ﴿وَنَطْبَعُ﴾ نختم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الموعظة سماع تدبر.

المناسبة:

لما أبان الله تعالى في الآية السابقة أن الذين عصوا وتمردوا من أهل القرى أخذهم الله بغتة، أبان في هذه الآية أنهم لو أطاعوا لفتح الله عليهم أبواب الخير، ثم أنذرهم بالعذاب المبكِّر ليلاً أو نهاراً، إذا كذبوا الرسل، تأكيداً لما سبق.

التفسير والبيان:

هذا إخبار عن سنة أخرى من سنن الله في عباده، وتلك السنة أنه لو آمن

أهل القرى كأهل مكة وغيرهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واتقوا ما نهى الله عنه وحرمه من الشرك والفساد في الأرض بارتكاب الفواحش والآثام، لأنزل عليهم الخيرات الكثيرة من السماء كالمطر، وأخرج لهم خير الأرض من نبات ومعادن وكنوز، وآتاهم من العلوم والمعارف والإلهامات الربّانية لفهم سنن الكون.

أي فلو آمنوا ليسّر الله لهم كل خير من كل جانب من فوقهم ومن تحتهم ومن ذواتهم وأفكارهم.

وفي هذا دلالة على أن الإيمان الصحيح سبب للسعادة والرخاء.

ولكنهم كذبوا رسلهم ولم يؤمنوا ولم يتقوا، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم والشرك المفسد نظام الحياة.

وفيه دلالة على أن العقاب نتيجة لازمة لكسب المعاصي.

ثم إنه تعالى أعاد التهديد والتخويف بعذاب الاستئصال، والتحذير من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجره فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار عليهم، والمقصود التعجب من حالهم وغفلتهم، والمراد: أبعد ذلك أمن أهل القرى الكافرة كأهل مكة وأمثالهم نزول العذاب والنكال بهم في حال الغفلة وهو النوم ليلاً.

أو هل أمنوا أن ينزل بهم العذاب في حال شغلهم وغفلتهم وهو أثناء اللعب واللهو في النهار. ويلاحظ أن انشغالهم في أعمالهم التي لا فائدة منها كأنها ألعاب أطفال.

وذلك في الحالين تخويف من نزول العذاب بهم في أوقات الغفلة: وهو حال النوم بالليل، وحال الضحى بالنهار؛ لأنه يغلب على المرء التشاغل باللذات فيه. والمعنى المراد: فإن أمنتم حالاً لم تأمنوا الحال الآخر.

قال الرازي: قوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يحتمل التشاغل بأمور الدنيا، فهي لعب ولهو، ويحتمل خوضهم في كفرهم؛ لأن ذلك كاللعب في أنه لا يضر ولا ينفع[١].

ثم كرر الله تعالى الاستفهام الإنكاري لزيادة التوبيخ، بعد قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ﴾ وعطف عليه بالفاء، فقال: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم. ومكر الله: جزاؤه وأخذه العبد من حيث لا يشعر، مع استدراجه. إن كانوا أمنوا مكر الله وعقابه، فلا يأمن مكر الله إلا الذين خسروا أنفسهم، قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وَجِل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

ومجموع معنى الآيتين: أكان سبب أمنهم أن يأتيهم العذاب في وقت غفلتهم ليلاً أو نهاراً، أو كان سبب أمنهم غفلتهم عن مكر الله بهم، أي جزاؤه الذي ينزله بهم؟ إن ظنوا ذلك فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون أنفسهم.

وبعد بيان حال الكفار الذين أهلكهم الله بالاستئصال، أبان تعالى أن الهدف من ذكر هذه القصص حصول العبرة لجميع المكلفين في مصالح أديانهم وطاعاتهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾.

أي أولم يتبين للناس، وخصوصاً قريشاً الذين يُخلفون غيرهم في سكنى الأرض ووراثتها مع الديار، بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها: أن شأننا معهم كشأننا مع من سبقهم، فلو نشاء أصبناهم وعذبناهم بذنوبهم وأعمالهم السيئة، كما عذبنا أمثالهم من قبل، وفعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين.

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ١٤/ ١٨٥

فإن لم نهلكهم بالعذاب نختم على قلوبهم، فهم لا يسمعون الموعظة والتذكير سماع تدبر، ولا يقبلون ولا يتعظون ولا ينزجرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠/١٠١] وأما المؤمنون فشأنهم الاتعاظ والاعتبار بما حدث لمن قبلهم، كما قال تعالى في آيات كثيرة موضوعها واحد، منها: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَـٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه: ٢٠/١٢٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات ترغيباً للمؤمنين وترهيباً للكافرين. أما ترغيب المؤمنين فهو إفاضته الخيرات والبركات الإلهية من السماء بالمطر والرياح المباركة، ومن الأرض بالنبات والثمار، والمعادن والكنوز، وكثرة المواشي والأنعام، وحصول الأمن والسلامة، وإلهام الإنسان رشده وفكره إلى اكتشاف وسائل الراحة والرخاء.

وأما ترهيب الكافرين فهو إنذارهم بتعذيبهم عذاب استئصال ودمار، كعذاب الأمم الأخرى وأهل القرى والمدن الذين أرسل إليهم الرسل، فكذبوهم وآذوهم.

وحذرهم تعالى بألا يغتروا بحلم الله وإمهاله وتأجيله العقاب، فربما يأتي العقاب في حال الغفلة ليلاً أو نهاراً، ومن اغتر بحلم الله وأمن مكره، أي جزاءه، فلا يأمن الجزاء إلا الخاسرون.

أولم يتبين لهم أن سنة الله واحدة في تعذيب الكافرين؟ وسنة الله لا تتغير، إنه يعذب العصاة والمتمردين بسبب ذنوبهم وسيئاتهم، كما عذب الذين من قبلهم الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، وإن لم نهلكهم بالعقاب نطبع على قلوبهم، فهم لا يسمعون الموعظة سماع فهم وتدبر.

واستدل أهل السنة بقوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ على أنه تعالى قد يمنع العبد عن الإيمان، أي بعد أن علم عدم إيمان ذلك العبد. وقال الجبائي المعتزلي: المراد من هذا الطبع أنه تعالى يَسِمُ قلوب الكفار بسمات وعلامات تعرف الملائكة بها أن أصحابها لا يؤمنون، وتلك العلامة غير مانعة من الإيمان.

العبرة من قصص أهل القرى

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

القراءات:

﴿رُسُلُهُم﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلهم).

الإعراب:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ﴾ تلك: مبتدأ، القرى: بدل أو عطف بيان، والمعنى أنها صفة، و﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ خبر المبتدأ ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ معنى اللام تأكيد النفي، وأن الإيمان كان منافياً لحالهم في التصميم على الكفر.

﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ الباء سببية ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ الضمير للناس على الإطلاق، أي ما وجدنا لأكثر الناس من عهد.

﴿وَإِن وَجَدْنَآ﴾ إن مخففة من الثقيلة. قال الزمخشري: وإن الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة مارقين. والآية اعتراض.

المفردات اللغوية:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ هي قرى الأقوام الخمسة التي وصفت سابقاً، وهم قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ نذكر لك شيئاً من أخبارها كيف أهلكت. والخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام. وقوله: ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أي بعض أخبار أهلها ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الظاهرات .﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ عند مجيئهم ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟﴾ كفروا به ﴿مِن قَبْلُ﴾ قبل مجيئهم، بل استمروا على الكفر ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ﴾ أي مثل ذلك الذي طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية، يطبع على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم ألا يؤمنوا.

﴿لِأَكْثَرِهِم﴾ أكثر الناس ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي وفاء بعهدهم يوم أخذ الميثاق، أي أن أكثرهم نقض عهد الله وميثاقه في الإيمان والتقوى.

والعهد: قد يكون بين طرفين كالمعاهدة، أو من طرف واحد بأن يعهد لآخر بشيء، أو يُلزم به. والميثاق: العهد المؤكد.

﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ لخارجين عن الطاعة وعن كل عهد، إما فطري أو شرعي، بنقضه ونكثه والغدر بأحكامه .﴿وَمَا وَجَدْنَا﴾ أي ألفينا ﴿وَإِن وَجَدْنَآ﴾ علمنا.

المناسبة:

بعد أن قص الله تعالى على نبيه أخبار قرى الأقوام الخمسة (قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب) وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وإعذاره إليهم ببيان الحق بالأدلة على ألسنة رسلهم، أراد الله تسلية نبيه، وتثبيته على الصبر على دعوته، وتذكيره بالعبرة من قصص الماضين، وأن ما يلاقيه من قومه ليس جديداً، وإنما هو طريق قديم سلكه كثير من أقوام الأنبياء.

التفسير والبيان:

تلك القرى: قرى الأقوام الخمسة الذين وصفوا بما سبق نقص عليك يا محمد بعض أخبارها كيف أهلكت، مما فيه العبرة والعظة لقومك، والتسلية لك والتثبيت على دعوتك. وإنما خص الله أنباء هذه القرى؛ لأنهم اغتروا بطول الإمهال مع كثرة النعم، فتوهموا أنهم على الحق، وذكرها الله تنبيهاً لقريش وأمثالهم عن الاحتراز من مثل تلك الأعمال.

ثم إن هذه القرى كانت في بلاد العرب، وكان أهل مكة يتناقلون بعض أخبارها، وهي جميعاً متشابهة في تكذيب الرسل، وعذاب الاستئصال، فكانت العبرة منها واحدة، لذا فصلت عن قصة موسى الآتية؛ لأن قومه آمنوا به، وإنما كذب به فرعون وجماعته فعذِّبوا.

وسبب عقاب تلك الأقوام هو تكذيب الرسل، فبالرغم من أنهم أقاموا لهم الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق من قبل مجيء الرسل وأول ما ورد عليهم، أي في بدء الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله، ومن قبل مجيء المعجزات، فظلوا على حالهم، ولم تؤثر فيهم الآيات الدالة على صدق الرسل، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، أي استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم، إلى أن ماتوا مصرّين على كفرهم وعنادهم، مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات.

ومثل ذلك الذي طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية، يطبع على قلوب الكافرين الذين كتب الله عليهم ألا يؤمنوا أبداً. وبإيجاز: مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين.

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ وتثبيت له على دعوته، وإخباره بأن هذا العناد والتمرد من أهل مكة قد سبقهم إليه أمثالهم من الأمم الغابرة، فلا تأس ولا تحزن على كفرهم.

وما وجدنا لأكثر الأمم الماضية عهداً وفوا به، سواء عهد فطرة الذي عاهدهم الله وهم في صلب آدم، أو عهد شرع بالإيمان وأداء التكاليف، أو عهد عرف متعارف عليه بأداء الالتزامات واحترام العقود التي يبرمونها فيما بينهم. ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. وفي التعبير بالأكثر إشارة إلى أن بعضهم قد آمن، ونفذ كل عهد مع الله أو مع الناس. وهذا من دقة القرآن ومصداقيته.

ومخالفة عهد الفطرة السليمة القائم على الإقرار بتوحيد الله وأنه لا إله إلا هو، وعبادةُ غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع، كان كلاهما بتأثير البيئة، جاء في صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» وفي الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه» الحديث.

وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن مخالفة الفطرة السليمة وعن الشرك، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ١٦/ ٣٦].

فقه الحياة أو الأحكام:

الكفر عناد وتصميم بالرغم من معرفة الحق والاقتناع بالبرهان. ولقد كان إيراد قصص القرى التي أهلكها الله، وهي قرى نوح وعاد ولوط وهود وشعيب للعبرة والاتعاظ، وما كان أهل تلك القرى ليؤمنوا الآن حقيقة بسبب تكذيبهم السابق قبل مجيء الرسل، وظلوا إلى آخر أعمارهم مستمرين على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم، إلى أن ماتوا مصرّين على كفرهم وعنادهم.

والختم والطبع على قلوب الكفار القدامى والمعاصرين للنبي ﷺ ومن يأتي بعدهم إنما هو بسبب كفرهم وإصرارهم على موقفهم.

وهناك حقيقة أخبرت عنها الآية وهي أن أكثر الناس لا أمانة لهم ولا وفاء لديهم لعهد الله وميثاقه، وعهود الناس ووعودهم، وأن أكثرهم في الواقع فاسقون مارقون خارجون عن حدود الطاعة المطلوبة منهم نحو ربهم.

قصة موسى عليه السلام مع فرعون والملأ من قومه

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ
بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ
أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا
لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟
يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟
سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

القراءات:

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن﴾:

وقرأ نافع (حقيق عليَّ).

﴿جِئْتُكُم﴾ ..﴿جِئْتَ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً: (جيتكم.. جيت).

﴿مَعِىَ﴾: قرئ:

١- (معيَ) وهي قراءة حفص.

٢- (معيْ) وهي قراءة الباقين.

﴿أَرْجِهْ﴾: قرئ:

١- (أرجهِ) بالاختلاس، وهي قراءة قالون.

٢- (أرجهِ) بترك الهمز، وبكسر الهاء مع صلتها، وهي قراءة ورش، والكسائي.

٣- (أرجِئْهُ) بإشباع الضم، وهي قراءة ابن كثير.

٤- (ارجئْهُ) بالاختلاس، وهي قراءة أبي عمرو.

٥- (أرجئْهِ) وهي قراءة ابن ذكوان بالاختلاس.

٦- (أرجهْ) وقرأ الباقون، بترك الهمز وبإسكان الهاء.

﴿سَٰحِرٍ﴾:

وقرأ حمزة والكسائي (سَحَّار).

﴿إِنَّ لَنَا﴾: قرئ:

١- (إنَّ لنا) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وحفص.

٢- (أئنَّ لنا) وهي قراءة الباقين.

﴿نَعَمْ﴾:

وقرأ الكسائي: (نَعِم).

الإعراب:

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ أن في موضع جر بعلى بمعنى الباء، وتقديره: حقيق بأن لا أقول. وقرئ بتشديد الياء في: على، فيكون: ألا أقول: في موضع رفع بالابتداء، وما قبله خبره ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ معطوف على محذوف، سد مسده حرف الإيجاب: نعم، كأنه قال: نعم إن لكم لأجراً، وإنكم لمن المقربين.

﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: إذا للمفاجأة: مبتدأ، وثعبان: خبره.

﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ﴾: ﴿أَن﴾ فيهما: في موضع نصب بفعل مقدر، على تقدير: إما أن تفعل الإلقاء، وإما أن نفعل الإلقاء.

البلاغة:

﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ فيه تأكيد الجملة بمؤكدين: إن واللام، لإزالة الشك من نفوس السحرة، ويسمى هذا الخبر إنكارياً.

المفردات اللغوية:

﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي من بعد الرسل المذكورين ﴿مُّوسَىٰ﴾ هو كليم الله موسى ابن عِمْران أعظم أنبياء بني إسرائيل ﴿فِرْعَوْنَ﴾ لقب كل ملك لمصر في العهد القديم، وقيل: كان اسمه منبتاح بن رمسيس، سنة ١٢٢٥ ق. م من الأسرة ١٩، مثل لقب كسرى لملك الفرس، وقيصر لملك الروم ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ الآيات هنا: المعجزات الدالة على صدق النبي مثل العصا واليد .﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أشراف قومه، والمراد هنا قومه ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ كفروا وجحدوا بها ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بالكفر وتلك العاقبة هي إهلاكهم ﴿حَقِيقٌ﴾ جدير أو خليق به ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ أي بأن لا أقول ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ حية عظيمة.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أخرجها من جيبه ﴿بَيْضَآءُ﴾ ذات شعاع ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ خلاف ما كانت عليه من الجلد الهامد ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في علم السحر. وفي سورة الشعراء: كان هذا من قول فرعون نفسه، فكأنهم قالوه معه على سبيل التشاور. ﴿تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون علي ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أَخِّرْ أمرهما ولا تفصل في شأنهما الآن ﴿ٱلْمَدَآئِنِ﴾ أي مدن المملكة ﴿حَٰشِرِينَ﴾ جامعين السحرة منها. ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي ماهر بفنون السحر، يفضل موسى في علم السحر، فجمعوا. ﴿تُلْقِىَ﴾ عصاك ﴿نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ ما معنا.

﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ أمر بالإذن بتقديم إلقائهم توصلاً به إلى إظهار الحق ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ حبالهم وعصيهم ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ صرفوها عن حقيقة إدراكها ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ خوفوهم حيث تخيلوها حيات تسعى.

المناسبة

هذه هي القصة السادسة من قصص الأنبياء التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة، وفيها من الإيضاح والبيان مالم يذكر في غيرها من القصص؛ لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات الأنبياء السابقين، وجهل قوم فرعون الذين أرسل إليهم كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام، كما أن موسى أرسل أيضاً لغير قومه، أما الأنبياء السابقون فإنهم أرسلوا لأقوامهم.

أضواء من التاريخ:

ذكر اسم موسى في القرآن أكثر من مئة وثلاثين مرة، وله قصص كثيرة مثيرة وعجيبة منذ بداية ولادته حينما كان جماعة فرعون يقتلون أولاد بني إسرائيل ويبقون نساءهم أحياء، فألقته أمه في النيل في صندوق، ثم رده الله إليها لإرضاعه، فهذه قصته مع أمه وأخته في سورتي القصص وطه، ثم قصة خروجه من مصر إلى أرض مدين وهو شاب، بسبب قتله مصرياً إغاثة

لعبراني، وقصته مذكورة في سورة القصص (١٥ - ٢١) وفي سورة طه (الآية ٤٠) ثم سقايته الماشية لابنتي شعيب (القصص ٢٢ - ٢٥) ثم مصاهرته لشعيب عليه السلام (القصص ٢٦ - ٣٨، وطه ٤١) ثم رعيه ماشية شعيب مهراً لابنته عشر سنين بالوادي المقدس: طوى.

ثم بعثته عليه السلام بينما ذهب لإتيان أهله بنار للاستدفاء وذلك في سورة الإسراء (٢ - ٣) وسورة طه (٩ - ٦ و١٧ - ٣٦، و٤٢ - ٤٧) وسورة القصص (٤٥ - ٤٦ و٢٩ - ٣٥) وسورة الفرقان (٣٥ - ٣٦) وسورة الشعراء (١٢ - ١٦) وسورة النمل (٧ - ١٢) وسورة السجدة (٢٣ - ٢٥) وسورة النازعات (١٥ - ١٩).

ثم عودته إلى مصر مع أخيه هارون ودعوته فرعون إلى الإيمان برسالته، وذلك في سورة الأعراف (١٠٤ - ١٠٥) وسورة الشعراء (١٧، ٢٢).

ثم محاورته فرعون في ربوبية الله وإظهاره الآيات البينات الدالة على صدق نبوته في سورة طه (٥٥) وسورة الشعراء (٢٤ - ٢٨) وموقف فرعون الطاغية بتجاهل ألوهية الله وادعائه الألوهية، وأمره ببناء صرح يصعد به إلى السماء في سورة القصص (٣٨) وسورة غافر (٣٦ - ٣٧) التي قال الله فيها: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾.

وإظهاره معجزتي العصا واليد أمام فرعون في سورة الأعراف (١٠٦ - ١٢٦) وسورة يونس (٧٥ - ٨٩) وسورة طه (٥٧ - ٧٦) وسورة الشعراء (٢٩ - ٥٢).

ووصف الله رد فعل فرعون وقومه وتماديهم في الضلال وإصرارهم على الكفر في سورة الأعراف (١٠٧ - ١٢٩) وغافر (٢٣ - ٢٧) وائتمار آل فرعون بموسى لقتله ودفاع مؤمن عنه في سورة غافر (٢٨ - ٣٥، و٣٨ - ٤٦)

واستخفاف فرعون بموسى في سورة الزخرف (٥١ - ٥٤) والنازعات (٢٢ - ٢٦).

وكانت آيات العذاب التسع لفرعون وقومه لما كذبوا موسى هي العقاب الفاصل، وتلك الآيات: الجدب (السنون)، ونقص الأموال، ونقص الأنفس، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم.

أما العصا واليد وفلق البحر وانبجاس الماء لبني إسرائيل فكانت معجزات لموسى عليه السلام.

أما الآيات التسع فهي مذكورة في سورة الأعراف (١٣٠ - ١٣٥) وسورة الإسراء (١٠١ - ١٠٢) وسورة طه (٥٩) وسورة النمل (١٣ - ١٤) وسورة القصص (٣٦ - ٣٧) وسورة الزخرف (٤٦ - ٥٠) وسورة القمر (٤١ - ٤٢) وسورة النازعات (٢٠ - ٢١).

وإغراق فرعون وملئه في البحر الأحمر مذكور في سورة الأعراف (١٣٦ - ١٣٧) وسورة يونس (٩٠ - ٩٢) وسورة الإسراء (١٠٣ - ١٠٤) وسورة طه (٧٧ - ٧٩) وسورة الشعراء (٥٢ - ٦٨) وسورة القصص (٣٩ - ٤٠) وسورة الزخرف (٥٥ - ٥٦) وسورة الدخان (١٧ - ٣١) وسورة الذاريات (٣٨ - ٤٠).

وأما عقاب فرعون وقومه في الآخرة ففيه عبرة لكل من ادعى الألوهية وتغطرس واستكبر عن قبول دعوة الأنبياء، وهو مذكور في سورة هود (٩٦ - ٩٩) وسورة القصص (٤١ - ٤٢) وسورة غافر (٤٥ - ٥٢) وسورة الدخان (٤٣ - ٥٠).

وقد قلَّد بنو إسرائيل في عهد موسى وثنية المصريين، ولم يؤمن بموسى إلا

ذرية من قومه على حال رهبة من فرعون أن يفتنهم عن دينهم ويردهم إلى الوثنية، كما قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ وطلبوا من موسى حينما رأوا عباد الأصنام أن يتخذ لهم إلهاً كما لهؤلاء القوم آلهة، وكذلك طلبوا الاستبدال بالمن والسلوى الحبوب والبصل والثوم والبقول، وذلك مذكور في سورة البقرة: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ (٦١) وفي سورة الأعراف: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ (١٣٨ - ١٤٠) وضرب الحجر وانفجار العيون الاثنتي عشرة في سورة الأعراف (١٥٩ - ١٦٠) وإنزال المن والسلوى في سورة طه (٨٠ - ٨٢).

ثم ذهب موسى تاركاً بني إسرائيل لميقات ربه، وكتب له الألواح المتضمنة الوصايا التي طلب إلى بني إسرائيل العمل بها، وذلك مذكور في سورة الأعراف: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ (١٤٢ - ١٤٧).

وفي أثناء غيبة موسى في جبل الطوراتخذ السامري عجلاً إلهاً لبني إسرائيل يعبدونه، صنعه من ذهب بعد أن جمعه من حلي النساء، وجعله بفعل تأثير الرياح والرمال أوأثر قدم فرس جبريل ذا خوارأي كصوت الثور، وقال لهم: هذا إلهكم وإلهُ موسى. ولم يفلح هارون في ردهم عن عبادة العجل: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٩١]. وبعد عودة موسى غضب على أخيه هارون وأخذ بلحيته ورأسه يجره إليه، وكان فيه حدة، فاعتذر إليه هارون بأنه بذل أقصى جهده. ثم عاتب موسى النبي، موسى السامري فقال السامري: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٢٠/ ٩٦] فعاقبه موسى بالطرد والتشرد وأن يقول في حياته: ﴿لَا مِسَاسَ﴾. وقصة عبادة العجل مذكورة في سورة البقرة (٥٤، و٩٢ - ٩٣) وسورة الأعراف (١٤٨ - ١٥٤) وسورة طه (٨٤ - ٩٨).

ثم أمر الله على لسان موسى بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة وهي فلسطين أرض الموعد، فتمردوا، فحرمت عليهم، وتاهوا في الأرض أربعين سنة يعيشون في البرية، من عهد خروجهم من مصر، إلى أن مات موسى، وعبروا نهر الأردن، وملكوا أريحاء وما حولها غرب الأردن أربعين سنة. وتلك القصة مذكورة في سورة المائدة (٢٠-٢٦).

وفي صحراء التيه ذكر الله تعالى في سورتي البقرة والأعراف أنه رفع جبل الطور فوق بني إسرائيل حتى صار كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع عليهم أو أيقنوا ذلك، وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم من الأحكام بقوة بأن يفعلوها دون تذمر أو توقف. وقصة نتق الجبل مذكورة في سورة البقرة (٦٣-٦٤) وسورة الأعراف (١٧١).

وبالرغم من أعجوبة قصة البقرة (البقرة ٦٧-٧٤) التي ذكرناها في الجزء الأول، فإن بني إسرائيل لم يتعظوا بها، وبقيت قلوبهم على قساوتها كأنها الحجارة أو أشد قسوة، ولم تفلح مواعظ موسى فيهم.

ولموسى عليه السلام موقف متشدد مع قارون الثري الطاغية، وقد ذكرت قصته في سورة القصص (٧٦ - ٨٣) كما ذكر ما آل إليه أمر طغيانه بخسف الأرض به وبداره، وإبادة أعداء موسى المقدر عددهم مئتين وخمسين.

ويلاحظ أن موسى أوذي من بني إسرائيل وأظهر الله براءته من عيب اتهموه به وهو الأُدْرَة (ورم في الخصية) أو البرص، وذلك في سورة الأحزاب (٦٩) وسورة الصف (٥).

ولما رأى بنو إسرائيل اقترافهم الإثم الكبير بعبادة العجل، اختار موسى من القوم سبعين رجلاً يذهبون معه إلى الجبل الذي اعتاد مناجاة الله فيه وهو جبل الطور، ليقدموا الطاعة لله ويندموا على ما اقترفوا من إثم، ويتوبوا من عبادة العجل، فلما كلم الله تعالى موسى وهم شهود يسمعون كلام الله، عاد جماعة

منهم إلى التمرد والعصيان، ولم يؤمنوا أن الله تعالى هو الذي يكلم موسى وأنه أعطاه التوراة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظر بعضهم إلى بعض، ثم بعثهم الله من بعد موتهم، بعد تضرع موسى وتذلله، وطلبه العفو عما صدر من سفهائهم، والقصة مذكورة في سورتي البقرة (٥٥-٥٦) والأعراف (١٥٥-١٥٧).

ولموسى قصة طريفة مع العبد الصالح الخضر، مذكورة في سورة الكهف (٦٠ - ٨٢).

وتكرر في القرآن تذكير الله تعالى بني إسرائيل بنعمه عليهم مثل آيات سورة البقرة (٤٧- ٥٧، و٦٠ - ٦١) وفي سورة الأعراف (١٤١) وسورة إبراهيم (٦ - ٨).

وقد مات هارون أولاً في جبل «هور» ودفنه موسى، ثم مات موسى في جبل «نبو» ودفن على الكثيب الأحمر.

وبعد وفاة موسى قام بأمر بني إسرائيل يوشع بن نون من سبط يوسف، وبعد خروجهم من التيه، أمرهم الله أن يدخلوا مدينة بفلسطين هي بيت المقدس «أورشليم» أو أريحا، وذلك بأن يدخلوا باب المدينة سجَّداً، أي خاشعين متذللين، وأن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾ فخالفوا ودخلوا على هيئة غير التي أمروا بها، فغضب الله عليهم وأنزل عليهم العذاب، والقصة مذكورة في سورة البقرة (٥٨-٥٩) وسورة الأعراف (١٦١ - ١٦٢).

وأثنى الله على موسى وهارون في سورة مريم (٥١ - ٥٣) وسورة الصافات (١١٤ - ١٢٢) وسورة غافر (٥٣ - ٥٤).

ما يستفاد من قصة موسى عليه السلام:

شريعة موسى في أصلها الموحى به كشريعة الإسلام في الجملة، وأمته ذات

تاريخ مليء بالاضطرابات والقلاقل والأحداث العنيفة، وكانت ذات سلطة أحياناً، وساهمت بشيء من المدنيَّة. وكان لقصة موسى مع بني إسرائيل عبر وعظات هي:

١ - أنقذ الله موسى من القتل وهو طفل رضيع، وألقته أمه في النيل، ثم ردّه الله إليها لإرضاعه، وتلك عصمة الله ورعايته له ورحمته بأمه.

٢ - تربَّى موسى في قصور فرعون وكان مؤمناً ونبياً من أولي العزم، وموسى السامري الذي ربَّاه جبريل كافر شقي ابتدع عبادة العجل.

٣ - هجرة موسى أو خروجه من أرض مصر بنصيحة رجل من أقصى المدينة بالابتعاد عن مصر، كانت خيراً كلها، فإنه صاهر شعيباً عليه السلام، وأوحى الله إليه بالنبوة، وكانت نصيحة الرجل له من تيسير الله له وفضله عليه؛ لأنها كانت سبباً في نجاته وبعثته. وهكذا فإن من توكل على الله صانه وحماه.

٤ - لا أثر لقوة البشر وتآمرهم على الإنسان إذا لازمته العناية الإلهية، فإن بأس فرعون وملأه لم يلحق ضرراً بموسى. وانظر إلى هذه المحاورة الحادة، إذ قال له فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ [الإسراء: ١٧/١٠١] فأجابه موسى بعد تلطف كثير وصبر على الجدال بالباطل: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/١٠٢].

٥ - الفرج الإلهي يأتي بعد الشدة، ونصرة الحق تأتي عند اشتداد الأزمة، فقد دافع رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه عن موسى، وحذر فرعون وآله بطش الله، غير خائف ولا مبال به وبسلطته، ضارباً الأمثال بالأمم الخالية، كما جاء في قوله تعالى في سورة غافر: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [٢٨ - ٣٥].

٦ - إذا فاضت مشاعر الإيمان في النفس، هانت أمامها كل الصعاب، فإن السحرة آمنوا برب موسى، غير مبالين بفرعون وسطوته.

٧ - الصبر مفتاح الفرج وحميد العاقبة، فإن بني إسرائيل صبروا على أذى فرعون بتقتيل الأبناء واستحياء النساء ثم أعقبهم الله الحسنى بما صبروا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ۖ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٧].

وتعرضوا لهجوم الرومان بقيادة «طيطس» الروماني، فخربوا بيتهم المقدس وهيكلهم الضخم، بعد سنة ٧١ م فتركوا فلسطين ثم عادوا إليها بعد وفاة موسى وأسسوا مملكة أريحا، واحتلوا جهات من الحجاز، كتيماء ووادي القرى وفدك وخيبر ويثرب، وبنوا فيها المصانع والحصون، انتظاراً لظهور النبي الذي وعدوا به من العرب الإسماعيليين في يثرب، وأملاً في مؤازرتهم ومناصرتهم، فأقاموا على الطريق بين يثرب وفلسطين.

٨ - حلم موسى على قومه بني إسرائيل، فبالرغم من غضب الله عليهم بسبب عبادة العجل، وطلب شيوخهم الذين جاؤوا للتوبة رؤية الله تعالى جهلاً وتعنتاً، فإن موسى تضرع إلى ربه طالباً العفو عن زلات سفهائهم، وقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٥].

التفسير والبيان:

يذكر الله تعالى أنه بعث بعد الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، موسى، بالآيات أي الحجج والدلائل البينة والمعجزات الدالة على صدقه ورسالته، إلى فرعون: وهو ملك مصر في زمن موسى، وملئه أي قومه، فجحدوا وكفروا بها، ظلماً منهم وعناداً، فانظر أيها

الرسول (أي محمد) كيف كان مصير المفسدين في الأرض بالظلم واستعباد البشر، وهم فرعون وملؤه الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي انظر يامحمد كيف فعلنا بهم، وأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله: موسى وقومه المؤمنين به. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ١٤].

وقال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِۦ﴾ ولم يقل: وقومه؛ لأن الذين استعبدهم فرعون وعاضدوه هم أتباع الحكم والسلطان، وليس سائر الشعب المصري، وإنما كان الشعب تبعاً للحكام، فلو آمن فرعون لتبعه الشعب كله.

وقوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيه تشويق واجتذاب الأنظار إلى ما سيذكره تعالى من المصير المشؤوم لفرعون وملئه، ونجاة موسى وبني إسرائيل.

ثم بدأ الله تعالى بعد هذا التشويق ببيان فصول القصة، وأول فصل منها: إخباره تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وتغلبه عليه بالحجة والمنطق، وإظهاره الآيات البيّنات في مجلس فرعون وقومه قبط مصر.

وقال موسى: يافرعون أي ياملك مصر، إني رسول من رب العالمين، أي مالك كل شيء وخالقه ومدبره، وجدير بي[1] ألا أقول على الله إلا الحق، فإن الرسول لا يكذب على الله الذي بيده ملكوت كل شيء، لذا فإني لا أخبر عن الله إلا بما هو حق وصدق؛ لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه.

وهاتان الجملتان تتضمنان عقيدة التوحيد: وهي أن للعوالم كلها إنسها وجنّها رباً واحد، وعقيدة النبوة والرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة في التبليغ.

---

(١) الباء وعلى يتعاقبان، فعلى في قوله تعالى: «حقيق على» بمعنى الباء، يقال: رميت بالقوس وعلى القوس، وجاء على حال حسنة وبحال حسنة.

ومن المؤيدات قوله: قد جئتكم ببرهان وحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً وشاهداً على صدقي فيما أخبرتكم عنه.

وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إشارة إلى أن جميع الناس مربوبون لله ومخلوقون به، وأن فرعون ليس رباً ولا إلهاً، وإلى أن البينة ليست من صنع موسى.

ثم رتب على إثباته نبوته بالبينة الواضحة طلب موسى من فرعون إطلاق سراح بني إسرائيل من أسره واستعباده وقهره، وتركهم حتى يذهبوا معه راجعين إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم، ليتفرغوا إلى عبادة ربهم وربه؛ فإنهم من سلالة نبي كريم: إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن.

وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفي وانقرضت الأسباط، تغلب فرعون على نسل بني إسرائيل واستعبدهم، فأنقذهم الله بموسى عليه السلام، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر، واليوم الذي دخله موسى أربع مئة عام.

قال فرعون مجيباً موسى: إن كنت مؤيداً بآية من عند ربك، فأظهرها لنراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

فأجابه موسى على الفور إلى ما طلبه بالفعل لا بالقول: فألقى عصاه من يمينه على الأرض أمام فرعون فإذا هي ثعبان (ذكر الحيات) مبين، أي ظاهر واضح حقيقي يتحرك ويسير من مكان إلى مكان.

وأخرج يده من جيب قميصه بعدما أدخلها فيه، فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض، كالشمس المضيئة، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ٢٧/ ١٢].

وهذا هو **الفصل الثاني من القصة.**

ولا داعي للاسترسال في أوصاف الثعبان والعصا واليد، بأكثر مما دلت عليه الآيات القرآنية؛ إذ ليس لها سند يوثق به، وإنما هي من الروايات الإسرائيلية التي دسها بعض الدخلاء غير المتورعين ولا المدققين، مثل كعب الأحبار الإسرائيلي، ووهب بن مُنَبِّه الفارسي الأصل.

ومن المعلوم أن إثارة الفتن السياسية في صدر الإسلام يعود أمرها إلى جماعة السبئيين (أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي) وجماعات الفرس الذين دخلوا في الإسلام لهدمه من الداخل، وقد قتل عمر على يد أبي لؤلؤة الفارسي المرسل من جماعة سرية في فارس، وقتل عثمان بدسائس عبد الله بن سبأ.

ثم جاء **الفصل الثالث من القصة** ومضمونه مقالة ملأ فرعون: قال السادة من قوم فرعون الموافقون له وأهل مشورته: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي خبير بفنون السحر وأنواعه، وله خطره إذ قد يستميل الناس بسحره، فيكون ذلك سبباً لغلبته علينا، ونزع ملكنا، وإخراجنا من أرضنا بسحره، وذلك كله مصرح به في آية أخرى خاطبوا بها موسى وأخاه هارون: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ١٠/٧٨] وهو في الواقع صدى لما قاله فرعون وحكاه الله عنه بقوله: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٣٤-٣٥].

ثم وقع ما خافوا منه، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص: ٢٨/٦].

وتابع الملأ كلامهم وإبداء رأيهم: قال الملأ لفرعون بعد أن استشارهم بقوله السابق: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾: أخِّر الفصل في أمره وأمر أخيه، وأرسل في الأقاليم ومدائن ملكك فئة من جندك حاشرين، أي جامعين لك السحرة من سائر البلاد. وإنما قال: في المدائن لأن السحر ينشط في المدن الجامعة المأهولة بكثرة الناس.

وكان السحر في زمانهم غالباً كثيراً، فتوهموا أن ما جاء به موسى عليه السلام من قبيل شعوذة الساحرين، فجمعوا له السحرة، ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٢٠/٥٧-٦٠].

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ أي إن ترسلهم يأتوك بكل ساحر ماهر بفنون السحر. وواضح أن الهدف الإتيان بالمهرة لتحقيق الغلبة والتفوق. قال الزمخشري: وكانت هذه مؤامرة مع القبط.

ثم جاء **الفصل الرابع** وهو دور السحرة.

وجاء السحرة من كل مكان، وقالوا لفرعون: هل لنا أجر لقاء الغلبة على موسى؟ فقال فرعون: نعم لكم أجر عظيم، وتصبحون من المقرّبين إلي في المركز والمجلس، وهذا إغراء في الجمع بين المركز المالي والأدبي.

قال السحرة لموسى في اليوم المخصص: إما أن تلقي بسحرك أولاً، وإما أن نلقي ما عندنا؟ وفي هذا التخيير اعتزاز شديد بأنفسهم، وثقة بخبرتهم، وعدم مبالاة بعمله.

فأجاب موسى جواب الذكي الخبير؛ لأن المتأخر في العمل يكون أدرى بما تقتضيه الحال، وهو واثق أيضاً بشأنه وغلبته عليهم: ألقوا ما أنتم ملقون، وهذا إذن بتقديم الفعل، لا أمر يقرهم به على فعل السحر، وهو بقوله المذكور يريد أن يري الناس صنيعهم ويتأملوه، ويستفرغ ما عندهم من طاقات، فإذا فرغوا من زيفهم وشعوذتهم، جاءهم الحق الواضح، فيكون أوقع في النفوس. لذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ

عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦/٧] أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه، له حقيقة واقعية، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٢٠/٦٦-٦٩].

وتتجلى ثقة موسى بنفسه وبأن ما لديه معجزة إلهية ليست من جنس السحر، في قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ، وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ١٠/٨١-٨٢].

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي لما ألقوا حبالهم وأخشابهم، سحروا أعين المتفرجين، ومنهم موسى الذي خيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وجاؤوا بسحر عظيم المظهر، كبير التأثير في أعين الناس. روي أنهم لوّنوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يوهم الحركة، قيل: جعلوا فيها الزئبق.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت آيات قصة موسى على ما يأتي:

أً - آية ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ دلت على أن النبي لابد له من آية ومعجزة يمتاز بها عن غيره؛ إذ لو لم يكن مختصاً بهذه الآية لم يكن قبول قوله أولى من قبول قول غيره.

ودلت أيضاً على أنه تعالى آتاه آيات كثيرة ومعجزات كثيرة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول آياته: العصا ثم اليد.

ودلت كذلك على أن فرعون وجماعته ظلموا بالآيات التي جاءتهم،

فاستحقوا العقاب الشامل وهو الإغراق في البحر؛ لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وإنهم وضعوا الإنكار في موضع الإقرار، والكفر في موضع الإيمان، فكان ذلك ظلماً منهم لتلك الآيات.

٢ - دل قوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على وجود الإله؛ لأن العالم محتاج إلى إله يوجده ويخلقه، ومتصف بصفات كالضعف والتغير ونحوها تجعله مفتقراً إلى ربّ يربّيه.

٣ - وقوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ يشير إلى أن الرسول لا يقول إلا الحق.

٤ - إن طلب موسى عليه السلام إرسال شعب بني إسرائيل معه الذي رتبه على كونه رسولاً طلب ليس من السهل على حاكم تلبيته، لاحتمال تكوين خصوم ضده، من طريق تبليغهم الحكم الإلهي، وإعدادهم لمجابهة فرعون.

٥ - قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هو المعجزة الظاهرة القاهرة، وقد طلب فرعون من موسى إظهار تلك المعجزة: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ﴾ دليلاً على صدقه فيما يدعيه من الرسالة المرسل بها من الله. وكانت المعجزة قلب العصا ثعباناً، وإظهار اليد البيضاء.

٦ - اختار الطاغية الكافر: فرعون وجماعته تكذيب هذه المعجزة الخارقة، وادعى كون موسى ساحراً، فتشاور مع كبار رجال دولته، فأشاروا بالمبارزة بين سحرة صعيد مصر المهرة وبين موسى.

وتم جمع السحرة من أنحاء المملكة، قيل: كانوا سبعين رجلاً أو ثلاثة وسبعين. ودل قوله: ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ على أن السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان.

٧ - دل قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ على أنه تعالى يجعل

معجزة كل نبي من جنس ما كان غالباً على أهل ذلك الزمان، فلما كان السحر غالباً على أهل زمان موسى عليه السلام، كانت معجزته شبيهة بالسحر، وإن كان مخالفاً للسحر في الحقيقة. ولما كان الطب غالباً على أهل زمان عيسى عليه السلام كانت معجزته من جنس الطب، ولما كانت الفصاحة غالبة على أهل زمان محمد عليه الصلاة والسلام كانت معجزته القرآن أبلغ الكلام من جنس الفصاحة.

٨ً - دل قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ﴾ على أن كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عبداً ذليلاً مهيناً عاجزاً، وإلا لما احتاج إلى الاستعانة بالسحرة في دفع موسى عليه السلام. ودل أيضاً على أن السحرة ماكانوا قادرين على قلب الأعيان أو الأشياء، فلم يتمكنوا من قلب الحبال والعصي حيات فعلية، كما لم يتمكنوا من قلب التراب ذهباً، وأن يجعلوا أنفسهم ملوك العالم، ولو كانوا قادرين على ذلك لما احتاجوا إلى طلب الأجر والمال من فرعون.

والمقصود من هذه الآيات تنبيه الإنسان لهذه الدقائق، وألا يغتر بكلمات أهل الأباطيل والأكاذيب.

٩ً - قوله: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله، من قولهم: ﴿نَّكُونَ﴾ وتأكيد الضمير المتصل بالمنفصل وهو ﴿نَحۡنُ﴾ وتعريف الخبر وهو ﴿ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ بقصد كسب الشهرة واجتذاب أنظار الناس.

وقد جاراهم موسى في رغبتهم ازدراء لشأنهم وقلة المبالاة بهم، وثقته بالتأييد الإلهي، وأن المعجزة لن يغلبها شيء.

١٠ً - دل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ على أن السحر محض التمويه. ولو كان السحر حقاً، لكانوا قد سحروا قلوبهم لا

أعينهم. وكل مافي الأمر أنهم تخيلوا أحوالاً عجيبة، مع أن الأمر في الحقيقة خلاف ذلك. ودل قوله: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ على أن العوام خافوا من حركات تلك الحبال والعصي.

وأما خوف موسى فليس كخوف العوام، وإنما لعله خاف من وقوع التأخير في ظهور حجته على سحرهم.

١١ً - السحر كما دلت الآية مجرد خيال وتمويه لا حقيقة فيه، لذا يسمى بالشَّعْوذَة والدجْل، وهو إما أن يعتمد على بعض خواص المادة كتمدد الزئبق الذي وضعه سحرة فرعون في حبالهم وعصيهم، وإما أن يستعان فيه بخفة اليد في إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعضها، وإما أن يلجأ فيه إلى تأثير النفس القوية في إرادة النفس الضعيفة، وقد يستعان حينئذ بأرواح الشياطين، ومنه مايسمى في عصرنا بالتنويم المغناطيسي.

١٢ً - الفرق بين السحر والمعجزة: أن المعجزة حقيقة تظهر على يد مدعي النبوة، والسحر خيال يحدث على يد رجل فاسق.

لذا أخطأ من زعم أن النبي ﷺ سُحِر، وأن السحر أثَّر فيه، حتى قال: «إنه يخيَّل إلي أني أقول الشيء وأفعله، ولم أقله ولم أفعله» وإن امرأة يهوديه سحرته في وعاء طلع النخل ووضعته تحت الحجر الذي يقف عليه المستقي من البئر، حتى أتاه جبريل فأخبره بذلك، فاستُخرج وزال عن النبي ﷺ. وهذا كله من وضع الملحدين الذين يحاولون العبث بالنبوة وإبطال معجزات الأنبياء عليهم السلام.

وهذا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾. وجائز أن تفعل المرأة اليهودية ذلك بجهلها، ثم أطلع الله نبيه على فعلها، لا أن ذلك ضره وخلط عليه أمره.

إيمان السَّحرة بربِّ العالمين

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

القراءات:

﴿هِىَ تَلْقَفُ﴾: قرئ:

١- (هي تَّلَقَّفُ) وهي قراءة البزي وصلاً.

٢- (هِيَ تَلْقَفُ) وهي قراءة حفص.

٣- (هِيَ تَلَقَّفُ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ﴿أَنْ﴾: إما مصدرية في موضع نصب، وتقديره: بأن ألقِ عصاك، فحذف حرف الجرّ فاتّصل الفعل بها، وإما أن تكون مفسِّرة بمعنى أي، فلا يكون لها موضع من الإعراب، كقوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟﴾ [ص: ٦/٣٨] أي: امشوا .﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة، أي: زال وذهب الذي عملوا به السّحر، أو مصدرية بتقدير: فإذا هي تلقف إفكهم، تسمية للمأفوك بالإفك .﴿صَٰغِرِينَ﴾ حال منصوب.

البلاغة:

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ استعارة استعير الوقع للثبوت والظهور والحدوث.

المفردات اللغوية:

﴿تَلْقَفُ﴾ تتناول وتبتلع بسرعة. ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ يقلبون بتمويههم، أو يكْذِبون ويموهون، مأخوذ من الإفك: وهو قلب الشيء عن وجهه الأصلي، وهو إما أن يكون بالقول الكاذب، وإما أن يكون بالفعل كالسّحر. والمأفوك: المصروف عن وجهته الأصلية، قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة ٥/ ٧٥ ومواضع أخرى] أي يصرفون عن الحقّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومنه سميت الرِّياح المعدولة عن مهابها مؤتفكة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٩] أي أهل تلك القرى، وهي قرى قوم لوط.

التفسير والبيان:

هذا هو **الفصل الخامس من قصة موسى مع فرعون**، وهو موقفه من السّحرة. وهو إخبار من الله تعالى إلى رسوله موسى عليه السّلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرّق فيه بين الحق والباطل، ومضمون الإخبار: إلقاء ما في يمينه وهي عصاه.

أوحى الله إلى موسى وأمر بإلقاء عصاه، التي تحولت إلى ثعبان عظيم، فإذا هي تبتلع ما ألقوه، وموّهوا به أنه حق وهو باطل، أو ما يقلبونه من الحقّ إلى الباطل ويزوِّرونه. قال ابن عباس: فجعلت لا تمرّ بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته، فعرفت السّحرة أن هذا شيء من السّماء، ليس بسحر، فخرّوا سُجّداً، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وكانوا قد جعلوا الحبال مجوّفة محشوّة بالزّئبق، وقد تحرّكت بتأثير الحرارة: إما بحرارة الشّمس حين أصابتها، وإما بنار أُعدت لها.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ أي فثبت الحقّ وظهر كالشّمس، وفسد ما كان السّحرة يعملون من الحيل والتّخييل، وذهب تأثيره، وأدركوا أن فعل موسى فوق السّحر.

وغُلب السّحرة في ذلك الجمع العظيم بأمر الله وقدرته، وانقلب فرعون وقومه معه صاغرين أذلّة، بما لحقهم من عار الهزيمة والخيبة والخذلان، لكن السَّحرة آمنوا.

وأُلقي السّحرة عند ذلك وعند معاينة المعجزة سُجَّداً لربِّهم؛ لأنّ الحقّ بهرهم وحملهم على السُّجود، وقالوا: صدّقنا وآمنّا بربِّ العالمين، ربِّ موسى وهارون، أي ربِّ جميع الأشياء والخلائق من الإنس والجنّ.

وكان هؤلاء منسجمين مع أنفسهم، منطقيين في تصرّفهم، فلم يكابروا، وإنما كانوا صادقين مع نفوسهم، بدليل أن فرعون قبل المبارزة دعا رؤساء السّحرة ومعلميهم، فقال لهم: ما صنعتم؟ قالوا: قد عملنا سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض، إلا أن يكون أمراً من السّماء، فإنه لا طاقة لنا به.

فقه الحياة أو الأحكام:

الآيات إظهار واضح لقدرة الله تعالى بإعدام الحبال والعصي وإذهابها من الوجود، مما يدلّ على وجود الإله القادر المختار، وعلى المعجز العظيم لموسى عليه السّلام، والحسم القاطع بين الحقّ والباطل.

ولكن المشكلة تكمن في مواقف البشر، فالمعاندون وهم فرعون وقومه، بالرغم من عار الهزيمة والخذلان، ظلّوا على وضعهم من الكفر والعناد والتّكذيب، وهو طيش وخفّة عقل ومكابرة للحقّ. وأما السّحرة البسطاء في الظاهر، والعقلاء في الحقيقة والواقع، فإنهم عرفوا أن فعل موسى ليس من قبيل السّحر، وإنما هو معجزة سماوية إلهية، فلم يتمالكوا أنفسهم، وخرّوا ساجدين لربِّهم، خاضعين لإله الكون.

فما أحرى الناس بتقليد هؤلاء ونبذ أولئك!!

ذلك لأنّ السّحرة كانوا مهرة في علم السّحر، متقنين لفنونه وأنواعه، ولأجل مهارتهم وإتقانهم وكمال علمهم بالسّحر انتقلوا من الكفر إلى الإيمان.

واحتجّ أهل السُّنّة بقوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠﴾ على أن غيرهم ألقاهم ساجدين، وما ذاك إلا الله ربّ العالمين. وهذا يدلّ على أن فعل العبد من خلْق الله تعالى، فهو سبحانه هو خالق الميل إلى الإيمان في قلوبهم.

ولما ظفروا بمعرفة الله تعالى في الحال، جعلوا سجودهم شكراً لله تعالى على الفوز بالمعرفة والإيمان، وعلامة أيضاً على انقلابهم من الكفر إلى الإيمان، وإظهار الخضوع والتّذلل لله تعالى.

ولما قالوا: ﴿وَهَٰرُونَ﴾ زالت الشُّبهة في أن المقصود ليس فرعون مربِّي موسى، وإنما المقصود هو إله السّماء، وإعلان الكفر بفرعون؛ إذ أنهم لما قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال لهم فرعون: إياي تعنون؟ فلما قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ﴾ قال: إياي تعنون؛ لأني أنا الذي ربّيت موسى، فلما قالوا: ﴿وَهَٰرُونَ﴾ زالت الشُّبهة وعرف الكل أنهم كفروا بفرعون وآمنوا بإله السّماء.

تهديد فرعون للسّحرة وإصرارهم على الإيمان بالله

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢٤ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝١٢٦﴾

المفردات اللغوية:

﴿ءَامَنتُم﴾ استفهام معناه الإنكار والاستبعاد. ﴿لَمَكْرٌ﴾ المكر: صرف الإنسان غيره عما يريده بحيلة، والمعنى: إن هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر، قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم، وهو أن تخرجوا منها القبط، وتسكنوها بني إسرائيل. وكان هذا الكلام من فرعون تمويهاً على الناس، لئلا يتّبعوا السّحرة في الإيمان.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ ما ينالكم منّي .﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ أي يد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى وبالعكس، والصّلب: الشّدّ على خشبة ونحوها .﴿مُنقَلِبُونَ﴾ راجعون في الآخرة .﴿تَنقِمُ﴾ تنكر .﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ أفض علينا صبراً يغمرنا كغمرة الماء، أي هب لنا صبراً واسعاً، عند فعل ما توعدنا به فرعون، لئلا نرجع كفاراً .﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام.

التفسير والبيان:

هذا هو **الفصل السادس من قصّة موسى مع فرعون،** فيه يخبر الله تعالى عما توعّد به فرعون السّحرة لما آمنوا بموسى عليه السّلام، وبما ردّوا به عليه من تسليم أمرهم لله؛ لأن مصيرهم إليه في الآخرة.

ومعنى ﴿ءَامَنتُم﴾ على أنه إخبار بخبر: صدقتم، ويراد به التّوبيخ، وعلى أنه استفهام يراد به الإنكار والاستبعاد، أي آمنتم بموسى واتبعتموه في رسالته قبل أن آذن لكم بذلك.

إن صنعكم هذا وغلبته لكم في هذا اليوم، إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ [طه: ٢٠/ ٧١]. إنكم دبَّرتم هذه المؤامرة في هذه المدينة لتخرجوا المصريين منها بسحركم، وتسكنوا فيها مع بني إسرائيل، فسوف تعلمون ما أصنع بكم من العذاب والنّكال على هذا المكر.

وهذا القول من فرعون مجرّد تمويه وتدليس وتغطية للهزيمة، لئلا يتّبعوا السّحرة في الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥٤]؛ إذ إنه يعلم أن هذا قول باطل، فهو الذي أرسل جنوده في مدائن مملكته، لجمع السّحرة المتفرّقين من سائر الأقاليم بمصر، ووعدهم بالعطاء الجزيل، وموسى عليه السّلام لا يعرف أحداً منهم، ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم بذلك.

وقد استفاد فرعون هذه الفكرة أي الاتّهام بالمكر والمؤامرة من مناقشة دارت بين موسى وكبير السّحرة قبل المبارزة، روي أن موسى عليه السّلام قال لأمير السَّحرة أو للسّاحر الأكبر: أتؤمن بي إن غلبتك؟ قال: لآتين بسحر لا يغلبه سحر، وإن غلبتني لأومنن بك. وفرعون يسمع ذلك، فلذلك قال ما قال.

وبعد أن أجمل الوعيد السابق بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فَصَّلَهُ بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ يعني قَسَماً لأقطعنّ الأيدي والأرجل من خلاف، ثم لأصلبنّ كل واحد على جذوع الشّجر، كما قال: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٢٠/ ٧١] أي على الجذوع، لتكونوا عبرة لمن يكيد لنا ويخرج عن سلطاننا، قال ابن عباس: وكان أوّل من صلب، وأوّل من قطّع الأيدي والأرجل من خلاف: فرعون.

فأجابه السّحرة على تهديده ووعيده: إنّنا لا نأبه بالقتل ولا نبالي بالموت؛ لأننا قد تحقّقنا أنّا إلى الله راجعون، ففي الآخرة يوم الجزاء، فيثيبنا على شدائد القطع والصَّلب، ونريد أن نفدي أنفسنا من عذاب الله، فعذابه أشدّ من عذابك، ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم، وما أكرهتنا من السّحر، أعظم من نكالك، فلنصبرنّ اليوم على عذابك، لنخلص من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٥٠-٥١].

ويحتمل - كما ذكر الزّمخشري - أن يكون المعنى: إنّا جميعاً نحن وأنت يا فرعون، سننقلب إلى الله، فيحكم بيننا. وفي هذا إيماء إلى تكذيبه في ادّعاء الرّبوبيّة، وإيثار ما عند الله على ما عنده من شهوات الدُّنيا الفانية.

وما تعيب منّا إلا الإيمان بآيات الله، الذي هو خير الأعمال، وأصل المناقب والمفاخر كلها. وفي هذا إعلان لقرار لا رجعة فيه، وكأنّهم يقولون: لا أمل لك في رجوعنا عن إيماننا.

ربَّنا هب لنا صبراً واسعاً، وعمنا بالصبر على دينك والثَّبات عليه، واغمرنا به حتى يفيض علينا كما يغمر الماء الأشياء.

والظاهر أنّ فرعون نفَّذ تهديده ووعيده فعلاً، بدليل قوله تعالى في بداية القصّة: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي فرعون وجماعته. قيل: إنّ فرعون أخذ السَّحرة، وقطعهم على شاطئ النهر، وإنه آمن بموسى عند إيمان السّحرة ست مئة ألف.

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي ثابتين على الإسلام، متابعين لنبيِّك موسى عليه السّلام، وقالوا لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ، إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٧٢-٧٥].

قال ابن كثير نقلاً عن ابن عباس وغيره: فكانوا في أوّل النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة.

فقه الحياة أو الأحكام:

حاول فرعون إنقاذ نفسه من عار الهزيمة، فلما علم أن أمهر الناس بالسحر أقر بنبوّة موسى عليه السّلام أمام الخلق الكثير، والحشد العظيم، خاف أن يصير ذلك حجّة قويّة عند قومه على صحّة نبوّة موسى عليه السّلام، فألقى في الحال نوعين من الشُّبهة إلى إسماع العوام[1]:

الشُّبهة الأولى:

قوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي إن إيمان هؤلاء بموسى عليه

(١) تفسير الرّازي: ١٤/ ٢٠٧ - ٢٠٨

السّلام ليس لقوّة الدَّليل، بل لأجل التّواطؤ مع موسى على الإيمان به والإقرار بنبوّته.

والشُّبهة الثانية:

أنّ الهدف من التّواطؤ إخراج قوم فرعون من المدينة وإبطال ملكهم والاستيلاء على مصر. ولا شكّ أن مفارقة الوطن والنّعمة المألوفة من أصعب الأمور، فجمع فرعون بين الشُّبهتين، لتغطية آثار الهزيمة، وإبقاء التّماسك حوله.

ثم أتبع فرعون التّدليس والتّمويه بالتّهديد والوعيد للسّحرة، وبالتّنكيل الشَّديد بهم، وتقطيع أطرافهم، وصلبهم، قال ابن العربي: هذا يدلّ على أنّ الصَّلب وقطع اليد والرّجل من خلاف كان عقوبة متأصِّلة عند الخلق، تلقَّفوها من شرعٍ متقدِّم، فحرَّفوها حتى أوضحها الله في ملّة الإسلام، وجعلها أعظم العقوبات لأعظم الإجرام أي عقوبة المحاربين[١].

ولكن غباء فرعون وجماعته وكل الكفار جعلهم لا يدركون ما الذي يفعله الإيمان الحقّ من الأعاجيب، فلم يبالوا بالموت، وطلبوا الثَّبات على الإسلام، والعون على إفراغ الصَّبر عليهم عند القطع والصَّلب.

وإذا كان الإيمان بالدِّين الحقّ والصَّبر على الشَّدائد من خَلْق الله تعالى، كما يقول أهل السُّنّة، فإنّ اتّجاه إرادة الإنسان للأخذ بهما، والاستعانة بالله للثَّبات على الإسلام، دليل على استحقاق العبد الثّواب على ما اتّجهت إليه إرادته، إذ لو كان الإيمان مجرّد منحة من الله، لما كان هناك داعٍ لإثابة المؤمن، وتعذيب الكافر.

---

(١) أحكام القرآن: ٢/ ٧٧٩

وموقف السّحرة وإعلان إيمانهم بجرأة وصراحة يدلّ على أنّ الإنسان إذا تجرّد عن هواه، وأذعن للعقل والفكر السّليم، بادر إلى الإيمان عند ظهور الأدلّة عليه.

وصلابة السّحرة ومن تابعهم في إيمانهم أحد المظاهر التي تدلّ على أنّ الإيمان الرّاسخ في النّفس يكون أعزّ وأمنع من الجبال الرّاسيات.

وقد دلّت التّجارب وأثبت التاريخ قديماً وحديثاً أنّ أهل الإيمان بالله واليوم الآخر هم أشدّ الناس حزماً، وأكثرهم شجاعةً وصبراً في أوقات الأزمات والمحن والحروب، والأمثلة كثيرة في تاريخ الإسلام قديماً في الفتوحات، وحديثاً في لقاء اليهود وأمثالهم في فلسطين والجزائر والهند وأفغانستان وغيرها.

تمالؤ فرعون وملئه على موسى وقومه ونصيحة موسى لقومه وحوارهم معه

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا
جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

القراءات:

﴿سَنُقَتِّلُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (سَنَقْتُل).

﴿جِئْتَنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيتنا).

الإعراب:

﴿وَيَذَرَكَ﴾ معطوف على: يفسدوا، والواو عاطفة، ويصحّ أن تكون حالية.

المفردات اللغوية:

﴿الْمَلَأُ﴾ كما تقدّم: السّادة والأشراف. ﴿أَتَذَرُ﴾ أتترك. ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالدّعوة إلى مخالفتك. ﴿وَيَذَرَكَ﴾ يتركك. ﴿وَآلِهَتَكَ﴾ كان صنع لهم أصناماً صغاراً يعبدونها، وقال: أنا ربّكم وربّها، ولذا قال: أنا ربّكم الأعلى. والواو في قوله ﴿وَيَذَرَكَ﴾: قيل: إنّها حالية، أي أتذروه وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك؟ وقيل: هي عاطفة، أي أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك.

﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ المولودين. ﴿وَنَسْتَحْيِي﴾ نستبقي. ﴿نِسَاءَهُمْ﴾ أحياء كما فعلنا بهم من قبل. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ قادرون، ففعلوا بهم ذلك، فشكا بنو إسرائيل. ﴿يُورِثُهَا﴾ يعطيها. ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ المصير المحمود. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الله.

التفسير والبيان:

هذا هو **الفصل السّابع من قصّة موسى مع فرعون**، يخبر فيه الله تعالى عن تمالؤ فرعون وملئه على موسى وقومه، وما أضمروه لهم من الأذى والبغضاء، بعد إيمان السّحرة بموسى وانضمامهم له على مشهد من الجموع الغفيرة.

والمعنى: وقال أشراف قوم فرعون لفرعون: أتترك موسى وقومه أحراراً،

فيتمكّنوا من إفساد رعيّتك، بإدخالهم في دينهم، أو جعلهم تحت سلطانهم وقيادتهم، ويدعوهم إلى عبادة ربّهم دونك، ويتركك مع آلهتك فلا يعبدونك ولا يعبدونها كما قررت؟!

ومن المعروف في التّاريخ المصري القديم أنه كان للمصريين آلهة كثيرة منها (الشمس) ويسمّونها (رع) وفرعون عندهم سليل الشّمس وابنها.

قال الحسن البصري: كان فرعون يعبد الأصنام، فكان يَعْبُد ويُعْبَد. قال التّيمي: كان يعبد شيئاً كان قد جعله في عنقه. فأجابهم فرعون: سنقتّل أبناء بني إسرائيل تقتيلاً، ونستبقي نساءهم أحياءً، كما كنّا نفعل من قبل، فلا يتكاثرون حتى ينقرضوا، وإنّا مستعلون عليهم، قاهرون لهم، فلا يقدرون على أذانا ولا الإفساد في أرضنا، ولا الخروج من سلطاننا.

وفي موقف آخر هم فرعون بقتل موسى كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٢٦].

وحين قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وسمع الإسرائيليّون ذلك، فزعوا وجزعوا وتضجّروا، فطمأنهم موسى ونصحهم وقال لهم: استعينوا بالله وحده، واطلبوا العون والتّأييد منه على رفع ذلك الوعيد عنكم، واصبروا ولا تحزنوا، فالله هو المعين على الشّدائد، والصّبر سلاح المؤمن ومفتاح الفرج، واعلموا أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده. وهذا وعد لهم بالنّصر، وأنّ الدّار ستصير لهم.

واللام في ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ يجوز أن تكون للعهد، ويراد أرض مصر خاصة، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٤]، ويجوز أن تكون للجنس، فيتناول أرض مصر؛ لأنها من جنس الأرض. ثم بشّرهم بحسن الخاتمة والعاقبة، فقال:

واعلموا أن العاقبة الحسنى والخاتمة المحمودة لمن اتّقى الله، والنّصر للمؤمنين، لا كما يتوهّم فرعون وقومه.

ثم دار حوار بين بني إسرائيل وموسى، وكأنّ الوصية لم تؤثّر فيهم، ولشدّة فزعهم من فرعون وقومه، فقالوا: أوذينا من قبل مجيئك وقبل ولادتك، ومن بعد إرسالك، وفعلوا بنا مثلما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى، ومن بعد ذلك، فقتلوا أولادنا، وعذّبونا وأساؤوا لنا، واليوم يتكرر ما كان في الماضي، وتعود المأساة، كما تسمع من الوعيد والتّهديد.

فأجابهم موسى مؤكّداً نصر الله لهم، وما يصيرون إليه في المستقبل القريب، وثقته بالله تعالى، ومبشّراً بهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر: أملي بالله ورجائي بفضله، والله محققه بمشيئته: أن يهلك عدوّكم فرعون وقومه، ويجعلكم خلفاء في الأرض من بعدهم، فينظر عملكم الكائن منكم، حَسَنه وقبيحه، وشكر النّعمة وكفرانها، وسيجازيكم على حسب ما يوجد منكم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وهذا حضّ لهم على العزم على الشكر عند حلول النّعمة، وزوال النّقمة.

وعبّر بالرّجاء دون الجزم بذلك، لتفويض المشيئة لله تعالى، ولئلا يتركوا العمل ويتّكلوا على ذلك. قال سيبويه: عسى: طمع وإشفاق. وقال الزّجاج: وما يطمع الله تعالى فيه فهو واجب.

فقه الحياة أو الأحكام:

لم يختلف واقع التّاريخ في الماضي والحاضر والمستقبل بالنّسبة للأقوياء والضُّعفاء، فإن صاحب القوّة والسُّلطة يعتمد على سلطانه وبأسه، فيشيع بين النّاس الرّهبة والذّعر والخوف، ويعلن الإنذار والتّهديد والوعيد.

المنتفعون من السّلطة لسان حالهم ومقالهم وفعلهم فعل تلك السّلطة، لذلك حرّض السّادة والأشراف من قوم فرعون على موسى وبني إسرائيل.

وكانت استجابة فرعون الطاغية للتحريض فورية، فجدّد تنكيله ببني إسرائيل وهو قتل أولادهم بعد الولادة، وتشديد قبضة السّلطة عليهم، ليظلّوا مقهورين أذلاء خائفين خاضعين له.

أمّا موسى فكان فرعون كلما رآه خافه أشدّ الخوف، لذا لم يتعرّض له، مع أنّ قومه لم يعرفوا ذلك، فحملوه على أخذه وحبسه، ولكنه لم يحبسه لعدم الاهتمام به، ولعدم خوفه في الظاهر منه.

وأمّا المستضعفون بقيادة موسى فلا أمل لهم إلا بالله، ولا ملجأ إلا إليه، لذا طلب موسى من قومه أن يطلبوا العون والتّأييد من الله تعالى، وأن يتذرّعوا بالصّبر، فإن صدقوا في إيمانهم، وصبروا على بلائهم، حقّق الله لهم الغلبة والنّصر، وجعل العاقبة الحسنة لهم لتقواهم.

أمرهم موسى بشيئين، وبشّرهم بشيئين:

أمّا اللّذان أمر موسى عليه السّلام بهما: فهما الاستعانة بالله تعالى، والصّبر على بلاء الله. وإنّما أمرهم أوّلاً بالاستعانة بالله، فلأن من عرف أنه لا مدبّر في العالم إلا الله تعالى، انشرح صدره بنور معرفة الله تعالى، وحينئذٍ يسهل عليه أنواع البلاء، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنّه إنما حصل بقضاء الله تعالى وتقديره.

وأمّا اللّذان بشّر بهما، فالأوّل: وراثة الأرض، وهذا إطماع من موسى قومه في أن يورثهم الله تعالى أرض فرعون بعد إهلاكه، وذلك معنى الإرث: وهو جعل الشيء للخلف بعد السّلف.

والثّاني: قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي العاقبة الحسنى والمصير الأفضل

لكل من اتّقى الله تعالى وخافه، سواء في الدّنيا أو الآخرة، أما في الدّنيا فهو الفتح والنّصر على الأعداء، وأمّا في الآخرة فهو نعيم الجنة(١).

ولكن النّفس البشرية تخاف عادة من تهديد صاحب السّلطة، فخاف بنو إسرائيل؛ لأنهم كانوا قبل مجيء موسى عليه السّلام مستضعفين في يد فرعون، فكان يأخذ منهم الجزية، ويستعملهم في الأعمال الشّاقة، ويمنعهم من التّرفّه والتّنعُّم، ويقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم. فلما بعث موسى عليه السّلام قوي رجاؤهم في زوال تلك المضار والمتاعب، فلما سمعوا إعادة تهديد فرعون، عظم خوفهم وحزنهم، فقالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ﴾.

أمّا نبي الله موسى فأعلن بشارته بإهلاك فرعون، وقوّى قلوبهم بما وعدهم من خلافة الأرض، ليتمسّكوا بالصبر، ويتركوا الضّجر والجزع المذموم، ثم بيّن بقوله: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ما يريده من حثّهم على التّمسُّك بطاعة الله، والاستعداد لشكر النّعمة، وزوال النّقمة. وقد تحقّق الوعد بالإغراق وبأنواع العذاب الآتية في الآيات التّالية.

أنواع عذاب الدُّنيا بآل فرعون

الآيات التّسع

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ
(١٣٠) فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن
مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا
بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ
وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣)﴾

(١) تفسير الرّازي: ١٤/ ٢١٢

الإعراب:

﴿مَهْمَا تَأْتِنَا﴾ ﴿مَهْمَا﴾: اسم شرط، والدَّليل على أنه اسم عود الضمير إليه من قوله تعالى: ﴿تَأْتِنَا بِهِۦ﴾ وهو منصوب بفعل: ﴿تَأْتِنَا﴾ على قول من قال: زيداً ضربته، ويجوز أن يكون في موضع رفع، على قول من قال: زيد ضربته، و﴿تَأْتِنَا﴾: مجزوم بمهما؛ لأنه شرط، وجواب الشّرط قوله تعالى: ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ حال منصوب مما قبله من الأشياء المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ والعامل: أرسلنا.

البلاغة:

بين ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ و﴿سَيِّئَةٌ﴾ طباق.

وبين ﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾ و﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ﴾ كثر استعمال الأخذ في العذاب، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١١/١٠٢]. ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ قومه وخاصته، وهم الملأ من قومه، ولا يستعمل الآل إلا فيمن يختص بقرابة مثل: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ [آل عمران: ٣/٣٣] أو يختصّ بموالاة ومتابعة في الرّأي مثل: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٠/٤٦].

﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ جمع سنة وهي الحول، لكن كثر استعمالها في حول الجدب والقحط، كما هنا، فيكون المراد منها القحط، بدليل نقص الثّمرات ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ يتّعظون فيؤمنوا. ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ الخصب والنّماء والرّخاء. ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي نستحقها ولم يشكروا عليها. ﴿سَيِّئَةٌ﴾ جدب أو بلاء في

الأنفس والأرزاق. ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ يتشاءموا ويتطايروا، وأطلق التّطيُّر على التّشاؤم أخذاً بعادة العرب في زجر الطّير، فكانوا يتأمّلون الخير إذا طار الطائر يميناً ويسمّونه (السّانح) ويتوقّعون الشّرّ إذا طار شمالاً، ويسمّونه (البارح). ﴿طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ما قضي لهم وقدّر، والمراد به أن شؤمهم: هو عقابهم الموعود به في الآخرة. وعند الله: أي يأتيهم به ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ ما يصيبهم به من عنده.

﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ هو ماء دخل بيوتهم، ووصل إلى حلوق الجالسين سبعة أيّام. ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ طائر معروف يأكل النبات، وقد أكل زرعهم وثمارهم أيضاً. ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ هو السُّوس الذي ينخر الحنطة، وقيل: هو الدّود أو القراد الذي يأكل الزرع، ويتبع ما أكله الجراد. ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ المعروفة، فملأت بيوتهم وطعامهم. ﴿وَٱلدَّمَ﴾ هو الرّعاف، وقيل: هو دمٌ كان يحدث في مياه المصريين. ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ بيّنات. ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الإيمان بها.

التفسير والبيان:

هذا هو **الفصل الثّامن من قصّة موسى مع فرعون**، وهو فصل الجزاء والعقاب أو الآيات التي أنزلها الله على فرعون وقومه، فبعد أن بشَّر موسى عليه السّلام قومه بإنزال العذاب على فرعون وقومه بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ ذكر هنا ألوان العذاب قبل حلول عذاب الاستئصال، للتّحذير والزّجر وتنبيه السّامعين من خطر الكفر والتّكذيب. وأما عذاب الاستئصال فهو إغراق فرعون في اليم ونجاة بني إسرائيل.

وقد ذكر الله تعالى في سورة الإسراء أن الآيات أي آيات العقاب تسع، بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [١٠١].

وذكر هنا سبع آيات، ويضاف إليها المذكور في سورة يونس، وهو: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ [٨٨]، والطَّمس على الأموال: هو محقها وهلاكها.

وفسّر البيضاوي الآيات التّسع بأنها آيات أُرسل بها موسى إلى بني إسرائيل، وهي أحكام أُمروا بالأخذ بها آيات عقاب، عوقب بها فرعون وجنوده، وهي: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدّم، وانفجار الماء من الحجر، وفلق البحر، ونتق الطّور على بني إسرائيل. وقيل: الطّوفان، والسّنون، ونقص الثَّمرات؛ مكان الثّلاث الأخيرة.

والواقع أنّ فلق البحر إنّما كان بعد تمام الآيات، وانبجاس الحجر بالماء إنما كان بعد هلاك فرعون، فلا يصحّ أن يكون آية لفرعون وقومه. وأمّا العصا واليد فهما معجزتان لموسى عليه السّلام، وليستا آيتي عذاب. فيكون في تقديري مجموع الآيات هكذا: السّنون، نقص الأموال، نقص الأنفس، نقص الثّمرات، الطُّوفان، الجراد، القُمَّل، الضّفادع، الدّم[١]. سبع منها مذكور هنا في سورة الأعراف، وواحدة مذكورة في سورة يونس، كما أبنت، أمّا نقص الأنفس فهو ناجم عادةً عن الجدب، ونقص الثِّمار، والطُّوفان، قال مجاهد وعطاء: الطُّوفان: الموت.

ومعنى الآيات هنا: ولقد اختبرنا آل فرعون وامتحنّاهم وابتليناهم بسنين الجوع بسبب قلّة الزّروع، أي في البادية، وبنقص الثَّمرات، أي في الأمطار، قال رجاء بن حيوة: «كانت النّخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة»، ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي ليتذكّروا ويتّعظوا ويرجعوا عن كفرهم وتكذيبهم لآيات الله وعن ظلمهم لبني إسرائيل، ويؤمنوا بالله ربّاً، ويستجيبوا لدعوة موسى عليه السّلام؛ لأنّ من سنّته تعالى أن يرسل الزّواجر تنبيهات، ودلّت

---

(١) قصص الأنبياء للنّجار: ص ١٩٨

التّجارب على أنّ الشّدائد تلين النّفوس، فتكون المصائب والآفات ونقص الثّمرات سبباً في رجوع الناس إلى الله تعالى، فإن عادوا إلى ربّهم واهتدوا كان الخير والرّخاء، وإن أعرضوا كان القحط والجدب والهلاك المحتوم، وقد أعرض آل فرعون عن الاستجابة لدعوة موسى بعد أن أنذرهم، فكانوا من الهالكين.

ثم بيّن الله تعالى أنّ المصائب زادت آل فرعون عتوّاً وبغياً، فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾ أي إذا جاءهم الخصب والرّزق وزيادة الثّمار والمواشي قالوا: لنا هذه، يعني هذا لنا بما نستحقّه من العمل والمعرفة والتّفوّق، وإن أصابتهم سيئة، أي جدب وقحط، تشاءموا بموسى ومن معه، وقالوا: هذا بسببهم وما جاؤوا به، وغفلوا عن واجب شكر نعمة الله، وعن سيئاتهم وفساد أعمالهم وشرور أنفسهم، كما قال تعالى في حقّ النّبي ﷺ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٤/ ٧٨].

ثم ردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي إن كل ما يصيبهم من خير أو شرّ، فهو بقضاء الله وقدره، فالله جعل الخير ابتلاء ليعرف الشاكر من الجاحد، وجعل الشّر ابتلاء أيضاً ليعرف الصابر من الساخط، وليرجع أهل الغي والفساد عن غيّهم وفسادهم، ويقلعوا عن طغيانهم وضلالهم. والله تعالى أيضاً جعل أعمال العباد سبباً لما ينزل بهم من خير وشرّ غالباً. قال الزّمخشري[1] في تفسير ﴿طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي سبب خيرهم وشرّهم عند الله، وهو حكمه ومشيئته، والله هو الذي يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسّيئة، وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ ويجوز أن يكون معناه: ألا إنما سبب شؤمهم عند الله، وهو عملهم

(١) الكشاف: ١/ ٥٦٨ - ٥٦٩

المكتوب عنده الذي يجري عليهم ما يسوؤهم لأجله، ويعاقبون عليه بعد موتهم بما وعدهم الله في قوله سبحانه: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ [غافر: ٤٠/ ٤٦].

ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة الله في تصريف الكون، ولا يعلمون كيفية ارتباط الأسباب بالمسببات، ولا أن الأمور تجري بالمقادير، وأنّ كل شيء عنده بمقدار، فليس الشؤم بسبب موسى وقومه، وإنما بسبب سوء العمل، وبمقتضى النظام الإلهي في قانون السَّببية المذكور.

وفضلاً عن أن كلّاً من الحسنات والسيئات لم تذكّرهم بما يجب عليهم نحو ربّهم، فإنهم تمرّدوا وعتوا، وعاندوا الحق، وأصرّوا على الباطل بقولهم لموسى: إن أي آية جئتنا بها، وأي حجّة ودلالة أظهرتها لنا، وأثبتها لإقناعنا وصرفنا عما نحن عليه من ديننا، رددناها ولم نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به، ولا نصدّق برسالتك وقولك أبداً.

لذا عاقبهم الله على كفرهم وتكذيبهم وجرائمهم، فأرسل عليهم الطّوفان: وهو كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار، كما قال ابن عباس، فالطّوفان: ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل.

وأرسل عليهم الجراد، فأكلت كل زروعهم وثمارهم، ثم أكلت كل شيء، حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب. ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء، ففزعوا إلى موسى، فكشف عنهم بعد سبعة أيام. خرج موسى عليه السّلام إلى الفضاء، فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجع الجراد إلى النّواحي التي جاء منها، فقالوا: ما نحن بتاركي ديننا.

فأقاموا شهراً، فسلّط عليهم القُمَّل: وهو كبار القراد، أو السّوس، فأكل ما أبقاه الجراد، ولَحس الأرض، أو صغار الذّباب أو البراغيث أو القمل المعروف الذي يلدغ ويمصّ الدّم، أي أنه سلّط عليهم بعد الجراد من الآفات

الزراعية من صغار الذّر كالدودة، فأكلت الزّروع واستأصلت كل شيء أخضر. ثم فزعوا إلى موسى فكشف عنهم، ثم عادوا إلى ما كانوا عليه.

فأرسل الله الضّفادع، فدخلت بيوتهم، وامتلأت منها آنيتهم وأطعمتهم، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع إلى فمه، وامتلأت منها مضاجعهم فلا يقدرون على الرّقاد، وكانت تقذف بأنفسها في القدور وهي تغلي، وفي التنانير وهي تفور، فشكوا إلى موسى، وقالوا: ارحمنا هذه المرة، فما بقي إلا أن نتوب التوبة النصوح، ولا نعود، فأخذ عليهم العهود، ودعا فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهد.

فأرسل الله عليهم الدّم، أي تحوّلت مياههم إلى دم، فكانوا إذا ما استقوا من الأنهار والآبار، وجدوه دماً عبيطاً، فشكوا إلى فرعون، فقال: إنه قد سحركم، فكان يجمع بين القبطي والإسرائيلي على إناء واحد، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء، وما يلي القبطي دماً.

كل ذلك آيات مفصّلات أي واضحات بيّنات ظاهرات، لا يُشْكِلُ على عاقل أنها من عند الله، ولا يقدر عليها غيره، وأنها عبرة ونقمة على كفرهم، وهي دالّة على صدق موسى؛ إذ قد توعّدهم بوقوع كل واحدة منها تفصيلاً.

أما فرعون وقومه فظلّوا على عنادهم وكبريائهم فاستكبروا عن عبادة الله، ولم يتّعظوا، وكانوا قوماً مجرمين في حقّ أنفسهم وغيرهم، مصرّين على الجرم والذّنب.

فقه الحياة أو الأحكام:

ترشد الآيات في الجملة إلى قانون السَّببيّة: وهو ربط الأسباب بالمسبّبات والنتائج على حسب مشيئته تعالى، وإلى أن ما يتعرّض له الناس من آفات زراعية ومصائب فهو بسبب أعمالهم.

وأما تفصيلاً فدلّت الآيات على أنه تعالى إنما أنزل عليهم هذه المضار، لأجل أن يتركوا العناد والتَّمرد، ويرجعوا إلى الانقياد والعبودية لله؛ لأن أحوال الشّدّة ترقّق القلب، وترغّب فيما عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧/١٧]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١/٤١].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي ليتّعظوا وترِقَّ قلوبهم، يدلّ على أنه تعالى فعل ذلك إرادة منه أن يتذكّروا، لا أن يقيموا على ما هم عليه من الكفر.

وأول آية على فرعون وقومه من آيات العقاب: السّنين أي الجدوب، يقال: أصابتهم سَنَة أي جدب، وفي الحديث الثابت: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف». يروى أنه كان بين الآية والآية ثمانية أيام، وقيل: شهر، وقيل: أربعون يوماً.

والثانية: نقص محصول الثّمار وغلاته نقصاً شديداً مريعاً، لا يكفي أحداً. وهذان عقابان، كل منهما أخفّ من أنواع العقاب الأخرى، بدءاً بالتّدرُّج في العذاب لعلّهم ينزجروا، ولكن القوم عند نزول تلك المحن عليهم لم يتّعظوا ولم يرعووا، وإنما أقدموا على ما يزيد في كفرهم ومعصيتهم، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ الآية.

فهم ينسبون الخير من الخصب والثّمار وسعة الرّزق والعافية والسّلامة والمواشي إلى أنفسهم، مدّعين أنهم جديرون بذلك، مستحقّون للإكرام والإنعام؛ لتفوّقهم وذكائهم، وعملهم ومعرفتهم. أمّا الشّر من الجدب والقحط والمرض والضّر والبلاء فهو بسبب موسى وقومه وشؤمهم.

والحقّ أن ما لحقهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله عزّ وجلّ بذنوبهم، لا من عند موسى وقومه، ولكنّهم قوم يجهلون هذا المعنى، فطائرهم عند الله، أي ما قدّر لهم وعليهم.

أمّا التّطيُّر والتّشاؤم فجاء الإسلام بالنّهي عنه عند سماع صوت طائر ما كان، وعلى أي حال كان؛ لأن الواحد من أهل الجاهلية كان كثيراً إذا أراد الحاجة أتى الطَّير في وَكْرها فنفَّرها؛ فإذا أخذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هو السّانح عندهم. وإن أخذت ذات الشمال رجع، وهذا هو البارح عندهم، فنهى النَّبي ﷺ عن هذا بقوله فيما رواه أبو داود والحاكم عن أم كرز: «أَقِرُّوا الطَّير على مَكِناتها» أي بيضها أو على تمكنها فلا تنفّروها. وقال عكرمة: كنت عند ابن عباس، فمرَّ طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير، خير، فقال ابن عباس: ما عند هذا لا خير ولاشرّ. وقال عليه الصّلاة والسّلام فيما رواه أحمد ومسلم عن جابر: «لا طيرة ولا هام».

قال العلماء: وأما أقوال الطّير فلا تعلّق لها بما يجعل دلالة عليه، ولا لها علم بكائن، فضلاً عن مستقبل فتخبر به، ولا في الناس من يعلم منطق الطّير؛ إلا ما كان الله تعالى خصّ به سليمان عليه السلام من ذلك، فالتحق الطّير بجملة الباطل[١].

وروى أبو داود عن عبد الله بن مسعود عن النَّبي ﷺ قال: «الطِّيَرة شرك - ثلاثاً - وما منّا إلا[٢]، ولكن الله يذهبه بالتّوكل».

واشتدّ تمادي قوم فرعون في عنادهم، فقالوا لموسى: مهما تأتنا من آية لتصرفنا عما نحن عليه، فلن نصدق بك. ففي الآية الأولى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾ أسندوا حوادث هذا العالم، لا إلى قضاء الله تعالى وقدره، ثم وقعوا بجهالة وضلالة أخرى في الآية الثانية: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ﴾ وهي

---

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ٢٢٦

(٢) قال ابن الأثير: هكذا جاء في الحديث مقطوعاً، ولم يذكر المستثنى، أي إلا وقد يعتريه التّطيُّر، وتسبق إلى قلبه الكراهة، فحذف اختصاراً واعتماداً على فهم السّامع. وقوله: «ولكن الله يذهبه بالتّوكل»: معناه أنه إذا خطر له عارض التّطيُّر، فتوكل على الله وسلَّم إليه، ولم يعمل بذلك الخاطر، غفره الله له ولم يؤاخذه به.

أنهم لم يميزوا بين المعجزات وبين السّحر، وجعلوا جملة الآيات الدّالة على صدق موسى مثل انقلاب العصا حيّة من باب السّحر منهم، وقالوا لموسى: إنّا لا نقبل شيئاً منها ألبتة.

قال ابن عباس: إن القوم لما قالوا لموسى: مهما أتيتنا بآية من ربك، فهي عندنا من باب السّحر، ونحن لا نؤمن بها ألبتة، وكان موسى عليه السّلام رجلاً حديداً، فعند ذلك دعا عليهم، فاستجاب الله له، فأرسل عليهم الطُّوفان الدّائم ليلاً ونهاراً، سبتاً إلى سبت، ثم ذكر بقية الآيات الخمسة، وهي: الجراد، والقُمَّل، والضَّفادع، والدَّم.

أمّا الطُّوفان: فهو المطر الشَّديد حتى عامُوا فيه، **وأمّا الجراد** فأكل النّبات؛ **وأما القمَّل** فلم يبقِ في أرضهم عوداً أخضر إلا أكلته؛ **وأما الضَّفادع** فخرج من البحر مثل الليل الدّامس ووقع في الثِّياب والأطعمة، فكان الرَّجل منهم يسقط وعلى رأسه ذراع من الضّفادع؛ **وأما الدّم** فجرت أنهارهم دماً، فلم يقدروا على الماء العذب. وبنو إسرائيل يجدون الماء العذب الطَّيِّب.

فاشتكوا إلى موسى وفرعون، فقال فرعون لموسى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ إلى آخر الآية الآتي بيانها.

وتلك الآيات البيِّنات لا يخفى على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره. ومع ذلك استكبروا عن عبادة الله وعن الإيمان به وكانوا قوماً مجرمين أي مصرِّين على الجرم والذَّنب.

واختلف العلماء في قتل الجراد إذا حلّ بأرض فأفسد، فقيل: لا يقتل، وقال أكثر الفقهاء: يقتل.

احتجّ الأوّلون: بأنه خَلْق عظيم من خلق الله، يأكل من رزق الله، ولا يجري عليه القلم، أي لا تبعة عليه، وبما روى الطبراني والبيهقي عن أبي زهير، وهو ضعيف: «لا تقتلوا الجراد فإنه من جند الله الأعظم».

واحتجّ الجمهور: بأن في ترك الجراد فساد الأموال، وقد رخّص النّبي ﷺ بقتال المسلم إذا أراد أخذ ماله؛ فالجراد إذا أرادت فساد الأموال، كانت أولى أن يجوز قتلها. وروى ابن ماجه عن جابر وأنس بن مالك أنّ النّبي ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخُذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدُّعاء»، قال رجل: يا رسول الله، كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ قال: «إن الجراد نَثْرة(١) الحوت في البحر».

وأما أكله فجائز في السّنّة، ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، كنّا نأكل الجراد معه. وأكله جائز باتّفاق الأمة، وأنه إذا أخذ حيّاً وقطعت رأسه أنه حلال بالاتّفاق، وذلك بمنزلة الذّكاة (الذّبح). واختلفوا هل يحتاج إلى اصطياد؟ فقال الجمهور: لا يحتاج إلى ذلك، ويؤكل كيفما مات، كالحيتان، لما روى الدارقطني عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أحلّ لنا ميتتان: الحُوت والجراد، ودمان: الكَبِد والطِّحال».

وذهب مالك إلى أنه لا بدّ للجراد من سبب يموت به، كقطع رؤوسه أو أرجله أو أجنحته إذا مات من ذلك، أو يطرح في النّار؛ لأنه عنده من حيوان البر، فميتته محرَّمة.

وأما الضَّفادع فلا تؤكل إلا في مذهب مالك.

---

(١) النّثرة: شبه العطسة.

اللجوء إلى موسى لرفع العذاب ونقض العهد وإغراق فرعون وقومه

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

الإعراب:

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ما: مصدرية، والمعنى: بعهده عندك، وهو النبوة، والباء إما أن تتعلق بقوله: ﴿ٱدْعُ لَنَا﴾ أي أسعفنا بالدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة، وإما أن يكون قسماً جوابه: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ أي أقسمنا بعهد الله عندك لنؤمنن ﴿لَئِن﴾ اللام لام القسم.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ﴾: هم بالغوه: جملة اسمية في موضع جر صفة ﴿أَجَلٍ﴾.

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جواب ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلرِّجْزُ﴾ العذاب الشديد الذي يضطرب له الناس في شؤونهم. ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي من كشف العذاب عنا إن آمنا، والعهد: النبوة والرسالة، وكشف العذاب من إكرام الله لنبيه.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ بدعاء موسى العذاب عنهم لأجل مؤقت. ﴿يَنكُثُونَ﴾ ينقضون عهدهم ويصرون على كفرهم. ﴿ٱلْيَمِّ﴾ البحر المالح. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم. ﴿غَـٰفِلِينَ﴾ متجاهلين لها لا يتدبرونها.

التفسير والبيان:

هذا هو **الفصل التاسع من فصول قصة موسى مع فرعون**، وهو أنه لما نزلت آيات العذاب المتقدمة على فرعون وجماعته الكافرين، اضطربوا وتضايقوا، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يرفع الله عنهم العذاب، وعاهدوه على الإيمان برسالته إن فعل، فلما دعا موسى ربه، فكشف عنهم، نقضوا العهد، كل مرة طلبوا فيها ذلك، حتى استأصلهم الله بالإغراق في البحر.

والمعنى: ولما نزل العذاب الشديد بجماعة فرعون واضطربوا واشتد فزعهم، طلبوا من موسى أن يدعو ربه بسبب ما عهد عنده من النبوة والرسالة والكرامة والمحبة أن يكشف عنهم ما نزل بهم، وأقسموا له: لئن كشفت عنا ذلك العذاب لنصدقن برسالتك، ونؤمنن بما جئت به من عند ربك، ولنرسلن معك بني إسرائيل إلى أرض الميعاد: فلسطين، كما طلبت منا، ليعبدوا ربهم كما شاؤوا.

فلما رفع الله عنهم العقاب وكشف العذاب، مرة بعد أخرى، إلى أجل محدود منتهون إليه حتماً، فمعذبون فيه، وهو الغرق، إذا هم ينقضون العهد ويحنثون في كل مرة. أي أنا لم نزل عنهم العذاب مطلقاً، بل إنما أزلنا عنهم العذاب إلى أجل معين، وعند حلول ذلك الأجل لا نرفع عنهم العذاب، بل نهلكهم به. والدليل أنهم بادروا بعدئذ إلى النكث بالعهد.

وقد روي أنهم كانوا يمكثون في العذاب الواحد من الطوفان والجراد والقمل والضفادع، وصيرورة مياههم دماً فاسداً أسبوعاً، ثم يطلبون من موسى الدعاء برفعه، ويَعِدُونه بالإيمان بالله تعالى، ثم ينقضون العهد.

ولما كشف عنهم العذاب من قبلُ مرات وكرات، ولم يمتنعوا عن كفرهم وجهلهم، ثم حان الأجل المؤقت، انتقم الله منهم، بأن أهلكهم بالغرق،

بسبب تكذيبهم بآيات الله التي نزلت عليهم كلها، وكانوا غافلين عما يتبعها من العذاب في الدنيا والآخرة. والمراد بالغفلة هنا: الإعراض عن الآيات وعدم الالتفات إليها، فهم أعرضوا عنها، حتى صاروا كالغافلين عنها.

أغرق الله الكافرين منهم ونجّى المؤمنين الذين كانوا يكتمون إيمانهم، أغرقهم في اليم وهو البحر الذي فرقه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما أصبحوا في وسط البحر، أطبقه الله عليهم، فغرقوا عن آخرهم بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على أمور أربعة:

١ً - اللجوء إلى موسى عند الشدة والضيق بدافع نداء الإيمان الفطري، وهذا شأن الناس غالباً لا يجدون في وقت المحنة غير الله ملجأ وملاذاً.

٢ً - سمة جماعة فرعون: تكرار نقض العهود وخُلْف الوعود، وتمرير المصالح إلى وقت محدود.

٣ً - كان الجزاء المحتم لقوم فرعون هو عذاب الاستئصال بالإغراق في البحر.

٤ً - الواجب في الآيات النظر فيها وتدبرها والتأمل بأسبابها ونتائجها، ولذلك ذمهم بأن غفلوا عنها، وذلك يدل على أن التقليد طريق مذموم.

وراثة بني إسرائيل أرض مصر والشام بعد الفراعنة والعمالقة

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

القراءات:

﴿كَلِمَتُ﴾:

رسمت بالتاء، فوقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

﴿يَعْرِشُونَ﴾:

وقرأ ابن عامر (يعرُشون).

الإعراب:

﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾: منصوب إما على أنه مفعول به لأورثنا، أي جعلناهم في عصرهم ملوك الشام ومصر، وإما على الظرف، والعامل: ﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾. ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾: ﴿ٱلَّتِى﴾ إما في موضع نصب على الوصف لمشارق الأرض ومغاربها، وإما في موضع جر على الوصف للأرض.

والضمير في ﴿فِيهَا﴾: إما أن يعود إلى ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾، وإما أن يعود إلى ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وتقديره: مشارق الأرض التي باركنا فيها ومغاربها. ففصل بين الصفة والموصوف بالمعطوف على المضاف إلى الموصوف، وهذا جائز لغة، كقولك: أكرمتُ صاحبَ زيدٍ وجاريتَه العاقلِ.

﴿مَا كَانَ يَصۡنَعُ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ مضمر فيها، وهو يعود على ﴿مَا﴾: و﴿يَصۡنَعُ﴾: خبرها، والهاء منه محذوفة، وتقديره: يصنعه، وهو عائد على اسم ﴿كَانَ﴾ الضمير العائد على: ﴿مَا﴾. وقيل: إن ﴿كَانَ﴾ زائدة، وتقديره: ودمّرنا ما يصنع فرعون، وقد جاء زيادة: كان في كلامهم، فقالوا: زيد كان قائمٌ، أي زيد قائم.

البلاغة:

﴿مَا كَانَ يَصۡنَعُ﴾ و﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾: عدل فيهما عن الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة في ذهن المخاطب، والأصل: ما صنعوا وما عرشوا.

المفردات اللغوية:

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه. ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ المراد جميع نواحيها أو جهاتها، والمراد بالأرض: أرض مصر والشام، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتصرفوا كيف شاؤوا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية. ﴿بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ بالماء والشجر والخصب وسعة الأرزاق، وهي صفة للأرض.

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي وصلت إلى آخر الحد، والمعنى: مضت عليهم واستمرت، من قولك: تم على الأمر: إذا مضى عليه، وكلمة الله: هي وعده لبني إسرائيل بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض، في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٩] وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥].

﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ أي بسبب صبرهم على أذى عدوهم. ﴿وَدَمَّرۡنَا﴾ أهلكنا وخربنا ﴿مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾: ما كانوا يعملون ويبنون من

العمارات والقصور. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء كصرح هامان وغيره، أو ما يرفعون من السقائف والمباني للنبات والشجر المتسلق، كعرائش العنب، ومنه: عرش الملك.

التفسير والبيان:

هذا هو **الفصل العاشر من قصة موسى مع فرعون**، فبعد أن بيّن الله تعالى جزاء فرعون وملئه من أهل مصر على تكذيبهم بموسى، بالرغم من توالي الآيات الدالة على صدقه، وهو جزاء الظالمين، أبان تعالى جزاء المؤمنين الصابرين من بني إسرائيل، إذ أصبحوا ملوك مصر والشام بعد الفراعنة والعمالقة.

والمعنى: وأورثنا القوم المستضعفين من بني إسرائيل بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم وتعذيبهم واستخدامهم وأخذ الجزية منهم، أورثناهم أرض مصر والشام التي باركنا فيها بالخصب والنماء، وسعة الأرزاق والخيرات، ووفرة الأنهار، تحقيقاً لوعدنا السابق وهو: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٢٨/ ٥-٦]. ومشارق الأرض ومغاربها: جهات الشرق والغرب بها، والمراد بالأرض: أرض مخصوصة، وهي أرض الشام ومصر؛ لأنها هي التي كانت تحت سلطة فرعون، ولوصفها بالبركة، وذلك لا يليق إلا بأرض الشام، وقيل: المراد جنس الأرض؛ لأن داود وسليمان من بني إسرائيل قد ملكا الأرض.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي مضت واستمرت ونفذت كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل، بسبب صبرهم على أذى فرعون وملئه، وما كابدوه من الشدائد منهم، كما أمرهم موسى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ

وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٨] وهكذا فإن الصبر مفتاح الفرج. والحسنى: صفة للكلمة، تأنيث الأحسن. وقيل: معنى تمام الكلمة الحسنى: إنجاز الوعد الذي تقدم بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض؛ لأنه إذا حصل الموعود به، فقد تم لك الوعد وكمل.

تم وعد الله لهم حينما استقاموا، ثم سلبهم تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس، ولم يصدر وعد آخر من الله بالعودة إلى الأراضي المقدسة مرة أخرى.

وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، وما كانوا يقيمونه من العرائش والسقف في البساتين، أو يبنونه من القصور الشاهقة.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات واردة على سبيل المقارنة والموازنة بين المؤمنين والكافرين، وجزاء كل منهم، فلما بيَّن الله تعالى إهلاك قوم فرعون معه بالغرق على وجه العقوبة، بيَّن ما فعله بالمؤمنين من الخيرات، وهو أنه تعالى أورثهم أرضهم وديارهم.

لقد أنقذ الله موسى وهارون وبني إسرائيل من ظلم فرعون وقومه، وكان عبورهم في البحر معجزة خارقة لموسى، إذ أوحى الله إليه بأن يضرب بعصاه البحر: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٦٣].

وذلك لصموده مع أخيه في وجه الطاغية فرعون، أكبر مِلِك في أكبر دولة في الأرض، استعبدت شعب مصر عدة قرون، فما زالا يجادلانه بالحجج والبينات، حتى نصرهما الله، وهكذا فلا تُسْتَعظم قوة أي دولة كبرى أمام قوة الحق، ويفعل الإيمان القوي في القلب المليء باليقين ما لا تفعله قوى الشر المتكاثرة، وهكذا يتصدى موسى وأخوه هارون لعدو الله، وقومهما أذلة

مستضعفون، وفرعون مصر صاحب السلطة والمال والجند والأتباع، ثم ينتصر الضعفاء، ويتلاشى الأقوياء: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٣٧].

جحود بني إسرائيل نعم الله عليهم

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

القراءات:

﴿يَعْكُفُونَ﴾: قرئ:

١- (يعكِفون) وهي قراءة حمزة، والكسائي.

٢- (يعكُفون) وهي قراءة باقي السبعة.

وكلاهما لغتان فصيحتان.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾:

وقرأ ابن عامر: (وإذ أنجاكم).

﴿يُقَتِّلُونَ﴾:

وقرأ نافع (يقْتُلون).

الإعراب:

﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ ما: اسم موصول بمعنى الذي، و﴿لَهُمْ﴾: صلته، والعائد الضمير في ﴿لَهُمْ﴾. و﴿ءَالِهَةٌ﴾: مرفوع إما على أنه بدل من الضمير المرفوع في ﴿لَهُمْ﴾، وإما على أنه خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: هي آلهة، وإما على أنه مرفوع بـ ﴿لَهُمْ﴾ على تقدير: كما استقر لهم آلهة .﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: ﴿كَانُوا۟﴾: صلة زائدة.

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ تقديره: أبغي لكم إلهاً غير الله، و﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على الحال؛ لأن صفة النكرة إذا تقدمت عليها انتصب على الحال.

البلاغة:

﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أتى بالمضارع بدل الماضي إشعاراً بأن ذلك منهم بمثابة الطبع الملازم لهم، لا يتخلون عنه ولو في المستقبل.

المفردات اللغوية:

﴿وَجَٰوَزْنَا﴾ عبرنا، يقال: جاز الشيء وجاوزه وتجاوزه: انتقل عنه ﴿فَأَتَوْا۟﴾ فمروا .﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ﴾ يقيمون على عبادتها. والأصنام: جمع صنم، وهو ما يصنع من خشب أو حجر أو معدن مثالاً لشيء حقيقي أو خيالي، بقصد تعظيمه تعظيم العبادة، وهو شرك. أما التمثال: فلا بد أن يكون مثالاً لشيء حقيقي، فإن عبد فهو صنم. وقد يتخذ التمثال للزينة كالمتخذ على جدران الأبنية أو في مداخل الجسور، وقد يكون التمثال لتذكر سيرة بعض القادة بقصد التعظيم غير الديني، كتماثيل بعض الزعماء والعلماء في الساحات العامة.

﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ صنماً نعبده .﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ حيث قابلتم نعمة الله عليكم بما قلتموه .﴿مُتَبَّرٌ﴾ هالك، والتتبير: الإهلاك والتدمير. ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ زائل لا بقاء له .﴿أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ مثل أبتغيكم: أي أطلب لكم.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أنواع نعمه على بني إسرائيل، بأن أهلك عدوهم، وأورثهم أرضهم وديارهم، أتبع ذلك بالنعمة العظمى: وهي أن الله جاوز بهم البحر مع السلامة. وهذا تكملة الفصل العاشر من قصة موسى مع فرعون.

ثم ارتدوا وجهلوا وطلبوا من موسى عبادة الأصنام. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عما رآه من يهود المدينة، فقد فعلوا ما هو أعظم مع نبيهم موسى عليه السلام. وفي بيان ذلك تذكير للمؤمنين أن يشكروا نعمة الله، وألا يكونوا مثل بني إسرائيل.

التفسير والبيان:

أنقذ الله بني إسرائيل من كيد فرعون وملئه، فعبروا البحر آمنين بالسير في أرضه دون سفن، بعد أن أوحى الله لنبيه موسى بضرب البحر فانفلق، فكان كل فرْق كالطود العظيم، ثم أغرق الله فرعون وقومه حينما لحقوا بهم، وفي وسط البحر أطبق عليهم الماء، كما وصف تعالى هذا الحادث العجيب بقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/٦٣-٦٧].

وبعد أن جاوز بنو إسرائيل البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا، وشاهدوا أنه تعالى أهلك فرعون وجنوده، وخصهم بالنجاة

والسلامة، كانوا في غاية الجهالة والضلالة وجحود النعمة، إذ طلبوا من موسى اتخاذ إله من الأصنام، تأثراً بما رأوه من بعض العرب أو من غيرهم يعبدون الأصنام ويعظمونها ويلازمونها ويقبلون عليها، وتشبهاً بالمصريين الذين كانوا يعبدون التماثيل. وكأنهم لم يدركوا معنى التوحيد الذي دعاهم إليه موسى عليه السلام.

أما القوم الذين رأوهم فهم من الكنعانيين (وهم الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم) وقيل: كانوا من لَخْم. قال الطبري: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعدئذ.

فقالوا: يا موسى، اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، أي اجعل لنا صنماً نعكف عليه ونلازمه، كما لهم آلهة أصنام يعكفون عليها، والمراد أنهم طلبوا منه أن يعين لهم أصناماً. وهذا يدل على تأثرهم بالبيئة المصرية وحنينهم لها، وعلى نزعتهم المادية بتجسيد الإله في صورة معدن أو حجر.

فأجابهم موسى تعجباً من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى، فوصفهم بالجهل المطلق وأكده؛ لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع، فإنهم جهلوا مقام التوحيد، وما يجب من إفراد الله بالعبادة بلا واسطة من إنسان أو مادة، جهلوا عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل.

واتخاذ الواسطة إلى الله بهذه الأصنام كفر؛ فقد أجمع كل الأنبياء عليهم السلام على أن عبادة غير الله تعالى كفر، سواء اعتقد في ذلك الغير كونه إلهاً للعالم، أو اعتقدوا أن عبادته تقربهم إلى الله تعالى؛ لأن العبادة نهاية التعظيم، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام والإكرام[١].

---

(١) تفسير الرازي: ١٤/ ٢٢٣

وهذه طريقة السذّج والجهلة، وقد حدث في عهد النبي ﷺ مثل ذلك، روى أحمد والنسائي عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبَل حُنين، فمررنا بسِدْرة، فقلت: يا رسول الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط[١]، كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها، فقال: الله أكبر، كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ، إنكم تركبون سنن من قبلكم».

وتتمة ردّ موسى: إن هؤلاء يعني عبدة تلك التماثيل مُدَمَّر مكسَّر ما هم فيه، وزائل ما كانوا يعملون من عبادتها فيما سلف، فكل ما عملوه مضمحل الأثر، لا ينتفعون به، بل يعاقبون عليه، وإن كان في زعمهم تقرباً إلى الله، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٣].

وفي عبارة القرآن: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ﴾ إشارة إلى أن عبدة الأصنام هم المعرضون للهلاك، وأن عملهم إلى زوال، وهذا بشارة بزوال عهد الوثنية من تلك الأرض.

ثم قال لهم موسى: أغير الله خالق السماوات والأرض المنعم عليكم بهذه النعم أطلب لكم معبوداً؟ وهو الذي فضلكم على العالمين، أي عالمي زمانهم بالتوحيد وهداية الدين وتجديد ملة إبراهيم عليه السلام.

ثم ذكَّرهم موسى عليه السلام نعم الله العظمى عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العِزَّة والسيادة وخلافة الملك والسلطان، والاشتفاء أو الانتقام من عدوهم والنظر إليه وقت هلاكه وغرقه ودماره، بعد أن كان يسومكم سوء العذاب، بتقتيل

(١) كان للكفار سِدْرة أي شجرة السدر، يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط.

أبنائكم، وترك نسائكم أحياء، وتسخيركم للخدمة. وفي ذلكم المذكور من الإنجاء من فرعون وعمله، والإنعام عليكم بهذه النعم بلاء عظيم، أي أن النعمة أو المحنة اختبار مهم جداً، فأنتم أجدر الناس بعبادة ربكم الذي منحكم نعمة الحياة والإنقاذ والعزة، وأولى من غيركم بشكر تلك النعم الجليلة، وهل هناك عجب أشد من هذا العجب أن تطلبوا جعل آلهة مزيفة عاجزة خسيسة ضعيفة واسطة بينكم وبين الله الذي فضلكم عليها وعلى من يعبدونها.

والمراد بقوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ أي اذكروا ذلك الوقت، والقصد ذكر ما حصل فيه، حتى يشكروا الله عليه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية الأولى: ﴿وَجَٰوَزْنَا﴾ على جهالة بني إسرائيل بحقيقة التوحيد الذي جاء موسى عليه السلام من أجل إرشادهم إليه، فقد طلبوا منه أن يعين لهم أصناماً وتماثيل يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى، وهذا تماماً مشابه لفعل عبدة الأوثان حيث قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣٩/٣]. قال قتادة: كان أولئك القوم من لَخْم، وكانوا نزولاً بالرِّقّة. وقيل: كانت أصنامهم تماثيلَ بقر؛ ولهذا أخرج لهم السامري عجلاً.

ونظيره قول جهال الأعراب في عصر النبي ﷺ، وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تسمى «ذات أنواط»(١) يعظمونها في كل سنة يوماً: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذاتُ أنواط. فقال عليه الصلاة والسلام - كما تقدم -: «الله أكبر، قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، لتركبُنَّ سَنَن من قبلكم حَذْو

---

(١) ينوطون بها سلاحهم، أي يعلقونه.

القُذَّة[١] بالقُذَّة، حتى إنهم لو دخلوا جُحْر ضبّ لدخلتموه» وكان هذا في مَخْرجه إلى حُنَيْن.

وإن طلب إله آخر هو في غاية الجهل؛ لأن المعبود المستحق للعبادة والتعظيم هو القادر على خلق الأجساد والحياة والقدرة والعقل، وخلق الأشياء المنتفع بها، ولا يقدر على ذلك غير الله تعالى، فلا تليق العبادة إلا به.

ودلت آية: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ﴾ على أن عبدة الأصنام هم المعرضون للهلاك، وأن عملهم إلى زوال، وأن عهد الوثنية من الأرض سينتهي، لمناقضته العقل والفطرة.

وقد ندد موسى عليه السلام بطلب بني إسرائيل من نواح أربع:

أولها - أنه حكم عليهم بالجهل، فقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

وثانيها - أنه قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي سبب للخسران والهلاك.

وثالثها - أنه قال: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي هذا العمل الشاق لا يفيدهم نفعاً في الدنيا والدين.

ورابعها - التعجب منهم على وجه يوجب الإنكار والتوبيخ فقال: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أن الإله ليس شيئاً يطلب ويلتمس ويتخذ، بل الإله هو الله الذي يكون قادراً على الإنعام بالإيجاد وإعطاء الحياة وجميع النعم، وهو المراد من قوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على عالمي زمانهم.

---

(١) القُذَّة: ريش السهم، قال ابن الأثير: يضرب مثلاً للشيئين يستويان ولا يتفاوتان.

ومن المعروف أن بني إسرائيل يجحدون نعم الإله عليهم، فالله أنعم عليهم بتفضيلهم على عالمي زمانهم، وهي نعمة عظيمة، فكيف يليق بهم الاشتغال بعبادة غير الله تعالى؟!

وأنعم عليهم بالعزة بعد الذلة، وبالسلطان والحكم والخلافة في الأرض بعد العبودية والاستعمار والتبعة، وبالنجاة من ظلم فرعون الذي كان يقتل أبناءهم ويبقي نساءهم أحياء. والخطاب وإن كان ليهود عصر النبي ﷺ، فهو تذكير لهم بإنجاء أسلافهم.

مناجاة موسى لربه أو مكالمة موسى ربه وطلبه رؤية الله وإنزال التوراة عليه

﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

القراءات:

﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾:

وقرأ أبو عمرو (ووعدنا).

﴿أَرِنِيٓ﴾:

وقرأ ابن كثير، والسوسي (أرْني).

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ﴾: قرئ:

١- (ولكنِ انظُر) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمزة.

٢- (ولكنُ انظُر) وهي قراءة الباقين.

﴿دَكّٗا﴾:

وقرأ حمزة والكسائي وخلف (دكَّاء).

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ﴾:

قرأ نافع بإثبات ألف (أنا) وصلاً.

وقرأ الباقون بحذف الألف وصلاً. ولا خلاف في إثباتها وقفاً.

﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ اصطفيتك).

﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (برسالتي).

الإعراب:

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾ أي تمام ثلاثين ليلة، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، وهو في موضع المفعول الثاني لواعدنا. ولا يجوز أن يكون ﴿ثَلَٰثِينَ﴾ منصوباً على الظرف؛ لأن الوعد لم يكن في الثلاثين.

و ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ : حال، كأنه قال: فتم ميقات ربه معدوداً أربعين ليلة، و﴿لَيْلَةً﴾ : تمييز.

و ﴿هَـٰرُونَ﴾ مجرور على البدل من (أخيه) أو على عطف البيان.

﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ إما منصوب على المصدر من: دككت الأرض دكّاً، إذا جعلتها مستوية. وإما أن يكون منصوباً على المفعول، وفيه حذف مضاف؛ لأن الفعل الذي قبله ليس من لفظه وهو (جعل) وتقديره: فجعله ذا دَكٍّ، أي ذا استواء.

﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ بدل من الجار والمجرور قبله وهو ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

البلاغة:

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فيه التفات من الغيبة أي (سأريهم) إلى الخطاب، للمبالغة في الحض على انتهاج طريق الصالحين.

المفردات اللغوية:

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً﴾ أي وعدناه بأن نكلمه عند انتهائها، وبعد أن يصومها، وهي ذو القعدة، فصامها، فلما تمت أنكر خُلوف - رائحة - فمه، فاستاك، فأمره الله بعشرة أخرى، ليكلمه، بسبب إزالة خلوف فمه ﴿وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ﴾ من ذي الحجة .﴿فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ وقت وعده بكلامه إياه، والميقات: ما قدر فيه عمل من الأعمال، كمواقيت الصلاة والصوم والحج. أما الوقت: فهو وقت للشيء قدر فيه عمل أو لم يقدر .﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ﴾ عند ذهابه للجبل للمناجاة ﴿ٱخْلُفْنِى﴾ كن خليفتي ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أمرهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بموافقتهم على المعاصي.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا﴾ أي للوقت الذي وعدناه للكلام فيه ﴿وَكَلَّمَهُۥ

﴿رَبُّهُۥ﴾ بلا واسطة كلاماً سمعه من كل جهة ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ لن تقدر على رؤيتي، والتعبير به دون (لن أُرى) يفيد إمكان رؤيته تعالى.

﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ﴾ ثبت ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ أي تثبت لرؤيتي، وإلا فلا طاقة لك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾ انكشف وظهر نوره، قدر نصف أنملة الخنصر، كما في حديث صححه الحاكم ﴿دَكًّا﴾ مدكوكاً مستوياً بالأرض ﴿صَعِقًا﴾ مصعوقاً مغشياً عليه لهول ما رأى ﴿أَفَاقَ﴾ عاد إليه رشده وعقله وفهمه ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من سؤال ما لم أؤمر به ﴿أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في زماني.

﴿ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ اخترتك ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أهل زمانك ﴿وَبِكَلَٰمِى﴾ أي تكليمي إياك ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ من الفضل ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لأنعمي ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾ أي ألواح التوراة، وكانت سبعة أو عشرة، وهي من سدر الجنة، أو زبرجد أو زمرّد ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ تبييناً ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بجد وعزيمة واجتهاد ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فرعون وأتباعه، وهي مصر، لتعتبروا بها.

المناسبة:

بعد أن عدد الله تعالى طائفة من النعم على بني إسرائيل، كإنجائهم من عبودية فرعون، وجعلهم أمة مستقلة، ذكر هنا كيفية نزول التوراة على موسى، التي هي دستور حياتهم، وتبيان شريعتهم والأحكام التي أمر ربهم بها.

وسبب الآيات: هو ماروي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر: إن أهلك الله عدوهم، أتاهم بكتاب من عند الله، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فهذه الآيات في بيان كيفية نزول التوراة[1].

---

(١) تفسير الرازي: ١٤/ ٢٢٦

وموضوع الآيات: تحديد موعد لموسى لمكالمة ربه، واستخلاف هارون على بني إسرائيل في غياب موسى، وطلب موسى رؤية الله عز وجل، وإنزال التوراة المتضمنة أصول الشريعة.

التفسير والبيان:

امتن الله على بني إسرائيل بما ظفروا به من الهداية، بتكليمه موسى عليه السلام، وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم.

والمعنى: وعد الله تعالى موسى مكالمته، في تمام ثلاثين ليلة، وأمره بصومها، فصامها، وهي شهر ذي القعدة، فلما تمت أنكر موسى رائحة فمه، فاستاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل صيام عشرة أيام أخرى من ذي الحجة، وأن يلقى الله صائماً، فأصبح موعد اللقاء في تمام أربعين ليلة، ذكرت في سورة البقرة مجملة، وفصلت هنا.

وإنما قال: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ إزالة لتوهم أن ذلك العشر من الثلاثين؛ لأنه يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين، كأنه كان عشرين، ثم أتمه بعشر، فصار ثلاثين، فأزال هذا الإيهام[١].

روي عن أبي العالية أنه قال في بيان زمان الموعد: يعني ذا القعدة وعشراً من ذي الحجة، فمكث على الطور ليلة، وأنزل عليه التوراة في الألواح، فقرَّبه الرب نجياً، وكلمه وسمع صريف القلم.

قال ابن كثير: فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٥/ ٣][٢].

(١) تفسير الرازي: ١٤/ ٢٢٦، أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٣٤

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٤٣

وقال موسى حين أراد الذهاب إلى الطور لميقات ربه لأخيه هارون الأكبر منه سناً: كن خليفتي في القوم مدة غيابي، وأصلح أمر دينهم، ولا تتبع سبيل أهل الفساد والضلال، وهو يشمل مشاركتهم في أعمالهم الفاسدة. وهذا تنبيه وتذكير وتأكيد، وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله.

وكان هارون وزيراً لموسى بسؤاله ربه: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٢٩-٣٢]. وكانت الرياسة في بني إسرائيل لموسى عليه السلام.

ولما جاء موسى لميقات الله تعالى المحدد له للكلام مع ربه وإعطائه الشريعة، وكلمه ربه بلا واسطة كلاماً سمعه من كل جهة وسمعه السبعون المختارون للميقات، رغب في الجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية، فقال: أرني ذاتك المقدسة، وقوِّني على النظر إليك، فقال الله له: لن تراني الآن ولا في المستقبل في الدنيا؛ إذ ليس لبشر القدرة على النظر إلي في الدنيا، لقوله ﷺ فيما رواه مسلم: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبُحات وجهه - أنواره - ما انتهى إليه بصره من خلقه».

ثم أبان له أنه لا يطيق الرؤية فقال مستدركاً: ولكن انظر إلى الجبل، فإن ثبت مكانه عند التجلي الأعظم عليه، فسوف تراني. وإذا كان الجبل في قوته وثباته لم يستطع أن يثبت، فكيف أنت ياموسى؟

فلما تجلى ربه للجبل، وما تجلى منه إلا قدر الخنصر، جعله تراباً مدكوكاً، وخرَّ - سقط - موسى مغشياً عليه.

فلما أفاق من إغماءته وغشيانه أو صعقته، قال: سبحانك، أي تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراك أحد في الدنيا إلا مات.

إني تبت إليك من طلب الرؤية أي أن أسألك الرؤية، وأنا أول المؤمنين في

زماني من بني إسرائيل بعظمتك وجلالك، وفي رواية عن ابن عباس: وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة.

ثم طيب الله خاطره وأبان له مكانته، فقال له: ياموسى إني اخترتك على ناس زمانك وآثرتك عليهم بتكليمي إياك وبإعطائك رسالاتي المتنوعة، فخذ ما أعطيتك من الشريعة وهي التوراة، وكن من جماعة الشاكرين نعمي، المظهرين لإحساني إليك وفضلي عليك.

﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ الموعظة: تشمل كل ما يوجب الرغبة في الطاعة والنفرة من المعصية، والتفصيل: بيان أقسام الأحكام، أي وأعطيناه ألواحاً كتبنا له فيها أنواع الهداية والمواعظ المؤثرة، والأحكام المفصلة المبينة للحلال والحرام وأصول العقيدة والآداب، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة، وهي أول ما أوتيه من التشريع.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي فقلنا له: خذها عطفاً على ﴿وَكَتَبْنَا﴾ أي فخذها بقوة وجد وعزيمة، أي وعزم على الطاعة ونية صادقة، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها، أي يعملوا بالأوامر ويتركوا النواهي، ويتدبروا الأمثال والمواعظ. ومعنى ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ أي بحسنها وكلها حسن كالقصاص والعفو والانتصار والصبر، فليأخذوا بما فيه الحسن والصواب، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٥].

﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي سترون عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي، وكيف يصير إلى الهلاك والدمار.

قيل: أراد بها مصر، أي سأريكم ديار القِبْط ومساكن فرعون خالية منهم.

وقال قتادة: سأريكم منازل الكفار التي سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها؛ يعني الشام وأهل الشام، أي منازل عاد وثمود

والشعوب التي أهلكها الله بسبب الفسق، وتمرون عليها في أسفاركم. قال ابن كثير: وهذا هو الأولى؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه.

وإذا كان المراد مصر فإن الله تعالى لما أغرق فرعون، أوحى إلى البحر أن اقذف بأجسادهم إلى الساحل، ففعل؛ فنظر إليهم بنو إسرائيل، فأراهم هلاك الفاسقين. وهذا رأي أكثر المفسرين.

قال ابن جرير الطبري: وإنما قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره. أي أن في آية ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وجهين: إما التهديد والوعيد على مخالفة أمر الله تعالى، وإما الاعتبار بمن أهلكهم الله، وهم إما فرعون وجنوده، وإما منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكهم الله.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى مايأتي:

١ - تعظيماً لشأن الميقات أو الموعد بتكليم الله أمر الله موسى أن يصوم ثلاثين يوماً وأن يعمل فيها ما يقربه إلى الله تعالى، ثم أنزلت التوراة عليه في العشر البواقي في رأي، أو أنه أزال خلوف فمه بنهاية صوم الثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة في رأي الكثيرين، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة. فهذا هو فائدة تفصيل الأربعين إلى الثلاثين وإلى العشرة.

٢ - إنه تعالى كلم موسى عليه السلام، وكلام الله تعالى في قول أكثر أهل السنة والجماعة صفة أزلية قديمة، مغايرة للحروف والأصوات، فليس كلام الله حرفاً ولا صوتاً، وقد سمع موسى عليه السلام تلك الصفة الحقيقية الأزلية التي ليست بحرف ولا صوت، وإلا كان كلامه محدثاً.

٣ً - قد سمع السبعون المختارون للميقات أيضاً كلام الله تعالى؛ لأن الغرض بإحضارهم أن يخبروا قوم موسى عليه السلام عما يجري هناك، وهذا المقصود لا يتم إلا عند سماع الكلام، ثم إن حادثة التكليم معجزة لموسى، فلابد من اطلاع غيره عليها.

٤ً - أنزل الله تعالى على موسى في هذه المكالمة الألواح وفيها التوراة المشتملة على أصول العقيدة والأخلاق والآداب والشريعة والأحكام المفصلة المبينة للحلال والحرام، عن مقاتل: كتب في الألواح: «إني أنا الله الرحمن الرحيم، لا تشركوا بي شيئاً، ولا تقطعوا السبيل، ولا تحلفوا باسمي كاذبين، فإن من حلف باسمي كاذباً، فلا أزكيه، ولا تقتلوا، ولا تزنوا، ولا تعقّوا الوالدين».

٥ً - يجب تلقي الشريعة بجزم وجد وعزم على الطاعة وتنفيذ ما ورد فيها من الصلاح والإصلاح ومنع الفساد والإفساد، وتكوين الأمة تكويناً جديداً. والأخذ بأحسن مافي التوراة وكل مافيها حسن وهو الأخذ بالفرائض والنوافل، دون المباح الذي لا حمد فيه ولا ثواب[١].

٦ً - اعتز شعب إسرائيل حين أقام شريعته، فلما غلب عليه الغرور، وظن أنه شعب الله المختار، وظلم وفسق، سلط الله عليه البابليين، فأزالوا ملكه، ثم تاب فعاد إليه بعض ملكه، ثم ظلم وأفسد، فسلط عليه النصارى، فهزموه وشتتوه.

وكذلك المسلمون لما عصوا كتاب ربهم وأهملوه، سلط الله عليهم الأعداء من كل جانب، فأفسدوا أفكارهم وعقيدتهم وأخلاقهم، وأوقعوا الشقاق والنزاع بينهم.

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٣٥

والخلاصة: أن الأمة تكون عزيزة الجانب مرهوبة مادامت متمسكة بدينها، فإذا أهملته انهارت وضاعت ولا يَغْتَرَّنَّ أحد بدول أوربا وأمريكا وروسيا واليهود، فإن ذلك لأجل محدود، ولحكمة يعلمها الله تعالى.

٧ً - الآراء في رؤية الله عز وجل: استدل المعتزلة بهذه الآية: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وبقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٣] على نفي رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة، وما كان طلب موسى عليه السلام الرؤية إلا تبكيت السفهاء الذين طلبوا الرؤية، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله بامتناع ذلك.

وأثبت أهل السنة إمكان رؤية الله في الآخرة، بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٢٢-٢٣] وبالأحاديث الصحيحة المتواترة عن رسول الله ﷺ، ومنها: ما أخرجه أحمد والشيخان وأصحاب السنن الأربعة عن جرير أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته..» ومنها ما أخرجه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» وهي المعبر عنها بقولهم: إنها رؤية بلا كيف.

أما الآية هنا: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ فتدل على أنه تعالى جائز الرؤية؛ لأنه تعالى لو كان مستحيل الرؤية لقال: لا أُرى؛ ولأنه تعالى علق رؤيته على أمر جائز وهو استقرار الجبل، وما علق على جائز الوجود فهو جائز؛ ولأن موسى عليه السلام سأل الرؤية، ولا يسأل إلا الجائز، فلو كانت الرؤية ممتنعة على الله تعالى لما سألها، وحيث سألها، علمنا أن الرؤية جائزة على الله تعالى.

ثم إن التجلي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ هو إما ظهور بالرؤية أو الدلالة، وبما أن الرؤية غير مقدورة للإنسان، فكان

المراد ظهور آياته التي أحدثها لحاضري الجبل، أي أن المقصود تقرير أن الإنسان لا يطيق رؤية الله تعالى، بدليل أن الجبل مع عظمته لما رأى الله تعالى اندك وتفرقت أجزاؤه.

وفي نهاية الحادثة تسلية موسى عليه السلام عن منع الرؤية، وكأنه قال له: إن كنت قد منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا، فلا يَضِقْ صدرك بسبب منع الرؤية. وهذا أيضاً يدل على أن الرؤية جائزة على الله تعالى[1].

عقوبة التكبر والكفر
بصرف المتكبرين عن فهم أدلة العظمة الإلهية

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

القراءات:

﴿ءَايَٰتِيَ﴾:

وقرأ ابن عامر، وحمزة (آياتيْ).

﴿ٱلرُّشْدِ﴾:

(١) تفسير الرازي: ١٤/٢٢٩ - ٢٣٥، أحكام القرآن للجصاص: ٣/٣٤ - ٣٥

وقرأ حمزة، والكسائي (الرَّشَد).

الإعراب:

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فيه وجهان: أن يكون حالاً، بمعنى يتكبرون غير محقين؛ لأن التكبر بالحق لله وحده، وأن يكون صلة لفعل التكبر، أي يتكبرون بما ليس بحق.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: في محل الرفع مبتدأ، على معنى: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو في محل النصب، على معنى: صرفهم الله ذلك الصرف بسببه.

﴿وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به، أي ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها، أو من إضافة المصدر إلى الظرف، بمعنى ولقاء ما وعد الله في الآخرة.

المفردات اللغوية:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم، ومنعهم فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي، فلا يفكرون فيها، ويتكبرون عن طاعتي. وآياتي: دلائل قدرتي من المصنوعات وغيرها ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ أي يتكبرون عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق. والتكبر: غمط الحق بعدم الخضوع له، مع احتقار الناس غالباً. ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ﴾ طريق ﴿ٱلرُّشْدِ﴾ الهدى الذي جاء من عند الله، والصلاح والاستقامة، وضده الغي والسفه، والرُّشد والرَّشَد في اللغة: أن يظفر الإنسان بما يريد، وهو ضد الخيبة.

﴿ٱلْغَيِّ﴾ الضلال ﴿ذَٰلِكَ﴾ الصرف ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي الآيات المنزلة من عندنا المشتملة على الهدى وتزكية النفوس. فالآيات هنا غير الآيات الأولى التي هي الدلائل والبينات.

﴿وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ البعث وغيره ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ما عملوه في الدنيا من خير كصلة رحم وصدقة، فلا ثواب لهم لانعدام شرط القبول وهو الإيمان.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ما يجزون إلا جزاء عملهم من التكذيب والمعاصي.

المناسبة:

هذه الآيات تتحدث عن طبائع المتكبرين القدامى والمعاصرين، فبعد أن بيَّن الله تعالى ما لحق بفرعون وقومه من الهلاك بسبب استكباره وظلمه، ذكر أن امتناع قريش عن الإيمان إنما هو بسبب التكبر أيضاً، وهذا يدل على أن منشأ الإعراض عن الإيمان والإصرار على الكفر هو التكبر، والكبر يصرف الإنسان عادة عن النظر في الحق ويؤدي إلى التكذيب به، ويجعل المتكبر غافلاً عن آيات الله الدالة عليه.

التفسير والبيان:

سأمنع قلوب المتكبرين عن طاعتي والمتكبرين على الناس بغير حق من فهم الدلائل الدالة على عظمتي وشريعتي، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٦١/ ٥]. والمراد بآياتي هنا: الأدلة والبينات.

وهذا خطاب شامل كل أمة وفرد، مثل فرعون وقومه الذين منعهم الله من فهم آيات موسى، وقد يفهمون بعض الآيات ويجحدونها غروراً وتعالياً وتكبراً مثل قوم فرعون الذين قال الله فيهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ٢٧/ ١٤] ومثل كفار قريش الذين حجبهم الكبر عن النظر في الآيات مع يقينهم بصدق محمد.

هؤلاء المتكبرون من صفاتهم أولاً - أنهم لا يؤمنون بأي آية تدل على الحق

وتثبته؛ إذ لا تفيد الآيات إلا من كان مستعداً للفهم وقبول الحق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ١٠/٩٦-٩٧].

وثانياً - أنهم يبتعدون عن طريق الهدى والرشاد، وهي الطريق الممهدة المؤدية إلى النجاة، فإذا رأى أحدهم هذه السبيل لا يسلكها ويسلك غيرها، وهذا عن تعمد وعناد، وقد يكون بعضهم عن جهل، وحكم الفريقين واحد.

وثالثاً - أنهم إذا ظهر لهم سبيل الغي والضلال والفساد، بادروا إليه مسرعين، بما تزينه لهم أهواؤهم ونفوسهم الأمارة بالسوء، وهذا سلوك شر مما سبقه.

ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بعلة ثابتة وهي تكذيبهم بآيات الله المنزلة على رسله، وغفلتهم عن النظر بما فيها، وإعراضهم عن العمل بها.

ومجمل حال هؤلاء المتكبرين أن الله لم يخلقهم مطبوعين على الكفر والضلال، ولم يجبرهم عليه، بل حدث ذلك باختيارهم؛ إذ أنهم كذبوا بالآيات، وانغمسوا بأهوائهم وشهواتهم في بؤر الضلال والانحراف، وحجبوا أفهامهم عن إدراك الحق والهدى وسلوك سبيل السعادة والنجاة، فهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/١٧٩].

ثم أوضح الله تعالى مآل ما قد يعملونه من أعمال خيّرة في الدنيا: وهو إحباطها وإبطالها وتلاشي آثارها، وعدم ترتيب الثواب عليها، فقال: والذين كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا، ولم يؤمنوا بها، ولم يصدقوا بالآخرة والبعث وما فيه من جزاء على الأعمال ثواباً على الخير وعقاباً على الشر، واستمروا على وضعهم هذا إلى الممات، بطلت أعمالهم، وذهبت سدى، لفقد شرط

القبول وهو الإيمان، ولأن من سنته تعالى جعل الجزاء في الآخرة بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وكما تدين تدان.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه أحوال المتكبرين عن طاعة الله وعلى الناس، الظانين أنهم أفضل الخلق، وهو ظن باطل، لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فلا يتبعون نبياً، ولا يصغون إليه لتكبرهم.

يصرفهم الله تعالى عن التفكير في آيات الله الدالة على عظمته وشريعته وأحكامه، بالطبع على قلوبهم، وإلقاء الغفلة على نفوسهم، وشغلهم بأهوائهم وشهواتهم، وهم في تركهم تدبر الحق كالغافلين عنه.

إنهم يمعنون في معاداة الأنبياء، ويكذبون بالآيات المنزلة على الرسل، وينكرون وجود الآخرة، ولا يصدقون بكل آية، ويتركون طريق الرشاد، ويتبعون سبيل الغي والضلال، أي يتخذون الكفر ديناً.

واحتج أهل السنة بآية ﴿سَأَصْرِفُ﴾ على أنه تعالى قد يمنع عن الإيمان ويصد عنه.

وقالت المعتزلة: لا يمكن حمل الآية على ذلك، فليس المراد منها صرفهم عن الإيمان بآيات الله ولا خلق الكفر فيهم؛ لأن قوله: ﴿سَأَصْرِفُ﴾ يتناول المستقبل، والكفر حدث منهم في الماضي، مما يدل على أنه ليس المراد من هذا الصرف الكفر بالله، وإنما المراد العقوبة على التكبر والكفر.

ولأنه لو صرفهم عن الإيمان وصدهم عنه، فكيف يمكن أن يقول مع ذلك: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾؟ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾؟ ﴿وَمَا مَنَعَ

ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ﴾؟ [الانشقاق ٨٤/ ٢٠، المدثر ٧٤/ ٤٩، الإسراء ١٧/ ٩٤](١).

ودل قوله تعالى: ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ على أن الجزاء من جنس العمل، فمن آمن وعمل الصالحات فله الجنة، ومن كفر وعمل السيئات فله النار.

قصة اتخاذ السامري العجل

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

القراءات:

﴿حُلِيِّهِمۡ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (حِلِيِّهم).

﴿يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾:

وقرأ حمزة والكسائي وخلف: (ترحمنا ربنا وتغفر لنا).

الإعراب:

﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾ جار ومجرور متعلق بفعل ﴿وَٱتَّخَذَ﴾ والحلي: جمع حَلْي،

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ٢ - ٣

وأصله حُلُوي على فُعُول، نحو فَلْس وفلوس، فاجتمعت الواو والياء، والسابق منهما ساكن، فقلبوا الواو ياء، وجعلوهما ياء مشددة. ومفعول (اتخذ) الثاني محذوف أي إلهاً.

البلاغة:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن شدة الندم؛ لأن النادم يعض على يده عادة ألماً وحزناً. قال في (تاج العروس): هذا نظم لم يُسمع قبل القرآن ولا عرفته العرب. وذكرت اليد؛ لأن الندم يحدث في القلب، وأثره يظهر فيها بالعضّ أو بالضرب بها على اليد الأخرى، كما قال سبحانه في النادم: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٢].

المفردات اللغوية:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد ذهابه إلى جبل الطور للمناجاة ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم لعرس فبقي عندهم، والحلي: ما يتخذ للحلية من ذهب أو فضة ﴿عِجْلًا﴾ صنع لهم السامري عجلاً من الحلي بعد إذابته، والعجل: ولد البقرة كالْمُهْرِ لولد الفرس، والحُوَار لولد الناقة ﴿جَسَدًا﴾ جسماً ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت يسمع، بوضع التراب الذي أخذه من حافر فرس جبريل في فمه. والخوار: صوت البقر كالرُّغاء لصوت الإبل ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلهاً ﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ باتخاذه.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ ندموا على عبادته ﴿وَرَأَوْا۟﴾ علموا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾ بها بعد رجوع موسى.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى قصة مناجاة موسى لربه وإنزال التوراة عليه، ذكر هنا ما حدث أثناء المناجاة من اتخاذ قومه على يد السامري عجلاً مصوغاً من الحلي

(الذهب والفضة) تقليداً للمصريين في عهد الفراعنة الذين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من شمس وغيرها، ثم عبدوه من دون الله.

وهذا هو **الفصل الأول من قصة عبادة العجل.**

التفسير والبيان:

اتخذ بنو إسرائيل بعد خروج موسى إلى جبل الطور، لمناجاة ربه، على حسب الموعد الذي وعده الله به، اتخذوا من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، عجلاً جسداً له خوار، أي تمثالاً بصورة العجل وصوته، ثم عبدوه.

وكان بقاء حلي القبط في أيدي بني إسرائيل بعد أن أغرق الله القبط، وأهلك قوم فرعون.

وقد جمع موسى السامري تلك الحلي، وكان رجلاً مطاعاً فيهم، وصاغ لهم عجلاً، واتخذوه إلهاً لهم، ثم عبدوه. وإنما نسب إليهم جميعاً؛ لأنه عمل برأي جمهورهم، ولم ينكر عليه أحد، فصاروا مجمعين عليه، مريدين لاتخاذه، راضين به.

وكانوا قد سألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه، كما لغيرهم من المصريين والشعوب التي مروا بها في فلسطين آلهة.

واختلف المفسرون على قولين في هذا العجل، هل صار لحماً ودماً له خوار، أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء، فيصوت كالبقر[1]؟.

قال جماعة مثل قتادة والحسن البصري بالرأي الأول: وهوأن السامري

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٢٤٧

رأى جبريل حين جاوز ببني إسرائيل البحر راكباً فرساً، ما وطئ بها أرضاً إلا حلّت فيها الحياة، واخضرّ نباتها، فأخذ كفاً من أثرها، فألقاها في جوف ذلك العجل، فانقلب لحماً ودماً، وظهر منه الخوار مرة واحدة، فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى!.

وقال أكثر مفسري المعتزلة بالرأي الثاني: إنه كان قد جعل ذلك العجل مجوَّفاً، ووضع في جوفه أنابيب على شكل مخصوص، وكان قد وضع ذلك التمثال على مهب الرياح، فكانت الريح تدخل في جوف الأنابيب، ويظهر منه صوت مخصوص يشبه خوار العجل.

ورأى آخرون أن ذلك الخوار كان تمويهاً يشبه عمل السحرة (الحواة) وذاك أنه جعل التمثال أجوف، وجعل تحته في الموضع الذي نصب فيه العجل من ينفخ فيه من حيث لا يشعر به الناس، فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار، والناس يفعلون مثل هذا في النافورات التي تقذف المياه[(١)].

ثم رد الله على اتخاذهم العجل إلهاً بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي ألم ينظروا أنه فاقد لمقومات الإله، فلا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولا يهديهم سبيل السعادة، فهو تعالى ينكر عليهم ضلالهم وذهولهم عن خالق السماوات والأرض أن عبدوا معه عجلاً فاقداً صفة الإله الحق، وهي الكلام الذي يصدر عنه الهداية والإرشاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٩] ولكن الجهل والعمى حجبهم عن إدراك الحقيقة، روى الإمام أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «حبّك الشيء يعمي ويصمّ». لذا قال تعالى مؤكداً ضلالهم: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي إنهم اتخذوه إلهاً بلا دليل ولا برهان، بل عن جهل وتقليد لغيرهم، كالمصريين الذين يعبدون العجل:

---

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ٥ وما بعدها.

«أبيس» والأقوام العاكفين على عبادة الأصنام في فلسطين، فكانوا بذلك ظالمين لأنفسهم؛ إذ عبدوا مالا ينفعهم، وإنما يضرهم.

ولما عاد موسى من مناجاة ربه أو من الميقات، وكان قد أخبره الله تعالى، وهو على الطور، باتخاذ قومه عبادة العجل كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٥] لما عاد، ندم بنو إسرائيل على ما فعلوا، وهذا هو معنى قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ ورأوا أنهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً بعبادة العجل، فتابوا واستغفروا ربهم، وقالوا: إن لم يرحمنا ربنا بقبول توبتنا، ومغفرة ذنبنا، لنكونن من الهالكين، ومن الذين خسروا سعادة الدنيا وهي الحرية والاستقلال في أرض الموعد، وخسروا سعادة الآخرة وهي الإقامة في جنات النعيم. وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

فقه الحياة أو الأحكام:

يتبين من الآية أن بني إسرائيل يصعب عليهم الاستقرار على حال واحدة، وإن كانت هذه الحال من أسعد الأحوال، فهم قوم متناقضون، مترددون، متحيرون لا يدرون ماذا يفعلون، كثيرو الشكوى والضجر، قليلو الحمد والشكر على النعمة، نظرتهم أحياناً سطحية ساذجة، وتفكيرهم بدائي متأثر بالتقليد، والتقليد داء يسري في الأمة كما يسري في الفرد من حيث لا يشعر، أرادوا تقليد المصريين الذين عاشوا معهم في عبادة الأصنام والأوثان، وأكد حنينهم للوثنية ما وجدوه من عكوف على الأصنام عند الأقوام الذين سبقوهم في فلسطين.

ووجد موسى السامري رغبتهم باتخاذ العجل إلهاً، فصاغه لهم بذكائه من الحلي، ولكنهم لم يفكروا في جدارة العجل للألوهية، وظلموا أنفسهم؛ إذ إن هذا العجل لا يمكنه أن يكلمهم، ولا يمكنه أن يهديهم إلى الصواب والرشد، فهو إما جماد وإما حيوان عاجز، وفي الحالين فإنه لا يصلح للألوهية.

ثم تابوا وندموا على سوء فعلهم، واستغفروا ربهم، وطلبوا منه قبول التوبة والمغفرة على ذنبهم العظيم، وتأكدوا كونهم من الخاسرين إن لم يغفر الله لهم.

وهذا إقرار واضح بالعبودية، واعتراف بألوهية الإله الحق، وفي قراءة حمزة والكسائي: (لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا) معنى الاستغاثة والتضرع والابتهال في السؤال والدعاء. وفي ذلك أيضاً دلالة على اعترافهم بعظيم الجرم الذي أقدموا عليه، وأنه لا ملجأ من الله في إقالة عثرتهم إلا إليه.

واحتج أهل السنة بآية: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ على أن من لا يكون متكلماً ولا هادياً إلى السبيل، لم يكن إلهاً؛ لأن الإله هو الذي له الأمر والنهي، وذلك لا يحصل إلا إذا كان متكلماً، فمن لا يكون متكلماً لم يصح منه الأمر والنهي. وبما أن العجل عاجز عن الأمر والنهي لم يكن إلهاً.

وبمناسبة اتخاذ السامري العجل إلهاً لبني إسرائيل يذكر علماء التوحيد مقارنة لطيفة تدل على أن السعادة والشقاوة في علم الله من الأزل، فموسى بن عمران عليه السلام ربّاه فرعون، فكان مؤمناً بإلهام من الله تعالى، وموسى السامري ربّاه جبريل وكان في النهاية كافراً، وقال بعضهم:

إذا المرء لم يُخلَق سعيداً من الأزلْ فقد خاب من ربّى وخاب المؤمَّل
فموسى الذي ربّاه جبريل كافر وموسى الذي رباه فرعون مُرْسَل

وهذا لا يعني أن التربية والتوجيه لا أثر لهما، وإنما للبيئة كما هو معروف في حديث «كل مولود يولد على الفطرة»[1] تأثير كبير، وللتربية دور مهم جداً، فلولا المربي ما عرفت ربي، ولكن الإرادة الإلهية فوق كل شيء، والله غالب على أمره، ولله في خلقه شؤون، وله الحكمة العليا، وقد تجنح نفس الإنسان إلى السوء والفساد والانحراف، بالرغم من حسن التربية ورقابة المربي، كما نشاهد في بعض أولاد العلماء والصلحاء والأشراف.

(١) رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن الأسود بن سريع.

غضب موسى وتعنيفه هارون لاتخاذ العجل إلهاً

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

القراءات:

﴿بِئْسَمَا﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (بيسما).

﴿بعدِيٓ﴾: قرئ:

١- (بعديَ) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو.

٢- (بعديْ) وهي قراءة الباقين.

﴿بِرَأْسِ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً: (براس).

﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾: قرئ:

١- (ابن أمِّ) وهي قراءة ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (ابن أمَّ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ أمّ: تقرأ بكسر الميم وفتحها، فمن كسر الميم فعلى الأصل؛ لأن

الأصل فيه: أمّي، وتكون فتحة ﴿ابْنَ﴾ فتحة إعراب؛ لأنه منادى مضاف.

ومن فتح الميم بنى ابن مع أم، وجعلهما بمنزلة اسم واحد، كخمسة عشرَ، وتكون فتحة ﴿ابْنَ﴾ فتحة بناء، وليست بإعراب.

المفردات اللغوية:

﴿غَضْبَانَ﴾ بسبب فعل قومه ﴿أَسِفًا﴾ شديد الحزن، ومن استعمال الأسف بمعنى الحزن قول يعقوب: ﴿يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٤] وقد يستعمل الأسف بمعنى الغضب مثل: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥٥] قال أبو الدرداء: الأسف: أشد الغضب.

﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ أي بئس خلافة خلفتمونيها من بعد خروجي إلى ميقات ربي لمناجاته .﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ استعجلتم، والعجلة: التقدم بالشيء قبل وقته أما السرعة فهي عمل الشيء في أول أوقاته ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ طرح ألواح التوراة غضباً لربه، فتكسرت ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أي بشعره بيمينه، ولحيته بشماله ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ غضباً على وجه المعاتبة لا على وجه الإهانة ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ ذكر الأم أعطف لقلبه ﴿وَكَادُوا﴾ قاربوا ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾ تفرح، والشماتة: الفرح بالمصيبة، ولا تشمت بي الأعداء: بإهانتك إياي .﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بعبادة العجل في المؤاخذة.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى قصة السامري باتخاذ العجل إلهاً لبني إسرائيل، ذكر أثر ذلك ووقعه على موسى؛ إذ أنه في حال رجعته، كان غضبان أسفاً، واشتد أساه وحزنه حين رأى الواقع المؤلم من ضلال قومه وغيهم، فبادر إلى تعنيف أخيه هارون بسبب عبادة قومه العجل، ولامه على سكوته على قومه. وهذا هو **الفصل الثاني من قصة عبادة العجل.**

التفسير والبيان:

أخبر الله موسى بفعل بني إسرائيل، وهو على الطور، بقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨٥-٨٦].

فكان موسى أثناء رجوعه من الميقات غضبان أسفاً، أي ساخطاً شديد الحزن والأسى، وقال لقومه: بئسما فعلتم من بعد غيبتي، وبئست الخلافة التي خلفتموها من بعد ذهابي إلى جبل الطور لمناجاة ربي، حيث عبدتم العجل واتبعتم السامري، وتركتم عبادة الله وتوحيده، وقد كنت أوضحت لكم عقيدة التوحيد، وغرست في قلوبكم تلك العقيدة، وطهرت نفوسكم من الشرك والوثنية، وحذرتكم من ضلال القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم من تماثيل البقر. وكان موسى في ذلك كله شديد الشكيمة، قوي العزيمة، لقنهم التوحيد الخالص، وأنكر عليهم حين طلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً كغيرهم.

وقال موسى: أعجلتم أمر ربكم؟ أي استعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا له، وهو ما وعدكم من الأربعين، وذلك لأنهم قدروا أنه لما لم يأت على رأس الثلاثين، فقد مات[١]، أي تعجلتم في الحكم علي. قال الزمخشري: المعنى: أعجلتم عن أمر ربكم، وهو انتظار موسى حافظين لعهده، وما وصاكم به، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم، فحدثتم أنفسكم بموتي، فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم. وروي أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ٨٨] إن موسى لن يرجع وأنه قد مات[٢].

---

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ١١

(٢) تفسير الكشاف: ١/ ٥٧٨

وطرح موسى الألواح من يده، لما اعتراه من فرط الدهشة، وشدة الضجر عند استماعه حديث العجل، غضباً لله، وحمية لدينه، وكان في نفسه حديداً (ذا حدة) شديد الغضب، وكان هارون ألين منه جانباً، ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى.

وروي أن التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقى الألواح تكسرت، فرفع منها ستة أسباعها، وبقي منها سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء، وفيما بقي الهدى والرحمة.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى، ليس المعاين كالمخبَر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده، فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح».

وأخذ بشعر رأس أخيه يجره إليه بذؤابته، لشدة ما استفزه من الأمر، وذهب بفطنته، وظناً بأخيه أنه قصر في خلافته، وفرط في كفّ القوم عن عبادة العجل، ومن حق الخليفة اتباع سيرة سلفه: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٩٢-٩٣] أي أن تتبعني إلى جبل الطور.

ولقد كان موسى عليه السلام معذوراً فيما فعل فهو غضب للحق، فقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام لا يغضب لنفسه، فإذا انتهكت حرمات الله، كان أشد ما يكون غضباً لله.

فأجابه هارون قائلاً: يا ابن أمي، لا تتعجل بلومي وتعنيفي واتهامي بالتقصير في واجبي نحو الله تعالى، فإني أنكرت عليهم، ونصحتهم، ولكن القوم استضعفوني فوجدوني فرداً واحداً، ولم يلتفتوا إلى كلامي، بل قاربوا أن يقتلوني.

يا ابن أمي لا تشمت بي الأعداء، أي لا تفعل بي ماهو أمنيتهم من الاستهانة بي والإساءة إلي، ولا تجعلني في حنقك علي، وعقوبتك لي قريناً لهم وصاحباً، أو ولا تعتقد أني واحد من زمرة الظالمين لأنفسهم، يعني الذين عبدوا العجل، مع براءتي منهم ومن ظلمهم.

ولما اعتذر إليه أخوه واستعطف قلبه قال موسى: رب اغفر لي ما قد فرط مني من قول أو فعل فيهما غلظة وجفوة لأخي، واغفر لأخي ما قد فرط أثناء خلافته عني، من مؤاخذة القوم على ما ارتكبوه من جرم وإثم، وأدخلنا في رحمتك الواسعة، فأنت أرحم الراحمين، أي اجعل رحمتك ملازمة لنا لا تفارقنا في الدنيا والآخرة.

دعا موسى بهذا الدعاء ليرضي أخاه، ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه، فلا يشمتون به.

ودل ذلك على أن هارون كان دون موسى في شدة العزيمة وقوة الإرادة وأخذ الأمور بالحزم.

وأرشد اعتذار هارون أنه بريء من جريمة اتخاذ العجل إلهاً، وأنه لم يقصر في نصحهم والإنكار عليهم، وقد غفر الله له. وهذا مخالف لما في التوراة أن هارون هو الذي صنع العجل لهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

تختلف أحوال الناس وطبائعهم في سياسة الآخرين والاحتكاك بهم، فمنهم الحاد الطبع، السريع الانفعال كموسى عليه السلام، الذي غضب للحق، وهو محق فيما فعل، ومتوقع منه كل ما فعل، ومنهم الهادئ الطبع، اللين العريكة، الحليم مثل هارون عليه السلام الذي لم يأل جهده في الإنكار على قومه، ولكنهم لم يرعووا لِنُصحه وهَمُّوا بقتله.

ولم يغضب موسى لخبر ربه غضباً مماثلاً لِما شاهده من الواقع المر؛ لأنه ليس الخبَرُ كالعِيان، والشاهد يتألم ويتأثر عادة أكثر مما يتأثر به الغائب؛ لأن الشاهد يرى مالا يراه الغائب.

وكل هذه أحوال نفسية فطرية، لا سلطان للإنسان عليها، ومن المعروف أن الأمور الجبليّة من غضب وسرور ونحوهما لسنا مكلفين بها.

أما إلقاء موسى الألواح فكان بسبب دهشته واستفزازه ومن غير شعور منه تأثراً بما رأى، ففعل ما فعل، ولم يدر ما صنع. ولم يتعمد كسر الألواح، بل كان في غيبة وانفعال شديد، حتى لو كان بين يديه بحر من نار لخاضه.

وأما أخذه برأس أخيه يجره إليه من شعره ولحيته فلا يتنافى مع عصمة الأنبياء؛ لأنه لم يفعل ذلك على سبيل الإهانة والإذلال والاستخفاف، وإنما على سبيل الإكرام والتعظيم، كما تفعل العرب عادة من قبض الرجل على لحية أخيه إكراماً وتعظيماً. ولكن هارون كره ذلك لئلا يظن بنو إسرائيل أنه أهانه. وكان هارون أكبر من موسى عليهما السلام بثلاث سنين، وأحب إلى بني إسرائيل من موسى؛ لأنه كان ليِّن الغضب. ثم إن موسى فعل ذلك بأخيه؛ لظنه أو توهمه أن هارون مائل مع بني إسرائيل فيما فعلوه من أمر العجل، ومثل هذا الميل لا يجوز على الأنبياء.

وزال الإشكال باعتذار هارون أن عبدة العجل استضعفوه، وقاربوا يقتلونه، فقبل موسى عذره ودعا له ولأخيه بالمغفرة وطلب الرحمة، المغفرة له على ماكان من الغضب الذي ألقيت من أجله الألواح، والمغفرة لأخيه لما ظنه أنه مقصّر في الإنكار عليهم، وإن لم يقع منه تقصير، أي اغفر لي طرح الألواح، ولأخي إن قصر.

قال الحسن البصري: عبد كلهم العجل غير هارون، إذ لو كان ثَمَّ مؤمن غير موسى وهارون، لَما اقتصر على قوله: رب اغفر لي ولأخي، ولدعا لذلك المؤمن أيضاً.

وإنما أقام هارون ولم يتبع أخاه موسى إلى الطور، خوفاً على نفسه من القتل، فدلت الآية على أن من خشي القتل على نفسه عند تغيير المنكر له أن يسكت.

قال ابن العربي: هذا دليل على أن الغضب لا يغير الأحكام، كما زعم بعض الناس، فإن موسى عليه السلام لم يغيّر غضبُه شيئاً من أفعاله، بل اطّردت على مجراها من إلقاء لوح، وعتاب أخ، وصكّ ملَك[١]. قال المهدوي: لأن غضبه كان لله عز وجل، وسكوته عن بني إسرائيل خوفاً أن يتحاربوا ويتفرقوا.

وكان موسى لشدة حدته فيما رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة، أنه لما أرسل ملَك الموت إليه، صكَّه صكَّة، ففقأ بها عينه، فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني إلى عَبْد لا يريد الموت، فقال: ارجع إليه، فقل له: يضع يده على مَتْن ثور، فله بكل شعرة سنة، قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: الموت، قال: فالآن.. الحديث.

جزاء الظالمين باتخاذ العجل وقبول توبة التائبين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

الإعراب:

﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ المفعول الثاني محذوف، والتقدير: اتخذوا العجل إلهاً ومعبوداً.

(١) أحكام القرآن: ٢/ ٧٨٣

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا﴾ ﴿وَالَّذِينَ﴾: مبتدأ مرفوع، والجملة من ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ باسمها وخبرها في موضع رفع، خبر المبتدأ.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ عذاب وهو ما أمروا به من قتل أنفسهم، أي قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة. ﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ شعور بهوانهم على الناس، واحتقارهم لهم، وخروجهم من ديارهم ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما جزيناهم ﴿نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ على الله بالإشراك وغيره ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ رجعوا عن السيئات ﴿وَءَامَنُوٓا﴾ بالله ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

المناسبة:

الربط بين هذه الآيات وما قبلها واضح، فبعد أن ذكر تعالى عتاب موسى لأخيه هارون عليهما السلام، ثم استغفاره لنفسه ولأخيه، ذكر جزاء الظالمين باتخاذ العجل إلهاً ومعبوداً، وقبول توبة التائبين. وهذا هو **الفصل الثالث من قصة عبادة العجل.**

التفسير والبيان:

إن الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل إلهاً ومعبوداً بعد غيبة رسولهم موسى عليه السلام، وبقوا على تأليهه واستمروا على عبادته كالسامري وأتباعه، سيصيبهم عذاب شديد من ربهم، وهو المذكور في سورة البقرة، وهو أن الله تعالى لن يقبل توبتهم حتى يقتتلوا، ويقتل بعضهم بعضاً: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٢/ ٥٤].

وسينالهم أيضاً ذلة وصغار في الحياة الدنيا، بخروجهم من ديارهم

وتشردهم، وهوانهم على الناس واحتقارهم لهم، وتهالكهم على حب الدنيا، فهم الماديون المنبوذون المكروهون في كل أمة، وتلك هي ذلة عظيمة المعنى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/ ٦١] والذلة بمعناها القريب والبعيد. وأما قيام دولتهم في فلسطين فهي محنة للمسلمين، فربما أناس سُلِّط عليهم من هو شر لهم، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن بقاء دولة الصهاينة في فلسطين شيء مستحيل، ولا تؤيده الظروف والقرائن المشاهدة، وقد بشرت الأحاديث النبوية بقتلهم وطردهم منها، ولكل أجل كتاب.

ومثل ذلك الجزاء الذي نزل بالظالمين من بني إسرائيل في الدنيا نجزي القوم المفترين على الله في كل زمان، والمعنى: أن كل مفتر في دين الله جزاؤه غضب الله والذلة في الدنيا.

ويشمل ذلك كل من افترى بدعة وخالف الرشاد، وقال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هَمْلَجَت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين(١).

وروي عن أبي قُلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ فقال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة.

وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل(٢).

ومن عادة القرآن مقابلة الأشياء بأضدادها، فبعد أن ذكر جزاء الظالمين، فتح باب الأمل أمام التائبين، فنبه الله تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبتهم من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق،

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٤٨

(٢) المرجع والمكان السابق.

فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي والذين ارتكبوا الأعمال السيئة والمعاصي المنكرة شرعاً وعلى رأسها الكفر والشرك، ثم تابوا أي رجعوا من بعدها إلى الله، بأن آمن الكافر، وأقلع العاصي عن عصيانه، واستقام المؤمن على منهج ربه، وآمنوا إيماناً خالصاً من الشوائب، وقرنوا الإيمان بالعمل الصالح، إن ربك يامحمد من بعد تلك الفعلة لغفور لهم، ستار لذنوبهم، رحيم بهم يجزي بالحسنة عشر أمثالها، ويكافئ على القليل بالجليل الكثير.

سئل ابن مسعود عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها، فتلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها.

وهذا يفيد أن من عمل السيئات فلابد وأن يتوب عنها أولاً، وذلك بأن يتركها ويرجع عنها، ثم يؤمن بعد ذلك، يؤمن بالله تعالى، ويصدق بأنه لا إله غيره. وهذه الآية تدل على أن جميع السيئات قابلة للغفران بالتوبة، وهذه بشارة عظمى للمذنبين.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيتان مبدأين مهمين: مبدأ العدل في العقاب، ومبدأ الرحمة بالعصاة التائبين.

أما المبدأ الأول - وهو عدالة العقاب فهو ما قامت عليه شريعة الله، فمن أشرك بالله إلهاً آخر، كما فعل بنو إسرائيل في غيبة موسى عليه السلام، فهو ظالم لنفسه، يستحق غضب الإله عليه، ومصاحبة الذلة والهوان له في الحياة الدنيا. ومن ابتدع شيئاً ليس في دين الله فهو مفترٍ يناله من الجزاء مثل جزاء الظالمين الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ أي المبتدعين، قال الإمام مالك رحمه الله: مامن مبتدع إلا وتجد فوق رأسه ذلّة.

وينطبق ذلك على الناس كلهم في الماضي والحاضر والمستقبل، فهو يشمل فعلة بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، وكل من رضي بفعلهم كاليهود في زمن النبي ﷺ، وفي كل زمن على ممر الأجيال.

وأما المبدأ الثاني - مبدأ الرحمة بالعصاة التائبين فهو فضل عظيم من الله تعالى على هذه الأمة المسلمة وعلى الأمم كلها، ففي الآية خبر قاطع وقرار حاسم وحكم دائم وهو أن الله يقبل توبة التائب من الشرك وغيره من المعاصي؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يشمل الكفر وسائر المعاصي. ورحمة الله سبقت غضبه، ورحمته وسعت كل شيء، فمن آمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وبالقرآن دستوراً، وتاب من كفره أو معصيته، وعمل صالحاً فإن الله من بعد توبته غفور له رحيم به.

نهاية قصة اتخاذ العجل إلهاً

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

الإعراب:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ (لمّا): ظرف زمان، ويفتقر إلى جواب، وجوابها ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ وهو العامل فيها.

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى﴾ مبتدأ وخبر في موضع نصب على الحال من ﴿ٱلْأَلْوَاحَ﴾ والعامل فيه ﴿أَخَذَ﴾.

﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أدخل اللام على المفعول لتقدمه.

البلاغة:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ استعارة مكنية، شبه الغضب بإنسان

ثائر يرعد بصوته، طالباً الانتقام، ثم حذف المشبه به، وصرح بشيء من لوازمه وهو: ﴿سَكَتَ﴾ أي اختفى الصوت. وهو تشبيه لطيف رائع بليغ.

المفردات اللغوية:

﴿سَكَتَ﴾ سكن، والسكوت لغة: ترك الكلام، نسب إلى الغضب على طريقة تصويره بصورة شخص ثائر يأمر وينهى. قال الزمخشري: هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجرّ برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء.

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ أي ما نسخ أو كتب فيها ﴿هُدًى﴾ بيان للحق من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالإرشاد إلى الخير والصلاح. ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يخافون، والرهبة: أشد الخوف.

المناسبة:

لما بيَّن الله تعالى لنا ماكان من موسى حال الغضب، وانقسام قومه قسمين: مصر على عبادة العجل، وتائب إلى الله من ذلك، بيَّن في هذه الآية ماكان منه عند سكوت الغضب، وسكون النفس وهدأة البال. وإذا كان موسى سريع الغضب حاد الطبع، فهو أيضاً سريع العودة إلى الحلم حينما يعود الحق إلى نصابه، ويعدل الظالم عن ظلمه.

وهذا هو **الفصل الرابع والأخير من قصة عبادة العجل.**

التفسير والبيان:

ولما سكن غضب موسى على قومه، وهدأت نفسه بتوبة أكثرهم، أخذ الألواح التي كتبت فيها التوراة، والتي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرةً لله وغضباً له، فوجد فيها هدى للحيارى، ورحمة

بالعصاة التائبين الذين يخافون من ربهم أشد الخوف على ما يصدر منهم من ذنوب، ويخشون عذابه وحسابه. وقد ضمَّن الرهبة معنى الخضوع، فعداها باللام.

ذكر ابن عباس: أنه لما تكسرت الألواح صام موسى أربعين يوماً، فرُدَّت عليه، وأعيدت له تلك الألواح في لوحين، ولم يفقد منها شيئاً. قال القشيري: فعلى هذا: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى﴾ أي وفيما نسخ من الألواح المتكسرة، ونقل إلى الألواح الجديدة هدىً ورحمةٌ. وقال عطاء: وفيما بقي منها. وذلك أنه لم يبق منها إلا سبعها، وذهب ستة أسباعها. ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شيء.

فقه الحياة أو الأحكام:

الحلم سيد الأخلاق، فحينما هدأت نفس موسى عليه السلام، وعاد إلى أناته وحلمه، أخذ يتدارس الألواح التي كتبت فيها التوراة، فوجد فيها بيان الحق من الضلال، والهدى من الانحراف، والرحمة من العذاب، ببيان وجه الرشاد وسلوك طريق الخير والصلاح، لمن كان يخاف ربه ويخشى عقابه.

وفي ضوء ماوجد فيها من حدود وأحكام، أخذ يرشد قومه إلى مافيها، ويحملهم على العمل بها؛ لأنها شريعة الله لبني إسرائيل. وتلك هي فترة الاستقرار في حياة موسى على ما يظهر لنا، بعد أن مرّ بتقلبات وأحوال شديدة التأثير، كاد بها يخسر إيمان قومه برسالته إلى الأبد، لولا عودته إلى النصح والإرشاد بما نزل في التوراة.

اختيار موسى سبعين رجلاً لميقات الكلام والرؤية ومناجاته ربه

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

القراءات:

﴿شِئْتَ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (شيت).

﴿تَشَآءُ أَنتَ﴾:

بإبدال الهمزة الثانية واواً خالصة (تشاء ونت) قرأ: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.

وقرأ الباقون بالتحقيق.

الإعراب:

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾: ﴿قَوْمَهُۥ﴾، و﴿سَبْعِينَ﴾: منصوبان باختار، إلا أنه تعدى إلى ﴿سَبْعِينَ﴾ من غير تقدير حذف حرف جر، وتعدى إلى ﴿قَوْمَهُۥ﴾ بتقدير حذف حرف جر، والتقدير فيه: واختار موسى من قومه سبعين رجلاً، فحذف حرف الجر، فتعدى الفعل إليه.

البلاغة:

﴿تُضِلُّ﴾ و﴿وَتَهْدِى﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ أي اصطفى من قومه ﴿سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ أي ممن لم يعبدوا العجل في رأي أكثر المفسرين، اختارهم بأمره تعالى ﴿لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ للوقت الذي وعدناه بإتيانهم فيه، ليعتذروا من عبادة أصحابهم العجل ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ أي فخرج بهم، فلما أصابتهم الصاعقة أو الزلزلة الشديدة التي هزت القلوب والأبدان ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي قبل خروجي بهم، ليعاين بنو إسرائيل ذلك ولا يتهموني.

﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ استفهام استعطاف، أي لا تعذبنا بذنب غيرنا .﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ أي ماهي أي الفتنة التي وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك ﴿مَن تَشَآءُۖ﴾ إضلاله ﴿مَن تَشَآءُۖ﴾ هدايته ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ متولي أمورنا.

المناسبة:

هذه الآية استمرار في بيان ماحدث لموسى عليه السلام أثناء مناجاة ربه، فقد بدأ الله تعالى قصة ميقات الكلام وطلب الرؤية بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ ثم استطرد لبيان قصة عبادة العجل، ثم عاد لإتمام ماحدث في ذلك الميقات، فهو ميقات الكلام والرؤية نفسه، وليس ميقاتاً آخر، كما رجح الرازي؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ ثم قال: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ فدل على أن المراد بهذا الميقات هو عين ذلك الميقات[١].

التفسير والبيان:

أوحى الله إلى موسى أن يختار معه لميقات الكلام والرؤية سبعين رجلاً من

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ١٧ - ١٨

قومه بني إسرائيل، ففعل، وأتى بهم للميقات الذي وقَّته الله تعالى وهو مكان في جبل الطور: طور سيناء حيث ناجى ربه، وقد أمرهم أن يصوموا، ويتطهروا، ويطهروا ثيابهم.

والظاهر من ترتيب سرد الآيات أن اختيار هذا العدد كان عند طلب موسى رؤية الله عز وجل قبل اتخاذ عبادة العجل، وذلك ليكون سماعهم مناجاة موسى ربه دليلاً على صدقه، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: ياموسى، لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرناه، فأخذتهم رجفة الجبل وصعقوا حينما ألحوا في طلب الرؤية.

ولم تكن تلك الرجفة موتاً، ولكن القوم لما رأوا تلك الحالة المهيبة، أخذتهم الرعدة ورجفوا، وخاف موسى عليه السلام الموت، فعند ذلك بكى ودعا، فكشف الله عنهم تلك الرجفة. قال وهب: ما ماتوا، ولكن أخذتهم الرجفة من الهيبة حتى كادت أن تَبين مفاصلُهم، وخاف موسى عليهم الموت.

ولما أخذتهم الرجفة قال موسى: رب أتمنى لو كانت مشيئتك قد سبقت بإهلاكهم قبل هذا الوقت وقبل خروجهم معي إلى هذا المكان، أي حين طلب الرؤية، وأهلكتني معهم كذلك قبل أن أرى ما رأيت من رعدتهم، كيلا أحرج مع قومي، فيقولوا: قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم.

ثم أردف موسى قائلاً: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أي حيث طلبوا الرؤية لك جهاراً لسماعهم كلامك، وهو قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا من العناد وسوء الأدب.

وما هي إلا فتنتك أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك حين كلمتني، فسمعوا كلامك وطلبوا الرؤية، فليس الأمر إلا أمرك، وما الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل بالمحنة من تشاء من عبادك وهم الجاهلون غير المتثبتين في معرفتك، ولست بالظالم لهم أبداً في تقديرك، بل هذا موافق لطبعهم وكسبهم

واختيارهم، وتهدي بالمحنة أيضاً من تشاء من عبادك، وهم المؤمنون المتثبتون في معرفتك، ولست بالمحابي لهم في توفيقك للهداية، بل هذا متفق مع طبعهم وكسبهم واختيارهم، ولو ترك الفريقان وشأنهم لاختار كل منهم ماهو فيه وما قدر له. وإنما استفاد ذلك موسى عليه السلام من قوله تعالى له: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٢٠/ ٨٥] وجعل ذلك إضلالاً من الله وهدى منه؛ لأن محنته لما كانت سبباً لأن ضلوا واهتدوا، فكأنه أضلهم بها وهداهم، على الاتساع في الكلام.

أنت ولينا، أي المتولي أمورنا والمهيمن علينا، فاغفر لنا أي استر ذنوبنا ولا تؤاخذنا بها، وارحمنا وإن قصرنا وفرطنا، وأنت خير الغافرين، أي الساتر ذنوب العباد، العافي عن السيئات، ورحمتك وسعت كل شيء، ومغفرتك ورحمتك بلا سبب ولا علة ولا لمصلحة ولا لعوض، أما غيرك فإنما يغفر لأغراض عديدة كحب الثناء وطلب النفع أو لدفع الضرر، وأنت تغفر لمحض الفضل والجود والكرم، فهو حقاً وقطعاً ﴿خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾.

قال ابن كثير: والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها ألا يوقع العبد في مثل الذنب في المستقبل(١).

وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ يفيد الحصر، ومعناه أنه لا ولي لنا ولا ناصر ولا هادي إلا أنت.

وقيل: في تفسير الآية وطلب موسى إهلاكهم وقوله ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾: أن الفتنة يراد بها عبادة العجل، وأن طلب الإهلاك حينما عبدوا العجل، وأن الذين عبدوه هم السفهاء وهم الأكثرون، وأما عقلاء بني إسرائيل فلم يعبدوه.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٥٠

فقه الحياة أو الأحكام:

على المؤمن أن يلتزم الأدب مع الله وألا يسلك مسلك العناد، فطلب القوم رؤية الله عز وجل قياساً منهم على سماع كلامه، أدى بهم إلى إنزال الصاعقة أي الزلزلة الشديدة في الجبل الذي كانوا عليه.

وإذا كان هذا سبب الرجفة، فإن عبادة العجل تستحق عذاباً أشد وأنكى.

والمراد بالإضلال في قوله: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ ليس الإجبار أو الإكراه على الوقوع في الضلال كما تقول الجبرية؛ لأنه لم يقل: تضل بها من تشاء من عبادك عن الدين. ولأنه تعالى قال: ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي بالرجفة، ومعلوم أن الرجفة لا يضل الله بها، فوجب التأويل، وتأويل ذلك أنك تعاقب من تشاء بشرط ألا يؤمن، أو تهلك من تشاء بهذه الرجفة.

وكذلك الهداية في قوله: ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ يراد بها التوفيق والإرشاد إلى وجوه الهداية ومسالكها.

ولا شك أن خالق الداعية إلى الإيمان والكفر إنما هو الله تعالى، والعبد بقدرته الصالحة للإيمان والكفر يرجح أحد الجانبين على الآخر لما خلق الله فيه، وحينئذ تكون الهداية من الله تعالى، والإضلال من الله تعالى[١]، أي بالخلق والإيجاد، لا بالكسب والتحصيل، فالأول فعل الله والثاني فعل الإنسان.

فبنو إسرائيل هم الذين أظهروا العناد، فطلبوا رؤية الله جهرة، وهم الذين اخترعوا عبادة العجل.

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ١٩

بقية دعاء موسى عند مشاهدة الرجفة وربط الإيمان برسالته برسالة النبي ﷺ

﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

القراءات:

﴿عَذَابِىٓ﴾ :

وقرأ نافع : (عذابيَ).

﴿ٱلنَّبِىَّ﴾ :

وقرأ نافع : (النبيء).

﴿إِصْرَهُمْ﴾ :

وقرأ ابن عامر : (آصارهم).

البلاغة:

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وكذا ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ فيهما مايسمى بالمقابلة: وهي الإتيان بمعنيين فأكثر، ثم الإتيان بما يقابلها بالترتيب.

﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ استعار الإصر والأغلال لتكاليفهم الثقيلة أو الشاقة، فالإصر والأغلال مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱكۡتُبۡ﴾ أوجب ﴿حَسَنَةً﴾ الحسنة في الدنيا: الصحة والغنى عن الناس، والاستقلال، والحسنة في الآخرة: الجنة ونيل الرضوان ﴿هُدۡنَآ﴾ رجعنا وتبنا، فهو هائد، وقوم هود ﴿مَنۡ أَشَآءُۖ﴾ تعذيبه ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ عمت كل شيء في الدنيا ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾ أحكم بها في الآخرة، أي سأوجب حصول رحمتي، مِنَّة مني وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٤].

﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ، وهم الذين يتقون الشرك والعظائم من الذنوب ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي يخرجون زكاة الأموال التي تتزكى بها نفوسهم.

﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ النبي لغة مأخوذ من النبوة وهي الارتفاع، ومن النبأ: وهو الخبر المهم العظيم الشأن، وفي الشرع: هو من أوحى الله إليه بشرع ولم يأمره بتبليغه. والرسول: هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه. ولا يشترط الاستقلال بالشرع أو بالكتاب، بل قد يكون تابعاً لشرع غيره كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يتبعون التوراة. والأمي: الذي لم يقرأ ولم يكتب، ولقب العرب بالأميين كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٢] وحكى تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٥] والنبي الأمي: هو محمد ﷺ.

﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ باسمه ووصفه ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ما تعارفت العقول السليمة والفطر النقية على حسنه، وذلك موافق لما ورد الأمر به في الشرع.

﴿ٱلْمُنكَرِ﴾ ما تنكره النفوس والشرائع لمصادمته للفطرة والمصلحة.

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ما تستطيبه الأنفس والطباع السليمة من الأطعمة، ومعنى قوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي مما حرم في شرعهم ﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ ما تستخبثه الطباع السليمة وتنفر منه كالميتة والدم المسفوح، أو يكون سبباً في الضرر البدني كالخنزير الذي يسبب أكله الدودة الوحيدة وغيرها من المضار، أو الضرر الديني كالمذبوح الذي يتقرب به لغير الله. والخبيث من الأموال: ما يؤخذ بغير حق كالربا والرشوة والسرقة والغصب ونحو ذلك من المكاسب الخبيثة.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الإصر: الثقل الذي يأصِر صاحبه أي يحبسه من الحركة لثقله، مثل اشتراط قتل الأنفس بالتقاتل في صحة توبتهم ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾ الشدائد أو التكاليف الشاقة، والأغلال جمع غُل: وهو القيد الذي تربط به يد الجاني إلى عنقه. والمراد هنا: ماكان في شرائعهم من الأشياء الشاقة، مثل إيجاب القصاص في القتل مطلقاً، عمداً كان أو خطأً، من غير شرع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلْد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم العروق في اللحم، وتحريم السبت أي تحريم العمل فيه.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ منهم ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي أعانوه ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو، أي حاموا عنه ﴿ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي القرآن، وإنما أنزل مع جبريل، فالمراد: أنزل مع نبوته، وصارت نبوته مصحوبة بالقرآن.

التفسير والبيان:

هذا من تتمة دعاء موسى عليه السلام عند مشاهدة الرجفة، فأعلن أولاً

أنه لا ولي إلا الله بقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ والمتوقع من الولي والناصر أمران: دفع الضرر، وتحصيل النفع، ولما كان دفع الضرر مقدماً على تحصيل النفع، بدأ بطلب دفع الضرر، فقال: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ ثم أتبعه بطلب تحصيل النفع بقوله: ﴿وَٱكْتُبْ﴾.

أي أوجب لنا وأثبت لنا بفضلك ورحمتك حسنة، أي حياة طيبة في الدنيا بتوفير نعمة الصحة والعافية، وسعة الرزق، والتوفيق في العمل، والاستقلال في الأمور العامة، ومثوبة حسنة في الآخرة بدخول جنتك والظفر برضوانك وفيض إحسانك، وذلك كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠١].

﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تبنا ورجعنا وأنبنا إليك، أي ندمنا على ما طلبه قومنا من اتخاذ الآلهة وعبادة العجل ورؤية الله جهرة ونحو ذلك من فعل السفهاء، ورجعنا إلى الإيمان المقرون بالعمل.

قال الله: إن عذابي أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة، أما رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين، والعذاب مما يترتب على صفة العدل، ولكن الرحمة أشمل، ولولا عموم الرحمة لهلك الكفار والعصاة عقب كفرهم وعصيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٥] وقال عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَلْ لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٨].

والمراد من آية العذاب هنا: أني أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك. ثم قرن ذلك بما يطمئن العباد وهو أن الرحمة تسبق الغضب، وهي أعم وأشمل منه، فهذه آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى عن حملة العرش ومن حولهم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٤٠/ ٧].

ثم وصف الله تعالى مستحقي الرحمة وذكر من تثبت لهم: وهم الذين يتصفون بهذه الصفات وهم أمة محمد ﷺ وهي:

١ - الذين يتقون الشرك والمعاصي أو الذنوب.

٢ - والذين يؤتون الزكاة التي تتزكى بها نفوسهم، وتشمل زكاة الأنفس وزكاة الأموال. وخصت الزكاة بالذكر لعلاج مرض الماديين النفعيين وهم اليهود وأمثالهم، ولأن النفوس شحيحة بها غالباً.

٣ - والذين يؤمنون، أي يصدّقون بآياتنا الدالة على توحيدنا، وكفاية شريعتنا وسموها وصلاحيتها للعمل والتطبيق، وصدق رسلنا.

وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الثلاث هم متبعو ملة محمد ﷺ، وهاهي صفاته في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثته، وأمروهم بمتابعته، وأوصافه عندهم سبعة وهي:

١ - الرسول النبي الأمي: أي الذي لم يقرأ ولم يكتب، فالأمية آية من آيات نبوته، وأن القرآن المعجز منزل عليه من عند الله، فهو مع أميته أتى بأكمل العلوم وأجداها في العقيدة والعبادة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والأعمال. واتباعه: باعتقاد نبوته والعمل برسالته. وهذه الصفة يمكن أن تتنوع إلى صفات ثلاث: هي الرسول: أي المرسل من الله إلى الخلق لتبليغ التكاليف. والنبي وهو يدل على كونه رفيع القدر عند الله تعالى، والأمي.

٢ - وهو الذي يجدون اسمه وصفته مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، لذا آمن به بعض علماء اليهود مثل عبد الله بن سلام، وبعض علماء النصارى مثل تميم الداري. فأما المستكبرون فكانوا يكتمون البشارات به في كتبهم، ويؤولونها. روى الإمام أحمد عن أبي صخر

العقيلي قال: حدثني رجل من الأعراب قال: جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها، يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت، كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟» فقال برأسه هكذا، أي لا، فقال ابنه: إي، والذي أنزل التوراة، إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله فقال: «أقيموا اليهودي عن أخيكم» ثم تولى كفنه والصلاة عليه(١).

وجاء في الباب الثالث والثلاثين في التوراة من سفر تثنية الاشتراع: «جاء الرب من سينا، وأشرق من ساعير، واستعلى من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار، في يمينه قَبَس من نار» ومجيئه من سينا: إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام، وإشراقه من ساعير: إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه، واستعلاؤه من جبال فاران: إنزاله القرآن؛ لأن فاران من جبال مكة.

وجاء في الباب الخامس عشر من إنجيل يوحنا: «فأما إذا جاء الفارَقليط الذي أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من الأب ينبثق، فهو يشهد لي، وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء» والفار قليط بالعبرية: معناه أحمد، كما قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦١/ ٦].

٣، ٤ - إنه يأمر بالمعروف: وهو ما تعرفه العقول الرشيدة وتألفه الطباع السليمة، وقد ورد به الشرع، وهو ينهاهم عن المنكر: وهو ما تنكره النفوس الصافية. فهو عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٥١): هذا حديث جيد قوي، له شاهد في الصحيح عن أنس.

الشر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقولها: يا أيها الذين آمنوا، فأرْعها سمعك، فإنه خير تُؤْمَر به، أو شر تُنهى عنه.

ومن أهم ما أمر الله به: عبادة الله وحده لا شريك له؛ ومن أهم ما نهى عنه: عبادة ما سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ١٦/ ٣٦].

٥، ٦ - وإنه يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث: أي يحل لهم ما تستطيبه الأنفس من الأطعمة: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة ٢/ ٥٧، ١٧٢، والأعراف ٧/ ١٦٠، وطه ٢٠/ ٨١] ويحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ويحرم عليهم ما تأباه النفوس، كالميتة والخنزير والدم المسفوح، وما يؤخذ من الأموال بغير حق كالربا والرِّشْوة والغصب والخيانة. قال ابن عباس: الخبائث كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى. قال بعض العلماء: فكل ما أحل الله تعالى من المآكل، فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين.

٧ - وإنه يضع عنهم الإصر والأغلال: أي يرفع عنهم التكاليف الشاقة، كالقصاص في القتل، العمد أو الخطأ، من غير شرع الدية، وقتل النفس عند التوبة، أي التقاتل وإهدار الدماء، وقطع الأعضاء المذنبة، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وتحريم السبت.

أي إنه جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد في الحديث الذي رواه الخطيب عن جابر: «بعثت بالحنيفية السمحة» وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «بشّرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا».

ومن مظاهر التيسير: قوله ﷺ في الكتب الستة عن أبي هريرة: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها، مالم تتكلم به، أو تعمل به». وقوله فيما رواه الطبراني عن ثوبان: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: قد فعلت، قد فعلت.

أما اليهود فقد شدد الله عليهم في الأحكام الشرعية في العبادة والمعاملة والعقوبة، ثم خفف المسيح عليه السلام في بعض الأمور المادية، وشدد في الأحكام الروحية.

فالذين آمنوا بالنبي الأمي وبرسالته، وعزروه أي منعوه من الأعداء، ونصروه أي عظموه ووقروه، وأيدوه باللسان والسِّنان، واتبعوا النور الذي أنزل معه، أي القرآن والوحي الذي جاء به مبلِّغاً إلى الناس، أولئك هم المفلحون في الدنيا والآخرة، الناجون الفائزون بالرحمة والرضوان، دون من سواهم من حزب الشيطان الذين يخذلهم الله في الدنيا والآخرة. ويدخل في ذلك قوم موسى الذين يتحقق فيهم هذا الوصف العام.

فقه الحياة أو الأحكام:

بعد أن أقر موسى بأن لا إله إلا الله تعالى، أعلن أن الله ولينا أي القائم بأمورنا والمتولي شؤوننا، والولي يدفع الضر ويجلب النفع، لذا طلب منه المغفرة والرحمة لدفع الضر، المقدم على تحصيل النفع، ثم طلب منه تحقيق النفع وهو سؤاله الحسنة في الدنيا والآخرة.

ويناسب هذه الأشياء اشتغال العبد بالتوبة والخضوع والخشوع، لذا قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تبنا ورجعنا إليك.

فتحقق بهذا مجموع أمرين لابد منهما: وهما تقرير عزة الربوبية، أي كون الله تعالى إلهاً ورباً ووليّاً، والاعتراف بذل العبودية أي كون العباد له تائبين خاضعين خاشعين.

ثم أجاب الله موسى مبيناً أن عذابي أعذب به من أشاء، وليس لأحد علي اعتراض؛ لأن الكل ملكي، ومن تصرف في خالص ملكه، فليس لأحد أن يعترض عليه.

وأما رحمتي فهي عامة لا نهاية لها، ولا حد لسعتها، وسعت كل شيء، حتى إن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها.

روى الإمام أحمد وأبو داود عن جندب بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه قال: جاء أعرابي، فأناخ راحلته، ثم عَقَلها (ربطها بالحبل) ثم صلى خلف رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته، فأطلق عِقالها (حبلها)، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا تشرك في رحمتنا أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون: هذا أضل أم بعيره، ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى، قال: «لقد حظَّرت رحمة واسعة، إن الله عز وجل خلق مئة رحمة، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنّها وإنسها وبهائمها، وأخّر عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون: هو أضل أم بعيره».

وروى مسلم عن سلمان الفارسي عن النبي ﷺ قال: «إن لله عز وجل مئة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخَّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة».

ثم ذكر الله تعالى أوصافاً ثلاثة لمن يستحق رحمته، وهم المتقون، المؤتون الزكاة، المؤمنون بآيات الله تعالى.

قال بعض المفسرين: طمع في هذه الآية - أي ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كل شيء حتى إبليس، فقال: أنا شيء؛ فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فقالت اليهود والنصارى: نحن متقون؛ فقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية. فخرجت الآية عن العموم.

وهذه الأوصاف الثلاثة التي خصصت بها الآية شملت كل ما يصدر عن الإنسان وهو التروك والأفعال، أما التروك فهي الأشياء التي يجب على الإنسان تركها، والاحتراز عنها والاتقاء منها، وأما الأفعال فهي إما متوجهة على مال الإنسان أو على نفسه، الأول - الزكاة، والثاني - الإيمان، وهو يدخل فيه ما يجب على الإنسان علماً وعملاً، أما العلم فالمعرفة بالله، وأما العمل فبالإقرار باللسان والعمل بالأركان، ويدخل فيها الصلاة.

وأما صفات محمد ﷺ المقررة في التوراة والإنجيل فهي:

أ - كونه رسولاً نبياً أمياً: والرسول أخص من النبي، وقدم الرسول اهتماماً بمعنى الرسالة، وإلا فمعنى النبوة هو المتقدم، وكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً؛ لأن الرسول والنبي قد اشتركا في أمر عام وهو النبأ، وافترقا في أمر خاص وهي الرسالة.

وأميته لإبطال دعاوى اختلاق القرآن من عند نفسه، فكانت من المعجزات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٨] ومع أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يكتب وما كان يقرأ، كان يتلو كتاب الله بتعليم الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير، فكان ذلك أيضاً معجزة، كما قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ٦].

وكانت أمة العرب أمّية، روي في الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إنا أمةٌ أمّيةٌ، لا نكتب ولا نحسُب».

٢ً - صفاته موجودة في التوراة والإنجيل: وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوب في التوراة والإنجيل؛ لأن ذلك لو لم يكن مكتوباً، لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفِّرات لليهود والنصارى عن قبول قوله؛ لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات، ويترفع عنه العاقل، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته.

٣ً، ٤ً - مهمته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قال عطاء: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ بخلع الأنداد (الشركاء)، ومكارم الأخلاق، وصلة الأرحام. ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عبادة الأصنام، وقطع الأرحام.

ويجمع الأمر بالمعروف قوله عليه الصلاة والسلام: «التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله» والنهي عن المنكر يشمل النهي عن عبادة الأوثان، والقول في صفات الله بغير علم، والكفر بما أنزل الله على النبيين، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين.

٥ً - ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾: قيل: المراد بالطيبات: الأشياء التي حكم الله بحلها. ومذهب مالك: أن الطيبات هي المحلَّلات، فكأنه وصفها بالطيب؛ إذ هي لفظة تتضمن مدحاً وتشريفاً. ورد الرازي على ذلك باستبعاد هذا القول؛ لأنه يترتب عليه التكرار، فتصير الآية: ويحل لهم المحللات، وبه تخرج الآية عن الفائدة؛ لأنا لا ندري أن الأشياء التي أحلها الله ما هي وكم هي؟

بل الواجب أن يكون المراد من الطيبات: الأشياء المستطابة بحسب الطبع، وذلك لأن تناولها يفيد اللذة، والأصل في المنافع الحل فكانت هذه الآية دالة على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع السليم الحل، إلا لدليل. وهذا مذهب الشافعي أن الطيبات هي من جهة الطعم.

واحتج بهذه الآية بعض العلماء الذين ذهبوا إلى أن المرجع في حل المآكل التي لم ينص على تحليلها ولا تحريمها إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها. وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته.

٦ - ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾: أي يمنعهم من اقتراب المستخبثات وهي كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس، ويكون تناوله سبباً للألم، والأصل في المضار الحرمة. ومقتضاه: أن كل ما يستخبثه الطبع فالأصل فيه الحرمة إلا لدليل.

والخبائث في مذهب مالك هي المحرمات، ويقتضي ذلك أنه أحل المتقذرات كالحيات والعقارب والخنافس ونحوها. وقد عرفنا وجه الضعف في ذلك، وأن مذهب الشافعي هو تحريم المحرمات والمتقذرات، فتحرم العقارب والخنافس والوزغ ونحوها.

٧ - ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي يرفع عن بني إسرائيل التكاليف والأحكام الشاقة التي كانت مقررة عليهم، مثل تحريم الغنائم، وتحريم مجالسة الحائض وقرض موضع النجاسة، والقصاص من القاتل بلا دية، وقتل النفس علامة للتوبة، فكانوا إذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها، وإذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه، وروي: وجِلْد أحدهم، فأحل النبي ﷺ الغنائم، وأباح مجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها، ورخص بغسل البول، وشرع الدية، وقيَّد القصاص في القتل العمد، وجعل التوبة باللسان والقلب مع الله. ودلت الآية على أن من آمن بالنبي ﷺ وأيده وحماه وعظمه واتبع القرآن فهو من المفلحين أي الفائزين بالمطلوب في الدنيا والآخرة.

عموم الرسالة الإسلامية

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِيّ﴾:

وقرأ نافع: (النبيء).

المفردات اللغوية:

﴿قُلْ﴾ خطاب للنبي ﷺ. ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ القرآن. ﴿تَهْتَدُونَ﴾ ترشدون.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى وجود صفات النبي ﷺ في التوراة والإنجيل، وذكر أن من يتبعه، فله سعادة الدنيا والآخرة، أوضح مزية الرسالة الإسلامية وهي أنها عامة شاملة، وأن بعثته ﷺ للناس كافة، يدعوهم فيها إلى الإيمان به وبرسالته، وأن كل من يتبعه تشمله تلك السعادة.

التفسير والبيان:

قل يا محمد لجميع البشر من عرب وغيرهم، بيض أو سود: إني رسول الله إليكم جميعاً، لا إلى قومي العرب خاصة، وإلى كل وقت وزمن إلى يوم القيامة، وهذا يقتضي أن يكون مبعوثاً إلى جميع الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٧] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٨] وقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٩] أي وأنذر كل من بلغه. ومطلع سورة الفرقان يؤكد عالمية الرسالة.

وجاءت الأحاديث الثابتة مؤكدة عموم الرسالة النبوية، مثل حديث الصحيحين والنسائي عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ: «أعطيت خمساً لم يُعْطَهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرُّعب مسيرة شهر، وجعلت لي

الأرض مسجداً وطَهُوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة».

إني رسول الله الذي له الملك التام والتصرف الكامل في السماوات وفي الأرضين جميعها، وله القدرة التامة على الإحياء والإماتة.

وقد تضمنت هذه الآية عناصر العقيدة الثلاثة: وهي توحيد الربوبية بالإيمان، وتوحيد الألوهية بالإيمان والعمل، أي بعبادة الله وحده، ثم الإيمان برسالة النبي محمد ﷺ، ثم الإيمان بالبعث بعد الموت، وذلك معنى الإحياء والإماتة.

ورتب على ما سبق الدعوة إلى الإيمان فقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي فصدقوا أيها الناس قاطبة بالله الواحد الأحد الفرد الصمد في ربوبيته وألوهيته، وآمنوا برسوله النبي الأمي الذي بعثه إلى الخلق أجمعين.

وهو النبي الذي يؤمن بوحدانية الله وكلماته التشريعية التي أنزلها الله لهداية البشر، وكلماته التكوينية الدالة على قدرته وإرادته وحكمته، ويصدق قوله عمله، ويؤمن بما أنزل إليه من ربه. فالمراد من كلماته: ما تضمنته كتبه من التوراة والإنجيل والقرآن من أحكام وإرشادات وأدلة على وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته.

وهذا أمر بالإيمان أتبعه بالأمر بالإسلام، أي اتبعوا منهج هذا النبي، واسلكوا طريقه في كل ما جاء به، لتهتدوا إلى الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه، أو رجاء أن تهتدوا بالإيمان واتباع الشرع إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة.

والحق أنه لا هدى صحيحاً ثابتاً إلا في القرآن، ولا خير إلا في الدين، ولا

سعادة إلا باتباع شريعة خاتم النبيين، وبمقدار الالتزام بالشريعة يكون النجاح في الدنيا والآخرة.

روى مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمنُ بي إلا دخل النار».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على أن محمداً ﷺ مبعوث إلى جميع الخلق، وأن رسالته عامة للناس أجمعين، بل لكل العالمين من الإنس والجن.

والمراد بالناس: هم المكلفون أي البالغون العقلاء؛ لقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن علي وعمر: «رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يَبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق». والمقصود بالناس أيضاً كل من وصل إليه خبر وجوده وخبر معجزاته وشرائعه، وقلَّ أن تجد قوماً لم يبلغهم خبر ظهور محمد عليه الصلاة والسلام.

ودلت الآية أيضاً على ما يثبت كونه عليه الصلاة والسلام رسولاً إلى الناس جميعاً، وهو أنه مرسل من خالق العالم المتصف بالحياة والعلم والقدرة والوحدانية، المنزه عن الشريك والوالد والولد، القادر على الحشر والنشر والبعث والقيامة، مالك السماوات والأرضين، المتصرف في الكون كيفما يشاء، وأن الخلق كلهم عبيده، وهو المنعم عليهم بأعظم النعم، وأنه المجازي لهم بعد موتهم، مما يقتضي تكليف الخلق بما يريد.

وما على الخلق إلا الإيمان بوحدانية الله وبربوبيته، واتباع كلماته أي تشريعاته، وليس من التشريع أمور الدنيا العادية من تدبير شؤون الزراعة والصناعة والتجارة المباحة والعلوم النافعة، فتلك متروكة لعقول الناس

ومعارفهم وخبراتهم، لما ورد في الحديث الصحيح عند الشيخين: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

ومن كلمات الله: المعجزات الدالة على كونه نبياً حقاً؛ لأن كل شيء غريب يسمى كلمة، والمعجزات نوعان:

معجزات ظهرت في ذاته عليه الصلاة والسلام، وأشرفها وأهمها كونه رجلاً أمياً، لم يتعلم من أستاذ، ولم يطالع كتاباً، ولم يجالس أحداً من العلماء.

ومعجزات صدرت عنه مثل انشقاق القمر، ونبوع الماء من بين أصابعه.

وبه يكون المراد بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي يؤمن بالله وبجميع المعجزات التي أظهرها الله عليه، وبما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه.

اتباع الحق لدى بعض قوم موسى ونعم الله على بني إسرائيل في صحراء التيه

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

الإعراب:

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾: إنما أنث اثنتي عشرة على تقدير أمة، وتقديره: اثنتا عشرة أمة. و﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾: حال. و﴿أَسْبَاطًا﴾: بدل

منصوب من ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ﴾. ولا يجوز أن يكون ﴿أَسۡبَاطًا﴾ منصوباً على التمييز؛ لأنه جمع، والتمييز لما عدا العشرة إنما يكون مفرداً. و﴿أُمَمٗاۚ﴾: صفة لقوله: ﴿أَسۡبَاطًا﴾ كما ذكر ابن الأنباري. وقال الزمخشري عن كلمة «أمماً»: بدل من ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ﴾ بمعنى: وقطعناهم أمماً؛ لأن كل سبط كان أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد. وقال: ﴿أَسۡبَاطًا﴾ تمييز، ووجه كونه مجموعاً أنه وضع ﴿أَسۡبَاطًا﴾ موضع قبيلة؛ وكل قبيلة أسباط لا سبط.

المفردات اللغوية:

﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة. ﴿يَهۡدُونَ﴾ يرشدون الناس ويدلونهم. ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ في الحكم، أي يحكمون بين الناس بالعدل. ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾ فرقنا بني إسرائيل وصيرناهم فرقاً وقطعاً. ﴿أَسۡبَاطًا﴾ قبائل، والأسباط: أولاد الأولاد، جمع سِبْط وهو عندهم كالقبيلة في ولد إسماعيل. وأسباط بني إسرائيل: سلائل أولاده العشرة ما عدا لاوَى، وسلائل ولدي ابنه يوسف وهما إفرايم ومنس؛ لأن سلائل لاوى قامت بخدمة الدين في جميع الأسباط.

﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾ طلبوا منه الماء للسقيا في التيه. ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ انفجرت. ﴿ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ بعدد الأسباط. ﴿كُلُّ أُنَاسٖ﴾ سبط منهم. ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ﴾ جعلنا الغمام يظلهم في التيه، والغمام: سحاب رقيق أو أبيض أو السحاب مطلقاً. ﴿ٱلۡمَنَّ﴾ مادة بيضاء تنزل على ورق الشجر وغيره كالندى، حلوة المذاق كالعسل. ﴿وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ طير يشبه السُّمانَى، لكنه أكبر منه.

المناسبة:

بعد أن رغب الله سبحانه بني إسرائيل باتباع ملة محمد ﷺ عن طريق إنزال الرحمة عليهم ووصفهم بأنهم المفلحون، ذكر ثلاثة أحوال لهم، الحال الأولى:

أن بعضهم اتبعوا موسى بحق واتبعوا أيضاً محمداً ﷺ، والتزموا الحق وقضوا به، والحال الثانية: قسمتهم اثنتي عشرة فرقة بعدد أسباطهم الاثني عشر، والحال الثالثة: انفجار الحجر اثنتي عشرة عيناً بقدر عدد الأسباط لما طلبوا السقيا من موسى عليه السلام، وتظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى بأن طائفة من بني إسرائيل يتبعون الحق ويعدلون به، وهم المؤمنون التائبون من بني إسرائيل، آمنوا بموسى عليه السلام، وآمنوا بمحمد ﷺ، فهم جماعة قوّموا أنفسهم بالإيمان، وأرشدوا الناس إليه ودلوهم عليه، وهدوهم بالحق الذي جاءهم من عند الله، ويعدلون بالحق بينهم في الحكم، لا يجورون، كما قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٣] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٩] وقال عز وجل: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٥].

والخلاصة: الخبر في هذه الآية متعلق بجماعة مؤمنة من بني إسرائيل في عصر موسى، وبعد عصره، وهم أصناف ثلاثة: صنف أدركوا النبي ﷺ وآمنوا به، وهم المشار إليهم في آية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢١]. وصنف آمنوا بموسى واتبعوا مَنْ بعده مِن الأنبياء، وهم المذكورون في الآية هنا، وصنف محتمل للقسمين، كما في الآية المتقدمة: ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾.

وهذه شهادة عظيمة من الله تعالى تثبت وجود أهل الحق والعدل في كل أمة، وهذه هي الحال الأولى لبني إسرائيل.

والحال الثانية: أنه تعالى صيَّر قوم موسى اثنتي عشرة فرقة أو قبيلة تسمى أسباطاً، أي أمماً وجماعات، تمتاز كل جماعة منهم بنظام خاص بها في المعيشة وممارسة شؤون الحياة.

والحال الثالثة: حال الأسباط إزاء نعم الله تعالى عليهم، والنعمة الأولى: إغاثة الله لهم، حينما طلبوا من موسى السقيا، وقد عطشوا في التيه، فأوحى الله إلى موسى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، فضربه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً من الماء بقدر عدد أسباطهم، كل سبط له عين خاصة به ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ أي سبط مشربهم منه. والفرق بين الانبجاس والانفجار أن الأول: خروج الماء بقلّة، والثاني: خروجه بكثرة.

والنعمة الثانية: تظليل الغمام، فكانوا إذا اشتد عليهم الحر في الصحراء، يسخر الله تعالى لهم الغمام أي السحاب، يظلهم بظله الظليل، رحمة من الله.

والنعمة الثالثة: إنزال المن والسلوى: فكان الطعام الشهي ينزل عليهم بسهولة، دون عناء ولا مشقة، وهو المن الذي كان يقوم مقام الخبز عندهم وهو مادة حلوة الطعم يجتمع كالندى على ورق الشجر وغيره صباحاً، والسلوى: يقوم مقام سائر اللحوم، وهو طير أكبر من السُّمانى.

ثم قيل لهم: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، فهي نعم خصصناها بكم، فما عليكم إلا شكر النعمة.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بكفرهم بهذه النعم، ولكنهم ظلموا أنفسهم وأضروها بهذا الجحود والإنكار؛ لأن المكلف إذا أقدم على المعصية، فهو ما أضر إلا نفسه، حيث عرَّض نفسه للعقاب الشديد، ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية الأولى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ على أن الإسلام لا عصبية فيه.

وأن الله تعالى يعلمنا طريق الحكم على الناس والأشياء، وهو طريق الحق والعدل، فهو الحكم الموضوعي المجرد، وهو الحكم الأبقى والأخلد. إنها شهادة عظيمة من الله تعالى لجماعة من بني إسرائيل أنهم التزموا الحق والعدل في أنفسهم ومع غيرهم، فآمنوا بالنبي موسى عليه السلام وبمن بعده من الانبياء، وقضوا بين الناس بالعدل، ودعوا الناس إلى الهداية بالحق.

وهذه المزية أيضاً قائمة في أمة النبي ﷺ، فقد أنزل الله على نبيه محمد ﷺ ليلة الإسراء بعد رجوعه إلى الدنيا: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨١] يعني أمة محمد عليه الصلاة والسلام، فالله يعلمه أن الذي أعطيت موسى في قومه أعطيتك في أمتك.

ودلت آية ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ على قسمة بني إسرائيل اثنتي عشرة فرقة؛ لأنهم كانوا من اثني عشر رجلاً من أولاد يعقوب، فميزهم وفعل بهم ذلك، لئلا يتحاسدوا، فيقع بينهم الهرج والمرج. ولا شك أن القسمة تريح من عناء الاختلاف والنزاع في استيفاء المنافع، وليكون أمر كل سبط معروفاً من جهة رئيسهم، فيخف الأمر على موسى.

وأرشد قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ إلى النعم العظمى التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، وهي: أولاً - الشرب في التيه من ينابيع تفجرت اثنتي عشرة عيناً بعدد الأسباط، بضرب موسى الحجر، وهذه معجزة خارقة له، كمعجزة العصا واليد وفلق البحر لإنجائهم من فرعون وقومه. وثانياً - تظليل الغمام. وثالثاً - إنزال المن والسلوى، وقد أباح الله لهم تلك الطيبات، وسهل لهم الطعام والشراب.

ولكن بني إسرائيل لم يشكروا تلك النعم العظيمة، وجحدوا بها، وظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، وكانوا فاسقين لخروجهم عن طاعة الله تعالى.

أمر بني إسرائيل بسكنى القرية (بيت المقدس)

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

القراءات:

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي.

وقرأ الباقون بكسرة خالصة.

﴿شِئْتُمْ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً: (شيتم).

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾: قرئ:

١- (تُغْفَر لكم خطيئاتكم) وهي قراءة نافع.

٢- (تُغفر لكم خطيئتكم) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (نَغفر لكم خطايا كم) وهي قراءة أبي عمرو.

٤- (نَغفر لكم خطيئاتكم) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ هذا مفعول به منصوب بالكسرة نيابة عن

الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ومن قرأ يُغفَر وتُغفَر، رفع خطيئاتكم على أنه نائب فاعل. ومن قرأ يغفر بالياء بالتذكير فلوجود الفصل بـ ﴿لَكُمْ﴾. ومن قرأ بالتاء بالتأنيث فعلى الأصل، ولم يعتبر الفصل.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ واذكر إذ قيل ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس ﴿حِطَّةٌ﴾ أي أمرنا حطة أي حط عنا أوزارنا وخطايانا ﴿ٱلْبَابَ﴾ أي باب القرية ﴿سُجَّدًا﴾ سجود انحناء ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالطاعة ثواباً ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فقالوا: حبة في شعرة، ودخلوا يزحفون على أستاههم ﴿رِجْزًا﴾ عذاباً.

المناسبة:

بعد أن عدد الله تعالى أحوال بني إسرائيل وأصناف النعم التي أنعم بها عليهم، وجحودهم لها وظلمهم أنفسهم، ناسب أن يذكر نوعاً آخر من أنواع العصيان أو الظلم ومخالفة أمر الله، وهو دخول القرية بقول معين (حطة) وهيئة معينة (ساجدين) فالمناسبة بين الآيات واضحة وهي تبيان أحوال الظلم من هؤلاء القوم، لذا ختمت الآيتان بإثبات صفة الظلم فيهم.

التفسير والبيان:

سبق بيان هذه القصة في سورة البقرة في الآيتين (٥٨، ٥٩) مع اختلاف في الألفاظ فقط، ليتناسب ذلك مع بلاغة القرآن وكمال الإعجاز؛ لأن تكرار اللفظ نفسه غير بليغ، والبلاغة تقتضي إبراز المعنى الواحد بأساليب مختلفة وألفاظ متنوعة.

وقد ذكر الرازي ثمانية وجوه للمخالفة في الألفاظ بين السورتين[١]، وهي

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ٣٤ وما بعدها.

مايأتي، علماً بأنه لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض، ولا تناقض فيهما:

١ - هنا قال: ﴿ٱسۡكُنُواْ﴾ وهناك قال ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ والفائدة هنا أتم؛ لأن السكنى تستلزم الدخول دون العكس، فمن يسكن يدخل قطعاً، وليس العكس.

٢ - قال هنا: ﴿وَكُلُواْ﴾ وهناك قال: ﴿فَكُلُواْ﴾ لأن بدء الأكل يكون عقب الدخول، فيحسن ذكر فاء التعقيب بعده. وأما الواو فيدل على أن الأكل حاصل مع السكنى لا بعده.

٣ - وصف الأكل هناك بقوله: ﴿رَغَدًا﴾ أي واسعاً هنيئاً، ولم يذكر الوصف هنا؛ لأن الأكل للقادم في أول الدخول يكون ألذ وأمتع، وتهفو النفس إليه عادة، أما بعد طول المقام والانتظار فلا يحدث إلا عند الحاجة الشديدة وتكامل اللذة، فترك قوله: ﴿رَغَدًا﴾ فيه.

٤ - قدم هنا قول ﴿حِطَّةٌ﴾ على الدخول، وعكس الأمر هناك، ولا فرق بين التعبيرين؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب، فسواء دعوا أولاً ثم أظهروا الخضوع بالسجود أي تنكيس الرؤوس، أو أعلنوا التواضع والخضوع أولاً ثم دعوا بقولهم: ﴿حِطَّةٌ﴾؛ لأن المقصود تعظيم الله تعالى، وإظهار الخضوع والخشوع.

٥ - قال هنا: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾ وقال هناك: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ وكلا الجمعين سواء، وفيهما إشارة إلى أن مغفرة الذنوب تشمل القليل والكثير.

٦ - قال هنا: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بدون واو، وهناك ذكر الواو: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالعطف، والمعنى واحد، لكن ترك الواو الذي يفيد

الاستئناف أدل على أن زيادة الإحسان مستقلة عن المغفرة بعد الدعاء، تفضلاً من الله تعالى، وأن الموعود به شيئان: المغفرة وزيادة الحسنة.

٧ - قال هنا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا﴾ وقال هناك في سورة البقرة ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ والإنزال لا يشعر بالكثرة، والإرسال يشعر بها، فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل، ثم جعله كثيراً.

٨ - قال هنا: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ وقال هناك: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ إشارة إلى حصول الوصفين منهم، فهم ظالمو أنفسهم، وهم فاسقون خارجون عن طاعة الله تعالى، ثم إن الظلم فيه معنى الاعتداء على الغير، والفسق فيه معنى الخروج عن الدين.

وزيد هنا كلمة ﴿مِنْهُمْ﴾ في قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ ولم تذكر هناك، وزيادتها تأكيد في البيان. ومعنى التبديل أنهم تجرؤوا على المخالفة التامة بالقول والفعل، دون اجتهاد ولا تأويل.

والمعنى العام للآية: أن الله تعالى يذكّر بني إسرائيل المعاصرين للنبي ﷺ بما حصل من أسلافهم، وهم ملومون مثلهم لرضاهم بأفعال الأسلاف، فقد أمرهم الله بأن يدخلوا القرية وهي بيت المقدس أو قرية غيرها، والعرب تسمي المدينة قرية، داعين الله أن يغفر ذنوبهم، ومظهرين الخضوع والخشوع لله تعالى، وقد وعدهم الله بشيئين: الغفران وزيادة الإحسان. ولكن طبيعة اليهود التي يغلب عليها العصيان والتمرد أبت عليهم إلا تحدي الأمر الإلهي، والتنكر له، والتجرؤ على المخالفة بالقول والفعل، فقالوا: حَبَّة في شَعْرة، بدل ﴿حِطَّةٌ﴾ وزحفوا على أستاههم، بدل تنكيس رؤوسهم وخشوعهم وتواضعهم لله، شكراً له على نعمه عند دخول القرية، والتنعم بخيراتها من طعام وفاكهة وشراب.

وماذا كانت النتيجة المنتظرة؟ النتيجة أن الله تعالى صب عليهم عذاباً من

السماء صباً، بسبب ظلمهم أنفسهم وغيرهم، وفسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى إلى طاعة أهوائهم وشياطينهم، ولسخريتهم من أوامر الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

إن العبرة واضحة من هذه الواقعة أو القضية، وهي أن الله تعالى يعاقب الناس على ذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة، فما عليهم إلا الابتعاد عن الظلم والفسق؛ فقد عاقب الله بني إسرائيل على ظلمهم وفسقهم، بالرغم من فضائلهم، ككثرة الأنبياء فيهم، وتفضيلهم على العالمين، أي عالمي زمانهم.

حيلة اليهود على صيد الأسماك
يوم السبت وعقاب المخالفين

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

القراءات:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾:

وقرأ ابن كثير والكسائي، وحمزة وقفاً: (وسلهم).

﴿مَعْذِرَةً﴾: قرئ:

١- (معذرةً) وهي قراءة حفص.

٢- (معذرةٌ) وهي قراءة الباقين.

﴿بَئِيسٍ﴾: قرئ:

١- (بِيْس) وهي قراءة نافع.

٢- (بِئْس) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (بئيس) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ يتعلق بسأل، وتقديره: سلهم عن وقت عدْوهم في السبت، وهو مجرور بدل من القرية، و﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾: بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، ويجوز نصبه بيعدون، و﴿شُرَّعًا﴾: منصوب على الحال من ﴿حِيتَانُهُمْ﴾، والعامل فيه: ﴿تَأْتِيهِمْ﴾.

﴿مَعْذِرَةً﴾ مفعول لأجله، فكأنهم لما قالوا: لِمَ تعظون؟ ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي لمعذرةٍ إلى ربكم. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: موعظتنا معذرة.

﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ على وزن فعيل، مصدر «بيس» وتقديره: بعذاب ذي بيس، أي: ذي بؤس، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

المفردات اللغوية:

﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ يامحمد توبيخاً عما وقع لأهل القرية ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ هي أُيْلَة، وخليج أيلات معروف اليوم وقيل: مدين، وقيل: طبرية، والمراد بالقرية: أهلها، والعرب تسمى المدينة قرية، وعن أبي عمرو بن العلاء: ما

رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج، يعني رجلين من أهل المدن ﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قريبة مجاورة للبحر الأحمر (بحر القلزم) على شاطئه، وهي أيلة ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ يعتدون ويتجاوزون حد الله فيه، وهو اصطيادهم في يوم السبت، وقد نهوا عنه. و﴿ٱلسَّبْتِ﴾: مصدر سبتَت اليهود: إذا عظمت سبتها بترك الصيد وغيره من الأعمال، والاشتغال بالعبادة، والمعنى: يعدون في تعظيم السبت. وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ معناه يوم تعظيمهم أمر السبت.

﴿حِيتَانُهُمْ﴾ سمكهم، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة ﴿شُرَّعًا﴾ ظاهرة على الماء ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ لا يعظمون السبت أي سائر الأيام ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ابتلاء من الله ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم، ومعنى ﴿نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم. ولما صادوا السمك يوم السبت بحيلة حجزه وراء حواجز يوم الجمعة، افترقت القرية أثلاثاً: ثلث صادوا معهم، وثلث نهوهم، وثلث أمسكوا عن الصيد والنهي.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ﴾ معطوف على ﴿إِذْ﴾ قبله، والأمة منهم: الجماعة منهم وهي التي لم تصد ولم تنه كمن نهى ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً﴾ أي موعظتنا معذرة نعتذر بها إلى الله، لئلا ننسب إلى تقصير في ترك النهي، أي قياماً منا بعذر أنفسنا عند ربنا بقصد التنصل من الذنب ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الصيد.

﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ تركوا ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وعظوا به، أي تركوه ترك الناسي، وأعرضوا عنه إعراضاً تاماً، فلم يرجعوا عن المخالفة ﴿ٱلسُّوٓءِ﴾ العمل الذي تسوء عاقبته ﴿بَئِيسٍ﴾ شديد، مأخوذ من البأس وهو الشدة، أو من البؤس وهو المكروه ﴿يَفْسُقُونَ﴾ يخرجون عن الطاعة.

﴿عَتَوْا﴾ تكبروا عن ترك ما نهوا عنه ﴿خَاسِئِينَ﴾ صاغرين. أما الفرقة الساكتة فقال ابن عباس: ما أدري مافعل بالفرقة الساكتة. وقال عكرمة: لم

تهلك؛ لأنها كرهت ما فعلوه، وقالت: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾؟ وروى الحاكم عن ابن عباس: أنه رجع إلى قول عكرمة وأعجبه.

المناسبة:

تذكر الآيات نوعاً آخر من مخالفات اليهود وعصيانهم، فبعد أن ذكرت قصتهم في دخول القرية، ذكرت قصة احتيالهم على صيد الأسماك. وقد ذكرت هذه القصة في سورة البقرة إجمالاً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [٦٥] وأشير إليها في سورة النساء أيضاً في الآيتين [٤٧، ١٥٤]. وذكرت قبل ذلك هنا في سورة الأعراف التي نزلت بمكة قبل ملاقاة النبي ﷺ أحداً من اليهود، للدلالة على الإعجاز؛ لأن النبي ﷺ كان رجلاً أمياً، لم يتعلم علماً، ولم يطالع كتاباً، فإخباره بالقصة معجز، ودليل على أن ذلك من إخبار الله وكلامه.

وهناك فائدة أخرى من إيراد القصة: وهو التنبيه على أن الكفر بمحمد ﷺ وبمعجزاته ليس شيئاً جديداً حادثاً في هذا الزمان، وإنما كان الكفر والإصرار حاصلاً في أسلافهم من الزمان القديم.

أضواء من التاريخ على القصة:

روي أن اليهود أمروا باليوم الذي أمرنا به، وهو يوم الجمعة، فتركوه، واختاروا يوم السبت، فابتلوا به، وحرِّم عليهم فيه الصيد وأمروا بتعظيمه، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شُرَّعاً بيضاً سماناً، كأنها المخاض، لا يرى الماء من كثرتها، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم جاءهم إبليس، فقال لهم: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا حياضاً تسوقون الحيتان إليها يوم السبت، فلا تقدر على الخروج منها، وتأخذونها يوم الأحد. وأخذ رجل منهم حوتاً، وربط في ذنبه خيطاً إلى خشبة في الساحل، ثم

شواه يوم الأحد، فوجد جاره ريح السمك، فتطلع في تنوره، فقال له: إني أرى الله سيعذبك، فلما لم يره عذب، أخذ في السبت القادم حوتين، فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم، صادوا وأكلوا، وملَّحوا، وباعوا، وكانوا نحواً من سبعين ألفاً.

فصار أهل القرية أثلاثاً: ثلث نهوا وكانوا نحواً من اثني عشر ألفاً، وثلث قالوا: لم تعظون قوماً؟ وثلث هم أصحاب الخطيئة.

فلما لما ينتهوا، قال المسلمون: إنا لا نساكنكم، فقسموا القرية بجدار، للمسلمين باب، وللمعتدين باب، ولعنهم داود عليه السلام، فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم، ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس شأناً، فنظروا، فإذا هم قردة، ففتحوا الباب، ودخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسباءهم من الإنس، والإنس لا يعرفون أنسباءهم من القرود، فجعل القرد يأتي نسيبه، فيشم ثيابه ويبكي، فيقول: ألم ننهك؟ فيقول برأسه: بلى. وقيل: صار الشباب قردة والشيوخ خنازير.

وعن الحسن البصري: أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها، أثقلها خزياً في الدنيا، وأطولها عذاباً في الآخرة، هاه، وايم الله، ما حُوتٌ أخذه قوم فأكلوه، أعظم عند الله من قتل رجل مسلم، ولكن الله جعل موعداً، والساعة أدهى وأمر[١].

التفسير والبيان:

واسأل يامحمد يهود عصرك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، والسؤال للتوبيخ والتقريع، وبيان أن كفر المعاصرين للنبي ﷺ ليس جديداً، بل هو موروث، فإن أسلافهم ارتكبوا الذنب العظيم، وخالفوا أوامر الله تعالى.

---

(١) انظر القصة في الكشاف: ٢/ ٥٨٤ - ٥٨٥

وحذرهم من مخالفتك لئلا يحل بهم ماحل بسلفهم.

اسألهم عن أهل المدينة التي كانت قريبة من البحر على شاطئه، وهي أيلة على شاطئ البحر الأحمر، بين مدين والطور، حين اعتدوا حدود الله، وتجاوزوها يوم السبت الذي يعظمونه، بترك العمل فيه، وتخصيصه للعبادة، فخالفوا أمر الله فيه بالوصية لهم به إذ ذاك، واصطادوا السمك فيه، وقد نهوا عنه.

فكان السمك يأتيهم كثيراً على سطح الماء يوم تعظيم السبت، ولا يحتاج صيده إلى عناء.

ويوم لا يسبتون، في سائر الأيام غير السبت، تختفي الأسماك ولا تظهر، ولا تأتيهم كما كانت تأتيهم يوم السبت.

فاحتالوا على صيدها بإقامة الأحواض حيث يأتي المد بالسمك ثم إذا انحسر الماء بالجزْر، تبقى الأسماك في الأحواض، فيأخذونها يوم الأحد.

مثل ذلك البلاء بظهور السمك يوم السبت المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في الأيام التي يحل لهم صيده، نبلو أي نختبر السابقين والمعاصرين، ونعاملهم معاملة من يختبر حالهم، ليجازى كل واحد على عمله، بسبب فسقهم المستمر وخروجهم عن طاعة الله؛ لأن من سنة الله أن من أطاعه، سهل له أمور الدنيا، وأثابه في الآخرة، ومن عصاه، ابتلاه بأنواع المحن والمصائب.

وحين ظهور المعصية فيهم، انقسم أهل تلك القرية فرقاً ثلاثاً، هي فرقة المؤيدين، وفرقة المعارضين الواعظين، وفرقة المحايدين الذين لم يجدوا فائدة من الوعظ ولاموا الواعظين قائلين لهم: لِمَ تعظون قوماً قد قضى الله بإهلاكهم وإفنائهم، وقد علمتم أن الله سيهلكهم ويعاقبهم في الدنيا والآخرة.

فأجابهم الواعظون: نعظهم لنبرئ أنفسنا من السكوت عن المنكر، ونعتذر إلى ربكم بأننا أدينا واجبنا في الإنكار عليهم، ونحن لا نيأس من صلاحهم وعودتهم إلى الحق، ولعلهم بهذا الإنكار يتقون ماهم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة، أنجينا الناهين عن السوء وهم فريق الواعظين وفريق اللائمين، إلا أن الفريق الأول كانوا أحزم وأقوى؛ لأنهم أنكروا بالقول والفعل، لذا صرح القرآن بنجاة الناهين، والفريق الثاني أنكر بالقلب فقط، لذا سكت القرآن عن الساكتين، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا ذنباً، فيذموا.

وعذبنا الظالمين الذين ارتكبوا المعصية بعذاب شديد.

وذلك العذاب أنهم لما عتوا أي تمردوا وتكبروا عن ترك ما نهوا عنه، وأبوا سماع نصيحة الواعظين، جعلهم الله قردة صاغرين أذلاء منبوذين مبعدين عن الناس. هذا عذاب الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

والظاهر وهو رأي الجمهور أنهم مسخوا قردة على الحقيقة؛ لمخالفتهم الأوامر وتماديهم في العصيان، لا لمجرد اصطياد الحيتان. وهل هذه القردة من نسلهم أو هلكوا وانقطع نسلهم؟ لا دلالة في الآية عليه.

وقال مجاهد: أصبحوا كالقردة في سوء الطباع والطيش والشر والإفساد، بسبب جناياتهم.

والراجح رأي العلماء الذين قالوا: إن الساكتين كانوا من الناجين؛ لرجوع ابن عباس إلى رأي عكرمة في نجاة الساكتين، وقد رجح ابن كثير هذا الاتجاه، قائلاً: وهذا أولى من القول بأنهم من الهالكين؛ لأنه تبين حالهم بعد ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات في هذه القصة على مايأتي:

١ - الإخبار بالقصة علامة لصدق النبي ﷺ؛ إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم. وكانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ٥/ ١٨]؛ لأنا من سِبْط خليله إبراهيم، ومن سبط إسرائيل، ومن سبط موسى كليم الله، ومن سبط ولده عزير، فنحن من أولادهم، فقال الله عز وجل لنبيه: سلهم يامحمد عن هذه القرية: أما عذبتهم بذنوبهم؟

٢ - إبطال الحيل الممنوعة المؤدية لتعطيل شرع الله، وهدم مبادئه، وتجاوز أحكامه، ومخالفة أوامره.

٣ - القول بسدّ الذرائع، أي تحريم كل وسيلة تؤدي إلى الممنوع أو المحظور شرعاً، فما أدى إلى الحرام فهو حرام.

٤ - إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعتزال أهل الفساد ومجانبتهم، وأن من جالسهم، كان مثلهم.

٥ - دل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ على أن من أطاع الله تعالى، خفف الله عنه أحوال الدنيا والآخرة، ومن عصاه ابتلاه بأنواع البلاء والمحن. وهذا يعني أن المعاصي سبب النقمة.

٦ - واحتج أهل السنة بالآية على أنه تعالى لا يجب عليه رعاية الصلاح والأصلح، لا في الدين ولا في الدنيا؛ لأنه تعالى علم أن تكثير الحيتان يوم السبت، ربما يحملهم على المعصية والكفر، فلو وجب عليه رعاية الصلاح والأصلح، لوجب أن لا يكثر هذه الحيتان في ذلك اليوم، صوناً لهم عن ذلك الكفر والمعصية.

٧ - الفرقة التي عصت أوامر الله، وتمادت في معصية الله، كانت هالكة،

والفرقة التي أنكرت العصيان ووعظت العصاة، كانت ناجية. وأما الفرقة الساكتة فكانت على الراجح من الناجين، لإنكارها بالقلب، ويأسها من الإصلاح.

٨ - قد لا يأتي العذاب الشديد فجأة، وإنما بالتدريج، فقد عاقب الله بني إسرائيل أولاً بتنكيل البابليين، ثم النصارى بهم، وسلبوا ملكهم. ومن ألوان عذاب الدنيا: المسخ قردة وخنازير بسبب التمادي في العصيان، ثم يأتي عذاب الآخرة.

رفع الجبل فوق اليهود وإذلالهم إلى يوم القيامة وتفريقهم في الأرض واستثناء الصالحين

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ
أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ
وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا
يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا
مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

القراءات:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: قرئ:

١- (أفلا تعقلون) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وحفص.

٢- (أفلا يعقلون) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون: صفة لموصوف محذوف، وتقديره: ومنهم جماعة دون ذلك، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، وهو منصوب على الظرف .﴿أُمَمًا﴾ مفعول ثانٍ أو حال ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ صفة أو بدل منه.

﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾: جملة فعلية في موضع رفع؛ لأنها صفة ﴿خَلْفٌ﴾.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من واو ﴿وَرِثُواْ﴾.

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ الجملة حال من ﴿وَيَقُولُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ معطوف على ﴿يَأْخُذُونَ﴾.

﴿وَدَرَسُواْ﴾ معطوف على ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ اعتراض وقع بين: ورثوا ودرسوا .﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ عطف بيان لميثاق الكتاب.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ في موضع رفع لأنه مبتدأ، وخبره: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ وتقديره: إنا لا نضيع أجر المصلحين منهم، ليعود من الخبر إلى المبتدأ عائد. ويجوز أن يكون ذكر ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ من قبيل وضع المظهر موضع المضمر أي أجرهم، تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾ وإذ: في موضع نصب بتقدير فعل، وتقديره: واذكر إذ نتقنا.

﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ في موضع نصب على الحال من ﴿ٱلْجَبَلَ﴾. وقيل: في موضع رفع بتقدير مبتدأ محذوف.

البلاغة:

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، لزيادة التوبيخ.

المفردات اللغوية:

﴿تَأَذَّنَ﴾ مثل أذّن: أي أعلم ونادى للإعلام ﴿لَيَبۡعَثَنَّ﴾ ليسلطن ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على اليهود ﴿يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ يذيقهم سوء العذاب بالذل وأخذ الجزية، فبعث عليهم سليمان، وبعده البابليين المجوس بقيادة بختنصر، فقتلهم وسباهم وضرب عليهم الجزية، ثم النصارى، ثم المسلمين، ثم الألمان في العصر الحديث ﴿لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ﴾ لمن عصاه ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ﴾ لأهل طاعته ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم.

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ﴾ فرقناهم في الأرض ﴿أُمَمٗاۖ﴾ أي جماعات وفرقاً ﴿وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي ناس منحطون عنهم وهم الكفار والفساق ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم﴾ اختبرناهم ﴿بِٱلۡحَسَنَٰتِ﴾ بالنِّعم ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ النقم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ عن فسقهم. ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ بسكون اللام: من يخلف غيره في الشر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [مريم: ١٩/ ٥٩] وبفتح اللام: من يخلف غيره بالخير، والخلف: مصدر نعت به، ولذلك يقع على الواحد والجمع، وقيل: جمع ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراة عن آبائهم ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ العرض: متاع الدنيا وحطامها، والأدنى: الشيء الدنيء وهو الدنيا، والمراد يأخذون المال أو هذا الشيء الدنيء من حلال وحرام.

﴿لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾ الجملة حال، أي يرجون المغفرة، وهم عائدون إلى ما فعلوه، مصرون عليه، وليس في التوراة وعد المغفرة مع الإصرار، وإنما غفران الذنوب لا يصح إلا بالتوبة، والمصرّ لا غفران له.

﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ﴾ استفهام تقرير ﴿مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الإضافة بمعنى في، وهو

قوله في التوراة: من ارتكب ذنباً عظيماً، فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة .﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ عطف على: ﴿يُؤْخَذْ﴾ أي قرؤوه وفهموه، فهم عارفون الحكم ذاكرون له. فلِمَ كذبوا عليه بنسبة المغفرة مع الإصرار ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الحرام .﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أو بالياء: أنها خير، فتؤثروها على الدنيا .﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ بالتشديد والتخفيف أي يتمسكون به ويعملون ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾ واذكر إذ رفعنا الجبل من أصله ﴿ظُلَّةٌ﴾ أي مظلة وهي كل ما أظلك من سقف أو سماء أو جناح طائر ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم، بإنذار الله لهم بوقوعه إن لم يقبلوا أحكام التوراة، وكانوا أبوها لثقلها، فقبلوا .﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أي قلنا لهم: خذوا ما آتيناكم بجد واجتهاد .﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ بالعمل به.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى بعض قبائح اليهود وعقابهم عليها بالمسخ قردة، ذكر في هذه الآية أنه تعالى حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة، عقاباً على أفعالهم، ثم ذكر أنه فرقهم جماعات مشردين في الأرض، وأن خَلْفَهم جماعة ماديون تهمهم الدنيا فقط، وأن أسلافهم قبلوا الأخذ بالتوراة بعد إنذارهم بإسقاط الجبل عليهم. وهذا كله للعبرة، فكل أمة تفسق عن أمر الله وتخالف أحكام الدين مهددة بمثل هذا العقاب.

التفسير والبيان:

واذكر يامحمد حين أعلم ربك أسلاف اليهود على لسان أنبيائهم أنه قضى عليهم في علمه وأوجب على نفسه، ليسلطنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم العقاب الشديد، ويلحق بهم الذل والصغار، ويفرض عليهم الجزية، ويبدد مُلكهم، ويفرق شملهم، حتى يصبحوا أذلة مشردين.

إن ربك لسريع العقاب لمن عصاه وخالف شرعه، وإنه لغفور لمن تاب إليه وأناب، ورحيم بأهل الطاعة والإنابة.

وقد تحقق مدلول الآية، فكان موسى عليه السلام أول من فرض الخراج عليهم، وألزمهم به، ثم قهرهم اليونانيون والكشدانيون والكلدانيون والبابليون، ثم الروم النصارى، أخذوا منهم الجزية والخراج، ثم المسلمون الذين أخذوا منهم الجزية والخراج، ثم الألمان بقيادة هتلر في العصر الحديث، الذي قتلهم وشردهم في البلاد.

والآية بمعنى قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤-٨] أي وإن عدتم إلى الإفساد بعد المرة الآخرة، عدنا إلى التعذيب والإذلال.

وأما وجود اليهود في فلسطين الآن فهو أمر عارض مؤقت زائل بإذن الله، لثقتنا بوعد الله وكلامه.

هذا هو العقاب الأول على معاصي اليهود المتكررة وتمردهم على أحكام الله، وهو تسليط الأمم عليهم لإذلالهم وتعذيبهم.

والعقاب الثاني: هو تفريقهم وتمزيقهم جماعات وطوائف وفرقاً في أنحاء الأرض، فلا يخلو منهم قطر من الأقطار، فيهم الصالح وغير ذلك.

فمنهم الصالحون المحسنون الذين يؤمنون بالأنبياء بعد موسى، ويؤمنون بمحمد ﷺ، ويؤثرون الآخرة على الدنيا، مثل أولئك الذين نَهَوْا عن الاعتداء في السبت، ومثل عبد الله بن سَلام وأصحابه الذين أسلموا.

ومنهم من هو دون غيره في الصلاح، ومنهم الفسقة الفجرة الكفرة الذين كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، ومنهم السماعون للكذب الأكّالون للسُّحْتِ

كالرشا والربا لتبديل الأحكام والقضاء بغير ما أنزل الله. وفي الجملة: معنى ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي منحطون عن الصلاح، وهم كفرتهم وفسقتهم.

والله يعامل الفريقين كما يعامل غيرهم، فيختبرهم بالحسنات أي بالنعم وبالسيئات أي بالنقم، لعلهم يرجعون عن ذنبهم، ويشكروا النعمة، ويصبروا على النقمة.

ثم ظهر من الصالحين ومن دونهم خلف ورثوا التوراة عن أسلافهم، أي تلقفوا ما فيها من الأحكام وقرؤوها واطلعوا على ما فيها. وهم الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، ولكنهم هجروها وآثروا الدنيا ومتاعها وزينتها وتفانوا في جمع حطامها، لا يبالون، حلالاً كان أو حراماً أي من غير طريق شرعي، كالسحت والرشوة والمحاباة في الحكم والاتجار في الدين وتحريف الكلم عن مواضعه، وزعموا أن الله سيغفر لهم ولا يؤاخذهم على أفعالهم وسيئاتهم، قائلين: إننا أبناء الله وأحباؤه، وسلائل أنبيائه، وهم مقيمون على المعاصي، مصرون على الذنوب، لا يتورعون عن ضم الحرام إلى غيره، فإن يأتهم عرض آخر من عروض الدنيا مثل الذي أخذوه أولاً بالباطل، يأخذوه بلهف دون تعفف، وهم يعلمون أن وعد الله بالمغفرة مخصوص بالتائبين الذين يقلعون عن ذنوبهم.

فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أن الله تعالى ينكر عليهم صنيعهم هذا؛ لأنه قد أخذ عليهم العهد والميثاق ألا يقولوا على الله غير الحق، فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي يصرون عليها ولا يتوبون منها، وهذا هو المذكور في التوراة: من ارتكب ذنباً عظيماً فإنه لايغفر له إلا بالتوبة، ومن جملة الميثاق أن يبينوا للناس الحق ولا يكتمونه، وألا يحرفوا الكلم ولا يغيروا الشرائع لأجل أخذ الرشوة، وهم قد درسوا الكتاب (التوراة) وفهموا مافيه، من تحريم أكل مال الغير بالباطل والكذب على الله.

ثم رغبهم الله في جزيل ثوابه، وحذرهم من وبيل عقابه، فقال:

ألم يعلموا أن الدار الآخرة ومافيها من نعيم خالد خير للذين يتقون المعاصي ومحارم الله، ويتركون هوى نفوسهم، ويقبلون على طاعة ربهم، إنها خير من حطام الدنيا الفاني الذي يؤخذ بطريق الحرام كالرُّشا والسحت وغير ذلك، أفلا تعقلون؟ أي أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي من ثواب عقل يردعهم عماهم فيه من السفه والتبذير؟!

والخلاصة: أن الدار الآخرة خير من ذلك العرض الخسيس.

وفي هذا إيماء إلى أن الطمع في متاع الدنيا هو الذي أفسد بني إسرائيل، وفي هذا عبرة للمسلمين الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة.

ثم أثنى الله تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ، كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ أي والذين يستمسكون بأوامر الكتاب الإلهي، ويعتصمون به، ويقتدون بمنهجه، ويتركون زواجره، وأقاموا الصلاة، وخصها بالذكر مع أن الكتاب يشتمل على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة؛ إظهاراً لعلو مرتبتها، وأنها أعظم العبادات بعد الإيمان، وأنها عماد الدين، والفارقة بين الكفر والإيمان.

إنا لا نضيع أجر المصلحين أي لا نضيع أجرهم؛ لأن المصلحين في معنى الذين يمسكون بالكتاب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٠].

وبعد أن بيّن الله تعالى مخالفة بني إسرائيل لأحكام دينهم ذكّر ببدء حالهم في إنزال الكتاب عليهم، فقال: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ أي واذكر أيها النبي إذ رفعنا فوقهم جبل الطور لقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: ٢/ ٦٣و٩٣]، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النساء: ٤/ ١٥٤]، وأصبح كأنه سقيفة، لما أبوا أن

يقبلوا التوراة لثقلها، وعلموا وأيقنوا أنه ساقط عليهم؛ لأن الجبل لا يثبت في الجو، ولأنهم كانوا يوعدون به، وقلنا لهم: خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بجد واجتهاد، وحزم وعزم على احتمال المشاق والتكاليف.

واذكروا ما فيه من الأوامر والنواهي، ولا تنسوه، أو: واذكروا مافيه من الإعداد للثواب والعقاب، فترغبوا في الثواب العظيم، وترهبوا من العقاب الشديد، رجاء أن تتحقق التقوى في قلوبكم، فتصبح أعمالكم متفقة مع الدين، وفي ذلك الفلاح لكم، أو لتتقوا ما أنتم عليه، فإن قوة العزيمة في إقامة الدين تزكي النفوس وتهذب الأخلاق، كما أن التهاون في احترام الدين يغري النفوس على اتباع الشهوات، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩١/ ٩-١٠].

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات واردة في حق اليهود الذين بقوا على الكفر واليهودية، فأما الذين آمنوا بمحمد ﷺ فخارجون عن هذا الحكم.

وقد دلت الآيات على مايلي:

١ - إعلام اليهود الأسلاف ومن باب أولى الخلف أنهم إن غيروا نصوص التوراة، ولم يؤمنوا بالنبي الأمي، بعث الله عليهم من يعذبهم إلى يوم القيامة.

وهذا تنصيص على أن ذلك العذاب مستمر إلى يوم القيامة، وهو يقتضي أن العذاب إنما يحصل في الدنيا. وللعذاب ألوان ومظاهر، فهو إما أخذ الجزية، وإما الاستخفاف والإهانة والإذلال لقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٢] وإما الإخراج والإبعاد من الوطن. وقد أذاقهم العذاب أمم كثيرة في الماضي من عهد بُخْتَنصَّر، إلى العهد الإسلامي، وإلى العصر الحديث. وأما دولة إسرائيل فلا يحسد موقفها فهي تبع لأمريكا

والغرب، وتعيش في قلق واضطراب ومخاوف، فلا تنعم بالأمن والاستقرار، ولا تهدأ ساحتها، لا في الداخل ولا في الخارج، وزوالها محقق مع الزمن، كما يثبت أهل العلم، فإن مرور الزمان ليس في صالحهم إطلاقاً.

٢ - اليهود أمة مشتتة ممزقة مفرقة في أنحاء الأرض، لا يخلو منهم قطر، منهم الصلحاء ومنهم الكفرة الفسقة الفجرة، وقد اختبرهم الله بأنواع عديدة من الاختبارات، أو عاملهم معاملة المختبر، فأمدهم بالحسنات أي بالخصب والعافية، والسيئات، أي الجدب والشدائد، ليرجعوا عن كفرهم ويتوبوا من فسقهم. قال أهل المعاني: وكل واحد من الحسنات والسيئات يدعو إلى الطاعة، أما النعم فلأجل الترغيب، وأما النقم فلأجل الترهيب.

٣ - أولاد الذين فرّقهم الله في الأرض، ورثوا التوراة كتاب الله، فقرؤوه وعلموه، وكانوا خلف سوء، خالفوا أحكامه وارتكبوا محارمه، مع دراستهم له، فاستحقوا التوبيخ والتقريع من الله تعالى.

ومن قبائحهم: ماديتهم الطاغية، وربما هم الذين علّموا أوربا وأمريكا النزعة المادية الشديدة، فهم كانوا يأخذون مايعرض لهم من متاع الدنيا من حلال أو حرام، لشدة حرصهم ونهمهم: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ ويزعمون أنه سيغفر لهم مع بقائهم على المعاصي، بل إنهم لا يتوبون، وقد ذمهم الله على اغترارهم بقولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ مع أنهم مصرون على الذنوب.

وإن جاءتهم عروض أخرى دنيوية وهي الرُّشا والمكاسب الخبيثة، أخذوها أيضاً. وفي هذا دلالة على أن الطمع في الدنيا هو سبب فساد اليهود. قال الحسن البصري: هذا إخبار عن حرصهم على الدنيا، وأنهم لا يستمتعون منها[1].

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ١٤

وقال القرطبي: وهذا الوصف الذي ذمّ الله تعالى به هؤلاء موجود فينا، أسند الدارمي أبو محمد عن معاذ بن جبل قال: «سيبلى القرآن في صدور أقوام كما سيبلى الثوب فيتهافَت، يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة، يَلْبَسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالُهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصّروا قالوا: سنبلُغ، وإن أساؤوا قالوا: سيغفر لنا، إنا لا نشرك بالله شيئاً»[١].

٤ - أخذ الله العهد والميثاق على بني إسرائيل في التوراة وفي جميع الشرائع على اتباع قول الحق في الشرع والأحكام، وألا يميل الحكام بالرُّشا إلى الباطل. وهذا عهد أيضاً على المسلمين في كتاب ربنا وسنة نبينا.

ثم خالف اليهود الميثاق، مع أنهم قرؤوا التوراة، وهم قريبو عهد بها. قال ابن زيد: كان يأتيهم المُحِقُّ برشوة، فيخرجون له كتاب الله، فيحكمون له به، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة، وأخرجوا له كتابهم الذي كتبوه بأيديهم، وحكموا له.

٥ - المتمسكون بكتاب الله، والمقيمو الصلاة، لهم أجرهم الجزيل عند ربهم، لا يضيع من حسناتهم شيء.

٦ - من قبائح اليهود أنهم رفضوا الأخذ بالتوراة لغلظها وثقلها، ولم يعودوا للعمل بما فيها إلا بتهديدهم بإسقاط جبل الطور عليهم. وقد سبق بيان قصة الجبل في سورة البقرة (٦٣، ٩٣) وفي سورة النساء (١٥٤).

---

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ٣١١ - ٣١٢

الميثاق العام المأخوذ على بني آدم

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

القراءات:

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: قرئ:

١- (ذرياتهم) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن عامر.

٢- (ذريتهم) وهي قراءة الباقين.

﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ ..﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟﴾:

وقرأ أبو عمرو (أن يقولوا.. أو يقولوا).

الإعراب:

﴿وَإِذْ أَخَذَ﴾ إذ: في موضع نصب؛ لأنه يتعلق بقولهم: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ وقيل: بتقدير: اذكر. و﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾: بدل من ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بإعادة الجار، وهو بدل بعض من كل، وتقديره: وإذ أخذ ربك من ظهورهم من بني آدم ذرياتهم.

﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ في موضع نصب على المفعول له أي لأجله، وتقديره: لئلا يقولوا، أو كراهة أن تقولوا.

البلاغة:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ فيه التفات من المتكلم إلى المخاطب، والأصل: وإذ

أخذنا، والمقصود تعظيم شأن الرسول بتوجيه الخطاب له. والإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبُّكَ﴾ فيها تكريم وتشريف.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذْ أَخَذَ﴾ : واذكر حين أخذ أي أخرج، وإنما عبّر به، لما فيه من الاصطفاء والانتقاء ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ جمع ظهر: وهو مافيه العمود الفقري للإنسان ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ سلالتهم ذكوراً وإناثاً، بأن أخرج بعضهم من صلب بعض، من صلب آدم، نسلاً بعد نسل، كنحو ما يتوالدون كالذر ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ أخذ منهم شهادة على أنفسهم، والشهادة: إما قولية، كما قال: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٠] أو حالية، كما قال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٩/١٧] أي حالهم شاهدة عليهم بذلك، لا قائلين.

﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ أي بلى أنت ربنا، شهدنا بذلك ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أي أن الإشهاد لئلا تقولوا أيها الكفار ﴿عَنْ هَٰذَا﴾ التوحيد ﴿غَافِلِينَ﴾ لا نعرفه.

﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ أي فاقتدينا بهم؛ لأن التقليد عند قيام الدليل والتمكن من العلم به لا يصلح عذراً ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ تعذبنا ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ من آبائنا بتأسيس الشرك. المعنى: لا يمكنهم الاحتجاج بذلك مع إشهادهم على أنفسهم بالتوحيد. والتذكير به على لسان النبي ﷺ قائم مقام ذكره في النفوس.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ مثل ذلك البيان للميثاق نبينها، ليتدبروها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم أو عن التقليد واتباع الباطل.

المناسبة:

لما شرح الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع توابعها، ذكر في هذه الآية

ماهو حجة على جميع المكلفين. وبعد أن ذكر الميثاق الخاص على اليهود بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: ٢/ ٦٣] وقوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ ذكر هنا الميثاق العام الذي أخذه على بني آدم جميعاً وهم في صلب آدم.

والمقصود من هذا الكلام ههنا إلزام اليهود بمقتضى الميثاق العام بعدما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاج عليهم بالحجج النقلية والعقلية، ومنعهم عن التقليد، وحملهم على النظر والاستدلال.

التفسير والبيان:

واذكر يامحمد للناس جميعاً ما أخذه الله على البشر كافة من ميثاق يتضمن الاعتراف على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا الله، وذلك حين أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم كما تثبت الآية، ومن آدم نفسه كما ثبت في الخبر[١]، أي استخرج من بني آدم ذريتهم أو سلالتهم، وخلقهم على فطرة التوحيد والإسلام.

وأشهد كل واحد على نفسه من هؤلاء الذرية قائلاً لهم قول إرادة وتكوين، لا قول وحي وتبليغ: ألست بربكم؟ فقالوا بلسان الحال، لا بلسان المقال: بلى أنت ربنا المستحق وحدك للعبادة.

وسبب هذا الإشهاد هو ألا يعتذروا يوم القيامة إذا أشركوا: إنا كنا عن التوحيد غافلين، أي لم ينبهنا إليه أحد، فلا عذر لكم بعد إقامة الأدلة على وحدانية الله، ووجود العقل، وتكوين الفطرة.

وخلق الناس على فطرة التوحيد مقرر في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ

(١) وهو ماروا‌ه الترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهْره. فسقط من ظهره كلُ نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة..».

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٣٠/٣٠] وفي الصحيحين ما يؤيد ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» وفي رواية: «على هذه الملة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تُحسّون فيها من جدعاء» وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم». والجمعاء: السليمة الخلقة، والجدعاء: المقطوعة بعض الأعضاء.

وقد اختلف العلماء في هذه الآية آية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ على رأيين: رأي السلف، ورأي الخلف. أما السلف من المفسرين فقالوا: إن الله خلق آدم وأخرج من ظهره ذريته كالذر، وأحياهم وجعل لهم عقلاً وإدراكاً، وألهمهم ذلك الحديث وتلك الإجابة، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم، فأقروا بذلك، وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من طرق كثيرة لا يخلو بعضها من ضعف وانقطاع، وقال به جماعة من الصحابة[١].

وأما الخلف فقالوا: هذا من قبيل التمثيل والتصوير، والمجاز والاستعارة فلا سؤال ولا جواب، وإنما أقام الله الأدلة الكونية على وحدانيته وربوبيته للكون كله، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه قال للخلق: أقروا بأني ربكم، ولا إله غيري، وكأنه أشهدهم على أنفسهم، وقال لهم: ألست بربكم؟ فقالوا: بلى[٢]. وهذا مااختاره الزمخشري وأبو حيان وأبو السعود والبيضاوي. وقال عنه الرازي: لا طعنَ فيه ألبتة.

---

(١) تفسير الرازي: ١٥/٤٦، تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٦١ - ٢٦٤

(٢) روي عن ابن عباس أنه قال: «لو قالوا: نعم، لكفروا «لأن» نعم «تصديق للمخبر بنفي أو إيجاب، فكأنهم أقروا أنه ليس ربهم، بخلاف «بلى» فإنها حرف جواب، وتختص بالنفي وتفيد إبطاله، والمعنى: بلى أنت ربنا، ولو قالوا: نعم، لصار المعنى: نعم لست ربنا.

وحدد ابن كثير دلالة الأحاديث، فقال: هذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه، وميَّز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عمرو، وهما موقوفان لا مرفوعان، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد، إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، وقد فسر الحسن الآية بذلك.

قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل: من آدم، ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل: من ظهره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن. ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً ومقالاً، والشهادة تكون بالقول، كقوله: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ الآية، وتارة تكون حالاً، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٩/١٧] أي حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ [العاديات: ١٠٠/٧].

فالمراد من الآية أن الله تعالى جعل الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد حجة مستقلة عليهم، ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ﴾ أي لم ننبه إليه ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية.

وإني لميَّال لهذا الرأي، وهو أولى الآراء بالصواب.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ أي إن سبب الإشهاد لمنع اعتذارهم يوم القيامة بغفلتهم عن التوحيد، أو بادعائهم التقليد، وقولهم: إن آباءنا أشركوا من قبلنا، ونحن خلف لهم، نجهل بطلان شركهم، وقد قلدناهم في أعمالهم واعتقادهم، مع حسن الظن بهم، ولم نهتد إلى التوحيد.

أفتهلكنا بالعذاب وتؤاخذنا بما فعله المبطلون من آبائنا؟! ولكن الله لا يقبل عذرهم أبداً؛ لأن التقليد في الاعتقاد وأصول الدين لا يجوز.

ومثل ذلك التفصيل البليغ الواضح للميثاق، نفصل للناس الآيات البينات، ليتدبروها بعقل وبصيرة، ولعلهم يرجعون بها عن شركهم، وجهلهم، وتقليدهم الآباء والأجداد.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - خلق الله البشر على فطرة التوحيد أي الإقرار بأن الله ربهم وأنه واحد لا شريك له.

٢ - لا يعذر الإنسان بالجهل بخالقه، لما يرى من الدلائل، فمن لم تبلغه دعوة رسول لا يعذر يوم القيامة في الشرك بالله، ولا بفعل الفواحش التي تنفر منها الطباع السليمة وتدرك ضررها العقول الرشيدة.

٣ - إن من مات صغيراً دخل الجنة لإقراره في الميثاق الأول، ومن بلغ عاقلاً لم يغنه الميثاق الأول، وبناء عليه: أطفال المشركين في الجنة.

٤ - إبطال حجة المشركين يوم القيامة بأنه لم يأتهم رسول ينبههم إلى التوحيد، وإبطال التقليد للآباء والأجداد في أصول العقيدة والدين، فكما لا يقبل الاعتذار بالجهل لقيام الأدلة على التوحيد، لا يقبل الاعتذار بالتقليد، بعد قيام الأدلة الفطرية والعقلية على معرفة الله ووحدانيته.

٥ - في كتاب الله تعالى وهو القرآن تفصيل كل شيء، فكما فصل الله في الآية بناء الإنسان على فطرة التوحيد، بيَّن سائر الآيات ليتدبرها الناس، فيرجعوا إلى الحق، ويعرضوا عن الباطل.

قصة بلعم بن باعوراء وأمثاله من الضالين المكذبين

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ
مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ
فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ
ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا
ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

القراءات:

﴿شِئۡنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (شينا).

الإعراب:

﴿يَلۡهَثۚ﴾ في الموضعين حال، أي لاهثاً ذليلاً بكل حال.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ﴾: فاعل ﴿سَآءَ﴾ مقدر فيها، وتقديره: ساء المثل مثلاً. و﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾: أي مثل القوم، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه، وارتفع بما كان يرتفع به (مثل). وهو يرتفع إما لأنه مبتدأ وما قبله خبره، وإما لأنه خبر مبتدأ محذوف، كقولهم: بئس رجلاً زيدٌ، أي هو زيد، و﴿مَثَلًا﴾: منصوب على التمييز.

﴿وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ إما معطوف على قوله: ﴿كَذَّبُواْ﴾ فيصير المعنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم، وإما كلام منقطع بمعنى: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب.

البلاغة:

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ تشبيه تمثيلي، شبه حاله التي هي مثل في السوء كحال أخس الحيوانات، وهي حالة الكلب في دوام لهثه، سواء في حالة التعب أو الراحة، والتشبيه التمثيلي: هو حالة انتزاع الصورة من متعدد.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱتْلُ﴾ اقرأ ﴿نَبَأَ﴾ خبر مهم ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ خرج من الآيات بكفره، كما تخرج الحية من جلدها، وهو بلعم بن باعوراء من علماء بني إسرائيل، الذي دعا على موسى مقابل هدية من اليهود. وعبر بالانسلاخ للدلالة على كمال مباينته للآيات، بعد أن كان بينهما كمال الاتصال، كما قال أبو السعود.

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أدركه ولحقه فصار قرينه ﴿ٱلْغَاوِينَ﴾ الراسخين في الغواية والضلالة، بعد أن كان من المهتدين ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ لو شئنا لرفعناه إلى منازل العلماء، بأن نوفقه للعمل ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ركن إلى الدنيا ومال إليها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في دعائه إليها، فأصبح من الحقيرين ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ صفته ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ تشد عليه بالطرد والزجر ﴿يَلْهَثْ﴾ اللهث: التنفس الشديد مع إخراج اللسان. والقصد: التشبيه في الخسة والحقارة.

﴿ذَّٰلِكَ﴾ المثل ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بعد أخذ الميثاق عليهم وعلى الناس ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ على اليهود ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ أي بئس وقبح، والمثل: الصفة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ بالتكذيب.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أخذ الميثاق على الناس قاطبة، وإقرارهم بأن الله

ربهم، ضرب المثل للمكذبين بآياته المنزلة على رسوله، ومضمون هذا المثل أن العالم بآيات الله غير العامل بها كالحية تنسلخ من جلدها وتتركه على الأرض.

قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد رحمهم الله: نزلت هذه الآية في بلعم ابن باعوراء.

التفسير والبيان:

واقرأ أيها الرسول على اليهود خبر الذي علمناه آياتنا، ولكنه لم يعمل بها، وتركها وراءه، وتجرد منها إلى الأبد، فلحقه الشيطان وأدركه وصار قريناً له، وتمكن من الوسوسة له، فأصغى إليه، فصار من الضالين الكافرين، لميله إلى الدنيا واتباع الهوى والشيطان.

وهو عالم من علماء بني إسرائيل، وقيل: من الكنعانيين، وروي عن ابن عباس أنه رجل من اليمن، اسمه بلعم بن باعوراء، أوتي علم بعض كتب الله، فانسلخ منها، وكفر بآيات الله، ونبذها وراء ظهره.

وذلك أن موسى عليه السلام قصد بلده الذي هو فيه، وغزا أهله وكانوا كفاراً، فطلبوا منه أن يدعو على موسى عليه السلام وقومه، وكان مجاب الدعوة، وعنده اسم الله الأعظم، فامتنع منه، فما زالوا يطلبونه منه، حتى دعا عليه، فاستجيب له، ووقع موسى وبنو إسرائيل في التيه بدعائه[١]. وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة، يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين، يدعوه إلى الله، فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه، وترك دين موسى عليه السلام[٢].

---

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ٥٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٦٤.

ولو شئنا لرفعناه بالآيات، وجعلنا له منزلة عظيمة من منازل العلماء الأبرار، بأن نوفقه للهداية والعمل بالآيات.

ولكنه ركن إلى الدنيا ومال إليها ورغب فيها واهتم بلذائذها، واتبع هواه، فلم يوجه همَّه إلى نعيم الآخرة، ولم يهتد بآياتنا، ولم ترق نفسه إلى سلَّم الكمال الروحي، ولم يحترم نعمة الله عليه باستعمالها في مرضاته.

وأصبح مثله أو صفته في الذِّلة والحقارة، والخسة والدناءة كمثل الكلب أو صفته في أخس أحوالها وأذلها، وهي حال دوام اللهث به، سواء حمل عليه أي شدّ عليه وطرد، أو ترك دون طرد.

وهذه الصفة هي أقبح حالات الكلب وأخسها، وقد شبِّه بها حال عجيبة غريبة، هي حال ذلك الذي تجرد من معرفة آيات الله تعالى.

ذلك المثل الغريب هو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، واستكبروا عنها، ولم تنفعهم الموعظة، وهم اليهود بعدما قرؤوا نعت رسول الله ﷺ في التوراة، وبشروا الناس باقتراب مبعثه، وكانوا يستنصرون أو يستفتحون به، وجاء القرآن المعجز كاشفاً هذه الحقيقة التي أنكرها اليهود بعد بعثة النبي ﷺ.

فاقصص أيها الرسول قصص ذاك الرجل الذي تشبه حاله حال المكذبين بآياتنا، لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعم وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب استعماله نعمة الله في تعليمه الاسم الأعظم - الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب - في غير طاعة ربِّه، بل دعا به على حزب الرحمن، لعلهم يتفكرون فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله أعلمهم بصفة محمد ﷺ، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته.

ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، أي قبحت أشد القبح صفة المعرضين عن النظر في آيات الله أن شبهوا بالكلاب التي لا همَّ لها إلا تحصيل

أكلة أو شهوة، وهم بهذا الإعراض كانوا ظالمين لأنفسهم بالتكذيب، فما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى.

وقد ذكر سوء هذا المثل في السنة، فقد ثبت في الصحيح وفي الكتب الستة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه».

فقه الحياة أو الأحكام:

الهدف من هذه القصة ضرب مثل لجميع الكفار، المعرضين عن الإيمان بالله والرسول بعدما عرفوا الحق، فمن آتاه الله العلم والدين، فمال إلى الدنيا، وأخلد إلى الأرض، كان مشبَّهاً بأخس الحيوانات، وهو الكلب اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس والفعل القبيح، لا لحاجة أو ضرورة.

وشبَّه حال كل كافر بحال رجل عرف آيات الله، ثم تركها وراء ظهره وهذا ينطبق على بلعم بن باعوراء أو غيره ممن اتصف بهذه الصفة، فلم تعين الآية اسم من ضرب به المثل، وحينئذ لا يهم سواء أكان ذلك مطابقاً لبعض الروايات بأنه رجل من بني إسرائيل أم الكنعانيين أم أهل اليمن، أم من غيرهم.

وتكون الآية تحذيراً للناس عن اتباع أهوائهم، وركونهم إلى الدنيا وشهواتها، واتباع الأغراض الدنيئة، وترك ما أرشدتهم إليه آيات الله من الإيمان بالله وبرسوله وبالآخرة. والآية واضحة الدلالة على أن المعرض عن آيات الله، واقع في الضلالة والغواية، بسبب سوء فعله، واختياره العمل بما هو قبيح شرعاً ومروءة.

وعلى الإنسان الاعتبار بهذه القصة، والتأمل والتفكر في آيات الله بعين

البصيرة والعقل، لا بالهوى والحقد والعداوة. وفي إيراد هذا المثل والتشبيه بالصورة الواقعية إشارة إلى أن للأمثال تأثيراً قوياً في إقناع السامعين، وأنها أقوى أثراً من إيراد الحجج والبراهين.

وفيها إشارة أيضاً إلى أهمية التفكر، وأنه مبدأ الوصول إلى الحقيقة والعلم والمعرفة الصحيحة، كما قال تعالى في مناسبات كثيرة في كتابه، مثل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٢] ومثل: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٤].

وهذه الآية - كما قال الرازي - من أشد الآيات على أصحاب العلم، فإن العالم إذا لم يعمل بعمله، حرم بركة العلم، وكان بُعْدُه عن الله أعظم، كما نقل عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال فيما رواه الديلمي في الفردوس عن علي رضي الله عنه: «من ازداد علماً، ولم يزدد زهداً، لم يزدد من الله إلا بُعداً» أو كما قال.

أسباب الهداية والضلالة

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

القراءات:

﴿ذَرَأْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً: (ذرانا).

الإعراب:

﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ حمل على اللفظ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ حمل على المعنى، والقصد من الإفراد في الأول والجمع في الثاني: هو التنبيه على أن المهتدين كواحد؛ لاتحاد طريقهم، بخلاف الضالين.

البلاغة:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: التشبيه هنا مرسل مجمل.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ خلقنا وأوجدنا ﴿ٱلْجِنِّ﴾ مخلوقات خفية لا تدرك بالحواس ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي لا يفهمون بها الحق، والقلب هنا هو الذي يسمونه أحياناً (الضمير) ويراد به هنا العقل أو الوجدان أي محل الحكم على الأشياء المدركة، وسبب هذا الاستعمال أن آثار الأحداث من خوف أو سرور تنعكس عليه، فيحدث الانقباض أو الانشراح. وكثيراً ما يستعمل في القرآن بمعنى دقة الفهم والتعمق في العلم.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ دلائل قدرة الله، بصر عظة واعتبار ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في عدم الفهم والبصر والاعتبار ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام؛ لأنها تحرص على ما ينفعها، وتهرب مما يضرها، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة ﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

المناسبة:

بعد أن ضرب الله المثل للمنسلخ من الدين الخارج منه، ليتعظ أولئك الضالون، ويتركوا ضلالهم، ويعودوا إلى الحق، بيّن أسباب الهدى والضلال. من استعمال العقل والحواس، واستخدام هداية الفطرة في سلوك أحد

السبيلين: الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٩٠/ ١٠].

التفسير والبيان:

من يوفقه الله للإيمان والخير واتباع الشرع والقرآن باستعمال عقله وحواسه، فهو المهتدي حقاً لا سواه، ومن يخذله ولا يوفقه، ولا يهديه إلى الخير واتباع القرآن، بسبب تعطيل عقله وحواسه في فهم آياته الكونية والشرعية، فهو الخاسر البعيد عن الهدى، الذي خسر الدنيا والآخرة.

وبما أن الهداية الإلهية نوع واحد والضلالة أنواع متعددة، أفرد الله المهتدي، وجمع الخاسرين، فقال: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ ثم قال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

ثم أوضح تعالى ما أجمله بالنسبة لأهل الضلالة فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي إن الله تعالى يقسم بأنه خلق أو أوجد خلقاً كثيراً من الجن والإنس مستعدين لعمل يستحق دخول جهنم، وخلق أيضاً خلقاً آخرين مستعدين لعمل يدخلهم الجنة، كما قال في بيان مآل الفريقين: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٧] وقال في بيان مصيرهم يوم القيامة: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١١/ ١٠٥].

وأسباب استحقاق أهل النار دخول جهنم: هي أنهم لا يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحاً للوصول إلى حقيقة الإيمان، وإدراك لذة السعادة الدنيوية والأخروية، وأن الخير فيما أمر الله به، وأن الشر فيما نهى عنه الله، وإنما نظرتهم ظاهرية، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٧] فهم بمنزلة من لا يفقه؛ لأنهم لا ينتفعون بقلوبهم الواعية، ولا يعقلون ثواباً ولا يخافون عقاباً.

وهم أيضاً لا ينظرون بأعينهم نظر تبصر واعتبار وإمعان في آيات الله الكونية وآياته القرآنية التي ترشدهم إلى ما فيه سعادتهم.

ولا يسمعون بآذانهم سماع تدبر وإصغاء آيات الله المنزلة على أنبيائه، ولا يسمعون أخبار التاريخ والأمم الغابرة، وكيف كان مصيرهم بسبب إعراضهم عن هداية الله وإرشاد الرسل. وليس الغرض من نفي السمع والبصر نفي الإدراكات عن حواسهم، وإنما المقصود بيان حجبها عن إبصار الهدى وسماع المواعظ.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ٢٦-٢٧].

أولئك الموصوفون بما ذكر من تعطيل عقولهم وحواسهم هم كالأنعام (البقر والإبل والغنم) لا همَّ لهم إلا الأكل والشرب والتمتع بلذات الحياة والدنيا، بل هم أضل سبيلاً منها؛ لأن الأنعام تحرص على ما ينفعها، وتنفر مما يضرها، ولا تسرف في أكلها وشربها، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة، وهم مسرفون في جميع اللذات، ولا يهتدون إلى ثواب، ولا قدرة للحيوانات على تحصيل للفضائل، وأما الإنسان فأعطي القدرة على تحصيلها.

أولئك هم كاملو الغفلة عن آيات الله وعن استعمال مشاعرهم وعقولهم فيما خلقت من أجله، وهو الاستفادة من المسموعات، والانتفاع من المبصرات، وهم الأغبياء الجاهلون الذين لا ينظرون إلى المستقبل، وإنما انصرفوا إلى الحياة الدنيا، وتركوا الاشتغال بما يؤهلهم للخلود في نعيم الحياة الآخرة. وعلى هذا تكون غفلتهم بمعنى ترك التدبر، والإعراض عن الجنة والنار.

أما العقلاء الفطنون فهم الذين عملوا للآخرة، ولم يهملوا ما تتطلبه الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٢٨/٧٧].

فقه الحياة أو الأحكام:

يرى المعتزلة أن الهداية والضلالة باختيار الإنسان، وأما هذه الآية ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ فهي في المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم، ونظراً لإيغالهم في الكفر وإصرارهم عليه، وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار، جعلهم الله مخلوقين للنار، فالآية تدل على توغلهم في موجبات النار، وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخولها[١].

ويرى أهل السنة أن الآية تدل على أن الهداية من الله، وأن الضلال من الله تعالى، فمن هداه الله، فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»[٢].

قال البيضاوي عن قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾: تصريح بأن الهدى والضلال من الله، وأن هداية الله تختص ببعض دون بعض[٣].

(١) الكشاف: ١/٥٨٨.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/٢٦٧.

(٣) تفسير البيضاوي: ص ٢٢٩.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ فيدل في رأي أهل السنة على أن الله تعالى خلق الأفعال أو الأعمال، فإن أولئك الكفار استعملوا عقولهم وحواسهم في مصالح الدنيا، ولم يستخدموها في مصالح الدين، فما كانوا يفقهون بقلوبهم ما يحقق مصالح الدين، وما كانوا يبصرون ويسمعون ما يرجع إلى مصالح الدين. والمعنى أن الله خلق في المؤمن القدرة على الإيمان، وخلق في الكافر القدرة على الكفر[١]، والعبد وجَّه تلك القدرة إما إلى الإيمان وإما إلى الكفر، ولم يجبره تعالى على اختيار أحد الأمرين، وإلا لما كان عدلاً حسابه وعقابه.

قال ابن كثير في تفسير آية: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي خلقنا وهيأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

والخلاصة: يرى المعتزلة أن الإنسان يخلق أفعال نفسه، وأن الإنسان مخيَّر مطلقاً، ويرى أهل السُّنة والجماعة أن الله تعالى هو الذي يخلق أفعال العبد، وأن للإنسان تخييراً وكسباً في أمور ما عدا الحياة والموت والعزّ والذّل والرزق ونحوها من الأصول؛ وذلك لأن الله هو خالق الخلق ومتصف بالعدل، فيخلق أفعال الإنسان، ومن الظلم أن يحاسبه على فعل أكره عليه أو قهر عليه، والهداية من الله لها مفهومان: الدلالة، والتمكين من الوصول إلى الغاية، أي إن الله تعالى أرشد الإنسان ودلَّه على طرق الخير: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٩٠/ ١٠] ثم وفقه لهدفه ومكنه من الوصول إليه بهداية أخرى، فمن سأل شرطياً عن طريق فدلَّه عليه، فتلك الهداية الأولى، وإذا

---

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ٦٠ - ٦٣.

ركب معه في سيارته، وأوصله إلى المكان المطلوب فذلك هو التمكين من الهداية الثانية، والإنسان هو الذي يوجِّه ما خلق الله فيه من قدرات في الخير والشر إلى كلٍّ منهما، وبهذا التوجيه يحاسب وعليه يعاقب.

واستدلَّ العلماء بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩] على أن محلَّ العلم هو القلب؛ لأنه تعالى نفى الفقه والفهم عن قلوبهم في معرض الذَّم، مما يدل على أن محل الفهم والفقه هو القلب.

أسماء الله الحسنى

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

القراءات:

﴿يُلْحِدُونَ﴾:

وقرأ حمزة: (يَلحَدون).

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾ جمع اسم: وهو ما يدل على الذات أو هو كل لفظ جعل للدلالة على المعنى إن لم يكن مشتقاً، فإن كان مشتقاً فهو صفة ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مؤنث الأحسن ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ سمُّوه ونادوه بها للثناء عليه أو لطلب الحاجات منه ﴿وَذَرُوا۟﴾ اتركوا ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ﴾ يميلون عن الحق، حيث اشتقوا منها أسماء لآلهتهم، كاللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان. أصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف. ومنه اللحد في القبر انحرافه إلى جهة القبلة ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ سيلقون في الآخرة جزاء أعمالهم.

المناسبة:

لما وصف الله تعالى المخلوقين لجهنم بأنهم هم الغافلون، لتعطيل عقولهم ومشاعرهم في فهم آيات الله وتزكية نفوسهم بالإيمان والعلم النافع، أمر بعده بذكر الله تعالى، فهو الدواء لتلك الغفلة، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ وهو كالتنبيه على أن الموجب لدخول جهنم هو الغفلة عن ذكر الله تعالى، والمخلِّص من عذاب جهنم هو ذكر الله تعالى.

وقد ذكرت أسماء الله تعالى الحسنى في سور أربعة: أولها: هذه السورة، وثانيها: في آخر سورة الإسراء (بني إسرائيل) في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١٠]، وثالثها: في أول طه، وهو قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٨]، ورابعها: في آخر الحشر، وهو قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٤].

سبب النزول:

روي أن بعض المسلمين دعا (الله) أو (الرحيم) في صلاته، ودعا (الرحمن) مرة أخرى فقال المشركون: محمد وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربّاً واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، أي إن هذه الأسماء إله واحد، وليست بآلهة متعددة.

التفسير والبيان:

لله دون غيره جميع الأسماء المشتملة على أحسن المعاني، فنادوه بها إما للثناء عليه، مثل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] ومثل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٢]. وإما للسؤال وطلب الحاجات.

وأسماء الله الحسنى تسعة وتسعون، جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر» ومعنى (أحصاها) عدها وحفظها وتفكر في مدلولها. وقد ذكر الترمذي والحاكم هذه الأسماء من طريق الوليد بن مسلم عن شعيب، فقال بعد قوله: «يحب الوتر»:

(هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصوِّر، الغفار، القهّار، الوهّاب، الرَّزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعزّ، المذلّ، السميع، البصير، الحَكَم، العَدْل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشَّكُور، العلي، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدِّم، المؤخِّر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البَرّ، التّواب، المنتقم، العفوُّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المُقْسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضّارّ، النّافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»[١].

والمراد من الأسماء في الآية والحديث: التسميات بلا خلاف، وهي عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتى، منها ما يستحقه لنفسه، ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به، ومنها صفات لذاته، ومنها صفات أفعال.

---

(١) قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة. والراجح لدى المحدثين أن سرد هذه الأسماء مدرج من الراوي، كما حقق الحافظ ابن حجر.

وهذه الأسماء عند العلماء توقيفية، فلا يسمى باسم لم يرد في القرآن والسُّنة كالرفيق والسخي والعاقل.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ أي اتركوا أولئك الذين يلحدون في أسمائه بالميل بألفاظها أو معانيها عن الحق، إلى سبيل أخرى من تحريف أو تأويل، أو شرك، أو تكذيب، أو زيادة، أو نقصان، أو ما ينافي وصفها بالحسنى.

والإلحاد يكون بثلاثة أوجه:

أحدها - بالتغيير فيها كما فعله المشركون، وذلك أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسمّوا بها أوثانهم، فاشتقّوا اللاَّت من الله، والعزى من العزيز، ومَناة من المنان.

الثاني - بالزيادة فيها، أي التشبيه، فالمشبهة وصفوه بما لم يأذن فيه.

الثالث - بالنقصان منها، أي التعطيل، فالمعطلة سلبوه ما اتصف به، كما يفعل الجهّال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الله تعالى بغير أسمائه، ويذكرونه بغير ما يذكر من أفعاله، إلى غير ذلك مما لا يليق به.

والسبب في تركهم أنهم سيلقون جزاء عملهم، ويعاقبون في الدنيا قبل الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلَّت الآية على ما يأتي:

١ - الأسماء الحسنى ليست إلا لله تعالى: لأن قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يفيد الحصر.

٢ - أسماء الله ليست إلا لله، والصفات الحسنى ليست إلا لله، فيجب كونها موصوفة بالحسن والكمال، وهذا يفيد أن كل اسم لا يفيد في المسمى صفة كمال وجلال، فإنه لا يجوز إطلاقه على الله سبحانه.

والأسماء: ألفاظ دالة على المعاني، فهي إنما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها، ولا معنى للحسن في حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال ونعوت الجلال، وهي محصورة في نوعين: عدم افتقاره إلى غيره، وثبوت افتقار غيره إليه.

وأسماء الله تعالى يجوز إطلاقها على غير الله تعالى، ما عدا اسمي: الله والرحمن.

وهذه الأسماء منها ما يمكن ذكره وحده، مثل: يا الله، يا رحمن، يا حكيم. ومنها مالا يجوز إفراده بالذكر، بل يجب أن يقال: يا محيي يا مميت، يا ضار يا نافع.

ولا يجوز إطلاق اسم على الله غير وارد في القرآن والسُّنة، فهي أسماء توقيفية، ولا تنحصر في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد، وأبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً قط همّ ولا حُزْن، فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همّي، إلا أذهب الله حُزْنه وهمَّه، وأبدل مكانه فرجاً» فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلَّمُها؟ فقال: «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلَّمها».

وقد أورد ابن العربي مئة وستة وأربعين اسماً من أسماء الله للتضرع

والابتهال، وذكر في موضع آخر زيادة ثلاثين اسماً[١]. فصار المجموع مئة وستة وسبعين، مثل الطيِّب والمعلِّم والجميل: وهو الذي لا يشبهه شيء.

٣ - لله أسماء حسنى، يجب على الإنسان أن يدعو الله بها، وهذا يدل على أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية، كما تبين، فيجوز أن يقال: يا جواد، ولا يجوز أن يقال: يا سخي، يا عاقل، يا طبيب، يا فقيه.

٤ - الاسم غير المسمى؛ لأن أسماء الله كثيرة، ولا شك أن (الله) واحد منها، فلزم القطع بأن الاسم غير المسمى.

لذا قال جماعة من العلماء: المراد بهذه الأسماء التسميات؛ لأنه سبحانه واحد، والأسماء جمع. ذكر ابن عطية في تفسيره أن الأسماء في الآية بمعنى التسميات إجماعاً من المتأولين لا يجوز غيره.

فمعنى قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي التسميات الحسنى التي يدعى بها لا بغيرها، وقيل: ولله الصفات، والاسم هو المسمى، أو صفة له تتعلق به، وهو غير التسمية.

٥ - سمى الله سبحانه أسماءه بالحسنى؛ لأنها حسنة في الأسماع والقلوب؛ فإنها تدل على توحيده وجوده ورحمته وإفضاله.

٦ - وليس للإنسان أن يدعو ربَّه إلا بتلك الأسماء الحسنى، وهذه الدعوة تتطلب فهم معاني تلك الأسماء. وقد ذكر ابن العربي في أحكام القرآن[٢] وغيره تلك المعاني، فيطلب بكل اسم ما يليق به، يقول: يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رزاق ارزقني، يا هادي اهدني، وإن دعا باسم عام قال: يامالك ارحمني، يا عزيز احكم لي، يا لطيف ارزقني، وإن دعا بالاسم الأعظم قال:

---

(١) أحكام القرآن: ٢/ ٧٩٨ - ٨٠٥

(٢) المرجع والمكان السابق.

يا الله، فهو متضمن لكل اسمٍ، قال ابن العربي: وهكذا، رتِّب دعاءك تكن من المخلصين.

٧ - يجب تنزيه الله تعالى عن الإلحاد في أسمائه، وذلك على ثلاثة أوجه:

الأول - إطلاق أسماء الله المقدسة الطاهرة على غير الله، كتسمية الكفار الأوثان آلهة، وتسمية أصنام لهم باللات والعزى ومناة، من الإله، والعزيز، والمنان. وكان مسيلمة الكذاب لقب نفسه بالرحمن.

والثاني - أن يسمى الله بما لا يجوز تسميته به، مثل تسميته أباً للمسيح، وقول النصارى، الأب، والابن، وروح القدس.

والثالث - أن يذكر العبد ربَّه بلفظ لا يعرف معناه، ولا يتصور مسماه، فإنه ربما كان مسماه أمراً غير لائق بجلال الله تعالى.

وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهو تهديد ووعيد لمن ألحد في أسماء الله تعالى.

قالت المعتزلة: الآية قد دلت على إثبات العمل للعبد، وعلى أن الجزاء مفرع على عمله وفعله.

والدعاء مشروع وعبادة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٦].

ولا يكون الدعاء لغير الله تعالى من أي مخلوق حي أو ميت، فالله وحده هو الذي يقصد في الدعاء، فهو الصمد أي الذي لا يقصد في المطالب غيره، وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٢] أي لا يجيب المضطر إلا هو، فهو المستحق وحده للعبادة، المقصود بالدعاء.

وفوائد الأمر بذكر الله في الآية: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ كثيرة: منها ترسخ معالم الإيمان وتنميته، وتحقيق مراقبة الله والخشوع له، والرغبة فيما عنده، وتهوين شأن الدنيا ولذاتها، روى البخاري ومسلم والترمذي والنَّسائي: «من نزل به غمّ أو كرب أو أمر مهمّ، فليقل: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض، ورب العرش الكريم».

وروى الحاكم في المستدرك عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أن تقولي إذا أصبحتِ، وإذا أمسيتِ: يا حيُّ، يا قيُّوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني، ولا تكِلني إلى نفسي طَرْفة عين».

المهتدون والمكذبون من أمة الدعوة الإسلامية

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

القراءات:

﴿وَيَذَرُهُمْ﴾: قرئ:

١- (ونذرُهم) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر.

٢- (ويذرُهم) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم.

٣- (ويذرْهم) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالرفع على تقدير مبتدأ، وتقديره: هو يذرُهم. ويقرأ بالجزم بالعطف على موضع الفاء في ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ وموضعه الجزم على جواب الشرط، أي إن الرفع على سبيل الاستئناف، والجزم عطف على محل ما بعد الفاء.

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾ أي في أنه عسى، وأن: مخففة من الثقيلة، والأصل: وأنه عسى، على أن الضمير ضمير الشأن، والمعنى: أوَ لم ينظروا في أن الشأن والحديث، عسى أن يكون أجلهم قرب، ولعلهم يموتون عما قريب، فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق قبل مفاجأة الموت والعقاب. وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ هم أمة محمد ﷺ كما في الحديث المتواتر «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق..». ويهدون: يرشدون الناس إلى الحق والخير ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي وبالحق يحكمون وكما عند الشيخين عن المغيرة بالعدل دون ميل لأحد الجانبين المتخاصمين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن، من أهل مكة ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ سنأخذهم قليلاً قليلاً، وننزلهم درجة بعد درجة إلى دركات العذاب، وندنيهم من الهلاك شيئاً فشيئاً ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ نمهلهم ونؤخرهم ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي إن تدبيري الخفي شديد قوي لا يطاق .﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن الإنذار، والإنذار: التعليم والإرشاد مع التخويف ﴿مَلَكُوتِ﴾ ملك ﴿مِن شَىْءٍ﴾ بيان لما، فيستدلوا به على قدرة صانعه

ووحدانيته ﴿قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ قرب أجلهم، فيموتوا كفاراً، فيصيروا إلى النار، فيبادروا إلى الإيمان ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مجموع العالم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ الحديث: كلام الله، وهو القرآن، وبعده: بعد القرآن ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ يتركهم ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ الطغيان: تجاوز الحد في الكفر والشر والظلم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون تحيراً.

سبب النزول:

نزول الآية (١٨٤):

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾: أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن قتادة بن دعامة قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قام على (صفا) فدعا قريشاً، فجعل يدعوهم فخذاً فخذاً، يا بني فلان، يحذرهم بأس الله ووقائعه، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوّت[1] إلى الصباح، أو حتى أصبح، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾.

المناسبة:

أخبر الله تعالى في الآيات السابقة أنه خلق لجهنم كثيراً من الخلق؛ لأنهم أهملوا طاقات المعرفة لديهم من العقل والحواس، ثم أرشد إلى ما يصلح الناس ويقوي إيمانهم من الدعاء بأسمائه الحسنى، ثم ذكر هنا انقسام أمة الدعوة المحمدية فريقين: فريق المهتدين الذين يقضون بالحق والعدل، وفريق المكذبين الضالين. ولفت النظر إلى وجوب التفكر والنظر في عالم السماوات والأرض، للتوصل إلى فهم الأمور الدالة على وحدانية الله وصدق الرسول ﷺ.

---

(١) وفي رواية: «يهوّت».

التفسير والبيان:

من بعض الأمم أمة قائمة بالحق قولاً وعملاً، يرشدون الناس ويدعونهم إليه، ويعملون بالحق، ويقضون بالعدل، دون ميل ولا جور، وهم أمة محمد ﷺ، بدليل ما جاء في الأحاديث الكثيرة التي منها: ما رواه الشيخان في الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة» وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك».

ومنها: ما قاله الربيع بن أنس في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل».

ومنها: ما أخرجه ابن جرير الطَّبري وابن المنذر وأبو الشيخ ابن حيان عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال: ذكر لنا النَّبي ﷺ قال: «هذه أمَّتي بالحقِّ يحكمون ويقضون، ويأخذون ويُعطون».

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال في هذه الآية: بلغنا أنَّ النبي ﷺ كان يقول إذا قرأها: وهذه لكم وقد أُعطي القوم بين أيديكم مثلها: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

وأخرج أبو الشيخ ابن حيان عن علي بن أبي طالب قال: لتفترقَنَّ هذه الأُمَّة على ثلاث وسبعين فرقةً كلُّها في النّار إلا فرقةً، يقول الله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ فهذه هي التي تنجو من هذه الأمّة.

والخلاصة: لما ذكر تعالى في قصّة موسى قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ ثم أعاد الله تعالى هذا الكلام، حمله أكثر المفسّرين على أنَّ المراد منه أمّة محمد ﷺ، بدليل ما روي عن ابن عباس وقتادة وابن جريج وغيرهم.

هذا هو الفريق الأوّل من أمّة الدّعوة المحمّدية، ثمّ ذكر تعالى الفريق الثّاني بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن، وهم أهل مكة، نتركهم في ضلالهم، ونستدرجهم إلى العذاب من حيث لا يعلمون ما يراد بهم، ونقرّبهم إلى ما يهلكهم، فإمدادهم بالنّعم، وفتح أبواب الرِّزق والخير، وتيسير سبل المعاش، كلّما ارتكبوا ذنباً أو فعلوا جرماً، فيزدادون بطراً وانغماساً في الفساد، وتمادياً في الغي، وتدرُّجاً في المعاصي، بسبب متابعة تلك النِّعم والخيرات، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥٥-٥٦]، وقال تعالى أيضاً: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٤-٤٥]، وروى الشيخان عن أبي موسى: «إنَّ الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته».

وقد تحقَّق ذلك بكفار قريش الذين هزموا في بدر والخندق وفتح مكة وغيرها من المعارك، وأظهر الله رسوله عليهم.

قال عمر لما حملت إليه كنوز كسرى: «اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرَجاً، فإني سمعتك تقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾».

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، أي سأملي وأطوّل لهم ما هم فيه وأمهل هؤلاء المكذِّبين المستدرَجين، إنَّ مكري أو تدبيري الخفي شديد قوي.

والخلاصة: أنَّ الإمداد بالنِّعم والخيرات والأرزاق ليس دليلاً على صلاح الإنسان، وإنما قد يكون استدراجاً كما يستدرج العدو إلى مكان للقضاء عليه، فالظالم إذا لم يعاقب فوراً، عليه ألا ينخدع بذلك، فقد يكون تركه طُعماً للتّعرُّف على المزيد من بغيه وجوره، كما تفعل أجهزة الأمن اليوم في كثير من حالات مراقبة تحرُّكات المشبوهين، ثم يقع ذلك الظالم في قبضة الحكام

لعقابه في الدُّنيا، أو تنزل به المصائب والدَّواهي، ثم يعاقبه الله بالعذاب الشديد في الآخرة. والاستدراج: هو الإدناء قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم.

وبعد أن هدَّد الله المعرضين عن آياته، عاد إلى الجواب عن شبهاتهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أي أوَ لم يتفكَّر هؤلاء المكذِّبون بآياتنا ما بصاحبهم، يعني محمداً ﷺ، من جنون، فقد كانوا يقولون: شاعر مجنون، مع أنهم يعرفون حاله من بدء نشأته، ويعلمون حقيقة دعوته، ودلائل رسالته، فهو رسول الله حقّاً، دعا إلى حقّ. والتَّعبير: ﴿بِصَاحِبِهِم﴾ للتَّذكير بأنهم يعرفون سيرته معرفة كاملة في سنِّ الصِّبا وعهد الشَّباب والكهولة وبعد النُّبوة.

إنهم إن تفكَّروا في شأنه، وتجرَّدوا عن عصبيَّتهم وأهوائهم، عرفوا الحقَّ وأدركوا صدقه، وأنه ليس مجنوناً ولا شاعراً، كما حكى القرآن افتراءهم: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ٨١/ ٢٢]، ﴿۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٦]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٧٠]، ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٦]، ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٣٦].

إنه ليس بمجنون، بل هو منذر ناصح، ومبلِّغ أمين، فهو ينذركم ما يحلُّ بكم من عذاب الدُّنيا والآخرة إذا لم تؤمنوا بدعوته.

وبعد أن حكى الله تعالى عن هؤلاء المكذِّبين موقفهم، فذكر: أكذَّبوا الرَّسول، ولم يتفكَّروا في شأنه وشأن دعوته؟ لفت نظرهم إلى ما يدعوهم إلى الإيمان بوحدانية الله، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ أي أكذَّبوا الرَّسول، ولم ينظروا في عالم السماوات والأرض، ففي ملكوت السماء والأرض دلائل على وجود

الصانع الحكيم القديم، والملكوت: من صيغ المبالغة ومعناه: الملك العظيم، فإذا نظر هؤلاء المكذِّبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه ونظامه البديع في السماوات والأرض، وفي كل ما خلق الله من كبير وصغير، لأداهم النّظر الصحيح إلى وجود الله تعالى ووحدانيته، أو لم ينظروا في احتمال مجيء الموت فربَّما يموتون عمّا قريب، فليسارعوا إلى النَّظر وطلب الحقّ قبل مفاجأة الأجل وحلول العقاب، وليؤمنوا برسول الله، وينيبوا إلى طاعته.

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ تنبيه على أن دلائل التوحيد غير مقصورة على السماوات والأرض، بل كلّ ذرة من ذرات الأجسام والأرواح التي خلقها الله برهان قاهر على التّوحيد.

وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ معناه: أو لم ينظروا في أن الشّأن والحديث عسى أن يموتوا عما قريب لينظروا في آجالهم التي ربَّما اقتربت، وهذا ترغيب شديد في الإتيان بهذا النَّظر والتَّفكر، وتحذير لهم أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه. والخلاصة: لعلَّ أجلهم قد اقترب فمالهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل فوات الأوان. قال ابن عباس: أراد باقتراب الأجل يوم بدر، ويوم أُحد.

فبأي كلام أو حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به؟ وبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في كتابه، يصدِّقون إن لم يصدِّقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله عزَّ وجلَّ؟ وبأي حديث أحقّ من القرآن أن يؤمنوا به؟

ثم قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ مقرِّراً لما سبق، ومعلِّلاً له، وهو أنَّ من يضلّه الله فلا هادي له، أي أنَّ من فقد الاستعداد للإيمان بالنَّبي ﷺ والعمل بالقرآن، فإن الله يتركه متردِّداً في ضلاله، حائراً في سبيله، بسبب تجاوزه الحدّ في الظُّلم والطُّغيان والفجور، ولن يجد لنفسه هادياً أو مرشداً آخر غير الله.

وليس معنى إضلال الله لهم أنه أجبرهم على الضَّلال، بل المقصود أنهم لما تأصَّل الكفر في قلوبهم، وأسرفوا في طغيانهم، فقدوا باختيارهم ما يدعوهم إلى الهدى والإيمان، وأصبحت نفوسهم غير متهيِّئة لدعوة الحقّ، وخلقهم الله على هذا النحو الذي علمه منهم قبل إيجادهم فكانوا هم الضَّالين.

فقه الحياة أو الأحكام:

أخبر الله تعالى في هذه الآيات عن أمة الدَّعوة المحمَّدية، وجعلهم كغيرهم من أقوام الأنبياء فريقين: فريق المؤمنين المهتدين، وفريق الضّالين المكذِّبين.

أما المهتدون فوصفهم الله بأنهم يرشدون الناس إلى الحقّ، ويقضون بالحقّ والعدل، وهذا كما وصف بعض قوم موسى بالوصفين ذاتهما، وفي ذلك غاية التَّجرُّد والموضوعيَّة والحياد وإنصاف الحقائق.

ودلَّت الآية - كما ذكر القرطبي - على أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يخلِّي الدُّنيا في وقت من الأوقات من داعٍ يدعو إلى الحقِّ.

وأما المكذِّبون بآيات الله وقرآنه وهم أهل مكة: فقد أخبر تعالى أنه سيستدرجهم بإدنائهم وتقريبهم إلى ما يهلكهم، ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم، عن طريق إمدادهم بالنِّعم والخيرات والأرزاق، كلما أتوا بجرم، أو أقدموا على ذنب.

وأنه سيطيل لهم المدَّة، ويمهلهم مع إصرارهم على الكفر، ولا يعاجلهم بالعقوبة، وإنما يؤخِّر عقوبتهم، لإعطائهم فرصة للعودة إلى الحقّ، والاستجابة لدعوة الإيمان، وتصديق النَّبي المصطفى عليه الصَّلاة والسَّلام. وفي فترة إمهالهم أنذرهم أنهم إن داموا على المعصية والكفر، فإن كيد الله، أي تدبيره شَديد قوي محكم.

قيل: نزلت في المستهزئين من قريش، قتلهم الله في ليلة واحدة، بعد أن

أمهلهم مدة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٦/ ٤٤].

وتضمَّنت آية ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ دعوة المكذِّبين إلى إصدار الأحكام بالاعتماد على العقل والتَّفكير والموازنة والنَّظر إلى واقع النَّبي ﷺ وسيرته، فهو ليس كما تقوَّلت ألسنتهم بمجنون، وإنما هو داعية حقّ، ونذير خير، وناصح أمة، ومرشد قوم إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم.

ثم دعاهم الله تعالى إلى إعمال فكرهم وتسديد نظرهم في ملكوت السماوات والأرض، وفي المخلوقات والأشياء العديدة، وفي آجالهم التي عسى أن تكون قد قربت، للتَّوصُّل إلى معرفة الإله الحقّ، والإيمان بوجود الصانع الحكيم القدير القديم، الذي لا ندَّ له ولا شريك ولا نظير، ومعرفة كمال قدرته. وإذا لم يؤمنوا بالقرآن، فبأي قرآن غير ما جاء به محمد ﷺ يصدِّقون؟! وفي هذا دلالة على أن القرآن هو مصدر الهداية.

وقد استدلَّ العلماء بآية ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأمثالها الكثيرة في القرآن الكريم[(١)]، على وجوب النظر في آيات الله، والاعتبار بمخلوقاته. وقد ذمَّ الله تعالى من لم ينظر، وسلبهم الانتفاع بحواسهم، فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩]، قال الجصاص: في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ حثَّ على النَّظر والاستدلال والتَّفكُّر في خلق الله وصنعه وتدبيره، فإنه يدلُّ عليه وعلى حكمته وجوده وعدله[(٢)]. وذلك يدلُّ على أنَّ التَّقليد في العقائد غير جائز، ولا بدَّ من النَّظر

---

(١) نحو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾، وقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

(٢) أحكام القرآن: ٣/ ٣٦.

والاستدلال. واتَّجه أكثر العلماء إلى أن النَّظر والاستدلال أوّل الواجبات على الإنسان. وذهب بعضهم إلى أنَّ أوّل الواجبات الإيمان بالله وبرسوله وبجميع ما جاء به، والإيمان: هو التَّصديق الحاصل في القلب، الذي ليس من شرط صحته المعرفة، ثم النظر والاستدلال المؤدِّيان إلى معرفة الله تعالى، فيتقدَّم وجوب الإيمان بالله تعالى على المعرفة بالله. وقالوا - ومنهم القرطبي -(١): هذا أقرب إلى الصواب وأرفق بالخلق؛ لأن أكثرهم ومنهم العامة والمقلِّدون لا يعرفون حقيقة المعرفة والنَّظر والاستدلال. ولأن النَّبي ﷺ في الحديث المتواتر الذي رواه أصحاب الكتب الستَّة عن أبي هريرة قال: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك، عصموا منِّي دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابهم على الله».

من الطَّريف أن العلماء قالوا: لا يكون النَّظر والاعتبار في الوجوه الحسان من المُرْد والنّسوان، فذلك متابعة الهوى، ومخادعة العقل، ومخالفة العلم، ولم يحلّ الله النَّظر إلا على صورة لا ميل للنّفس إليها، ولا حظَّ للهوى فيها.

وإنما النظر يكون في المخلوقات والجمادات، أما المخلوقات فكثيرة، ينظر في السماوات كيف بنيت وزُيِّنَت من غير شقوق، ورُفعت بغير عمد، وفي الأرض كيف وُضعت فراشاً، ووطئت مهاداً، وفي أصناف المخلوقات والحيوانات في البرّ والبحر، وفي البحار التي هي أعظم المخلوقات عبرة. وأما الجمادات فينظر في أصنافها واختلاف أنواعها وأجناسها.

هل التَّفكُّر أفضل أم الصَّلاة؟

يرى الصُّوفيَّة: أنَّ الفكر أفضل، فإنها تثمر المعرفة، وهي أفضل المقامات الشَّرعيَّة.

---

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٣١-٣٣٣.

ويرى الفقهاء: أنَّ الصَّلاة والذِّكر أفضل، لما رُوي في ذلك من الحثِّ والدُّعاء إليها، والتَّرغيب فيها.

وتوسَّط ابن العربي، فرأى أن التَّفكُّر أفضل للعالم المفكِّر القوي النَّظر، القادر على الاستدلال، وأما غيره فالأعمال أقوى لنفسه، وأثبت لشأنه(١).

ودلَّ قوله تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ على أن الهدى والضَّلال من الله، بمعنى أن الله هو الخالق لأفعال العباد، سواء في حال الخير أو في حال الشَّر، وأنه جعل القرآن أعظم أسباب الهداية للمتَّقين، لا للجاحدين المعاندين. وفي ذلك ردّ على القدريّة الذين يقولون: إن الإنسان يخلق أفعال نفسه، والمعاصي لا يريدها الله. وهي ردّ أيضاً على المعتزلة أيضاً الذين يقولون: إنَّ العبد خالق لأفعاله، ولكنهم نزَّهوا الله عن العجز، فقالوا: إن هذا بقدرة أودعه الله إياها وخلقها.

ولا إجبار من الله على الضَّلال، وإنما نسب الضَّلال إلى الله في الآية من قبيل النّسبة إلى النِّظام الذي وضعه والسُّنّة التي قضى بها في خلق الإنسان، وربط أعماله بأسباب تترتَّب عليها مسبباتها، فإذا اختار العبد الضَّلالة، فلن يجد غير الله هادياً له، ولا يهديه أحد سوى الله. ومن سنَّته تعالى أنه يترك هؤلاء الضَّالِّين يتردَّدون حَيْرة في متاهات ضلالهم، ولا يجدون سبيلاً للخروج مما هم فيه. فكما أن من اختار أصل الهداية يزيده الله هدىً ويوفِّقه لمتابعة طريق الهدى، ويمكِّنه من الوصول إلى هدفه، كذلك من اختار طريق الضَّلالة، يتركه الله في ضلاله، ويزيده ضلالاً، ويحجب عنه النُّور الذي يؤدِّي به إلى الخير، ويلقي على قلبه حجاباً كثيفاً يمنع نفاذ الخير إليه، فلا يهتدي إلى الحقّ والخير أبداً، كما قال: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٤].

(١) أحكام القرآن: ٢/ ٨٠٧.

علم السّاعة عند اللّه

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

الإعراب:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾: الكاف في الفعل في موضع نصب؛ لأنه المفعول الأوّل. و﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: في موضع المفعول الثاني. و﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾: مبتدأ وخبر، ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ مبتدأ، و﴿أَيَّانَ﴾ خبره، وهو ظرف مبني بمعنى متى؛ لأنه تضمَّن معنى حرف الاستفهام، وبني على حركة لالتقاء الساكنين، وكان الفتح أولى؛ لأنه أخفّ الحركات، وموضع الجملة من المبتدأ والخبر: نصب؛ لأنه يتعلق بمدلول السؤال، والتَّقدير: قائلين أيَّان مرساها.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ ﴿بَغْتَةً﴾: منصوب على المصدر في موضع الحال.

البلاغة:

﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ تشبيه مرسل مجمل، لذكر أداة التشبيه وهي الكاف، وحذف وجه الشبه.

المفردات اللغوية:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي أهل مكّة. ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ القيامة، وهو الوقت الذي ينتهي فيه العالم ويموت أهل الأرض جميعاً عند النفخة الأولى للصُّور. وهذا اصطلاح شرعي، ويستعمل عادة بأل، فإذا ذكر بدون (أل) في القرآن فمعناه الساعة الزَّمانية، وهو لغة: جزء قليل غير معيَّن من الزَّمن. وعند الفلكيين: جزء من أربعة وعشرين جزءاً متساوية من اليوم.

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى زمن إرسائها واستقرارها وحصولها، ومنه: إرساء السَّفينة أي إيقافها بالمِرْساة التي تلقى في البحر، فتمنعها من الجريان.

﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ لا يظهرها ولا يكشفها. ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ اللام بمعنى في، أي في وقتها، كما يقال: كتبت هذا لغرَّة المحرّم أي في غرَّته. ﴿ثَقُلَتْ﴾ عظمت. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة على غفلة من غير توقُّع ولا انتظار، كما قال عليه الصَّلاة والسَّلام فيما ذكر قتادة: «إنَّ الساعة تهيج بالناس، والرَّجل يصلح حوضه، والرَّجل يسقي ماشيته، والرَّجل يقيم سلعته في السُّوق، ويخفض ميزانه ويرفعه»[1].

﴿حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ عالم بها أو مبالغ في السؤال عنها، من حفي عن الشيء: إذا سأل عنه، فإن من بالغ في السؤال عن الشيء والبحث عنه، استحكم علمه به، ولذلك عدي بعن والحفيّ: المستقصي في السؤال عن الشيء المعتني بأمره، قال الأعشى:

فإن تسألي عنّي، فيا رُبَّ سائل حفيٍّ عن الأعشى به حيث أَصْعَدا

والإحفاء: الاستقصاء، ومنه: إحفاء الشَّارب، وحفي عن الشيء: إذا بحث للتعرُّف عن حاله.

سبب النزول:

كانت اليهود تقول للنَّبي ﷺ: «إن كنت نبيّاً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم؟». وأخرج ابن جرير الطَّبري عن قتادة أن المشركين قالوا ذلك، لفرط الإنكار[2]. وأخرج الطَّبري أيضاً وغيره عن ابن عباس قال: قال حمل بن قشير وسموءل بن زيد لرسول الله ﷺ: أخبرنا متى الساعة، إن كنت نبيّاً كما تقول، فإنّا نعلم ما هي، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٧١.

(٢) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٣٥.

ورجَّح ابن كثير أنها نزلت في قريش؛ لأن الآية مكِّية، وكانوا يسألون عن وقت السَّاعة، استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها[1]، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٨].

المناسبة:

لما تكلَّم الله تعالى في التَّوحيد والنُّبوة والقضاء والقدر، أتبعه بالكلام عن المعاد. وكذلك لما قال تعالى في الآية المتقدِّمة عن أجل الإنسان: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ﴾ بقصد الحثِّ على التوبة والإصلاح، وهو الساعة الخاصة، قال بعده: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ للإرشاد إلى النظر والتَّفكُّر في أمر الساعة العامة التي تنتهي بها الدُّنيا كلّها، ويموت بها جميع النّاس، ولبيان أن وقت السّاعة مكتوم عن الخلق.

التفسير والبيان:

يسألونك يا محمد عن وقت الساعة. متى يكون؟ ومتى يحصل ويستقر؟ كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٣]. وفي التعبير بالإرساء الدَّال على الاستقرار إشارة إلى أن قيام الساعة إنهاء لحركة العالم، وانقضاء عمر الأرض.

قل لهم: إن علم الساعة مقصور على الله وحده، فلا يطَّلع عليه أحد من الخلق، فإنه هو الذي يعلم جلية أمرها، ومتى يكون على التَّحديد، ولا يظهرها في وقتها المحدود إلا الله، ولا يعلم بها أحد حتى ولو كان ملكاً مقرَّباً

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٧١.

أو نبيّاً مرسلاً، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤]. فكلّ من الساعة العامة (القيامة)، والساعة الخاصّة (أجل الإنسان) من الغيبيات التي اختص الله بعلمها، لتكون فترة الاختبار صحيحة وعامة غير متأثرة بدافع العلم بها أو بقصد النَّفعية، ولا مختصَّة بزمن معيَّن يطَّلع عليه الخلق، ولتبقى رهبتها مهيمنة على النُّفوس.

وفي التَّعبير بقوله: ﴿عِندَ رَبِّى﴾ إشارة إلى أن ما هو شأن الرَّبّ لا يكون للمخلوق، وأنَّ مهمة النَّبي ﷺ الإنذار بوقوعها، لا بتحديد زمنها، حتى لا يضطرب شأن العالم، فلو علمت لاضطرب الناس واختلّ العمران.

لذا قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خفي علمها على أهل السماوات والأرض، ولم يعلم أحد من الملائكة المقرَّبين والأنبياء المرسلين متى يكون حدوثها ووقوعها، وكلّ ما خفي علمه فهو ثقيل على الفؤاد. وقيل عن الحسن وغيره: كبر مجيئها على أهل السماوات والأرض، وعظم أمرها، فهم لا يدرون متى تفاجئهم، ويتوقعون دائماً وقوعها، ويخافون منها لشدَّة وقعها وعظم أهوالها.

وقضى الله أنها لا تأتي إلا بغتة أي فجأةً على غفلة، والناس مشغولون في شأن الدُّنيا ومصالحها، وهذا تأكيد لما تقدَّم وتقرير لعنصر المفاجأة في إتيانها.

روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشَّمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً. ولتقُومنَّ الساعة، وقد نشر الرَّجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقُومنَّ الساعة، وقد انصرف الرَّجل بلبن لَقْحَته[١] فلا يطعمه، ولتقُومنَّ الساعة

---

(١) اللقحة: الشاة الحلوب أو الحامل.

والرَّجل يَليط[١] حوضه، فلا يسقي فيه، ولتقُومنَّ الساعة، والرَّجل رفع أكلته إلى فيه، فلا يُطْعَمُها».

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ مبالغ في السؤال عنها، ومهتم بشأن زمنها، وعالم بها. قل لهم: لست أعلمها، إنما علمها عند الله الذي يعلم الغيب في السماوات والأرض. و﴿أَيَّانَ﴾ معناه الاستفهام عن زمان المجيء، بمعنى متى.

وتكرار هذا الجواب: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ بعد تكرار السؤال مبالغة في التأكيد، بل ليس هذا تكريراً، ولكن أحد العلمين لوقوعها، وهو الجواب الأول عن سؤالهم عن وقت قيام الساعة، والآخر لكنهها، وهو الجواب الثاني عن سؤالهم عن كنه ثقل الساعة وشدَّتها ومهابتها. فالسؤال الأوّل عن وقت قيام الساعة، والثاني عن مقدار شدَّتها ومهابتها.

وعبَّر عنها بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى استئثار الله بعلمها لذاته، كما عبَّر هناك بلفظ ﴿رَبِّيۖ﴾ للتَّنبيه على أنَّ الساعة من شؤون ربوبيَّته.

ونقل عن ابن عباس تفسير ﴿حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ بأنه حفيٌّ ببرِّهم وفرِح بسؤالهم، وكأن بينك وبينهم مودَّة، وكأنك صديق لهم؛ لأنهم قالوا: بيننا وبينك قرابة، فأسِرَّ إلينا بوقت الساعة.

ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه العالم بها، وأنه المختص بالعلم بها، وسرّ إخفائها، أو سبب عدم معرفة الخلق وقتها المعيَّن، وحكمة ذلك، وإنما يعلم ذلك القليلون، وهم المؤمنون بالقرآن وبما أخبر به النَّبي ﷺ فيما رواه الشيخان عن عمر رضي الله عنه حينما سأله جبريل عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أي أنا وأنت سواء في جهل هذا الأمر. ولكن النَّبي ﷺ أخبر عن قرب وقوع الساعة، فقد أخرج الترمذي وصححه عن

---

(١) يليط: يطلي حوضه أو حجارته بجصٍّ ونحوه ليمسك الماء.

أنس مرفوعاً: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتين» وقرن بين أصبعيه: السبابة والتي تليها.

قال الرّازي: السبب في إخفاء الساعة عن العباد: هو أن يكونوا على حذر منها، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية(١).

وقال الألوسي: وإنما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التَّشريعية ذلك، فإنه أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك(٢).

وهذا هو السّر أيضاً في إخفاء ليلة القدر وساعة الإجابة، لينشط الناس في طلبها والعمل لها في وقت أطول، وليظل الإنسان ملازماً حال الاستقامة والدُّعاء والعبادة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلَّت الآية على أحكام عديدة مستنبطة من كلِّ جملة فيها، وهي ما يأتي:

أ - لا يعلم وقت قيام الساعة، ولا مقدار شدَّتها ومهابتها، ولا يعرف كنهها وحقيقتها إلا الله عزَّ وجلَّ، لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤]، وهي محققة المجيء والحدوث؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٩]، وقريبة الوقوع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ٢٠/ ١٥]، وتقع كلمح البصر أو أقرب؛ لقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ١٦/ ٧٧].

---

(١) تفسير الرّازي: ١٥/ ٨٠.

(٢) تفسير الألوسي: ٩/ ١٣٤.

٢ً - إنَّ يوم السَّاعة عظيم الثِّقل على القلوب، بسبب أنَّ الخلق يصيرون بعدها إلى البعث والحساب والسؤال، ولكون الخوف من الله في ذلك اليوم شديداً على الخلائق.

٣ً - لا تجيء الساعة إلا بغتةً فجأةً، على حين غفلة من الخلق، روى الحسن البصري عن النَّبي ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لتقُومنَّ الساعة، وإنَّ الرَّجل ليرفع اللقمة إلى فيه، حتى تحول بينه وبين ذلك»، وسمِّيت القيامة بالسّاعة لوقوعها بغتةً، أو لأن حساب الخلق يقضى فيها في ساعة واحدة، أو لأنها على طولها كساعة واحدة عند الخلق.

٤ً - لم يكن النَّبي ﷺ عالماً بالسّاعة ولا كثير السؤال عنها.

٥ً - الحكمة التَّشريعية في كون وقت السَّاعة مكتوماً عن الخلق؛ هو حمل المكلَّفين على المسارعة إلى التوبة، وأداء الواجبات، وسداد الحقوق إلى أصحابها.

وللسَّاعة أشراط أو علامات ثلاث:

١ً - ما وقع بالفعل منذ زمان مثل قتال اليهود وفتح بيت المقدس والقسطنطينية.

٢ً - ما حدث بعضه ويتوالى ظهوره مثل كثرة الفتن، وكثرة الدَّجَّالين، وكثرة الزِّنا، وكثرة النِّساء وتشبههنَّ بالرِّجال، والمجاهرة بالكفر والإلحاد والشرك.

٣ً - ما سيقع قبيل قيام الساعة من علامات صغرى وكبرى، مثل أن تلد الأمة ربَّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشّاة يتطاولون في البنيان، ومثل طلوع الشَّمس من مغربها.

الأمور كلُّها بيد اللَّه وحده وعلم الغيب مختصّ باللَّه تعالى وحقيقة الرِّسالة

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾

القراءات:

﴿ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ﴾:

بالتسهيل، وبالإبدال واواً خالصة قرأ: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.

وقرأ الباقون بالتحقيق.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾: هو ما غاب عنّا، وهو إما حقيقي: لا يعلمه إلا الله؛ وإما إضافي نسبي يعلمه بعض الخلق بتعليم الله كالأنبياء والرُّسل .﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ ما يرغب الناس فيه عادة من المنافع المادية كالمال، والمعنوية كالعلم .﴿ٱلسُّوٓءُۚ﴾ ما يرغب عنه الناس لضرره كالفقر وغيره .﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ﴾ أي ما أنا إلا منذر بالنّار للكافرين، والإنذار: التَّبليغ المقترن بالتَّخويف من العقاب على الكفر والمعاصي. والتَّبشير: التَّبليغ المقترن بالتَّرغيب في الثَّواب مع الإيمان والعمل الصالح. والبشير: المبشر بالجنَّة للمؤمنين.

سبب النزول:

روي أن أهل مكة قالوا: يا محمد، ألا يخبرك ربُّك بالرُّخص والغلاء حتى نشتري فنربح، وبالأرض التي تجدب لنرتحل إلى الأرض الخصبة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

المناسبة:

بعد أن أخبر الله عن أنَّ وقت الساعة (القيامة) لا يعلمه إلا الله وحده، أمر رسول الله ﷺ أن يبيِّن للناس أنَّ كل الأمور بيده تعالى وحده، وأنَّ علم الغيب كله عنده، وأنه لا يدَّعي علم الغيب، إن هو إلا نذير وبشير، كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس: ١٠/٤٨-٤٩].

التفسير والبيان:

أمر الله تعالى رسوله أن يفوِّض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٧٢/ ٢٦-٢٧].

قل أيُّها الرَّسول للناس: إنِّي لا أملك لنفسي ولا لغيري جلب أي نفع ولا أستطيع دفع أي ضرر عنِّي ولا عن غيري، إلا بمشيئة الله وقدرته، فيلهمني إيّاه ويوفِّقني له.

وهذا يدلُّ على إظهار العبودية، والتَّبرِّي من ادِّعاء العلم بالغيوب، ومنصب الرِّسالة لا يقتضي علم الساعة وغيرها من علم الغيب، فالغيب لله وحده.

وإنما وظيفة الرِّسالة تبليغ الوحي المنزل، والتَّعليم والإرشاد، وفيما عدا ذلك فإن الرَّسول بشر كسائر الناس: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١٨/ ١١٠].

ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير كالمال ونحوه من المنافع، ولما أصابني السّوء، أي لاجتنبت ما يكون من الشَّر قبل أن يكون، وتوقيت المضار قبل أن تقع.

وليس لي مزية عن البشر إلا بتبليغ الوحي عن الله بالإنذار والتَّبشير، فما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة، نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنّات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٩٧].

وكوني المنذر والمبشر للمؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون بالإنذار والتَّبشير.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه آية من أصول العقيدة والدِّين، بيَّنت حقيقة الرِّسالة، وميَّزتها عن الرُّبوبية، وهدمت قواعد الشِّرك والوثنية.

فما الرَّسول إلا بشرٌ مبلِّغ عن الله ما يوحيه إليه، وهو قدوة صالحة للنّاس في العمل بما جاء به من عند الله، وليس له شيء من صفات الله وأفعاله، ولا سلطان له بالتأثير في الأشياء، لا نفعاً ولا ضرّاً، ولا خيراً ولا شرّاً، ولا إيماناً ولا كفراً.

وبما أنَّ الإيمان نفع والكفر ضرّ، فإنهما لا يحصلان إلا بمشيئة الله سبحانه؛ فهو الخالق للإيمان والكفر، والمريد لهما، والعبد هو الموجد ما خلق الله عنده من قدرة إما إلى الإيمان والخير، وإما إلى الكفر والشَّرِّ.

وليس أدلّ على الإقناع بعدم علم الرَّسول بالغيب من أنه لو كان عالماً بالغيب، لحقَّق لنفسه منافع الدُّنيا وخيراتها، من مال ومجد، وعظمة دولة، ونصر حربي، وتفوُّق دائم، وأرباح ومكاسب كثيرة، ولدفع عن نفسه آفات الدُّنيا ومضارِّها، كالفقر والمرض والجرح والهزيمة ونحوها من ألوان السّوء والشَّر، ولحذِر من مكر الأعداء ومكائدهم، ولاستطاع التَّمييز بين من تؤثر فيه الدَّعوة إلى الدِّين الحقّ ومن لا تؤثِّر فيه.

التذكير بالنشأة الأولى والأمر بالتوحيد واتباع القرآن والنهي عن الشرك

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

القراءات:

﴿شُرَكَآءَ﴾:

وقرأ نافع (شِرْكاً).

﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾:

وقرأ نافع: (لايَتْبعوكم).

الإعراب:

﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ صالحاً صفة المفعول الثاني المحذوف، وتقديره: ابناً صالحاً، والمفعول الأول: (نا) في الفعل.

﴿شُرَكَآءَ﴾ جمع شريك، وفيه حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أي جعل أولادهما له شركاء. وكذلك ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي آتى أولادهما، وقد دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير، وآدم

وحواء بريئان من الشرك، ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبد مناة، وعبد شمس، وما أشبه ذلك، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم.

البلاغة:

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ التَّغشي: كناية عن الجماع.

المفردات اللغوية:

﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي من آدم، أو من جنس واحد ﴿وَجَعَلَ﴾ خلق ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليأنس بها ويطمئن إليها ويألفها ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾ جامعها، مثل غشيها ﴿حَمَلَتْ﴾ علقت منه ﴿حَمْلًا خَفِيفًا﴾ هو النطفة، والحمل بفتح الحاء: ما كان في بطن أو على شجرة، وبالكسر: ما كان على ظهر ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ استمرت حاملة له إلى وقت ميلاده ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ صار الحمل ثقيلاً وقرب وضعها ﴿صَٰلِحًا﴾ أي ولداً أو نسلاً صالحاً أي سوياً سليماً في الجسم والفطرة ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ تعاظم وتنزه عن الشريك والولد ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي أهل مكة به من الأصنام. وأجريت الأصنام مجرى العقلاء أولي العلم في قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة. والمعنى: أيشركون مالا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله وهم يُخلقون.

وجملة ﴿فَتَعَٰلَى﴾ عطف على ﴿خَلَقَكُم﴾ وما بينهما اعتراض.

المناسبة:

موضوع الآيات عود على بدء، فقد بدئت السورة بالكلام عن التوحيد واتباع القرآن، ثم ختمت بالكلام عن التوحيد وعن القرآن، والتذكير بالنشأة الأولى، كما ذكَّر بها سابقاً، لترسيخ العقيدة بوجود الله ووحدانيته، والامتناع عن الشرك، والبعد عن وسوسة الشيطان.

التفسير والبيان:

الله هو الذي خلقكم في الأصل من نفس واحدة، قال جمهور المفسّرين: المراد بالنفس الواحدة: آدم عليه السلام، ثم خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ٤/ ١].

ورأي بعض المفسّرين أن المعنى، خلقكم من جنس واحد وطبيعة واحدة، وجعل زوجه من جنسه، ليسكن إليها، ويطمئن بها، كما خلق من كل الأنواع زوجين اثنين، كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٤٩].

وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي ليأنس بها ويطمئن ويألفها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١]. وهذا التآلف قائم في أعمال كل من الرجل والمرأة، ففي عهد الشباب لا تسكن النفس إلا بالاقتران بزوج آخر، ولا نجد ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، والجنس ميال بطبيعته إلى جنسه، والتعاون على شؤون الحياة يحتاج إلى التزاوج، وبقاء النوع الإنساني مرهون بهذا الترابط بين الجنسين: الذكر والأنثى.

ثم ذكر الله تعالى ثمرة هذا التزاوج بين الرجل والمرأة فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ وهو كناية عن الوقاع، أي فلما حدث الوطء أو الوقاع أو الجماع بين الجنسين، بدأ تكون الجنين، وحدث الحمل الخفيف، وهو أول الحمل الذي لا تجد فيه المرأة ثقلاً ولا ألماً، إنما هي النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ويرتفع الحيض عادة ببدء الحمل، وتستمر المرأة في متابعة أعمالها المعتادة دون

مشقة، وهذا هو المراد من قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي استمرت بذلك الحمل الخفيف.

فلما أثقلت المرأة الحامل أي صارت ذات ثقل بحملها بسبب كبر الولد في بطنها، وحان وقت الوضع، دَعَوا الله ربَّهما، أي دعا الزوجان وهما المشركان مقسمين: لئن آتيتنا ولداً صالحاً، أي بشراً سوياً، تام الخلق، سليم الفطرة، لنكونن لك من الشاكرين نعمتك، المشتغلين بشكر تلك النعمة.

فلما آتاهما الله ما طلبا، ورزقهما ولداً صالحاً سوياً كامل الخلقة، جعل الزوجان لله شركاء أي شريكاً فيما آتاهما وأعطاهما، فتعالى أي تعاظم وتنزه الله عما يشركون وينسبون له من الولد والشريك.

ومِنَ المراد بقوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ ؟.

ذكر بعض المفسّرين كالسيوطي أن المراد آدم وحواء، بالاعتماد على حديث ضعيف في الترمذي وغيره، وهو ما رواه سمرة عن النبي ﷺ قال: لما ولدت حواء، طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سمِّيه عبد الحارث - وكان اسم إبليس حارثاً بين الملائكة - فإنه يعيش، فسمَّته، فعاش، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره. وتؤيده روايات إسرائيلية كثيرة لا ثبات لها، فلا يعول عليها، وأمثال ذلك لا يليق بالأنبياء.

والواقع - على افتراض أن المراد بالنفس الواحدة: آدم - أن نسبة هذا الجعل إلى آدم وحواء يراد به بعض أولادهما، قال الحسن البصري: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهوَّدوا ونصَّروا[1].

وأيَّد ابن كثير هذا التأويل عن الحسن رضي الله عنه، فقال: وهو من

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٧٥.

أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية.. وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي بصيغة الجمع. فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدِين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٦٧/ ٥]. ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن الكريم[١].

والخلاصة: إن الشرك نسب إلى آدم وحواء، والمراد به أولادهما، كاليهود والنصارى والمشركين؛ لأن آدم وزوجته لم يكونا مشركين.

قال الزمخشري في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ أي جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي آتى أولادهما، وقد دلَّ على ذلك قوله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير، وآدم وحواء بريئان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم عبد العزى، وعبد مناة، وعبد شمس، وما أشبه ذلك، مكان عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم[٢]. وقد ذكر الرازي هذا التأويل.

وذكر أيضاً أي الرازي تأويلاً آخر للآية وهو أن قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الإنكار والتبعيد، وتقريره: فلما آتاهما صالحاً، أجعلا له شركاء فيما آتاهما؟ ثم قال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ٢٧٥ - ٢٧٦.

(٢) الكشاف: ٢/ ٥٩٢.

تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك، وينسبونه إلى آدم عليه السلام[(١)].

وهذا كله على تسليم أن القصة من أولها إلى آخرها في حق آدم وحواء. وهناك من جعل الخطاب في الآية لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، وهم آل قصي، إذ سمَّى قصي وزوجته القرشيان أولادهما بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد اللات.

وقال القفال: إنه تعالى ذكر هذه القصة على سبيل ضرب المثل، وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم، وقولهم بالشرك، على أساس أن المراد بالزوجين الجنس أي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة أو جنس واحد، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية.

ثم فنَّد الله تعالى آراء المشركين، ونقض الشرك من جذوره، فقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أي أيشركون بالله شيئاً لا يستطيع إطلاقاً خلق أي شيء؟ أو أيشركون به من المعبودات مالا يخلق شيئاً، ولا يستطيع ذلك. وإنما الله هو الخالق لهم ولأولادهم ولكل مخلوق، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٣].

وهذه الأصنام مخلوقة مصنوعة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٢٠].

وهم لا يستطيعون لعابديهم تحقيق أي معونة أو نصر، بل إنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم على من يعتدي عليهم بإهانة أو سب أو أخذ شيء مما

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ٦٧ وما بعدها.

عندهم من طيب أو حلي، فلا نصر لأنفسهم ممن أرادهم بسوء. وقال: ﴿يُخۡلَقُونَ﴾ لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع، فأجريت مجرى الناس.

فهذا كله إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله، مربوبة، مصنوعة لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم.

ثم ذكر الله تعالى أن هذه الأصنام لا تصلح تبعاً فضلاً عن أن تكون متبوعة، فقال: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي وإن تدعوا هذه الأصنام إلى ما هو هدى ورشاد، أو إلى أن يهدوكم إلى ما تريدون تحقيقه، لا يستجيبون لكم ولا ينفعونكم، فهم في الحالين عديمو النفع، فإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى، لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبكم، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٤].

سواء لديكم دعاؤكم إياهم، أو سكوتكم عن دعائهم في أنه لا فلاح معهم، ولا خير يرتجى منهم، إذ هم لا يفهمون الدعاء، ولا يسمعون الأصوات، ولا يعقلون الكلام.

ومثل من كانت هذه صفته، لا يصلح ربّاً معبوداً، وإنما الرَّب الموجود المعبود هو السميع البصير، العليم الخبير، الناصر القادر، النافع من يعبده، الضار من يعصيه، الهادي إلى الرشاد، المنقذ من الردى، المجيب المضطر إذا دعاه.

وعبَّر بالجملة الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار: ﴿أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٣] بدلاً عن الجملة الفعلية المشعرة بالتجدد المتكرر: «أم صَمَتُّمْ» لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر، دعوا الله دون أصنامهم، كقوله: ﴿وَإِذَا

﴿مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم، فقيل لهم: إن دعوتموهم، لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم، وبين ما أنتم عليه من الاستمرار على سكوتكم ومن عادة صمتكم عن دعائهم[١]. أي فلا فرق بين تجديد دعاء الأصنام بفعل متجدد وبين الاستمرار والثبات على حال الصمت وعدم دعائها، وبذلك صلح عطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية الذي لا يجوز إلا لفائدة وحكمة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلَّت الآيات على ما يأتي:

١ - الناس في الأصل مخلوقون من نفس واحدة. المشهور أنها نفس آدم. وحواء مخلوقة من نفس آدم: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ على معنى أنه تعالى خلقها من ضلع من أضلاع آدم، وحكمة ذلك أن الجنس أميل إلى الجنس، والجنسية علة الضم واللقاء والألفة بين الرجل والمرأة. واستشكل الرازي هذا الكلام؛ فإن الله قادر على أن يخلق حواء خلقاً مستقلاً كما خلق آدم ابتداء، فلماذا يقال: إنه تعالى خلق حواء من جزء من أجزاء آدم؟ ثم رجح أن المراد من كلمة «من» في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ خلق حواء من نوع آدم ومن جنسه في الإنسانية، وجعل زوج آدم إنساناً مثله[٢].

٢ - من رحمة الله تعالى بالأم أن جعل خلق الجنين واكتمال الحمل على مراحل متدرجة من الأخف إلى الأثقل، كيلا تشعر بالثقل المفاجئ، ولتظل قائمة بأعمالها المعتادة دون إرهاق.

٣ - يفهم من ظاهر قوله تعالى: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أن الحمل مرض من

(١) الكشاف: ٢/ ٥٩٢.

(٢) تفسير الرازي: ١٥/ ٨٩.

الأمراض، ولأجل عظم الأمر جُعل موتُها شهادة، كما ورد في حديث تعداد الشهداء الذي رواه أحمد وأبو داود والنَّسائي وابن ماجه والحاكم: «الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجُمع شهيدة» أي تموت وفي بطنها ولد. فيكون حال الحامل في رأي الإمام مالك حال المريض في أفعاله بعد مضي ستة أشهر من الحمل، أي المريض مرض الموت، وهو الذي لا تنفذ تبرعاته من هبة ومحاباة في بيع إلا في ثلث ماله. وقال الأئمة الثلاثة: إنما يكون ذلك في الحامل بحال الطَّلْق، فأما قبل ذلك فلا؛ لأن الحمل عادة، والغالب فيه السلامة. ورد المالكية بقولهم: كذلك أكثر الأمراض غالبه السلامة، وقد يموت من لم يمرَض.

ويعد الزاحف في الصف للقتال والمحبوس للقتل في قصاص بمنزلة الحامل والمريض المخوف عليه، ما كان بتلك الحال، في رأي الإمام مالك، فلا يتبرع إلا في الثلث.

٤ً - الأوثان لا تصلح للألوهية؛ لأنها مخلوقة، وغير قادرة على خلق شيء أو إيجاد نفع أو ضر فكيف يعبد مالا يقدر على أن يخلق شيئاً؟! والمقصود من الآية إقامة الحجة على أن الأوثان لا تصلح للألوهية.

٥ً - ليس المراد من قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما ذكر من قصة إبليس مع آدم عليه السلام السابق ذكرها؛ إذ لو كان المراد ذلك، لكانت هذه الآية غريبة عن تلك القصة غرابة كلية، وأدى الأمر إلى إفساد النظم والترتيب، وإنما المراد بها الرد على عبدة الأوثان، كما ذكر القفال، فهي بيان لخلق الرجل والمرأة من جنس واحد ومن أصل واحد في الإنسانية، ثم التنديد بفعل بعض الأزواج، فلما تغشى الزوج زوجته (واقعها) وظهر الحمل، دعا

الزوجان ربهما لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً، لنكونن من الشاكرين لنعمائك، فلما آتاهما الله ولداً صالحاً سوياً، جعلا لله شركاء فيما آتاهما؛ لأن الأزواج تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع، كما هو قول الطبيعيين، وتارة إلى الكواكب، كما هو قول الفلكيين، وتارة إلى الأصنام والأوثان، كما هو قول عبدة الأصنام.

٦ً - احتجَّ أهل السنة بقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ على أن العبد لا يخلق ولا يوجد أفعاله، وإنما الذي يخلق هو الإله، فلو كان العبد خالقاً لأفعال نفسه، كان إلهاً.

٧ً - دلَّ قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ على أن الأصنام لا تنصر من أطاعها، ولا تنتصر ممن عصاها، والمعبود يجب أن يكون قادراً على إيصال النفع، ودفع الضرر، وهذه الأصنام عاجزة عن ذلك، فكيف يليق بالعاقل عبادتها؟!

٨ً - ودلَّ قوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ على أنه أيضاً لا علم للأصنام بشيء من الأشياء، فلا يتصور منها الاتباع إذا دعيت إلى الخير، فكيف تصلح أن تكون معبودة؟!

والخلاصة: إن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن أهملها، كما قال إبراهيم: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ١٩/ ٤٢].

واقع الأصنام والأوثان المعبودة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟
لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ
أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ
كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾
وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن
تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

القراءات:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟﴾: قرئ:

١- (قلِ ادعوا) وهي قراءة عاصم، وحمزة.

٢- (قلُ ادعوا) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ عباد خبر ﴿إِنَّ﴾ مرفوع، و﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ صفة، وجاز أن يكون وصفاً للنكرة، وإن كان مضافاً إلى المعرفة؛ لأن الإضافة في نية الانفصال، وأنه لا يتعرف بالإضافة، للشيوع الذي فيه.

وقرأ سعيد بن جبير: (إنِ الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم) بتخفيف (إن) ونصب: (عباداً أمثالكم)، والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم، على إعمال: إن عمل ما الحجازية، وهو مذهب المبرد، وأما مذهب سيبويه فهو إهمالها.

البلاغة:

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ هذا إطناب يراد به زيادة التقريع والتوبيخ. والاستفهام في المواضع المختلفة استفهام إنكار، أي ليس لهم شيء من ذلك مما هو لكم، فكيف تعبدونهم وأنتم أتم حالاً منهم؟!

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله، وأصل الدعاء: النداء، ويقصد به غالباً دفع ضرر أو جلب خير ﴿عِبَادٌ﴾ مملوكة لله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ دعاءكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنها آلهة ﴿يَبْطِشُونَ﴾ يضربون ويصولون بها.

﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ إلى هلاكي ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ تمهلون، فإني لا أبالي بكم.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾ أي متولي أموري ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من عباده بحفظه فضلاً عن أنبيائه ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي الأصنام ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ أي الأصنام يا محمد ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي يقابلونك كالناظر، فهم يشبهون الناظرين إليك؛ لأنهم صوروا بصورة من ينظر إلى من يواجهه.

المناسبة:

هذه الآيات تأكيد لما سبق بيانه أن الأصنام لا تصلح للألوهية، بقصد غرس التوحيد في القلوب، واستئصال جذور الشرك من النفوس.

التفسير والبيان:

إن تلك الأصنام التي تعبدونها وتسمونها آلهة من دون الله، وتدعونها لدفع الضر أو جلب النفع هم عباد أو عبيد مثل عابديها، في كونهم مخلوقات لله مثلهم، خاضعون لإرادته وقدرته، بل الأناس أكمل منها؛ لأنها تسمع

وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك. وإذا كانت على هذا النحو فكيف يصح عقلاً تقديسها وعبادتها من مخلوق مثلها، بل أسمى وأكمل منها؟ وإنما الذي يستحق العبادة هو الرَّب الخالق الذي خضعت له جميع الكائنات، ودانت له الأسباب. وكيف تترك رسالة بشر خصه بالعلم والمعرفة، وازدانت عقيدته بالحق والنور والفائدة العظمى، وتعبد حجارة من دون الله، لا تضر ولا تنفع؟

وإن كنتم صادقين في تأليههم، واستحقاقهم العبادة، والتماس النفع أو الضر منهم، فادعوهم واطلبوا منهم طلباً ما، فليستجيبوا لكم دعاءكم، إما بأنفسهم، وإما بتوسطهم عند الله. ومعنى هذا الدعاء: طلب المنافع، وكشف المضار من جهتهم. واللام في قوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾ لام الأمر، على معنى التعجيز، والمعنى أنه لما ظهر لكل عاقل أنها لا تقدر على الإجابة، ظهر أنها لا تصلح للعبادة.

وقوله: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ استهزاء بهم، أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء، فإن ثبت ذلك، فهم عباد أمثالكم، لا تفاضل بينكم.

وصفت الأصنام بأنها عباد، وأشير إليها بضمير العقلاء في قوله: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ ولم يقل: التي، مع أنها جمادات غير عاقلة، إنزالاً لها منزلة العقلاء، بحسب اعتقاد المشركين أنها تضر وتنفع، فتكون عاقلة فاهمة، فوردت الألفاظ على وفق معتقداتهم.

ثم ترقى القرآن في الجواب عليهم، وأبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم، وأثبت أنهم ليسوا أمثالهم، بل أدنى منهم رتبة، فذكر أعضاء أربعة هي الأرجل والأيدي والأعين والآذان، وكلها معطلة القوة والحركة والإدراك، مع أن هذه الأعضاء إن كان فيها هذه القوى فهي وسائل الكسب في الحياة.

فليس للأصنام أرجل يمشون بها إلى جلب نفع أو دفع ضر، وليس لهم أيد

يبطشون بها ويصولون بها لتحقيق ما ترجون منهم من خير، أو تخافون من شر، وليس لهم أعين يبصرون بها أحوالكم، ولا آذان يسمعون بها نداءكم وكلامكم وفهم مطالبكم، فهم ليسوا مثلكم، بل دونكم في التكوين والصفات والقوى، ومن يخلو من منافع هذه الأعضاء، لا يستحق العبادة، فإن الإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام، بل لا تصح المقارنة بين مزايا الإنسان وهذه الأصنام، إذ هم حجارة صماء، أو طين وماء، أو عجوة أو حلاوة كصنم بني حنيفة.

أكلت حنيفة ربها عام التقحم والمجاعة

ومع كل هذا أُمر النبي ﷺ بأن يتحداهم، ويدعوهم للاختبار العملي، فقيل له: قل يامحمد الرسول لهؤلاء الوثنيين: نادوا شركاءكم وآلهتكم من دون الله، واستنصروا بها علي، وتعاونوا على كيدي، فلا تؤخروني طرفة عين، وابذلوا جهدكم، وأوقعوا الضرر بي كيف شئتم، ولا تمهلونِ ساعة من نهار، أنتم وشركاؤكم، فلا أبالي بكم. ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله، وكانوا قد خوفوه آلهتهم.

وهذا رد على تهديدهم وقولهم: إنا نخاف عليك من آلهتنا!!

ثم أعلن الرسول ثقته الكبرى بالله وتحقيره هذه المعبودات، مع قلة الأعوان والنصراء في مكة فقال بتعليم الله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾ أي الله حسبي وكافيني، وهو نصيري وناصري عليكم، ومتولي أمري في الدنيا والآخرة، وعليه اتكالي، وإليه ألجأ، وهو الذي نزَّل علي القرآن الذي يدعو إلى التوحيد، وينبذ الشرك، وأعزني برسالته، وهو الذي يتولى كل صالح بعدي، وهو كل من صلحت عقيدته، وسلمت من الخرافات والأوهام، وصلحت أعماله، ومن عادته تعالى أن ينصر الصالحين من عباده وأنبيائه، ولا يخذلهم. أما المشرك فوليه الشيطان: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٧]. ومناسبة هذه الآية: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ لما قبلها أنه تعالى لما بيَّن في الآيات المتقدمة أن هذه الأصنام لا قدرة لها على النفع والضر، بيّن بهذه الآية أن الواجب على كل عاقل عبادة الله تعالى؛ لأنه هو الذي يتولى تحصيل منافع الدين ومنافع الدنيا، أما الأولى فبسبب إنزال الكتاب وأما الثانية فبسبب تولي الصالحين.

ثم أكد تعالى ماتقدم من خيبة الأصنام في تحقيق النصر فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ بصيغة الخطاب، وذاك بصيغة الغيبة، أي إن الذين تعبدونهم وتدعونهم من دون الله لنصركم ودفع الضر عنكم عاجزون، لا يستطيعون نصركم، ولا نصر أنفسهم ضد من يحقرهم أو يسلبهم شيئاً مما يوضع عليهم من طيب أو حلي، أو يريدهم بسوء.

فقد كسّر إبراهيم عليه السلام الأصنام وأهانها غاية الإهانة فما دفعت عن نفسها الأذى ولا انتقمت منه، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٩٣] وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٥٨].

وروي عن معاذ بن جبل ومعاذ بن عمرو بن الجَمُوح رضي الله عنهما - وكانا شابين من الأنصار قد أسلما، لما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة - أنهما كانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، ويرتؤوا لأنفسهم رأياً آخر.

وكان لعَمْرو بن الجموح - وكان سيد قومه - صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل، فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعَذِرة، فيجيء عمروبن الجموح، فيرى ما صُنع به، فيغسله ويطيبه، ويضع عنده سيفاً، ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذاه مرة، فقرَناه

مع كلب ميت، ودلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو، ورأى ذلك نظر فعلم أن ماكان عليه من الدِّين باطل، وقال:

تالله لو كنت إلهاً مستَدن لم تكُ والكلبَ جميعاً في قَرَن

ثم أسلم وحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً رضي الله عنه[١].

وكما هم عاجزون عن النصرة عاجزون عن الإرشاد والهداية، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ﴾ أي وإن تدعوا هذه الأصنام إلى أن يهدوكم إلى سواء السبيل وتحقيق النصر، لا يسمعوا دعاءكم، فضلاً عن المساعدة والمعونة والإمداد، وتراهم أيها المخاطب المتأمل يقابلونك بعيون مصوَّرة صناعية، وهي جماد لا تبصر شيئاً، ولا تدرك المرئي؛ لأن لهم صورة الأعين، وهم لا يرون بها شيئاً، فهم فاقدو السمع والبصر، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْۖ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٤].

وإذ فقدوا السّمع والبصر، فكيف يرجى منهم نصر أو عون، وكيف يخاف منهم إحداث ضرر أو أذى لمن يحتقرهم، وكيف يليق بكم أن تتخذوهم آلهة؟!

فقه الحياة أو الأحكام:

الآيات محاجّة في عبادة الأصنام، وتأكيد لما سبق من بيان عدم أي جدوى من تلك العبادة، وقد دلّت على ما يأتي:

أ - يقبح من الإنسان العاقل أن يشتغل بعبادة هذه الأصنام المعطلة القوى المحركة والمدركة، لفقدها الأرجل والأيدي والأعين والآذان؛ لأن المعبود يتّصف بهذه القوى وغيرها، والإنسان الذي يعبدها أفضل منها بكثير، بل لا

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٧٦

مجال للمقارنة بينه وبينها أصلاً، فكيف يليق بالأفضل الأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون، الذي لا يحس منه فائدة ألبتة، لا في جلب المنفعة، ولا في دفع المضرة؟! فهي ليست عباداً أمثال الإنسان، وإنما هي حجارة وخشب، فأنتم تعبدون ما أنتم أشرف منه.

٢ - الإنسان أفضل وأكمل حالاً من الصنم؛ لأن له رجلاً ماشية، ويداً باطشة، وعيناً باصرة، وأذناً سامعة، وليس للصنم شيء من ذلك.

٣ - كيف تحسن عبادة من لا يقدر على النفع والضرر؟! فليس للأصنام قدرة على النفع والضرر، لا لنفسها ولا لغيرها، ولا تستطيع نصرة أحد.

٤ - إن تخويف المشركين الرّسول ﷺ بآلهتهم عبث وهدر، فقد دعاهم إلى مكايدته وإضراره دون إمهال، فخابوا وخسروا هم وشركاؤهم.

٥ - إن متولي أمور النّبي ﷺ في الدُّنيا والآخرة بنصره وحفظه هو الله تعالى الذي يتولَّ الصَّالحين من عباده ويحفظهم. جاء في صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سرّ يقول: «ألا إنّ آل أبي - يعني فلاناً - ليسوا لي بأولياء، إنما وَلِيِّي الله وصالح المؤمنين».

٦ - الواجب على العاقل عبادة الله تعالى؛ لأنه هو الذي يحقق له منافع الدين بإنزال الكتاب المشتمل على العلوم العظيمة في الدِّين، ومنافع الدُّنيا بتولِّي الصالحين من عباده وحفظه لهم ونصرته إياهم، فلا تضرّهم عداوة من عاداهم.

وما أروع ذلك الموقف العملي للخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بالاستدلال بهذه الآية، فإنه ما كان يدَّخر لأولاده شيئاً، فقيل له فيه، فقال: ولدي إما أن يكون من الصالحين، أو من المجرمين، فإن كان من الصالحين فوليّه الله، ومن كان الله له وليّاً، فلا حاجة له إلى مالي، وإن كان من

المجرمين، فقد قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ٢٨/١٧] ومن ردّه الله لم أشتغل بإصلاح مهماته.

٧ً - كررالله تعالى وصف الأصنام بأنها عاجزة عن نصر عابديها، ونصر أنفسها، وفائدة التكرارأن المعنى الأول مذكور على جهة التقريع، وهذا مذكور على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة، وبين من لا تجوز، فالإله المعبود هو الذي يتولَّ الصالحين، أي يحفظهم، وهذه الأصنام لا تتولى أحداً، فلا تصلح للألوهية.

٨ً - الأصنام جمادات مصنوعة، ركبت لها حدق عيون من معادن أو جواهر برّاقة، كأنها ناظرة، وهي جماد لا تبصر، فلذلك قال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ﴾ وقد عاملها معاملة من يعقل وعبّر عنها بضمير العاقل؛ لأنها على صورة مصورة كالإنسان.

وقال السُّدي ومجاهد: المراد بهذا المشركون. قال ابن كثير: والأول أولى، وهو قول قتادة، واختاره ابن جرير.

أصول الأخلاق الاجتماعية ومقاومة الشيطان

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

القراءات:

﴿وأْمُرْ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً: (وَامُرْ).

﴿طَٰٓئِفٌ﴾: قرئ:

١- (طيف) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، والكسائي.

٢- (طائفٌ) وهي قراءة الباقين.

﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾:

وقرأ نافع: (يُمِدُّونهم).

الإعراب:

﴿وَإِمَّا﴾ فيه إدغام نون: إن الشرطية في «ما» المزيدة.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فعل أمر، وهو جواب الشرط، وجواب الأمر محذوف، أي يدفعه عنك. ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾ فعل وفاعل، و﴿طَٰٓئِفٌ﴾: اسم فاعل من طاف. وقرئ: طيف مخففاً من طيِّف، وهو فَعْل من طاف، كما خفف سيِّد وميِّت.

﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ فعل مضارع من «مدَّ» وهو ثلاثي، وقرئ بالضم على جعله مضارعاً من (أمدّ) وهو رباعي. وقيل: مدَّ في الخير والشّر، وأمدَّ في الشَّرّ خاصة.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ جمع الضمير في هذه الكلمة والشيطان مفرد؛ لأن المراد به الجنس، كقوله: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾

البلاغة:

﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النزغ: إدخال الإبرة ونحوها في الجلد، وفيه استعارة؛ لأنه شبَّه وسوسة الشيطان وإغراءه الناس على المعاصي بالنزغ.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾ اليسر من أخلاق الناس، ولا تبحث عنها، والمعنى: خذ ما عفا وتيسر من أخلاق الناس. ﴿بِٱلۡعُرۡفِ﴾ المعروف. ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ يصيبنَّك، أو يصرفنَّك، والنزغ كالنّخس: إصابة الجسم بشيء محدد كالإبرة ونحوها، والمراد منه هنا: وسوسة الشيطان. ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ أي الجأ إليه وتذكره.

﴿مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ﴾ أصابهم شيء ألم بهم، أي وسوسة ما. ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ عقاب الله وثوابه. ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ الحق من غيره، فيرجعون. ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ أي الشياطين من الكفار. ﴿يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾ يعاونهم الشياطين في الضلال. ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ لا يكفّون عن إغوائهم، بالتّبصر كما تبصَّر المتقون. والإقصار: التقصير.

المناسبة:

لما بيَّن الله تعالى فيما سبق أن الله هو الذي يتولَّى نبيَّه والمؤمنين الصالحين بالحفظ والتّأييد، وأن الأصنام وعابديها لا يقدرون على الإيذاء والإضرار، بيَّن في هذه الآية ما هو المنهج القويم والصراط المستقيم في معاملة الناس، وهي آية تشمل أصول الفضائل، فهي من أسس التشريع التي تلي أصول عقيدة التّوحيد المبيَّنة بأتم بيان. ثم أعقب ذلك بوصية وقائية، وهي اتّقاء وساوس الشياطين من الجنّ، بعد الأمر بالإعراض عن الجاهلين السفهاء، اتّقاء لشرّ الفريقين.

التفسير والبيان:

جمعت الآية الأولى أُصول الفضائل الثلاث وهي:

١- **الأخذ بالعفو:** وهو السّهل من أخلاق الناس وأعمالهم، دون تكليفهم بما يشق عليهم ومن غير تجسُّس، وإنما يؤخذ بالسّمح السّهل،

واليسر دون العسر، كما ورد في الحديث الذي أخرجه أحمد والشَّيخان والنّسائي عن أنس بن مالك عن النَّبي ﷺ: «يسّروا ولا تعسّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا». ويدخل في العفو: صلة القاطعين أرحامهم، والعفو عن المذنبين، والرّفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

وهذا هو الصّنف الأول من الحقوق التي تستوفى من الناس وتؤخذ منهم بطريق المساهلة والمسامحة، ويشمل ترك التّشدد في كل ما يتعلَّق بالحقوق المالية، والتّخلُّق مع الناس بالخلق الطَّيِّب، وترك الغلظة والفظاظة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩] ومن هذا القسم: الدّعوة إلى الدِّين الحق بالرّفق واللطف، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥].

والخلاصة: إن المراد بالعفو: الأخذ باليسر والسّماحة ودفع الحرج والمشقة عن الناس في الأقوال والأفعال، وما خيّر ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً، كما أخرج الترمذي ومالك.

٢- الأمر بالعرف وهو المعروف والجميل من الأفعال: وهو كل ما أمر به الشرع، وتعارفه الناس من الخير، واستحسنه العقلاء، فالمعروف: اسم جامع لكل خير من طاعة وبرّ وإحسان إلى الناس. وهذا هو النوع الثاني من الحقوق التي لا يجوز التّساهل والتّسامح فيه، ويراد به ما هو معهود بين الناس في المعاملات والعادات. ولا يذكر المعروف في القرآن إلا في الأحكام المهمة، مثل قوله تعالى في وصف الأمّة الإسلامية: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٤].

وفي تبيان الحقوق الزّوجية: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٨]، وفي الحفاظ على رباط الزّوجية: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٩]، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣١].

٣ - الإعراض عن الجاهلين: ويتمثل بعدم مقابلة السُّفهاء والجهَّال بمثل فعلهم، وترك معاشرتهم وصيانة النّفس عنهم، وعدم مماراتهم والحلم عنهم، والصَّبر على سوء أخلاقهم والغضّ على ما يسوءك منهم. فإذا تكلم الجاهل الأحمق بما يسوء الإنسان، فليعرض عنه، ويقابله بالعفو والصَّفح، لقوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٤]، وقوله تعالى في فضيلة العفو: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٧].

هذه المبادئ الثلاثة هي أُصول الفضائل ومكارم الأخلاق فيما يتعلَّق بمعاملة الإنسان مع الغير. قال عكرمة: لما نزلت هذه الآية، قال عليه الصّلاة والسّلام: «يا جبريل، ما هذا؟ قال: إنّ ربّك يقول: هو أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك».

وروى الطَّبري وغيره عن جابر مثل ذلك.

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: «أمرالله نبيَّه عليه الصّلاة والسّلام بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها». وقال عبد الله بن الزُّبير: والله ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق النّاس. وقد روي عن النَّبي ﷺ أنه قال فيما رواه الترمذي: «أثقل شيء في الميزان: خلُق حسن تام».

وناسب الأمر بالإعراض عن الجاهلين وهم السُّفهاء اتِّقاءً لشرِّهم، الأمر بالاستعاذة من الشَّياطين، تجنُّباً للوقوع في مفاسدهم وشرورهم، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ أي وإما يعرض لك الشَّيطان بوسوسته، وينخس في قلبك بحملك على خلاف ما أمرت به، ويحاول إيقاعك في المعاصي، أو يغضبنك من الشيطان غضب يصدّك عن الإعراض عن الجاهل، ويحملك على مجازاته، بجعلك ثائراً هائجاً، فالجأ إلى الله واطلب النّجاة من ذلك بالله، واستجر بالله من نزغه، واذكر الله في القلب واللسان، يصرف عنك وسوسة الشيطان،

والله سميع للقول من جهل الجاهلين والاستعاذة بالله من نزغ الشيطان (وسوسته) ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، عليم بالفعل، وبما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه.

والاستعاذة مطلوبة عند تلاوة القرآن في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩٨-٩٩].

والخطاب في آية ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ ونحوها موجّه إلى كل المكلفين، وأوّلهم الرّسول ﷺ. ويدأب الشَّيطان على إلقاء وساوسه في قلب كل إنسان، روى مسلم عن عائشة وابن مسعود أنّ النَّبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجنّ، قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟ قال: وإيّاي إلا أن الله أعانني عليه، فأَسْلَمُ منه».

ثم أوضح الله تعالى طريق التّخلُّص من وساوس الشَّيطان، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي إن عباد الله المتّقين، الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا عنه ما زجر، إذا أصابهم طائف من الشَّيطان، أي ألمت بهم لَمَّة منه، تذكّروا ما أمر الله به ونهى عنه، وذكروا عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فأبصروا السَّداد، وعرفوا طريق الحقّ والخير، ودفعوا ما وسوس به الشَّيطان إليهم، ولم يُتبعوه أنفسهم، فإذا هم أولو بصيرة ووعي وعقل، وقد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه. وهذا الاعتصام بالله من الشَّيطان عمل وقائي، ولا شكّ أن الوقاية خير من العلاج. فإذا وقع الإنسان في معصية بادر إلى التّوبة والإنابة والرُّجوع إلى الله من قريب، حتى يمحو الله عنه أثر الذَّنب.

ومن المعروف أن للإنسان نزعة إلى الخير ونزعة إلى الشّرّ، وبمقدار ما يجاهد به نفسه، ويتغلّب على هوى نفسه، ووسوسة شيطانه، كان مثاباً مقرَّباً إلى الله تعالى، قال النَّبي ﷺ فيما رواه الترمذي والنسائي وابن حبان عن ابن

مسعود: «إنّ للشّيطان لَمَّةً بابن آدم، وللملَك لَمّة، فأما لَمّة الشيطان فإيعاد بالشَّرّ وتكذيب بالحقّ، وأمّا لَمّة الملَك فإيعاد بالخير وتصديق بالحقّ، فمن وجد ذلك، فليعلم أنه من الله، فليحمد الله على ذلك، ومن وجد الأخرى، فليتعوّذ من الشَّيطان، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾.

ثم ذكر الله مدى تأثير الشيطان على الجاهلين الفاسدين فقال: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ أي وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتّقين، فإن الشياطين يتمكّنون من إغوائهم، ويمدّونهم في الغيّ أي الضّلال، ويكونون مدداً لهم فيه ويعضدونهم، ولا يقصرون أبداً في حملهم على المعصية أي لا يمسكون عن إغوائهم، ولا يكفّون عن إفسادهم، حتى يصرّوا على الشَّرّ والفساد؛ لأنهم لا يذكرون الله إذا نزغ بهم الشيطان، ولا يستعيذون من وسواسه، إما لعدم إيمانهم، أو لخلو قلوبهم من التّقوى.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمّنت آية: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ أصول الفضائل والأخلاق الاجتماعية، وهي تلي في المرتبة أصول العقيدة، ففي المعاملات والعادات ولدى التعامل مع الآخرين تظهر أخلاق الناس، وما أحوج الإنسان إلى هذه الأصول الخلقية في تعامله مع الغير.

وقد تبيَّن لدينا في تفسير الآية أن هذه الأصول ثلاثة:

أخذ بالعفو: أي المعاملة باللين، والبيان باللطف، ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء والتّكليف، ويشمل ترك التّشدُّد في كل ما يتعلَّق بالحقوق المالية، والتّخلُّق مع الناس بالخلق الطَّيِّب، وترك الغلظة والفظاظة، والدَّعوة إلى الدِّين الحقّ بالرّفق واللّطف. وهذا النّوع من الحقوق مما يقبل التّساهل والتّسامح فيه.

وأمر بالمعروف: وهو كل ما عرف شرعاً وعقلاً وعادةً من جميل الأفعال وألوان الخير. وهذا النّوع من الحقوق لا يقبل التّسامح والتّساهل. ويشمل كل ما أمر به الشرع، وكل ما نهى عنه من الأقوال والأفعال. والمأمورات والمنهيّات معروف حكمها، مستقرّ في الشَّريعة موضعها، والقلوب متّفقة على العلم بها. والفرد والجماعة مطالبان بمقتضى هذا الأمر، والإعلان الدّائم عن المعروف والأمر به، والنّهي عن المنكر وإخفائه.

وإعراض عن الجاهلين: وهم السُّفهاء، ففي أثناء الأمر بالمعروف والتّرغيب فيه، والنّهي عن المنكر والتّنفير منه، ربّما أقدم بعض الجاهلين على السّفاهة والإيذاء، فيكون الإعراض عنهم هو المتعيّن، اتّقاء لشرّهم، وصيانة للدّاعية عن أذاهم، ورفعاً لقدره عن مجاوبتهم. وذلك يتناول جانب الصَّفح بالصَّبر.

وهذه الأوامر الخلقية الثلاثة، وإن كان الخطاب فيها من الله لنبيِّه عليه الصّلاة والسّلام، فهو تأديب لجميع خلقه.

والصحيح - كما ذكر المفسرون مثل القرطبي والرازي وابن كثير وغيرهم - **أن هذه الآية محكمة غير منسوخة**، كما قال مجاهد وقتادة، بدليل مارواه البخاري عن عبد الله بن عباس قال: قدم عُيينة بن حِصْن بن حذيفة بن بَدْر، فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يُدْنيهم عمر، وكان القراءُ أصحابَ مجالس عمر ومشاورته، كُهولاً كانوا أو شُبّاناً، فقال عُيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فتستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه؛ فاستأذن لعُيينة. فلما دخل قال: يابن الخطاب، والله ماتعطينا الجزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل! قال: فغضب عمر، حتى هَمَّ بأن يقع به. فقال الحرّ: يا أمير المؤمنين، إن الله قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وإن هذا من

الجاهلين. فوالله، ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً[١] عند كتاب الله عز وجل. وكذلك شتم عصام بن المُصْطَلِق الحسن بن علي وشتم أباه، فنظر إليه نظرة عاطف رؤوف، ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[٢].

فالتزام عمر بالآية، وكذا التزام الحسن بن علي بها دليل على أنها محكمة. ففي حالة التعمد بالجفَاء على السلطان والاستخفاف بحقه يستحق التعزير، وفي غير ذلك يكون الإعراض والصفح والعفو، كما فعل عمر.

وأما بقية الآيات فجعلت الناس قسمين: المؤمنين المتقين، وإخوان الشياطين. أما المؤمنون المتقون فإنه إذا مسهم طائف من الشيطان وألمت بهم لَمَّة تحملهم على المعاصي، تذكروا أمر الله ونهيه، وثوابه وعقابه، فأبصروا الحق وحَذِروا وسلموا، وإن تورطوا في المعصية ندموا وتابوا ورجعوا إلى الله تعالى.

والاستعاذة بالله عند وسوسة الشيطان وإغرائه بالمعصية: أن يتذكر المرء عظيم نعم الله عليه، وشديد عقابه، فيدعوه كل واحد من الأمرين إلى الإعراض عن هوى النفس، والإقدام على طاعة أمر الشرع.

والخطاب وإن كان للرسول، إلا أنه تعليم وتأديب عام لجميع الخلق. والرسول ﷺ قد ينزغه الشيطان - والنزغ: كالابتداء في الوسوسة - والعلاج: الاستعاذة بالله كما دلت الآية الأولى، وأما المتقون: فيتعرضون لما هو أزيد من النزغ، وهو أن يمسهم طائف من الشيطان، كما دلت آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يدل على أن الاستعاذة باللسان لا تفيد إلا إذا

---

(١) أي لا يتجاوز حكمه، تفسير القرطبي: ٧/٣٤٧، تفسير ابن كثير: ٢/٢٧٧ وما بعدها.
(٢) انظر القصة في تفسير القرطبي: ٧/٣٥٠ - ٣٥١

حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة، فكأنه تعالى قال: اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك، فإني سميع، واستحضر معاني الاستعاذة بعقلك وقلبك، فإني عليم بما في ضميرك.

ونظير هذه الآية: مافي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطانُ أحدَكم، فيقول له: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله، ولْيَنْتَهِ».

وأما إخوان الشَّياطين: وهم شياطين الإنس أو الفجَّار من ضُلال الإنس أو الكفّار والمشركون، فتمدّهم الشَّياطين في الغيّ والضّلال، ويغوون النّاس، فيكون ذلك إمداداً منهم لشياطين الجنّ على الإغواء والإضلال. فبين الفريقين تعاون على الضّلال والإثم. وسموا بإخوان الشَّياطين؛ لأنهم يقبلون منهم.

وهذا التّفسير جمع بين القولين في بيان المراد من إخوان الشياطين، القول الأوّل وهو الأظهر عند الرّازي: أن شياطين الإنس يغوون الناس، والقول الثاني وهو الأوجه عند الزّمخشري؛ لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتَّقوا: وهو أن الشَّياطين من الجنّ يكونون مدداً لشياطين الإنس. والقولان مبنيان على أن لكل كافر أخاً من الشَّياطين[١].

وعلى كل حال فإن العصاة تتمكّن الشَّياطين من إغوائهم، فيمدّونهم في غيِّهم ويعضدونهم، ولا يكفون عن ذلك، فتراهم يستمرون في شرورهم وكفرهم وآثامهم.

وقد فسّرت الآية سابقاً بالقول الثاني. والمراد من الإمداد: تقوية الوسوسة والإقامة عليها.

---

(١) تفسير الرّازي: ١٥/ ١٠٠

اتّباع النّبي ﷺ الوحي الإلهي وخصائص القرآن

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

البلاغة:

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ﴾ أي هذا القرآن بصائر، تشبيه بليغ أي هذا كالبصائر، حذفت أداة التّشبيه ووجه الشَّبه، وأصله: هذا بمنزلة بصائر القلوب.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ أي وإذا لم تأت أهل مكة بآية مما اقترحوا أو بآية من القرآن. ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي قالوا: هلا اخترعتها أو اختلقتها وأنشأتها من عندك، أو هلا طلبتها من الله. ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ أي إنما أنا متبع الوحي، ولست بمختلق للآيات من عند نفسي، أو لست بمقترح لها. ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ﴾ هذا القرآن بصائر للقلوب، أي مبصِّر لها، بها يبصَر الحق، ويدرَك الصواب، وهو حجج مبيّنات.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى فيما سبق إغواء الشَّياطين وإضلالهم، بيَّن في هذه الآية نوعاً خاصّاً من أنواع الإغواء والإضلال، وهو أنّهم كانوا يطلبون آيات كونية معينة، ومعجزات مخصوصة، على سبيل التّعنُّت، كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٠-٩١].

فإذا لم تأتهم بما طلبوا، قالوا: هلا اختلقتها من عند نفسك، جرياً على اعتقادهم بأن القرآن من عند محمد: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٣].

التفسير والبيان:

وإذا لم تأت أيها الرّسول أهل مكة بآية مما اقترحوا حدوثه، أو بآية من القرآن، قالوا: هلا اختلقتها وتقولتها من تلقاء نفسك، لزعمهم أن القرآن من عند محمد، وأنه متمكن من الإتيان بالآيات الكونية والمعجزات المخصوصة، أو هلا طلبتها من الله الذي يلبي لك حاجتك. فقل لهم يا محمد: إنما أنا متّبع وحي ربِّي فقط، ولست بمفتعل أو مختلق للآيات، أو لست بمقترح لها، ولست قادراً على إيجاد الآيات. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [يونس: ١٠/ ١٥].

ثم نبههم الحق تعالى إلى ما يحقق الهدف، وأرشدهم إلى أن هذا القرآن أعظم المعجزات، وكأنه قال لهم: ما لكم تطلبون شيئاً لا يفيدكم؟ وإنما لديكم هذا القرآن الذي يشتمل على مبصرات للقلوب، وحجج بيّنات، وبراهين نيّرات، ودلائل واضحات من الله على صدقي، وأنه من عند الله، بها يبصر الحق، ويدرك الصّواب، ويعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٤].

وهذا القرآن هدى للحيارى إلى طريق الاستقامة، وهو أيضاً رحمة في الدُّنيا والآخرة لمن يؤمن به، كما قال تعالى: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٥]، فمن آمن به وعمل بأحكامه، فهو من المفلحين دون سواهم.

وهذه الخصائص الثلاث متفاوتة البيان بحسب أحوال طالبي المعارف، فأعلاها الحق اليقين، وثانيها منهج الاستقامة للمعتدلين، وثالثها طريق الرّحمة العامة بالمؤمنين.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآية إلى ما يأتي:

١ - كان لأهل مكة مع النّبي ﷺ مواقف تعنُّت وتشدُّد، ومطالب شبه مستحيلة، تهرُّباً من الإيمان، وإصراراً على الكفر، وإمعاناً في إيذاء النّبي ﷺ، واتِّهامه بأخطر أنواع الاتّهام، وهو افتراء القرآن وتمكُّنه من الإتيان بما شاؤوا من المعجزات وخوارق العادات.

٢ - تقتصر مهمّة النّبي ﷺ على اتِّباع الوحي وامتثال ما أمر الله به، فإن أظهر الله معجزة أو آية على يديه قبلها، وإن منعها عنه لم يسأله إيَّاها، إلا أن يأذن له في ذلك، فإنه حكيم عليم.

٣ - هذا القرآن أعظم المعجزات وأبين الدّلالات وأصدق الحجج والبيِّنات، فهو متَّصف بخصائص ثلاث: مبصِّر بالحقّ في دلالته على التّوحيد والنّبوة والمعاد وتنظيم الحياة بأحسن التّشريعات، وهاد مرشد إلى طريق الاستقامة، ورحمة في الدُّنيا والآخرة للمؤمنين به.

الاستماع للقرآن وطريقة الذّكر

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

الإعراب:

﴿تَضَرُّعًا﴾ منصوب على المصدر، وقيل: هو في موضع الحال.

﴿وَٱلْأَصَالِ﴾ جمع أُصُل، وأصل: جمع أصيل، وهو العَشِي.

المفردات اللغوية:

﴿فَٱسْتَمِعُواْ﴾ الفرق بين السَّمع والاستماع: أنّ الأول يحصل ولو بغير قصد، والثاني لا يكون إلا بقصد ونيّة. ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ الإنصات: هو السُّكوت للاستماع، من غير شاغل يشغل عن الإحاطة بكل ما يُقْرأ. ﴿تَضَرُّعًا﴾ تذلُّلاً وإظهاراً للضَّراعة، أي الخضوع والضَّعف. ﴿وَخِيفَةً﴾ خوفاً وخشية من الله وعقابه. ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي التوسُّط في الذّكر دون الجهر برفع الصّوت، وفوق السّر والتّخافت. ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ جمع غدوة: وهي ما بين صلاة الغداة (الفجر) إلى طلوع الشَّمس. ﴿وَٱلْأَصَالِ﴾ جمع أصيل: وهو العشي ما بعد العصر إلى غروب الشمس، والمقصود: الذّكر أوائل النهار وأواخره، أي في كل وقت. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي الملائكة. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يتكبّرون عن عبادة الله. ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ ينزهونه عما لا يليق به. ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ أي يصلّون لله ويخصّونه بالخضوع والعبادة.

سبب النّزول:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾: أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن أبي هريرة قال: نزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ في رفع الأصوات في الصّلاة خلف النّبي ﷺ.

وأخرج أيضاً عنه قال: كانوا يتكلمون في الصّلاة، فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ الآية.

وأخرج عن عبد الله بن مُغَفَّل نحوه. وأخرج ابن جرير الطَّبري عن ابن مسعود مثله.

وأخرج عن الزُّهري قال: نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئاً قرأه.

وقال سعيد بن منصور في سننه عن محمد بن كعب قال: كانوا يتلقّفون من رسول الله ﷺ إذا قرأ شيئاً قرؤوا معه، حتى نزلت هذه الآية التي في الأعراف: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾.

وعقب السيوطي على هذه الرّوايات فقال: ظاهر ذلك أن الآية مدنيّة.

يظهر من هذه الرِّوايات أن الآية نزلت في الصّلاة، وهو مروي عن ابن مسعود وأبي هريرة وجابر، والزُّهْري وعُبيد الله بن عمير، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن المسيِّب. قال سعيد: كان المشركون يأتون رسول الله ﷺ إذا صلّى، فيقول بعضهم لبعض بمكّة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٤١/ ٢٦]. فأنزل الله جل وعز جواباً لهم: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾

وقيل: إنها نزلت في الخطبة، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وعمرو بن دينار، وزيد بن أسلم، والقاسم بن مُخَيْمَرة، ومسلم بن يَسَار، وشَهْر بن حَوْشَب، وعبد الله بن المبارك. قال ابن العربي: وهذا ضعيف؛ لأن القرآن فيها قليل، والإنصات يجب في جميعها.

المناسبة:

لما ذكر الله تعالى أن القرآن بصائر للناس وآيات بيِّنات للمؤمنين، وهدى ورحمة لهم، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، وتوصُّلاً

لنيل الرّحمة به، والفوز بالمنافع الكثيرة التي يشتمل عليها، لا كما كان يفعل كفار قريش في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ﴾.

التفسير والبيان:

إذا قرئ القرآن الكريم فأصغوا إليه أسماعكم، لتفهموا آياته وتتعظوا بمواعظه، وأنصتوا له عن الكلام مع السّكون والخشوع، لتعقلوه وتتدبروه، ولتتوصلوا بذلك إلى رحمة الله بسبب تفهُّمه والاتّعاظ بمواعظه، فإنه لا يفعل ذلك إلا المخلصون الذين استنارت قلوبهم بنور الإيمان.

والآية تدلّ على وجوب الاستماع والإنصات للقرآن، سواء أكانت التّلاوة في الصلاة أم في خارجها، وهي عامّة في جميع الأوضاع وكل الأحوال، ويتأكّد ذلك في الصّلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصتوا» رواه أيضاً أصحاب السّنن عن أبي هريرة.

وهذا هو المروي عن الحسن البصري، لكن الجمهور خصّوا وجوب الاستماع والإنصات بقراءة الرّسول ﷺ في عهده، وبقراءة الصّلاة والخطبة من بعده يوم الجمعة؛ لأن إيجاب الاستماع والإنصات في غير الصّلاة والخطبة فيه حرج عظيم؛ إذ يقتضي ترك الأعمال.

وأما ترك الاستماع والإنصات للقرآن المتلو في المحافل، فمكروه كراهة شديدة، وعلى المؤمن أن يحرص على استماع القرآن عند قراءته، كما يحرص على تلاوته والتّأدُّب في مجلس التّلاوة.

وتستحب القراءة بالتّرتيل والنّغم الدّالة على التّأثُّر والخشوع من غير تكلف ولا تصنُّع ولا تمطيط ولا تطويل في المدود، فقد روى الشَّيخان عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حَسَن الصوت، يتغنى بالقرآن».

وثواب الاستماع كثواب التّلاوة، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة».

ثم أمر الله تعالى بذكره أول النّهار وآخره كثيراً، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٥٠/ ٣٩].

ومعنى الآية: اذكر ربّك في نفسك سرّاً، بذكر أسمائه وصفاته وشكره واستغفاره، اذكره بقلبك: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٨]، واذكره ضارعاً متذلّلاً خائفاً راجياً ثوابه وفضله، واذكره بلسانك ذكراً متوسّطاً بين الإسرار والجهر: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١٠]، والخطاب قيل: للنّبي ﷺ، وقيل: لمستمع القرآن، والأولى أن يكون عامّاً.

وينبغي أن يكون ذكر اللسان مقروناً باستحضار القلب وملاحظة المعاني، فذكر اللسان وحده لا نفع فيه ولا ثواب عليه، فالواجب الجمع بين ذكر القلب وذكر اللسان، وأن يكون الذّكر رغبة ورهبة.

وأنسب الأوقات للذّكر: وقت الصّباح والمساء وهو وقت الغدو والآصال؛ لأنّ بقية النهار للعمل وكسب الرّزق، ولأنّ هذين الوقتين وقتا هجوع وسكون.

جاء في الصّحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدُّعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النّبي ﷺ: «يا أيُّها النَّاس، اربَعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنّ الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ تأكيد للأمر بالذّكر، فهو نهي عن الغفلة عن ذكر الله، والواجب جعل القلب على صلة دائمة مع الله، وأن يشعر القلب الخضوع لله والخوف من قدرته وعظمته إذا غفل الإنسان عنه.

ثم أكّد الله تعالى الأمر والنّهي السّابقين بما يرغّب في الذّكر، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي إنّ الملائكة المقرَّبين من الله، لا يتكبَّرون عن عبادة الله، وينزهونه عن كل مالا يليق بعظمته وكبريائه، وله وحده يصلّون ويسجدون، فلا يشركون معه أحداً.

وهذا تذكير بفعل الملائكة، ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، لهذا شرع لنا السُّجود ههنا وفي بقية سجدات التّلاوة، وهذه أول سجدة في القرآن فيشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع، روى ابن ماجه عن أبي الدّرداء عن النّبي ﷺ أنّه عدّها في سجدات القرآن.

والآية ترشد إلى أن الأفضل إخفاء الذِّكر، روى أحمد وابن حبّان عن سعد عن النّبي ﷺ قال: «خير الذّكر الخفي».

فقه الحياة أو الأحكام:

الأدب مع القرآن الكريم أمر مطلوب شرعاً، وتعظيم الله واجب عقلاً وشرعاً، وذكر الله تعالى همزة وصل القلب والنفس مع الله، وشأن الملائكة دوام العبادة والتّسبيح (تنزيه الله عما لا يليق).

والصّحيح وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل الأحوال وعلى جميع الأوضاع في الصّلاة وغيرها.

لكن **اختلف العلماء على آراء ثلاثة في قراءة المأموم خلف الإمام**، هل يسقط عنهم فرض القراءة في الصلاة الجهريّة والسّريّة، أو يجب، وهل الوجوب خاص في السِّريّة دون الجهريّة؟

أ - الحنفيّة: رأوا أن المأموم لا يقرأ خلف الإمام مطلقاً، جهراً كان يقرأ أو سرّاً؛ لظاهر هذه الآية، فإن الله طلب الاستماع والإنصات، وفي الجهريّة يتحقّق الأمران معاً، وفي السّريَّة يتحقق الإنصات؛ لأنه الممكن؛ لأن الإمام يقرأ، فعليه التزام الصّمت. ويؤيِّده ما أخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصتوا» ورواه مسلم عن أبي موسى كما تقدّم، وأخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن جابر أنّ النّبي ﷺ قال: «من كان له إمام، فقراءته له قراءة» وهذا الحديث وإن كان مرسلاً فإنه يحتج به عند الحنفيّة، وقد رواه أبو حنيفة مرفوعاً بسند صحيح.

وهو مذهب كثير من الصحابة: علي، وابن مسعود، وسعد، وجابر، وابن عباس، وأبي الدّرداء، وأبي سعيد الخدري، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وأنس رضي الله عنهم.

٢ - المالكية والحنابلة: رأوا أن المأموم يقرأ خلف الإمام إذا أسرّ، ولا يقرأ إذا جهر، وهو قول عروة بن الزُّبير، والقاسم بن محمد، والزُّهري.

ودليلهم حديثان: الأول - ما رواه مالك وأبو داود والنّسائي عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: هل قرأ أحد منكم آنفاً؟ فقال رجل: نعم يا رسول الله، فقال: «إني أقول ما لي أُنازع القرآن؟!» فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه من الصّلوات بالقراءة، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ.

والثاني - ما روى مسلم عن عمران بن حصين قال: صلى رسول الله ﷺ بنا صلاة الظهر أو العصر، فقال: «وأيّكم قرأ خلفي بسبِّح اسم ربِّك الأعلى؟» فقال رجل: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «قد علمت أن بعضكم خالجنيها».

وروي عن عبادة بن الصّامت قال: صلّى رسول الله ﷺ الصبح، فثقلت عليه القراءة، فلما انصرف، قال: «إنّي لأراكم تقرؤون وراء إمامكم؟»، قال: قلنا: يا رسول الله، أي والله، قال: «فلا تفعلوا إلا بأُمّ القرآن».

لكن يلاحظ أن هذين الحديثين يدلان على مذهب الشّافعية، لا على مذهبي المالكية والحنابلة.

٣ - الشّافعية: يقرأ المصلّي بفاتحة الكتاب مطلقاً، سواء كان إماماً أو مأموماً أو منفرداً، في صلاة جهريّة أو سريّة. واستدلّوا بالحديثين السّابقين كما لاحظنا، وبقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٧٣/ ٢٠]، وبقوله ﷺ - فيما رواه الجماعة: أحمد وأصحاب الكتب الستّة عن عبادة بن الصامت: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وهذا ما اختاره البخاري والبيهقي.

ودلّت آية: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾ على أن رفع الصّوت بالذّكر ممنوع.

وأرشدت آية: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ على طلب السّجود ممن قرأ هذه الآية أو سمعها، وقد شرع سجود التّلاوة إرغاماً لمن أبى السُّجود من المشركين، واقتداء بالملائكة المقرّبين. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السَّجدة، فسجد، اعتزل الشَّيطان يبكي، يقول: يا ويله، أُمر ابن آدم بالسُّجود فسجد، فله الجنّة، وأُمرتُ بالسُّجود، فأبيت فلي النّار».

وإذا سجد يقول في سجوده كما كان النَّبي ﷺ يقول فيما رواه ابن ماجه عن ابن عباس: «اللهم احطط عني بها وِزْراً، واكتب لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً»، وفي رواية: «اللهم لك سجد سوادي، وبك آمن فؤادي، اللهم ارزقني علماً ينفعني، وعملاً يرفعني».

واختلف العلماء في وجوب سجود التّلاوة، فقال مالك والشّافعي وأحمد:

ليس بواجب؛ لحديث عمر الثابت في صحيح البخاري: أنه قرأ آية سجدة على المِنْبر، فنزل فسجد وسجد الناس معه، ثم قرأها في الجمعة الأخرى، فتهيأ الناس للسّجود، فقال: «أيها الناس على رِسْلِكم! إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء» وذلك بمحضر الصحابة من الأنصار والمهاجرين رضي الله عنهم.

ومواظبة النّبي ﷺ تدلّ على الاستحباب. وأما قوله ﷺ: «أُمر ابن آدم بالسّجود» فإخبار عن السُّجود الواجب.

وقال أبو حنيفة: سجود التلاوة واجب؛ لأن مطلق الأمر بالسّجود يدل على الوجوب، ولقوله عليه الصّلاة والسّلام: «إذا قرأ ابن آدم سجدة، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا وَيْلَه» وفي رواية أبي كريب: «يا ويلي»، وقوله عليه الصّلاة والسّلام أيضاً إخباراً عن إبليس فيما رواه مسلم: «أُمر ابن آدم بالسُّجود فسجد، فله الجنة، وأُمرت بالسُّجود فأبيت فلي النّار».

ولا خلاف في أنّ سجود القرآن يحتاج إلى ما تحتاج إليه الصّلاة من طهارة حَدَث ونَجَس ونيّة واستقبال قبلة ووقت.

أما الوقت فقيل: يسجد في سائر الأوقات مطلقاً؛ لأنها صلاة لسبب، وهو مذهب الشافعي والجماعة. وقيل: يسجد في غير الأوقات المكروه فيها صلاة النافلة مثل ما بعد الصُّبح وما بعد العصر، وهو مذهب الحنفية، وفي رأي عند المالكية. وسبب الخلاف: معارضة سبب قراءة السَّجدة من السُّجود المرتب عليها لعموم النّهي عن الصّلاة بعد العصر وبعد الصبح، واختلافهم في المعنى الذي لأجله نُهي عن الصّلاة في هذين الوقتين.

وهل يحتاج السّاجد إلى تحريم ورفع يدين وتكبير وتسليم؟ اختلف الفقهاء في ذلك، فذهب الشّافعي وأحمد وإسحاق إلى أنه يكبّر ويرفع للتّكبير لها أي لسجدة التّلاوة، وروي في الأثر عن ابن عمر أنّ النّبي ﷺ كان إذا سجد كبّر، وكذلك إذا رفع كبّر.

ومشهور مذهب مالك أنه يكبّر لها في الخفض والرّفع في الصّلاة، واختلف المنقول عنه في التّكبير لها في غير الصّلاة.

وقال الجمهور: ولا سلام لها، وقال الشّافعية: لها سلام، وهذا كما قال ابن العربي أولى، لقوله عليه الصّلاة والسّلام فيما رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن علي: «مفتاح الصّلاة الطّهور، وتحريمها التّكبير، وتحليلها التّسليم»، وهذه عبادة لها تكبير، فكان لها تحليل كصلاة الجنازة بل أولى؛ لأنها فعل، وصلاة الجنازة قول.

فإن قرأ شخص السّجدة في صلاة، فإن كان في نافلة سجد، وإن كان في الفريضة لم يسجد في المشهور عن مالك؛ لكونها زيادة في أعداد سجود الفريضة، وخوفاً من التّخليط على الجماعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال

مدنية وهي خمس وسبعون آية

سورة الأنفال:

سورة مدنيّة تتحدّث عن أحكام تشريع الجهاد في سبيل الله، وقواعد القتال، والإعداد له، وإيثار السّلم على الحرب إذا جنح لها العدوّ في دياره، وآثار الحرب في الأشخاص (الأسرى) والأموال (الغنائم).

وسبب تسميتها بالأنفال واضح، لسؤال الناس عن أحكامها، والمراد بها الغنائم الحربية، فقد ابتدئت السورة بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾.

وقد نزلت عقب غزوة بدر الكبرى، أول الغزوات المجيدة التي حقّقت النصر للمسلمين مع قلّتهم على المشركين مع كثرتهم، لذا سميت (يوم الفرقان) لأنها فرقت بين الحقّ والباطل.

ومناسبتها لسورة الأعراف:

أنها في بيان حال الرّسول ﷺ مع قومه، وسورة الأعراف مبيّنة لأحوال أشهر الرّسل مع أقوامهم.

ما اشتملت عليه هذه السّورة:

تضمّنت سورة الأنفال أحكاماً عديدة في الجهاد والغزوات، أهمها يأتي:

١ - أمر قسمة الغنائم متروك للرّسول ﷺ، والأحكام مرجعها إلى الله تعالى ورسوله لا إلى غيرهما.

٢ - إرادة تحقيق النّصر الإلهي للمؤمنين في معركة بدر، لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وبيان علّة ذلك الحكم في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾.

٣ - الإمداد الفعلي بالملائكة للمؤمنين يقاتلون معهم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾.

ويفهم من هذين الحكمين أن أحكام الله معللة بمراعاة مصالح الناس.

٤ - النّصر الحقيقي من عند الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٥ - تعليم المؤمنين قواعد القتال الحربية، وخطابهم لترسيخ المعلومات ستّ مرات بوصف الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ في بداية الأمر بكل قاعدة أثناء سرد أحداث بدر، وهي تحريم الفرار من المعركة، وطاعة الله والرّسول، والاستجابة لله وللرّسول إذا دعا إلى ما فيه عزّة الحياة والسعادة، وتحريم الخيانة بنقل أسرار الأمة للأعداء، والأمر بالتقوى التي هي أساس الخير كله، والثبات أمام الأعداء، والصبر عند اللقاء، وذكر الله كثيراً. ومن تلك القواعد كراهة مجادلة الرّسول في الحقّ بعدما تبيَّن، أما قبل تبيّن الحق في المصلحة الحربية فالمجادلة محمودة، إذ بها تتم المشاورة المطلوبة في القرآن بين المؤمنين ومع الرّسول. ومن القواعد الحربية الامتناع من التنازع والاختلاف حال القتال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

٦ - عصمة الرّسول بالهجرة من أذى قريش وتآمرهم على حبسه أو نفيه أو قتله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

٧ً - رفع البلاء العام عن الناس قاطبة ما دام الرّسول فيهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾.

٨ً - التّوكُّل على الله بعد اتِّخاذ الأسباب المطلوبة في كل شيء، وبخاصة الإعداد للقتال.

٩ً - الظّلم مؤذن بالخراب، ومعجّل بالفناء، ويعمّ أثره الأمّة كلها: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ﴾.

١٠ً - إن تغيُّر أحوال الأُمم من الذّل إلى العزّة، ومن الضّعف إلى القوّة، منوط بتغيير ما في النّفوس من عقائد فاسدة وأخلاق مرذولة.

١١ً - الافتتان بالأموال والأولاد مَدْعاة للفساد: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾.

١٢ً - إعداد مختلف القوى الماديّة والمعنويّة لقتال الأعداء: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾.

١٣ً - إيثار السّلم على الحرب إذا مال لها العدوّ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾.

١٤ً - وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق، حتى ولو مسّ ذلك مصلحة بعض المسلمين: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ﴾.

١٥ً - وجوب تأديب ناقضي العهد ومعاملتهم بالشّدّة: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾.

١٦ً - غاية القتال في الإسلام صون حريّة الدِّين ومنع الفتنة في الدِّين: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾.

١٧ - المسلمون أمّة واحدة والولاية والتّناصر بينهم واجب، والكافرون أمّة واحدة، ولا ولاية بين المؤمنين والكافرين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾

السّور المكيّة والمدنيّة:

سبق في مقدّمة الجزء الأول بيان خواص السّور المكيّة والمدنيّة، وللتّذكير بتلك الخواص بمناسبة تفسير نماذج من النّوعين أشير إلى بعض هذه الخواص، علماً بأن سوراً ثلاثاً مما ذكر مكيّة وهي: (الفاتحة والأنعام والأعراف) وأربعاً هي مدنيّة وهي: (البقرة وآل عمران والنساء والمائدة) وكذا سورة الأنفال مدنيّة إلا الآيات (٣٠ - ٣٦) فمكيّة.

أما السّور المكيّة: فموضوعاتها العقيدة والأخلاق، ببيان أصول الإيمان من إثبات التّوحيد والنّبوة والبعث، وقصص الرّسل مع أقوامهم في هذا المضمار، وتقرير أصول الآداب والأخلاق، ومحاجّة المشركين ودعوتهم إلى الإيمان بتلك الأصول.

وأما السّور المدنيّة: فتُعنى ببيان أحكام التّشريع المفصّلة، ومحاجّة أهل الكتاب بسبب الانحراف عن هداية كتبهم، ففي سورة البقرة محاجة اليهود، وفي سورة آل عمران محاجّة النّصارى، وفي سورة المائدة محاجّة الفريقين، وفي سورتي النّساء والتوبة مجادلة المنافقين وأحكامهم، بعد إعلان البراءة من المشركين في سورة التوبة.

وأمّا سورة الأنفال: فهي تنظيم لقواعد السّلم والحرب بالنّسبة للمسلمين، وسرد أحداث معركة بدر الكبرى، ثم بيان إحباط مكائد المشركين ومؤامراتهم على قتل النّبي ﷺ أو حبسه أو إخراجه من مكّة.

السؤال عن حكم قسمة الغنائم
وبيان أوصاف المؤمنين

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ
بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا
ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

الإعراب:

﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾ ذات: مفعول به، وهو مضاف، وبينكم: مضاف إليه، وأصل ذات: ذوية، فحذفوا اللام التي هي الياء، كما حذفت من المذكر في «ذو» فإن أصله: ذو، فلما حذفت الياء من ذوية، فتحركت الواو، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فصار ذات. والوقف عليها بالتاء عند أكثر العلماء والقراء.

البلاغة:

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ذكر الاسم الجليل في هذا وفي قوله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لتربية المهابة وتعليل الحكم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الإشارة بالبعيد لعلو رتبتهم وشرف منزلتهم.

﴿حَقًّا ۚ﴾ صفة لمصدر محذوف تقديره: أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً، أو هو مصدر مؤكد للجملة التي هي: أولئك هم المؤمنون.

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الدرجات مستعارة لمراتب الجنة ومنازلها العالية.

المفردات اللغوية:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد، والسؤال بمعنى طلب العلم يتعدى إلى مفعولين ثانيهما بـ عن، وقد يتعدى بنفسه، وإذا كان بمعنى طلب المال فيتعدى إلى مفعولين بنفسه، نحو سألت زيداً مالاً، وقد يتعدى بمن مثل: سألت محمداً من ماله. والسؤال هنا سؤال استفتاء لا استعطاء، وموجه ممن حضر معركة بدر. ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ غنائم بدر، والمراد بها هنا الغنائم الحربية، وهي ما حصل مستغنَماً من العدو، بتعب كان أو بغير تعب، قبل الظفر أو بعده. وهذا مروي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء والضحاك وقتادة وعكرمة. قال الزمخشري: النفل: الغنيمة؛ لأنها من فضل الله تعالى.

وقد يراد بالأنفال جمع نفل: ما يشترطه الإمام للمجاهد، زيادة على سهمه. ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي أن حكمهاالله يجعلها حيث شاء، والرسول يقسمها بأمر الله، فقسمها ﷺ بينهم على السواء، كما رواه الحاكم في المستدرك.

﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ حقيقة ما بينكم بالمودة وترك النزاع، وذات البين: الصلة التي تربط بين شيئين. أي الحال والصلة التي بينكم، وتربط بعضكم ببعض وهي رابطة الإسلام، وإصلاحها يكون بالوفاق والتعاون والمواساة والإيثار، وترك الأثرة أو حب الذات. وقيل: إن ذات بمعنى صفة لمفعول محذوف، أي أحوالاً ذات بينكم يحصل بها اجتماعكم.

وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالإصلاح.

والبين في أصل اللغة: يطلق على الاتصال والافتراق وكل ما بين طرفين، كما قال تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٤] برفع بين بمعنى الوصل، وبنصبه على الظرفية بمعنى وقع التقطع بينكم. ومن استعمال البين بمعنى الافتراق والوصل قول الشاعر:

فوالله لولا البَيْنُ لم يكنِ الهوى ولولا الهوى ما حنَّ للبَيْن آلف

البين أولاً: هو البعد، والثاني: هو الوصل.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في الغنائم وفي كل أمر ونهي وقضاء وحكم. وذكر الاسم الجليل في هذا وما قبله لتربية المهابة وتعليل الحكم. وذكر الرسول مع الله تعالى لتعظيم شأنه والإعلام بأن طاعته طاعة الله تعالى.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة، والجواب محذوف لدلالة ما تقدم عليه، أي فامتثلوا الأوامر الثلاثة. والمراد بالإيمان: التصديق، وقد يراد به كمال الإيمان.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملو الإيمان. ﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ أي وعيده. ﴿وَجِلَتْ﴾ خافت وفزعت. ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ تصديقاً. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ به يثقون لا بغيره وعليه يعتمدون وإليه يفوضون. ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأتون بها كاملة بحقوقها. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أعطيناهم. ﴿يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوف بما ذكر. ﴿حَقًّا﴾ صدقاً بلا شك. ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ منازل عالية رفيعة في الجنة. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة.

سبب النزول: نزول الآية (١):

أخرج أحمد وابن حبان والحاكم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي قسمتها فسألوا الرسول ﷺ، كيف تقسم، ولمن الحكم فيها، أهي للمهاجرين، أم للأنصار، أم لهم جميعاً؟ فنزلت.

وأخرج الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النَّفَل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء، أي عن سواء.

وروى أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا، فتسارع في ذلك شبان القوم، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغانم، جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإنا كنا ردءاً لكم، لو انكشفتم لفئتم إلينا، فتنازعوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن سعد بن أبي وقاص أنه قتل سعيد بن العاص، وأخذ سيفه، واستوهبه النبي ﷺ فمنعه إياه، وأن الآية نزلت في ذلك، فأعطاه إياه؛ لأن الأمر كله إليه ﷺ.

ولا تعارض بين هذه الروايات، فالآية نزلت في شأن قسمة غنائم بدر، لما اختلف المسلمون في قسمتها، إلا أن بعض الروايات تذكر سبباً عاماً للخلاف، وبعضها تذكر سبباً خاصاً، ولا مانع من وقوع الأمرين معاً. قال الجصاص: والصحيح أنه لم يتقدم من النبي ﷺ قول في الغنائم قبل القتال، فلما فرغوا من القتال، تنازعوا في الغنائم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ فجعل أمرها إلى النبي ﷺ في أن يجعلها لمن شاء، فقسمها بينهم على السواء[١].

وإحلال الغنائم مما اختص الله به الأمة الإسلامية، فهي من خصائص الإسلام بدليل ما ثبت في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي - فذكر الحديث إلى أن قال - وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي».

قال أبو عبيد: ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نَفَلاً: وهو تفضيله بعض

(١) أحكام القرآن: ٣/ ٤٥

الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر الغَنَاء (النفع) عن الإسلام، والنكاية في العدو.

وفي التنفيل (إعطاء النفل لبعض المقاتلين تشجيعاً على القتال) سنن أربع لكل منها موضع:

١ً - لا خمس في النفل الذي هو السَّلَب، أي ما يكون مع القتيل من سلاح ومال ومتاع.

٢ً - النفل يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس المنصوص عليه في آية: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤١]. وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم، فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث، بعد الخمس لحديث رواه أحمد وأبو داود عن معن ابن يزيد: «لا نَفَل إلا بعد الخمُس».

٣ً - النفل الذي يكون من الخمس نفسه: هو ما يخرجه الإمام من حصته، وهو أن تحاز الغنيمة كلها، ثم تخمس، فإذا صار الخمس في يدي الإمام، نفل منه على قدر ما يرى.

٤ً - النفل الخارج من جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء: هو أن يعطى الأدلاء ورعاة الماشية والسواق لها[1].

واختلف الفقهاء في هذه الأحوال الأربع، فقال الشافعي: الأنفال ألا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السَّلَب. قال أبو عبيد: والوجه الثاني من النفل من خمس النبي ﷺ، فإن له خمس الخمس من كل غنيمة. والوجه الثالث يعطى للسرية أو الجيش الذي بعثه الإمام على وفق ماشرطه

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٨٤

لهم. ومذهب مالك وأبي حنيفة رحمهما الله كالشافعي أن الأنفال مواهب الإمام من الخمس، على ما يرى من الاجتهاد، وليس في الأربعة الأخماس نفل، قال ﷺ: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم» وقال المالكية: النفل قسمان: جائز ومكروه، فالجائز بعد القتال، والمكروه أن يقال قبل القتل: من فعل كذا وكذا فله كذا. وإنما كره هذا؛ لأن القتال فيه يكون للغنيمة.

التفسير والبيان:

يسألونك أيها الرسول عن حكم الأنفال أي الغنائم لمن هي، وكيف تقسم؟ فقل لهم: إن حكمها لله أولاً يحكم فيها بما يريد، ثم للرسول يقسمها بينكم كما أمر الله، فأمرها مفوض إلى الله ورسوله. وهذه الآية محكمة مجملة، بيَّن إجمالها وفصل مصارفها آية أخرى في السورة نفسها هي قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤١] فلا تكون هذه ناسخة لتلك، وإنما توزع الغنائم، الخمس لهؤلاء المذكورين في هذه الآية، والأربعة الأخماس الباقية للغانمين. أما اليوم بعد تنظيم الجيوش ومنح رواتب دائمة للجند فتؤول للدولة.

وللإمام بموجب هذا التفويض أن ينفل من شاء من المقاتلة تحريضاً على القتال، كما قال النبي ﷺ يوم حنين فيما أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي قتادة: «من قتل قتيلاً فله سلبه».

وإذا كان أمر الغنائم لله ورسوله فاتقوا الله سبحانه في أقوالكم وأفعالكم، واجتنبوا ما كنتم فيه من التنازع والاختلاف فيها، الموجب لسخط الله وغضبه، والموقع في الفرقة والعداوة الضارة بكم حال الحرب وغيرها.

وأصلحوا ذات بينكم من الأحوال، حتى تتأكد الرابطة الإسلامية بين بعضكم، وتشيع المحبة والمودة والوفاق والوئام بين صفوفكم، وبعبارة أخرى: اجعلوا ما كان موصولاً على أصله، فهو سبب الوصل.

وأطيعوا الله ورسوله في الغنائم وفي كل ما أمر به ونهى عنه، وقضى به وحكم.

هذه الأمور الثلاثة (تقوى الله، وإصلاح ذات البين، وإطاعة أوامر الله والرسول) يتوقف عليها صلاح الجماعة الإسلامية؛ لأنها توفر معنى الانضباط والالتزام في السر والعلن لأحكام الشرع، وتوحد الكلمة والصف، وتكفل طاعة القيادة المخلصة الحكيمة.

إن كنتم مؤمنين مصدِّقين كلام الله وكاملي الإيمان، فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة، فإن التصديق الحق يقتضي الامتثال، وكمال الإيمان يوجب هذه الخصال الثلاث: الاتقاء، والإصلاح، وإطاعة الله تعالى ورسوله، فالمؤمن بالله حقاً يستحي من عصيانه، ويدفعه إيمانه إلى طاعة ربه، وإلى إصلاح ما بينه وبين الآخرين من خلاف.

وإذا كان الإيمان مستلزماً للطاعة، **فإن الله تعالى ذكر خمس صفات للمؤمنين تدفعهم إلى تحقيق الخصال الثلاث المتقدمة**، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وهذه الصفات هي ما يأتي:

١ - **الخوف التام من الله**: الذين إذا ذكروا الله بقلوبهم، وأحسوا بعظمته وجلاله، وتذكروا وعده ووعيده، خافوا منه أتم الخوف. كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ، ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٤-٣٥].

٢- **زيادة الإيمان بتلاوة القرآن**: الذين إذا تليت عليهم آياته القرآنية، زادتهم إيماناً ويقيناً وتصديقاً، وإقبالاً على العمل الصالح؛ لأن كثرة الأدلة والتذكير بها، يوجب زيادة اليقين، وقوة الاعتقاد، فالرؤية البصرية أو الحسية مثلاً تقوي القناعة الذاتية، كما حدث لإبراهيم عليه السلام الذي كان مؤمناً، وطلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ

وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٠] وهذا يدل على أن منزلة الطمأنينة في الإيمان أقوى وأعلى من مجرد الإيمان. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٤] وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٤].

٣ - **التوكل على الله** أي الاعتماد عليه والثقة به والتفويض إليه: الذين يتوكلون على ربهم وحده، وإليه يلجؤون، ولا يرجون غيره، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، وذلك بعد اتخاذ الأسباب، فمن تعاطى الأسباب المطلوبة منه عقلاً وعادة، ثم فوض الأمر لله، وأيقن أن الأمر كله بيد الله، فهو من أهل الإيمان. أما ترك الأسباب فهو جهل بمفهوم التوكل.

٤ - **إقامة الصلاة:** الذين يقيمون الصلاة، أي يؤدونها كاملة الأركان والشروط من قيام وركوع وسجود وتلاوة وأذكار في مواقيتها المعينة شرعاً، مع خشوع القلب، ومناجاة الرحمن، وتدبر قراءة القرآن.

٥ - **الإنفاق في سبيل الله:** الذين ينفقون بعض أموالهم في وجوه الخير بإخراج الزكاة المفروضة، وأداء الصدقات التطوعية، والنفقات الواجبة للأصول والأهل، والمندوبة للأقارب والمحتاجين وفي مصالح الأمة وجهاد العدو، فإن الأموال عواري وودائع عند الإنسان لا بد أن يفارقها.

وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، لذا قال تعالى بعد بيانها: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي أولئك الموصوفون: بما ذكرهم دون غيرهم المؤمنون حق الإيمان. وقد أشير إليهم بأولئك المفيد للبعد لبيان كمالهم وعلو منزلتهم.

روى الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أنه مرّ برسول الله ﷺ، فقال له: «كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: انظر ماذا تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عَزَفَتْ

نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغَوْن[١] فيها، فقال: يا حارثة، عرفت فالزم - ثلاثاً».

هذه صفات المؤمنين، أما المنافقون فقال ابن عباس عنهم: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

ثم ذكرالله جزاء المؤمنين الموصوفين بما ذكر، عند ربهم، فقال: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ أي لهم منازل ومقامات ودرجات في الجنات على حسب أعمالهم ونواياهم، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٣]. ولهم مغفرة أي يغفرالله لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات، ولهم رزق كريم: وهو ما أعد لهم من نعيم الجنة. والكريم: وصف لكل شيء حسن.

قال الضحاك في قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضْلَه على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد، ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم، كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم، فقال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين».

---

(١) يصيحون ويبكون.

وفي الحديث الآخر الذي رواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى، كما تراءون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم، وأَنْعِمَا».

فالمؤمنون متفاوتو الدرجة في الآخرة، وكذلك الرسل درجات، بدليل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٣] وفضل الله المهاجرين المجاهدين على غيرهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٢٠].

وهناك تفاوت أيضاً في درجات الدنيا، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٥].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الأحكام التالية:

١ - ليس كل نزاع أو خلاف شراً، فقد يؤدي الخلاف إلى خير، وقد كان خلاف الصحابة سبباً في بيان حكم الأنفال.

٢ - كان الصحابة حريصين على السؤال عما يهم من أمور الدين.

٣ - الله تعالى مصدر الأحكام الشرعية حقيقة، ومرجع إصدار الأحكام إلى الله أولاً ثم إلى الرسول، لا إلى غيرهما، وقسمة الغنائم فعلاً مفوض أمرها إلى الرسول ﷺ. وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ استفتاح كلام، وابتداء بالحق الذي ليس وراءه مرمى، الكل لله. وقوله: ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ قيل وهو الأصح عند ابن العربي: أراد به ملكاً، وقيل: أراد به ولاية قَسْم وبيان حكم. ودليل الأول قوله ﷺ: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود فيكم» فهو مالك له حقيقة، ثم يرده إلى المسلمين تفضلاً.

٤ً - صلاح الجماعة وقوة الأمة وعزتها مرهون بأمور ثلاثة: تقوى الله في السر والعلن، وإصلاح ذات البين، أي الحال التي يقع بها الاجتماع، وطاعة الله والرسول.

٥ً - امتثال أمر الله تعالى من ثمرات الإيمان، وإن سبيل المؤمن أن يمتثل أوامر الله.

٦ً - آية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تحريض على إلزام طاعة الرسول ﷺ فيما أمر به من قسمة الغنائم.

٧ً - أوصاف المؤمنين الصحيحة:

أولاً - الخوف من الله، لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه، فسبب الخوف: كمال المعرفة وثقة القلب.

ثانياً - زيادة الإيمان عند تلاوة آي القرآن وقد وصف الله أهل المعرفة عند تلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٣].

ثالثاً - التوكل على ربهم أي لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لاشريك له، ولا معقّب لحكمه، وهو سريع الحساب.

رابعاً - إقامة الصلاة: قال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.

خامساً - الإنفاق مما رزق الله في سبيل الله، أي طرق الخير والبر والإحسان.

٨ً - دل قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ على أن لكل شيء حقيقة، وأكد ذلك قصة حارثة. وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد؛ أمؤمن أنت؟ فقال له: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب، فأنا به مؤمن. وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فوالله ما أدري أنا منهم أم لا.

٩ً - زيادة الإيمان ونقصانه: استدل أكثر الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد والبخاري وغيرهم الذين يقولون: إن الإيمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل، استدلوا بهذه الآية: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب بزيادة الأعمال الصالحة، ولو كان الإيمان عبارة عن المعرفة والإقرار، لما قبل الزيادة. واستدلوا على أن الإيمان هو مجموع الأركان الثلاثة بقوله تعالى في تعداد أوصاف المؤمنين: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وهو يدل على أن كل تلك الخصال داخل في مسمى الإيمان. ويؤيده الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

كراهية بعض المؤمنين قتال قريش في بدر

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

الإعراب:

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ﴾ الكاف للتشبيه، وفيها ثلاثة أوجه:

الأول - أنها في موضع نصب على أنه صفة لمصدر محذوف دلَّ عليه الكلام، وتقديره: قل: الأنفال ثابتة لله والرسول ثبوتاً كما أخرجك ربك. فمحل الكاف صفة مصدر الفعل المقدر في قوله: ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي الأنفال تثبت لله والرسول عليه الصلاة والسلام مع كراهتهم، ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك، يعني المدينة، مع كراهتهم.

الثاني - أن تكون صفة لمصدر محذوف، وتقديره: يجادلونك جدالاً كما أخرجك.

الثالث - أن يكون وصفاً لقوله: ﴿حَقًّا﴾، وتقديره: أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك.

وذكر الزمخشري وجهاً آخر وهو أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا الحال كحال إخراجك، يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهتهم خروجك للحرب. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾ الجملة حال من كاف: ﴿أَخْرَجَكَ﴾.

﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ﴾ إذ: متعلق ومنصوب بفعل مقدر، تقديره: واذكر يا محمد إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم. و﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾: مفعول ثانٍ ليعد، والمفعول الأول كاف ﴿يَعِدُكُمُ﴾. و﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾: بدل من قوله: ﴿إِحۡدَى﴾، وهو بدل اشتمال، تقديره: وإذ يعدكم الله أن مِلْك إحدى الطائفتين لكم، ولا بد من تقدير حذف المضاف؛ لأن الوعد إنما يقع على الأحداث لا على الأعيان. ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يفعل ما فعل.

البلاغة:

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾ تشبيه تمثيلي.

﴿أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ استعارة، استعار الشوكة للسلاح بجامع الشدة والحدة والوخز بينهما.

﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك.

المفردات اللغوية:

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ القتال. ﴿بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ ظهر لهم. ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ إليه عياناً في كراهتهم له. ﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾ العير الآتية من الشام أو النفير التي جاءت من مكة للنجدة. ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ تريدون. ﴿ٱلشَّوۡكَةِ﴾ البأس والسلاح الذي فيه الحدة والقوة، وغير ذات الشوكة هي العير. ﴿تَكُونُ لَكُمۡ﴾ لقلة عَددها وعُددها بخلاف النفير. ﴿يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ يظهره. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ السابقة، بظهور الإسلام. ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يستأصل آخرهم الذي يأتي من ورائهم، لذا أمرهم بقتال النفير. ﴿يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ يعز الإسلام لأنه الحق. ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ يمحق الكفر والشرك ويزيله. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ المشركون ذلك.

سبب النزول:

نزول الآية (٥):

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لنا رسول الله ﷺ، ونحن بالمدينة، وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت: ما تَرَوْن فيها، لعلّ الله يغنمناها ويسلمنا؟ فخرجنا، فسرنا يوماً أو يومين، فقال: ما ترون فيهم؟ فقلنا: يا رسول الله، ما لنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للعير، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون، فأنزل الله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

المناسبة:

تتضح المناسبة بين هذه الآيات وبين ما قبلها من الكاف في ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ الذي يقتضي تشبيه شيء بهذا الإخراج، وأحسن وجوه الربط تشبيه كراهية الصحابة لحكم الأنفال وإن رضوا به، بكراهيتهم لخروجك من بيتك بالحق إلى القتال في بدر، فهم رضوا بحكم الأنفال، ولكنهم كانوا كارهين له، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق إلى القتال، وإن كانوا كارهين له.

وفي وجه آخر: الأنفال ثابتة لك، مثل إخراجك ربُّك من بيتك بالحق، والمعنى: امض لأمرك في الغنائم ونفِّل من شئت، وإن كرهوا.

وقيل: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾ والمعنى: هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له، فأنجزك وعده، وأظفرك بعدوك، وأوفى لك، فكما أنجز هذا الوعد في الدنيا، كذا يُنجزكم ما وعدكم به في الآخرة.

أضواء من السيرة على موقعة بدر:

هاجر النبي ﷺ وصحبه الذين آمنوا به من مكة إلى المدينة، بسبب اشتداد أذى قريش لهم، وترك المسلمون أموالهم وأرضهم وديارهم للمشركين في مكة.

فلما سمع رسول الله بأن قافلة لقريش محملة بالمؤن والأموال الكثيرة بزعامة أبي سفيان، قادمة من الشام، مع أربعين نفراً من قريش، انتدب المسلمين إليهم، وقال: هذه عِير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعلّ الله أن ينفِّلكموها. فخرج معه ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً، واتجهوا نحو ساحل البحر على طريق بدر.

وكان أبو سفيان قد بعث حين دنا من الحجاز من يتجسس الأخبار، فعلم بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضَمْضَم بن عمرو الغفاري نذيراً إلى أهل مكة، يستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها مع أصحابه، فنهضوا قريباً من ألف، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر (طريق الشاطئ) محاذياً له، فنجا بالعير والتجارة، وجاء النفير، فوردوا ماء بدر، وذلك بعد أن جمعوا جموعهم، واستنفر أبو جهل الناس من فوق الكعبة قائلاً: النجاء، النجاء، على كل صعب وذلول، عيركم وأموالكم، إن أصابها محمد فلن تفلحوا أبداً. وخرج أبو جهل على رأس النفير، وهم أهل مكة، ثم قيل له: إن العير أخذت طريق الساحل، ونجت، فارجع بالناس إلى مكة، فقال: لا، والله، لا يكون ذلك أبداً، حتى ننحر الجزور، ونشرب الخمور، وتعزف القيان ببدر، فيتسامع جميع العرب بنا، وبخروجنا، وأن محمداً لم يصب العير.

فأخبر رسول الله ﷺ الناس بما حدث واستشارهم، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول لك

كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٢٤] ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد (مدينة باليمن) لجالدنا معك من دونه، حتى نبلغه.

فقال رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير. وقال الأنصار: فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد، أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم.

ثم قال الرسول: «أشيروا علي أيها الناس» وكأنه يريد الأنصار، إذ كانت بيعة العقبة معهم أن ينصروه ويدافعوا عنه في دارهم بالمدينة، وتخوّف ألا ينصرونه خارج المدينة، كما شرطوا ذلك في عهدهم، فقال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجَلْ، فقال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق، لئن استعرضت بنا هذا البحر، فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينُك، فسر بنا على بركة الله. فسُرَّ رسول الله ﷺ لقول سعد، ونشّطه ذلك ثم قال:

«سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين: العير القادمة من الشام، وعلى رأسها أبو سفيان، أو النفير الآتي من مكة، لنجدتهم، وعلى رأسهم أبو جهل، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»[١].

---

(١) هذا ما رواه محمد بن إسحاق في سيرته عن عبد الله بن عباس (انظر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٨٨ وما بعدها).

التفسير والبيان:

إن حال الصحابة في كراهة تنفيل المقاتلة وقسمة الغنائم بالسوية مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب من بيتك بالمدينة أو المدينة نفسها؛ لأنها موضع هجرته ومسكنه، أو لأن بيته فيها، وكان إخراجاً بالحق، أي متلبساً بالحكمة والصواب، وكان فريق من المؤمنين يكرهون الخروج، لعدم استعدادهم للقتال، لذا فإنه أخرجك في حال كراهيتهم الخروج، فالتشبيه بين الحالتين في مطلق الكراهة؛ لأن بعض المسلمين في بدر كرهوا أمرين:

أولهما - كرهوا قسمة الغنيمة بينهم بالتساوي، وكانت تلك الكراهة من الشبان فقط؛ لأنهم هم الذين قاتلوا وغنموا.

وثانيهما - كرهوا قتال قريش؛ لأنهم خرجوا من المدينة بقصد الغنيمة ولم يستعدوا للقتال.

ولكن الله تعالى قال لهم في الأمرين: كما أنكم اختلفتم في المغانم وتنازعتم فيها، فانتزعها الله منكم، وجعل قسمتها على يد الرسول ﷺ، فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، كذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء وقتال ذات الشوكة وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد، رشداً وهدى، ونصراً وفتحاً.

والنتيجة من الأمرين: أن امتثال أمر النبي ﷺ في كل منهما هو الخير والمصلحة والرشاد.

يجادلك المؤمنون في الحق والرأي السديد وهو تلقي النفير، لإيثارهم عليه أخذ العير، بسبب قلة الرجال وكثرة المال، والخوف من قتال المشركين الأكثر عَدَداً وعُدَداً، يجادلونك بعدما تبين لهم الحق وظهر الصواب، بإخبارك أنهم

سينتصرون على كل حال، وأن الله وعدك إحدى الطائفتين: العير أو النفير، وبما أن العير قد نجت، فلم يبق إلا النفير، ولا داعي للقول بأننا لم نستعد للقتال، ولا وجه للجدل بعدما تبين الحق وهو إعلام رسول الله ﷺ بأنهم ينصرون، وحينئذ لا عذر لهم إلا خوفهم من القتال وجبنهم عن مقابلة الأعداء.

ثم شبَّه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم، وهم سائرون إلى الظفر والغنيمة بحال من يساق صاغراً إلى الموت المتيقن، وهو مشاهد أسبابه، ناظر إليها، لا يشك فيها.

لكن الله تعالى وعد رسوله والمؤمنين بالنصر، ووعده لا يتخلف، أما الحساب الظاهري لميزان القوى، فكثيراً ما يظهر عكسه، إذ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

واذكروا حين وعدكم الله ملك إحدى الطائفتين: العير أو النفير، لكي تكون السلطة والغلبة لكم.

وتتمنون أن تكون غير ذات الشوكة أي السلاح والقوة والمنعة وهي العير (القافلة) لكم؛ لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً. وقد عبر عنها بذلك تعريضاً لكراهتهم القتال وطمعهم في المال. والشوكة كانت في النفير لكثرة عددهم وتفوق عدتهم وأسلحتهم.

ويريد الله لكم غير هذا وهو مقابلة النفير الذي له الشوكة والقوة، لينهزم المشركون، وينتصر المؤمنون، ويثبت الله الحق ويعليه بكلماته، أي بآياته المنزلة على رسوله في محاربة المشركين ذوي الشوكة، وبما أمر الملائكة من نزولهم لنصرة المسلمين، وبما قضى من أسرهم وقتلهم، وطرحهم في قَليب (بئر) بدر.

ويريد الله أن يهلك المعاندين، ويستأصل شأفة المشركين، ويمحق قوتهم، ويبدد آثارهم.

وقد فعل الله ما فعل، ووعد بما وعد، وأنجز النصر للمؤمنين، ليحق الحق، أي يثبت الإسلام ويظهره، ويبطل الباطل أي يمحق الكفر والشرك ويزيله، ولو كره المجرمون، أي المعتدون الطغاة. ولا يكون ذلك بمجرد الاستيلاء على العير، بل بقتل أئمة الكفر وزعماء الشرك.

وبما أن الحق حق لذاته، والباطل باطل لذاته، وما ثبت للشيء لذاته، فإنه يمتنع تحصيله بجعل جاعل، فيكون المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل إظهار كون ذلك الحق حقاً، وإظهار كون ذلك الباطل باطلاً، إما بإظهار الدلائل والبينات، وإما بتقوية رؤساء الحق، وقهر رؤساء الباطل.

وليس هذا تكريراً لما سبق من إحقاق الحق؛ لأن المعنيين متباينان؛ لأن الأول لبيان مراد الله وأن هناك تفاوتاً بينه وبين مرادهم، أي الصحابة، والثاني بيان الداعي والغرض فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض، وهو التغلب على صاحبة القوة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١ - الخير والمصلحة فيما أمر الله به، وليس فيما يرى الإنسان، فقد يرى ما هو ضار نافعاً، وما هو نافع ضاراً.

٢ - فعل العبد بخلق الله تعالى في رأي أهل السنة، بدليل قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فإنه روي أنه ﷺ إنما خرج من بيته باختيار نفسه، ثم إنه تعالى أضاف ذلك الخروج إلى نفسه، ليدل على أنه خالق أفعال العباد.

والمعنى عند المعتزلة: أنه حصل ذلك الخروج بأمر الله تعالى وإلزامه، فأضيف إليه. لكن هذا مجاز، والأصل حمل الكلام على الحقيقة.

وتمسك أهل السنة أيضاً في مسألة خلق الأفعال بقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي أنه يوجد الحق ويكونه، والحق ليس إلا الدين والاعتقاد، فدلَّ هذا على أن الاعتقاد الحق لا يحصل إلا بتكوين الله تعالى وخلقه.

وتمسك المعتزلة بعين هذه الآية على صحة مذهبهم، فقالوا: هذه الآية تدل على أنه تعالى إنما يريد أبداً تحقيق الحق وإبطال الباطل، وأنه لا صحة لقول من يقول: إنه لا باطل ولا كفر إلا والله تعالى مريد له.

وردّ أهل السنة على ذلك بأن المقرر في أصول الفقه أن المفرد المحلى بالألف واللام ينصرف إلى المعهود السابق، أي أنه تعالى أراد تحقيق الحق وإبطال الباطل في هذه الصورة.

٣ - الحق حق أبداً، ولكن إظهاره تحقيق له؛ لأنه إذا لم يظهر أشبه الباطل. والإسلام هو الحق، وهو الذي يريد الله إظهاره وإعزازه، كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٦١/ ٩] وقال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٨].

٤ - لا قرار للباطل، ولكن لا بد من إبطاله وإعدامه، كما أن إحقاق الحق إظهاره، والكفر والشرك هو الباطل، فيريد الله استئصال أهله الكافرين بالهلاك.

٥ - أراد الله في بدر أن يجمع بين المؤمنين القلَّة وبين الكافرين الكُثُر أهل الشوكة والقتال، لينصرهم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يحسن التدبير لعباده المؤمنين، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٦].

٦ - دلَّ خروج النبي ﷺ ليلقى العير قبل معركة بدر على جواز النفير للغنيمة؛ لأنها كسب حلال، والله وعد المؤمنين إحدى الطائفتين: العير أو النفير.

الإمداد بالملائكة في معركة بدر وإلقاء النعاس وإنزال المطر

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ
مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا
مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ
عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ
قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا
الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ
وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ (١٤)﴾

القراءات:

﴿مُرْدِفِينَ﴾:

وقرأ نافع (مردَفين).

﴿يُغَشِّيكُمُ﴾: قرئ:

١- (يُغْشِيكم) وهي قراءة نافع.

٢- (يَغْشَاكم) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو.

٣- (يُغَشِّيكم) وهي قراءة الباقين.

﴿وَيُنَزِّلُ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (ويُنْزِل).

﴿الرُّعْبَ﴾ : قرئ:

١- (الرُّعُب) وهي قراءة ابن عامر، والكسائي.

٢- (الرُّعْب) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾ .﴿بِأَلْفٍ﴾ منصوب بـ ﴿مُمِدُّكُم﴾. وقرئ «بآلُف» جمع ألف؛ لأن فَعْلاً يجمع على أفعُل، نحو فَلْس وأفلس، وكلب وأكلب، ويؤيد هذه القراءة قوله تعالى: ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَفٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٥] وآلف: جمع ألف لما دون العشرة، ويقع على خمسة آلاف﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ صفة للألف .﴿مُرْدِفِينَ﴾ بالكسر: وصف لألف، على أنهم أردفوا غيرهم، أي أردف كل ملَك ملَكاً. (مرْدَفين) بالفتح مع التخفيف: إما منصوب على الحال من الكاف والميم في ﴿مُمِدُّكُم﴾ وإما في موضع جر؛ لأنه صفة لألف، أي مُتْبَعين بأَلْف. وقرئ (مُرَدَّفين).

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ بدل ثانٍ من ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾ أو منصوب بكلمة ﴿ٱلنَّصْرُ﴾ أو بإضمار: اذكر. والفاعل هو الله عز وجل، و﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ : مفعول به و﴿أَمَنَةً﴾ مفعول لأجله، والمعنى إذ تنعسون أمنة بمعنى أمناً أي لأمنكم. و﴿مِّنْهُ﴾ صفة لكلمة ﴿أَمَنَةً﴾ أي أمنة حاصلة لكم من الله عز وجل.

﴿إِذْ يُوحِى﴾ بدل ثالث من: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾ ، ويجوز أن ينتصب بيثبت. و﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ : مفعول يوحي.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، أو خبر مبتدأ. وتقديره: ذلك الأمر، أو الأمر ذلك.

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ خبر مبتدأ مقدر، تقديره: والأمر ذلكم. ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ عطف على ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ وتقديره: والأمر أن للكافرين عذاب النار.

البلاغة:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ أتى بصيغة المضارع عن الماضي لاستحضار الصورة في الذهن.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تقديم الجار والمجرور على المفعول به، للاهتمام بالمقدم، والتشويق إلى المؤخر.

المفردات اللغوية:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ تطلبون منه الغوث بالنصر عليهم. ﴿أَنِّى﴾ بأني. ﴿مُمِدُّكُم﴾ معينكم. ﴿مُرْدِفِينَ﴾ متتابعين، يردف بعضهم بعضاً، مأخوذ من الإرداف: وهو الركوب وراءه، وعدهم أولاً بألف من الملائكة، ثم صارت ثلاثة، ثم خمسة، كما ذكر في آل عمران [١٢٤، ١٢٥]. ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي الإمداد. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ تسكن بعد ذلك الاضطراب والخوف الذي عرض لكم إجمالاً. ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره. ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الشيء في موضعه.

﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ يجعله عليكم كالغطاء، من حيث اشتماله عليكم. ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ فتور في الحواس والأعصاب يعقبه النوم، فهو مقدمة له، وهو يضعف الإدارك، والنوم يزيله. ﴿أَمَنَةً﴾ أمناً مما حصل لكم من الخوف. ﴿مِّنْهُ﴾ من الله تعالى.

﴿ لِيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ من الأحداث والجنابات. ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وسوسته لكم بأنكم لو كنتم على الحق ما كنتم ظمأى محدثين، والمشركون على الماء. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ يحبس، أي ليثبت القلوب ويحملها على الصبر واليقين. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أن تسوخ في الرمل.

﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالإعانة والتبشير. ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ الخوف الشديد. ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي الرؤوس. ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي أطراف الأصابع من اليدين والرجلين. ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الواقع بهم. ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟﴾ خالفوا وعادوا، وسميت العداوة مشاقة؛ لأنها تجعل كل طرف في شق أو جانب غير الآخر. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ العذاب. ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أيها الكافرون في الدنيا. ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ في الآخرة.

سبب النزول:

روى أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونيف أو (وبضعة عشر رجلاً)، ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، فلا تعبد في الأرض أبداً» قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فرداه (أو فألقاه على مَنْكبيه) ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾.

فلما كان يومئذ، التقوا، فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً[1].

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ١٣٩، تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٨٩

وروى البخاري عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إني أنشُدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعْبَد» فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٥].

فعلى هذا كانت الاستغاثة من الرسول ﷺ، وهو المشهور. ولما اصطف القوم، قال أبو جهل: «اللهم، أولانا بالحق فانصره» ورفع رسول الله يده بالدعاء المذكور.

وهناك قول ثانٍ أن الاستغاثة كانت من جماعة المؤمنين؛ لأن خوفهم كان أشد من خوف الرسول.

والأقرب أنه دعا عليه الصلاة والسلام وتضرع، على ما روي، والقوم كانوا يُؤَمِّنون على دعائه، تابعين له في الدعاء في أنفسهم، فنقل دعاء الرسول ولم ينقل دعاء القوم.

المناسبة:

لما بيّن الله تعالى في الآية السابقة أنه يحق الحق ويبطل الباطل، بين أنه تعالى نصرهم عند الاستغاثة.

التفسير والبيان:

اذكروا أيها المؤمنون وقت استغاثتكم ربكم، لما علمتم أنه لا بد من القتال، داعين: «إي ربنا انصرنا على عدوك، يا غياث المستغيثين أغثنا». والمراد تذكيرهم بنعمة الله عليهم الذي أجاب دعاءهم، ليشكروا، وليعلموا مدى فضل الله عليهم، ورحمته بهم.

فاستجاب لكم، أي فأجاب دعاءكم بأني ممدكم بألف من أعيان

الملائكة، مردِفين أي يردف بعضهم بعضاً ويتبعه، فيتقدم بعضهم ويعقبه الآخر، وهكذا تتابع الملائكة، وهذه هي الطليعة، ثم تبعها آخرون، فصاروا ثلاثة آلاف، ثم خمسة آلاف، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [١٢٤] ثم قال: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [١٢٥].

وما جعل الله إرسال الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى لكم بأنكم منصورون، ولتسكن به قلوبكم من الاضطراب الذي عرض لكم، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم.

وليس النصر الحقيقي في الحروب إلا من عند الله، دون غيره من الملائكة أو سواهم من الأسباب الظاهرية، إن الله عزيز لا يغلب، حكيم لا يضع شيئاً في غير موضعه، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤٧/ ٤].

وهل قاتلت الملائكة بالفعل يوم بدر؟ يرى بعضهم أن الملائكة لم يقاتلوا، وإنما كان لهم تقوية معنوية، فكانوا يكثرون السواد، ويثبِّتون المؤمنين، وإلا فملَك واحد كافٍ في إهلاك أهل الدنيا كلهم، فإن جبريل أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط، وأهلك بلاد ثمود قوم صالح بصيحة واحدة. وقد أخذ بهذا الرأي الشيخ محمد عبده ومدرسته.

وقال جمهور العلماء: نزل جبريل في يوم بدر في خمس مئة ملك على الميمنة، وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمس مئة على الميسرة، وفيها علي بن أبي طالب في صور الرجال، عليهم ثياب بيض وعمائم بيض، وقد أرْخَوْا أذنابها بين أكتافهم فقاتلت.

وهذا هو المشهور، المروي عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين

بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمس مئة من الملائكة مجنِّبة، وميكائيل في خمس مئة مجنِّبة.

وهذا هو الراجح المؤيد في السنة النبوية بالروايات الصحيحة، روى ابن جرير ومسلم عن ابن عباس عن عمر الحديث المتقدم. ورويت أحاديث أخرى. ولولا الأحاديث لكان للرأي الأول اعتبار واضح.

وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود: من أين كان الصوت الذي كنا نسمع، ولا نرى شخصاً؟ قال: هو من الملائكة، فقال أبو جهل: هم غلبونا لا أنتم.

ومن المتفق عليه أن الملائكة لم يقاتلوا يوم أحد؛ لأن الله وعدهم بالنصر وعداً معلقاً على الصبر والتقوى، فلم يحققوا هذا الشرط.

وقتال الملائكة مع المؤمنين لا يقلل من أهمية قيام المؤمنين بواجبهم في القتال على أتم وجه وأكمله، فإنهم قاتلوا قتالاً مستميتاً استحقوا به كل تقدير، جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر - لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم».

وكان وقع المعركة على قريش شديداً جداً بسبب ما لاقوه من قتل زعمائهم بأسياف المسلمين ورماحهم وعلى يد شبانهم، مع أنهم الفرسان المشاهير، فكان هذا هو عقاب كفرهم وعنادهم، والله تعالى يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم الأمم المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدبور (الريح الصرصر العاتية)، وثمود بالصيحة (الصوت الشديد المهلك) وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل (من جهنم) وقوم شعيب بيوم الظلة، وفرعون وقومه بالغرق في اليم.

فالنعمة الأولى التي يذكِّر الله بها المسلمين يوم بدر: إمدادهم بالملائكة، ثم ذكَّرهم بنعمتين أخريين هما إلقاء النعاس وإنزال المطر، فقال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ أي اذكروا ما أنعم الله عليكم من إلقاء النعاس عليكم حتى غشيكم كالغطاء، أماناً أمَّنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من رؤية كثرة عدوهم وقلة عددهم، وأراحهم من عناء السير، فمن غلب عليه النعاس لا يشعر بالخوف، ويرتاح ويجدد نشاطه وقوته، روى البيهقي في الدلائل عن علي رضي الله عنه قال: «ماكان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة، حتى أصبح».

وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدِها، فكان النوم للجمع العظيم في الخوف الشديد دفعة واحدة عجيباً وفي حكم المعجز الخارق للعادة، مع ماكان بين أيديهم من الأمر المهمّ، ولكن الله ربط جأشهم.

قال الماوردي: وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما - أن قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني - أن أمَّنهم بزوال الرعب من قلوبهم؛ كما يقال: الأمن مُنِيم، والخوف مُسْهِر.

وكذلك فعل الله تعالى بهم فألقى النعاس عليهم يوم أحدٍ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٤].

وأنزل الله عليكم أيضاً مطراً من السماء ليطهركم به من الحدث والجنابة، ويذهب عنكم وسوسة الشيطان إليكم وتخويفكم من العطش، وقيل: يذهب عنكم الجنابة التي أصابت بعضكم؛ لأنها من تخييله، وليربط على قلوبكم، أي بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن، ويثبت به

الأقدام، وهو شجاعة الظاهر، أي أن إنزال المطر حقق أربع فوائد: التطهير الحسي بالنظافة والشرعي بالغسل من الجنابة والوضوء، وإذهاب وسوسة الشيطان، والربط على القلوب أي توطين النفس على الصبر، وتثبيت الأقدام به على الرمال.

وظاهر القرآن يدل على أن النعاس كان قبل المطر، وهي ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان. وقال مجاهد وابن أبي نجيح: كان المطر قبل النعاس.

والسبب في إنزال المطر: ماروى ابن المنذر من طريق ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه: أن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء، فظمئ المسلمون، وصلوا مجنِبين مُحْدِثين، وكان بينهم رمال، فألقى الشيطان في قلوبهم الحزْن، وقال: أتزعمون أن فيكم نبياً، وأنكم أولياء، وتصلّون مجنبين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء، فسال عليهم الوادي ماء، فشرب المسلمون، وتطهروا، وثبتت أقدامهم (على الرمل المتلبد) وذهبت وسوسته. والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ للماء أو المطر.

وسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء المتجمع من ماء المطر، فنزلوا عليه، وصنعوا الحياض، ثم غوَّروا ما عداها من المياه، وبُني لرسول الله ﷺ عريش على تَلّ مشرف على المعركة.

هذا مادل عليه الخبر وهو أن المشركين سبقوا إلى التجمع على الماء يوم بدر، والمعروف كما ذكر ابن إسحاق في سيرته وتبعه ابن هشام في سيرته: أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماء هناك، أي أول ماء وجده، فتقدم إليه الحبَابُ بن المنذر، فقال: يارسول الله، أرأيتَ هذا المنزل؟ أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الحرب والرأي والمكيدة، قال: يارسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغوِّر ما وراءه

من القُلُب (الآبار غير المبنية) ثم نبني عليها حوضاً، فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي، وفعلوا ذلك.

قال ابن كثير: وأحسن مافي هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي رحمه الله عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء، وكان الوادي دهساً[١]، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبَّد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً مالم يقدروا على أن يرحلوا معه.

وأرى أن النص القرآني يوافق هذه الرواية التي استحسنها ابن كثير وسار عليها جمهور المفسرين كالطبري والزمخشري والرازي وغيرهم. وذكر البيضاوي رواية تؤيد ذلك فقال: روي أنهم نزلوا في كثيب أعفر تسوخ في الأقدام على غير ماء، وناموا، فاحتلم أكثرهم، وقد غلب المشركون على الماء، فوسوس إليهم الشيطان، وقال: كيف تنصرون، وقد غُلبتم على الماء، وأنتم تصلون محدثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء الله، وفيكم رسوله؟ فأشفقوا، فأنزل الله المطر، فمطروا ليلاً، حتى جرى الوادي، واتخذوا الحياض على عُدوته (جانبه) وسقوا الرّكاب، واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو، حتى ثبتت عليه الأقدام، وزالت الوسوسة. ثم ذكر البيضاوي معنى قوله: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي بالوثوق بلطف الله بهم، ويثبت به الأقدام أي بالمطر حتى لا تسوخ في الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة.

والأصح الذي ذكره القرطبي عن ابن إسحاق في سيرته وغيره، وهو الذي يوفق به بين الروايات: أن الأحوال التي صاحبت نزول المطر كانت قبل وصولهم إلى بدر[٢].

(١) الدهس: الرمل الذي تسوخ فيه الأرجل.

(٢) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٧٣

ومن النعم المذكورة أيضاً على المؤمنين في بدر نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها وهي إلهام الله الملائكة أنه معهم معية إعانة ونصر وتأييد، فقال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ﴾ أي اذكروا إذ يوحي الله تعالى إلى الملائكة بأنه معهم حينما أرسلهم رداءً للمسلمين، أو يوحي إلى الملائكة أني مع المؤمنين فانصروهم وثبتوهم، قال الرازي: وهذا الثاني أولى؛ لأن المقصود من هذا الكلام إزالة التخويف، والملائكة ماكانوا يخافون الكفار، وإنما الخائف هم المسلمون[١].

والمراد بالمعية: معية الإعانة والنصر والتأييد في مواقف القتال الشديدة.

فثبتوا قلوب المؤمنين، وقووا عزائمهم، وذكّروهم وعد الله أنه ناصر رسوله والمؤمنين، والله لا يخلف الميعاد.

وقيل: إن الملائكة كانوا يتشبهون بصور رجال من معارف المؤمنين، وكانوا يمدونهم بالنصر والفتح والظفر. أخرج البيهقي في الدلائل: أن الملَك كان يأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه، فيقول: أبشروا، فإنهم ليسوا بشيء، والله معكم، كُرُّوا عليهم.

وقيل بوجه ثالث في معنى التثبيت وهو منقول عن الزجاج: للملَك قوة إلقاء الخير، وهو الإلهام، كما أن للشيطان قوة إلقاء الشر، وهو الوسوسة.

ثم ذكر الله تعالى المراد بقوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾: وهو أني معكم في إعانتكم بإلقاء الرعب في قلوب الكفار، فمن أعظم نعم الله تعالى على المؤمنين زرع الخوف والرعب في نفوس الكفار.

فاضربوا رؤوسهم التي هي فوق الأعناق واقطعوها، واحتزوا الرقاب

---

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ١٣٥

وقطّعوها، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم ذات البنان. والبنان: الأصابع، والمراد الأطراف. والمعنى أن الله أمرهم أن يضربوا المقاتل وغير المقاتل، ويجمعوا عليهم النوعين معاً.

ثم بيَّن الله تعالى سبب تأييده ونصره المؤمنين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ﴾ أي أن ذلك المذكور من النصر والتأييد للنبي والمؤمنين بسبب أن المشركين شاقوا الله ورسوله، أي عادوهما وخالفوهما، فساروا في شق أو جانب وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق آخر.

ومن يشاقق الله ورسوله، أي ومن يخالف أمر الله ورسوله ويعاديهما فإن له عدا الهزيمة والخزي في الدنيا العذاب الشديد في الآخرة.

ذلكم العقاب الذي عجلته لكم أيها الكافرون المشاقون الله ورسوله في الدنيا من خزي وذل وهزيمة ونكال وما تبع ذلك من قتل وأسر، فذوقوه عاجلاً، ولكم في الآخرة عذاب جهنم إن أصررتم على الكفر.

وعبر بالذوق الذي هو تعرف طعم اليسير لمعرفة حال الكثير عن تعجيل ما حصل لهم من الآلام في الدنيا، فكان المعجل كالذوق القليل بالنسبة إلى الأمر العظيم المعدّ لهم في الآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على أمور ثلاثة: تعداد النعم، تعليم كيفية القتل، عقاب مشاقة الله والرسول أي معاداتهما.

أما النعم المذكورة التي أراد الله التذكير بها في معركة بدر فهي سبع:

الأولى - النصر عند الاستغاثة، وذلك بإمدادهم بأعيان الملائكة للمساعدة في القتال. ولا تعارض في تعداد الملائكة بين هذه السورة التي ذكر فيها ألف

من الملائكة، وسورة آل عمران التي ذكر فيها ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف؛ لأنه تعالى جعل الإمداد متتابعاً بقوله ﴿مُرْدِفِينَ﴾ فأمدهم أولاً بألف ثم بثلاثة آلاف، ثم بخمسة حينما تذرعوا بالصبر والتقوى.

الثانية - إلقاء النعاس أي النوم عليهم ليلة اليوم الذي حدث فيه القتال.

الثالثة - إنزال المطر من السماء لتحقيق الطهارة الحسية بالنظافة والوضوء والغسل من الجنابة، والطهارة المعنوية بإذهاب وساوس الشيطان.

الرابعة - الربط على القلوب أي تقويتها وإزالة الخوف والفزع عنهم، وإفراغ الصبر عليهم وشد أزرهم لمجالدة الأعداء وقتالهم.

الخامسة - تثبيت الأقدام على الرمال التي تلبدت بالمطر. ودل هذا بدلالة المفهوم على أن حال الأعداء كانت بخلاف ذلك.

السادسة - الإيحاء إلى الملائكة أن الله مع المؤمنين، فانصروهم وثبتوهم.

السابعة - إلقاء الرعب والخوف في قلوب الكافرين. وهذا من النعم الجليلة التي أنعم الله بها على المؤمنين.

وأما تعليم كيفية القتل: فهو أنه تعالى أمر المؤمنين بقتل الكفار في المقاتل بضرب الهامات والرؤوس التي هي محمولة فوق الأعناق، وبضربهم في غير المقاتل بتقطيع الأيدي والأرجل ذات البنان؛ لأن الأصابع هي الآلات في أخذ السيوف والرماح وسائر الأسلحة، فإذا قطع بنانهم عجزوا عن المحاربة.

وأما عقاب مشاقة الله والرسول فهو الخزي والنكال والهزيمة في الدنيا، والعذاب الشديد في نار جهنم في القيامة. والمقصود من إيراد هذا العقاب الزجر عن الكفر والتهديد عليه وتوبيخ الكافرين، فالعقاب على ذلك نوعان: عاجل في الدنيا، ومؤجل في الآخرة.

وأما فضل أهل بدر فليس لذواتهم وإنما لأفعالهم، قال مالك: بلغني أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: كيف أهل بدر فيكم؟ قال: خيارنا، فقال: إنهم كذلك فينا. وذلك لجهادهم، وأفضل الجهاد يوم بدر؛ لأن بناء الإسلام كان عليه.

وأوجب الإسلام دفن جثث القتلى ولو كانوا من الأعداء، فقد أمر النبي ﷺ بدفن قتلى المشركين السبعين في بدر في القليب وهي البئر العادية القديمة الكائنة في البراري.

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم قام عليهم فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أُمية بن خلَف، ياعُتبة بن ربيعة، ياشيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال: يارسول الله، كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جَيَّفُوا[1]؟ قال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا».

ثم أمر بهم، فسُحبوا فألقوا في القليب، قليب بدر.

قال القرطبي: وفي هذا مايدل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار. قال رسول الله ﷺ: «إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه: إنه ليسمع قرع نعالهم» الحديث، أخرجه الصحيح[2].

---

(١) جيفوا: أنتنوا، فصاروا جيفاً. وقول عمر: «يسمعون» استبعاد على ما جرت به العادة، فأجابه النبي ﷺ بأنهم يسمعون كسمع الأحياء.

(٢) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٧٧

الفرار من الزحف والنصر من عند الله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ
(١٥) وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ
بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (١٦) فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً
حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (١٧) ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ (١٨)
إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ
وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٩)﴾

القراءات:

﴿وَمَأۡوَىٰهُ﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً: (وماواه).

﴿وَبِئۡسَ﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً: (وبيس).

﴿وَلَٰكِنَّ﴾ : قرئ:

١- (ولكنِ) وهي قراءة ابن عامر، وحمزة، والكسائي.

٢- (ولكنَّ) وهي قراءة الباقين.

﴿مُوهِنُ كَيۡدِ﴾ : قرئ:

١- (مُوَهِّنٌ كَيد) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو.

٢- (مُوهِن كيدِ) وهي قراءة حفص.

٣- (مُوهِنٌ كيدَ) وهي قراءة الباقين.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: قرئ:

١- (وأن الله) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وحفص.

٢- (وإن الله) هي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿زَحْفًا﴾ منصوب على الحال أي متزاحفين، ويجوز أن يكون حالاً للكفار.

﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ حال من فاعل: ﴿يُوَلِّهِمْ﴾ والاستثناء مفرغ، أو منصوب على الاستثناء أي ومن يولهم إلا رجلاً متحرفاً.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: خبر مبتدأ مقدر، تقديره: والأمر ذلكم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ﴾ عطف على ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، وتقديره: والأمر أن الله موهن.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على ذلكم، وتقديره: والأمر أن الله مع المؤمنين. ومن قرأ «وإن» بالكسر فعلى الابتداء والاستئناف.

البلاغة:

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ الخطاب للمشركين على التهكم مثل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤٩].

المفردات اللغوية:

﴿زَحْفًا﴾ أي مجتمعين، كأنهم لكثرتهم يزحفون؛ لأن الكل كجسم واحد

متصل، فيظن أنه بطيء وهو في الواقع سريع، والمراد: جيشاً زاحفين نحوكم لقتالكم. ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ جمع دُبُر وهو الخلف، ويقابله القُبُل، ويكنى بهما عن السوءتين، والمراد من قوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ الهرب منهزمين. ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٍ﴾ أي يوم لقائهم ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ منحرفاً أو منعطفاً إلى جانب آخر مظهراً الانهزام خدعة ثم يكر، بأن يريهم الفرار مكيدة، وهو يريد الكرة ﴿مُتَحَيِّزًا﴾ منحازاً أو منضماً إلى جماعة أخرى ليقاتل العدو معها، والفئة: الجماعة من المسلمين التي يستنجد بها. وأصل الفئة: الطائفة من الناس ﴿بَآءَ﴾ رجع متلبساً به ﴿وَمَأۡوَىٰهُ﴾ المأوى: الملجأ الذي يأوي إليه الإنسان أو الحيوان ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ المرجع هي.

﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾ ببدر بقوتكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾ بنصره إياكم ﴿وَمَا رَمَيۡتَ﴾ يا محمد أعين القوم ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ بالحصى؛ لأن كفاً من الحصى لا يملأ عيون الجيش الكثير برمية بشر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾ بإيصال ذلك إليهم، ليقهر الكافرين.

﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً﴾ ليختبر المؤمنين منه اختباراً حسناً بالغنيمة، والاختبار يكون بالنقم لمعرفة الصبر، وبالنعم لمعرفة الشكر، والمراد هنا الاختبار بالنعم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الإبلاء حق ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ﴾ مضعف ﴿كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تدبيرهم الذي يقصد به غير ظاهره ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ تطلبوا أيها الكفار الفتح والنصر في الحرب أي الفصل والقضاء في الأمر، حيث قال أبو جهل: «اللهم أينا كان أقطع للرحم، وأتانا بمالا نعرف، فأحنه الغداة» أي أهلكه ﴿فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ القضاء بهلاك من هو كذلك، وهو أبو جهل ومن قتل معه. ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عن الكفر والحرب ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ لقتال النبي ﷺ ﴿نَعُدۡ﴾ لنصره عليكم ﴿وَلَن تُغۡنِيَ﴾ تدفع ﴿فِئَتُكُمۡ﴾ جماعتكم.

سبب النزول:

نزول الآية (١٧):

﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾: المشهور عند أكثر المفسرين أن هذه الآية نزلت في رمي النبي ﷺ يوم بدر القبضة من حصباء الوادي، حين قال للمشركين: شاهت الوجوه، ورماهم بتلك القبضة، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شيء.

روى ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم والطبراني عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر، سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض، كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصباء، فانهزمنا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

نزول الآية (١٩):

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾: روى الحاكم عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير قال: كان المستفتح أبو جهل، فإنه قال حين التقى القوم: أيُّنا كان أقطع للرحم، وأتى بما لا يُعْرَف، فأَحْنه (أهلكه) الغداة، وكان ذلك استفتاحاً، فأنزل الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية قال: قال أبو جهل: اللهم انصر أعز الفئتين، وأكرم الفرقتين، فنزلت.

وقال السدي والكلبي: كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال عكرمة: قال المشركون: اللهم لا نعرف ما جاء به محمد، فافتح بيننا وبينه بالحق، فأنزل الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ الآية.

المناسبة:

الآيات مرتبطة بما قبلها في تعليم المؤمنين قواعد القتال، بمناسبة قصة بدر، ففي الآية السابقة أمرهم بضرب الهامات والرؤوس، وتقطيع الأيدي والأرجل، وهنا ذكر الله حكماً عاماً أيضاً في الحروب، وهو تحريم الفرار من الزحف في مواجهة الأعداء إلا لمصلحة حربية، مثل التحرف لقتال (إظهار الانهزام والفرار خدعة ثم الكرّ) والتحيز إلى فئة (الانضمام إليها لمقاتلة العدو معها).

التفسير والبيان:

يأيها الذين صدقوا بالله ورسوله، إذا اقتربتم من عدوكم ودنوتم منهم حال كونهم جيشاً زاحفين نحوكم لقتالكم، فلا تفرُّوا منهم، مهما كثر عددهم، وأنتم قلة، ولكن اثبتوا لهم وقاتلوهم، فالله معكم عليهم.

وهذا الانهزام أمامهم محرم إلا في حالتين:

إحداهما - أن يكون المقاتل متحرفاً لقتال، أي مظهراً أنه منهزم، ثم ينعطف عليه، ويكر عليه ليقتله. وهو أحد مكايد الحرب وخدعها.

والثانية - أن يكون متحيزاً إلى فئة أي منضماً إلى جماعة أخرى من المسلمين لمقاتلة العدو معها، يعاونهم ويعاونونه. فيجوز له ذلك في هاتين الحالتين.

أما فيما عداهما، فمن فرّ أو انهزم وجبن عن القتال، فقد رجع متلبساً بغضب من الله، ومأواه الذي يلجأ إليه في الآخرة جهنم، وبئس المصير هي، وبئس المصير مصيره. قال البيضاوي: هذا إذا لم يزد العدو على الضعف، لقوله تعالى: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٦] وقال ابن عباس: من فرَّ من ثلاثة لم يفر، ومن فرّ من اثنين فقد فرّ.

والآية تدل على تحريم الفرار من الزحف، وأنه من كبائر المعاصي، بدليل

ماروى الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً: «اجتنبوا السبع الموبقات - المهلكات - قالوا: يارسول الله، وماهن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

ثم علل الله تعالى ضرورة الثبات والصبر أمام العدو بنصره على الأعداء، فقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي إن افتخرتم بقتلهم، فأنتم لم تقتلوهم بقوتكم وعُدتكم، ولكن الله قتلهم بأيديكم؛ لأنه هو الذي أنزل الملائكة، وألقى الرعب في قلوبهم، وشاء النصر والظفر، وقوى قلوبكم وأذهب عنها الفزع والجزع، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٤].

وذلك أن المسلمين لما كسروا أهل مكة، وقتلوا، وأسروا، أقبلوا على التفاخر، فكان القائل يقول: قتلت، وأسرت. ولما طلعت قريش، قال رسول الله ﷺ: «هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها، يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني» فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: خذ قبضة من تراب، فارمهم بها، فقال لما التقى الجمعان لعلي رضي الله عنه: أعطني قبضة من حصباء الوادي، فرمى بها في وجوههم، وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه، فانهزموا، وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم. فقيل لهم: إن افتخرتم بقتلهم، فأنتم لم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم، بتثبيته قلوبكم، وإلقائه الرعب في قلوبهم. وما رميت أيها الرسول إذ رميت المشركين في الظاهر بالقبضة من الحصباء التي رميتها، فأنت ما رميتها في الحقيقة؛ لأن رميك لا يبلغ أثره إلا ما يبلغه سائر البشر في العادة، ولكن الله رماها، حيث أوصل ذلك التراب إلى عيونهم، فصورة الرمي صدرت من الرسول عليه الصلاة والسلام، وأثره إنما صدر من الله، والعبرة بإحداث الأثر فعلاً، فالله هو الذي بلّغ أثر ذلك الرمي إليهم، وكبتهم بها، لا أنت.

وقد تكرر فعل الرمي من النبي ﷺ يوم حنين.

ويكون الفرق بين فعله تعالى في القتل وبين فعل النبي والمؤمنين: أن الله هو المؤثر الحقيقي الفعال في تحقيق النتائج، وأما فعل البشر فهو القيام بالأسباب الظاهرة المقدورة لهم التي كلفهم بها ربهم، كما هو الحال في جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية، من كونها لا تستقل في تحقيق غاياتها إلا بفعل الله وتأثيره.

فعل الله ذلك كله ليكبت المشركين، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً أي ليعرّف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم، مع كثرة عدوهم وقلة عددهم، ليعرفوا حقه، ويشكروا بذلك نعمته، فهو منه تعالى اختبار للمؤمنين بالنصر والغنيمة وذيوع الصيت وحسن السمعة بين العرب.

إن الله سميع لكل قول ومنه دعاؤهم واستغاثة الرسول والمؤمنين ربهم قبل القتال، عليم بأحوالهم ونياتهم وبمن يستحق النصر والغنيمة.

ثم أتى ببشارة أخرى مع ما حصل لهم من النصر، وهي أنه تعالى أعلمهم بأنه مُضْعِف كيد الكافرين في المستقبل، محبط مكرهم، مصغّر أمرهم، جاعل كل مالهم في تبار ودمار.

ثم خاطب الله أهل مكة على سبيل التهكم قائلاً لهم: إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح، أي إن تستنصروا لأعلى الجندين وأهداهما، وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ماسألتم، وتم النصر للأعلى والأهدى، وحدث الهلاك والذلة للأدنى والأضل.

ثم أنذرهم الله، وحذرهم بقوله: إن تنتهوا عن الكفر والتكذيب بالله ولرسوله، وعداوة النبي ﷺ فهو خير لكم في الدنيا والآخرة وأجدى من الحرب التي جربتموها وما أحدثت من قتل وأسر؛ وإن تعودوا لمحاربته

وقتاله، وإلى ماكنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد إلى نصره وهزيمتكم، كما قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ١٧/٨] والخطاب هنا للكفار، وهو الظاهر من السياق، وقيل: الخطاب للمؤمنين؛ لأن قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ لا يليق إلا بالمؤمنين، أما لو حملنا الفتح على البيان والحكم والقضاء، لم يمتنع أن يراد به الكفار.

ولن تفيدكم جماعتكم شيئاً ولو كثرت، إذ ليست الكثرة دائماً من وسائل النصر أمام القلة، فقد يحدث العكس إذا اقترن فعل القلة بالصبر والثبات والإيمان والثقة بالله تعالى.

والله مع المؤمنين بالنصر والتأييد والتوفيق إلى النجاح، فلو جمعتم ما قدرتم من الجموع، فإن من كان الله معه، فلا غالب له، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ٣٧/١٧٣] وقال: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥/٥٦] وقال: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ٥٨/١٩].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الأحكام التالية:

١ - تحريم الفرار من القتال أمام العدو إلا في حالتين: التحرف لقتال، أو التحيز إلى فئة. ولكن هذا الحكم مقيد عند الجمهور بألا يزيد عدد الأعداء عن ضِعْف المسلمين، فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هي ضِعْف المؤمنين من المشركين، فالفرض ألا يفروا أمامهم، فمن فر من اثنين فهو فارّ من الزحف، ومن فرّ من ثلاثة فليس بفارّ من الزحف، ولا وعيد عليه، لقوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: ٨/٦٦] فالمسلم مطالب بالثبات أمام اثنين من الأعداء، وهذا ما استقر عليه التشريع.

والفرار معصية كبيرة موبقة، بظاهر القرآن وإجماع أكثر الأئمة للحديث المتقدم عن السبع الموبقات، التي منها «التولي يوم الزحف».

أما الهرب من الزحف إذا زاد عدد الأعداء عن ضعف المسلمين فهو مباح؛ لما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حَيْصة، فكنت فيمن حاص - أي هرب -، فقلنا: كيف نصنع، وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة، ثم بتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «من القوم؟» فقلنا: نحن الفرارون، فقال: «لا، بل أنتم العكّارون - الكرارون العطافون - أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين».

وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه - فيما رواه محمد بن سيرين - في أبي عبيد بن مسعود الثقفي، لما قتل على الجسر، بأرض فارس، لكثرة الجيش، من ناحية المجوس، فقال عمر: لو تحيَّز إلي لكنتُ له فئة» وقال مجاهد: قال عمر: «أنا فئة كل مسلم». لكن وإن جاز الانهزام، فالصبر أحسن، بدليل أن جيش مُؤْتة، وهم ثلاثة آلاف، وقف في مقابلة مئتي ألف، منهم مئة ألف من الروم، ومئة ألف من المستعربة من لَخْم وجُذَام.

ووقع في تاريخ الأندلس: أن طارقاً مولى موسى بن نصير سار في ألف وسبع مئة رجل إلى الأندلس، وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة؛ فالتقى وملِك الأندلس: لذريق، وكان في سبعين ألف عِنان - فرس - فزحف إليه طارق، وصبر له، فهزم الله الطاغية لذريق، وكان الفتح.

قال ابن وهب: سمعت مالكاً يسأل عن القوم يلقون العدو، أو يكونون في محرس يحرسون، فيأتيهم العدو وهم يسير، أيقاتلون أو ينصرفون، فيؤذنون

أصحابهم؟ قال: إن كانوا يقوون على قتالهم قاتلوهم، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فآذنوهم.

وحكم الفرار من الزحف ليس مختصاً بمن كان انهزم يوم بدر، كما يرى بعض الصحابة والتابعين (أبي سعيد الخدري، والحسن البصري وقتادة والضحاك) وإنما هذا الحكم عام في جميع الحروب، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهو عام، فيتناول جميع الحالات، كل مافي الأمر أنه نزل في واقعة بدر، والعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

والآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب، وهذا رأي مالك والشافعي وأكثر العلماء.

قال ابن القاسم: لا تجوز شهادة من فرّ من الزحف، ولا يجوز لهم الفِرار، وإن فرّ إمامهم؛ لقوله عز وجل: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ الآية: وفيها أنه استحق غضب الله ونار جهنم. وقال أيضاً: ويجوز الفرار من أكثر من ضعفهم، وهذا مالم يبلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفاً، فإن بلغ اثني عشر ألفاً، لم يحل لهم الفرار، وإن زاد عدد المشركين على الضعف؛ لقول رسول الله ﷺ فيما رواه أبو بشر وأبو سلمة العاملي: «ولن يُغلَب اثنا عشر ألفاً من قِلّة» إلا أن فيه راوياً متروكاً.

فإن فرّ فليستغفر الله عز وجل، لما رواه الترمذي عن بلال بن يسار بن زيد قال: حدثني أبي عن جدّي، سمع النبي ﷺ يقول: «من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه، غفر الله له، وإن كان قد فرّ من الزحف».

٢ - استدل أهل السنة بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ ومن المعلوم أنهم جرحوا الأعداء، فدل هذا على أن حدوث تلك

الأفعال إنما حصل من الله. وقوله تعالى عن النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي وما رميت خلقاً ولكن رميت كسباً. وعلى كل حال فمذهب أهل السنة ثابت بصريح قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٢].

٣ - المؤمن مطالب بتعاطي الأسباب الظاهرية، والقيام بالتكليف الذي كلفه الله، ثم يتوكل على الله ويفوض الأمر إليه، أما تحقيق النتائج والأهداف فهو متروك قطعاً لله عز وجل، لا بقوة الإنسان وقدرته، لهذا صح النفي والإثبات في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي أن صورة الرمي صدرت من الرسول عليه الصلاة والسلام، وأثرها إنما صدر من الله. وحادثة رمي الأعداء بحفنة من الحصباء حدثت يوم بدر في الأصح كما قال ابن إسحاق؛ لأن الآية نزلت عقيب بدر والسورة بدرية، وتكررت يوم أحد ويوم حنين.

٤ - كان الإخلاص في الجهاد، وصدق اللقاء، والثقة بالله سبب رضوان الله على أهل بدر، وإعطائهم البلاء الحسن، أي الإنعام عليهم، أي ينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصرة والغنيمة والأجر والثواب.

٥ - إن كل قوى الكفار تتبدد أمام قدرة الله وإرادته ونصره عباده المؤمنين، فأوهن الله كيدهم وألقى الرعب في قلوبهم، وفرّق كلمتهم، وأطلع المؤمنين على عوراتهم، وخزاهم وأذلهم، وهددهم بالعودة إلى خذلانهم إن عادوا لمحاربة النبي ﷺ والمؤمنين، وأنبأهم بدحر قواتهم مهما كثرت، وأن الله مؤيد بنصره المؤمنين، ولكن مع كل هذا فتح الله باب الأمل أمامهم بالعودة عن الكفر والشرك والمعاداة إلى الإيمان والطاعة والإسلام واتباع النبي ﷺ ومؤازرته وتأييده، رحمة منه بعباده، والله رؤوف بالعباد.

٦ - لقد تحقق مطلب أبي جهل حينما قال: اللهم انصر أفضل الدينين

وأحقه بالنصر، وقول المشركين حينما أرادوا الخروج إلى بدر، وأخذوا بأستار الكعبة: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين، وأفضل الدينين. وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ أي إن تستنصروا لأهدى الفئتين وأكرم الحزبين، فقد جاءكم النصر، على سبيل التهكم عليهم، ففي بدر فرق الله بين الحق والباطل لذا سميت الغزوة أو المعركة بيوم الفرقان، وأعز الإسلام وأهله، وهزم الكفر وأعوانه.

الأمر بطاعة الله والرسول والتحذير من المخالفة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ
عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

الإعراب:

﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أصلها: تتولوا، أدغمت إحدى التاءين بالأخرى. والضمير في ﴿عَنْهُ﴾ لرسول الله ﷺ؛ لأن المعنى: وأطيعوا رسول الله، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٩/ ٦٢] ولأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد.

البلاغة:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ شبه الكفار بالبهائم، وجعلهم من جنس البهائم، ثم جعلهم شراً منها، لتعطيلهم حواسهم عن سماع الحق والنطق به، فهو وجه الشبه، وأما أنهم شر من البهائم فلأنهم يضرون غيرهم والبهائم لا تضر.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ تعرضوا عن الرسول ﷺ، بمخالفة أمره ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن والمواعظ ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واتعاظ، وهم المنافقون أو المشركون ﴿الدَّوَابِّ﴾ جمع دابة: وهي ما تدب على الأرض ﴿الصُّمُّ﴾ عن سماع الحق، جمع أصم: وهو الأطرش ﴿الْبُكْمُ﴾ عن النطق بالحق، جمع أبكم: وهو الأخرس.

﴿خَيْرًا﴾ أي صلاحاً بسماع الحق ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تفهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ على سبيل الافتراض، وقد علم ألا خير فيهم ﴿لَتَوَلَّوا﴾ أعرضوا عنه ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن قبوله عناداً وجحوداً.

المناسبة:

لما خاطب الله المشركين والكفار بقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أتبعه بتأديب المؤمنين بالأمر بطاعة الله والرسول إذا دعاهم للجهاد وغيره؛ لأن الكلام من أول السورة إلى هنا في الجهاد. ومن عادة القرآن مقابلة الأشياء ببعضها، فلما حذر الكافرين، اقتضى تنبيه المؤمنين لئلا يتقاعسوا عن الدفاع عن الدين وإجابة دعوة النبي الكريم ﷺ.

التفسير والبيان:

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين المعاندين له، فقال:

ياأيها المتصفون بالإيمان والتصديق أطيعوا الله ورسوله في الدعوة إلى الجهاد وترك المال، ولا تتركوا طاعته أي الرسول وامتثال أوامره وترك زواجره، فإذا أمر بالجهاد وبذل المال وغيرهما، امتثلتم، والحال أنكم تسمعون كلامه ومواعظه، وتعلمون ما دعاكم إليه. والمراد بالسماع: سماع تدبر وفهم وتأمل

في المسموع، كما هو الشأن في المؤمنين أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥].

واحذروا أن تكونوا مثل الذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون، وهم المنافقون والمشركون، فإنهم يتظاهرون بالسماع والاستجابة، وليسوا كذلك، والحال أنهم لا يسمعون أبداً.

ثم أخبر الله تعالى عن هؤلاء أنهم شر الخلق والخليقة، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ أي إن شر المخلوقات التي تدب على الأرض عند الله الصم الذين لا يسمعون الحق فيتبعونه، ولا ينطقون بالحق ولا يفهمونه، ولا يعقلون الفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والإسلام والكفر، أي فكأنهم لتعطيلهم هذه الحواس فيما فيه المنفعة والفائدة والخير، فقدوا هذه القوى والمشاعر المدركة، وهم لو استخدموا عقولهم متجردين عن التقليد والعصبية الجاهلية، لاهتدوا إلى الحق والصواب، وأدركوا الصالح المفيد لهم وهو الإسلام، إلا أنهم في الواقع كالبهائم لا يعقلون الأمور، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٥٠/ ٣٧].

ثم أخبر الله تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، فلو علم الله في نفوسهم ميلاً إلى الخير والاستعداد للإيمان والاهتداء بنور الإسلام والنبوة، لأفهمهم، وأسمعهم بتوفيقه كلام الله ورسوله سماع تدبر وتفهم واتعاظ؛ ولكن لا خير فيهم؛ لأنه يعلم أنه لو أسمعهم أي أفهمهم، لتولوا عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك، وهم معرضون عنه من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به، فهم لا خير فيهم أصلاً.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى شيئين: الأمر بطاعة الله والرسول، والتحذير من مخالفة أمرهما ونهيهما.

وشأن المؤمنين سماع الحق، والاهتداء بنوره، وإطاعة الأوامر، واجتناب النواهي والزواجر. وهؤلاء هم فئة المؤمنين المصدقين، وأكمل الناس أرشدهم.

وطاعة الله والرسول شيء واحد، وطاعة الرسول طاعة لله، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢/٩] وقول المؤمن: سمعت وأطعت لا فائدة منه مالم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال الفعل المأمور به، واجتناب المنهي عنه. أما من قصر في الأوامر واقتحم المعاصي فهو غير مطيع.

أما من ليسوا بمؤمنين ولا مصدقين كاليهود أو المنافقين أو المشركين، فهم لا يسمعون الحق سماع تدبر وتفهم وتأمل، لذا أخبر تعالى أن هؤلاء الكفار شر خلق الله، وشر مادبَّ على الأرض.

أما المنافق فيظهر الإيمان ويسرّ الكفر، فهو يتظاهر بالسماع، وهو في الحقيقة لا يتدبر ولا يفهم شيئاً.

وأما اليهودي والنصراني فيجادل في الحق بعد ما تبين له، تمسكاً بالموروث المتداول، فهو يصم الأذن، ويعطل العقل عن التفكير والتأمل في الدين الحق، إصراراً على ما توارثه.

وأما المشركون فهم معاندون لا يسمعون أبداً، ويصدون الناس أيضاً عن سماع القرآن وكلام الرسول ﷺ، ويصمون آذانهم عن سماع الحق، ويتمسكون بتقليد الآباء والأجداد دون تأمل.

وكل هؤلاء لا يعقلون الفروق بين الحق والباطل، والخير والشر، والإسلام والكفر، لذا كانوا بحق شر خلق الله، وشراً من الدواب؛ لأنهم يضرون، والبهائم لا تضر.

الاستجابة لما فيه الحياة الأبدية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾

الإعراب:

﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ فيه واو محذوفة، تقديره: ولا تصيبن، مثل ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي وهم فيها خالدون، فحذف الواو. وذكر الزمخشري في ذلك ثلاثة أوجه: إما أن يكون جواباً للأمر، أو نهياً بعد أمر، أو صفة لفتنة، فإذا كان جواباً فالمعنى: إن أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة، ولكنها تعمكم، وجاز أن تدخل النون الثقيلة المؤكدة في جواب الأمر أو الشرط، والنون لا تدخل إلا على فعل النهي أو جواب القسم؛ لأن فيه معنى النهي، كما لو قلت: «انزل عن الدابة لا تطرحك» يجوز: لا تطرحنَّك. فكذلك هنا النهي للفتنة والمراد به الذين ظلموا. وإذا كانت نهياً بعد أمر، فكأنه قيل: واحذروا ذنباً أو عقاباً، ثم قيل: لا تتعرضوا للظلم، فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله من ظلم منكم خاصة، وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول، كأنه قيل: واتقوا فتنة، مقولاً فيها: لا تصيبن.

البلاغة:

﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ استعارة تمثيلية، شبه الله تعالى تمكنه من قلوب العباد وتصريفها كما يشاء بمن يحول بين الشيء والشيء.

المفردات اللغوية:

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ أجيبوا الله والرسول بالطاعة. ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ من أمر الدين ويصلحكم به؛ لأنه سبب الحياة الأبدية. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا بإرادته، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي إليه مصيركم ومرجعكم، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً﴾ احذروا بلاء ومحنة إن أصابتكم بإنكار موجبها من المنكر ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ بل تعمهم وغيرهم. ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ شديد العذاب لمن خالفه وعصاه.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٥):

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً﴾: تأولها الزبير بن العوام والحسن البصري والسدي وغيرهما بأنها يوم وقعة الجمل سنة ست وثلاثين. قال الزبير: نزلت فينا وقرأناها زماناً، وما أُرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها. وقال الحسن: نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير، وهو يوم الجمل خاصة. وقال السدي: نزلت في أهل بدر، فاقتتلوا يوم الجمل. وروي أن الزبير كان يساير النبي ﷺ يوماً إذ أقبل علي رضي الله عنه، فضحك إليه الزبير، فقال رسول الله ﷺ: «كيف حبُّك لعلي؟» فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إني أحبه كحبي لولدي، أو أشد حباً، قال: «فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله؟»[(١)].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله ﷺ، وقال: أمر الله المؤمنين ألا يقرّوا المنكر فيما بينهم، فيعمهم الله بالعذاب.

---

(١) الكشاف: ٢/ ١١

وعن حذيفة بن اليَمان قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون بين ناس من أصحابي فتنة، يغفرها الله لهم بصحبتهم إياي، يستن بهم فيها ناس بعدهم، يدخلهم الله بها النار»[١].

وهذه التأويلات تعضدها الأحاديث الصحيحة، ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الْخَبَث». وفي صحيح الترمذي: «إن الناس إذا رأوا الظالم، ولم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده». وفي صحيح البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «مَثَل القائم على حدود الله والواقعِ فيها كمثل قوم استَهَمُوا[٢] على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا اسْتَقَوْا من الماء، مرّوا على مَنْ فوقَهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً».

ففي هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة، وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المناسبة:

بعد أن أمرالله تعالى المؤمنين بطاعة الله والرسول في الجهاد وبذل المال وغيرهما، أردفه بالأمر بإجابة الله والرسول إذا دعاهم لما يحييهم حياة أبدية، ويصلحهم بهداية الدين وأحكامه، فكأن هذه الآيات بمثابة بيان العلة لطاعة الله والرسول، وهو تحقيق الصلاح والخير والسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة بالتزام الدين.

(١) تفسير القرطبي: ٣٩١/٧

(٢) استهموا: اقترعوا.

التفسير والبيان:

كرر الله النداء بلفظ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في هذه الآيات وما قبلها، إشارة إلى أن وصف الإيمان موجب الامتثال والإجابة والإصغاء لما يرد بعده من الأوامر والنواهي.

والمعنى: أيها المؤمنون، أجيبوا دعوة الله، ودعوة الرسول إذا دعاكم لما يحييكم حياة طيبة أبدية مشتملة على سعادة الدنيا والآخرة، وفيها صلاحكم وخيركم، وفيها كل حق وصواب، وذلك شامل القرآن والإيمان والجهاد وكل أعمال البر والطاعة. والمراد من قوله: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ الحياة الطيبة الدائمة، قال تعالى: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ [النحل: ١٦/٩٧]. وقال البخاري: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾: أجيبوا، ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾: لما يصلحكم.

وأكثر الفقهاء على أن ظاهر الأمر للوجوب، فالأمر هنا للوجوب حتى يكون له معنى وفائدة، صوناً للنص عن التعطيل، ولأن قوله بعدئذٍ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ جارٍ مجرى التهديد والوعيد، وهو لا يليق إلا بالإيجاب.

فيجب بناء عليه امتثال ما أمر به الرسول ﷺ بجد وعزم ونشاط من أمور الدين عبادةً وعقيدةً ومعاملةً. أما أمور العادات كاللباس والطعام والشرب والنوم، فليست من الدين الواجب الاقتداء به.

ومن أعرض عما أمر النبي به من الإيمان والقرآن والهدى والجهاد، فهو ميت لا حياة طيبة أو روحية فيه، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ٦/١٢٢].

ومعنى قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ

تُحْشَرُونَ﴾: بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تتمكنوا منها بزوال العقل. والقلب: موضع الفكر. قال مجاهد في الآية: ﴿يَحُولُ﴾ أي حتى يتركه لا يعقل، والمعنى: يحول بين المرء وعقله، حتى لا يدري ما يصنع. وفي التنزيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٥٠/٣٧] أي عقل.

وقيل: يحول بينه وبين قلبه الموت، فلا يمكنه استدراك ما فات، قال في الكشاف: يعني أنه يميته فتفوته الفرصة. وقيل: المعنى يقلب الأمور من حال إلى حال، قال القرطبي: وهذا جامع. روى الإمام أحمد بن حنبل عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك» فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها».

واختيار الطبري: أن يكون ذلك إخباراً من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب العباد منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئة الله عز وجل.

وأرى أن اختيار الطبري والقرطبي في تفسير الآية أسلم الآراء، ومعناها أن الله مهيمن على قلب الإنسان وفكره وإرادته، يقلب الأمور بيده كيف شاء من حال إلى حال، وهو المتصرف في جميع الأشياء، يصرف القلوب بما لا يقدر عليه صاحبها، ويغير اتجاهاته ومقاصده ونياته وعزائمه حسبما يشاء. والمقصود من الآية الحث على الطاعة قبل وجود الموانع من مرض وموت مثلاً.

وفسر بعضهم الآية بحسب الاختلاف في الجبر والقدر، فالقائلون بالجبر: يرون أن الله يحول بين المرء الكافر وطاعته، ويحول بين المرء المطيع ومعصيته، فالسعيد من أسعده الله، والشقي من أضلَّه الله. وكان فعل الله تعالى ذلك عدلاً فيمن أضله وخذله، إذ لم يمنعهم حقاً وجب عليه، فتزول صفة العدل حينئذ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم، لا ما وجب لهم.

وقال الجبائي من المعتزلة: إن من حال الله بينه وبين الإيمان، فهو عاجز، وأمر العاجز سفه، ولو جاز ذلك لجاز أن يأمرنا الله بصعود السماء، وقد أجمعوا على أن المريض الزَّمِن لا يؤمر بالصلاة قائماً، فكيف يجوز ذلك على الله تعالى؟ وقد قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦](١).

ومما يدل على أن المقصود من الآية الحث على الطاعة قبل فوات الأوان والفرصة ما ختمت به، وهو قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي أسرعوا في العمل وأعدوا العدة ليوم الحشر، فإنكم إلى الله مرجعكم ومصيركم، فيجازيكم بأعمالكم.

وبعد أن حذر الله تعالى الإنسان أن يحال بينه وبين قلبه، حذره من الفتن، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً﴾ أي احذروا الوقوع في الفتنة وهي الاختبار والمحنة التي يعمّ فيها البلاء المسيء وغيره، ولا يخص بها أهل المعاصي، ولا من ارتكب الذنب، بل يعمهما، حيث لم تدفع وترفع. وبعبارة أخرى: واحذروا فتنة، إن نزلت بكم، لم تقتصر على الظالمين خاصة، بل تتعدى إليكم جميعاً، وتصل إلى الصالح والطالح.

وكانت فتنة عثمان أول الفتن التي ما زال أثرها قائماً في التاريخ، وكانت سبباً في اقتتال المسلمين في وقعة الجمل وصفين ومقتل الحسين وغيرها، وفي ظهور البدع والمنكرات، واستمرت الفتن بين المسلمين، وأخذت أشكالاً متعددة، من قومية، وتفرق في الدين، وانقسام إلى أحزاب دينية، وأحزاب سياسية.

واعلموا أن الله شديد العقاب، أي أنه تعالى شديد العذاب في الدنيا والآخرة لمن عصاه من الأمم والأفراد، وخالف هدي دينه وشرعه.

---

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ١٤٧ - ١٤٨

وهذا التحذير عام يعمّ الصحابة وغيرهم، وإن كان الخطاب لهم أولاً.

ومقتضى التحذير منع ما يؤدي إلى العذاب العام، والعمل على إزالته ورفعه إذا وقع، كإهمال الجهاد، وشيوع المنكر، وافتراق الكلمة، والالتواء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد وردت أحاديث كثيرة تحذر من الفتن، منها: ما رواه أحمد وأبو داود عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يعملون بالمعاصي، وفيهم رجل أعز منهم وأمنع لا يغيره إلا عمهم الله بعقاب، أو أصابهم العقاب».

ثم نبّه الله تعالى عباده المؤمنين على نعمه وإحسانه عليهم، حيث كانوا قليلين فكثرهم، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، وهذا كان حال المؤمنين قبل الهجرة من مكة إلى المدينة، فبعد أن أمرهم بطاعة الله وطاعة الرسول، ثم أمرهم باتقاء المعصية، أكد ذلك التكليف بهذه الآية، فقال: واذكروا أيها المهاجرون، وقيل: الخطاب لجميع المؤمنين في عصر التنزيل، اذكروا وقت أن كنتم قلة مستضعفين في مكة، والمشركون أعزة كثرة يذيقونكم سوء العذاب، وكنتم خائفين غير مطمئنين، تخافون أن يتخطفكم الناس، أي يأخذكم مشركو العرب بسرعة خاطفة للقتل والسلب، كما كان يتخطف بعضهم بعضاً خارج الحرم المكي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٧] وقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٧].

﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾، أي جعل لكم مأوى تتحصنون به في المدينة، وأيّدكم، أي أعانكم وقواكم يوم بدر وغيره من الغزوات بنصره المؤزر وعونه، وسيؤيدكم بنصره على من سواكم من الروم والفرس وغيرهم، ورزقكم من الطيبات رزقاً حسناً مباركاً فيه وأحل لكم الغنائم، كي تشكروا هذه النعم الجليلة، والغرض التذكير بالنعمة لتكون حاملاً لهم على إطاعة الله وشكر الفضل الإلهي.

أخرج ابن جرير الطبري عن قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذلّ الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبينه ضلالاً، معكوفين على رأس حجر بين فارس والروم، لا والله ما في بلادهم ما يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم رُدِّي في النار، يُؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشرّ منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكّن به في البلاد، ووسّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من نعم الله عز وجل.

فقه الحياة أو الأحكام:

بان من الآيات العبر والعظات الكثيرة، بالإضافة إلى الأحكام الأساسية في الإسلام وهي ما يلي:

أ - وجوب إجابة دعوة الله والرسول وإطاعتهما تأكيداً لما سبق، لما فيه الخير والصلاح والحياة الطيبة الدائمة السعيدة في الدنيا والآخرة. وسبيل ذلك الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد والهدى الإلهي.

ذكر الحافظ ابن كثير والبخاري عن أبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه قال: كنت أصلي في المسجد، فمرّ بي النبي ﷺ فدعاني فلم أجبه، ثم أتيته فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي. فقال: ألم يقل الله عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال: لأعلمنَّك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له ذلك، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته». قال الشافعي: هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أُتي به في الصلاة لا تبطل؛ لأمر رسول الله ﷺ بالإجابة وإن كان في الصلاة.

٢ً - إن الله تعالى أملك لقلوب العباد منهم، وهو المتصرف في جميع الأشياء، سواء أكانت من أفعال القلوب والعقول أم من أفعال الأعضاء.

٣ً - وجوب تجنب أسباب الفتنة والبلاء والعذاب، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوحيد الكلمة، ومحاربة البدع، ومقاومة الانقسام، والدعوة إلى الوحدة بين الأمة حكاماً ومحكومين؛ لأن وباء الفتنة لا يقتصر على الظالمين خاصة، وإنما يعمّ الجميع. لكن يجب الكف عن الخوض في خلافات الصحابة.

٤ً - الحث على لزوم الاستقامة خوفاً من عقاب الله تعالى.

٥ً - تذكر النعم الجليلة التي أنعم الله بها على المؤمنين، والمبادرة إلى شكرها، والاعتبار والاتعاظ بها، فالله يحقق لمن امتثل أوامره سعادة الدنيا، وعزة السلطان، والتمكين في الأرض، والأمن من المخاوف، والنصر على الأعداء، ويمنحهم أيضاً الفوز والنجاة والرضوان في الآخرة. فإن تنكروا للأوامر الإلهية ولم يشكروا النعم، كحال المسلمين اليوم، صاروا أذلة ضعافاً. وسنة الله في ذلك هي: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٨].

خيانة الله والرسول وخيانة الأمانة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

الإعراب:

﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما - أن يكون مجزوماً بالعطف على قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

والثاني - أن يكون منصوباً بأن مضمرة بعد حتى، على جواب النهي بالواو، كقول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثلَه   عار عليك إذا فعلت عظيم

المفردات اللغوية:

﴿لَا تَخُونُوا۟﴾ الخيانة في الأصل: النقص وإخلاف المرتجى، ثم استعملت في الإخلال والنقص والغدر وإخفاء الشيء الذي هو ضدّ الأمانة والوفاء، وفيه معنى النقصان .﴿أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ ما ائتمنتم عليه من الدَّيْن وغيره من التكاليف الشرعية، والأمانة: كل حق يجب أداؤه إلى الغير .﴿فِتْنَةٌ﴾ اختبار وابتلاء بما يشق على النفس فعله أو تركه، وهي تكون في الاعتقاد والأقوال والأفعال والأشياء، فيمتحن الله المؤمن والكافر على السواء .﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فلا تضيعوه بمراعاة مصالح الأموال والأولاد.

سبب النزول:

روى سعيد بن منصور وغيره عن عبد الله بن أبي قتادة قال: نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ في أبي لبابة بن عبد المنذر، سأله بنو قريظة يوم قريظة: ما هذا الأمر، فأشار إلى حَلْقه، يقول: الذبح، فنزلت، قال أبو لبابة: ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله.

فالآية نزلت في أبي لبابة مروان بن عبد المنذر - وكان حليفاً لبني قريظة من اليهود - وقد بعثه ﷺ إلى بني قريظة، لينزلوا على حكمه، فاستشاروه، فأشار إليهم أنه الذبح؛ لأن عياله وماله وولده كانت عندهم. وذلك بعد أن حاصرهم النبي ﷺ إحدى وعشرين ليلة.

قال الزهري: فلما نزلت الآية شدّ نفسه علىٰ سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث تسعة أيام - وفي رواية: سبعة أيام - لا يذوق فيها طعاماً حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله، لا أحلّ نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلّني، فجاءه فحلّه بيده.

ثم قال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن انخلع من مالي، فقال رسول الله ﷺ: يجزيك الثلث أن تتصدق به.

وروى ابن جرير وغيره عن جابر بن عبد الله: أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل النبي ﷺ فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه، واكتموا، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان: إن محمداً يريدكم، فخذوا حذركم، فأنزل الله: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ لكنه حديث غريب جداً، مما يدل على أن الأصح نزول الآية في أبي لبابة.

المناسبة:

لما ذكر الله تعالى أنه رزق العباد من الطيبات وأنعم عليهم بالنعم الجليلة، منعهم هنا من الخيانة في الغنائم وغيرها من التكاليف الشرعية.

التفسير والبيان:

يوجب الله تعالى في هذه الآية أداء التكاليف الشرعية بأسرها على سبيل التمام والكمال، من غير نقص ولا إخلال.

يا أيها المؤمنون المصدقون بالله ورسله وقرآنه، لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه أو تتعدوا حدوده ومحارمه، ولا تخونوا الرسول بأن لا تستنوا به ولا

تأتمروا بما أمركم به أو لا تنتهوا عما نهاكم عنه، وتتبعوا أهواءكم وتقاليد آبائكم الموروثة، ولا تخونوا أماناتكم التي تأتمنونها فيما بينكم، بأن لا تحفظوها، وذلك يشمل الودائع المادية، والأسرار العامة للأمة والخاصة بالأفراد، فتُطْلِعوا على الأولى الأعداء، وتفشوا الثانية بين الناس. والأمانة: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد من الفرائض والحدود، وخيانتها: تعطيل فرائض الدين، والتحلل من أحكامه والاستنان بسنته، وتضييع حقوق الآخرين.

وأنتم تعلمون أنكم تخونون، وتعلمون تبعة ذلك ووباله، وتميزون بين الحسن والقبيح وتعرفون مفاسد الخيانة، يعني أن الخيانة: هي التي توجد منكم عن تعمد، لا عن سهو.

والخيانة: تعمّ الذنوب الصغار والكبار الملازمة للإنسان والمتعدية الضرر إلى الآخرين.

والأمانة من صفات المؤمنين، والخيانة من صفات المنافقين، روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قلما خطب رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا عهد له». وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

ثم إنه لما كان سبب الإقدام على الخيانة هو حبّ الأموال والأولاد، نبّه تعالى على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن مضار ذلك الحب، فقال: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾أي إن الأموال والأولاد محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده، وسبب الوقوع في الفتنة وهي الإثم أو العذاب؛ لأنها تشغل القلب بالدنيا، وتحجب عن عمل الآخرة. والسبب هو أن الإنسان مفطور على حب المال، طماع في كسبه وادخاره، فيبخل به، ولا

يؤدي منه حقوق الله، ولا يحسن به إلى الفقراء ولا ينفقه في أعمال البر والخير والإحسان. وحب الأولاد مما فطر عليه الإنسان أيضاً، وقد يحمل هذا الحب إلى كسب المال الحرام من أجلهم، لذا وجب على المؤمن الحذر من المال والولد، فيكسب المال الحلال، وينفقه في مستحقاته وفي سبيل البر والإحسان، ويطعم أولاده حلالاً، حتى لا ينبت جسدهم من السحت والحرام، ولا يكون الولد سبباً للجبن والبخل، ولا يقصر الوالد في تربية أولاده على الخلق الفاضل والالتزام بأحكام الدين، والبعد عن المعاصي والمحرمات.

ثم ختم الله تعالى الآية بخاتمة مؤثرة توقظ المقصر والمتورط فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي أن ثوابه وعطاءه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة، فعليكم أن تؤثروا ثواب ربكم، بمراعاة أحكام شرعه ودينه في الأموال والأولاد، وأن تزهدوا في الدنيا ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد، حتى تورطوا أنفسكم من أجلهما، كقوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٦].

فقه الحياة أو الأحكام:

تؤكد هذه الآيات مضمون المجموعتين السابقتين من الآيات التي تطالب بطاعة الله وطاعة الرسول، والاستجابة لدعوة الله والرسول، ثم يستمر التأكيد في الآية التي بعدها التي تطالب بتقوى الله أي العمل بالمأمورات واجتناب المنهيات.

وقد دلت هذه الآيات هنا على ما يلي:

أ - تحريم الخيانة المتعمدة مطلقاً، وإيجاب الأمانة: وهي أداء التكاليف

الشرعية، والأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، أي الفرائض والحدود. وأما الخيانة: فهي الإخلال بالواجبات، والتقصير في أداء الفرائض، وإفشاء الأسرار، وعدم ردّ الودائع والأمانات إلى أصحابها، وتضييع حقوق الآخرين.

٢ - الأموال والأولاد فتنة واختبار يمتحن به المؤمن الصادق الإيمان، فإن كان كسب المال حلالاً وإنفاقه في وجوه الخير، نجا صاحبه من إثمه وطغيانه، وإن ربى الوالد ولده تربية دينية خلقية، وأطعمه الحلال الطيب، خلص من الحساب يوم الآخرة. وإن كان العكس في كل ذلك عرَّض نفسه للعقاب والإثم. وقد عرف من سبب النزول أن وجود الأموال والأولاد لأبي لبابة في بني قريظة هو الذي حمله على ملاينتهم.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ تنبيه على أن سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا؛ لأنها أعظم شرفاً، وأتم فوزاً، وأخلد مدة وأثراً؛ لأنها تبقى بقاء لا نهاية له، لذا وصف الله تعالى الأجر بالعظم.

٤ - قال الرازي: يمكن الاستدلال بهذه الآية على أن الاشتغال بالنوافل أفضل من الاشتغال بالزواج (النكاح)؛ لأن الاشتغال بالنوافل يفيد الأجر العظيم عند الله، والاشتغال بالنكاح يفيد الولد، ويوجب الحاجة إلى المال، وذلك فتنة.

ولكن ذلك في تقديري حيث كان الإنسان في حال اعتدال، ثم لا شك بأن الزواج يساعد على التقوى والعفة.

تقوى الله وفضلها

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

المفردات اللغوية:

﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ التقوى: هي امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وسميت بذلك لأنها تقي العبد من النار. ﴿فُرۡقَانٗا﴾ نصراً ونجاة، تنجون مما تخافون، وسمي بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين الكفر بإذلال حزبه والإسلام بإعزاز أهله، ومنه سمي يوم بدر في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤١] لأنه فصل بين الحق والباطل أو يجعل لكم بياناً وظهوراً يشهر أمركم ويبث صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض. ورأى بعض العلماء الجدد: أنه العلم الصحيح والحكم الراجح أو نور البصيرة والهداية الذي يفرق به بين الحق والباطل، وقد أطلق هذا اللفظ على التوراة والإنجيل والقرآن، وغلب على الكتاب الأخير، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١].

والخلاصة: إن الفرقان: هو الفارق الفاصل بين الحق والباطل، وهذا تفسير أعم مما ذكر، ويستلزم ما ذكر، فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، وفّق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته في الدنيا وسعادته في الآخرة، وإثابته الثواب الجزيل.

﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ﴾ تكفير الذنوب: محوها. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ غفرها: سترها عن الناس. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ واسع الفضل عظيم العطاء، يعطي الثواب الجزيل.

المناسبة:

لما حذر الله تعالى من الفتنة بالأموال والأولاد، رغب في التقوى التي توجب ترك الميل والهوى في محبة الأموال والأولاد.

التفسير والبيان:

يا أيها المؤمنون المصدقون إن تتقوا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، يجعل لكم فارقاً بين الحق والباطل وهداية ونوراً ينور قلوبكم، وهذا النور في العلم القائم على التقوى هو الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٩] وهو المشار إليه أيضاً في قوله عز وجل: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٨].

فالمتقي الله يؤتيه فرقاناً يميز به بين الرشد والغي وبين الحق والباطل وبين الإسلام الحق والكفر والضلال، ويكون بذلك ربانياً كما أمر الله بقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٩].

وإن تتقوا الله أيضاً يمح عنكم ذنوبكم وسيئاتكم السابقة، ويسترها عن الناس، ويؤتكم الثواب الجزيل، والله صاحب الفضل الواسع والعطاء العظيم، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

تعددت الأوامر بالتقوى في القرآن الكريم، ولكن جاء الأمر هنا بلفظ الشرط؛ لأنه تعالى خاطب العباد بما يخاطب بعضهم بعضاً، فإذا اتقى العبد ربه - وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه - وترك الشبهات مخافة الوقوع في

المحرَّمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفَّظ من شوائب الشرك الخفي والظاهر، بمراعاة غير الله في الأعمال، والركون إلى الدنيا بالعفة عن المال، جعل له بين الحق والباطل فرقاناً، قال ابن إسحاق: ﴿فُرۡقَانٗا﴾: فَصْلاً بين الحق والباطل، وقال السدي: نجاة، وقال الفرَّاء: فتحاً ونصراً، وقيل: في الآخرة فيدخلكم الجنة، ويدخل الكفار النار.

والآية ذكرت **ثلاثة أنواع من الجزاء على التقوى:**

النوع الأول:

﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾: وهو يشمل جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين وبين الكفار، ففي الدنيا: يخص تعالى المؤمنين بالهداية والمعرفة، ويخص صدورهم بالانشراح كما قال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٢]، ويزيل الغل والحقد والحسد عن قلوبهم، والمكر والخداع عن صدورهم، ويخصهم بالعلو والفتح والنصر والظفر، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٨] وقال: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٦١/ ٩]. وأمر الفاسق والكافر بالعكس من ذلك.

وفي الآخرة: يكون الثواب والمنافع الدائمة والتعظيم من الله والملائكة.

النوع الثاني:

﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي أنه تعالى يزيل آثار جميع الذنوب والآثام الكبائر والصغائر ويمحوها ويسترها في الدنيا. ولا شك بأن التوبة أحد مظاهر التقوى.

النوع الثالث:

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ أي ويزيلها يوم القيامة؛ لأنه صاحب الفضل العظيم، ومن كان كذلك، فإنه إذا وعد بشيء وفَّى به.

وفي الجملة: تكون التقوى نوراً في الدنيا والآخرة، وسبباً للسعادة فيهما، وتحقيق الآمال جميعها، والنجاة من كل سوء وشر، لذا قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٧].

ألوان الكيد والمؤامرة من المشركين على النبي ﷺ

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

البلاغة:

﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ برد مكرهم أو بمجازاتهم عليه، وإسناد أمثال هذا إلى الله إنما يحسن للمزاوجة، ولا يجوز إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الذم. فإضافة المكر إليه تعالى على طريق (المشاكلة) بمعنى إحباط ما دبروا من كيد ومكر، والمشاكلة: أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ أي واذكر يا محمد إذ اجتمع أهل مكة للمشاورة في شأنك بدار الندوة. والتذكير بمكر قريش ليشكر نعمة الله عليه في خلاصه من مكرهم وتدبيرهم واستيلائه عليهم. والمكر: التدبير الخفي لإيصال المكروه إلى آخر من حيث لا يشعر.

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ يوثقوك بالوَثاق، ويحبسوك بالقيد، حتى لا تقدر على الحركة. ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ كلهم قتلة رجل واحد. ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ يطردوك من مكة. ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ بك. ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ بهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج. ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أعلمهم به، وأفضل المدبرين.

﴿ءَايَـٰتُنَا﴾ القرآن .﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾ قاله النضر بن الحارث؛ لأنه كان يأتي الحيرة يتّجر، فيشتري كتب أخبار الأعاجم ويحدث بها أهل مكة .﴿إِنْ﴾ ما .﴿هَـٰذَآ﴾ القرآن .﴿إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ﴾ أكاذيب، جمع أسطورة: وهي القصص والأحاديث التي سطرت في الكتب القديمة الأولى بدون تمحيص ولا نظام.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٠):

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم وابن إسحاق عن ابن عباس: أن نفراً من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمعت بما اجتمعتم له، فأردت أن أحضُركم، ولن يعدمكم مني رأي أو نصح، قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم، فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، فقال قائل: احبسوه في وَثاق، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير ونابغة، فإنما هو كأحدهم.

فقال عدو الله الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، والله ليخرجن رائد من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يَثِبُوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم، ثم يمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، فانظروا في غير هذا الرأي.

فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم، واستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع.

فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه، والله لئن فعلتم، ثم

استعرض العرب، ليجتمعُنَّ عليه، ثم ليسيرُنَّ إليكم حتى يخرجكم من بلادكم، ويقتل أشرافكم.

قالوا: صدق والله، فانظروا غير هذا.

فقال أبو جهل: والله لأشيرنَّ عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره، قالوا: وما هذا؟ قال: تأخذون من كل قبيلة وسيطاً شاباً جَلْداً - قوياً - ثم نعطي كل غلام منهم سيفاً صارماً يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلتموه تفرّق دمه في القبائل كلها، فلا أظن أن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلهم، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْل - الدية - واسترحنا وقطعنا أذاه عنا.

فقال الشيخ النجدي: هذا والله، هو الرأي، القول ما قال الفتى، لا أرى غيره.

فتفرقوا على ذلك، وهم مُجْمعون له؛ فأتى جبريل النبي ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك في الخروج، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة، يذكّره نعمته عليه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية. هذه أسباب الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

نزول الآية (٣١):

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾: أخرج ابن جرير الطبري عن سعيد بن جبير قال: قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً[١] عقبة بن أبي مُعَيْط، وطُعَيْمة بن عدي، والنَّضْر بن الحارث، وكان المقداد أسَر النضر، فلما أمر بقتله قال المقداد: يا رسول الله، أسيري؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول». قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا﴾ الآية.

---

(١) القتل صبراً: أن يحبس ويرمى حتى يموت.

المناسبة:

لما ذكَّر الله تعالى المؤمنين نعمه عليهم بقوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ كذلك ذكَّر رسوله نعمه عليه، وهو دفع كيد المشركين، ومكر الماكرين عنه.

التفسير والبيان:

واذكر أيها النبي حينما اجتمع المشركون لتدبير مؤامرة خطيرة عليك وعلى دعوتك، فذلك أمر يستحق الشكر على النعمة، ويدعو للعبرة والعظة، ويدل على صدق دعوتك وتأييد ربك لك في وقت المحنة العصيبة.

لقد دبروا لك إحدى مكائد ثلاث: إما الحبس الذي يحول بينك وبين دعوة الناس، وإما القتل بطريق جميع القبائل، وإما الطرد والإخراج من البلاد.

إنهم يمكرون ويدبرون في السرّ أمراً مكروهاً لإيقاعه بك من حيث لا تحتسب، ولكن الله عزت قدرته يحبط مكرهم ويبطل تآمرهم ويذهب كيدهم هباء، فقد أخرجك مهاجراً سليماً من بينهم دون أي أذى، من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، والله خير المدبرين وأعلمهم ولاخير في مكرهم. فمعنى قوله: ﴿وَيَمۡكُرُونَ﴾: يخفون المكايد له، ومعنى: ﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ﴾: ويخفي الله ماأعدّ لهم حتى يأتيهم بغتة، ومكر الله: هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ أي مكره أنفذ من مكر غيره، وأبلغ تأثيراً، وأحق بالفعل المدبَّر؛ لأن تدبيره نصر للحق وعدل، ولا يفعل إلا ماهو مستوجَب.

وفي هذا دلالة على أن موقف الكفار من النبي ﷺ ودعوته موقف متميز دائماً بالإساءة والأذى.

وبعد أن حكى الله مكرهم لذات محمد، حكى مكرهم لدينه وكتابه، فقال: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ﴾ أي إذا تليت آيات القرآن الواضحة، قالوا جهلاً وعناداً وسفهاً واستكباراً: لو نشاء لقلنا مثل هذا، وهو اعتراف ضمني بعجزهم عن

الإتيان بمثل القرآن، وقد تحداهم للإتيان بأقصر سورة منه، ولكنه التمويه والخداع والإيهام، كما يفعل الضعيف الجبان أمام البطل الشجاع المغوار، يدعي أنه قادر على قتله، وهو مجرد كلام هراء.

وكان قائل هذا القول: هو النضر بن الحارث، روي أن النضر بن الحارث خرج إلى الحيرة تاجراً، واشترى أحاديث كليلة ودمنة، وكان يقعد مع المستهزئين والمقتسمين وهو منهم، فيقرأ عليهم أساطير الأولين، وكان يزعم أنها مثل ما يذكره محمد من قصص الأولين.

إنه كان يذهب إلى أرض فارس، فيسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وكبار العجم، ويمرّ باليهود والنصارى، فيسمع منهم التوراة والإنجيل، ثم يأتي ليحدث أهل مكة بما سمع.

ثم عللوا قولهم الكاذب بما هو أكذب، فقال: ما هذا القرآن إلا أخبار وأكاذيب وأحاديث الأولين، مثل قصص الأمم السابقين. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان: ٢٥/٥] ومعنى ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي كتب المتقدمين اقتبسها، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس. وهذا هو الكذب البحت، كما أخبر الله عنهم في الآية التالية: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ [الفرقان: ٢٥/٦].

والقائل: هو النضر بن الحارث الذي أنزل فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ [لقمان: ٣١/٦] فقد اشترى قَيْنة جميلة تغني الناس بأخبار الأمم، لصرفهم عن سماع القرآن.

ويلاحظ أنهم نسبوا آيات القرآن إلى قصص السابقين، ولكنهم لم يقولوا: إن محمداً افتراها أو اختلقها؛ إذ كانوا يعتقدون صدقه وأنه ليس كذاباً، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٣٣].

وقد كان زعماء قريش كالنضر بن الحارث وأبي جهل والوليد بن المغيرة يصدون الناس عن سماع القرآن، ثم يحاولون التنصت على النبي ﷺ ليلاً، حتى إن الوليد بن المغيرة أعلن كلمته بعد تأثره بآيات القرآن: «إنه يعلو ولا يعلى عليه، وإنه يحطم ما تحته» ثم حاول إبطال هذه الكلمة كيلا تسمعها العرب بتأثير زعماء الشرك فقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٧٤/ ٢٤].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلَّت الآية على أن حادث الهجرة كان معجزة ربانية لمحمد ﷺ، فقد اجتمع المشركون في دار الندوة، واتفقوا على قتله، وانتدبوا من كل قبيلة شاباً وسيطاً جَلْداً قوياً ليقتلوه بضربة رجل واحد، ليتفرق دمه على القبائل، فلا يستطيع قومه بنو هاشم محاربة القبائل كلها.

فأمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله عز وجل أن يعمي عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم، فخرج وقد غشيهم النوم، فوضع على رؤوسهم تراباً ونهض.

فلما أصبحوا خرج عليهم علي، فأخبرهم أن ليس في الدار أحد، فعلموا أن رسول الله ﷺ قد فات ونجا. والقصة معروفة في السيرة.

والحاصل أنهم احتالوا على إبطال أمر محمد، والله تعالى نصره وقواه، فتبدد فعلهم، وظهر صنع الله تعالى.

والمراد من قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ مع أنه لا خير في مكرهم أنه أقوى وأشد وأعلم، لينبه بذلك على أن كل مكر، فهو يبطل في مقابلة فعل الله تعالى. وفي الآية إيماء إلى أن شأن الكفار إيذاء دائم للنبي ﷺ ومن تبعه.

وكما بدد الله مكرهم لشخص محمد ﷺ، بدد مكرهم لدينه وشرعه، فزعموا أنه أساطير الأولين، فردَّ الله عليهم: أن الله الذي يعلم السِّر في السماوات والأرض هو منزِّل القرآن.

ودلَّ قولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ على أن معارضتهم للقرآن مجرد قول وادعاء، ولم يتمكنوا بالفعل من معارضته، ومجرد القول لا فائدة فيه.

وكان هذا وقاحةً وكذباً، وقيل: إنهم توهموا أنهم يأتون بمثل القرآن، كما توهَّمت سحرة موسى، ثم راموا ذلك فعجزوا عنه، وقالوا عِناداً: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٥ ومواضع أخرى]. وإلقاء مثل هذا الكلام والاتهام الباطل ينم عن الضعف والعجز، وسطحية الجاهل العامي، كما أنه موقف يدعو للسخرية والهزء من القائلين؛ إذ لو كان لديهم دليل عقلي مقبول مفنِّد لأعلنوه.

طلب المشركين الإتيان بالعذاب ومنع تعذيبهم إكراماً للنَّبي ﷺ وأوضاع صلاتهم عند البيت الحرام

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلسَّمَآءِ أَوِ﴾:

بإبدال الهمزة الثانية ياء خالصة وصلاً قرأ: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.

﴿أَوِ ٱئْتِنَا﴾:

بإبدال الهمزة الساكنة ياء ساكنة مدِّيَّة (أوِيتنا) قرأ كل من: ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً.

﴿وَتَصْدِيَةً﴾:

بإشمام الصاد صوت الزاي، قرأ: حمزة، والكسائي.

وقرأ الباقون بالصاد الخالصة.

الإعراب:

﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وهو: ضمير فصل بين الوصف والخبر عند البصريين، وعماد عند الكوفيين. وعلى قراءة الرَّفع يكون ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْحَقَّ﴾ خبره، والجملة فيهما خبر ﴿كَانَ﴾.

﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ في موضع الحال.

﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ﴾ أن في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجرّ، وتقديره: من ألا يعذبهم الله. وقيل: تكون زائدة. والأول أوجه .﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿يُعَذِّبَهُمُ﴾.

﴿مُكَآءً﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ وهو الصَّفير، وأصله (مكاو) فلما وقعت الواو صرفاً وقبلها ألف زائدة قلبت همزة.

﴿وَتَصْدِيَةً﴾ معناها التَّصفيق، وأصله (تَصْدده) من صدَّى: إذا امتنع، فأبدلوا الدَّال الثَّانية ياء. وقد تكون من الصَّدى: وهو الصَّوت الذي يعارض الصَّوت، فتكون الياء أصليَّة.

البلاغة:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ أي تصفيراً

وتصفيقاً، جعلوا صلاتهم عند البيت على هذا النحو، مما يدلُّ على جهلهم بمعنى العبادة وعدم معرفة حرمة بيت الله، وكانوا أيضاً يطوفون بالبيت عراةً رجالاً ونساءً، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، وكانوا يفعلون ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته يخلطون عليه.

المفردات اللغوية:

﴿إِن كَانَ هَٰذَا﴾ الذي يقرؤه محمد. ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ المنزل. ﴿أَلِيمٍ﴾ مؤلم على إنكاره. قاله النَّضر بن الحارث وغيره استهزاءً وإيهاماً على بصيرة وجزم ببطلانه. ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ بما سألوه. ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ لأنَّ العذاب إذا نزل عمَّ، ولم تعذَّب أمَّة إلا بعد خروج نبيِّها والمؤمنين منها. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ حيث يقولون في طوافهم: غفرانك.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بالسَّيف بعد خروجك والمستضعفين، وقد عذَّبهم الله ببدر وغيره. ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون النَّبي ﷺ والمسلمين. ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أن يطوفوا به. ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ألا ولاية لهم عليه.

﴿مُكَآءً﴾ صفيراً. ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقاً، أي جعلوا ذلك موضع صلاتهم التي أُمروا بها.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٢):

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ﴾: أخرج ابن جرير الطَّبري عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ﴾ قال: نزلت في النَّضر بن الحارث، لما قال: إن هذا إلا أساطير الأولين، قال له النَّبي ﷺ: «ويلك إنه كلام ربِّ العالمين». فقال: اللهم إن كان هذا هو الحقّ.

نزول الآية (٣٣):

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾: روى البخاري ومسلم عن أنس، قال: قال أبو جهل بن هشام: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية. والاستغفار وإن وقع من الفجّار يدفع به ضرب من الشُّرور والإضرار.

والخلاصة: اختلف فيمن القائل: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ﴾ فقال مجاهد وسعيد بن جبير: قائل هذا هو النَّضر بن الحارث. وقال أنس بن مالك فيما رواه البخاري ومسلم: قائله أبو جهل.

وروي أن معاوية قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملَّكوا عليهم امرأة! فقال: بل أجهل من قومي قومك حين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ الآية.

نزول الآية (٣٥):

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ أخرج الواحدي عن ابن عمر قال: كانوا يطوفون بالبيت ويصفِّرون ويصفِّقون، فنزلت هذه الآية[١].

وأخرج ابن جرير الطَّبري عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش يعارضون النَّبي ﷺ في الطَّواف يستهزئون به، ويصفِّرون ويصفِّقون، فنزلت.

المناسبة:

الآيات متَّصلة بما قبلها وهي قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ فلما

---

(١) أسباب النّزول: ص ١٣٥.

حكى تعالى مكر المشركين بمحمد ذاته، حتى اضطرَّ إلى الهجرة، حكى مكرهم في دين محمد، سواء بادِّعاء القدرة على الإتيان بمثل القرآن، أو بوصفه بأنه أساطير الأولين أي قصص السابقين المسطورة في الكتب دون تمحيص ولا تثبُّت من صحَّتها.

التفسير والبيان:

واذكر يا محمد حين قالت قريش: اللهم إن كان هذا القرآن هو الحقّ المنزّل من عندك، فعاقبنا بإنزال حجارة ترجمنا بها من السَّماء، كما عاقبت أصحاب الفيل، أو ائتنا بعذاب مؤلم سوى ذلك.

وهذا إخبار من الله تعالى عن كفر قريش وعتوِّهم وتمرُّدهم وعنادهم وادِّعائهم الباطل حين سماع آيات الله تتلى عليهم أنهم قالوا كما بيَّنا سابقاً: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ وقولهم: إن القرآن أساطير الأولين، وإن هذا مقطوع بكذبه واختلاقه، فلو كان حقّاً لأنزل علينا الحجارة أو العذاب الأليم.

ومرادهم إنكار كونه حقّاً منزلاً من عند الله، وأنهم لا يتبعونه، وإن كان هو الحقّ المنزل من عند الله، بل يفضلون الهلاك، وأنهم يتهكَّمون بقول من يقول: القرآن حقّ، وهو غاية الجحود والإنكار، وهو من كثرة جهلهم وشدَّة تكذيبهم وعنادهم وعتوِّهم، ومثل من أمثال حماقتهم حين طلبوا تعجيل العذاب، وتقديم العقوبة، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٥٣]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ٣٨/ ١٦].

ثم ذكر الله تعالى سبب إمهالهم بالعذاب، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ أي وما كان من مقتضى سنَّة الله ورحمته وحكمته أن يعذِّبهم، والرَّسول موجود بينهم؛ لأنه إنما أرسله رحمة للعالمين لا عذاباً ونقمة، وما عذَّب الله أمَّة ونبيُّها فيها، قال ابن عباس: لم يعذِّب أهل قرية، حتى يخرج النَّبي ﷺ منها والمؤمنون، ويلحقوا بحيث أمروا.

وما كان ليعذِّبهم عذاب الاستئصال في الدُّنيا الذي عذَّب بمثله بعض الأُمم السَّالفة، وهم يستغفرون. ومن هم المستغفرون؟ قال ابن عباس: هم الكفار، كانوا يقولون في الطَّواف: غفرانك. والاستغفار، وإن وقع من الفجّار يُدفع به ضروب من الشُّرور والإضرار. وقيل: إن الاستغفار راجع إلى المسلمين المستضعفين الذين هم بين أظهرهم، أي وما كان الله معذِّبهم، وفيهم من يستغفر من المسلمين، فلما خرجوا عذَّبهم الله يوم بدر وغيره.

وقيل: إن الاستغفار هنا يراد به الإسلام، أي وهم يسلمون، أي يسلم بعضهم إثر بعض، أو يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه.

وبعد أن نفى الله عنهم عذاب الاستئصال في الدُّنيا، أثبت احتمالاً آخر، وهو إمكان تعذيبهم دون عذاب الاستئصال عند وجود المقتضي وزوال المانع، فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أي ولِمَ لا يعذِّبهم الله بعذاب آخر، وأي شيء يمنع من إنزال عذاب أخف من ذلك العذاب؟ بسبب أنهم يمنعون الناس عن المسجد الحرام ولو لأداء النُّسك؟ فقد كانوا يمنعون المسلم من دخول المسجد الحرام، وأخرجوا النَّبي ﷺ وصحبه من المسجد الحرام. فهم أهل لأن يعذِّبهم الله، ولكن لم يوقع ذلك بهم؛ لبركة مقام الرَّسول ﷺ بين أظهرهم.

فمن كانت هذه حالته لم يكن وليّاً للمسجد الحرام، فهم أهل للقتل بالسَّيف والمحاربة، فقتلهم الله وعذَّبهم يوم بدر، حيث قتل رؤوس الكفر كأبي جهل وأسر سراتهم، وأعزَّ الإسلام بذلك.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي ولاة أمره وأربابه، فإنهم كانوا يقولون: نحن أولياء البيت الحرام، نصدّ من نشاء، وندخل من نشاء، فردَّ الله عليهم بقوله: وما كانوا مستحقِّين للولاية والإشراف عليه، مع شركهم وعداوتهم للنَّبي ﷺ.

وما أولياؤه وحماته إلا المتَّقون من المسلمين، فليس كلّ مسلم أيضاً ممن يصلح لأن يلي أمره، إنما يستأهل ولايته من كان برّاً تقيّاً، فكيف بالكفرة عبدة الأصنام؟!

ولكن أكثرهم لا يعلمون بأن المتَّقين أولياؤه، فهم الآمنون من عذابه.

ثم بيَّن الله تعالى سبب عدم أهليتهم لأن يكونوا أولياء البيت، وهو أن صلاتهم عند البيت وتقرُّبهم وعبادتهم إنما كان تصفيراً وتصفيقاً، لا يحترمون حرمة البيت ولا يعظِّمونه حقَّ التَّعظيم. قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت عراةً تصفِّر وتصفِّق. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: كانوا يعارضون النَّبي ﷺ في الطَّواف، ويستهزئون به، ويصفِّرون، ويخلطون عليه طوافه وصلاته. وروي مثل ذلك عن مقاتل.

فعلى قول ابن عباس: كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم، وعلى قول مجاهد ومقاتل وابن جبير: كان إيذاء للنَّبي ﷺ. قال الرّازي: والأوّل أقرب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

فذوقوا عذاب القتل والأسر يوم بدر، بسبب كفركم وأفعالكم التي لا يقدم عليها إلا الكفرة. وهذا هو العذاب الذي طلبتموه.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمَّنت الآية بيان مدى الحماقة من المشركين، حين استعجلوا إنزال العذاب، وبيان كرامة النَّبي ﷺ وتعظيمه حيث رفع عن الأمَّة عذاب الاستئصال بسبب وجوده بينهم، أو بسبب الاستغفار الحاصل من بعض الناس، الكفار أو المؤمنين، قال المدائني عن بعض العلماء: كان رجل من العرب في زمن النَّبي ﷺ مُسْرِفاً على نفسه، لم يكن يتحرَّج؛ فلما أن توفِّي النَّبي ﷺ لبس الصُّوف، ورجع عمّا كان عليه، وأظهر الدِّين والنُّسُك. فقيل له: لو فعلت هذا والنَّبي ﷺ حيّ لفرح بك. قال: كان لي أمانان. فمضى واحد وبقي الآخر؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ فهذا أمان، والثاني: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وقال ابن عباس: كان فيهم أمانان: نبيّ الله والاستغفار، أما النَّبي ﷺ فقد مضى، وأمّا الاستغفار فهو باقٍ إلى يوم القيامة.

ودلَّت الآية على أنَّ الاستغفار أمان وسلامة من العذاب، وأمّا وجود النَّبي ﷺ بين القوم فهو حائل من العذاب، لا يختص ذلك بنبيِّنا ﷺ، إلا بعد أن يخرج رسولهم منهم، كما كان في حقِّ هود وصالح ولوط.

وتضمَّنت الآية أيضاً استحقاق كفار قريش عذاباً دون عذاب الاستئصال؛ لما ارتكبوا من القبائح والأسباب، ولكن لكل أجل كتاب، فعذَّبهم الله بالقتل والأسر يوم بدر وغيره. ثم أبان الله تعالى سلب الولاية والأهلية عن الكفار على المسجد الحرام، لكفرهم وعداوتهم للنَّبي ﷺ، وانتهاكهم حرمة البيت بالتَّصفير والتَّصفيق، والطَّواف به عراةً، رجالاً ونساء.

إهدار ثواب الإنفاق للصَّدِّ عن سبيل اللَّه

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

القراءات:

﴿لِيَمِيزَ﴾: قرئ:

١- (ليُميِّز) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (ليَمِيز) وهي قراءة الباقين.

البلاغة:

﴿ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ كناية عن المؤمن والكافر، وبين اللفظين طباق.

﴿أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ إشارة بالبعيد إلى الفريق الخبيث، لبيان مدى خسارتهم الفادحة، وبُعْدهم عن الرَّحمة الإلهيَّة.

المفردات اللغوية:

﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ في حرب النَّبي ﷺ. ﴿ثُمَّ تَكُونُ﴾ في عاقبة الأمر. ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندامةً وألماً، لفواتها وتضييعها، وفوات ما قصدوه. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في الدُّنيا. ﴿يُحْشَرُونَ﴾ يساقون. ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلِّق بـ ﴿تَكُونُ﴾، ومعناه يفصل ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ الكافر ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ المؤمن. ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ يجمعه متراكباً بعضه على بعض.

سبب النزول:

قال محمد بن إسحاق - فيما يرويه عن الزُّهري وجماعة -: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجعوا إلى مكَّة، مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أميَّة، في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم، فكلَّموا أبا سفيان، ومن كان له في ذلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إنَّ محمداً قد وَتَرَكم - نقصكم - وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال - أي مال العير الذي نجا - على حربه، فلعلنا أن ندرك منه ثأراً، ففعلوا. ففيهم كما ذكر ابن عباس أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يُحْشَرُونَ﴾ أي إنها نزلت في نفقاتهم لمعركة أُحد.

روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما أن الآية نزلت في أبي سفيان، وما كان من إنفاقه على المشركين في بدر، ومن إعانته على ذلك في أُحد، لقتال رسول الله ﷺ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن عُتَيْبة قال: نزلت في أبي سفيان، أنفق على المشركين أربعين أوقية من ذهب. والأوقية: أربعون مثقالاً من الذَّهب، والمثقال (٢٥.٤ غم).

وأخرج ابن جرير عن ابن أَبْزى وسعيد بن جبير قالا: نزلت في أبي سفيان، استأجر يوم أُحُد ألفين من الأحابيش، ليقاتل بهم رسول الله ﷺ سوى من استجاب له من العرب.

وقال مقاتل والكلبي: نزلت في المُطْعِمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من كبار قريش[(١)].

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى حالة المشركين في الطاعات البدنية وهي الصَّلاة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ بيَّن حالهم في الطاعات المالية، سواء في الإنفاق يوم بدر أو أُحُد.

التَّفسير والبيان:

إنَّ الذين كفروا بالله ورسوله يقصدون من الإنفاق صدّ الناس عن اتِّباع محمد، وهو سبيل الله تعالى.

وحين ينفقون تكون عاقبة هذا الإنفاق لحرب النَّبي ﷺ والصَّدّ عنه في النهاية ندماً وحسرةً، فكأن ذاتها تصير ندماً، وتنقلب حسرة، أي إنها لا تحقِّق المقصود، وإنما تؤدي إلى عكسه وهو الوقوع في الحسرة والنَّدامة: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٢]. لأنها مال ضائع في سبيل الشَّيطان، ولا تؤدِّي إلى النَّصر، وإنما على العكس مصيرها إلى الهزيمة. فهم يُغلبون وينكسرون، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢١].

---

(١) وهم أبو جهل بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، ونبيه ومنبه ابنا حجاج، وأبو البحتري بن هشام، والنضر بن الحارث، وحكيم بن حزام، وأُبيّ بن خلف، وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، والعباس بن عبد المطلب، وكلهم من قريش، وكان يطعم كلّ واحد منهم كل يوم عشرة من الجزور.

هذا عذابهم في الدُّنيا: ضياع المال والهزيمة، وعذابهم في الآخرة أنهم يساقون إلى جهنَّم، إذا أصرّوا على كفرهم وماتوا وهم كفار؛ لأن منهم من أسلم وحسن إسلامه.

أما المسلمون إذا أنفقوا أموالهم في سبيل الله، فتحقَّق إما النَّصر في الدُّنيا، وإمّا الثَّواب في الآخرة، أو الأمران معاً وسعادة الدَّارين.

وقد كتب الله النَّصر للمؤمنين، والهزيمة للكافرين، وضياع أموالهم، وإيقاع الحسرة والألم في قلوبهم، ليميز الفريق الخبيث من الفريق الطَّيب، أي الكافر من المؤمن، فيميز أهل السعادة عن أهل الشَّقاء، ويجعل الخبيث بعضه متراكماً فوق بعض في جهنَّم، أولئك هم الخاسرون في الدُّنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلَّت الآيات على ما يأتي:

١ً - لا يستفيد الكفار من بذل أموالهم في الإنفاق الذي يقصد به الصَّدّ عن سبيل الله، أي منع الناس من دعوة الإسلام، إلا الحسرة والخيبة في الدُّنيا، والعذاب الشَّديد في الآخرة، وهو يوجب الزَّجر العظيم عن ذلك الإنفاق.

٢ً - إن الغلبة والنَّصر يكونان للمؤمنين، والهزيمة والخذلان للكافرين، وسيكون هؤلاء يوم القيامة مسوقين في حال من الذُّل والصَّغار إلى جهنَّم، وبئس المصير.

٣ً - إن تحقيق الغلبة للمؤمنين، وإيقاع الهزيمة بالكافرين إنما بقصد تمييز الفريق الخبيث من الكفار، عن الفريق الطَّيِّب من المؤمنين، فيجعل الفريق الخبيث بعضه على بعض في جهنَّم، فيركمه جميعاً. ويكون قوله: ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلِّقاً بقوله: ﴿يُحْشَرُونَ﴾ والمعنى: أنهم يحشرون ليميز الله الفريق الخبيث من الفريق الطَّيِّب.

وقيل: المراد تمييز نفقة الكافر على عداوة محمد ﷺ، عن نفقة المؤمن في جهاد الكفار، كإنفاق أبي بكر وعثمان في نصرة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، فيضمّ تعالى تلك الأُمور الخبيثة بعضها إلى بعض، فيلقيها في جهنّم ويعذّبهم بها، ويكون قوله: ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلّقاً بقوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾. ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وهو إشارة إلى الذين كفروا.

المغفرة للكفّار إذا أسلموا وقتالهم إذا لم يسلموا لمنع الفتنة في الدِّين

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)﴾

القراءات:

﴿سُنَّتُ﴾:

رسمت بالتاء، فوقف عليها بالهاء، ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي. ووقف الباقون بالتاء.

المفردات اللغوية:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه، أي قل لأجلهم هذا القول وهو: ﴿إِن يَنتَهُوا﴾ عن الكفر وقتال النّبي ﷺ ومعاداته بالدُّخول في الإسلام، وليس المراد أنك تخاطبهم به، وإلا لقيل: إن تنتهوا يغفر لكم. ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من أعمالهم، و﴿يُغْفَرْ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول، والاسم الموصول (ما) هو نائب الفاعل والغافر هو الله. ﴿وَإِن

﴿يَعُودُواْ﴾ إلى قتاله. ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي تقررت سنّتنا في الذين تحزّبوا على الأنبياء بالتّدمير والهلاك، فكذا نفعل بهم. ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ﴾ توجد. ﴿فِتْنَةٌ﴾ لا يوجد فيهم شرك. ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ وحده ولا يعبد غيره وتضمحلّ عنهم الأديان.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عن الكفر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم به على انتهائهم عن الكفر وإسلامهم.

المناسبة:

لما بيّن الله تعالى صلاة المشركين وعباداتهم البدنيّة، ثم عباداتهم المالية، وصدَّهم عن سبيل الله وقتال رسوله والمؤمنين، أرشدهم إلى طريق الصّواب، ورغّبهم في دخول الإسلام، وفتح لهم باب الرّحمة الواسعة والفضل الكبير، فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ﴾ الآية.

التفسير والبيان:

قل أيُّها الرّسول لأجل الذين كفروا كأبي سفيان وأصحابه: إن ينتهوا عما هم فيه من الكفر والعناد ومعاداة النّبي ﷺ، ويدخلوا في الإسلام والطّاعة والإنابة، يغفر لهم ما قد سلف، أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء في الصّحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من أحسن في الإسلام، لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخذ بالأوّل والآخر».

وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يَجُبُّ ما قبله، والتوبةُ تَجُبُّ ما كان قبلها».

وروى مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: فلما جعل الله الإيمان في قلبي أتيت النّبي ﷺ، فقلت: ابْسُطْ يدك أُبايعْك، فبسط يده

فقبضت يدي، قال: مالَكَ؟ قلت: أردت أن أشترط. قال: ماذا تشترط؟ قلت: أن يُغفَرَ لي، قال: «أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدِم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحجَّ يهدم ما كان قبله؟».

وإن يعودوا إلى حظيرة الكفار والصَّدِّ والعناد والقتال، أي يستمروا على ما هم عليه، أجريت عليهم سنَّتي المطردة في تدمير وإهلاك المكذِّبين السَّابقين الذين كذَّبوا أنبيائي وتحزَّبوا ضدَّهم، كما حدث لقريش يوم بدر وغيره، وظهر وعد الله القائل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٥١].

وهذا وعيد شديد لهم بالدَّمار إن لم يتركوا الكفر والعناد.

ثم بيَّن الله تعالى حكم هؤلاء الكفار إن عادوا للكفر واستمروا عليه، فهم متوعَّدون بسنَّة الأولين، وحكمهم: أن الله أمر بقتالهم إذا أصرّوا فقال: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي وقاتلوا أيها المسلمون قتالاً عنيفاً أعداءكم المشركين، حتى لا يبقى شرك أبداً، ولا يعبد إلا الله وحده، ولا يفتن مؤمن عن دينه، ويخلص التَّوحيد لله، فيقال: لا إله إلا الله، وتضمحل الأديان الباطلة، ولا يبقى إلاّ دين الإسلام، وذلك في أرض مكَّة وما حواليها من جزيرة العرب، لقوله عليه الصَّلاة والسَّلام فيما رواه البيهقي من حديث مالك عن الزهري: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»، قال الرّازي: ولا يمكن حمله على جميع البلاد؛ إذ لو كان ذلك مراداً لما بقي الكفر فيها، مع حصول القتال الذي أمر الله به(١).

فيكون الغرض من القتال هو التَّمكين من حرية التَّدين، فلا يُكره أحد على ترك عقيدته، كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦].

---

(١) تفسير الرّازي: ١٥/ ١٦٤.

فإن انتهوا عن الكفر وعن قتالكم، فكفّوا عنهم وإن لم تعلموا بواطنهم، فإن الله بما يعملون بصير، أي فإن الله عليم بأعمالهم، يجازيهم عليها بحسب علمه.

وإن تولوا وأعرضوا عن سماع دعوتكم، ولم ينتهوا عن كفرهم، فلا تهتموا بأمرهم، واعلموا أن الله متولِّي أُموركم وناصركم، فلا تبالوا بهم، ومن كان الله مولاه وناصره، فلا يخشى شيئاً، إنه نعم المولى، ونعم النصير، فلا يضيع من تولاه، ولا يُغلَب من نصره الله.

ولكن نصر الله مرهون بأمرين: الإعداد المادي والمعنوي للجهاد كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠]. ونصرة دين الله وتطبيق شرعه وتنفيذ أحكامه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٤٧/ ٧].

أما الاتِّكال على مجرَّد الاتِّصاف بالإسلام قولاً لا عملاً، وطلب النَّصر بخوارق العادات، والأدعية فقط، دون إعداد ولا تحقيق الصفة الإسلامية الحقَّة التي اتَّصف بها السَّلف الصالح، فلا يحقق شيئاً من النَّصر المرتجى على العدو في فلسطين وغيرها من بلاد الإسلام المعتدى عليها، أو المحتلَّة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلَّت الآية الأولى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ على مزيد فضل الله وفتح باب رحمته، أمام الكفار، فإنهم إن يسلموا يغفر الله لهم ما سلف من كفر، وما ارتكبوا من ذنوب، وما قصروا من أداء واجبات نحو ربِّهم، فلا يطالبون بقضاء العبادات البدنيَّة والماليَّة، ويبدؤون صفحة جديدة مشرقة بالإسلام النَّقي الطَّاهر، لقوله عليه الصَّلاة والسَّلام فيما رواه ابن سعد عن الزبير وعن جبير بن مطعم: «الإسلام يجبُّ ما قبله».

قال مالك: من طلَّق في الشِّرك ثم أسلم، فلا طلاق له، ومن حلف فأسلم، فلا حنث عليه، فهو مغفور له. ولو زنى وأسلم، أو اغتصب مسلمة، ثم أسلم: سقط عنه الحدّ. ولا خلاف في إسقاط ما فعله الكافر الحربي في حال كفره في دار الحرب. أما لو دخل إلينا بأمان فقذف مسلماً، فإنه يحدُّ، وإن سرق قُطِع، وكذلك الذِّمي إذا قذف، حدّ ثمانين جلدة، وإذا سرق قطع، وإن قتَل قُتِل، ولا يسقط الإسلام ذلك عنه لنقضه العهد حال كفره.

أمّا المرتد إذا أسلم، وقد فاتته صلوات، وأصاب جنايات، وأتلف أموالاً، فقال أبو حنيفة ومالك: ما كان لله يسقط، وما كان للآدمي لا يسقط؛ لأن الله تعالى مستغنٍ عن حقِّه، والآدمي مفتقر إليه، ولأن إيجاب قضاء العبادات ينافي ظاهر هذه الآية. وفي قول الشافعي: يلزمه كلّ حقّ لله عزَّ وجلَّ وللآدمي بدليل أن حقوق الآدميين تلزمه، فوجب أن تلزمه حقوق الله تعالى.

فإن عاد الكفار إلى قتال المسلمين، قوتلوا.

والصَّحيح - كما ذكر الرّازي - أن توبة الزِّنديق مقبولة، لأن هذه الآية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ تتناول جميع أنواع الكفر، ولقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٥]. ولأن أحكام الشَّرع مبنيَّة على الظواهر؛ لأن القاعدة تقول: «نحن نحكم بالظاهر، والله يتولّى السَّرائر».

واحتجَّ الحنفيَّة بهذه الآية على أنَّ الكفار حال كفرهم ليسوا مخاطبين بفروع الشرائع، بدليل أنهم لا يؤاخذون بشيء مما ارتكبوه في زمان الكفر.

ودلَّت آية: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ على وجوب القتال، حتى تزول فتنة المسلم عن دينه، وتتأكد حرية الاعتقاد والتَّديُّن. وأما قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ فهو إما أن يقيّد في جزيرة العرب، فلا يجتمع

فيها دينان كما بيَّنا، وإما أن يكون الغرض النَّظري لا الفعلي هو إنهاء الكفر من جميع العالم، وهذا كما ذكر الرّازي مجرَّد أمل وغرض أو هدف؛ لأنه ليس كلّ ما كان غرضاً للإنسان، فإنه يحصل، فسواء حصل أو لم يحصل، يكون الأمر بالقتال لتحصيل هذا الغرض، وإن لم يتحقق في الأمر نفسه.

نهاية الجزء التاسع ولله الحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء العاشر

كيفية قسمة الغنائم

﴿۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

الإعراب:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ ما: اسم موصول بمعنى الذي، و﴿غَنِمْتُم﴾: صلته، والعائد إليه محذوف، تقديره: غنمتموه. ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾: خبر مبتدأ محذوف تقديره: فحكمه أن لله خمسه.

البلاغة:

﴿مِّن شَيْءٍ﴾ التنكير للتقليل.

﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ هو النبي ﷺ، ذكر بلفظ العبودية وأضيف إلى الله للتشريف والتكريم.

المفردات اللغوية:

﴿غَنِمْتُم﴾ أخذتم من الكفار قهراً، والغنيمة: ما أخذ من الكفار في الحرب قهراً وفيه الخمس. أما الفيء: فهو ما أخذ من الأعداء بلا حَرْب أو صلحاً كالجزية وعشر التجارة، وليس فيه الخمس. وهذه التفرقة مبنية على العرف. وقال بعضهم: الغنيمة: ما أخذ من مال منقول، والفيء: الأرضون. والنفل: ما يحصل للإنسان من الغنيمة قبل قسمتها. وقال قتادة: الغنيمة والفيء بمعنى واحد، وزعموا أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر التي جعلت الفيء كله لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وهذه

الآية جعلت لهم الخمس فقط. والظاهر أن الغنيمة والفيء مختلفان ولا نسخ، إذ لا ضرورة له، والنسخ يلجأ إليه عند الضرورة.

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ يأمر فيه بما يشاء. ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم، وهم فقراء. ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ ذوي الحاجة من المسلمين. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المنقطع في سفره عن بلده من المسلمين، أي أن الخمس يستحقه النبي ﷺ والأصناف الأربعة المذكورة، على ما كان يقسمه من أن لكل خمس الخمس.

﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر، الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل. ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ المسلمون والكفار. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ صاحب القدرة المطلقة على كل الأشياء، ومنها نصركم مع قلتكم وكثرتهم.

المناسبة:

لما أمر الله بمقاتلة الكفار في قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ وكان القتال عادة مستتبعاً إحراز الغنائم منهم، ذكر تعالى حكم الغنيمة وقد نزلت هذه الآية في غزوة بدر، وكان ابتداء فرض قسمة الغنائم فيها.

التفسير والبيان:

هذه الآية تفصيل لما أجمل حكمه في بدء سورة الأنفال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ فأبان تعالى أن حكمها لله، ويقسمها الرسول ﷺ على ما أمره الله به، وفي هذه الآية تفصيل لحكم الغنائم التي اختص الله هذه الأمة بإحلالها، وأنها تقسم أخماساً، فيجعل الخمس لمن ذكرتهم الآية، والأربعة الأخماس الباقية للغانمين كما أوضحت السنة، وهي أنها تقسم للجيش المقاتل: للراجل سهم، وللفارس سهمان أو ثلاثة أسهم، بدليل بيان هذا الخمس والسكوت عن الباقي في قوله تعالى: ﴿غَنِمْتُم﴾ قال القرطبي: أضاف الله الغنيمة

للغانمين، ثم عين الخمس لمن سمّى في كتابه، وسكت عن الأربعة الأخماس، فدل على أنها ملك للغانمين، كما سكت عن الثلثين في قوله: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ فكان للأب الثلثان اتفاقاً، وكذا الأربعة الأخماس للغانمين إجماعاً[1].

والغنيمة كما أوضحت: ما دخلت في أيدي المسلمين من أموال المشركين على سبيل القهر.

والأصناف المذكورة في الآية ستة، قيل عن أبي العالية: إن سهم الله يصرف في الكعبة، وأجيب بأن تعمير بيوت الله حق على المسلمين، والراجح المشهور أو المجمع عليه أن خمس الغنائم يقسم على خمسة أصناف، وقوله: ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾: افتتاح كلام للتبرك بذكر اسم الله وتعظيمه، وافتتاح الأمور باسمه وبيان تفويض كل شيء إليه، فهو يحكم بما يشاء، ولله الدنيا والآخرة. والأصناف الخمسة هي:

١ً- سهم الرسول ﷺ يضعه حيث شاء. قال عمر بن عبد العزيز: قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ يعني في سبيل الله، قال ابن العربي: وهذا هو الصحيح كله.

٢ً- سهم ذوي القربى: أي قرابة الرسول ﷺ، وهم على الراجح بنو هاشم وبنو المطلب، وهو رأي الشافعي وأحمد وآخرين؛ لما أخرجه البخاري والنسائي: أن النبي ﷺ لما قسم سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني عبد المطلب قال: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو المطّلب شيء واحد» وشبك بين أصابعه. قال البخاري: قال الليث: حدثني يونس، وزاد: ولم يَقْسم النبي ﷺ لبني عبد شمس ولا لبني نَوْفَل شيئاً. قال ابن

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/٣، ١٣

إسحاق: وعبد شمس وهاشم والمطلب إخوة لأم، وأمّهم: عاتكة بنت مُرَّة، وكان نوفل أخاهم لأبيهم. وقال النسائي: وأسهم النبي ﷺ لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، بينهم الغني والفقير.

وتفصيل القصة فيما أخرج ابن جرير الطبري عن جبير بن مُطْعِم (من بني نوفل) قال: لما قسم رسول الله ﷺ سهم ذي القربى من خيبر على بني هاشم وبني المطلب، مشيت أنا وعثمان بن عفان رضي الله عنه (من بني عبد شمس)، فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء إخوتك بنو هاشم، لا ننكر فضلهم، لمكانك الذي جعلك الله به منهم، أرأيت إخواننا بني المطلب، أعطيتهم وتركتنا[١]، وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» ثم شبَّك رسول الله يديه، إحداهما بالأخرى. وذلك أن بني هاشم وبني المطلب دخلوا في مقاطعة في شِعْب مكة بموجب الصحيفة التي كتبتها قريش، لحمايتهم النبي ﷺ، ولم يدخل بنو عبد شمس وبنو نوفل. وكان بنو أمية بن عبد شمس في عداوة لبني هاشم في الجاهلية والإسلام.

وأما بعد وفاة الرسول ﷺ، فعند الشافعي رحمه الله، ورأيه مطابق لظاهر الآية: أنه يقسم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ، يصرف إلى ما كان يصرف إليه من مصالح المسلمين، كالإعداد للجهاد من شراء السلاح والخيول ونحوها، وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم، يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين، والباقي للأصناف الثلاثة: وهم اليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: إن سهم رسول الله ﷺ بعد وفاته ساقط بسبب موته، وكذلك سهم ذوي القربى، وإنما يعطون لفقرهم، ولا يعطى

---

(١) أي أنهما من بني عبد شمس وبني نوفل.

أغنياؤهم، فيقسم الخمس على ثلاثة أسهم، على اليتامى والمساكين وابن السبيل.

وقال مالك رحمه الله: الأمر في الخمس مفوض إلى رأي الإمام، ويجعل في بيت المال، إن رأى قسمته على هؤلاء المذكورين في الآية فعل، وإن رأى إعطاء بعضهم دون بعض، فله ذلك.

وكأن مالكاً والمالكية رأوا أن ذكر هذه الأصناف على سبيل المثال، وهو من باب الخاص أريد به العام. وأصحاب الأقوال المتقدمة رأوا أنه من باب الخاص أريد به الخاص.

واستدل المالكية بأخبار وردت في السيرة هي:

أ - روي في الصحيح أن النبي ﷺ بعث سرية قبل نجد، فأصابوا في سهمانهم اثني عشر بعيراً، ونُفِّلوا بعيراً بعيراً.

ب - قال النبي ﷺ في أُسارى بدر: «لو كان المُطْعِم بن عَديّ حياً، وكلمني في هؤلاء النتنى، لتركتهم له».

جـ - رد النبي ﷺ سبي هوازن، وفيه الخمس.

د - قال ﷺ: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم».

هـ - روي في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: آثر النبي ﷺ يوم حنين أناساً في الغنيمة، فأعطى الأقرع بن حابس مئة من الإبل، وأعطى عُيَيْنة بن حِصْن مئة من الإبل، وأعطى ناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله، إن هذه القسمة ما عُدِل فيها، أو: ما أريد بها

وجه الله، فقلت: والله لأخبرن النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: «يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا، فصبر»[(١)].

وذكر النسائي عن عطاء قال: خمس الله وخمس رسوله واحد، كان رسول الله ﷺ يحمل منه، ويعطي منه، ويضعه حيث شاء، ويصنع به ما شاء.

كل هذه الأدلة تدل على أن توزيع الخمس مفوض للإمام، وأن بيان المصارف في الآية بيان المصرِف والمحل، لا بيان الاستحقاق والملك، كما ذكر القرطبي؛ إذ لو كان استحقاقاً وملكاً، لما جعله رسول الله أحياناً في غيرهم.

٣ - اليتامى: وهم أطفال المسلمين الذي هلك آباؤهم.

٤ - المساكين: وهم أهل الحاجة من المسلمين.

٥ - ابن السبيل: وهو المجتاز سفراً قد انقطع به.

ثم قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي امتثلوا ماشرعنا لكم من الخمس في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله، أو اعلموا أن ما غنمتم من شيء، فخمس الغنيمة مصروف إلى هذه الأصناف الخمسة، فاقطعوا عنه أطماعكم، واقنعوا بالأخماس الأربعة إن كنتم صدقتم بالله وبما أنزله على رسوله، يوم بدر: يوم الفرقان الذي فرقنا فيه بين الحق والباطل، فنصرنا المؤمنين على الكافرين، وذلك يوم التقى الجمعان، أي الفريقان من المسلمين والكافرين، لسبع عشرة خلت من رمضان، وهو أول قتال شهده الرسول ﷺ، والله على ذلك وغيره قدير، يقدر على نصركم وأنتم قلّة، ولا يمتنع عليه شيء أراده، وينجز وعده لرسوله.

والمراد من الآية التحذير من تجاوز حدود الله في أي وقت، وليس المراد

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٢/٨٤٦

أخذ العلم فقط، بل العلم المقترن بالعمل والاعتقاد، والإيمان بالله والرسول والمنزل عليه واليوم الآخر من دواعي العلم بأن لله حق التصرف في الأشياء، وله تفويض القسمة إلى رسوله، يقسم الخمس بين هذه الأصناف؛ لأن النصر من عند الله، وهو الذي أمدكم بالملائكة. وجواب الشرط دل عليه المذكور وهو: فاعملوا وانقادوا وسلّموا لأمر الله فيما أعلمكم به من القسمة، وقد عدل عن (اعلموا) لأن المراد هو العمل، وليس العلم والاعتقاد، فقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله في الغنائم.

فقه الحياة أو الأحكام:

الآية خطاب للمسلمين من غير خلاف، لا مدخل فيه للكفار ولا للنساء، خوطب به المقاتلون من المسلمين.

وقد أرشدت الآية إلى أن **خمس الغنيمة** يصرف لخمسة أصناف، ودلت دلالة ضمنية على أن الأربعة الأخماس الباقية ملك للغانمين، فذلك مفهوم من السكوت عن الأربعة الأخماس، فتقسم بين الغانمين[(١)].

وأرشدت الآية أيضاً إلى أنه: إن كنتم آمنتم بالله، فاحكموا بهذه القسمة، وهو يدل على أنه متى لم يحصل الحكم بهذه القسمة، لم يحصل الإيمان بالله. وفي الآية تسمية يوم بدر بيوم الفرقان.

وهذه الآية مبيِّنة لإجمال أول سورة الأنفال، وقد ادعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية نزلت بعد قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغانمين.

وجمهور العلماء على أن **هذه الآية مخصوصة بأمور ثلاثة هي**: أن سَلَبَ

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٥١

المقتول لقاتله إذا نادى به الإمام، أي أعلن عنه قبل المعركة، وكذلك الأسارى، الاختيار فيهم إلى الإمام بلا خلاف، وكذلك الأرض غير داخلة في عموم هذه الآية في رأي الجمهور؛ لما روى أبو داود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لولا آخر الناس، ما فتحتُ قرية إلا قسمتُها، كما قسم رسول الله ﷺ خَيْبر». وأما الذي يقسم فهو المنقول الذي ينقل من موضع إلى آخر.

وقال الشافعي: كل ما حصل من الغنائم من أهل دار الحرب من شيء، قلّ أو كثُر من دار أو أرض أو متاع أو غير ذلك، قسم؛ إلا الرجال البالغين، فإن الإمام مخير فيهم بين أن يمنَّ أو يقتل أو يسبي، واستدل بعموم هذه الآية، وقال: والأرض مغنومة لا محالة، فوجب أن تقسم كسائر الغنائم، وقد قسم رسول الله ﷺ ما افتتح عَنْوة من خيبر. ولو جاز أن يدّعى الخصوص في الأرض، جاز أن يدّعى في غير الأرض، فيبطل حكم الآية. وأما آية (الحشر) فلا حجة فيها؛ لأن ذلك إنما هو في الفيء لا في الغنيمة. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ استئناف كلام بالدعاء لمن سبقهم بالإيمان، لا لغير ذلك. وفعل عمر في وقف الأرض المفتوحة إما أن يكون ما وقفه فيئاً، فلم يحتج إلى مراضاة أحد، وإما أن يكون غنيمة استطاب أَنْفُسَ أهلها، وطابت بذلك فوقفها، روى جرير أن عمر استطاب أنفسَ أهلها، وكذلك صنع رسول الله ﷺ في سَبْي هَوَازِن، لما أتوه استطاب أنفس أصحابه عما كان في أيديهم.

وقال الحنفية: يخير الإمام في قسمة الأرض، أو إقرارها بيد أهلها، وتوظيف الخراج عليها، وتصير ملكاً لهم كأرض الصلح.

وأما السَّلَب: فهو في رأي مالك وأبي حنيفة والثوري، ليس للقاتل، حكمه حكم الغنيمة، إلا أن يقول الأمير: من قتل قتيلاً فله سلبه، فيكون

حينئذ له، أي إن هذا القول تصرف من النبي ﷺ بطريق الإمامة والسياسة، فيحتاج إلى إذن متجدد من الحاكم.

وذهب الليث والأوزاعي والشافعي وآخرون إلى أن السلب للقاتل على كل حال، سواء قاله الإمام أو لم يقله، لكن يستحقه القاتل في رأي الشافعي إذا قتل قتيلاً مقبلاً عليه، غير مدبر عنه، أي إن هذا القول صادر من النبي ﷺ بطريق التبليغ للوحي أو النبوة، فلا يحتاج إلى إذن أصلاً من الحاكم.

ولا يخمس السلب في رأي الشافعي؛ لما رواه أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي وخالد بن الوليد أن رسول الله ﷺ قضى في السلب للقاتل، ولم يخمِّس السلب.

وذهب جمهور العلماء إلى أن السلب لا يعطى للقاتل، إلا أن يقيم البيِّنة على قتله. وقال أكثرهم: يجزئ شاهد واحد؛ عملاً بحديث أبي قتادة، وقيل وهو رأي الشافعي: شاهدان أو شاهد ويمين، لأن النبي ﷺ أعطى السلب لأبي قتادة بشهادة الأسود بن خزاعيّ وعبد الله بن أنيس. وقال الأوزاعي والليث: يعطاه بمجرد دعواه، وليست البيِّنة شرطاً في الاستحقاق؛ لأن النبي ﷺ أعطى أبا قتادة سَلبَ مقتوله من غير شهادة ولا يمين.

ولا يحتاج في مذهب المالكية إلى بيّنة؛ لأنه من الإمام ابتداء عطية.

والسلَب بالاتفاق يشمل السلاح وكل ما يحتاج للقتال. أما الفرس فقال أحمد: ليس من السلب. وأما ما معه من نقود أو جواهر فلا خلاف في أنه ليس من السلب. وأما ما يتزين به للحرب فهو من السلب في رأي الأوزاعي، وقال جماعة: ليس من السلب.

وليس في كتاب الله تعالى دلالة على تفضيل الفارس على الراجل، واختلف العلماء في ذلك، فذهب الجمهور إلى أنه يسهم للفارس سهمان، وللراجل

سهم وهو الصحيح؛ وذلك لكثرة الغَنَاء وعظم المنفعة، بدليل ما روى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهماً.

ولا يعطى في رأي مالك والشافعي لأكثر من فرس واحد، لأن القتال يكون على فرس واحد، والزائد رفاهية، وقال أبو حنيفة: يسهم لأكثر من فرس واحد؛ لأنه أكثر غَنَاء وأعظم منفعة.

وسبب استحقاق الجندي السهم هو شهود الوقعة، لنصر المسلمين، لقول عمر: «إنما الغنيمة لمن شهد الوقعة» فلو شهد آخر الوقعة استحق، ولو حضر بعد انقضاء القتال فلا. ومن غاب أو حضر مريضاً فلا سهم له؛ لأن رسول الله ﷺ لم يسهم لغائب قط إلا يوم خيبر، فإنه أسهم لأهل الحديبية، من حضر منهم ومن غاب، لقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾.

وأما المدد الذي يلحق الجيش في دار الحرب قبل إحراز الغنيمة، فقال الحنفية: إذا غنموا في دار الحرب، ثم لحقهم جيش آخر قبل إخراجها إلى دار الإسلام، فهم شركاء فيها. وقال الأئمة الآخرون: لا يشاركونهم[1].

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/٥٦

تكثير المؤمنين ببدر في أعين المشركين وتقليل المشركين في أعين المؤمنين

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ
وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا
لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ
وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ
يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا
كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

القراءات:

﴿بِالْعُدْوَةِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (بالعِدوة).

﴿حَيَّ﴾:

قرئ:

١- (حيّ) وهي قراءة قنبل، وأبي عمرو، وابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (حِييَ) وهي قراءة الباقين.

﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾:

قرئ:

١- (تَرجِعُ الأمور) وهي قراءة ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تُرْجَع الأمور) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿إِذْ أَنتُم﴾ ﴿إِذْ﴾: بدل من قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ و﴿بِٱلْعُدْوَةِ﴾: بضم العين وكسرها، و﴿ٱلْقُصْوَىٰ﴾: حقها أن يقال: القُصيا مثل الدنيا، إلا أنه جاء شاذاً. والركب: (اسم جمع، وليس بجمع تكسير لراكب) بدليل تصغيره على رُكيب، إذ لو كان جمع تكسير لقيل: رويكبون، كما يقال في تكسير شاعر: شويعرون، يرد إلى الواحد ثم يصغر، ثم يؤتى بعلامة الجمع. و﴿وَٱلرَّكْبُ﴾: مبتدأ، و﴿أَسْفَلَ﴾: خبره، وهو وصف لظرف محذوف، تقديره: والركب مكاناً أسفل منكم.

﴿لِّيَقْضِيَ﴾ متعلق بمحذوف، أي ليقضي أمراً كان واجباً أن يفعل وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه. و﴿لِّيَهْلِكَ﴾ بدل منه.

﴿حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ حي: فيه إدغام، أصله حيي وأدغم للزوم الحركة في آخره، وقرئ بالإظهار أي بفك الإدغام للحمل على المستقبل، أي لإجراء الماضي على المستقبل، والمستقبل لا يجوز فيه الإدغام، فلا يقال: يَحَيّا.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ﴾ ﴿إِذْ﴾: في موضع نصب بفعل مقدر، تقديره: واذكر إذ يريكهم الله.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ إذ: معطوف على ﴿إِذْ﴾ الأولى، ورَدَّت الواو ميم الجمع مع الضمير. والضميران مفعولان.

البلاغة:

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بين الدنيا والقصوى طباق. ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ استعار الهلاك والحياة للكفر والإيمان أو الإسلام.

المفردات اللغوية:

﴿إِذۡ﴾ بدل من يوم في قوله ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾. ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي أنتم كائنون بشط الوادي أو جانبه، و﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: القربى أي القريبة من المدينة. ﴿وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ أي البعدى من المدينة وهي مؤنث الأقصى. ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ أي العير كائنون بمكان أسفل منكم أي مما يلي البحر. ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ﴾ أنتم والنفير للقتال. ﴿وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ﴾ جمعكم بغير ميعاد، ليحقق أمراً كان مفعولاً في علمه، وهو نصر الإسلام ومحق الكفر. ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ فعل ذلك ليكفر من كفر بعد حجة ظاهرة قامت عليه، وهي نصر المؤمنين مع قلتهم على الجيش الكثير، أو ليموت من يموت عن بينة عاينها، ﴿وَيَحۡيَىٰ﴾ أي ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها، لئلا يكون له حجة ومعذرة، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة. أي إما أن يستعار الهلاك للكفر، والحياة للإسلام، بمعنى ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بينة، وإما أن يكون اللفظان على الحقيقة. والمراد بمن هلك ومن حيَّ: المشارف للهلاك والحياة أو من هذا حاله في علم الله وقضائه.

﴿فِي مَنَامِكَ﴾ نومك. ﴿قَلِيلٗاۖ﴾ أي عدداً قليلاً، فأخبرت به أصحابك فسرّوا. ﴿لَّفَشِلۡتُمۡ﴾ جبنتم. ﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ اختلفتم. ﴿فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أمر القتال. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾ أي سلمكم من الفشل والتنازع ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما في القلوب.

﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ﴾ أيها المؤمنون. ﴿قَلِيلٗا﴾ نحو سبعين أو مئة، لتقدموا عليهم. ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ ليقدموا ولا يرجعوا عن القتال. وهذا قبل بدء المعركة، أما بعد بدئها فأراهم إياكم مثليهم، كما في آل عمران. ﴿تُرۡجَعُ﴾ تصير.

المناسبة:

الحديث ما يزال عن وقعة بدر، فالله تعالى بعد أن أبان حكم قسمة الغنائم، وصف مشاهد من يوم الفرقان ومواقع الصفين، ومعسكر الجيشين، لتذكير المؤمنين بالنعم العظمى التي أنعم بها عليهم، وامتنانه عليهم حيث نصرهم على من هو أقوى منهم.

التفسير والبيان:

اذكروا أيها المؤمنون ذلك اللقاء الحاسم بينكم وبين المشركين، واشكروه على نصره إياكم فيه، حينما كنتم في مواجهة رهيبة مع الأعداء، إذ كنتم في جانب الوادي القريبة من المدينة وهي أرض رملية تسيخ فيها الأقدام، والمشركون نازلون في جانب الوادي الأخرى البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة، وهي قريبة من الماء، والركب أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة أسفل منكم أي مما يلي جانب البحر أو ساحله، حينما كان أبو سفيان قادماً بقافلته من الشام، في أربعين من قريش، وهم مع أهل مكة يدافعون عنه دفاع المستميت، مما يقوي روحهم المعنوية.

ولو تواعدتم أنتم والمشركون في مكان للقتال، لاختلفتم في الميعاد، خوفاً من القتال؛ لقلتكم وقوة عدد أعدائكم، ولأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله ﷺ.

ولكن تلاقيكم عن غير موعد ولا رغبة في القتال، ليقضي الله ما أراد بقدرته وحكمته وعلمه من إعزاز الإسلام ونصر أهله، وإذلال الشرك وخذلان أهله، ولينفذ أو يحقق أمراً كان مبرماً وواجباً أن يفعل، وهو نصر أوليائه المؤمنين، وقهر أعدائه الكافرين بعد ذلك اللقاء، فيزداد المؤمنون إيماناً، وامتثالاً لأمر الله ويظهروا الشكر له.

وكان لهذا اللقاء أثر آخر على المدى البعيد، وهو أن يموت من يموت من الكفار عن حجة بيِّنة عاينها بالبصر تثبت حقيقة الإسلام، ويعيش من يعيش من المؤمنين عن حجة شاهدها بإعزاز الله دينه، لئلا يكون له حجة ومعذرة، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة التي ترسخ الإيمان، وتدفع إلى صالح الأعمال، وتحقق قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٥].

ويصح تفسير ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ و﴿وَيَحْيَىٰ﴾ بالاستعارة، وهي استعارة الهلاك والحياة للكفر والإسلام، والمعنى: ليكفر من كفر بعد قيام الحجة عليه وظهور الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، أي بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، وبه حقاً كانت موقعة بدر فرقاناً بين الحق والباطل، قامت بها الحجة للمؤمنين بنصرهم كما بشرهم نبيهم، والحجة على الكافرين بهزيمتهم؛ لأنهم جند الباطل.

وتوضيح المعنى: أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره بأنه مبطل، لقيام الحجة عليه. وهذا برهان عملي محسوس، والمحسوسات أو التجارب أوقع أثراً في الاستدلال من البراهين النظرية أو العقلية المجردة.

وإن الله لسميع عليم، أي لا يخفى عليه شيء من أقوال الكافرين والمؤمنين، ولا من عقائدهم وأفعالهم، فهو سميع لما قاله الكافرون، وعليم بأحوالهم، وسميع لدعاء المؤمنين وتضرعهم واستغاثتهم، وعليم بهم وبأنهم يستحقون النصر على أعدائهم، ويجازي كلاً بما يسمع ويعلم.

واذكر أيها النبي إذ يريك الله الكفار في منامك قليلاً أي ضعفاء، فتخبر أصحابك بذلك، فتثبت قلوبهم، وتطمئن نفوسهم.

ولو أراكهم كثيراً أي أقوياء في الواقع لجبنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم، وتنازعتم في شأن القتال؛ إذ منهم قوي الإيمان والعزيمة، ومنهم الضعيف الذي يحسب للأمر ألف حساب.

ولكن الله سلَّم من ذلك الفشل (الجبن) والتنازع، بأن أراكهم قليلاً، إنه تعالى عليم بذات الصدور أي بما تخفيه الصدور، وتنطوي عليه النفوس من شعور الضعف والجزع الذي يؤدي إلى الانثناء عن القتال.

واذكروا أيها الرسول والمؤمنون الوقت الذي يريكم الله الكفار قبل القتال عدداً قليلاً، في رأي العين المجردة، حتى تجرأتم وارتفعت معنوياتكم، ويجعلكم بالفعل قلة في أعين الكفار، فيغتروا، ولا يعدوا العدة لكم، حتى قال أبو جهل: «إنما أصحاب محمد أكَلَة جزور، خذوهم أخذاً، واربطوهم بالحبال» أي إنهم عدد قليل يكفيهم جزور واحد في اليوم، ويشبعهم لحم ناقة.

ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، أي فعل كل ذلك ليمهد للحرب، فتكون سبيلاً في علمه تعالى لنصرة المؤمنين وإعزاز الإسلام، وهزيمة الكافرين وإذلال الكفر والشرك.

روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي، تراهم سبعين؟ قال: لا، بل هم مئة، حتى أخذنا رجلاً منهم، فسألناه، فقال: كنا ألفاً.

وهذا كله قبل القتال، أما في أثنائه فإنهم رأوا المسلمين مثلي عددهم، ليعمهم الفزع وتضعف معنوياتهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أي إن إلى الله مصير الأمور ومردها.

فقه الحياة أو الأحكام:

لقد كانت وقعة بدر أمراً عجباً وقصة مثيرة، فمما لا شك فيه أن عسكر المسلمين في أول الأمر كانوا في غاية الخوف والضعف، بسبب القلة وعدم الأهبة، ونزلوا بعيدين عن الماء، وكانت الأرض التي نزلوا فيها أرضاً رملية تغوص فيها أرجلهم.

وأما الكفار فكانوا في غاية القوة بسبب كثرة العَدَد والعُدَد، وكانوا قريبين من الماء، والأرض كانت صالحة للمشي، وكانت العير خلف ظهورهم، ويتوقعون مجيء المدد من العير إليهم ساعة فساعة.

ثم تغيرت موازين القوى وانعكست القضية، وجعل الله الغلبة للمسلمين، والدمار على الكافرين، فصار ذلك من أعظم المعجزات، وأقوى البينات على صدق محمد ﷺ، فيما أخبر عن ربه من وعد النصر والفتح والظفر. فقوله ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، وهو أن الذين هلكوا إنما هلكوا بعد مشاهدة هذه المعجزة، والمؤمنون الذين بقوا في الحياة شاهدوا هذه المعجزة القاهرة. والمراد من البينة: هذه المعجزة[١].

وقد أراد الله أيضاً من الفريقين كما دل ظاهر قوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ العلم والمعرفة والخير والصلاح.

فإظهار المعجزة وإعلام فريقي المؤمنين والكافرين بالحجة على أحقية الإسلام وبطلان الشرك هو **النوع الأول** من النعم التي أنعم الله بها على أهل بدر.

(١) تفسير الرازي: ١٥/١٦٨

والنوع الثاني من النعم يعرف من قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وهو: تقليل الكافرين في أعين المؤمنين، ليقدموا على القتال بروح معنوية عالية، وبحماسة تحقق النصر والغلبة.

والنوع الثالث من النعم يوم بدر يتبين من قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ وهو أن التقليل الذي حصل في النوم تأكد بحصوله في اليقظة، فهذا في اليقظة، فقلل الله تعالى عدد المشركين في أعين المؤمنين، وقلل أيضاً عدد المؤمنين في أعين المشركين، والحكمة في التقليل الأول: تصديق رؤيا الرسول ﷺ، وتقوية قلوب المؤمنين، وازدياد جرأتهم عليهم. والحكمة في التقليل الثاني: أن المشركين لما استقلوا عدد المسلمين، لم يبالغوا في الاستعداد والتأهب والحذر، فصار ذلك سبباً لاستيلاء المؤمنين عليهم.

والمقصود من ذكر قوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ في موضعين: في الآية ٤٢، وفي الآية ٤٤: هو أن ذكره في الموضع الأول لبيان أن الله تعالى فعل تلك الأفعال من أجل نصر المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ، وللترغيب في اللقاء. وذكره في الموضع الثاني وهو تقليل عدد المؤمنين في أعين المشركين لتوضيح مراد الله تعالى الذي فعل ذلك ليكون سبباً في قلة مبالاة المشركين بالمؤمنين، وعدم مبالغتهم في الاستعداد والحذر، ولإتمام المراد وهو قتل المشركين وإعزاز الدين.

ونبّه تعالى بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زاداً ليوم المعاد.

ومن فضل الله ونعمته وهو **نوع رابع** من النعم أن قوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ كان في ابتداء القتال، فلما شرعوا في القتال عظم المسلمون في أعينهم فكثروا؛ كما قال تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣].

ذكر الله والثبات أمام العدو والطاعة وعدم التنازع

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

الإعراب:

﴿فَتَفْشَلُوا﴾ منصوب بإضمار (أن)، أو مجزوم لدخوله في حكم النهي.

﴿بَطَرًا﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال، أي بَطِرين مرائين صادّين.

البلاغة:

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي قوتكم، وقال الزمخشري: الريح: الدولة، وفيه استعارة، شبهت القوة أو الدولة في نفوذ أمرها وتمشيه بالريح وهبوبها، فقيل: هبت رياح فلان: إذا دالت له الدولة ونفذ أمره.

المفردات اللغوية:

﴿فِئَةً﴾ جماعة، والمراد هنا جماعة كافرة ﴿فَاثْبُتُوا﴾ لقتالهم ولا تنهزموا ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ادعوه بالنصر ﴿تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ تختلفوا فيما بينكم ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ تجبنوا ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قوتكم ودولتكم ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والعون.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ ليمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد

نجاتها ﴿بَطَرًا﴾ البطر: الأشر، والمراد بهما التفاخر بالنعمة، والتكبر والخيلاء. ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي رياء، وهؤلاء هم أهل مكة، حين خرجوا لحماية العير، فأتاهم رسول أبي سفيان، وهم بالجحفة: أن ارجعوا، فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل وقال: حتى نقدم بدراً، نَشْرب بها الخمور، وتُعزَف علينا القيان، ونطعِم بها من حضَرَنا من العرب. فلذلك كان بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم، فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله المؤمنين أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله عز وجل، مخلصين أعمالهم لله.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٧):

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾: أخرج ابن جرير الطبري عن محمد بن كعب القُرَظي قال: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ الآية.

وقال البغوي في تفسيره المطبوع على هامش (الخازن): نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدر، ولهم بغي وفخر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادُّك، وتكذِّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني».

قالوا: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عِيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عِيركم، فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدراً - وكان موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام - فنقيم ثلاثاً، فننحر الجزور، ونُطعَم الطعام، ونُسقى الخمر، وتعزِف

علينا القِيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فوافوها فسُقُوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان.

فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم، وأمرهم بإخلاص النية، والحسبة في نصر دينه، ومؤازرة رسوله ﷺ.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أنواع نعمه على رسوله وعلى المؤمنين يوم بدر، علَّمهم إذا التقوا بفئة (أي جماعة) من المحاربين نوعين من الأدب هما: الثبات أمام العدو في اللقاء، وذكر الله كثيراً، ثم أمرهم بالتحلي بالطاعة والانقياد، أي طاعة الله والرسول، ونهاهم عن التنازع والاختلاف حتى لا يفشلوا (يجبنوا) وتذهب قوتهم ودولتهم.

التفسير والبيان:

هذه الآيات تعليم من الله لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، وهي قواعد ضرورية في الحروب، وأسس للجندية الحقة الحازمة.

وأول هذه الآداب والقواعد:

الثبات أمام العدو حين اللقاء معه، بتوطين النفوس على الصمود والصبر على المبارزة؛ وعدم التحدث بالتولي والفرار، ونظراً لأن هذا العنصر أهم عناصر المواجهة الحربية، فقد بدأ الله به، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ أي إذا حاربتم جماعة من أعدائكم الكفار، فاثبتوا أمامهم في القتال، وإياكم من الفرار من الزحف وتولي الأدبار، فالثبات ركيزة الحروب وسبب للانتصار، والفرار جريمة كبرى يعاقب عليها الله تعالى؛ لأنها خطأ فادح في حق الأمة قاطبة.

ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس، قام فيهم فقال: «يأيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».

وروى عبد الرزاق عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، واذكروا الله، فإن صخبوا وصاحوا، فعليكم بالصمت».

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ مرفوعاً قال: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازة».

والأدب الثاني:

هو ذكر الله كثيراً: بذكره في القلب واللسان، والتضرع والدعاء بالنصر والظفر؛ لأن النصر لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى، وذكر الله في أثناء القتال يحقق معنى العبودية لله، ويشعر بمعنى الإيمان والتفويض لله والتوكل عليه، ويقوي الروح المعنوية، فبذكره تطمئن القلوب، ويؤمّل النصر والفرج، وبدعائه تتبدد الكروب والمخاوف، ويحلو الموت في سبيل الله عز وجل.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي هذا الثبات وذكر الله من وسائل الفوز بالأجر والثواب، والنصر على الأعداء. جاء في الحديث المرفوع: يقول الله تعالى: «إن عبدي كل عبدي: الذي يذكرني، وهو مناجز قِرْنه» أي لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعانتي، فذكر الله تعالى، وعدم نسيانه، والاستعانة به،

والتوكل عليه، وسؤاله النصر على الأعداء، بعد الثبات والصمود والصبر أساس لتحقيق الفوز والغلبة.

وهذا يدل على أن ذكر الله أمر مطلوب في كل أحوال العبد، سلماً وحرباً، صحة ومرضاً، إقامة أو حضراً وسفراً.

والأدب الثالث:

هو الطاعة: طاعة الله والرسول في كل ما أُمر العبد به ونهي عنه، فما أمرنا الله تعالى به ائتمرنا، وما نهانا عنه انزجرنا؛ لأن طاعة الله ورسوله من أسباب تحقيق الفوز والنصر في القتال وغيره، ولأن الطاعة تحقق الانضباط، وتوفر النظام، وتقمع الفوضى والتشتت، وظرف الحرب يقتضي الانضباط واحترام النظام وحبّه في أعلى مستوى وأكمله.

والأدب الرابع:

هو وحدة الصف والكلمة والهدف، وعدم التنازع والاختلاف، فإن توحيد الصف والكلمة أمر أساسي عند لقاء العدو، والتنازع والاختلاف مَدْعاة للفشل والجبن والخيبة وتغلب العدو.

فإياكم والتنازع؛ لأنه مهدر للطاقات، ومقوِّض لبنية الجماعات، وسبيل لإذهاب الحماسة، وتبديد القوة، والعصف بوجود الدولة، وإزالة روح الإقبال والإقدام، فلقد هلكت الأمم باختلافها وكثرة آرائها واعتراضاتها.

والأدب الخامس:

الصبر على الشدائد والمحن، وتحمل بأس العدو، فإن الصبر سلاح القوي المقدام، لذا قيل: الشجاعة: صبر ساعة، والله مع الصابرين يمدهم بالعون والتأييد والنصر.

والخلاصة:

تتضمن الآداب السابقة قواعد حربية ثابتة أساسها الإخلاص في القتال في سبيل الله وكثرة ذكر الله لربط الجيش بربه.

قال ابن كثير: وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة، والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتثال ما أرشدهم إليه، مالم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس، والترك، والصقالبة والبربر، والحبوش، وأصناف السودان، والقبط وطوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم، إنه كريم وهاب[(١)].

وكما جرت عادة القرآن في الجمع بين الأمر والنهي والتحذير، أعقب الله تعالى الأمر بالآداب أو القواعد الحربية السابقة ومنها النهي عن التنازع، بتحذير المؤمنين من التشبه بصنيع المشركين أهل مكة، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟﴾.

أي لا تتشبهوا بالمشركين أهل مكة حين خرجوا من ديارهم لحماية العير بطراً أي دفعاً للحق، وإظهار الفخر والاستعلاء بنعمة القوة أو الغنى أو الزعامة، ومن أجل مراءاة الناس، أي المفاخرة والتكبر عليهم، وعمل ما يحبون أن يراهم الناس عليه ليعجبوا منه، كما قال أبو جهل لما قيل له: إن

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٣١٦

العير قد نجت فارجعوا، فقال: لا والله، لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجزُر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً.

فامتثلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه، واحذروا التشبه بأعدائكم المشركين بطِرين مترفعين بالنعمة، مرائين الناس، فتبدل الحال كله عليهم، فتجرعوا كأس المنون، وانقلبوا أذلة صاغرين، في عذاب سرمدي أبدي.

وأرادوا بخروجهم المنع عن سبيل الله، أي حجب الناس عن الإسلام والحيلولة بينهم وبين تبليغ الدعوة الإلهية.

وهذه الأفعال التي لا تصدر عادة إلا من أناس امتلأت قلوبهم بالكفر، والجهل، والحقد، هي كلها عوامل دمار وهدم وفناء. لذا تضمنت الآية الزجر والتهديد بخصال الكفار وهي الرياء والبطر والكبر ودفع الحق ومعاداته.

والله بما يعملون محيط، أي عالم بما جاؤوا به ولأجله، فيجازيهم عليه شر الجزاء في الدنيا والآخرة، بمقتضى سنته في ترتيب الجزاء على الأعمال.

وفي هذا حض على إخلاص النية والعمل، والترغيب في نصرة النبي ﷺ ومؤازرة الدين الذي جاء به من عند الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

تأمر الآيات بقواعد حربية هي عُمُد ثوابت في نظام الحروب بنحو دائم، ولا يمكن لجيش قديم أو حديث أن يتخلى عن هذه النصائح التي تكون سبباً في إحراز النصر والتقدم والغلبة.

وهذه القواعد والنصائح هي الثبات عند اللقاء، وذكر الله والتضرع إليه

واللجوء إلى جنابه، وطاعة الله والرسول، أي طاعة التوجيه الإلهي والقائد الحربي الذي لا يأمر عادة إلا بالصواب والحق والمصلحة العامة، وعدم التنازع والاختلاف، والصبر عند الشدائد، وعدم البطر والرياء والكبر والخيلاء.

أما الثبات عند قتال الكفار: فهو كما في الآية المتقدمة التي تنهى عن الفرار عنهم، فالتقى الأمر والنهي على هدف واحد، وهو الصمود في المعركة.

وأما ذكر الله في القلب واللسان والدعاء فهو مما يعين على الهدف السابق وهو الثبات على الشدائد، فيقول المجاهد ما قاله أصحاب طالوت: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٠] . وهذه الحالة لا تكون - كما ذكر القرطبي - إلا عن قوة المعرفة، واتّقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة بين الناس. ثم قال القرطبي: والأظهر أنه ذكر اللسان الموافق للجنان.

وأما طاعة الله ورسوله فهي الواجبة في كل أحوال المسلم، وبخاصة وقت الحرب والقتال؛ لأن طاعة القائد الحربي أساس لتماسك الجيش، وضمان لتقدمه وتوجيهه الوجهة التي يخطط لها القائد تخطيطاً سليماً. والطاعة العمياء للقائد من أصول الجندية الحديثة المعروفة.

وأما التنازع والاختلاف بين الآراء ووجهات النظر فهو أداة انقسام الجيش، وإنذار بالهزيمة والتراجع، وذهاب القوة والنصر والدولة.

وأما الصبر فهو محمود في كل المواطن، وبخاصة موطن الحرب؛ كما قال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ وقال أيضاً: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٠٠] والله مع الصابرين، والمراد بهذه المعية: النصرة والمعونة.

وأما البطر (الفخر والاستعلاء والتكبر) والمراءاة فهما مرض خطير ينخر في تكوين شخصية الإنسان، ويعجل في تدمير كيان صاحبه.

وأما الصد عن سبيل الله، أي إضلال الناس فهو أشد إثماً من الكفر؛ لأن كفر الكافر مقصور على نفسه، والصد يتجاوز الإنسان إلى غيره، وقد تكرر ذم الصد عن سبيل الله في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وكان الصدّ ملازماً لكفر أهل مكة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾ [محمد: ٤٧/١].

ولما كان أبو جهل وعصبته مجبولين على البطر والمفاخرة والعجب، وكان صدهم عن سبيل الله حاصلاً في زمان نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، ذكر البطر والرئاء بصيغة الاسم، وذكر الصد عن سبيل الله بصيغة الفعل.

والخلاصة:

أمر الله المؤمنين عند لقاء العدو بالثبات والاشتغال بذكر الله، ومنعهم أن يكون الباعث لهم على الثبات هو البطر والرئاء، وإنما الواجب أن يكون الباعث عليه هو طلب عبودية الله تعالى.

وشأن المؤمن إرضاء الرحمن وإظهار العبودية الخالصة لله، وهو هدف القرآن، والمعصية مع الحياء والتذلل والانكسار أقرب إلى الإخلاص من الطاعة مع الافتخار.

وضماناً للإخلاص في طلب مرضاة الله ختمت الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لأن الإنسان ربما أظهر الإخلاص، والحقيقة بخلافه، فيكون الله أعلم بما في القلوب. وهذا كالتهديد والزجر عن الرياء والتصنع.

وقد احتج نفاة القياس على عدم مشروعيته بآية ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ لأن القياس يؤدي إلى الاختلاف في الأحكام بسبب اختلاف الأقيسة، ويردّ عليهم بأنه ليس كل قياس بوجب المنازعة، والآية في أمور السياسة العامة والمصالح الكبرى التي لا مجال للاختلاف فيها في تقدير المخلصين، أما القياس

في مجال الاجتهاد في الفروع الفقهية، وجزئيات الأحكام، فلا عيب فيه، وهو أمر محمود مطلوب شرعاً، وإن أدى إلى الاختلاف؛ لأن المجتهد يجب عليه شرعاً العمل بما غلب على ظنه.

تبرؤ الشيطان من الكفار وقت أزمة بدر وحين تهكم المنافقين بالمؤمنين

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)﴾

القراءات:

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ ...﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ).

الإعراب:

﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ ﴿لَا﴾ : نافية للجنس، و﴿غَالِبَ﴾ : اسمها المنصوب، و﴿لَكُمُ﴾ : في موضع رفع خبر ﴿لَا﴾ وتقديره: لا غالب كائن لكم. و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ : منصوب على الظرف، والعامل فيه ﴿لَكُمُ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ﴾ واذكر إذ زين لهم إبليس أعمالهم بأن وسوس لهم وشجعهم على لقاء المسلمين لما خافوا الخروج من أعدائهم بني بكر .﴿وَإِنِّى جَارٌ

لَكُمۡۖ﴾ أي مجير لكم من كنانة، وكان أتاهم في صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم سيد تلك الناحية. ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ﴾ التقت واقتربت الجماعة المسلمة والكافرة، كل منهما من الأخرى ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ رجع هارباً على عقبيه أي رجع القهقرى وتولى إلى الوراء، والمراد: أحجم ﴿وَقَالَ﴾ لما قالوا له: أتخذلنا على هذه الحال؟: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ من جواركم ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ من الملائكة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أن يهلكني.

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ أي زين لهم الشيطان حين قال المنافقون بالمدينة، والمنافق: من يُظهر الإسلام ويبطن الكفر ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم ضعاف الإيمان الذين تملأ قلوبهم الشبهات والشكوك ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ يعنون أن المسلمين اغتروا بدينهم وأنهم يتقوون به وينصرون من أجله، فخرجوا مع قلتهم وهم ثلاث مئة، وبضعة عشر، يقاتلون الجمع الكثير وهم زهاء ألف، توهماً أنهم ينصرون بسبب دينهم، فأجابهم الله بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي من يثق به يَغْلِب ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره، يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي ﴿حَكِيمٞ﴾ في صنعه.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٨):

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: روي أن الشيطان تمثَّل لهم يومئذ في صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم، وهو من بني بكر بن كنانة، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم؛ لأنهم قتلوا رجلاً منهم. وقد وصف الله تعالى ماقال الشيطان لهم. قال الضحاك: جاءهم إبليس يوم بدر برايته وجنوده، وألقى في قلوبهم أنهم لن يهزموا، وهم يقاتلون على دين آبائهم.

وذكر البيهقي وغيره عن ابن عباس قال: أمدَّ الله نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين

بألف من الملائكة؛ فكان جبريل عليه السلام في خمس مئة من الملائكة مُجَنِّبة(١)، وميكائيل في خمسمائة من الملائكة مُجنِّبة. وجاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مُدْلج، والشيطان في صورة سراقة ابن مالك بن جُعْشم. فقال الشيطان للمشركين: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾. فلما اصطفّ القوم قال أبو جهل: اللهم أوْلانا بالحق فانصره، ورفع رسول الله ﷺ يده فقال: «ياربّ إنك إن تهلك هذه العصابة، فلن تُعبد في الأرض أبداً» فقال جبريل: «خذ قبضة من التراب» فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها وجوههم؛ فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومِنْخريه وفمه. فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه كانت يده في يد رجل من المشركين - قيل: كانت يده في يد الحارث بن هشام -، انتزع إبليس يده، ثم ولى مدبراً وشيعَته؛ فقال له الرجل: ياسُراقة، ألم تزعم أنك لنا جار؟ قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

وفي موطأ مالك عن طلحة بن عبيد الله بن كَريز أن رسول الله ﷺ قال: «مارأى الشيطان نفسه يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لِما رأى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر. قيل: وما رأى يوم بدر يارسول الله؟ قال: أما إنه رأى جبريل يَزَع(٢) الملائكة».

نزول الآية (٤٩):

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: روي عن مجاهد أنه قال: هم فئة من قريش: قَيْسُ بن الوليد بن المغيرة، والحارث بن زَمْعَة بن الأسود بن الْمُطّلِب، ويعلى

(١) مجنبة الجيش: هي التي تكون في الميمنة والميسرة، وهما مجنبتان.

(٢) يزع الملائكة: أي يرتبهم ويسوّيهم ويصفهم للحرب.

ابن أمية، والعاص بن مُنَبِّه، خرجوا مع قريش من مكة، وهم على الارتياب، فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: غرَّ هؤلاء دينهم، حتى أقدموا على ما أقدموا عليه، مع قلة عَدَدهم، وكثرة عُدَد قريش.

المناسبة:

ما تزال الآيات تعرض مواقفاً وعبراً من مشاهد يوم بدر، وهنا تذكر موقفين: موقف الشيطان كيف تخلص من المشركين وقت اشتداد المحنة، وموقف المنافقين الذين سخروا من المؤمنين لتهورهم، قائلين: غرّ هؤلاء دينهم.

التفسير والبيان:

اذكر أيها الرسول حين زين الشيطان للمشركين أعمالهم بوسوسته، وأوهمهم أنهم لا يُغْلَبون أبداً لكثرة عَددهم وعُدَدهم، وأن اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجيرهم، وأزال مخاوفهم من إتيان عدوهم بني بكر في ديارهم، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أي مجير لكم من بني كنانة، وذلك أنه تبدّى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جُعْشم سيد بني مُدْلِج كبير تلك الناحية. والجار: المدافع عن صاحبه، والذائد عنه أنواع الضرر، كما يدفع الجار عن جاره. وكل ذلك من الشيطان كما قال تعالى عنه: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢٠].

فلما تلاقى الفريقان المتقاتلان نكص الشيطان على عقبيه، أي تراجع مدبراً، وولّى هارباً، وتبرأ منهم، أي بطل كيده حين نزلت جنود الله، وأيس من حالهم لما رأى إمداد الملائكة للمسلمين، وأظهر أنه يخاف الله، والله شديد العقاب في الدنيا والآخرة. وكان خوفه من الملائكة حتى لا تحرق جنوده. وهكذا كان جند الشيطان في مبدأ الأمر مع المشركين يوسوسون لهم

ويضللونهم، وكان الملائكة جند الرحمن مع المؤمنين يثبّتون قلوبهم ويؤيدونهم ويعدونهم بنصر الله تعالى. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يجوز أن يكون من كلام إبليس ويجوز أن ينقطع كلامه عند قوله: ﴿أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ ثم قال تعالى ذاك.

أما السبب في تغيير صورة إبليس إلى صورة سراقة، فلإظهار المعجزة العظيمة للرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن كفار قريش، لما رجعوا إلى مكة، قالوا: هزم الناسَ سراقةُ، فبلغ ذلك سراقة، فقال: والله ماشعرتُ بمسيركم، حتى بلغتني هزيمتكم. فعندئذ تبين للقوم أن ذلك الشخص ماكان سراقة، بل كان شيطاناً[١].

هذا موقف الشيطان، ثم ذكر الله تعالى موقف المنافقين، فقال: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي اذكر أيها النبي حين قال المنافقون ومرضى القلوب، أي ضعفاء الاعتقاد والإيمان، وقد رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ أي أن المسلمين اغتروا بدينهم، وتقووا به، وظنوا أنهم ينصرون من أجله، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف. وهذا صحيح في موازين القوى العسكرية، وتقدير مدى تكافؤ الجيشين في أنظار الناس عادة، ولكنه في ميزان الله وتقديره غير يقيني: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٩] لذا قال تعالى في ختام الآية: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ومن يفوض أمره إلى الله، ويثق به، ويلجأ إليه، فهو حسبه وناصره ومؤيده، والله عزيز غالب لا يدرَك، حكيم في فعله وصنعه، عليم بخلقه، ينصر من يشاء، وبخاصة اقتضت سنته أن ينصر الحق على الباطل، ويسلط القليل الضعيف على الكثير القوي. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يجوز أن يكون من صفات

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ١٧٤ . ١٧٥

المنافقين، وأن يراد بهم الذين ليسوا بثابتي الأقدام في الإسلام، كالمؤلفة قلوبهم، والأولى أنهما صنف واحد.

فقه الحياة أو الأحكام:

ما أشبه موقف المنافقين بموقف الشيطان، إنه موقف المتخاذل المتفرج، المحرِّض على الشر، ثم المتخلي عن المؤازرة وقت الشدة والمحنة.

أما الشيطان: فيوسوس بالباطل لأعوانه، ثم يحجم عن الشيء الذي زين به، وحبّب فيه، وأغرى الناس عليه. فالواجب على العاقل الحذر منه، والتفكير في عواقب الأمور، وعدم الانسياق في تيار الأهواء والوساوس الشيطانية، فمن انجرف في سيل الشيطان فإن الله يعاقبه أشد العقاب.

وأما المنافقون (الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر) والذين في قلوبهم مرض (الشاكون، وهم دون المنافقين؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام، وفيهم ضعف النية والاعتقاد) فيصطادون عادة في الماء العكر، وينتهزون الفرص، ويوقعون الفتنة، وينتظرون الانحياز للغالب ويشككون في قوة المؤمنين، ويتهمونهم بالتهور والطيش؛ لقلتهم عَدَداً وعُدَداً أمام الكثرة في العَدَد والعُدَد.

وقد خيَّب الله الفريقين: الشيطان والمنافقين، فنصر الفئة المؤمنة القليلة على الفئة الكافرة الكثيرة، والله يؤيد بنصره من يشاء؛ لأن من يتوكل على الله، ويفوض أمره إليه، ويثق به، ويلجأ إليه، فإن الله حسبه وناصره ومؤيده.

إهلاك الكفار المشركين لسوء أعمالهم كإهلاك آل فرعون

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ
وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ
لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ
ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً
أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ
فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ
فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

القراءات:

﴿إِذْ يَتَوَفَّى﴾:

وقرأ ابن عامر (إذ تتوفى).

﴿كَدَأْبِ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (كداب).

الإعراب:

﴿يَضْرِبُونَ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ولو جعل حالاً من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لكان جائزاً.

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي يقولون: ذوقوا عذاب الحريق، وحذف القول كثير في كلام الله تعالى وكلام العرب.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ إنما قال: ذلك، على خطاب الواحد، ولم يقل: ذلكم، على قياس اللغة الأخرى بأن يقال: (ذلكم بما قدمت أيديكم) لأنه أراد به الجمع، فكأنه قال: ذلك أيها الجمع، والجمع بلفظ الواحد، وهما لغتان جيدتان نزل بهما القرآن.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ إما بالجر عطفاً على ﴿بِمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ وإما بالنصب على تقدير حذف حرف الجر، وتقديره: وبأن الله، وإما بالرفع بالعطف على ﴿ذَٰلِكَ﴾ أو على تقدير ﴿ذَٰلِكَ﴾.

﴿كَدَأۡبِ﴾ الكاف صفة لمصدر محذوف، وتقديره: فعلنا ذلك بهم فعلاً مثل عادتنا في آل فرعون.

المفردات اللغوية:

﴿وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ ظهورهم ﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾ النار، وجواب ﴿وَلَوۡ﴾: لرأيت أمراً عظيماً. ﴿ذَٰلِكَ﴾ التعذيب ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ عبر بالأيدي دون غيرها؛ لأن أكثر الأفعال تزاول بها ﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٍ﴾ أي بذي ظلم، فلا يعذب العبيد بغير ذنب. ﴿كَدَأۡبِ﴾ كعادة مستمرة، أي عادة هؤلاء كعادة قوم فرعون. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي تعذيب الكفرة بسبب أن الله ﴿مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً﴾ مبدلاً لها بالنقمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ سيبدلوا نعمتهم كفراً كتبديل كفار مكة إطعامهم من جوع، وأمنهم من خوف. ﴿وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ وكل من الأمم المكذبة.

المناسبة:

لما شرح الله تعالى أحوال مشركي مكة من خروجهم إلى قتال المؤمنين بطراً ورياء، ومن تزيين الشيطان لهم أعمالهم، وتثبيط المنافقين للمؤمنين، شرح أحوال موتهم، والعذاب الذي يلقونه في ذلك الوقت.

التفسير والبيان:

ولو عاينت يامحمد حال الكفار حين تتوفاهم الملائكة، لرأيت أمراً عظيماً

هائلاً فظيعاً لا يكاد يوصف، فهم يضربون وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد، وينزعون أرواحهم من أجسادهم بشدة وعنف، قائلين لهم: ذوقوا عذاب الحريق أي عذاب النار في الآخرة، وهذا إنذار لهم بذلك العذاب.

ذلك العذاب الشديد والضرب الأليم بسبب ما قدمتم من أعمال سيئة، وارتكبتم من منكرات كالكفر والظلم في حياتكم الدنيا. ونسب ارتكاب المعاصي إلى الأيدي مع أنها تقع بغيرها كالأرجل وسائر الحواس؛ لأن أكثر الأعمال تقع بها.

جازاكم الله بها هذا الجزاء عدلاً لا ظلماً؛ لأن الله لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكَم العدل الذي لا يجور أبداً، ويضع الموازين القسط ليوم القيامة، ويعطي كل ذي حق حقه، فلا تظلم نفس شيئاً. جاء في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: ياعبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تَظَالموا.. ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

ثم عقد الحق تبارك وتعالى مقارنة، وأعطى شَبَهاً ومثلاً لعذاب المشركين، فقال: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي إنه تعالى فعل بهؤلاء المشركين المكذبين برسالة محمد ﷺ وكفرهم بها، كما فعل بالأمم المكذبة قبلهم، فعادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون (أي قومه) في كفرهم، فجوزي هؤلاء بالقتل والسبي، كما جوزي أولئك بالإغراق، كفر هؤلاء المشركون والكفار بآيات ربهم، فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فالسنة والعادة في الفريقين واحدة، والجزاء من جنس العمل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي إن الله قوي لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب. روى البخاري ومسلم وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى ليُمْلي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته».

ثم أخبر الله تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، فقال: ذلك العذاب الناجم عن سوء العمل وإهلاك قريش بكفرها بأنعم الله عليها، بسبب سنته تعالى وحكمته التي اقتضت ألا يغير نعمته على قوم، حتى يغيروا ما بهم من الحال، فيكفروا النعمة، ويبطروا بها، فاستحقوا تبديل الأوضاع، كتبديل أهل مكة إطعامهم من جوع، وأمنهم من خوف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١] .

وفي هذا دلالة واضحة على أن استحقاق النعم منوط بصلاح العقائد، وحسن الأعمال، ورفعة الأخلاق، وأن زوال النعم يكون بسبب الكفر والفساد وسوء الأخلاق، إلا أن يكون ذلك استدراجاً كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٤] .

وكل الناس تحت رقابة الله المتصرف فيهم، لذا قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لما يقول مكذبو الرسل، عليم بما يفعلون.

ثم أكد تعالى الكلام السابق وفصله تفصيلاً، فقال مرة أخرى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ لترسيخ وجه الشبه، وبيان المقصود بالكلام الأول من الأخذ وهو الإغراق، وبيان ما نزل بهم من العقوبة حال الموت، ثم ما ينزل بهم في القبر في الآخرة، وتوضيح أن سبب العذاب أولاً - الكفر بآيات الله، أي إنكار الدلائل الإلهية، وثانياً - التكذيب بآيات ربهم أي إنكار وجوه التربية والإحسان والنعمة، مع كثرتها وتواليها عليهم، فقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق.

والخلاصة: لقد اجتمع في هؤلاء المعذَّبين: الكفر بوجود الله ووحدانيته، وإنكار النعم التي أنعم الله بها عليهم.

وختم تعالى الكلام بقوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ﴾ أي أن كلاً من مشركي قريش وآل فرعون كانوا ظالمي أنفسهم بالكفر والمعصية، وظالمي سائر الناس بسبب الإيذاء، وأن الله إنما أهلكهم بسبب ظلمهم وذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، أي كانوا هم الظالمين الذي عرّضوا أنفسهم لعذاب الله تعالى، ولا يظلم ربك أحداً.

وكان عذاب مشركي قريش مقصوراً على القتل وسلب النعمة منهم بسبب كفرهم ومعاصيهم. وأما عذاب من قبلهم فكان عذاب استئصال كإغراق آل فرعون وإرسال الريح على عاد، والصيحة المجاوزة للحد في الشدة (وهي الطاغية) على ثمود.

فقه الحياة أو الأحكام:

ما أتعس حال الكفار، وإن انغمسوا في الثروة والأموال إلى ماشاء الله!! فإنهم في النتيجة آيلون إلى سوء المصير، فليست السعادة بالأموال والأولاد كما يتوهم السطحيون، وإنما السعادة بالإيمان وطمأنينة القلب وتعمير الدنيا بالعمل الصالح للآخرة!!

ما أشقى هؤلاء الكفار قاطبة في كل مكان وزمان، وليتهم اعتبروا بالعبر والعظات بمن سبقهم في التاريخ!!

لقد اشتد إيذاء المشركين للنبي ﷺ والمؤمنين، وقاتلوهم قتالاً عنيفاً، وصادروا أموالهم في مكة، فماذا كانت النتيجة؟ هل حصدوا خيراً أم جنوا شراً وسوءاً؟

إنهم قتلوا في بدر أشد قِتْلة، وضربوا قبل نزع أرواحهم بشدة وعنف أشد ضَرْبة. ولو انكشف لنا حالهم أثناء تعذيب الملائكة لهم لرأينا العجب العجاب.

قال الحسن البصري: إن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يارسول الله، إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشِّرَاك[1]؟ قال: « ذلك ضرب الملائكة ».

ثم إنهم يذوقون في عذاب النار أشد العذاب، والذوق حسي ومعنوي.

وليس تعذيبهم في الدنيا والآخرة ظلماً أو جوراً، فليس الله بظلام للعبيد، بعد أن أوضح السبيل وبعث الرسل، وأنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع، فما عليهم إلا أن يشتغلوا بالعبادة والشكر، ويعدلوا عن الكفر، فإذا بقوا في الفسق والكفر، فقد غيروا نعمة الله على أنفسهم، فاستحقوا تبديل النعمة بالنقمة، والمنحة بالمحنة. وهذا أدل شيء على أنه تعالى لا يبتدئ أحداً بالعذاب والمضرة، والذي يفعله لا يكون إلا جزاءً على معاص من أنفسهم، ولو كان تعالى خلقهم وخلق أجسامهم وعقولهم ابتداء للنار، كما يزعم بعضهم، لما وافق ذلك عدل الله وحكمته ورحمته.

إنهم أشبهوا قوم فرعون بالكفر والمعصية وإنكار وجود الله ووحدانيته، وتكذيب الرسل، وتبديل الجحود والعناد بالنعمة المستحقة للشكر.

إن مظهر تغيير آل فرعون ومشركي مكة نعمة الله عليهم، كان مقابلة الإله المنعم بجحوده وإنكاره وعبادة الأصنام، فسلبوا الخيرات التي أنعم الله عليهم، من ثمار كثيرة في مصر، وجلب الأرزاق لأهل مكة، وقد تتغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها، فلما بعث إليهم الرسل، كذبوهم وعادوهم وهموا بقتلهم، فغير الله حالهم إلى أسوأ مما كانت، وغير ما أنعم به عليهم من الإمهال إلى التعجيل بالعذاب.

(١) الشراك: سير النعل، جمع أشرك.

معاملة من نقض العهد ومن ظهرت منه بوادر النقض

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ
مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى
ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ
خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

القراءات:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ :

قرئ:

١- (ولا يَحْسبَنَّ) وهي قراءة ابن عامر، وحفص، وحمزة.

٢- (ولاتحسبنَّ) وهي قراءة الباقين.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ :

وقرأ ابن عامر (أنهم لايعجزون).

الإعراب:

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل من قوله﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي الذين عاهدت من الذين كفروا. وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ للتبعيض.

﴿فَٱنۢبِذْ﴾ فعل أمر هو جواب الشرط، وفيه حذف تقديره: فانبذ إليهم العهد وقابلهم على إعلام منك لهم، وفي هذه الآية من لطيف الحذف والاختصار مايدل على فصاحة القرآن وبلاغته .﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ حال متساوية في العلم بنقض العهد.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: فاعل، و﴿سَبَقُوٓا۟﴾: تقديره: أنهم سبقوا، فسد مسد المفعولين. وقرئ: ولا تحسبن، فيكون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ المفعول الأول، و﴿سَبَقُوٓا۟﴾: المفعول الثاني، كأنه قال: ولا تحسبن يامحمد الذين كفروا سابقين. وإنهم لا يعجزون: ابتداء كلام، وقرئ بفتح: أن، على تقدير: لأنهم.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ جمع دابة: وهي في الأصل: كل مادبَّ على الأرض وغلب استعماله في الحيوانات ذوات الأربع، والمراد به هنا: الناس، وهو المعنى الأصلي للكلمة وهم بنو قريظة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه وعلمه ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ ألا يعينوا المشركين، وهم طوائف من يهود المدينة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله في غدرهم .﴿فَإِمَّا﴾ فيه إدغام نون إن الشرطية في «ما» المزيدة ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ تجدنهم وتصادفنَّهم، من ثقِف الرجل: أدركه وظفِر به ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾ فرِّق وبدِّد وخوِّف بهم، والتشريد: التفريق مع إزعاج، والمراد هنا: نكِّل بهم تنكيلاً وعاقبهم عقاباً يخوِّف غيرهم ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي غيرهم من المحاربين ناقضي العهد، وهم كفار مكة وأعوانهم من المشركين .﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي الذين خلفهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون بهم.

﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم عهدهم وحاربهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي استواء أنت وهم في العلم بنقض العهد، بأن تعلمهم به، لئلا يتهموك بالغدر، أو على طريق واضح سوي لا خداع فيه ولا خيانة .﴿سَبَقُوٓا۟﴾ أنهم فاتوا وأفلتوا من الظفر بهم ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي لا يعجزون الله في إدراكهم ولا يفوتونه، بل سيجازيهم على كفرهم. وهو تعليل على سبيل الاستئناف. وعلى قراءة الفتح أي (أنهم) فيه تصريح بالتعليل، قال البيضاوي: والأظهر أنه تعليل للنهي، أي لا تحسبنهم سبقوا فأفلتوا؛ لأنهم لا يفوتون الله، أو لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٥):

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾: قال ابن عباس: إنهم بنو قريظة نقضوا عهد رسول الله ﷺ، وأعانوا عليه بالسلاح في بدر، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا، فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد ومالؤوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وركب زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة، فحالفهم على محاربة النبي ﷺ.

نزول الآية (٥٩):

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾: روى أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن ابن شهاب الزهري قال: دخل جبريل على رسول الله ﷺ، فقال: قد وضعت السلاح، ومازلت في طلب القوم، فاخرج فإن الله قد أذن لك في قريظة، وأنزل فيهم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ الآية.

وقال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآيات في ستة رهط من اليهود، منهم ابن تابوت. وقال مجاهد: نزلت في يهود المدينة، وكان زعيمهم الطاغوت كعب بن الأشرف، وهو فيهم كأبي جهل في مشركي مكة.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى كل الكفار بقوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أفرد بعضهم بمزية في الشر والعناد. وبعد أن أبان تعالى حال مشركي قريش في قتالهم النبي والمؤمنين ببدر، ذكر حال فريق آخر قاتلوا النبي ﷺ وهو يهود الحجاز.

التفسير والبيان:

نزلت هذه الآيات في يهود بني قريظة، ومفادها: إن شر مادبَّ على وجه

الأرض في حكم الله وعدله هم الذين كفروا ونقضوا العهد، فهم شر خلق الله لاتصافهم بصفتين: الإصرار على الكفر الدائم والعناد، ونقض العهد الذي عاهدوه وأكدوه بالأيمان، ولهم صفة ثالثة هي أنهم لا يتقون الله ولا يخافون منه في شيء ارتكبوه من الآثام، ولا يتقونه في غدرهم ونقض العهد.

وقد وصفهم الله بأنهم شر الدواب للإشارة إلى أنهم بلغوا درجة الدواب، بل هم شر منها؛ لعدم وجود نفع منهم، كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤٤] ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩].

وبعد أن أبان الله تعالى صفاتهم الثلاث وأخصها هنا تكرار نقض العهد، أبان حكم من نقض العهد وهو القتل، فقال: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي إن ظفرت بهم في الحرب، فافعل بهم فعلاً يفرّق بهم من خلفهم، أي فنكّل بهم تنكيلاً شديداً يخافك من وراءهم أو سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة، افعل هذا لعلهم يتعظون بهم، ويحذرون أن ينقضوا العهد، فيصنع بهم مثل ذلك.

وفي هذا دلالة على أن الحرب ليست مرغوبة، وإنما هي ضرورة لمنع البغي والعدوان وإعلاء كلمة الله، وإن القسوة مع ناقضي العهد أمر مطلوب للعظة والعبرة، حتى لا يعودوا هم وغيرهم إلى مثل صنيعهم.

وبما أن الوقاية خير من العلاج، أوضح الله تعالى أيضاً حكم من ظهرت منه بوادر نقض العهد والخيانة بأمارة من الأمارات، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾.

أي إن توقعت من قوم معاهدين وغلب على ظنك خيانة بنقض العهد الذي بينك وبينهم، بأمارة ظاهرة وقرينة واضحة، فاطرح لهم عهدهم على سواء، أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء،

فتكون أنت وهم متساويين في العلم بنقض العهد، وبأنك حرب لهم وهم حرب لك، أي قيام حالة الحرب. والنبذ لغة: الرمي والرفض. والسواء: المساواة والاعتدال.

إن الله يكره الخيانة ويعاقب عليها، حتى ولو في حق الكفار، فلا يك منك إخفاء نكث العهد والخداع.

قال الإمام أحمد عن شعبة عن سليم بن عامر: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدراً، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلنَّ عُقْدة، ولا يشدها، حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا بالشيخ عمرو بن عَنْبَسة رضي الله عنه(١).

وروى الإمام أحمد أيضاً عن سلمان الفارسي رضي الله عنه: أنه انتهى إلى حِصْن أو مدينة، فقال لأصحابه: دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم فقال: إنما كنت رجلاً منكم، فهداني الله عز وجل للإسلام، فإن أسلمتم فلكم ما لنا، وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، وإن أبيتم نابذناكم على سواء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع، غدا الناس إليها، ففتحوها بعون الله تعالى.

وروى البيهقي أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة، المسلم والكافر فيهن سواء: من عاهدته فوفِّ بعهده مسلماً كان أو كافراً، فإنما العهد لله، ومن كانت بينك

(١) ورواه أيضاً أبو داود الطيالسي عن شعبة، وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه من طرق عن شعبة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وبينه رَحِم فصِلْها، مسلماً كان أو كافراً، ومن ائتمنك على أمانة فأدِّها إليه، مسلماً كان أو كافراً».

ثم أنذر الله تعالى الخائنين بما يحل بهم من عقاب، وبيَّن حال من فات النبي ﷺ يوم بدر وغيره، لئلا يبقى حسرة في قلبه نحو من بلغ في إيذائه مبلغاً عظيماً، فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ۚ﴾ أي لا يظنن الذين كفروا أنهم فاتوا وأفلتوا من الظفر بهم، ونجوا من عاقبة خيانتهم، وأنهم فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، كقوله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤] أي يظنون.

إنهم لا يعجزون الله تعالى ولا يفوتونه، وإنما سيجزون على كفرهم، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٥٧﴾ [النور: ٥٧/٢٤] وقال تعالى أيضاً: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢/٩].

فالآية تطمين للنبي ﷺ أنه منتقم ممن كفروا وآذوه، وقطع لأطماعهم بالتغلب على المؤمنين.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآية الأولى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ بيان أوصاف اليهود من بني قريظة، فهم كفرة، ناقضو العهود على الدوام، لا يتقون الله في غدرهم وخيانتهم.

قال أهل المعاني: إنما عطف المستقبل ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ﴾ على الماضي ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لبيان أن من شأنهم نقض العهد مرة بعد مرة.

قال ابن عباس: هم قريظة، فإنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ، وأعانوا عليه المشركين بالسلاح في يوم بدر، ثم قالوا: أخطأنا، فعاهدهم مرة أخرى، فنقضوه أيضاً يوم الخندق.

ثم أوضح الله تعالى ما يفعل الرسول ﷺ في حق من يجده في الحرب من ناقضي العهد وهو التنكيل الشديد، ليكون عبرة لغيره.

ثم ذكر ما يجب أن يفعله فيمن ظهر منه نقض العهد والغش في قوله: ﴿فَانۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ وهو نبذ العهد وإعلامه بانتهاء المعاهدة، حتى يتساوى الطرفان في العلم بقيام حالة الحرب. حكى الطبري عن مجاهد: أن هذه الآية نزلت في بني قريظة وبني النضير. فآية ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ في شأن بني قريظة، الذين كانت خيانتهم ظاهرة مشهورة حين تحزبوا مع قريش في وقعة الخندق. وآية ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ تشمل بني النضير وغيرهم ممن تخاف خيانتهم.

وقد تساءل ابن العربي حول آية ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ ثم أجاب عن التساؤل، فقال: كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة، والخوف ظنّ لا يقين معه، فكيف يسقط يقين العهد بظنّ الخيانة؟

والجواب من وجهين:

أحدهما - أن الخوف ههنا بمعنى اليقين، كما يأتي الرجاء بمعنى العلم، كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: ٧١/١٣].

الثاني - إنه إذا ظهرت آثار الخيانة، وثبتت دلائلها، وجب نبذ العهد، لئلا يُوقع التمادي عليه في الهلكة، وجاز إسقاط اليقين ههنا بالظن للضرورة[١].

(١) أحكام القرآن: ٨/ ٨٦٠

أي إن قوله: ﴿تَخَافَنَّ﴾ إما بمعنى تعلمنَّ، وإما بمعنى تظنن، ويكفي الظن للضرورة.

وأما إذا عُلِم اليقين فيستغنى عن نبذ العهد إليهم، وقد سار النبي ﷺ إلى أهل مكة عام الفتح؛ لما اشتهر منهم نقض العهد، من غير أن ينبذ إليهم عهدهم.

وفي الآية دلالة واضحة على إيجاب الإسلام المحافظة على العهود مع الأعداء، وتحريم الخيانة معهم. روى مسلم عن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل غادر لواء يوم القيامة، يُرفع له بقدر غَدْره، ألا ولا غادِر أعظم غدراً من أمير عامة» والسبب أن غدره يفقد الثقة بعهوده ومصالحاته، فيعظم ضرره، ويكون ذلك منفِّراً عن الدخول في الدين، وموجباً لذم أئمة المسلمين.

فأما إذا لم يكن للعدو عهد، فيمكن اتخاذ كل الحيل والخديعة معه، وعليه يحمل قوله ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي عن جابر: «الحرب خَدْعة» وإذا كان العدو اليوم مثل اليهود في الأرض المحتلة لا يعتد بعهد ولا ذمّة، فتكون مفاجأته من ألوان الفن الحربي.

وهل يجاهَد مع الإمام الغادر؟ للعلماء رأيان: ذهب أكثرهم إلى أنه لا يقاتل معه، بخلاف الخائن والفاسق، وذهب بعضهم إلى الجهاد معه.

ثم ذكرالله تعالى حال من فاته العقاب يوم بدر، وظل على قيد الحياة، وهوأن شأنهم يسير هيِّن على الله، فهم إن تخلصوا من الأسر والقتل لا يعجزون الله من الانتقام منهم في الآخرة، بل لا يعجزونه من العقاب في الدنيا حتى يُظفرالله الرسولَ بهم. والمقصود تسلية الرسول فيمن فاته، ولم يتمكن من التشفي والانتقام منه.

الإعداد الحربي لقتال الأعداء بحسب الطاقة والاستطاعة

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)﴾

الإعراب:

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ الهاء في ﴿بِهِ﴾ إما أن تعود على ﴿مَّا﴾ أو على الرباط، أو على الإعداد المفهوم من قوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾.

﴿وَآخَرِينَ﴾ منصوب بالعطف على ﴿عَدُوَّ اللَّهِ﴾ أي ترهبون آخرين من دونهم.

البلاغة:

﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ نكرة تفيد العموم، فتشمل الإعداد المادي بمختلف الأسلحة المناسبة للعصر، المتطورة حسبما يوجد لدى العدو، المصنَّعة في داخل البلاد الإسلامية، وتشمل أيضاً الإعداد المعنوي والروحي من حفز المواهب والقوى وإعداد الجيل إعداداً حربياً، وتسليحه بالعقيدة الإسلامية الحقة، وبالأخلاق الدينية الصالحة، وبغير ذلك لا نصر على العدو.

المفردات اللغوية:

﴿وَأَعِدُّوا﴾ الإعداد: التهيئة للمستقبل. ﴿لَهُم﴾ لقتالهم. ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ قال ﷺ ثلاثاً فيما رواه مسلم: «ألا إن القوة: الرمي» وهي الآن: كل ما يتقوى به في الحرب. ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ رباط الخيل: اسم للخيل التي تربط في

سبيل الله، فالمراد من رباط الخيل: حبسها واقتناؤها في سبيل الله وإعدادها للجهاد باعتبار أنها كانت في الماضي أداة الحرب المهمة. ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ تخوفون من الإرهاب والترهيب: وهو الإيقاع في الرهبة: وهي الخوف المقترن بالاضطراب. ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ هم في الماضي كفار مكة، والآن: كل من يعادي الإسلام ويتآمر عليه وعلى المسلمين. ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي غيرهم وهم المنافقون أو اليهود. ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه إليكم. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ لا تنقصون منه شيئاً.

المناسبة:

بعد أن أمر الله رسوله بتشريد ناقضي العهد، ونبذ العهد إلى من خاف منه النقض، أمره في هذه الآية بالإعداد لهؤلاء الكفار، وهذا أمر طبيعي يستتبع نقض العهد وقيام حالة الحرب.

التفسير والبيان:

يأمر الله تعالى المؤمنين بإعداد آلات الحرب المناسبة لكل عصر، وإعداد الجيش المقاتل على أرفع المستويات؛ لأن الجيش درع الأمة وحصنها المنيع، وذلك بحسب الطاقة والإمكان والاستطاعة.

فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ أي هيئوا لقتال الأعداء ما أمكنكم من أنواع القوى المادية والمعنوية المناسبة لكل زمان ومكان، ومن مرابطة الخيول في الثغور والحدود؛ لأنها منفذ الأعداء ومواطن الهجوم على البلاد، وقد كانت الخيول أداة الحرب البرية الرهيبة في الماضي، وما تزال لها أهميتها أحياناً في بعض ظروف الحرب الحاضرة، مثل حال استعمال السلاح الأبيض والتجسس ونقل بعض المؤن والذخيرة في الطرق الجبلية، وإن كان الدور الحاسم اليوم هو لسلاح الطيران، والمدافع، والدبابات، والغواصات

البحرية، فصار ذلك هو المتعين إعداده بدلاً من الخيول؛ لأن المهم تحقيق الأهداف، وأما الوسائل والآلات فهي التي يجب إعدادها بحسب متطلبات العصر، ويكون المقصود هو إعداد جيش دائم مستعد للدفاع عن البلاد، ويتم ذلك بالمال المخصص لهذه المهمة، ودعمه بالسلاح الذي ينفق عليه من المسلمين بحسب الطاقة. وقد خص الله الخيل بالذكر، وإن كانت داخلة في القوة، تشريفاً لها، وتكريماً، واعتداداً بأهميتها.

ثم ذكرت الآية سبب الإعداد وهدفه وهو إرهاب عدو الله وعدو المسلمين من الكفار الذين ظهرت عداوتهم كمشركي مكة في الماضي، وإرهاب العدو الخفي الموالي لهؤلاء الأعداء، سواء أكان معلوماً لنا أم غير معلوم، بل الله يعلمهم؛ لأنه علام الغيوب. وهذا يشمل اليهود، والمنافقين في الماضي، ومن تظهر عداوته بعدئذ مثل فارس والروم، وسلالاتهم في دول العالم المعاصر.

وبغير الإعداد الملائم للحرب في كل عصر لا يصان السلام، وصون السلام عرفاً وعادة وعقلاً لا يكون إلا بآلات الحرب الحديثة.

وبما أن الإعداد للجهاد لا يتوافر بغير المال، حثَّ القرآن على الإنفاق في سبيله، فقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾ أي إن كل شيء قليل أو كثير تنفقونه في الجهاد في سبيل الله، فإنه يوفى لصاحبه، ويجازى عليه على أتم وجه وأكمله، ولا ينقص منه شيء. جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبع مئة ضعف، كما نص تعالى في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦١].

وقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عام في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات.

وهذا يدل على أن الإعداد الحربي متوقف على إنفاق المال الكثير في سبيله.

ومردود النفقة في الواقع يعود إلى المنفق في الدنيا بتحصين ماله وأرضه وتجارته وصناعته مثلاً، وفي الآخرة بالظفر في جنان الخلد جزاء ما قدم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٢] .

فقه الحياة أو الأحكام:

ما تزال الأمم قديماً وحديثاً تعنى بإعداد وتجهيز الجيوش الضاربة المقاتلة للدفاع عن وجودها وعزتها وكرامتها، وحماية حدودها، وصون أمنها ومجدها ورخائها.

لذا أمر الله المؤمنين بالإعداد الدائم للقوة الحربية لمواجهة الأعداء، وفي هذا كما أشارت الآية إرهاب للعدو، ومنعه من التفكير في العدوان على الأمة والمقدسات.

وبما أن الإعداد المادي والأدبي والفني للجهاد متوقف على الدعم المالي، أوجب الله على المؤمنين المساهمة في الإنفاق على متطلبات القتال بحسب الحاجة وعلى قدر الطاقة والسعة.

وقد استدل بعض علماء المالكية بهذه الآية على جواز وقف الخيل والسلاح، واتخاذ الخزائن والخُزَّان لها، عُدَّة للأعداء. وقد اختلف العلماء في جواز وقف الحيوان كالخيل والإبل على قولين: قول بالمنع وهو لأبي حنيفة، وقول بالصحة وهو قول الشافعي والجمهور، وهو أصح؛ لهذه الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام في حق خالد: «وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً، فإنه قد احتبس أدراعه وأعتاده[1] في سبيل الله» ولأنه مال ينتفع به في وجه يعد قُربة، فجاز أن يوقف كالديار والأراضي.

(١) الأعتاد: آلات الحرب من السلاح والدواب وغيرها.

إيثار السلام وتوحيد الأمة وتحريضها على القتال

﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾
وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾
وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ
ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن
مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ
فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ
يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِىُّ﴾ ... ﴿لِنَبِىٍّ﴾

وقرأ نافع (النبيء.. لنبيء).

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (وإن تكن منكم).

﴿ٱلْـَٰٔنَ﴾:

وقرأ ورش (ألان).

﴿ضَعْفًا﴾:

قرئ:

١- (ضَعْفاً) وهي قراءة عاصم، وحمزة، وخلف.

٢- (ضُعْفاً) وهي قراءة الباقين.

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم﴾:

قرئ:

١- (فإن يكن منكم) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (فإن تكن منكم) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر، والمعنى: يكفيك الله، فكأنه قال: يكفيك الله وتابعك. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ الواو بمعنى (مع) وما بعده منصوب، تقول: حسبك وزيداً درهم، ولا تجرّ؛ لأن عطف الظاهر المجرور على المكني ممتنع، والمعنى: كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصراً. و﴿وَمَنِ﴾: إما مرفوع عطفاً على لفظ ﴿ٱللَّهُ﴾ أي حسبك الله وتابعوك، أو مبتدأ وخبره محذوف، تقديره: ومن اتبعك من المؤمنين كذلك. وإما منصوب بالحمل في العطف على المعنى.

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ﴾ ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ﴾ من قرأ يكن بالياء على التذكير فللفصل بين الفعل والفاعل، ومن قرأ بالتاء فلتأنيث المئة.

البلاغة:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية فيها ما يسمى بالإطناب، للتذكير بنعمة الله العظمى على الرسول والمؤمنين، وهي نعمة التأليف ووحدة الأمة.

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ فيه ما يسمى بالاحتباك وهو إثبات قيد الصبر في الشرط الأول، وحذف نظيره من الشرط الثاني،

وإثبات صفة الكفر من الآية الثانية وحذفها من الأولى، ثم ختمت الآية بالصابرين للمبالغة في الطلب.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ مالوا. ﴿لِلسَّلْمِ﴾ بكسر السين وفتحها: الصلح، والإسلام دين السلام، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢/٢٠٨]. ﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ مل إليها وعاهدهم. ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثق به. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ للقول. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بالفعل. ﴿أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ بالصلح ليستعدوا للحرب. ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ﴾ كافيك وناصرك عليهم. ﴿حَرِّضِ﴾ حث على القتال. ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ أي بسبب أنهم. ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ أي لا يدركون حكمة الحرب وما تؤدي إليه من سعادة الدنيا والآخرة.

﴿إِن يَكُن﴾ هذا خبر بمعنى الأمر، أي ليقاتل العشرون منكم المئتين، والمئة ألفاً، ويثبتوا لهم، ثم نسخ ذلك لما كثروا، بالآية التالية.

﴿أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ عن قتال الواحد عشرة أمثاله. ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ بإرادته. ﴿وَإِن يَكُن﴾ خبر بمعنى الأمر أي لتقاتلوا مثليكم وتثبتوا لهم. ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي يعينهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٦٤):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾: قال الزمخشري في الكشاف نقلاً عن الكلبي: هذه الآية نزلت بالبَيْداء في غزوة بدر قبل القتال. وهذا هو الراجح.

وقيل: نزلت في إسلام عمر، والآية مكية، كتبت بأمر رسول الله ﷺ في سورة مدنية، كما ذكر القشيري. قال ابن عباس: نزلت في إسلام عمر؛ فإن

النبي ﷺ كان أسلم معه ثلاثة وثلاثون رجلاً، وست نسوة؛ فأسلم عمر، وصاروا أربعين.

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً، وست نسوة، ثم أسلم عمر، نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ الآية.

وأخرج أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن سعيد بن المسيب قال: لما أسلم عمر، أنزل الله في إسلامه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ الآية.

لكن ورد في السيرة خلاف ما ذكر عن إسلام عمر، قال ابن مسعود: ما كنا نقدر على أن نصلِّي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً، حتى صلَّى عند الكعبة، وصلينا معه. وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة. قال ابن إسحاق: وكان جميع من لحق بأرض الحبشة، وهاجر إليها من المسلمين، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً، أو ولدوا بها، ثلاثةً وثمانين رجلاً.

نزول الآية (٦٥):

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾: أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده عن ابن عباس قال: لما افترض الله عليهم أن يقاتل الواحد عشرة، ثقل ذلك عليهم وشق، فوضع الله ذلك عنهم إلى أن يقاتل الواحد رجلين، فأنزل الله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ الآية وما بعدها.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى بإعداد العدة لإرهاب الأعداء، أمر هنا بالصلح القائم على العزة والكرامة، وأنه عند توافر الرهبة إذا مالوا إلى الصلح، فالحكم قبول الصلح؛ لأن الحرب ضرورة لرد العدوان، وتحقيق حرية نشر

الإسلام، ومنع الظلم والطغيان، والضرورة تقدر بقدرها، فلا يلجأ إليها إلا إذا استعصت الحلول السلمية.

التفسير والبيان:

بعد توافر الإعداد الحربي والاستعداد التام للجهاد إن مال العدو إلى طلب الصلح، وآثر السلم على الحرب والقتال، فالحكم قبول الصلح حسبما يرى الإمام من المصلحة، قال الزمخشري: والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله، من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يُقاتَلُوا أبداً، أو يجابوا إلى الهدنة أبداً[١].

ومعنى الآية: وإن جنح، أي مال الأعداء إلى السلم أو الهدنة والصلح، فمل إليها؛ لأنك أولى بالسلم منهم، وصالحهم وتوكل على الله أي ثق به، وفوِّض الأمر إليه، ولا تخف من مكرهم وغدرهم في جنوحهم إلى السلم، فإن الله كافيك وعاصمك من مكرهم وخديعتهم، والله سميع لما يقولون، عليم بما يفعلون.

وإن يريدوا بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا، فالله يكفيك أمرهم وينصرك عليهم، فهو كافيك وحده.

وهذا دليل واضح على إيثار السلم وتفضيله على الحرب؛ لأن الإسلام دين السلام والهداية والمحبة، ولا يلجأ في شرعه إلى القتال إلا عند وجود الظروف القاهرة، والضرورات الملجئة.

ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ عشر سنين، أجابهم إلى ذلك، مع ما اشترطوا من شروط مجحفة

(١) الكشاف: ٢/ ٢٢

في حق المسلمين. روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون اختلاف أو أمر، فإن استطعت أن يكون السلم فافعل».

وأما ما نقل عن ابن عباس وجماعة آخرين من التابعين: أن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [٢٩] ففيه نظر، كما ذكر ابن كثير؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفاً، فإنه يجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص[١].

ثم ذكر الله تعالى نعمته عليه بما أيده من المؤمنين: المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تأبه بمكرهم وخديعتهم، فإن الله أيدك بنصره ومعونته، وأيدك بالمؤمنين، وجعلهم أمة متآلفة واحدة على الإيمان بك وعلى طاعتك، وعلى مناصرتك ومؤازرتك، فكان التأييد على قسمين: تأييد مباشر من الله من غير توسط أسباب معلومة، وتأييد معتمد على أسباب معتادة معلومة.

ثم أبان الله تعالى كيفية تأييده بالمؤمنين وتوحيد صفوفهم، فقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي إنه تعالى جعلهم أمة واحدة متآلفة، متعاونة في مناصرتك، بعدما كان بينهم من العداوة والبغضاء إثر منازعات وحروب طويلة في الجاهلية، كما كان الحال بين الأوس والخزرج من الأنصار، ثم أزال الله كل تلك الخلافات بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٢٢. ٣٢٣

ولو أنفقت جميع ما في الأرض من أموال، ما استطعت تأليف قلوبهم، وجمع كلمتهم، ولكن الله بهدايتهم للإيمان، وتوحيدهم على صراط مستقيم سوي، أمكنه بقدرته وحكمته التأليف بينهم.

وهذا دليل واضح على أن من أهم أسباب النصر هو التآلف واتحاد الكلمة.

ولم يقتصر التأليف على تسوية المنازعات الجاهلية القديمة، وإنما شمل تسوية المنازعات الجديدة التي حدثت بعد الإسلام، كما وقع من خلاف بين المهاجرين والأنصار، حين قسمة الغنائم في حُنَين، جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ، لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلالاً، فهداكم الله بي، وعالة[1] فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي» كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أمنُّ.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي إنه تعالى قوي غالب على أمره، لا يغلبه خداع الخادعين، ولا مكر الماكرين، ولا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.

وذكر الحافظ أبو بكر البيهقي عن ابن عباس قال: «قرابةُ الرحم تُقطَع، ومنة النعمة تُكْفَر، ولم يُرَ مثل تقارب القلوب» يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

وبعد أن وعد تعالى رسوله بالنصر عند مخادعة الأعداء، وعده بالنصر والظفر في جميع الحالات في الدين والدنيا، فلا تكرار، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي إن الله كافيك ما يهمك من شؤونهم وناصرك ومؤيدك على عدوك، وإن كثرت أعداده، وتزايدت أمداده، ولو قلّ عدد المؤمنين، وحسبك وكافيك من تبعك وآمن بك من المؤمنين.

---

(١) أي فقراء.

لكن وإن كان يكفيك الله بنصره وبنصر المؤمنين، فلا يعني ذلك تعطيل الأسباب والأخذ بالوسائل المطلوبة عادة للقتال، فلا تتكل على ذلك وحده، وإنما عليك أن تحرض المؤمنين على القتال، فإنه تعالى يكفيك بشرط أن يبذلوا النفس والمال في المجاهدة. والتحريض: الحث على الشيء.

ثم قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ وليس المراد منه الإخبار، بل المراد الأمر، كأنه قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ﴾ فليصبروا وليجتهدوا في القتال حتى ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ أي إن يوجد منكم عشرون صابرون ثابتون في مواقعهم، يغلبوا بإيمانهم وصبرهم وفقههم مئتين من الكفار ليست عندهم هذه الخصال الثلاث، لذا قال تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي إن السبب في هزيمة الكفار أنهم قوم جهلة لا يدركون حكمة الحرب كما تدركونها، فهم إنما يقاتلون بقصد مجرد التفوق والاستعلاء، وأنتم تقاتلون لإعلاء كلمة الله، من إصلاح العقيدة، والتطهر من الوثنية، والتحلي بالأخلاق الفاضلة، وإظهار العبودية لله عز وجل بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٤/ ٧٦] وقال: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤١].

ثم إنهم لا يؤمنون بالبعث والجزاء، وأما أنتم فتنتظرون إحدى الحسنيين من الغنيمة والنصر أو الشهادة في سبيل الله والظفر بالجنة.

وفي الآية عِدَة من الله وبشارة بأن جماعة المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله تعالى وتأييده. وفيها أيضاً أن من شأن المؤمنين أن يكونوا واعين لأهداف القتال، يعملون لما يرضي الله عز وجل، وأن يكونوا أعلم من الكافرين بكل ما يصلح حياة البشر وارتقاء الأمم. أما الكفار

والمشركون واليهود والنصارى فهم قوم ماديون يبغون من حروبهم مجرد التسلط والشهرة وإذلال الشعوب الأخرى.

ووقوف المسلم أمام عشرة من الكفار كان في مبدأ الأمر حيث كان المسلمون قلة، فطولبوا بالمرتبة العليا من الأفعال الكريمة وهي مرتبة العزيمة، وأما بعد أن كثر المسلمون، فلم يطالبوا إلا بما هو رخصة وتيسير وسهولة، لذا جاءت الآية التالية مخففة نوع التكليف، فقال تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ أي لما أوجب الله على المسلم الواحد مقاومة العشرة والثبات لهم، وثقل ذلك عليهم، خفف عنهم إلى مرتبة أقل منها، هي مقاومة الواحد الاثنين، فإن يكن منكم مئة صابرة، بعد أن علم فيكم ضعفاً في البدن من كثرة الجهاد والعمل، يغلبوا مئتين، وإن يكن منكم ألف صابرون يغلبوا ألفين بإذن الله وقوته ومشيئته، والله دائماً مع الصابرين بالمعونة والتأييد والرعاية. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ شقَّ ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفرَّ الواحد من عشرة، فجاء التخفيف فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية قال: فلما خفف الله عنهم من العدة، نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم».

وفي كلا الحالين يطالب المسلمون القلة بمقاومة الجماعة الأكثر منهم؛ لأن العبرة بالانضباط والصبر، والحزم والعزم، وصدق الإيمان، واتباع أوامر الله تعالى. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ تحذير للمؤمنين من الاعتماد على الإيمان وحده لتحقيق النصر والغلبة، فإنه لا بد مع الإيمان من أوصاف أخرى، أهمها الصبر والثبات، والإعداد المادي والنفسي الدائم، والمعرفة بحقائق الأمور، ومقاصد الجهاد.

وقد تكرر الأمر بالثبات فرداً وجماعة والصبر في القرآن الكريم، مثل قوله

تعالى في الثبات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٥] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٦١/ ٤] وقوله تعالى في الصبر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٠٠] وقوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٦].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت آية ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾على الأمر بقبول عقد الصلح والمهادنة أو المسالمة إن مال إليه العدو، وعلى الأمر بالتوكل على الله، أي تفويض الأمر فيما عقد من صلح إلى الله، ليكون عوناً على السلامة، والنصر عليهم إذا نقضوا العهد وعدلوا عن الوفاء. ونبه تعالى في آخر الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ على الزجر عن نقض الصلح؛ لأنه تعالى عالم بما يضمره العباد، وسامع لما يقولون.

وفي هذا دلالة واضحة على أن الإسلام يؤثر السلم على الحرب، ويوجب الوفاء بالمعاهدات والمصالحات، ويحرم المبادرة إلى الغدر والخيانة ونقض العهود.

وقد أثير خلاف حول هذه الآية، هل هي منسوخة أو لا؟ فقال قتادة وعكرمة: نسخها ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٥] وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٩/ ٣٦] وقالا: نسخت براءة كل موادعة، حتى يقولوا: لا إله إلا الله. وقال ابن عباس الناسخ لها: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٥].

وقال جماعة: ليست بمنسوخة، لكنها تضمنت الأمر بالصلح إذا كان فيه المصلحة، فإذا رأى الإمام مصالحتهم، فلا يجوز أن يهادنهم سنة كاملة، وإن

كانت القوة للمشركين، جاز مهادنتهم للمسلمين عشر سنين، ولا يجوز الزيادة عليها، اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه هادن أهل مكة عشر سنين، ثم إنهم نقضوا العهد قبل كمال المدة.

وصالح أصحاب رسول الله ﷺ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة كثيراً من بلاد العجم؛ على ما أخذوه منهم، وتركوهم على ما هم فيه، وهم قادرون على استئصالهم.

وصالح رسول الله ﷺ أهل خيبر على شروط نقضوها، فنقض صلحهم. وقد صالح الضَّمْري (مخشي بن عمرو، من بني ضمرة بن بكر، في غزوة الأبواء) وأُكَيْدِر دُومَة (أكيدر بن عبد الملك، من كندة، ودومة: هي دومة الجندل، مدينة قريبة من دمشق) وأهل نجران. وقد هادن قريشاً لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده.

وما زال الخلفاء والصحابة على هذه السبيل عاملة وسالكة.

والخلاصة كما ذكر ابن العربي: إذا كان للمسلمين قوة وعزة ومنعة فلا صلح، وإن كان لهم مصلحة في الصلح، لنفع يجتلبونه، أو ضرر يدفعونه فلا بأس بالصلح.

وقد نقلت سابقاً عن ابن كثير ترجيحه أن الآية غير منسوخة وغير مخصصة، ولا منافاة بينها وبين أوامر القتال، فهذه الأوامر عند الاستطاعة، والصلح عند العجز وقوة العدو وعدم التكافؤ بين قوتنا وقوته. وكذلك قال الجصاص: قد كان النبي ﷺ عاهد حين قدم المدينة أصنافاً من المشركين منهم النضير وبنو قينقاع وقريظة، وعاهد قبائل من المشركين، ثم كانت بينه وبين قريش هدنة الحديبية إلى أن نقضت قريش ذلك العهد بقتالها خزاعة حلفاء النبي ﷺ، ولم يختلف نقلة السير والمغازي في ذلك، وذلك قبل أن يكثر المسلمون. فلما كثر المسلمون لم يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام أو

السيف بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ ويقاتل أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾(١) . وما ذكر من الأمر بالمسالمة إذا مال المشركون إليها حكم ثابت أيضاً.

وعقد الصلح جائز غير لازم للمسلمين باتفاق العلماء، فيجوز نبذه إذا ظهرت أمارات الخيانة والنقض والغدر.

ويجوز - كما ذكر ابن العربي - عند الحاجة للمسلمين عقد الصلح بمال، يبذلونه للعدو، بدليل موادعة النبي ﷺ لعيينة بن حِصْن وغيره يوم الأحزاب، على أن يعطيه نصفَ تمر المدينة، فقال له السعدان: إن كان هذا الأمر من قِبَل الله فامْضِ له، وإن كان أمراً لم تؤمر به، ولك فيه هوى، فسمع وطاعة، وإن كان الرأي والمكيدة، فأعلِمْنا به، فقال النبي ﷺ: إنما هو الرأي والمكيدة؛ لأني رأيت العرب قد رَمَتْكم بقوس واحدة، فأردت أن أدفعها عنكم إلى يوم. فقال السعدان: إنا كنا كفاراً، وما طمعوا منّا بتمرة إلا بشراء أو بقِرى، فإذ أكرمنا الله بك، فلا نعطيهم إلا السيف، وشقّا الصحيفة التي كانت كتبت(٢).

ودلت آية: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ على حكم من أحكام الصلح، وهو أنهم إن صالحوا على سبيل المخادعة، وجب قبول ذلك الصلح؛ لأن الحكم يبنى على الظاهر، كما يبنى الإيمان على الظاهر.

وأرشدت آية ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ إلى أن تألف القلوب الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته؛ لأن أحدهم كان يُلْطَم اللطمة، فيقاتل عنها حتى يستقيدها، وكانوا أشد خلق الله حَمِيّة، فألف الله بالإيمان بينهم، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدِّين.

---

(١) أحكام القرآن: ٣/ ٦٩

(٢) أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٨٦٥

والله تعالى أيّد نبيه بمناسبة الصلح مع المشركين في حالين: خاصة وعامة، وليس ذلك من قبيل التكرار، ففي الآية الأولى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ كفاية خاصة، وهي حال الخديعة، أي وعده بالنصر عند مخادعة الأعداء. وفي الآية الثانية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ كفاية عامة أي حسبك الله وكافيك وناصرك في كل حال.

واستدل أهل السنة بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ على أن أحوال القلوب والعقائد والإرادات والكرامات، كلها من خلق الله تعالى، بسبب الإيمان ومتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام(١).

ودلت هذه الآية أيضاً على أن العرب كانوا قبل الإسلام في خصومة دائمة ومحاربة شديدة، يقتل بعضهم بعضاً، ويغير بعضهم على بعض، فلما آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر، زالت الخصومات، وحصلت المودة التامة والمحبة الشديدة.

وقد أيد الله رسوله بمعونته ونصرته وبالمؤمنين من المهاجرين، وهذه آية ربانية ومعجزة أخرى للنبي ﷺ الذي كان فرداً وحده يدعو إلى الإسلام، فأيده الله بتوفيقه، وحماه بالمؤمنين التابعين من حوله، في مكة والمدينة.

وأرشدت آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ إلى أن الواجب على المسلمين الإقدام على الجهاد بروح وثابة عالية، وشجاعة فائقة، وصبر شديد، وعزيمة لا تلين، حتى إنه كان المسلم مطالباً في مبدأ الأمر بالصمود أمام العشرة من الأعداء، ثم خفف الله عنه، فاكتفي بمطالبته بالثبات أمام اثنين فقط.

وهذا بدليل قول ابن عباس المتقدم، فإن الثبات أمام العدو فرض على

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ١٨٩

المسلمين، لا اختيار لهم فيه، ويحرم عليهم الانهزام أمام ضعفي العدد؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ وإن ورد بصيغة الخبر، فالمراد به الأمر، والأمر يقتضي الوجوب؛ لأن التخفيف إنما يكون في المأمور به، لا في المخبر عنه. ونظراً لوجود التخفيف، فلا محالة - كما قال الجصاص - قد وقع النسخ عن المسلمين فيما كلفوا به أولاً، ولم يكن أولئك القوم قد نقصت بصائرهم، ولا قلّ صبرهم، وإنما خالطهم قوم لم يكن لهم مثل بصائرهم ونياتهم، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[1].

ودل قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ على أنه لا تقع الغلبة إلا بإذن الله، أي إرادته. ودل قوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ على تأييد الله الصابرين وإعانتهم.

ودل قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ على وجود فوارق بين قتال المسلمين وقتال الأعداء، وتلك الفوارق توضح علة الغلبة والنصر وهي:

١ - من حيث الهدف: إن هدف غير المؤمن بالله وبالمعاد هو مجرد الاستمتاع بالحياة الدنيا والسعادة فيها، فيكون متمسكاً بها، حريصاً عليها، هياباً من الموت. أما المؤمن فيعتقد ألا سعادة في هذه الحياة، وأن السعادة لا تكون إلا في الآخرة، فلا يبالي بالحياة الدنيا، ويقدم على الجهاد بقلب قوي وعزم صحيح، حتى إنه يقاوم العدد الكثير.

٢ - من حيث الوسيلة: يعتمد الكفار على قوتهم وشوكتهم، ويستعين المسلمون بربهم بالدعاء والتضرع، فيكون النصر والظفر لهم أولى.

٣ - من حيث الباعث: إن قلب الكافر خاوٍ من نور الله والإيمان به والعلم والمعرفة، فيكون جباناً ضعيفاً عند القتال. وأما قلب المؤمن فيستضيء بنور الله ومعرفته، فيقوى قلبه وتكمل روحه، فيُقدم على القتال بروح عالية لا تعرف التردد والضعف.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٧١

شرط اتخاذ الأسرى
وقبول الفداء منهم وإباحة الانتفاع به

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

القراءات:

﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ﴾:

وقرأ أبو عمرو (أن تكون له).

﴿ٱلنَّبِىُّ﴾:

وقرأ نافع (النبيء).

﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾:

وقرأ أبو عمرو (من الأسارى).

الإعراب:

﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ ﴿كِتَـٰبٌ﴾: مبتدأ مرفوع، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: صفة له، تقديره: ثابت من الله، و﴿سَبَقَ﴾: فعل ماض، محله إما مرفوع على أنه

صفة أخرى لكتاب، وإما منصوب على أنه حال من الضمير الذي في الظرف أي ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾. وخبر المبتدأ محذوف تقديره: لولا كتاب بهذه الصفة تدارككم، لمسَّكم. ولا يجوز جعل ﴿سَبَقَ﴾ خبر المبتدأ؛ لأن الخبر بعد ﴿لَّوۡلَا﴾ لا يجوز إظهاره.

﴿حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ ﴿حَلَٰلٗا﴾: منصوب على الحال من ﴿مِمَّا﴾ أي المغنوم، أو صفة للمصدر، أي أكلاً حلالاً، وفائدته: إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة، أو حرمتها على الأولين، ولذلك وصفه بقوله: ﴿طَيِّبٗاۚ﴾.

وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ﴾ أي من الفدية؛ فإنها من جملة الغنائم، والفاء للتسبب، والسبب محذوف تقديره: أبحت لكم الغنائم فكلوا. وهو دليل لمن قال: إن الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة.

المفردات اللغوية:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ ما صح وما ينبغي له وما شأنه. ﴿يُثۡخِنَ﴾ يكثر القتل ويبالغ فيه. ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون. ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ حطامها بأخذ الفداء من الأسرى. ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة بقتلهم. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ قوي لا يُغلب وإنما يغلب أولياءه على أعدائه. ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه وحكمه يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها. ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح وهو ألا يعذب المخطئ في اجتهاده، أو ألا يعذبكم والرسول فيكم وأنتم تستغفرونه من ذنوبكم، أو بإحلال الغنائم والأسرى لكم. ﴿لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾ من الفداء.

﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ إيماناً وإخلاصاً. ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ من الفداء بأن يعوضكم عنه في الدنيا ويثيبكم في الآخرة. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ذنوبكم.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ أي الأسرى. ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بما أظهروا من القول. ﴿مِن قَبْلُ﴾ قبل بدر بالكفر. ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ ببدر قتلاً وأسراً، فليتوقعوا مثل ذلك إن عادوا. ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه. ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه.

سبب النزول:

نزول الآية (٦٧):

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾: روى أحمد وغيره عن أنس قال: استشار النبي ﷺ في الأسارى يوم بدر، فقال: إن الله قد أمكنكم منهم، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم، فأعرض عنه، فقام أبو بكر فقال: نرى أن نعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء، فأنزل الله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية.

وروى أحمد والترمذي والحاكم عن ابن مسعود قال: لما كان يوم بدر، وجيء بالأسارى، قال رسول الله ﷺ: ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟ الحديث. وفيه: فنزل القرآن بقول عمر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ الآيات.

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لم تحل الغنائم، لم تحل لأحد سود الرؤوس من قبلكم، كانت تنزل نار من السماء، فتأكلها، فلما كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحل لهم، فأنزل الله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

وأخرج ابن المنذر عن نافع عن ابن عمر قال: اختلف الناس في أسارى بدر، فاستشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر، فقال أبو بكر: فادِهم، وقال عمر: اقتلهم، فقال قائل: أرادوا قتل رسول الله ﷺ وهَدْم الإسلام، ويأمره أبو بكر بالفداء، وقال قائل: لو كان فيهم أبو عمر أو أخوه ما أَمَرَ بقتلهم.

فأخذ رسول الله ﷺ بقول أبي بكر، ففاداهم فنزل: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ فقال رسول الله: «إن كاد ليمسُّنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر».

فهذه الروايات تدل بالاتفاق على أن النبي ﷺ أخذ برأي أبي بكر، وقبل الفداء من أسرى بدر، وتذكر الرواية الثانية والرابعة أن القرآن نزل تشريعه موافقاً لرأي عمر، وتنفرد الرواية الثانية عند الترمذي أن نزول الآية كان بسبب أخذ الغنائم قبل أن تحل لهم.

وفي رواية خامسة عند ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن الأعمش عن ابن مسعود توضيح أكثر، يجعل الآراء ثلاثة، قال: لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى، قال رسول الله ﷺ: ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومُك وأصلك استبقهم واستأن بهم لعل الله عز وجل يتوب عليهم. وقال عمر: كذبوك وأخرجوك، فقدمهم فاضرب أعناقهم. وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم ناراً، فقال العباس: قطعت رحمك، فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبهم.

ثم دخل، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله، ثم خرج عليهم فقال: إن الله عز وجل ليُلين قلوبَ رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله عز وجل ليشدِّد قلوبَ رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة. وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٦] وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١١٨] . وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ١٠/ ٨٨]

ومثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٧١/٢٦] .

ثم قال رسول الله ﷺ: أنتم اليوم عالة، أنتم اليوم عالة، فلا ينفلتن منهم أحد، إلا بفداء أو ضرب عنق؟ قال ابن مسعود: فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٨/٦٧] الآيات(١).

وتنفرد رواية سادسة ذكرها مسلم وأحمد عن عكرمة بن عمارة عن ابن عباس في وصف حال النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر بعد نزول الآية، وتصرح بأن الذين اختاروا الفداء كثيرون، قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر والتقوا، فهزم الله المشركين، وقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر سبعون رجلاً، استشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً، فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم، فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟

قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أن تمكنني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه، وتمكّن علياً من عَقيل فيضرب عنقه، وتمكِّن حمزة من فلان أخيه، فيضرب عنقه، حتى يعلم الله عز وجل أنه ليس في قلوبنا موادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فهوِي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء.

فلما كان من الغد، قال عمر: غدوت إلى النبي ﷺ، فإذا هو قاعد، وأبو بكر الصديق، وإذا هما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني، ماذا يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت؟

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ١٣٦ وما بعدها.

فقال النبي ﷺ: أبكي للذي عُرض على أصحابك من الفداء، لقد عُرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ أي من الفداء وهذه الرواية أجمع الروايات وأصحها وأولاها بالاحتجاج بها.

والخلاصة: كان الأولى قتل الأسرى، وكان أخذ الفداء باجتهاد النبي ﷺ، وكل اجتهاد عرضة للخطأ والصواب، لكن اجتهاد المصطفى لا يقر فيه على الخطأ.

روى ابن المنذر عن قتادة قال: أراد أصحاب محمد الفداء يوم بدر، ففادَوْهم بأربعة آلاف، أربعة آلاف. وفي مصنف أبي داود عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربع مئة.

نزول الآية (٧٠):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾: روى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: قال العباس: فيَّ والله نزلت حين أخبرت رسول الله ﷺ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقية التي وُجدت معي، فأعطاني بها عشرين عبداً، كلهم تاجر بمالي في يده، مع ما أرجو من مغفرة الله.

وفي رواية أخرى أكثر إيضاحاً، قال الكلبي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ الآية: نزلت في العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، ونَوْفل بن الحارث، وكان العباس أسر يوم بدر، ومعه عشرون أوقية من الذهب، كان خرج بها معه إلى بدر ليطعم بها الناس، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا إطعام أهل بدر، ولم يكن بَلَغَتْهُ التَّوْبة حتى أسر، فأخذت معه وأخذها رسول الله ﷺ منه، قال:

فكلمت رسول الله ﷺ أن يجعل لي العشرين أوقية الذهب التي أخذها مني من فدائي، فأبى علي وقال: أما شيء خرجت تستعين به علينا فلا، وكفلني فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية من فضة، فقلت له: تركتني والله أسأل قريشاً بكفي، والناس، ما بقيت. قال: فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل مخرجَك إلى بدر، وقلت لها: إن حدث بي حدث في وجهي هذا، فهو لك ولعبد الله والفضل وقُثَم، قال: قلت: وما يدريك؟ قال: أخبرني الله بذلك، قال: أشهد أنك لصادق، وإني قد دفعت إليها ذهباً، ولم يطلع عليها أحد إلا الله، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.

قال العباس: فأعطاني الله خيراً مما أُخذ مني، كما قال: عشرين عبداً، كلهم يضرب بمال كبير، مكان العشرين أوقية، وأنا أرجو المغفرة من ربي[١].

وروى أبو الشيخ ابن حيان عن ابن عباس: أن العباس وأصحابه قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، فنزل: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ الآية.

المناسبة:

الآيات متصلة بما قبلها في بيان الأحكام الحربية بمناسبة غزوة بدر، فهي لتبيان حكم آخر من أحكام الجهاد في حق النبي ﷺ، وهو حكم الأسرى في مبدأ قيام الدولة الإسلامية وهو القتل.

التفسير والبيان:

ما صح لنبي وما استقام له وما كان شأنه الذي ينبغي أن يكون له أسرى يختار فيهم إما المنّ أو الفداء في مبدأ أمره حتى يكثر القتل في الكفار ويبالغ

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ١٣٨

فيه، لإظهار عزة الإسلام والمسلمين. وإرهاب الدولة أعداءها، واشتداد أمرها، فلا يتجرأ على النيل منها أحد، ولا يقدم على إضعافها والتجسس عليها أحد من الأسرى الذين تركوا يعودون لديارهم بفداء مالي.

فالذين يرون قبول الفداء إنما يريدون الحصول على عرض الدنيا[١] أي حطام الدنيا الفاني، والله يريد لكم ثواب الآخرة الدائم وما هو سبب الجنة بما يشرعه لكم من الأحكام المؤدية إليه، ومنها الإثخان في القتل في الأرض، وإعزاز الدين، والقضاء على الأعداء، لإعلاء كلمة الحق، وإقامة العدل، وإقرار النظام الأصلح للبشرية.

والله عزيز يغلِّب أولياءه على أعدائه، ويمكنهم منهم قتلاً وأسراً، حكيم في أفعاله وأوامره، يشرع لكل حال ما يليق به، ويخصه به، كالأمر بالإثخان ومنع أخذ الفداء حين كانت الشوكة والقوة للمشركين، وبذلك تتحقق عزة المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨] .

لولا كتاب من الله سبق أي لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ[٢]: وهو أنه لا يعاقب المخطئ في اجتهاده؛ لأن أصحاب هذا الرأي نظروا ورأوا أن استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم وتوبتهم، وأن فداءهم يتقوّى به على الجهاد في سبيل الله، وخفي عليهم أن قتلهم أعز للإسلام، وأهيب لمن وراءهم، وأضعف لشوكتهم.

وقيل: إن الحكم الذي سبق هو ألا يعذب أهل بدر فهم مغفور لهم، أو ألا يعذب قوماً إلا بعد تأكيد الحجة والبيان، والتصريح المتقدم بالنهي عن الفداء، ولم يكن قد تقدم نهي عن ذلك، أو أنهم استعجلوا في استباحة الغنائم، ولم تكن قد أحلت لهم، والله تعالى سيحلها لهم.

---

(١) إنما سميت منافع الدنيا ومتاعها عرضاً؛ لأنه لا ثبات له ولا دوام، فكأنه يعرض ثم يزول.

(٢) جواب «لولا» سيأتي في الأسطر الآتية.

لولا هذا الحكم الإلهي السابق إبرامه لنالكم أيها المؤمنون فيما أخذتم من الفداء عذاب عظيم وقعه، شديد هوله. وفي هذا تهويل لخطر ما فعلوا.

وبعد أن عاتبهم الله تعالى على أخذ الفداء، أباحه لهم وجعله من جملة الغنائم المباحة التي أبيحت لهم في مطلع السورة، فقال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ أي أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم من الفدية، حال كونه حلالاً لكم، طيباً بنفسه لا حرمة فيه لذاته، كحرمة الدم ولحم الخنزير، أو كلوه أكلاً حلالاً لا شبهة فيه. والفائدة إزاحة ما وقع في نفوسهم من أكل الفداء بسبب تلك المعاتبة أو حرمة الغنائم على الأولين.

واتقوا الله في مخالفة أوامره، ولا تعودوا لشيء من المخالفة لأمره ونهيه، ولا ترتكبوا المعاصي بعد ذلك، إن الله غفور لذنوبكم بأخذ الفداء، رحيم بكم بإباحته لكم ما أخذتم، ومن رحمته: قبوله التوبة عن عباده وعفوه عن السيئات.

والخلاصة: أن مفاداة الأسرى أو المنَّ عليهم بإطلاق سراحهم لا يكون إلا بعد توافر الغلبة والسلطان على الأعداء، وإظهار هيبة الدولة في وجه الآخرين.

وبعد أن أخذ النبي ﷺ الفداء من الأسرى، وشق عليهم أخذ أموالهم منهم، أنزل هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم﴾ استمالة لهم، وترغيباً لهم في الإسلام ببيان ما فيه من خيري الدنيا والآخرة، وتهديداً وإنذاراً لهم إذا بقوا على الكفر.

ومعنى الآية: يا أيها النبي قل لمن وقع في أيديكم من أسرى المشركين الذين أخذتم منهم الفداء: إن يعلم الله في قلوبكم الآن أو في المستقبل إيماناً وإخلاصاً وحسن نية وعزماً على طاعة الله والرسول في جميع التكاليف، والتوبة عن الكفر، وعن جميع المعاصي، ومنها العزم على نصرة الرسول

والتوبة عن محاربته، يؤتكم خيراً مما أخذ منكم من الفداء، ويغفر لكم ما كان منكم من الشرك والسيئات، والله غفور لمن تاب عن المعاصي، رحيم بالمؤمنين، فهو يمدهم بعنايته وتوفيقه وإسعاده.

قال ابن عباس: الأسرى في هذه الآية العباس وأصحابه، قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، لننصحنَّ لك على قومك، فنزلت هذه الآية.

وفي هذا حض على إعلان الإسلام وقبول دعوته. وإن يريدوا أي الأسرى خيانتك يا محمد بإظهار الإسلام والمسالمة، ثم نقض ما عاهدوك عليه، فلا تخف من خيانتهم، فإنهم قد خانوا الله من قبل بدر بالكفر، ونقض ميثاقه الذي أخذه على البشر في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٢]، وأقام الأدلة الكونية والعقلية عليه، وآتاهم من العقل الذي يرشد المتأمل بحق إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى.

فأمكن منهم، أي فأمكنك منهم يوم بدر، وإن عادوا إلى الخيانة فسيمكّنك منهم، ويسلطك عليهم فتهزمهم.

والله عليم بنواياهم، حكيم في تدبيره وصنعه، فينصر المؤمنين على الكافرين.

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ بوعده بالنصر، ووعيده لهم بالهزيمة؛ لأن الله مطلع على كل شيء في الوجود، ومهيمن على جميع البشر، وقادر على تحقيق ما يريد.

فقه الحياة أو الأحكام:

آية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ نزلت يوم بدر، عتاباً من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ. والمستفاد منها أنه ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي أسرى قبل الإثخان أي القتل والتخويف الشديد.

وهذه الآية إحدى موافقات الوحي لرأي عمر، وقد بلغت بضعاً وثلاثين.

ولقد كان هذا الحكم مناسباً لبدء قيام الدولة الإسلامية، ولا شك أن لكل دولة في بداية تأسيسها أحكاماً وظروفاً وقتية، تستدعيها المصلحة واستكمال قيام الدولة، وهذا الحكم القتل المشروع للأسرى من الأعداء مجرمي الحرب، وليس التقتيل الداخلي للشعب بعد قيام الثورة مثلاً.

ولم يكن فعل النبي ﷺ إلا اجتهاداً واختياراً لأحد أمرين مشروعين: هما القتل وأخذ الفداء. فهو فعل لخلاف الأولى، وليس في ذلك مساس أصلاً بعصمة الأنبياء عليهم السلام كما فهم بعضهم؛ لأن المساس بالعصمة يحصل إذا خالف النبي نصاً صريحاً أو أمراً قائماً، ولم يكن هناك نص أو أمر سابق بالقتل، بدليل مشاورة الصحابة، إذ لا يجوز له بمجال ترك حكم النص، وطلب الحكم من مشاورة الصحابة.

وأما بكاء النبي ﷺ فيحتمل أن يكون بسبب الخطأ في الاجتهاد، وحسنات الأبرار سيئات المقرَّبين، وقد أقدم على البكاء لأجل هذا المعنى، بسبب حرصه الشديد على الإصابة فيما ارتآه، وموافقة اجتهاده حكم الله في المسألة.

وعلى كل حال، فقد قتل بعض أسرى بدر وهم اثنان أو ثلاثة وهم: النضر ابن الحارث وعُقبة بن أبي مُعَيط وطُعيمة بن عدي، لكنه لم يحقق الإثخان في الأرض، وحاول بعض المستشرقين الطعن بذلك، فكيف لو قتل جميع الأسرى، وكان عددهم سبعين، فيهم العباس عم النبي وعقيل بن أبي طالب ابن عمه؟!

أسند الطبري وغيره أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إن شئتم أخذتم فداء الأسارى، ويُقتل منكم في الحوب سبعون على عددهم، وإن شئتم قُتلوا وسلمتم» فقالوا: نأخذ الفداء، ويستشهد منا سبعون.

وإذا كان التخيير بين القتل وأخذ الفداء، فكيف وقع التوبيخ بقوله: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾؟ الجواب: أن التوبيخ وقع أولاً لحرصهم على أخذ الفداء، ثم وقع التخيير بعد ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ في أنه لا يعذب قوماً حتى يبين لهم ما يتقون، فأصح الأقوال - في رأي ابن العربي والقرطبي - في كتاب الله السابق: ما سبق من إحلال الغنائم، فإنها كانت محرمة على مَنْ قبلنا، فلما كان يوم بدر، أسرع الناس إلى الغنائم، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي بتحليل الغنائم.

وبما أن هذه الآية في إحلال الغنيمة، واستحقاق العذاب بما اقتحموا فيها مما ليس لهم اقتحامه إلا بشرع، استنبط ابن العربي من ذلك بأن الآية دليل على أن العبد إذا اقتحم ما يعتقده حراماً، مما هو في علم الله حلال، إنه لا عقوبة عليه، كالمرأة إذا قالت: هذا يوم حيضتي فأُفطر، والصائم إذا قال: هذا يوم نوبتي في سفري فأُفطر، ثم حدث الحيض والسفر فعلاً، ورجح ابن العربي ألا كفارة في هذه الحالة؛ لأن حرمة اليوم ساقطة عند الله، فصادف هتك حرمة الصوم محلاً لا حرمة له في علم الله، فكان بمنزلة ما لو قصد وطء امرأة قد زُفَّت إليه، وهو يعتقد أنها ليست بزوجة، فإذا هي زوجة. وهذا رأي أبي حنيفة. ومشهور مذهب المالكية والشافعي أن فيه الكفارة[١].

والمعنى الراجح لقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ في رأي الرازي: لولا أنه تعالى حكم في الأزل بالعفو عن هذه الواقعة لمسهم عذاب عظيم.

وظاهر قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ يقتضي أن تكون الغنيمة كلها ملكاً للغانمين، وأن يكونوا مشتركين فيها على السواء؛ إلا أن قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟

(١) أحكام القرآن: ٢/ ٨٧٢

أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ المتقدم بيِّن وجوب إخراج الخمس منه وصرفه إلى مصارفه المذكورة. وفي الآية أيضاً إباحة الغنائم التي كانت محظورة قبل ذلك، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ فيما رواه الترمذي عن أبي هريرة قال: «لم تحل الغنائم لقوم سود الرؤوس من قبلكم».

وأرشدت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ إلى أنه يجب على المؤمنين ترغيب الأسرى في الإيمان. وتضمنت بشارة للمؤمنين باستمرار النصر على المشركين، ما داموا آخذين بأسباب النصر المادية والمعنوية.

روى البخاري عن أنس: «أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ في ترك فداء عمه العباس رضي الله عنه، وكان في أسرى المشركين يوم بدر، فقالوا: ائذن لنا، فنترك لابن أختنا[1] العباس فداءه، فقال ﷺ: والله لا تذرون منه درهماً».

وكان فداء الأسير أربعين أوقية ذهباً، فجعل على العباس مائة أوقية (لأنه كان موسراً) وعلى عَقيل ثمانين، فقال له العباس: أللقرابة صنعت هذا؟ قال: فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ فقال العباس (بعد إسلامه): وددت لو كان أخذ مني أضعافها، لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾.

وذكر ابن العربي أنه لما أُسِر من أسر من المشركين، تكلم قوم منهم بالإسلام، ولم يمضوا بذلك عزيمة، ولا اعترفوا به اعترافاً جازماً. ويشبه أنهم أرادوا أن يَقْرَبوا من المسلمين، ولا يبعدوا من المشركين، فنزلت الآية.

---

(١) لأن جدته كانت أنصارية.

قال المالكية: إن تكلم الكافر بالإيمان في قلبه وبلسانه، ولم يمض به عزيمة لم يكن مؤمناً. وإذا وُجد مثل ذلك من المؤمن، كان كافراً إلا ما كان من الوسوسة التي لا يقدرُ المرء على دفعها، فإن الله قد عفا عنها وأسقطها.

وقد بيَّن الله لرسوله الحقيقة فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ أي إن كان هذا القول منهم خيانة ومكراً ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك، فأمكنك منهم، وإن كان هذا القول منهم خيراً ويعلمه الله، فيقبل ذلك منهم، ويعوضهم خيراً مما خرج عنهم، ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم[١].

والمراد بالخير في قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ يشمل خيري الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيخلفهم الله أفضل مما أخذ منهم، وأما في الآخرة فيعطيهم الثواب ويدخلهم الجنة. وذلك يشمل كل من أخلص من الأسارى.

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٨٧٤

أصناف المؤمنين في عهد النبي ﷺ بمقتضى الإيمان والهجرة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

القراءات:

﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾:

وقرأ حمزة: (من وِلايتهم).

الإعراب:

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾، ويجوز أن يكون من باب التنازع في العمل بين ﴿وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ الهاء: إما أن تعود على التوارث، وإما أن تعود على التناصر. و﴿تَكُن﴾: تامة بمعنى: تقع لا تفتقر إلى خبر. و﴿فِتْنَةٌ﴾: فاعل تكن. والمعنى: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين، وتولي بعضهم بعضاً حتى في التوارث، تفضيلاً لنسبة الإسلام على

نسبة القرابة، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار، ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة، تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة؛ لأن المسلمين مالم يصيروا يداً واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهراً، والفساد زائداً (الكشاف: ٢/ ٢٥).

المفردات اللغوية:

﴿وَهَاجَرُواْ﴾ أي تركوا مكة التي كانت دار حرب وكفر، وذهبوا إلى المدينة دار الإسلام ﴿ءَاوَواْ﴾ أنزلوا وأسكنوا النبي ﷺ ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ هم الأنصار ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ في النصرة والإرث ﴿وَلَـٰيَتِهِم﴾ أي توليتهم في الميراث، والولاية في الأصل: ملك الأمر والسلطة عليه والقيام به ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾ أي فلا إرث بينكم وبينهم ولا نصيب لهم في الغنيمة ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ وهذا أي التوارث بالهجرة كان في مبدأ الأمر، ثم نسخ بآخر السورة وأصبح التوارث بقرابة الرحم ﴿مِّيثَٰقٌۗ﴾ عهد، أي فلا تنصروا المسلمين على المعاهدين وتنقضوا عهدهم .﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ في النصرة والإرث، فلا إرث بينكم وبينهم.

﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ أي تولي المسلمين وقمع الكفار ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ أي تحدث فتنة عظيمة بقوة الكفر وضعف الإسلام ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ في الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ﴾ بعد السابقين إلى الإيمان والهجرة ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ أيها المهاجرون والأنصار ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ ذوو القرابات ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ﴾ في الإرث من التوارث بسبب الإيمان والهجرة المذكورة في الآية السابقة ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ ومنه حكمة الميراث وتدرجها من التوارث بالهجرة إلى التوارث بالرحم، إلى التوارث بشدة القرابة في سورة النساء.

سبب النزول:

نزول الآية (٧٣):

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أخرج ابن جرير الطبري، وأبو الشيخ ابن حيان عن السُّدِّي عن أبي مالك قال: قال رجل: نورِّث أرحامنا المشركين؟ فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ﴾ الآية.

نزول الآية (٧٥):

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾: أخرج ابن جرير عن ابن الزبير قال: كان الرجل يعاقد الرجل: ترثني وأرثك، فنزلت: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

وأخرج ابن سعد عن عروة قال: آخى رسول الله ﷺ بين الزبير بن العوام وبين كعب بن مالك، قال الزبير: فلقد رأيت كعباً أصابته الجراحة بأُحُد، فقلت: لو مات، فانقلع عن الدنيا وأهلها، لوَرِثْتُه، فنزلت هذه الآية: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ﴾ فصارت المواريث بعد للأرحام والقرابات، وانقطعت تلك المواريث في المؤاخاة.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى قواعد الحرب والسلم مع الكفار، وحكم معاملة الأسرى، ختم السورة ببيان قرابة الإسلام ورابطته البديلة عن علاقة الكفر، وهي ولاية المؤمنين بعضهم لبعض بمقتضى الإيمان والهجرة، في مقابلة ولاية الكافرين بعضهم لبعض، ولكن بشرط المحافظة على العهود والمواثيق مع الكفار مدة العهد.

التفسير والبيان:

جعلت الآيات أصناف المؤمنين في مواجهة الكفار أربعة أقسام:

١ً - المهاجرون الأولون قبل غزوة بدر إلى صلح الحديبية.

٢ً - الأنصار: أهل المدينة الذين آووا إخوانهم المهاجرين.

٣ً - المؤمنون الذين لم يهاجروا.

٤ً - المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية.

أما الصنف الأول فهم المذكورون في مطلع الآية الأولى وهم الذين آمنوا بالله ورسوله أصحاب الهجرة الأولى قبل غزوة بدر إلى صلح الحديبية سنة ست من الهجرة، الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم، وتركوها في مكة، وجاؤوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله. وهذا الصنف هو الأفضل والأكمل. وقد وصفهم الله بالإيمان، أي التصديق بكل ما جاء به النبي ﷺ، ووصفهم بالمهاجرة من ديارهم وأوطانهم، فراراً بدينهم من فتنة المشركين، إرضاءً لله تعالى ونصراً لرسوله ﷺ، ونعتهم بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

أما الجهاد بالأموال: فهو إنفاقها في التعاون والهجرة والدفاع عن دين الله، كصرفها للكُراع (الخيول) والسلاح، وعلى محاويج المسلمين. فضلاً عن سخاء النفس بترك تلك الأموال في وطنهم: مكة.

وأما الجهاد بالنفس فهو قتال الأعداء والاستعلاء عليهم وعدم المبالاة بهم، وما كان قبل ذلك من احتمال المشاق، والصبر على الأذى والشدائد والاضطهاد المتواصل.

وتقديم الجهاد بالأموال على الأنفس؛ لأنه أدفع للحاجة ويتوقف الجهاد بالنفس عليه.

والخلاصة: وصف المهاجرون الأولون بأربع صفات: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والهجرة، والجهاد، وأولية الإقدام على هذه الأفعال.

وأما الصنف الثاني فهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي آووا الرسول والمهاجرين إليهم، ونصروهم، فكانت المدينة عاصمة الإسلام ومنطلق الدعوة في أرجاء الأرض، وملجأ المهاجرين الذين عملوا مع الأنصار على نصرة دين الله والقتال معهم، وشارك هؤلاء أولئك في أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، فكانوا في الفضل بعد الصنف الأول.

ثم وصف الله الصنفين بأن بعضهم أولياء بعض، أي يتولى بعضهم أمر الآخر كما يتولى أمر نفسه، ويكون كل منهم أحق بالآخر من كل أحد؛ لأن حقوقهم ومصالحهم مشتركة، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بهذا الإخاء إرثاً مقدماً على القرابة، حتى تقوّى المهاجرون بالتجارة وغيرها، فنسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس. وروى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض، والطلقاء من قريش، والعتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة» لكن تفرد به أحمد.

فكان الإرث بين المهاجرين والأنصار بالإسلام والهجرة دون القرابة، فالمسلم في غير المدينة لا يرث المسلم الذي في المدينة وما حولها إلا إذا هاجر إليها، فيرث ممن بينه وبينه إخاء.

وهكذا فالولاية بين المهاجرين والأنصار عامة في الحرب والإرث وكل أوجه العلاقة بينهم وبين الكفار. وقال أبو بكر الأصم: الآية محكمة غير منسوخة، والمراد بالولاية: النصرة والمظاهرة.

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار، في غير ما آية في كتابه، لتضامنهم وتناصرهم، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٠] وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٧] وقال عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٨-٩] أي لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم.

وظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك، كما ذكر ابن كثير. ولهذا روى أبو بكر البزار في مسنده عن حذيفة قال: «خيرني رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة، فاخترت الهجرة».

وأما الصنف الثالث وهم المؤمنون الذين لم يهاجروا فقد ذكرهم الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ [الأنفال: ٨/ ٧٢] أي أن الذين صدّقوا برسالة النبي ﷺ، ولم يهاجروا من مكة إلى المدينة، وظلوا مقيمين في أرض الشرك تحت سلطان المشركين أي في دار الحرب والشرك، لا يثبت لهم شيء من ولاية (نصرة) المؤمنين الذين في دار الإسلام. أما من أسره الكفار من أهل دار الإسلام، فله حكم أهل هذه الدار. إن الولاية منقطعة بين أهل الدارين إلا في حالة واحدة ذكرها تعالى بقوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾ وهي مناصرتهم على الكفار إذا قاتلوهم أو اضطهدوهم لأجل دينهم، إلا إذا كان هؤلاء الكفار معاهدين، فيجب الوفاء بعهدهم؛ لأن الإسلام لا يبيح الغدر والخيانة بنقض العهود. وهذا أصل من أصول أحكام الإسلام وسياسته الخارجية العادلة الرفيعة المستوى.

وحذر الله تعالى من نقض العهد بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي إن الله مطلع على جميع أعمالكم، فالزموا حدوده، ولا تخالفوا أمره، ولا تتجاوزوا ماحدّه لكم، كيلا يحل بكم عقابه.

والخلاصة: ليست المقاطعة تامة، كما في حق الكفار، بين المؤمنين في دار الإسلام وبين المؤمنين الذين لم يهاجروا، فلو استنصروكم فانصروهم ولا تخذلوهم.

ومن أجل دعم الولاية (التناصر والتعاون) بين المهاجرين والأنصار، ذكر الله تعالى حال الكفار في مواجهة المؤمنين، ليكونوا صفاً واحداً تجاههم، وليعلموا قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ أي إن الكفار في جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين، يوالي بعضهم بعضاً في النصرة والتعاون على قتال المسلمين، وإن تعددت مللهم، وعادى بعضهم بعضاً، وقد أكد التاريخ ذلك، فكان اليهود مناصرين المشركين في حربهم ضد المؤمنين، حتى إنهم نقضوا عهودهم مع المسلمين، مما استوجب حربهم وإجلاءهم من خيبر، والتاريخ يعيد نفسه، فترى المشركين والماديين الملحدين واليهود والنصارى في كل عصر في خندق معاد للإسلام والمسلمين.

وجعل الكفار في صف والمسلمين في صف آخر مواجه لهم اقتضى امتناع الإرث بسبب اختلاف الدين باتفاق المذاهب الأربعة، فلا يرث المسلم كافراً، ولا الكافر مسلماً، لما رواه الحاكم في مستدركه عن أسامة عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً ولا كافر مسلماً» ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ وروى الجماعة إلا النسائي عن أسامة بن زيد: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم».

أما توارث الكفار بعضهم من بعض فجائز في رأي الجمهور؛ لأن الكفر ملة واحدة في الإرث؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾. وقال المالكية: لا يرث كافر كافراً إذا اختلف دينهما من اليهودية والنصرانية؛ لأنهما دينان مختلفان، ولا يرثان من مشرك ولا يرثهما مشرك؛ لعموم الحديث السابق: «لا يتوارث أهل ملتين شتى» ولأنه لا موالاة بينهم.

وأما اختلاف الدار فهو مانع للإرث عند الحنفية فقط إذا كان بين الكفار، دون المسلمين، لثبوت التوارث بين أهل البغي وأهل العدل (دار الإسلام) فيكون هذا المانع خاصاً بغير المسلمين.

وليس اختلاف الدار لدى الشافعية مانعاً من موانع الإرث، لكنهم قالوا: لا توارث بين حربي ومعاهد، وهو يشمل الذمي والمستأمن؛ لانقطاع الموالاة بينهما.

وليس اختلاف الدار مطلقاً مانعاً للميراث لدى المالكية والحنابلة، فيرث أهل الحرب بعضهم من بعض، سواء اتفقت ديارهم أو اختلفت.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ﴾ أي إن لم تفعلوا ماشرع لكم من موالاة المسلمين وتواصلهم وتناصرهم وتعاونهم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض، وتجنب موالاة المشركين وعدم الاختلاط بهم، تحصل فتنة عظيمة في الأرض هي ضعف الإيمان وقوة الكفر، وفساد كبير وهو سفك الدماء، فتعم الفتنة وهي التباس الأمر، واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس فساد زائد في الدين والدنيا.

وفي هذا دلالة على حرص الإسلام على الحفاظ على شخصية المسلمين الذاتية، واستقلالهم في ديارهم، وعدم إقامتهم في أوطان الكفار. روى ابن جرير عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين» ثم قال: «لا يتراءى ناراهما».

ثم أراد الله تعالى أن يبين فضل المهاجرين والأنصار على غيرهم، ويوضح ماهم في الآخرة، بعد أن ذكر حكمهم في الدنيا فهم متواصلون بينهم، وهذا ثناء عليهم، فلا تكرار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي إن الله تعالى يخبر عنهم بأنهم هم المؤمنون حق الإيمان وأكمله، دون من لم يهاجر وأقام بدار الشرك، مع حاجة الرسول ﷺ والمؤمنين إلى هجرته، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة التامة والصفح عن ذنوبهم إن كانت، وبالرزق الكريم في الجنة: وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، الدائم المستمر الذي لا ينقطع أبداً.

هؤلاء الأصناف الثلاثة هم السابقون المقربون كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

وأما الصنف الرابع وهم المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية، فهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي والذين تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى، وبعد أن قويت شوكة المسلمين، وهاجروا إلى المدينة، وجاهدوا مع السابقين لهم، فأولئك منكم، أي إنهم كالمهاجرين الأولين والأنصار، في الموالاة والتعاون والتناصر والفضل والجزاء، فهؤلاء الأتباع لهم في الدنيا، على ماكانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح، النصرة، وهم مع المتقدمين في حسن الجزاء والعاقبة في الآخرة، فهم تبع لمن سبقهم، لذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ٥٩/١٠] وفي الحديث المتفق عليه المتواتر من طرق صحيحة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب» وفي الحديث الآخر الذي رواه الطبراني والضياء عن أبي قرصافة: «من أحب قوماً فهو منهم» وفي رواية «حشره الله في زمرتهم».

وفي جعل الصنف الرابع من جملة الأصناف الثلاثة السابقة بقوله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ دليل على فضل السابقين على اللاحقين، كما أن في الآية قدراً مشتركاً

بين الصنف الأول والأخير وهو الهجرة والإيمان، مما يدل على الترغيب فيهما.

ثم ذكر الله تعالى ولاية الرحم والقرابة بعد ولاية الإيمان والهجرة، فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي أصحاب القرابة التي تربط بينهم رابطة الدم، والآية عامة تشمل جميع القرابات، سواء أكانوا من ذوي الفروض أم العصبات (القرابة من جهة الأب) أم الأرحام (القرابة من جهة الأم) في اصطلاح علماء الفرائض، هؤلاء بعضهم أولى ببعض أي أجدر وأحق من المهاجرين والأنصار الأباعد بالتناصر والتعاون والتوارث في دار الهجرة، في كتاب الله، أي في حكم الله الذي كتبه على عباده المؤمنين، وأوجب به عليهم صلة الأرحام.

فولاية الرحم أهم من ولاية الإيمان وولاية الهجرة في عهدها السابق، والقريب المؤمن أولى بقريبه الرحم من المؤمن المهاجر والأنصاري البعيد القرابة، فتكون الآية مخصصة ما سبقها. أما القريب الكافر فيقطع الكفر صلته بقريبه.

وتكون الأخوة في النسب والدم، والأخوة في الله أولى في حكم الله من مجرد الأخوة الدينية.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ﴾ أي إن الله عليم بكل الأشياء، وعلمه واسع محيط بكل شيء من مصالحكم الدنيوية والأخروية، وبكل ما شرعه في هذه السورة من أحكام في السلم والحرب والغنائم والأسرى والعهود والمواثيق والولاية العامة والخاصة بين المؤمنين وصلة الأرحام، وهو إشارة إلى أن جميع أحكام السورة محكمة غير منسوخة ولا منقوضة وكلها حكمة وصواب وصلاح، وليس فيها شيء من العبث، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٢] .

لكن آية ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ نقل عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد: أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً. ويؤيدهم حديث صحيح متواتر: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث».

فالإرث الذي كان بسبب النصرة والهجرة صار منسوخاً، فلا يحصل الإرث إلا بسبب القرابة، وقوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ المراد منه السهام المذكورة في آيات المواريث في سورة النساء. وهذا ما ذهب إليه الشافعية، فلا إرث لذوي الأرحام بالمعنى الضيق عند علماء الفرائض كالخال والخالة والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم، وليس لهم نصيب، والعصبات أولى بعضهم ببعض؛ لأن الفروض عينت. وقال الحنفية: يثبت الإرث لذوي الأرحام بنص هذه الآية، وذلك إذا لم يوجد أحد من العصبات.

وأما من نفى كون آية ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ ناسخة لما تقدمها، فإنه فسر المراد بالولاية والنصرة والمحبة والتعظيم، وتكون الآية الأولى لبيان أن رابطة الإسلام أقوى من رابطة النسب، والثانية لبيان مكانتهم وأنهم المؤمنون حقاً، والثالثة لبيان أن المتأخرين في الإيمان والهجرة لهم حكم من تقدمهم، وأن التناصر بالقرابة أيضاً مطلوب.

ويكون المراد من آية أولى الأرحام أن ولاية الإرث إنما تحصل بسبب القرابة إلا ما خصه الدليل، فيكون المقصود من هذا الكلام إزالة الوهم في أن الولاية محتملة للولاية بسبب الإرث، قال الرازي: وهذا أولى؛ لأن تكثير النسخ من غير ضرورة ولا حاجة لا يجوز[١].

---

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ٢١٣.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١ً - ثبوت ولاية النصرة بين مؤمني دار الإسلام، وبيان فضل المهاجرين السابقين على اللاحقين، وفضل المهاجرين على الأنصار، وجعل المتأخرين في الإيمان والهجرة بمنزلة المتقدمين في تضامنهم معهم.

٢ً - ثبوت ولاية النصرة بين مؤمني دار الإسلام ومؤمني دار الحرب في حال مقاتلتهم أو اضطهاد الكفار لهم إلا إذا كان بيننا وبينهم ميثاق صلح وسلام، فلا تمكن مناصرتهم. وفيما عدا حالة المقاتلة لا تثبت ولاية النصرة بين المسلمين في دار الإسلام، والمسلمين في دار الحرب.

٣ً - تقديس الوفاء بالعهود والمواثيق في شرعة الإسلام، وإن مس ذلك مصلحة بعض المسلمين.

٤ً - الكفار بعضهم أولياء بعض أي نصراء وأعوان.

٥ً - إذا لم نحقق ولاية النصرة بيننا، ووالينا الكفار، أدى ذلك إلى ضعفنا وقوتهم علينا.

٦ً - إن كل ما شرعه الله من أحكام صادر عن علم واسع شامل محيط بالمصالح الدينية والدنيوية.

٧ً - إرث ذوي الأرحام وهو من لا سهم له في القرآن من قرابة الميت، وليس بعصبة، وبه قال الحنفية والحنابلة محتجين بالآية(١)، فقد اجتمع في ذوي الأرحام سببان، القرابة والإسلام، فهم أولى ممن له سبب واحد وهو الإسلام، وروى أبو داود والدارقطني عن المقدام قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٧٦.

«من ترك كلّاً فإلي، ومن ترك مالاً فلورثته، فأنا وارث من لا وارث له، أعقِل عنه وأرثه، والخال وارث من لا وارث له، يعقِل عنه ويرثه» .

وقال المالكية والشافعية: لا يرث من لا فرض له من ذوي الأرحام، وترد التركة إلى بيت المال؛ لأن الله تعالى ذكر في آيات المواريث نصيب أصحاب الفروض والعَصَبات، ولم يذكر لذوي الأرحام شيئاً، ولو كان لهم حق لبيَّنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ١٩/٦٤] ، وروى الترمذي وغيره من قوله ﷺ: «إن الله أعطى لكل ذي حق حقه» .

وأما آية ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ فهي آية مجملة جامعة، وآيات المواريث مفسّرة، والمفسّر قاضٍ على المجمل ومبيِّن. وروى أبو داود في المراسيل أنه ﷺ سئل عن ميراث العمة والخالة، فقال: «أخبرني جبريل أن لا شيء لهما» .

والأصح أن الهجرة انقطعت بفتح مكة؛ لأنها صارت حينئذ بلد إسلام وجزءاً من دار الإسلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التوبة

مدنية وهي مئة وتسع وعشرون آية
نزلت في غزوة تبوك سنة تسع

تسميتها:

قال الزمخشري: لها عدة أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكِّلة، المدمدمة، سورة العذاب؛ لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق، أي تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين، أي تبحث عنها، وتثيرها، وتحفر عنها، وتفضحهم، وتنكلهم، وتشرد بهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم[١]. وتسمى أيضاً البُحوث؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين.

وعن حذيفة رضي الله عنه: إنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحداً إلا نالت منه.

وعن ابن عباس في هذه السورة قال: إنها الفاضحة ما زالت تنزل فيهم، وتنال منهم، حتى خشينا ألا تدع أحداً، وسورة الأنفال نزلت في بدر، وسورة الحشر نزلت في بني النضير.

---

(١) الكشاف: ٢/ ٢٥

السبب في إسقاط التسمية من أولها:

قال ابن عباس: سألت علياً رضي الله عنه، لِمَ لم يُكتَبْ في براءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾؟ قال: لأنَّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ أمان، وبراءة نزلت بالسيف ونبذ العهود، وليس فيها أمان[(١)].

وقال سفيان بن عُيَيْنة: إنما لم تكتب في صدر هذه السورة البسملة؛ لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين[(٢)].

قال القرطبي نقلاً عن القشيري: والصحيح أن التسمية لم تكتب؛ لأن جبريل عليه السلام مانزل بها في هذه السورة. فلم يكتبها الصحابة في المصحف الإمام، مقتدين في ذلك بأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، كما قال الترمذي.

مناسبتها لما قبلها:

هناك شبه بين سورة براءة وسورة الأنفال قبلها، فهي كالمتممة لها في وضع أصول العلاقات الدولية الخارجية والداخلية، وأحكام السلم والحرب، وأحوال المؤمنين الصادقين والكفار والمنافقين، وأحكام المعاهدات والمواثيق، إلا أن في الأنفال بيان العهود والوفاء بها وتقديسها، وفي براءة نبذ العهود، وذكر في السورتين صدُّ المشركين عن المسجد الحرام، والترغيب في إنفاق المال في سبيل الله، وتفصيل الكلام في قتال المشركين وأهل الكتاب وبيان أوضاع المنافقين.

---

(١) تفسير الرازي: ١٥/٢١٦

(٢) تفسير القرطبي: ٨/٦٢ ـ ٦٣

وبالرغم من هذا الشبه الموضوعي في السورتين، وأنهما تُدْعيان القرينتين، وأنهما نزلتا في القتال، فإنهما في الأصح سورتان مستقلتان، فليست براءة جزءاً من الأنفال، بدليل كثرة أسمائها المميزة لها، وفصلها عما سبقها، واستقر على ذلك ترتيب السور والآيات، وتناقل المسلمون هذا الفصل في المصحف من عهد الصحابة لما كتبوا المصحف في خلافة عثمان.

قال عثمان رضي الله عنه: قُبض رسول الله ﷺ، ولم يبين لنا أنها منها. وفي قوله هذا دليل على أن السور كلها انتظمت بقوله وتبيينه، وأن براءة وحدها ضمت إلى الأنفال من غير عهد من النبي ﷺ؛ لما عاجله من الحِمام قبل تبيينه ذلك. وكانتا تُدعيان القرينتين، فوجب أن تُجمعا وتضم إحداهما إلى الأخرى؛ للوصف الذي لزمهما من الاقتران، ورسول الله ﷺ حيّ[١].

قال ابن العربي: هذا دليل على أن القياس أصل في الدين، ألا ترى إلى عثمان وأعيان الصحابة كيف لجؤوا إلى قياس الشَّبَه عند عدم النص، ورأوا أن قصة ﴿بَرَآءَةٌ﴾ شبيهة بقصة ﴿ٱلْأَنفَالِ﴾ فألحقوها بها، فإذا كان الله قد بيَّن دخول القياس في تأليف (أي جمع) القرآن، فما ظنك بسائر الأحكام[٢]؟!

تاريخ نزولها:

كانت ﴿ٱلْأَنفَالِ﴾ من أوائل ما أنزل بعد الهجرة، و﴿بَرَآءَةٌ﴾ من آخر مانزل من القرآن، نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وهي السنة التي حدثت فيها غزوة تبوك، وهي آخر غزواته ﷺ، خرج فيها لغزو الروم، وقت القيظ والحر الشديد، زمن العسرة، حين طابت الثمار، فكانت ابتلاء لإيمان المؤمنين، وافتضاحاً لنفاق المنافقين. وقد نزل أولها بعد فتح مكة، فأرسل النبي ﷺ علياً ليقرأها على المشركين في موسم الحج.

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ٦٣

(٢) أحكام القرآن: ٢/ ٨٨١

روى البخاري عن البَراء بن عازب قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ وآخر سورة نزلت: ﴿بَرَآءَةٌ﴾.

ما اشتملت عليه السورة:

افتتحت السورة بالبراءة من المشركين، ومنحهم مدة أمان أربعة أشهر، ثم إعلان الحرب عليهم بسبب جرائمهم، ثم منعهم من دخول المسجد الحرام إلى الأبد. ثم مجاهدة أهل الكتاب حتى يؤدوا الجزية أو يسلموا. وتضمنت السورة في قسمها الأول حتى نهاية الآية [٤١] الحث على الجهاد والنفير العام في سبيل الله بالأموال والأنفس. ثم تحدثت عن أوصاف المنافقين ومخاطرهم في القسم الثاني إلى آخر السورة، وتخلل ذلك الإشارة إلى تخلف الأعراب عن الجهاد، وعدم قبول تخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب عن المشاركة في الجهاد، وختمت السورة بمقارنات واضحة تميز بين المؤمنين والمنافقين، وجعل الجهاد فرض كفاية، وتخصيص فئة أخرى للتفقه في الدين.

فكان محور السورة يدور حول أمرين:

الأول - أحكام جهاد المشركين وأهل الكتاب.

الثاني - تمييز المؤمنين عن المنافقين بصدد غزوة تبوك.

أما أحكام الجهاد فقد مهد لها القرآن الكريم في هذه السورة بنبذ العهود والأمان بالنسبة إلى المشركين، وإنهاء المعاهدات التي كانت قائمة بين المسلمين وأهل الكتاب؛ لأن كلاً من المشركين والكتابيين نقضوا العهود، وتواطأت طوائف اليهود من بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع مع المشركين على محاربة المسلمين ومحاولة القضاء عليهم. وتحدثت حوالي عشرون آية عن أحقاد اليهود ودسائسهم ومؤامراتهم، وخبثهم وكيدهم، فلا عهد ولا أمان، ولا سلم ولا مصالحة بعد انتهاء أمد الأمان، ونقض العهود من غير المسلمين.

وأما الأمر الثاني فكان بسبب استنفار المسلمين لغزو الروم في غزوة تبوك، وقد أوضحت الآيات في القسم الأعظم من هذه السورة نفسيات المسلمين، وظهور عوارض التثاقل والتخلف والتثبيط، ومراوغة المنافقين، ودسائسهم الماكرة، واتخاذهم ما أطلق عليه (مسجد الضرار) الذي نزل بشأنه أربع آيات، وكراً للتآمر والتخريب، وتعريتهم بشكل فاضح، حتى سميت السورة (الفاضحة) لأنها فضحت المنافقين، ولم تدع لهم ستراً إلا هتكته.

والخلاصة: كانت هذه السورة سورة الحسم الكامل لأوضاع غير المسلمين، وربما كانت أخطر سورة حشدت جيش الإيمان وأعدته للمعركة الفاصلة النهائية بين المسلمين وغيرهم، سواء في داخل الدولة بتصفية جذور النفاق، والقضاء على مكر اليهود، أو في خارج الدولة بالتصدي لغطرسة الروم في غزوة تبوك التي أرهبتهم، وجمدت كل تحركاتهم المشبوهة للقضاء على الإسلام والمسلمين.

وكان لهذه التصفية المقدَّر والمخطط لها من قبل الله تعالى على الصعيد الداخلي والخارجي الأثر الأكبر في استقرار الدولة الإسلامية، والحفاظ على كيانها الدولي وإظهار هيبتها ومنعة وجودها، بعد انتقال مؤسسها وقائدها النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

أضواء من التاريخ على صلح الحديبية:

عقد النبي ﷺ معاهدة صلح الحديبية سنة ست من الهجرة مع المشركين على وضع الحرب أوزارها، وعلى السلم والأمان مدة عشر سنوات، بشروط متسامح فيها عن قوة وعزة، لا عن ضعف وذلة. ثم نقضت قريش المعاهدة بإعانة حليفتها قبيلة بني بكر على قبيلة خزاعة حليفة النبي ﷺ بالسلاح والرجال، فاستغاث عمرو بن سالم الخُزَاعي على رأس وفد بالنبي ﷺ، فأغاثه قائلاً: «نصرت ياعمرو بن سالم، لا نصرتُ إن لم أنصر بني كعب» فكان ذلك سبب عودة حالة الحرب مع قريش.

فأمر رسول الله ﷺ الناس بالتأهب للقتال، وسار لفتح مكة سراً، ففتحها في السنة الثامنة من الهجرة.

ولما بلغ هوازن فتح مكة، جمعهم أميرهم مالك بن عوف النصري لقتال المسلمين، وكانت غزوة حنين التي شهدها دريد بن الصِّمَّة في شوال في السنة الثامنة، ثم حاصر النبي بعدها الطائف بضعاً وعشرين ليلة، وقاتلهم قتالاً شديداً، ورماهم بالنبل والمنجنيق.

ثم خرج النبي ﷺ في رجب سنة تسع إلى غزوة تبوك، وهي آخر غزواته، وفيها نزلت أكثر آيات سورة براءة.

ولما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أراد الحج، ولكنه تذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم، ويطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة، ليقيم للناس مناسكهم ويُعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب، ليكون مبلّغاً عن رسول الله ﷺ، لكونه عصبة له. وقال له: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة فأذن بذلك في الناس إذا اجتمعوا».

فخرج علي راكباً العضباء ناقة الرسول ﷺ، فأدرك أبا بكر في ذي الحليفة، وأمَّ أبو بكر الناس في الحج، وقرأ علي على الناس صدر سورة براءة[١]. وذلك يوم النحر بمنى سنة تسع.

روى الإمام أحمد والترمذي في التفسير عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

(١) تفسير ابن كثير: ٣٣١/٢ ومابعدها، الكشاف: ٢٦/٢، تفسير القرطبي: ٦٤/٨ ـ ٦٨.

أن رسول الله ﷺ بعثه ببراءة مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحلَيفة قال: «لا يبلّغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي» فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وروى البخاري أن النبي ﷺ بعث علياً سنة تسع، فأذن يوم النحر بمنى بصدر سورة براءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وروى أحمد والترمذي والنسائي عن زيد بن يُثَيْع رجل من همدان قال: سألنا علياً بأي شيء بعثت؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة، قال: «بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عُرْيان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا».

نقض عهود المشركين
وإعلان الحرب عليهم والبراءة منهم

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾
وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ
وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ
يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

الإعراب:

﴿بَرَآءَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هذه براءة، ويكون﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في موضع رفع؛ لأنه وصف براءة وتقديره: براءة كائنة من الله. ويجوز أن تكون

﴿بَرَآءَةٌ﴾ مبتدأ وخبره: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾. و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وصف لبراءة، و﴿مِّنَ﴾ لابتداء الغاية متعلق بمحذوف.

﴿وَأَذَٰنٌ﴾ معطوف على﴿بَرَآءَةٌ﴾، ورفعه مثل الوجهين المذكورين في ﴿بَرَآءَةٌ﴾ من أنه خبر مبتدأ محذوف، أو أنه مبتدأ، ويكون خبره ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ﴾. و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وصف لأذان. و﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ﴾: العامل فيه الصفة. ولا يجوز أن يكون ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ لأنه وصف، والمصدر إذا وصف لم يعمل عمل الفعل.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر أي بأن ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ بالرفع والنصب، فالرفع من وجهين: أحدهما - أنه مبتدأ وخبره محذوف، أي ورسوله بريء، وحذف لدلالة الأول عليه. والثاني - أنه معطوف على الضمير المرفوع في ﴿بَرِيٓءٌ﴾ وجاز العطف على الضمير المرفوع وإن لم يؤكد، لوجود الفصل بالجار والمجرور؛ لأنه يقوم مقامه. أو معطوف على محل: إن واسمها في قراءة من كسرها إجراء للأذان مجرى القول. وأما بالنصب فهو عطف على اسم ﴿أَنَّ﴾ أو لأن الواو بمعنى مع.

ولا تكرار لمعنى ﴿بَرَآءَةٌ﴾ لأن قوله ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إخبار بثبوت البراءة و﴿بَرِيٓءٌ﴾ إخبار بوجوب الإعلام بذلك، ولذلك علقه بالناس، ولم يخص بالمعاهدين.

البلاغة:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تنوين ﴿بَرَآءَةٌ﴾ للتفخيم، وتقييدها بأنها ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لزيادة التهويل .﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أسلوب تهكمي؛ لأن البشارة بالعذاب، وهي تكون عادة بما هو مفرح.

المفردات اللغوية:

﴿بَرَآءَةٌ﴾ أي تبرؤ من الله ورسوله، يقال: برئ من العهد أو المرض:

خلص منه، وبرئ من الذنب: تركه وتباعد عنه، وبرئ من الدين: أسقط عنه .﴿عَـٰهَدتُّم﴾ المعاهدة: عقد العهد بين فريقين على شروط يلتزمونها. وكانت توثق بالأيمان بوضع كل فريق يمينه في يمين الآخر، فسميت أيماناً في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ أي لا عهود لهم. والمراد من المعاهدين هنا: ذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، وكذا من كان له عهد فوقها ونقض العهد. أما من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ الآية، وللحديث: «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهده إلى مدته» قال ابن كثير: وهذا أحسن الأقوال وأقواها.

﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سيروا آمنين أيها المشركون في الأرض مدة أربعة أشهر، والمراد حرية الانتقال مع الأمان هذه المدة دون قتال فيها، وأولها شوال، بدليل قول الزهري: إن براءة نزلت في شوال. ولا أمان لكم بعدها. والسياحة والسيح: الانتقال في الأرض بحرية ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي لا تفوتونه من عذابه بالهرب والتحصن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ مذلهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار، والخزي: الذل والفضيحة بما هو عار.

﴿وَأَذَٰنٌ﴾ إعلام ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هو يوم العيد الأكبر وهو يوم النحر الذي تنتهي فيه فرائض الحج، ويجتمع فيه الحجيج لإتمام مناسكهم، وإنما قيل: الأكبر من أجل قول الناس عن العمرة: الحج الأصغر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي بأن الله بريء من عهود المشركين ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ بريء أيضاً ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الكفر ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الإيمان ﴿وَبَشِّرِ﴾ أخبر ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم وهو القتل والأسر في الدنيا، والنار في الآخرة .﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شروط العهد والميثاق، فلم يقتلوا أحداً ولم يضروه .﴿وَلَمْ يُظَـٰهِرُواْ﴾ يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من الكفار ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي إلى انقضاء مدتهم التي عاهدتم عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بإتمام العهود.

المناسبة:

كان هناك عهد عام بين النبي ﷺ ومشركي مكة وغيرهم على ألا يصدَّ عن البيت الحرام أحد من الطرفين، ولا يزعج أحد في الأشهر الحرم، وكانت هناك أيضاً عهود بينه عليه الصلاة والسلام وبين كثير من قبائل العرب إلى آجال معينة، فنقض كثير من المشركين عهودهم مع النبي ﷺ، مما اقتضى نزول البراءة من عهودهم.

التفسير والبيان:

نزلت آيات ﴿بَرَآءَةٌ﴾ الأولى في أهل مكة في السنة التاسعة، بعد أن عاهدهم النبي ﷺ في صلح الحديبية سنة ست هجرية، فنقضوا العهد، إلا بني ضَمْرة وبني كنانة، فأمر المسلمون بالتبرؤ من عهود المشركين وإمهالهم أربعة أشهر، فإذا انتهت هذه المدة قاتلوهم.

والمراد بالعهود: العهود المطلقة غير المؤقتة بزمن، ومن كان له عهد دون أربعة أشهر فتكمل له هذه المدة، وأما من عهده مؤقت بمدة فوق ذلك فأجله إلى مدته، مهما كان؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٩/٤] . هذا أصح الأقوال الذي اختاره الطبري وابن كثير وغيرهما. قال الكلبي: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد دون أربعة أشهر؛ ومن كان عهده أكثر من أربعة أشهر، فهو الذي أمر الله أن يُتَم له عهده بقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾.

وقد أمّر النَّبي ﷺ - كما أوضحت - أبا بكر في السّنة التّاسعة أميراً على الحجّ، فلما سافر نزلت سورة ﴿بَرَآءَةٌ﴾ متضمّنة نقض عهد المشركين، فأرسل عليّاً ليبلّغ ذلك النّاس يوم الحجّ الأكبر قائلاً: «لا يؤدِّي عني إلا رجل من أهل بيتي». فلما اجتمع الناس بمنى يوم النّحر، قرا عليهم علي آيات من أول سورة ﴿بَرَآءَةٌ﴾، ثم قال - فيما رواه التّرمذي والنسائي وأحمد -: «بعثت

بأربع: ألا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان بينه وبين النَّبي ﷺ عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا».

ومعنى الآية: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ أي تبرؤ وتخلص، وهي براءة صادرة من الله ورسوله، واصلة إلى الذين عاهدتم من المشركين. وإنما نسبت البراءة لله ولرسوله لأنها تشريع جديد من الله، وأمر لرسوله بتنفيذه، وتنويه بمقامه ومكانته. ونسبت المعاهدة بقوله: ﴿عَـٰهَدتُّم﴾ للمؤمنين؛ لأنهم هم الذين ينفذون أحكام المعاهدات، مع أن الرّسول ﷺ هو الذي عقد العهد بوصفه قائد الأمّة. قال الجصّاص: البراءة: هي قطع الموالاة، وارتفاع العصمة، وزوال الأمان.

براءة إلى أهل العهد المشركين، وهم أهل مكة وخزاعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم من العرب، أي إن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين، وأنه منبوذ إليهم؛ لأنهم ما عدا ناساً منهم وهم بنو ضَمْرة وبنو كنانة نكثوا العهد، فنبذ العهد إلى الناكثين، وأمروا أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاؤوا، لا يتعرض لهم.

وقوله: ﴿فَسِيحُواْ﴾ عدول من الخبر إلى الخطاب، أي قل لهم: سيحوا، أي سيروا في الأرض آمنين غير خائفين أحداً من المسلمين. وتبيّن بالآية أن هذه البراءة وهذا النّبذ إليهم، إنما هي بعد أربعة أشهر، وأن عهد المعاهدين باقٍ إلى آخر هذه المدّة[1].

وحددت لهم هذه المدّة ليفكروا في أمرهم، فيختاروا إما الإسلام وإما القتال، ولتكون لديهم فرصة للاستعداد للقتال، إذا أصرّوا على شركهم

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٧٧

وعداوتهم. وهذا منتهى التّسامح والإنذار، حتى لا يتهم المسلمون بأخذهم فجأة على غرّة.

والأربعة الأشهر في رأي السيوطي هي: شوال وذو القَعْدة وذوالحجة والمحرَّم؛ لأنه روي عن الزُّهري: أن ﴿بَرَآءَةٌ﴾ نزلت في شوال.

وقال آخرون كالزّمخشري والرّازي والقرطبي وابن كثير: هي الأشهر الحرم في قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها، وهي عشرون من ذي الحجة والمحرَّم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من ربيع الآخر، وهذا هو القول الأصحّ في تقديري؛ لأن الإمام علي رضي الله عنه قرأ أوائل سورة﴿بَرَآءَةٌ﴾ على الناس يوم النّحر في منى.

وليس المراد بالأشهر الأربعة هي الأشهر الحرم المعروفة، وهي: ذو القعدة وذوالحجة والمحرَّم ورجب كما ارتأى ابن جرير نقلاً عن ابن عباس؛ لأن ذلك مخلّ بالنّظم القرآني، مخالف للإجماع؛ لأن حرمة هذه الأشهر قد نسخت، ومثل هذا القول يقتضي بقاء حرمة الأشهر الحرم. وإنما المراد أشهر التّسيير الأربعة المذكورة آنفاً.

والحكمة في إعطاء ﴿بَرَآءَةٌ﴾ لعلي رضي الله عنه لتبليغها: أن براءة تضمّنت نقض العهد الذي كان عقده النّبي ﷺ، وكانت سيرة العرب ألا يَحُلّ العقد إلا الذي عقده، أو رجل من أهل بيته، فأراد النّبي ﷺ أن يقطع ألسنة العرب بالحجة، ويرسل ابن عمه الهاشمي من بيته ينقض العهد، حتى لا يبقى لهم متكلم.

وتضمّنت الآية جواز قطع العهد بيننا وبين المشركين، وذلك في حالتين: حالة انقضاء مدّة المعاهدة، فنؤذنهم أي نخبرهم بالحرب، وحالة نقض العهد منهم، أو خوف الغدر منهم، فننبذ إليهم عهدهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ أي واعلموا علم اليقين أنكم لن تفلتوا من عذاب الله بالهرب والتّحصن إن بقيتم على شرككم وعداوتكم، وإن أمهلكم، وهو مخزيكم أي مذلّكم في الدُّنيا بالقتل، والآخرة بالعذاب في النّار، كما قال تعالى في مشركي مكة وأمثالهم: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٥-٢٦] .

وبعد أن أعلن الله براءته من المشركين، أمر بإعلان هذه البراءة للناس قاطبة، فقال: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي وإعلام من الله ورسوله بالبراءة من عهود المشركين إلى الناس جميعاً، يوم الحجّ الأكبر وهو يوم النّحر الذي تنتهي فيه فرائض الحجّ، وأفضل أيام المناسك، ويجتمع فيه الحجاج في منى لإتمام مناسكهم.

فليس بين البراءتين تكرار؛ لأن البراءة الأولى مختصة بالمعاهدين والنّاكثين العهد منهم، وأما الأذان بالبراءة فعام لجميع الناس، من عاهد ومن لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين، ومن لم ينكث.

وسمي الأكبر لأنه حجّ فيه أبو بكر، ونُبذت فيه العهود. ويوم الحجّ الأكبر في رأي ابن عباس في رواية عنه، وابن مسعود وابن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة، وهو مذهب مالك: هو يوم النّحر؛ لأن يوم النّحر فيه الحجّ كله؛ لأن الوقوف بعرفة في ليلته، والرَّمي والنَّحر والحلق والطَّواف في صبيحته.

وهو في رأي عمر وعثمان، وابن عباس في رواية أخرى، وطاوس ومجاهد، ومذهب أبي حنيفة والشافعي: يوم عرفة؛ لحديث مَخْرمة أنّ النَّبي ﷺ قال: «يوم الحج الأكبر: يوم عرفة».

وروي عن عطاء ومجاهد: الحجّ الأكبر الذي فيه الوقوف بعرفة، والأصغر: العمرة. أي أنّ العمرة تسمّى الحجّ الأصغر.

وكان علي هو المخبر بنقض العهد، مع بقاء إمارة الحج لأبي بكر، كما تقدّم، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: «بعثني أبو بكر في تلك الحجّة في مؤذنين بعثهم يوم النّحر يؤذّنون بمنى: ألا لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيان» ثم أردف رسول الله ﷺ بعلي بن أبي طالب، وأمره أن يؤذّن ببراءة، وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيان.

ثم أكّد الله تعالى الإعلام أو التّبليغ الفوري فقال: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ أي قولوا لهم: فإن تبتم عن الشرك فهو خير لكم، أي أنفع لكم في الدُّنيا والآخرة. وإن توليتم عن الإيمان، وأعرضتم عن الإسلام، فاعلموا أنكم غير معجزي الله، أي فائتي عذابه، فلن تفلتوا منه، فإنه محيط بكم، ومنزل عقابه عليكم، ولا طاقة لكم بحربه في الدُّنيا، ووعده لرسله وللمؤمنين بالنّصر عليكم.

وبشّر أيها الرّسول من أنكر رسالتك، ولم يؤمن بالله وملائكته بعذاب مؤلم شديد الألم في الآخرة. وهذا أسلوب تهكّمي واستهزاء إذ استخدم البشارة بالسّوء محل الإنذار.

ثم استثنى الله تعالى من مدّة التّأجيل بأربعة أشهر لأصحاب العهود المطلقة غير المؤقتة: من له عهد مؤقت، فأجله إلى انتهاء مدة عهده التي عوهد عليها، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ أي إن الإخبار بنقض العهد يسري على جميع المشركين إلا المعاهدين الذين عاهدتموهم، ثم لم ينقصوكم شيئاً من شروط العهد، ولم يظاهروا - يعاونوا - عليكم عدواً، كبني ضَمْرة وبني كِنانة ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ وإن كانت أكثر من أربعة أشهر، بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أي يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفى له بذمّته وعهده، وأكّد تعالى وجوب الوفاء بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي الموفين بعهدهم.

قال ابن عباس: بقي لحي من كنانة من عهدهم تسعة أشهر، فأتم إليهم عهدهم.

وهذا دليل قاطع على حرمة المعاهدات في الإسلام، وأن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام ما دامت مدّة المعاهدة قائمة، وأن العهد المؤقّت لا ينقض إلا بانتهاء وقته، وأن مراعاة شروط المعاهد من مظاهر التّقوى ومشتملاتها.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يلي:

١ً - نقض معاهدات المشركين المطلقة غير المؤقّتة بزمن؛ لأنهم نكثوا العهد وأخلّوا بشروط التّعاهد.

٢ً - من كان له عهد دون أربعة أشهر، تكمل له مدّة أربعة أشهر.

٣ً - مدة الأمان وحريّة الانتقال والتّأمل في المصير، إما بإعتناق الإسلام أو بالدّخول في القتال: هي أربعة أشهر، تبدأ بعد عيد الأضحى أو يوم النحر، وتنتهي في عاشر شهر ربيع الآخر سنة عشر. وهي دليل واضح على حرص الإسلام على تسوية العلاقات الخارجية مع الأعداء على أساس من السّلم والأمن والتّفاهم.

٤ً - من كان له عهد مؤقّت، فيبقى على عهده إلى انتهاء مدّته، مهما كان، ما لم ينقض العهد، أو يخلّ بشرط من شروطه.

٥ً - الإسلام يقدّس العهود ويوجب الوفاء بها ويجعل احترامها نابعاً من الإيمان، وملازماً لتقوى الله تعالى.

٦ً - لن يعجز الله أحد من الكفار ولن يفوت من العقاب في الدُّنيا، وللكافرين عذاب أليم في الآخرة، كيلا يظن أحد أنّ عذاب الدُّنيا لما فات وزال، فقد تخلّص من العذاب، بل العذاب الشَّديد معدّ له يوم القيامة.

٧ً - إن افتتاح السورة بالبراءة وبدون بسملة يدخل في النّفس الرّهبة الشَّديدة والخوف الأشدّ.

٨ً - لا يأس في شرعة القرآن، فقد فتح الله باب التوبة والأمل أمام الكفار، وهددهم بالعذاب إن تولوا عن الإسلام.

فرضية قتال مشركي العرب في أي مكان وجدوا

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾

الإعراب:

﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ إما منصوب بتقدير حذف حرف الجرّ، أي على كل مرصد وهو المنصوب بنزع الخافض، وإما منصوب على الظرف.

البلاغة:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ فيه استعارة، شبّه انقضاء الشّهر بالانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده.

المفردات اللغوية:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ﴾ خرج وانقضى، شبّه مضي الزّمان بانسلاخ الجلد المحيط بالشّاة، لانتهاء تعلقه به. ﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ جمع حرام، وهي آخر مدّة التّأجيل، وهي الأشهر التي أُبيح للناكثين أن يسيحوا في الأرض، ويحرّم فيها قتالهم، وهي يوم النّحر إلى العاشر من ربيع الآخر، كما تقدّم. ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في حلّ أو حرم. ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي إِئْسروهم، والأخيذ: الأسير. ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ امنعوهم من الخروج والتّنقل في البلاد، واحبسوهم وحاصروهم في القلاع والحصون حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام.

﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي اقعدوا لهم على كل مرصد، أي ممرّ وطريق يجتازونه في أسفارهم.

﴿فَإِن تَابُوا﴾ من الكفر .﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ اتركوهم ولا تتعرّضوا لهم .﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن استغفره وتاب، يستر ذنوبه، ويرحم شأنه.

المناسبة:

هذه الآية مفرعة على ما قبلها، فبعد أن أعلن تعالى البراءة من عهود المشركين، وأعطاهم مهلة أمان، أربعة أشهر، ذكر ما يجب على المؤمنين فعله: وهو قتالهم في أي مكان في الحلّ أو الحرم.

التفسير والبيان:

هذه هي آية السَّيف، إذ جاء الأمر فيها بالقتال، ومعناها: إذا انقضت الأشهر الأربعة الحُرُم التي حرم فيها القتل والقتال بين المسلمين والمشركين، من يوم النّحر إلى العاشر من ربيع الآخر، على الرّاجح لدى المفسِّرين، وأجلناهم فيها، فافعلوا معهم ما يحقق المصلحة الحربية التي ترونها من اتِّخاذ أحد التدابير الآتية:

أن تقتلوهم في أي مكان وجدوا فيه، من حِلّ أو حرم.

أو تأخذوهم أسرى إن شئتم، والأسر إنما يكون للقتل أو الفداء أو المنّ على ما يراه الإمام.

أو تحاصروهم في مواقعهم من القلاع والحصون، وتمنعوهم من الخروج حتى يسلموا، ويرضخوا لما تملونه عليهم من الشروط، إلا أن تأذنوا لهم، فيدخلوا إليكم بأمان.

أو تقعدوا لهم في كل مرصد، أي تراقبوهم في كل موضع أو طريق أو ممرّ

يجتازونه في أسفارهم، حتى تضطروهم إلى الإسلام أو القتل، وحتى تملؤوا قلوبهم خوفاً ورهبةً منكم. والمرصد: الموضع الذي يُرقَب فيه العدو، وهو موضع الغِرَّة والمباغتة.

فإن تابوا عن الكفر أو الشرك الذي حملهم على قتالكم وعداوتكم، ودخلوا في الإسلام بأن أعلنوا الشّهادتين، وأقاموا حدوده، والتزموا أركانه، من إقامة الصلاة، وإيتاء الزّكاة، فخلُّوا سبيلهم، واتركوهم وشأنهم، واعلموا أن الله غفور لمن استغفره، رحيم بمن تاب إليه.

وقد نبَّه على إقامة الصّلاة التي هي حقّ الله عزّ وجلّ بعد أداء الشّهادتين؛ لأنها أشرف أركان الإسلام بعد الشّهادتين، وبعدها أداء الزّكاة التي هي أشرف الأفعال المتعلِّقة بالمخلوقين، وتؤدِّي إلى تحقيق التّكافل الاجتماعي في الإسلام، وتساهم في حلّ مشكّلة الفقر، ونفع الفقراء، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزّكاة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآية على ما يأتي:

١ - وجوب قتال المشركين العرب حتى يسلموا؛ إذ لا يقبل منهم باعتبارهم حملة رسالة الدّعوة الإسلامية إلى العالم إلا الإسلام أو القتل.

٢ - إنّ إقامة الصّلاة أو إيتاء الزّكاة دليل على الإسلام، وأنهما يعصمان الدّم والمال، ويوجبان لمن يؤدِّيهما حقوق المسلمين من حفظ دمه وماله إلا بحق الإسلام، كارتكاب ما يوجب القتل من قتل النفس البريئة، وزنى الزّاني المحصن، والرّدّة إلى الكفر بعد الإيمان، قال النّبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود وغيره: «لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كُفر بعد إيمان، أو زنىً بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس».

وروى الشَّيخان وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال - وهو حديث متواتر -: «أُمرت أن أُقاتل الناس - أي مشركي العرب بالإجماع - حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، ويقيموا الصّلاة، ويؤتوا الزّكاة، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقّ الإسلام، وحسابُهم على الله».

واشتراط الأمور الثلاثة للتّحقق من إسلام المشركين؛ لأن النُّطق بالشَّهادتين يدلّ على ترك عبادة غير الله، وطاعة الرّسول فيما يبلِّغه عن ربِّه، وإقامة الصّلاة خمس مرات في اليوم والليلة، أمارة على الانخراط في سلك الرّابطة الدِّينية الاجتماعية بين المسلمين، وأداء الزّكاة دليل على احترام النّظام المالي الاجتماعي في الإسلام.

٣ - احتجّ الشّافعي بهذه الآية على أنّ تارك الصّلاة يقتل؛ لأنه تعالى أباح دماء الكفار بجميع الحالات، ثم حرّمها عند مجموع هذه الثلاثة: وهي التوبة عن الكفر، وإقامة الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، فإذا لم يوجد هذا المجموع، وجب أن يبقى إباحة الدّم على الأصل.

ورأى الجصّاص الحنفي أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قبول لزومهما والتزام فرضهما دون فعلهما[١].

٤ - نقل عن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أنه كان يقول في مانعي الزّكاة: «لا أفرِّق بين ما جمع الله» وقال أيضاً: «لأُقاتلنّ من فرّق بين الصّلاة والزّكاة؛ فإن الزّكاة حقّ المال». وقال ابن عباس: رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه.

ولا خلاف بين المسلمين أن من ترك الصّلاة وسائر الفرائض مستحلاً

(١) أحكام القرآن: ٣/ ٨١ ـ ٨٢

كفر، ومن ترك السُّنَن متهاوناً فسَق، ومن ترك النّوافل لم يَحْرَج؛ إلا أن يجحد فضلها فيكفر؛ لأنه يصير رادّاً على الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ما جاء به وأخبر عنه[١].

واختلف العلماء فيمن ترك الصّلاة كسلاً من غير جَحْد لها ولا استحلال؛ فقال مالك والشّافعي: من آمن بالله، وصدَّق المرسلين، وأبى أن يصلِّي قُتل.

وقال أبو حنيفة: يسجن ويضرب، ولا يقتل؛ لأنه إذا زال حكم القتل بزوال سمة الشّرك، فالحصر والحبس باقٍ لترك الصّلاة ومنع الزّكاة، فمن ترك الصّلاة ومنع الزّكاة حبسه الإمام، فاستفيد الحبس من الآية.

٥ - هذه الآية دالّة على أنّ من قال: قد تُبت، أنه لا يجتزأ بقوله حتى ينضاف إلى ذلك أفعاله المحقِّقة للتّوبة؛ لأن الله عزّ وجلّ شرط هنا مع التّوبة إقامة الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، ليحقّق بهما التّوبة. وقال في آية الرِّبا: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٩] ، وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٠] .

٦ - قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عام في كل مشرك وفي كل من كفر بالله، كما ذكرابن العربي، لكن السّنّة خصّت منه المرأة والصّبي والرّاهب، وخصّ من القتل المثلة للنّهي عنها في السُّنّة، وعن قتل الصّبر بالنّبل ونحوه، وقال النّبي ﷺ فيما رواه أبو داود وابن ماجه عن ابن مسعود: «أعفُّ الناس قِتْلة: أهل الإيمان»، وقال فيما رواه الجماعة عن شدّاد بن أوس: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة».

والمراد بالآية: اقتلوا المشركين الذين يحاربونكم[٢]. فيقتل مشركو العرب

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ٧٤

(٢) أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٨٨٩

أو يسلموا. وخصّت الآية أيضاً بأهل الكتاب بإقرارهم على الجزية فيخيرون بين الإسلام أو الجزية أو القتل، كما سيأتي في آية: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩/٩] . وفي حديث بريدة الذي رواه مسلم: «إذا لقيتم المشركين فادعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا فادعوهم إلى أداء الجزية، فإن فعلوا فخذوا منهم وكفوا عنهم» وهذا الحديث وإن كان عامّاً في سائر المشركين إلا أنه استثني منه مشركو العرب بالآية.

وصار قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ خاصّاً في مشركي العرب دون غيرهم[1].

٧ - دلّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾على أنه يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.

مشروعيّة الأمان

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

الإعراب:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ﴾: ارتفع ﴿أَحَدٌ﴾بفعل الشرط المقدر الذي دلّ عليه الظاهر وفسّره، تقديره: وإن استجارك أحد، ولا يرتفع بالابتداء؛ لأن ﴿وَإِنْ﴾ من حروف الشرط، لا تدخل إلا على الفعل، فوجب تقديره، فارتفع الاسم بعده؛ لأنه فاعله.

المفردات اللغوية:

﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾طلب جوارك، أي حمايتك وأمانك واستأمنك من القتل.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٨١

﴿فَأَجِرْهُ﴾أمّنه .﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي القرآن .﴿مَأْمَنَهُۥ﴾ مكان أمنه، وهو مسكنه الذي يأمن فيه، أو دار قومه، إن لم يؤمن، لينظر في أمره .﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ الإسلام أو دين الله وحقيقته، فلا بدّ لهم من إعطاء الأمان، لسماع القرآن، وفهم الحقّ، ليعلموا، ولا يبقى لهم معذرة.

المناسبة:

بعد أن أوجب الله تعالى قتال المشركين بعد مهلة الأمان التي هي أربعة أشهر حُرُم، لنقضهم العهود، أبان تعالى أن المطالبة بالإسلام أو القتل لا يعني عدم تمكين المشركين من سماع أدلّة الإيمان، فلو طلب أحد من المشركين الدَّليل والحجّة، أو جاء طالباً استماع القرآن، فإنه يجب إمهاله، ويحرم قتله، ويجب إيصاله إلى مأمنه، ليكون على بيّنة وعلم من أمره.

التّفسير والبيان:

بالرّغم من نزول آية السَّيف الشَّديدة الوطأة على مشركي العرب، ونظراً لأن الإسلام يحرص على نشر دعوته بالوسائل السلمية، وبالإقناع والحجة والبرهان، وأنه ليس الهدف من تشريع الجهاد سفك الدِّماء، وإنما المهم الوصول إلى الإيمان وترك الجحود، وقبول الدِّين والإقرار بالتّوحيد، بالرّغم من كل ذلك وتقديراً لأسباب مشروعية القتال، وتأكيد الحرص على السّلام، أرشد الله المؤمنين إلى وجوب قبول الأمان ومنحه لمن استأمن المسلمَ من المشركين.

والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين الذين نقضوا العهد بعد انقضاء مهلة السياحة في الأرض بحرية مطلقة وهي الأشهر الأربعة، يطلب الأمان ليسمع كلام الله ويتدبَّره، ويفهم حقيقة الدِّين والأمر، فيجب تأمينه وحمايته حتى يصل إلى غايته، ويحرم قتله والتّعدِّي عليه.

ومتى أراد العودة لبلاده يجب منحه الأمان حتى يصل إلى وطنه الذي يأمن فيه أو داره وبلاده ومأمنه، ثم قاتله بعدئذٍ إن شئت من غير غدر ولا خيانة.

وهذا الحكم ثابت في كل وقت، قال الحسن رضي الله عنه: هي محكمة إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى علي رضي الله عنه فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله، أو يأتيه لحاجة قتل؟ قال: لا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾.

وروي عن السُّدِّي والضَّحّاك رضي الله عنهما: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وردّ القرطبي: والصَّحيح أن الآية محكمة، بدليل ما قاله الإمام علي رضي الله عنه فيما رواه عنه ابن جبير من الكلام السابق.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ يعني أن ذلك التّسامح المفهوم من الأمر بإجارة المستجير في قوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ﴾ وإبلاغه مأمنه، بسبب أن هؤلاء المشركين قوم جهلة، لا يعلمون حقيقة الإسلام وما يدعو إليه، ومن جهل شيئاً عاداه، فلا بدّ من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق.

وبناءً عليه كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو حاملاً رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرّسل من قريش، منهم عروة بن مسعود، ومِكْرز بن حفص، وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحداً بعد واحد، يتردّدون في القضيّة بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام رسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك. وكان ذلك من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

ولما قدم رسولا مُسَيْلمة الكذّاب على رسول الله ﷺ قال لهما: أتشهدان أن مسيلمة رسولُ الله؟ قالا: نعم، فقال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد وأبو داود عن نعيم بن مسعود: «والله لولا أنّ الرّسل لا تُقتَل، لضربت أعناقكما».

والآية تفيد عموم حكم الأمان لأهداف دينيّة أو سياسيّة أو تجاريّة، قال ابن كثير: والغرض أنّ من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أُعطي أماناً، ما دام متردّداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه[١].

ونص الحنفيّة والشافعيّة وغيرهم على أن الحربي إذا دخل دار الإسلام مستجيراً لغرض شرعي كسماع كلام الله، أو دخل بأمان للتِّجارة، وجب تأمينه وحماية نفسه وماله، إلى أن يبلغ داره التي يأمن فيها، فإن دخل الحربي دار الإسلام بلا أمان، كان مغنوماً مع ماله. وقال ابن العربي: الآية إنما هي فيمن يريد سماع القرآن والنّظر في الإسلام، فأما الإجارة لغير ذلك فإنما هي لمصلحة المسلمين ومنفعتهم[٢].

ولا يقتصر الأمر على مجرد كون المستجير طالباً لسماع القرآن، كما صرّحت الآية، وإنما يلحق به كونه طالباً لسماع الأدلّة على كون الإسلام حقّاً، وكونه طالباً الجواب عن الشُّبهات التي عنده؛ لأن كل هؤلاء يطلبون العلم ويسترشدون عن الحقّ.

والمراد بالسَّماع: أن يسمع ما تقوم به الحجّة، ويتبيَّن به بطلان الشّرك وحقيقة التّوحيد والبعث وصدق الرّسول في تبليغه عن الله، وكل ما يدلّ على أنّ الإسلام حقّ، سواء أكان سورة ﴿بَرَآءَةٌ﴾ أو جميع القرآن، أو غير ذلك من الأدلّة العقليّة والبراهين العلميّة.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآية ما يأتي:

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٣٧

(٢) أحكام القرآن: ٢/ ٧٩١

١ً - مشروعيّة الأمان، أي جواز تأمين الحربي إذا طلبه من المسلمين، ليسمع ما يدلّ على صحّة الإسلام، وفي هذا سماحة وتكريم في معاملة الكفار، ودليل على إيثار السّلم.

٢ً - يجب علينا تعليم كل من التمس منّا تعلّم شيء من أحكام الدِّين.

٣ً - يجب على الإمام حماية الحربي المستجير، وصون دمه وماله ونفسه من الأذى، ومنع التّعرُّض له بأي شيء من ألوان الإيذاء.

٤ً - يجب على الإمام تبليغه مأمنه، أي وطنه وبلاده بعد قضاء حاجته، فلا يجوز تمكينه من الإقامة في دار الإسلام إلا بمقدار قضاء حاجته، عملاً بالآية: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[١]، قال العلماء: لا يجوز أن يمكّن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكّن من إقامة أربعة أشهر[٢]. ونصّ الحنفيّة على أنه يجب على الإمام أن يأمره بالخروج متى انتهت حاجته، وأن يعلمه بأنه إن أقام بعد الأمر بالخروج سنة في دار الإسلام، صار ذمياً مواطناً، وتفرض عليه الجزية[٣].

٥ً - دلّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ على أن التّقليد في الدِّين غير مقبول، وأنه لا بدّ من تكوين الاعتقاد والإيمان بالنّظر والاستدلال، بدليل إمهال الكافر وتأمينه وتبليغه مأمنه لسماع أدلّة الإيمان، فلا بدّ من الحجّة والبرهان.

٦ً - قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ دليل على أن كلام الله عزّ وجلّ مسموع عند قراءة القارئ لكلامه. ويدلّ عليه إجماع المسلمين على أنّ القارئ

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٨٤

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٣٧

(٣) الجصاص، المرجع السابق.

إذا قرأ فاتحة الكتاب أو سورة قالوا: سمعنا كلام الله. لكن ذلك كما قال ابن العربي بواسطة اللغات، وبدلالة الحروف والأصوات، أما القدوس فلا مثل له ولا لكلامه.

واستدلّ المعتزلة بهذه الآية على أنّ كلام الله الذي يسمعه كل الناس ليس إلا هذه الحروف والأصوات، وهذه ليست قديمة، فدلّ هذا على أنّ كلام الله محدث مخلوق غير قديم.

وأجابهم الرّازي بأن الذي نسمعه ليس عين كلام الله على مذهبكم، وإنما نسمع حروفاً وأصواتاً فعلها الإنسان. وهذا لا شكّ حادث، وأما الكلام الأصلي الصادر عن الله فهو قديم قدم الله تعالى.

وهل كل أمان من المسلم للحربي نافذ؟ لا شكّ أن أمان السُّلطان جائز؛ لأنه قائم للنّظر في مصالح الأمة وأحوالها، نائب عن الجميع في جلب المنافع والمضارّ. وأما أمان غير الخليفة فمختلف في بعض حالاته، فقال الجمهور: يجوز أمان الحرّ والعبد، والكبير والصّبي، والرّجل والمرأة؛ لقوله ﷺ فيما رواه أحمد والنسائي وأبو داود عن علي: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم».

وقال أبو حنيفة: لا أمان للعبد والمرأة والصّبي؛ لأنه لا يسهم لهم في الغنيمة.

أسباب البراءة من عهود المشركين وقتالهم

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ
عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ
يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى
مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

الإعراب:

﴿كَيْفَ يَكُونُ﴾ كيف: محلها النصب على التشبيه بالظرف أو الحال. ويكون إما تامة أو ناقصة، وعهد: اسمها، وخبرها إما ﴿كَيْفَ﴾ أو ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أو ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾ هم المستثنون من قبل، ومحله النصب على الاستثناء، أو الجر على البدل أو الرفع على أن الاستثناء منقطع، أي ولكن الذين عاهدتم فاستقيموا لهم.

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ ما: شرطية أو مصدرية.

﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ جملة الشرط حال، أي حالهم أنهم لا يراعوا حلفاً.

المفردات اللغوية:

﴿كَيْفَ يَكُونُ﴾ أي لا يكون، وهو استفهام في معنى الاستنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد وهم أعداء حاقدون. ﴿لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ

﴿ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ وهم كافرون بالله ورسوله غادرون .﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يوم الحديبية وهم قريش المستثنون من قبل. ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ﴾ أقاموا على العهد ولم ينقضوه .﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ على الوفاء بالعهد .﴿كَيْفَ﴾ يكون لهم عهد، تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد، وحذف الفعل لكونه معلوماً .﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ يظفروا بكم ويغلبوكم .﴿لَا يَرْقُبُوا۟﴾ لا يراعوا، ومنه: فلان لا يرقُب الله في أموره، أي لا ينظر إلى عقابه .﴿إِلًّا﴾ الإل: الحلف، وقيل: القرابة، واشتقاق الإلّ بمعنى الحلف؛ لأنهم كانوا إذا تحالفوا، رفعوا به أصواتهم وشهروه، من الإل: وهو الجؤار. وسمِّيت به القرابة لأن القرابة عقدت بين الرجلين ما لا يعقده الميثاق .﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ الذمة والذمام: العهد، الذي يلزم من ضيَّعه الذمّ. ﴿فَٰسِقُونَ﴾ المراد به هنا ناقضون للعهد والميثاق، متجاوزون ما يوجبه الصدق والوفاء. والعهد: ما يتفق طرفان من الناس على التزامه بينهما لمصلحتهما المشتركة، فإن أكداه بما يقتضي زيادة العناية بحفظه والوفاء به سمي ميثاقاً، وإن أكداه باليمين خاصة سمي يميناً.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى براءة الله ورسوله من عهود المشركين، وإعلان الحرب عليهم بعد أربعة أشهر إلا من يستجير أو يستأمن لسماع كلام الله أو للرسالة أو للتجارة، أبان سبب البراءة من المشركين وإمهاله إياهم أربعة أشهر، ثم مناجزتهم بكل أنواع القتال، وهو نقضهم العهود ومعاملتهم بالمثل.

التفسير والبيان:

كيف يكون للمشركين الناكثين للعهد عهد محترم عند الله وعند رسوله؟ وهذا استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد، وهم في الواقع أعداء ألداء حاقدون مضمرون الغدر، مشركون بالله، كافرون به وبرسوله،

يعني محال أن يثبت لهم عهد، فلا تطمعوا في ذلك. وهذا بيان حكمة البراءة وسببها.

ثم استدرك واستثنى الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، وهم بنو بكر وبنو ضَمْرة الذين لم ينقضوا عهودهم المعقودة معهم يوم الحديبية، أي ليس العهد إلا لهؤلاء الذين لم ينقضوا ولم ينكثوا، وهم المستثنون من قبل في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾.

والمراد بالمسجد الحرام: جميع الحرم كما هي عادة القرآن، إلا ما استثني، فالعندية فيه على حذف مضاف أي قرب المسجد الحرام.

فهؤلاء حكمهم أنهم ما استقاموا لكم فاستقيموا لهم، أي فما أقاموا على الوفاء بعهدكم، فأقيموا لهم على مثل ذلك. فأما من لا عهد له فقاتلوه حيث وجدتموه إلا أن يتوب. وهو كقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ غير أن الكلام هنا مطلق، والآية النظير مقيدة. وأعيد ذكرهم هنا لبيان أنه يجب أن تكون الاستقامة على العهد مرعية من الطرفين المتعاقدين إلى نهاية المدة، وأما غيرهم فينبذ عهدهم.

ثم أكد الله تعالى ضرورة الوفاء لهم بالعهد بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي يرضى عن الذين يوفون بالعهد، ويتقون الغدر ونقض العهد. وهذا تعليل لوجوب الامتثال، وتبيين بأن مراعاة العهد من باب التقوى، وإن كان المعاهد مشركاً.

ثم كرر الله تعالى قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟﴾ لاستبعاد ثبات المشركين على العهد، أي كيف يكون لغير الذين يوفون بعهدهم عهد مشروع محترم واجب الوفاء عند الله وعند رسوله؟ والحال أنهم إن يظفروا بكم، لم يراعوا حلفاً ولا قرابة ولا عهداً. وهذا تحريض للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم، وتبيان أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد، لشركهم بالله تعالى

وكفرهم برسوله، ولأنهم إن تغلبوا على المسلمين لم يبقوا ولم يذروا، ولا يراعوا فيهم إلاً ولا ذمة أي حلفاً وعهداً.

ومن خبثهم وضغينتهم أنهم قوم مخادعون يظهرون الكلام الحسن بأفواههم، وقلوبهم مملوءة حقداً وحسداً وكراهية: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١/٤٨] وأكثرهم فاسقون أي متمردون لا عقيدة تزعهم ولا مروءة تردعهم، خارجون من أصول الدين والمروءة والأخلاق، متجاوزون حدود الصدق والوفاء، متحللون من قيود العهد والميثاق. وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ لأن نقض العهد كان من الأكثرين، وهناك أقلية حافظت على الوفاء بالعهد، استثناهم تعالى وأمر بالوفاء بعهدهم.

ثم ذكر تعالى سببين آخرين للبراءة والقتال وهما:

١ - إنهم اشتروا أي اعتاضوا واستبدلوا بآيات الله الدالة على الحق والخير والتوحيد ثمناً قليلاً حقيراً من متاع الدنيا، وهو اتباع الأهواء والشهوات، والالتهاء بأمور الدنيا الخسيسة، فصدوا عن سبيله، أي عدلوا بسبب هذا الشراء الخسيس أنفسهم عن الإسلام وأخلاقه، وصرفوا أيضاً غيرهم عنه، فمنعوا الناس من اتباع الدين الحق، إنهم ساء ما كانوا يعملون، أي بئس العمل عملهم، وقبح ما ارتضوه لأنفسهم من الكفر والضلالة والصدّ عن دين الله، بدلاً من الإيمان والهدى، واتباع شرع الله. روي أن أبا سفيان لما أراد إقناع قريش وحلفائها بنقض عهد الحديبية، صنع لهم طعاماً استمالهم به، فأجابوه إلى ما طلب.

٢ - وهم من أجل كفرهم لا يراعون في شأن مؤمن قدروا على الفتك به حلفاً ولا قرابة ولا عهداً على الإطلاق، وأولئك هم المعتدون، أي المجاوزون الغاية في الظلم والشر، فهم لا يفهمون بغير لغة السيف، والخضوع للقوة لا للعهد والذمة، وقد أثبت التاريخ أنهم كذلك في الواقع. وقد أجمل القرآن

صفاتهم بأنهم أولاً هم الفاسقون، وثانياً بأنهم المعتدون، فكيف يحترمون العهود؟

وقوله هنا: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ليس تكراراً؛ لأن الأول لجميع المشركين، والثاني لليهود خاصة، بدليل قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني اليهود، فلو أريد بالثاني المشركون كان تكراراً للتأكيد والتفسير.

فقه الحياة أو الأحكام:

أوضحت الآيات أسباب البراءة من المشركين وحكمة الأمر بقتالهم بعد مهلة الأربعة الأشهر: وهي أنهم نقضوا العهد، ولا يرعون في المؤمنين إلّاً ولا ذمة أي حلفاً وقرابة وعهداً وأماناً، ومخادعون يقولون بألسنتهم ما يرضي في الظاهر وقلوبهم تغلي حقداً وحسداً وكراهية، وأكثرهم فاسقون في دينهم وعند أقوامهم، مما يوجب المبالغة في الذم، أي ناقضون العهد، وأنهم استبدلوا بالقرآن متاع الدنيا، ومنعوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله: سبيل التوحيد والحق والخير، وأنهم معتدون، أي مجاوزون الحلال إلى الحرام بنقض العهد.

واستفيد من الآيات بالنسبة للمؤمنين: أن العهد المحترم عند الله وعند الرسول هو عهد غير الناكثين، وأن من استقام على عهده نعامله بمقتضاه، ففي الحالين معاملة بالمثل، وأن مراعاة العهد وتنفيذ شروطه من تقوى الله التي يرضاها لعباده.

مصير المشركين إما التوبة وإما القتال

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

القراءات:

﴿أَئِمَّةَ﴾:

بتسهيل الهمزة الثانية بلا إدخال قرأ: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.

وقرأ الباقون بالتحقيق.

﴿لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾:

وقرأ ابن عامر: (لا إيمان لهم).

الإعراب:

﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم، خبر لمبتدأ محذوف.

﴿أَئِمَّةَ﴾ مفعول به، جمع إمام، وأصله «أَأْمِمَة» على أفْعِلة، فألقيت حركة الميم الأولى على الهمزة الساكنة قبلها، وأدغمت الميم الأولى في الثانية، وأبدل من الهمزة المكسورة ياء مكسورة.

﴿لَآ أَيْمَـٰنَ﴾ ﴿لَآ﴾ نافية للجنس، و﴿أَيْمَـٰنَ﴾: اسمها، وهي جمع يمين، أي لا عهود لهم. وتقرأ بالكسر، أي لا إيمان، وهو مصدر بمعنى التصديق تأكيداً لقوله تعالى: ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وإما مصدر أمنته إيماناً من الأمن، لئلا يكون تكراراً لقوله: ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾.

البلاغة:

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ وضع أئمة الكفر موضع الضمير، للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرياسة والتقدم في الكفر، أحقّاء بالقتل. وقيل: المراد بالأئمة: رؤساء المشركين، فالتخصيص لأن قتلهم أهم وهم أحق به.

المفردات اللغوية:

﴿وَنُفَصِّلُ﴾ نبين. ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ يتدبرون. ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ نقضوا العهد، وأصل النكث: نقض الحبل. ﴿أَيۡمَٰنَهُم﴾ مواثيقهم. ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ عابوه. ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ رؤساء الكفر، فيه وضع الظاهر موضع الضمير. ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ﴾ لا عهود. ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ عن الكفر.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى حال المشركين من أنهم لا يرقبون في مؤمن إلّاً ولا ذمة، وينقضون العهد، ويضمرون النفاق، ويتعدون ما حُدَّ لهم، بيَّن حالهم بعد ثبوت عداوتهم للإسلام، فهم بين أمرين: التوبة أو القتال.

التفسير والبيان:

هذا مصير الكفار المشركين بعد إعلان عداوتهم للإسلام، فهم بين أمرين:

أحدهما - التوبة الصادقة عن الكفر ونقض العهد والصدّ عن سبيل الله: أي إن تابوا عن شركهم بالله، وآمنوا بالله رباً واحداً لا شريك له، وأقاموا الصلاة، أي أدّوها بشروطها وأركانها باعتبارها عماد الدين، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم الدالة على التكافل بين المسلمين وصدق الاعتقاد، إن فعلوا ذلك فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم. ووصفهم بالإخوة دليل على أن أخوة الدين أعلى وأخلد وأقوى من أخوة النسب. واستحقوا هذا الوصف بالأمور الثلاثة المتقدمة المتلازمة بعضها مع بعض:

وهي التوبة عن الكفر ونقض العهد، والإنابة إلى الله والإيمان به، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾، أي نبين الأدلة والبراهين على وجودنا الحق، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ما نبين لهم، فيفهمون ويتفقهون. وهذا اعتراض قصد به الحث على تأمل ما فصّل من أحكام المعاهدين، وعلى المحافظة عليها.

والثاني - القتال بعد نقضهم العهود: أي إن نقض هؤلاء المشركون ما أبرم معهم من عهود، وطعنوا في دينكم، أي عابوا القرآن والنبي ﷺ، واستهزؤوا بالمؤمنين، كما كان يفعل شعراؤهم وزعماء الكفر فيهم، فهم أئمة الكفر وقادته ورؤساؤه، فقاتلوهم قتالاً عنيفاً، إنهم لا عهود لهم ولا ذمة؛ لأنهم لما لم يفوا بها صارت كأن لم تكن، وذلك لتكون المقاتلة سبباً في انتهائهم ورجوعهم عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال. وهذا من غاية كرم الله وفضله على الإنسان.

فقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي عن كفرهم وباطلهم وإيذائهم المسلمين.

قال قتادة: أئمة الكفر كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وآخرين. وليس المراد بالآية هنا هؤلاء؛ لأنها لما نزلت، كان هؤلاء قد قتلوا في بدر. وخصَّ الأئمة والسادة منهم بالذكر؛ لأنهم هم الذين يحرضون الأتباع على الأعمال الباطلة.

وفيه دليل على أن الذمي إذا طعن في الإسلام، فقد نكث عهده، وعلى أن القتال ليس بقصد المنافع الدنيوية أو الغنائم، أو إظهار الاستعلاء، وحب السيطرة، وإرادة الانتقام، وإنما هو من أجل التمكين من قبول دعوة الإسلام؛ وما الحرب إلا ضرورة يقتصر فيها على قدر الضرورة.

قال ابن كثير: والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش، فهي عامة لهم ولغيرهم[١].

فقه الحياة أو الأحكام:

حضت الآية على التوبة الصادقة عن الشرك والتزام أحكام الإسلام، وعلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلا تفرقة بين هذه الأمور الثلاثة.

روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته، لا يشرك به، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فارقها، والله عنه راض».

فإن أعرض المشركون عن قبول دعوة الإسلام وطعنوا في الدين، استحقوا القتل والقتال، وأصبحت عهودهم لا قيمة لها وكأنها لم تكن. وربما كان القتال سبيلاً لقبول الإسلام، والتخلص من الوثنية والشرك.

واستدل أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ﴾ على أن يمين الكافر ليست يميناً، قال البيضاوي: وهو استدلال ضعيف؛ لأن المراد نفي الوثوق عليها، لا أنها ليست بأيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم﴾.

وعند الشافعي رحمه الله: يمينهم يمين، ومعنى هذه الآية عنده: أنهم لما لم يفوا بها، صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان. والدليل على أن أيمانهم أيمان: أنه تعالى وصفها بالنكث في قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم﴾ ولو لم يكن منعقداً، لما صحَّ وصفها بالنكث.

واستدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدِّين؛ إذ هو كافر. والطعن: أن يَنْسِب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٣٩

على ما هو من الدين؛ لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أصوله واستقامة فروعه[١]. وقال ابن المنذر: أجمع عامة أهل العلم على أن من سبّ النبي ﷺ عليه القتل. وممن قال ذلك: مالك والليث وأحمد وإسحاق، وهو مذهب الشافعي. وقد حكي عن أبي حنيفة أنه قال: لا يُقتل من سبَّ النبي ﷺ من أهل الذمّة، وإنما يقتل بالحرابة والقتال.

وينتقض عهد الذمي إذا طعن في الدين في المشهور من مذهب مالك، وهو مذهب الشافعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم﴾ فأمر بقتلهم وقتالهم.

وقال أبو حنيفة: إنه يستتاب ويعزر، وإن مجرد الطعن لا ينقض به العهد إلا مع وجود النَّكْث[٢]؛ لأن الله عز وجل إنما أمر بقتلهم بشرطين: أحدهما - نقضهم العهد، والثاني - طعنهم في الدين. ورد الجمهور بأن ذكر الأمرين لا يقتضي توقف قتاله على وجودهما، فإن النكث يبيح لهم ذلك بانفراده عقلاً وشرعاً.

وإذا حارَبَنا الذمي نُقض عهده، وكان ماله وولده فيئاً معه.

وأكثر العلماء على أن من سبَّ النبي ﷺ من أهل الذمة، أو عرّض، أو استخف بقدره، أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به، فإنه يقتل؛ فإنا لم نعطه الذمة أو العهد على هذا.

ورأى أبو حنيفة والثوري أنه لا يقتل، فما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يؤدَّب ويعزَّر. والحجة عليهما قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ الآية. وقتل كعب بن الأشرف لإيذائه النبي وكان معاهداً.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٨٩٣

(٢) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٨٥

وإذا سبَّه ثم أسلم تقيّة من القتل، يُسقط إسلامه قتلَه في مشهور مذهب مالك؛ لأن الإسلام يجبُّ ما قبله، بخلاف المسلم إذا سبّه ثم تاب، قال الله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٨].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾: وذلك يقتضي أن يكون الغرض من قتالهم دفع ضررهم، لينتهوا عن مقاتلتنا ويدخلوا في ديننا.

التحريض على قتال المشركين الناكثين أيمانهم وعهودهم

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

الإعراب:

﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾: فيه ثلاثة أوجه:

الأول - أن يكون ﴿فَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾: بدل منه، و﴿أَحَقُّ﴾ خبر المبتدأ.

الثاني - أن يكون ﴿فَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿أَحَقُّ﴾: خبره، و﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾: في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، تقديره: فالله أحق من غيره بأن تخشوه، أي بالخشية.

الثالث - أن يكون ﴿فَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾: مبتدأ ثان، و﴿أَحَقُّ﴾: خبر المبتدأ الثاني، والمبتدأ الثاني وخبره: خبر المبتدأ الأول.

البلاغة:

﴿أَلَا﴾ تحريض على القتال؛ لأن الهمزة دخلت على النفي للإنكار، فأفادت المبالغة في الفعل. ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ذكر لفظ الجلالة مكان الضمير لغرس الهيبة والرهبة في القلب.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَا﴾ للحض. ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ نقضوا. ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ عهودهم. ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة، لما تشاوروا في شأنه بدار الندوة. ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ﴾ بالقتال. ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ حيث قاتلوا مع بني بكر خزاعة حلفاءكم، فما يمنعكم أن تقاتلوهم. ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ أتخافونهم. ﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ في ترك قتالهم.

﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ﴾ يقتلهم. ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ يذلهم بالأسر والقهر. ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٍ مُّؤۡمِنِينَ﴾ يعني خزاعة. ﴿غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ كربها، أي ويذهب الغيظ عنهم.

سبب النزول:

نزول الآية (١٤):

﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ أخرج أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن قتادة قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في خزاعة حين جعلوا يقتلون بني بكر بمكة. وأخرج عن عكرمة قال: نزلت هذه الآية في خزاعة. وأخرج عن السدِّي: ﴿وَيَشۡفِ

﴿صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ قال: هم خزاعة حلفاء النبي ﷺ، يشف صدورهم من بني بكر.

المناسبة:

بعد أن قال الله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أتبعه بذكر السبب الذي يبعث على مقاتلتهم، وهو نقضهم العهد، واعتداؤهم على المؤمنين، وبدؤهم لهم بالقتال، وهمهم بإخراج الرسول من بلده، وأما قتالهم فلأجل تطهير الجزيرة العربية من الشرك والوثنية.

التفسير والبيان:

هذا حض وتحريض على قتال المشركين الناكثين أيمانهم وعهودهم، وذلك لأسباب ثلاثة ذكرها الله تعالى في هذه الآية:

١ً - نكثهم العهد: إنهم نقضوا عهودهم التي أقسموا عليها. قال ابن عباس والسدي والكلبي: نزلت في كفار مكة الذين نكثوا أيمانهم بعد عهد الحديبية، وأعانوا بني بكر على خزاعة. وهذا يدل على أن قتال الناكثين أولى من قتال غيرهم من الكفار، ليكون ذلك زجراً لغيرهم.

والعهد الذي نقضوه: هو - كما تبين - صلح الحديبية، لمناصرة قريش حلفاءهم بني بكر على خزاعة حلفاءِ النبي ﷺ، ليلاً بالقرب من مكة، على ماء يسمى (الْهَجِير). فسار إليهم رسول الله ﷺ وفتح مكة سنة ثمان هجرية في العشرين من رمضان.

٢ً - إخراج الرسول ﷺ من مكة: فقد هموا بإخراج الرسول من مكة، أو حبسه حتى لا يراه أحد، أو قتله بيد عصابة من أفراد القبائل ليذهب دمه هدراً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٠] وقال

تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١/٦٠] وقال عز وجل: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٦].

٣ - بدؤهم بالقتال: إنهم بدؤوا بقتال المؤمنين يوم بدر، حين قالوا بعد العلم بنجاة العير: لا ننصرف حتى نستأصل محمداً ومن معه. وكذلك في أحد والخندق وغيرها.

وبعد أن ذكر الله تعالى هذه الأسباب الثلاثة التي تستدعي الإقدام على القتال زاد أربعة أخرى: أولها - تعداد موجبات القتال وتفصيلها، وثانيها - التحميس بالإغارة والتحريك، كما لو قال شخص لآخر: أتخشى خصمك وتخافه؟ وثالثها - كون الله أحق بالخشية؛ لأنه صاحب القدرة المطلقة التي تدفع الضرر المتوقع وهو القتل، ورابعها - إن كنتم مؤمنين، فالإيمان قوة دافعة على الإقدام. فهذه أمور سبعة تبعث على مقاتلة أولئك الكفار الناكثين.

وبعد بيان هذه الأسباب أنكر الله تعالى عليهم الخشية من المشركين ووبخهم عليها، فقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾؟ أي أبعد هذا تتركون قتالهم خشية وخوفاً منهم؟ فإن كنتم تخشونهم، فالله أحق بالخشية، أي لا تخشوهم واخشوني، فأنا أحق بالخشية منهم، إن كنتم مؤمنين بي، إذ شرط الإيمان الخوف من الله وحده دون سواه؛ لأن بيده النفع والضرّ.

وفي هذا دلالة على أن المؤمن الذي يخشى الله وحده يجب أن يكون أشجع الناس وأجرأهم على القتال.

وبعد أن ذكر الله تعالى مسوغات القتال وحكمته، أمر به المؤمنين أمراً صريحاً، فقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ﴾ أي قاتلوهم أيها المؤمنون، وهذا عام في المؤمنين كلهم، فإن قاتلتموهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم بالقتل والأسر والهزيمة، وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين امتلأت غيظاً

من أفعال المشركين بهم في مكة، وهم بنو خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، كما قال مجاهد. ويذهب غيظ قلوبهم أي قلوب هؤلاء المؤمنين على المشركين من غدرهم وظلمهم وشدة إيذائهم. أو يذهب غيظ قلوبكم لما لقيتم من شدة المكروه منهم. والفرق بين شفاء الصدور وإذهاب غيظ القلوب: أن الأول إحداث للسرور بتحقيق النصر الذي ينتظرونه بعد وعد الله لهم به، وأن الثاني: إزالة لآثار الواقع.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة، فأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه، فقال: «أبشروا، فإن الفرج قريب».

ثم قال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ وهذا ابتداء كلام وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره، وقد حدث ذلك فعلاً، فأسلم أناس منهم وحسن إسلامهم، مثل أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسليم بن أبي عمرو. والسبب في جعل هذه الجملة استئناف كلام جديد هو أن التوبة لا يكون سببها القتال؛ إذ قد توجد بغير قتال لمن شاء الله أن يتوب عليه في كل حال.

والله عليم بما يصلح عباده، حكيم في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحكيم الذي لا يجور أبداً، ولا يفعل إلا ما اقتضته الحكمة، ويجازي كل إنسان على ما قدم من خير أو شر في الدنيا والآخرة.

وهذا دليل على أن من سنته تعالى تفاوت البشر في قابلية التحول من حال إلى حال بأسباب ومؤثرات تقتضيها المقادير الإلهية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على أن قتال المشركين الناكثين العهد كان لأسباب كثيرة أهمها

نقضهم العهد، والتصميم على طرد النبي ﷺ من موطنه، أو حبسه أو قتله، وبدؤهم المؤمنين بالعدوان والقتال، إلى آخر الأسباب السبعة الداعية للقتال.

فبالرغم من التحريض على القتال بقوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ فإنه تعالى أثار في المؤمنين روح الشجاعة والإقدام من طريق أنهم لا يخشون أحداً إلا الله، ومن إيمانهم الحق الصادق بالله، فإن من لا يخشى غير الله، وآمن بالله إيماناً صادقاً، هانت عليه الصعاب، وأقدم على المقاتلة بنفس متحمسة لا تعرف التردد والخوف والجبن.

ونقل عن ابن عباس أنه قال: قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا﴾ ترغيب في فتح مكة. وهذه الأوصاف مناسبة لفتح مكة.

وقال أبو بكر الأصم: دلت هذه الآية على أنهم كرهوا هذا القتال، لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦] فآمنهم الله تعالى بهذه الآيات.

ودلت هذه الآية على أن المؤمن ينبغي أن يخشى ربه، وألا يخشى أحداً سواه.

وتضمن قوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ الإخبار بأن بعض المشركين يتوب عن كفره، وقد حدث ذلك فعلاً، وهذا من معجزات القرآن، لتأييد النبي ﷺ في دعوته، ودفع الناس إلى الإيمان برسالته، ما دام قد ظهر لهم صدقه.

فالآية دالة على المعجزة؛ لأنه تعالى أخبر عن حصول هذه الأحوال، وقد وقعت موافقة لهذه الأخبار، فيكون ذلك إخباراً عن الغيب، والإخبار عن الغيب معجز.

وهذه الآية تدل على كون الصحابة مؤمنين في علم الله تعالى إيماناً حقيقياً؛

لأنها تدل على أن قلوب الصحابة كانت مملوءة بالحمية لأجل الدين، والرغبة الشديدة في إعلاء شأن الإسلام[١].

وأرشدت الآية إلى خمس منافع من هذا القتال: وهي تعذيب المشركين بأيدي المؤمنين بالقتل والأسر، وخزيهم وإذلالهم بعد قتلهم، وتحقيق النصر عليهم، وشفاء الصدور من انتظار الفتح الذي وعدهم الله به، وإذهاب غيظ القلوب.

اختبار المسلمين واتخاذ البطانة

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

الإعراب:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟﴾: أن وصلتها: في موضع نصب بحسب، وسدت مع الصلة مسد المفعولين.

﴿وَلَمَّا﴾ معناها التوقع.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟﴾ معطوف على ﴿جَٰهَدُوا۟﴾ داخل في حيز الصلة، كأنه قيل: ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله. و﴿وَلِيجَةً﴾: الدخيلة.

البلاغة:

﴿أَمْ﴾ منقطعة، ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على وجود الحسبان.

(١) تفسير الرازي: ١٦/ ٤

المفردات اللغوية:

﴿أَمْ﴾ بمعنى همزة الإنكار، والمعنى: أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه حتى يتبين الخُلّص منكم، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله، لوجه الله. ﴿وَلِيجَةً﴾ أي بطانة من قوم ليس منهم، والمراد هنا: من الذين يضادون رسول الله ﷺ والمؤمنين رضوان الله عليهم. ﴿وَلَمَّا﴾ أي لم، ومعناها التوقع، أي إن تبين ذلك وإيضاحه متوقع كائن، وإن الذين لم يخلصوا دينهم لله، يميز بينهم وبين المخلصين. والمراد بقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ نفي المعلوم الموجود لا نفي العلم. وقال السيوطي: المراد علم ظهور. والمعنى: ولم يظهر المخلصون وهم الموصوفون بما ذكر من غيرهم.

المناسبة:

كانت الآيات المتقدمة مرغبة في جهاد المشركين الناقضين العهد، وهذه الآية ترغيب جديد زائد عما سبق لتمييز المجاهدين المخلصين عن غيرهم.

التفسير والبيان:

الآية مرتبطة بما قبلها، والمعنى: ألا تقاتلون أولئك المشركين الذين نقضوا العهود واعتدوا عليكم إلى آخر الأسباب السبعة التي يوجب كل واحد منها الإقدام على القتال، أم حسبتم أيها المؤمنون أن تتركوا وشأنكم مهملين بغير اختبار بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب، من طريق الجهاد الذي يتبين فيه الخُلَّص من المجاهدين منكم بالأموال والأنفس، والذين لم يتخذوا بطانة من الكفار أولياء يسرّون إليهم بأحوال المسلمين وأمورهم وأسرارهم، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، ويتميزون من المنافقين الذين يطلعون الولائج على أسرار الأمة وسياستها، وقد اكتفى بأحد القسمين عن الآخر، للعلم به ضمناً. قال الجصاص: قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ يقتضي لزوم اتباع المؤمنين وترك

العدول عنهم، كما يلزم اتباع النبي ﷺ، وفيه دليل على لزوم حجة الإجماع، وهو كقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٤/ ١١٥][(١)].

والله خبير في كل وقت بأعمالكم، فيجازيكم عليها. ومن المعروف أن التكليف الشاق على الأنفس هو الذي يحقق الاختبار، ويظهر المخلص من المنافق.

وليس المقصود بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ نفي علم الله، وأنه تعالى - كما فهم هشام بن عبد الحكم من ظاهر الآية - لا يعلم الشيء إلا حال وجوده، وإنما المراد منه نفي المعلوم الموجود في الواقع وإظهاره على مسرح الحياة، ليكون دليلاً ملموساً على الناس يوم القيامة، يقصد منه أن يصدر الجهاد عنهم فعلاً، ويظهر المجاهدون ويتميزوا عن المنافقين، بدليل قوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي عالم، مطلع على كل شيء، محيط به علماً، وما لا يعلم الله وجوده فلا وجود له.

ونظير الآية في الاختبار قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ١-٣].

ونظير الآية في اتخاذ الوليجة أو البطانة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٨].

والخلاصة: أن الله تعالى لما شرع لعباده الجهاد، بيَّن حكمته، وهي اختبار عبيده، من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى قبل ذلك وبعده العالم بما كان، وما يكون، وما لم يكن.

---

(١) أحكام القرآن: ٣/ ٨٧

فقه الحياة أو الأحكام:

تبين من الآية أن المكلف لا يتخلص من العقاب إلا بأمرين:

الأول - أن يعلم الله الذين جاهدوا منكم، عن طريق إظهارهم في الواقع، وتمييزهم بين الناس.

الثاني - أن يكون المجاهد مخلصاً، باطنه وظاهره سواء، لا منافقاً، باطنه خلاف ظاهره، وهو الذي يتخذ بطانة أو وليجة من المشركين، يخبرهم بأسرار المسلمين، ويعلمهم بأمورهم، فليس كل مجاهد مخلصاً، وليس الغرض من إيجاب القتال القتال نفسه فقط، بل الغرض الإتيان به على وفق أمر الله وحكمه.

وتبين من الآية أيضاً أن الله عالم بالنيات والأغراض، مطلع عليها، لا يخفى عليه منها شيء، فعلى الإنسان التركيز على أمر النية وجعلها خالصة لوجه الله تعالى.

عمارة المساجد

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

القراءات:

﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: (مسجد الله).

الإعراب:

﴿شَٰهِدِينَ﴾ حال من الواو في ﴿يَعۡمُرُواْ﴾.

﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ إما عطف على جملة ﴿حَبِطَتۡ﴾ على أنها خبر آخر لأولئك، وإما مستأنفة كجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ﴾ وفائدتهما تقرير النفي السابق، الأولى: من جهة نفي استتباع الثواب، والثانية: من جهة نفي استدفاع العذاب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ عبَّر به للاستبعاد.

البلاغة:

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر توضيح لأهميتهما وحثّ على القيام بهما.

المفردات اللغوية:

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ما صح لهم وما استقام وما ينبغي لهم .﴿أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ عمارة المسجد لغة: لزومه والإقامة فيه وعبادة الله فيه، وبناؤه وترميمه، وعمارة المساجد نوعان: حسية، ومعنوية، فالحسية: بالتشييد والبناء والترميم والتنظيف والفرش والتنوير بالمصابيح والدخول إليها والقعود فيها، بالصلاة وذكر الله والاعتكاف والزيارة للعبادة فيها، وذلك يشمل العمرة، ومن الذكر: درس العلم، بل هو أجله وأعظمه وصيانتها مما لم تبنَ له المساجد من أحاديث الدنيا، فضلاً عن فضول الحديث، كما قال الزمخشري. والمساجد فيها وجهان: أحدهما - أن يراد المسجد الحرام، وإنما قيل: مساجد؛ لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد؛ ولأن كل بقعة منه مسجد. والثاني - أن يراد جنس المساجد، ويشمل المسجد الحرام، وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها، فلأن لا يعمروا المسجد الحرام

آكد. والمعنى: ما استقام للمشركين أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة متعبَّدات الله، مع الكفر بالله وبعبادته. والمساجد في الأصل: جمع مسجد، وهو مكان السجود، ثم صار اسماً للبيت المخصص للعبادة. ومن قرأ: مسجد الله، فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض.

﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ معنى هذه الشهادة: ظهور كفرهم، وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت، وكانوا يطوفون عراة، ويقولون: لا نطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها. ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت. ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ لعدم شرطها وهو الإيمان.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال العباس حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحجاج، ونفكُّ العاني (أي الأسير) فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وفي رواية أخرى: قد أقبل المهاجرون والأنصار على أسارى بدر، فعيَّروهم بالشرك، فطفق علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوبِّخ العباس بقتال رسول الله ﷺ، وقطيعة الرحم، وأغلظ له في القول، فقال العباس: تذكرون مساوينا، وتكتمون محاسننا؟ فقال: أوَ لكم محاسن؟ قالوا: نعم، ونحن أفضل منكم أجراً، إنا لنعمرُ المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفكُّ العاني، فنزلت[1]. والمراد أن الآية تضمنت الرد على العباس وأمثاله، لا أنها نزلت عقب قوله.

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ١٣٩، الكشاف: ٢/ ٣١.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله في أول السورة براءة عن الكفار، وذكر أنواع فضائحهم وقبائحهم الموجبة تلك البراءة، احتجوا بأن هذه البراءة غير جائزة، وأنه يجب أن تكون المخالطة والمناصرة حاصلة؛ لأنهم موصوفون بصفات حميدة وخصال مرضية، ومن جملتها كونهم عامرين للمسجد الحرام، كما ورد في سبب النزول.

وكذلك ناسب أن يذكر بعد نبذ العهود منع عبادة الشرك من المسجد الحرام، وإبطال حق المشركين في الإشراف عليه وخدمته، وذلك مناسب لنقض عهودهم.

التفسير والبيان:

ما ينبغي للمشركين بالله، وما صح لهم وما استقام أن يعمروا مساجد الله التي منها المسجد الحرام بالإقامة فيها للعبادة، أو للخدمة والولاية عليه، ولا أن يدخلوه حجّاجاً أو عُمّاراً، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي بشهادة الحال والمقال، بأن يعبدوا الأصنام، وأن يطوفوا بالبيت عراة، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا لها. وقيل: هو قولهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك» فهذه شهادتهم بالكفر ثابتة قولاً وعملاً، أما القول فهذا، وأما العمل فهو عبادة الأصنام.

فهم بهذا جمعوا بين الضدين، وبين أمرين متنافيين لا يعقل الجمع بينهما على وجه صحيح: عمارة بيت الله مع الكفر به.

أولئك المشركون بالله حبطت أعمالهم أي بشركهم، وبطلت فلا ثواب لهم، وهم في نار جهنم خالدون لعظم ما ارتكبوه أي ماكثون مقيمون إقامة خلود وبقاء، فإن الكفر محبط للعمل ولا ثواب لصاحبه في الآخرة، بدليل

آيات كثيرة في القرآن الكريم منها: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٨]، ومنها: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٥] ومنها: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٣].

وبعد أن نفى أهليتهم لعمارة المساجد، أبان من هم أهل لهذه المهمة، فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي إنما يستحق عمارة المساجد وتستقيم منه العمارة، ويكون أهلاً لها من اتصف بالإيمان بالله تعالى إيماناً صحيحاً، على النحو المبيَّن في القرآن من الإقرار بوجود الله والاعتراف بوحدانيته، وتخصيصه بالعبادة، والتوكل عليه، وآمن باليوم الآخر الذي يحاسب الله فيه العباد، ويجزي فيه بالثواب للمحسنين وبالعقاب للمسيئين، وأقام الصلاة المفروضة على الوجه المستكمل لأركانها وشروطها وتدبر تلاوتها وأذكارها، وخشوع القلب لله وخشيته، وآتى الزكاة لمستحقيها المعروفين كالفقراء والمساكين وأبناء السبيل، ولم يخش في قوله وعمله إلا الله وحده، دون غيره من الأصنام والعظماء الذين لا ينفعون ولا يضرون في الحقيقة، وإنما النفع والضر بيد الله. أما إنه لم يذكر الإيمان بالرسول فلأنه دل عليه ما ذكر من إقامة الصلاة وغيرها؛ لأنه مما جاء به الرسول، فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إنما يصح من المؤمن بالرسول.

هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات هم الذين يقتصر عليهم عمارة المساجد الحسية بالبناء والتشييد والترميم، والمعنوية بالعبادة والأذكار وحضور دروس العلم، فلا يعمر بيوت الله غيرهم، وهؤلاء هم الذين يرجى بحق أن يكونوا من المهتدين إلى الخير دائماً، وإلى ما يحب الله ويرضيه، المستحقون الثواب على أعمالهم، لا أولئك المشركون الضالون الذين يجمعون بين الأضداد، فيشركون بالله ويكفرون بما جاء به رسوله، ويسجدون للطواغيت (الأصنام) ثم يقدمون بعض الخدمات للمسجد الحرام.

وليس المراد من الرجاء المستفاد من (عسى) حقيقته، فذلك لا يصح أن يكون صادراً من الله؛ لأنه ظن بحصول أمر وقعت أسبابه. وإنما عبر بكلمة (عسى) إشارة إلى قطع أطماع الكفار من الانتفاع بأعمالهم التي افتخروا بها وتأملوا عاقبتها، أي إذا كان جزاء المؤمنين على أعمالهم منوطاً بالرجاء منهم، فليس للكفارأي دور، أو إذا كان حصول الاهتداء للمؤمنين دائراً بين - لعل وعسى - فما بال هؤلاء المشركين يقطعون بأنهم مهتدون ويجزمون بفوزهم بالخير من عند الله تعالى؟!

ويؤكد استحقاق عمارة المساجد من قبل المتصفين بالأوصاف السابقة أحاديث نبوية كثيرة، منها في البناء المادي أوالحسي: ما رواه الشيخان والترمذي عن عثمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله، بنى الله له بيتاً في الجنة». ومنها ما رواه أحمد عن ابن عباس مرفوعاً: «من بنى لله مسجداً ولو كَمَفْحَص قطاة لبيضها، بنى الله له بيتاً في الجنة» والمفحص: موضع البيض. وروى الحارث بن أبي أسامة وأبو الشيخ بسند ضعيف عن أنس رضي الله عنه: «من أسرج في مسجد سراجاً، لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له، ما دام في ذلك المسجد ضوء من ذلك السراج».

ومنها في العمارة المعنوية: ما رواه الشيخان والحافظ أبو بكر البزار وعبد ابن حميد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عُمَّارالمساجد هم أهل الله». ومنها ما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾».

ومنها قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه الطبراني في الكبير عن ابن

مسعود وهو ضعيف: قال الله تعالى: «إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زوّاري فيها عُمّارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته، ثم زارني في بيتي، فحقٌّ على المزور أن يكرم زائره».

وحذر النبي ﷺ من الإخلال بحرمة المساجد، فقال فيما رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود وهو ضعيف: «يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي، يأتون المساجد، فيقعدون فيها حلقاً، ذكرهم الدنيا، وحب الدنيا، لا تجالسوهم، فليس لله بهم حاجة». وفي حديث آخر: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش»(١).

فقه الحياة أو الأحكام:

استنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - لا ثواب للمشركين في الآخرة على أعمال البر التي تصدر عنهم في الدنيا.

٢ً - المتصفون بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والمقيمون الصلاة، والمؤتون الزكاة، والذين لا يخشون أحداً سوى الله، هم الجديرون بعمارة المساجد، وأصحاب هذه الصفات الأربعة هم الذين يعمرون المساجد، وهم أهل الاهتداء إلى الخير والصراط المستقيم.

٣ً - دل قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ على أنه ينبغي لمن بنى مسجداً أن يخلص لله في بنائه، وألا يقصد الرياء والسمعة.

والأصح أنه يجوزاستخدام الكافر في بناء المساجد، والقيام بأعمال لا

---

(١) هكذا ذكره الكشاف، والمشهور على الألسنة «الكلام المباح في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» (كشف الخفا ١/ ٣٥٤).

ولاية له فيها، كنحت الحجارة والبناء والنجارة، فهذا لا يدخل في المنع المذكور في الآية، إنما المنع موجه إلى الولاية على المساجد والاستقلال بالقيام بمصالحها، مثل تعيينه ناظرالمسجد أو ناظرأوقافه. وقيل: إن الكفار ممنوعون من عمارة مساجد المسلمين مطلقاً.

ولا مانع أيضاً من قيام الكافر ببناء مسجد أو المساهمة في نفقاته، بشرط ألا يُتَّخَذَ أداة للضرر، وإلا كان حينئذ كمسجد الضرار. ولكن ليس للكافر ترميم المساجد، حفاظاً على تعظيمها، ولأن تطهير المساجد واجب لقوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ والكافر نجس الاعتقاد، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨/٩] ولأنه لا يحترز من النجاسات، فدخوله في المسجد ربما يؤدي إلى تلويثه، فتفسد عبادة المسلمين.

٤ً - الترغيب بعمارة المساجد الحسية والمعنوية، كما دلت الآية والأحاديث.

٥ً - قال الواحدي: يمنع الكافر من دخول المساجد، وإن دخل بغير إذن مسلم، استحق التعزير، وإن دخل بإذن لم يعزر، والأولى تعظيم المساجد، ومنعهم منها، وقد أنزل رسول الله ﷺ وفد ثقيف في المسجد، وهم كفار، وشدَّ ثمامة بن أُثال الحنفي في سارية من سواري المسجد الحرام، وهو كافر.

٦ً - دل قوله: ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ على أن الكفار مخلدون في النار.

٧ً - قوله تعالى في بدء الآية: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ﴾ وتعبيره بكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ التي تفيد الحصر، دليل على أن المسجد يجب صونه عن غير العبادة، من فضول الحديث، وإصلاح مهمات الدنيا، وكما أوضحت الأحاديث المتقدمة.

٨ً - قال الجصاص: اقتضت الآية منع الكفار من دخول المساجد، ومن بنائها، وتولي مصالحها والقيام بها؛ لانتظام اللفظ - أي العمارة - للأمرين،

وهما الدخول والبناء. فإن عمارة المسجد تكون بمعنيين: أحدهما - زيارته والكون فيه، والآخر - ببنائه وتجديد ما استرم منه(١).

٩ً - دلت الآية على أن عمارة المسجد لا تكون بالكفر، وإنما تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعة.

فضل الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ
آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ
مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

القراءات:

﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾:

وقرأ حمزة: (يَبْشُرُهم).

الإعراب:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ في الكلام حذف مضاف إما من أول الكلام تقديره: أجعلتم أصحاب سقاية الحاج وأصحاب عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله. وإما من آخر الكلام تقديره: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله. وإنما وجب تقدير الحذف ليصح المعنى.

(١) أحكام القرآن: ٢/ ٨٧

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾: مبتدأ وصفة، و﴿لَهُمْ﴾: خبر المبتدأ، والجملة صفة لجنات. وضمير ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الجنات أو الرحمة أو البشرى. وكذلك ضمير ﴿فِيهَآ﴾ الثانية حال..

البلاغة:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ استفهام إنكاري لمن يسوي بين هذا أو ذاك.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ في الجملة حصر، أي هم الفائزون لا غيرهم.

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ تنكير الكلمتين للتفخيم والتعظيم، أي برحمة ورضوان لا يوصفان.

المفردات اللغوية:

﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ سقي الحجيج الماء، والسقاية في اللغة: موضع السقي أو إناء السقي. وكانت قريش تسقي الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء، وكان يتولى هذا العباس بن عبد المطلب في الجاهلية والإسلام. وفي الآية حذف مضاف: أي أجعلتم أهل ذلك .﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في الفضل. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين .﴿دَرَجَةً﴾ رتبة .﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ الظافرون بالخير .﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم .﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ ماكثين فيها على الدوام، أكد الخلود بالتأبيد؛ لأنه قد يستعمل للمكث الطويل .﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر دونه ما استوجبوه لأجله أو نعم الدنيا.

سبب النزول:

أخرج مسلم وابن حبان وأبو داود عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي ألّا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد

الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليتُ الجمعة، دخلتُ على رسول الله ﷺ، فاستفتيتُه فيما اختصمتم، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ - إلى قوله - ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأخرج الفريابي عن ابن سيرين قال: قدم علي بن أبي طالب مكة، فقال للعباس: أي عم؟ ألا تهاجر؟ ألا تلحق برسول الله ﷺ، فقال: أُعمر المسجد، وأحجب البيت، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الآية. والحجابة: هي سِدانة البيت وخدمته.

والسقاية والحجابة أفضل مآثر قريش، وقد أقرهما الإسلام، جاء في الحديث الوارد في خطبة حجة الوداع عن جابر: «إن مآثر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج وسدانة البيت» ومآثر العرب: مكارمها ومفاخرها التي تؤثر عنها، أي تروى وتذكر.

وأخرج عبد الرزاق عن الشعبي نحوه. وأخرج ابن جرير الطبري عن محمد ابن كعب القرظي قال: افتخر طلحة بن شيبة والعباس وعلي بن أبي طالب، فقال طلحة: أنا صاحب البيت معي مفتاحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، فقال علي: لقد صليت إلى القبلة قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الآية كلها.

والخلاصة: أن الأصح في سبب النزول ما ذكره النعمان بن بشير، والروايات الأخرى عن الحسن والشعبي والقرظي وابن سيرين تفصيل لمجمل رواية النعمان.

المناسبة:

هذه الآية مرتبطة بما قبلها، ومكملة لها، فالآية السابقة أوضحت أن

عمارة المسجد الحرام مقبولة إذا كانت صادرة عن إيمان، فهي للمسلمين دون المشركين، وهذه الآية أبانت أن الإيمان والجهاد أفضل مما كان يفخر به المشركون من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج.

التفسير والبيان:

هذه الآية خطاب للمؤمنين بحسب حديث النعمان بن بشير، وقيل: هي خطاب للمشركين بدليل السياق، والأصح أنها تضمنت المفاضلة التي جرت بين المسلمين والكافرين، لقوله تعالى: ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ فإن العباس - كما تقدم - احتج على فضائل نفسه بأنه عمّر المسجد الحرام وسقى الحاج.

والمعنى: أجعلتم أهل السقاية وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد في سبيل الله سواءً في الفضيلة والدرجة؟ فإن السقاية والعمارة، وإن كانتا من أعمال الخير، فأصحابهما لا يساوون في المنزلة أهل الإيمان والجهاد.

وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ أي لا تساوي أبداً بين الفريقين لا في الصفة ولا في العمل، في حكم الله وفي إثابته، في الدنيا والآخرة.

ثم بيَّن عدم تساويهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يهدي القوم الكافرين في أعمالهم إلى ما هو الأفضل والأرقى رتبة؛ إذ قد طمس على قلوبهم.

والمعنى: إنكار أن يُشبَّه المشركون وأعمالهم المحبَطة بالمؤمنين وأعمالهم المثبتة، وأن يُسَوَّى بينهم، وجعل تسويتهم ظلماً، بعد ظلمهم بالكفر.

فالإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس أفضل وأعظم درجة عند الله من أعمال السقاية والسِدانة أو العمارة.

ثم بيّن الله تعالى مراتب التفاضل بين المؤمنين أنفسهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي إنّ المؤمنين بالله ورسوله، المهاجرين من مكة إلى المدينة، المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ولإعلاء كلمة الله، هم أعظم درجة وأرفع مقاماً ومكانة من القائمين بأعمال أخرى كالسقاية والعمارة.

وأولئك المؤمنون المهاجرون المجاهدون هم الفائزون بفضل الله وكرامته ومثوبته.

وهذا الفوز هو أنه تعالى يبشرهم في كتابه المنزل على رسوله برحمة واسعة، ورضوان كامل، وجنات لهم فيها نعيم دائم، وهم في هذا النعيم خالدون على الدوام إلى ما شاء الله تعالى.

وإن الله عنده الثواب العظيم على الإيمان والعمل الصالح ومنه الهجرة، والجهاد في سبيله ومن أجل مرضاته، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٧٢]. والرضوان: نهاية الإحسان، وهو شيء روحي، والنعيم في الجنة شيء مادي، فهو لين العيش ورغده.

وروى الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبَّيك ربَّنا وسَعْديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: ربَّنا، وأي شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على أن الجهاد مع الإيمان أفضل عند الله من أي عمل آخر من

أعمال الخير والبر؛ لأنه بذل للنفس أو المال، بقصد إعلاء كلمة الله. وأما السقاية وعمارة المسجد الحرام فهما وإن كانا عملين طيبين، إلا أنهما ليسا في الدرجة مثل الجهاد. روى عبد الرزاق عن الحسن البصري قال: نزلت آية ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ في علي وعباس وعثمان وشيبة، تكلموا في ذلك، فقال العباس: ما أراني إلا أني تارك سقايتنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أقيموا على سقايتكم، فإن لكم فيها خيراً».

والآية إنكار أن يشبه المشركون وأعمالهم المحبطة بالمؤمنين وأعمالهم المثبتة وأن يسوى بينهم، وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر.

ومراتب فضل المجاهدين كثيرة، فهم أعظم درجة عند الله من كل ذي درجة، فلهم المزية والمرتبة العلية، وهم الفائزون الظافرون الناجون، وهم الذين يبشرهم ربهم، أي يعلمهم في الدنيا ما لهم في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم، وهم الخالدون إلى الأبد وإلى ما شاء الله في جنان الخلد، ولهم ثواب عظيم أعده الله لهم في دار كرامته.

هؤلاء هم أعظم درجة عند الله من أهل السقاية والعمارة، وهم المختصون بالفوز دون غيرهم.

ولاية الآباء والإخوان الكافرين وتفضيل الإيمان والجهاد على ثمانية أشياء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

القراءات:

﴿أَوۡلِيَآءَ إِنِ﴾:

بتسهيل الهمزة الثانية بين بين وصلاً، قرأ: نافع، وابن كثير وأبو عمرو.

وأجمعوا على تحقيق الأولى.

البلاغة:

﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ أمر يراد به الوعيد، مثل ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٠].

المفردات اللغوية:

﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ اختاروا، وهو بمعنى: أحبوا ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الظلم: وضع الشيء في غير موضعه. ﴿وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾ أقرباؤكم ذوو القرابة القريبة ﴿ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿كَسَادَهَا﴾ عدم رواجها أو عدم نفادها، وبوارها ﴿أَحَبَّ

﴿إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ أي أحب إليكم من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة في سبيل الله، فقعدتم لأجله عن الهجرة والجهاد ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ تهديد لهم، والأمر: العقوبة العاجلة أو الآجلة.

سبب النزول:

نزلت الآيتان فيمن ترك الهجرة لأجل أهله وتجارته.

سبب نزول الآية: (٢٣)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟﴾ قال الكلبي: لما أُمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من يتعلق به زوجته وعياله وولده، فيقولون: نشدناك الله أن تدعنا إلى غير شيء فنضيع، فيرقّ، فيجلس معهم ويدع الهجرة، فنزلت يعاتبهم سبحانه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ﴾ الآية[1].

ونزلت في الذين تخلفوا بمكة ولم يهاجروا آية: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ يعني القتال وفتح مكة.

أخرج الفريابي عن ابن سيرين عن علي بن أبي طالب قال لقوم قد سماهم: ألا تهاجروا، ألا تلحقوا برسول الله ﷺ!! فقالوا: نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا، فأنزل الله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ الآية كلها.

المناسبة:

لما أمر الله تعالى المؤمنين بالتبري عن المشركين ونبذ عهودهم، قالوا: كيف

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ١٤٠

تمكن هذه المقاطعة التامة بين الرجل وبين أبيه وأمه وأخيه، فذكر تعالى أن الانقطاع عن الآباء والأولاد والإخوان واجب بسبب الكفر، وهو قوله: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾.

ثم جاءت الآية التالية: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ مؤكدة لمضمون الآية السابقة، وأبان تعالى أنه يجب تحمل جميع هذه المضارّ الدنيوية، ليبقى الدين سليماً، إذ سلامة الدين تكون بمباينة الكفار وعدم موالاتهم.

والخلاصة: إن الدين يغير المفاهيم، فيجعل رابطة الدين أعلى وأقوى وأولى من رابطة العصبية الجنسية، وصلة القرابة، والانتماء للأسرة، ويقرر أن ثمرة الهجرة والجهاد لا تظهر إلا بترك ولاية المشركين، وإيثار طاعة الله والرسول على كل شيء في الحياة.

التفسير والبيان:

يا أيها المصدّقون بالله ورسوله، لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء تنصرونهم في القتال، وتؤيدون الكفار لأجلهم، أو تطلعونهم على أسرار المسلمين العامة أو الحربية، إن اختاروا الكفر على الإيمان، وآثروا الشرك على الإسلام، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون لأنفسهم وأمتهم؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله، بموالاة الكافرين بدلاً من التبرؤ منهم.

فبعد أن نهى عن مخالطتهم، أوضح أن هذا النهي للتحريم لا للتنزيه، بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم؛ لأنه رضي بشركهم، والرضا بالكفر كفر، كما أن الرضا بالفسق فسق.

ويؤيد ذلك آية أخرى هي ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/٩].

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله، مصدراً ذلك بكلمة ﴿إن﴾ المفيدة للشك؛ لأن حب الكافرين مشكوك فيه من المؤمنين، والمقصود هو تفضيل حبهم على حب الله، أما أصل الحب فهو أمر فطري طبعي لا لوم عليه، ولا مؤاخذة فيه؛ لأن التكليف يتوجه على الأمور المقدورة للإنسان، لا على الأمور الجبلِّية الفطرية كالحب والبغض.

فقال له: قل: إن كنتم تؤثرون هذه الأشياء الثمانية، وتفضلون الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة (القرابة القريبة) والأموال، والتجارة، والمساكن، على حب الله ورسوله، أي طاعتهما، والجهاد في سبيله الذي يحقق السعادة الأبدية في الآخرة، فانتظروا حتى يأتي الله بعقابه العاجل أو الآجل.

ويمكن تصنيف هذه الأنواع الثمانية بأربعة: وهي مخالطة الأقارب، وذلك يشمل الآباء والأبناء والإخوان والأزواج، ثم بقية العشيرة، والميل إلى إمساك الأموال المكتسبة، والرغبة في تحصيل الأموال بالتجارة، والرغبة في المساكن. وهذا ترتيب حسن، يبدأ بالأشد تعلقاً والأدعى إلى المخالطة وهو القرابة، ثم الحرص على المال، ثم طريق اكتسابه بالتجارة، ثم الرغبة في البناء في الأوطان والدور المخصصة للسكنى. ولكن الله تعالى أبان أن رعاية الدين خير من رعاية جملة هذه الأمور.

ومن المعروف أن محبة هذه الأمور الثمانية بالطبيعة، فمحبة الآباء غريزة عند الأبناء؛ لأن الولد بَضْعة من أبيه، والولد يشعر أن أباه سبب في وجوده، والعرب قديماً وحديثاً يفخرون بالآباء، لهذا حث الله على ذكره في الحج مثل ذكر الآباء أو أشد، فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٠] .

ومحبة الأبناء غريزة أيضاً، بل هي أشد من محبة الآباء؛ إذ الولد فلذة من الكبد، وهو محط الأمل، ومفخرة الأهل، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٦].

والأخ يتقوى بأخيه، ويربطهما الانتماء للأصول من الأب والأم، قال تعالى لموسى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٣٥].

وحب الزوجة أمر فطري أيضاً، وكل من الزوجين يكمل الآخر، وسكينة له، وبينهما الود والتراحم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١].

وحب العشيرة قائم على الحاجة للتعاون والتناصر، وهو شديد التأثير في المجتمعات القبلية.

وحب المال المكتسب قوي عند الإنسان؛ لأنه ثمرة عنائه وجهده، وكذلك حب التجارة أصيل في النفس البشرية؛ لأنه مصدر التمويل، لذا يحرص الشخص على تنمية تجاراته، لتنمو موارده، وتكثر أرباحه، فيستفيد منها.

وحب المساكن الطيبة أمر مستكن في النفوس؛ لأنها مهد الراحة والطمأنينة والاستقرار، ووسيلة التفاخر والتظاهر بالنعمة، وربما كانت من المقومات الاجتماعية في الأعراف والعادات.

وبالرغم من مظاهر الحب وحقائقه لهذه الأنواع الثمانية، أمر الله تعالى بإيثار حب الله والرسول وطاعتهما والجهاد في سبيله على هذه الأشياء؛ لأن الله تعالى مصدر جميع النعم، وملجأ لدفع كل الكروب والمحن، لذا وصف تعالى المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٥].

وكذلك حب الرسول واجب بعد محبة الله؛ لأنه صاحب الفضل في إنقاذنا

من الضلالة إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ولأنه القدوة الحسنة والمثل الأعلى للمؤمنين في تطبيق الشريعة والأخلاق.

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

وروى أحمد والبخاري عن عبد الله بن هشام، قال: كنا مع رسول الله ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر: فأنت الآن والله أحبّ إلي من نفسي، فقال رسول الله: «الآن يا عمر».

وأما الجهاد، وإن كان مكروهاً لدى بعض الناس: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦] فإنه السبيل للحفاظ على كرامة الأمة ومنعة البلاد واستقلالها ومصالح الأفراد، وسبب للذود عن الحرمات والأموال والأعراض، وطريق لدفع العدوان وقمع الأطماع، وأساس لتوفير عزة الأمة ومجدها، وبدونه تكون المصالح العامة والخاصة مهددة بالزوال. لذا فرضه تعالى للضرورة من أجل الحفاظ على هذه المقاصد، ولمنع الفتنة في الدين، وحماية المستضعفين، والتمكين لحرية انتشار الإسلام بالطرق السلمية، وكانت محبته أمراً مطلوباً لحياة المسلمين، لذا قال النبي ﷺ - فيما أخرجه الترمذي عن معاذ بن جبل -: «رأسُ الأمر الإسلامُ، وعمودُه الصلاة، وذِرْوة سنامه الجهاد» وقال فيما يرويه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أنس: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها».

ثم ختم الله تعالى الآية بوعيد المخالفين وتهديد المعرضين بعقوبة عاجلة أو آجلة، فقال: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ أي فانتظروا العقاب الآتي عاجلاً أو آجلاً. قال الزمخشري: وهذه آية شديدة، لا ترى أشد منها، كأنها تنعى على الناس ماهم

عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين[١]. وقال البيضاوي: وفي الآية تشديد عظيم وقل من يتخلص منه.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي لا يرشد العصاة الخارجين عن حدود الدين ومقتضى العقل والحكمة أو من طاعة الله إلى معصيته.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المجادلة: ٥٨/٢٢].

فقه الحياة أو الأحكام:

ظاهر آية: ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ﴾ أنها خطاب لجميع المؤمنين، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين.

وخص الله سبحانه الآباء والإخوة؛ إذ لا قرابة أقرب منها، فنفى الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥/٥١] ليبين أن القرب قرب الأديان، لا قرب الأبدان.

ولم يذكر الأبناء في هذه الآية؛ إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التَّبَع للآباء.

والإحسان وهبة الأشياء مستثناة من الولاية، بدليل ما أخرجه البخاري: قالت أسماء: يا رسول الله، إن أمي قدِمت علي راغبةً، وهي مشركة، أفأصلها؟ قال: «صِلي أُمَّكِ».

(١) الكشاف: ٢/٣٣

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ تفسير لقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ إما بالمآل وسوء العاقبة، وإما بالأحكام في الدنيا العاجلة، وذلك ظلم، أي وضع الشيء في غير موضعه.

وفي آية: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ دليل على وجوب حبّ الله ورسوله، ولا خلاف في ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدَّم على كل محبوب.

ومعنى محبة الله تعالى ومحبة رسوله كما قال الأزهري: طاعته لهما واتباعه أمرهما، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١](١).

ورد عن النبي ﷺ: «لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحب في الله، ويبغض في الله، حتى يحب في الله أبعد الناس، ويبغض في الله أقرب الناس إليه».

وهذه الآية دليل على فضل الجهاد، وإيثاره على راحة النفس وعلائقها بالأهل والمال. وقال المفسرون: هذه الآية في بيان حال من ترك الهجرة، وآثر البقاء مع الأهل والمال.

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ٦٠

نصر المؤمنين في مواطن كثيرة

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

الإعراب:

﴿فِى مَوَاطِنَ﴾ امتناعه من الصرف؛ لأنه جمع وعلى صيغة لم يأت عليها واحد. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ ظرف منصوب بالعطف على موضع ﴿فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ وتقديره: ونصركم يوم حنين. وعطف الزمان وهو ﴿وَيَوْمَ﴾ على المكان وهو﴿مَوَاطِنَ﴾؛ لأن معناه وموطن يوم حنين، أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين. ويجوز أن يراد بالموطن: الوقت كمقتل الحسين، على أن الواجب أن يكون ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾منصوباً بفعل مضمر، لا بهذا الظاهر، وموجب ذلك أن قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾بدل من ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾. أما لو جعل ناصبه هذا الظاهر فلم يصح؛ لأن كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن، ولم يكونوا كثيراً في جميعها، فصار ناصبه فعلاً خاصاً به، إلا إذا نصبت ﴿إِذْ﴾بإضمار: اذكر. و﴿حُنَيْنٍ﴾: اسم منصرف؛ لأنه اسم مذكر، وهي لغة القرآن، ومن العرب من لا يصرفه، يجعله اسماً للبقعة.

البلاغة:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ عطف خاص على عام للتنويه بشأنه، لمجيء النصر بعد اليأس .﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ استعارة، شبه ماحل بهم من الكرب والهزيمة بضيق الأرض على سعتها.

المفردات اللغوية:

﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي مواقع الحرب ومشاهدها، مثل بدر وقريظة والنضير، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي واذكر، وهو واد بين مكة والطائف على ثلاثة أميال من الطائف، كانت فيه الواقعة بين المسلمين، وهم اثنا عشر ألفاً، الذين حضروا فتح مكة، منضماً إليهم ألفان من الطلقاء، وبين هوازن وثقيف، وهم أربعة آلاف مع من انضم إليهم من أمداد سائر العرب. وتسمى غزوته غزوة أوطاس، وغزوة هوازن، في شوال سنة ثمانٍ، فكانوا الجم الغفير، فلما التقوا قال رجل من المسلمين: «لن نُغلَب اليوم من قلة» فساء ذلك رسول الله ﷺ.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بدل من ﴿وَيَوْمَ﴾.

﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ ما: مصدرية، و﴿رَحُبَتْ﴾: اتسعت، والرُّحب: السعة، والرحب: الواسع، أي ضاقت عليكم الأرض مع رحبها أي سعتها، فلم تجدوا مكاناً تطمئنون إليه، لشدة ما لحقكم من الخوف ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي هاربين منهزمين، وثبت النبي ﷺ على بغلته البيضاء، وليس معه غير العباس، وأبو سفيان آخذ بركابه ﴿سَكِينَتَهُ﴾ طمأنينته ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فردوا إلى النبي ﷺ لما ناداهم العباس بإذنه وقاتلوا.

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي ملائكة ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأسر. ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ منهم بالإسلام.

سبب النزول:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾: أخرج البيهقي في الدلائل أن رجلاً قال يوم حنين: «لن نُغْلَب اليوم من قلة» وكانوا اثني عشر ألفاً، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ الآية.

المناسبة:

لما ذكرالله تعالى في الآية المتقدمة أنه يجب الإعراض عن مخالطة الآباء وغيرهم، رعاية لمصالح الدين، وعلم الله أن هذا يشق جداً على النفوس، ذكر ما يدل على أن من ترك الدنيا لأجل الدين، فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا أيضاً، وضرب مثلاً لذلك كثرة عسكرالمؤمنين وقوتهم يوم حنين، فلما أعجبوا بكثرتهم انهزموا، ثم في حال الانهزام لما تضرعوا إلى الله قوّاهم حتى هزموا عسكر الكفار، وهو يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا، ومتى أطاع الله ورجح الدين على الدنيا، آتاه الله الأمرين معاً على أحسن الوجوه، فكان ذكر ذلك تسلية عن مقاطعة الآباء ومن عداهم، لمصلحة الدين، وإعلاماً للمؤمنين ليتذكروا أن عنايته تعالى لهم بالقوة المعنوية، لا بالكثرة العددية.

قال مجاهد: هذه أول آية نزلت من ﴿بَرَآءَةٌ﴾ يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم، وإحسانه لديهم في نصره إياهم، في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره، لا بعَدَدهم ولا بعُدَدهم، ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولّوا مدبرين إلا القليل منهم، مع رسول الله ﷺ، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده، وبإمداده، وإن قل الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

أضواء من التاريخ على وقعة حنين:

كانت هوازن قوة كبيرة بعد قريش، وكانت تنافسها، فلما بلغها فتح مكة، نادى سيدهم مالك بن عوف النصري بالحرب، واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، ونصر وجشم كلها، وسعد بن بكر، وأجمع السير إلى رسول الله ﷺ،

وساق مع جيشه أموالهم ومواشيهم ونساءهم وأولادهم، وزعم أن ذلك يحمي نفوسهم به، ويقوي شوكتهم، وكان على ثقيف كنانة بن عبيد، وشهد الحرب دريد بن الصمة، وكان شيخاً كبيراً، له رأي وحكمة، ونزلوا بأوطاس: وادٍ في ديار هوازن عند الطائف، كانت فيه وقعة حنين.

ولما علم رسول الله ﷺ بأمرهم، خرج إليهم، وكان معه اثنا عشر ألفاً من المسلمين: عشرة آلاف من أصحابه في المدينة، من المهاجرين والأنصار، وألفان من أهل مكة مسلمة الفتح، وهم الطلقاء.

واستعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً.

ولما رأى المسلمون كثرتهم، وبلوغ عددهم مالم يبلغه عدد في غزوة سابقة، اغتروا وقال بعضهم: لن نُغْلَب اليوم من قلّة. روى أحمد وأبو داود والترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربع مئة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة» قيل: إن القائل: رسول الله ﷺ، وقيل: أبو بكر رضي الله عنه.

واتكل المسلمون على قوتهم في مبدأ الأمر فانهزموا، ثم لما عدلوا عن غرورهم، وتضرعوا إلى ربهم، كان النصر حليفهم.

التفسير والبيان:

لقد نصركم الله أيها المؤمنون في مواقع حربية كثيرة، كبدر والحديبية ومكة وقريظة والنضير، وأنتم قلة وهم كثرة: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ٣/١٢٣] حيث كنتم متوكلين على الله، معتمدين على أن النصر من عند الله. والمواطن الكثيرة: غزوات رسول الله، ويقال: إنها ثمانون موطناً، فأعلمهم الله تعالى بأنه هو الذي نصر المؤمنين، إما نصراً كاملاً وهو الأكثر، وإما نصراً جزئياً للتربية والتعليم، كما حدث في أحد، حينما خالف جماعة

من الصحابة أوامر النبي ﷺ، فتركوا جبل الرماة، وكما حدث في حنين حينما اعتمدوا على الكثرة العددية، وغاب عنهم أن الله هو الناصر، لا كثرة الجنود، فانهزموا.

وذكر بعضهم أن المواطن أقل من ثمانين، روى أبو يعلى عن جابر أن عدد غزواته ﷺ إحدى وعشرون، قاتل بنفسه في ثمان: بدر وأحد والأحزاب والمُصْطَلِق وخَيْبر ومكة وحُنَيْن والطائف. وبعوثه وسراياه ست وثلاثون.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي ونصركم أيضاً في يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فيه، إذ بلغتم اثني عشر ألفاً، وكان الكافرون أربعة آلاف فقط، وقيل: ثمانية آلاف في قول الحسن ومجاهد، فكانت الهزيمة عليكم، لاعتمادكم على أنفسكم، وغروركم بقوتكم، وتركتم اللجوء إلى ربكم واهب النصر، فلم تغن كثرتكم عنكم شيئاً من قضاء الله، وضاقت عليكم الأرض بما اتسعت من الخوف، ثم وليتم مدبرين منهزمين.

وذلك أنهم اقتتلوا اقتتالاً شديداً، فانهزموا أمام ثقيف وهوازن، إذ كمنت هوازن في وادي حنين، ثم بادروا المسلمين بالقتال، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم سيدهم، فولى المسلمون مدبرين، وثبت رسول الله ﷺ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بلجامها وبركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر، يثقلانها لئلا تسرع في السير.

وهذا دليل على تناهي شجاعته ورباطة جأشه ﷺ، وماهي إلا من آيات النبوة، ثم قال: «يارب ائتني بما وعدتني».

ثم قال للعباس وكان صيِّتاً: صِحْ بالناس، فنادى الأنصار ثم نادى: ياأصحاب الشجرة[١]، ياأصحاب السمرة، فأجابوه: لبيك لبيك.

ويدعو الرسول المسلمين إلى الرجعة قائلاً: «إلي عباد الله، إلي أنا رسول الله» ويقول في تلك الحال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فتراجع الناس، وثبت معه من أصحابه قريب من مئة، وقيل: ثمانون، ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيول بُلْق، فنظر رسول الله ﷺ إلى قتال المسلمين، فقال: «الآن حمي الوطيس»[٢] ثم أخذ كفاً من تراب، فرماهم به، ثم قال: «اللهم أنجز لي ماوعدتني، انهزِمُوا ورَبِّ الكعبة» فانهزموا، قال العباس: «فما زلت أرى حدهم كليلاً، وأمرهم مدبراً» «لكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم على بَغلته». وتمت هزيمة هوازن، وكانت هذه آخر غزوة ضد المسلمين، انتصر فيها المسلمون، وانهزم فيها العرب.

ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي أفرغ الله طمأنينته وثباته على رسوله، وعلى المؤمنين الذين كانوا معه، وأنزل جنوداً لم تروها، وهم الملائكة، كما روى مسلم في صحيحه، لتقوية روح المؤمنين وتثبيتهم، وإضعاف الكافرين بما يقذفون في قلوبهم من الخوف والجبن من حيث لا يرونهم.

إلا أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر، روي عن بعض من أسلم بعد حنين أنه قال: أين الخيل البُلْق، والرجال الذين كانوا عليهم، بِيض، ما كان قتلنا إلا بأيديهم؟!

---

(١) يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على ألا يفروا عنه.

(٢) يعني: استعرت الحرب، وهي من كلام النبي ﷺ الذي لم يسبق إليه.

وعذب الذين كفروا بسيوفكم بالقتل والسبي والأسر، وذلك هو جزاء الكافرين في الدنيا، ونظير الآية: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩/١٤] .

وكان السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، وكانت تلك أكبر غنيمة غنمها المسلمون.

وجرياً على عادة القرآن في فتح باب الأمل والتوبة أمام الكفار والعصاة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي ثم يتوب الله بعد هذا التعذيب الذي حدث في الحرب على من يشاء من الكفار، يعني: ومع كل ماجرى عليهم من الخذلان، فإن الله تعالى قد يتوب على بعضهم، بأن يزيل عن قلبه الكفر، ويخلق فيه الإسلام، كما قال أهل السنة، أو بأن يسلموا ويتوبوا فيقبل الله توبتهم، كما قال المعتزلة.

والله غفور لمن تاب، رحيم بمن آمن وعمل صالحاً. وقد تاب الله على بقية هوازن، فأسلموا، وقدموا على النبي ﷺ مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعْرانة[1]، بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير، مابين صبي وامرأة، فرده عليهم، وقسم الأموال بين الغانمين، ونفَّل أناساً من الطلقاء (أهل مكة) لكي يتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مئة مئة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مئة: مالك بن عوف النصري، واستعمله على قومه: هوازن، كما كان.

روى البخاري عن المِسْور بن مَخْرمة: «أن ناساً منهم جاؤوا إلى رسول الله

(١) الجعرانة: موضع على سبعة أميال من مكة إلى الطائف.

ﷺ، وبايعوه على الإسلام، وقالوا: يارسول الله، أنت خير الناس، وأبرّ الناس، وقد سُبي أهلونا، وأولادنا، وأخذت أموالنا، فقال ﷺ: «إن عندي من ترون، إنّ خير القول أصدقه، اختاروا إما ذراريكم ونساءكم، وإما أموالكم» قالوا: ماكنا نعدِل بالأحساب شيئاً، فقام النبي ﷺ فقال: «هؤلاء جاؤونا مسلمين، وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده شيء، وطابت به نفسه أن يرده فشأنه، ومن لا فليعطنا، وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه» قالوا: رضينا وسلمنا.

فقال ﷺ: «إنا لا ندري لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم، فليرفعوا ذلك إلينا» فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا.

فقه الحياة أو الأحكام:

١ - الآيات تذكرالمؤمنين بنعم الله عليهم، إذ نصرهم في معارك حربية كثيرة، وأن النصر من عند الله، فقد تخطئ الحسابات والاحتمالات، وكثيراً ما تنهزم الكثرة الكاثرة، وتنتصر القلة القليلة، والمعول عليه إنما هو عناية الله بعباده المؤمنين وتأييده لهم، فذلك أقوى تأثيراً من كل القوى العسكرية أوالمادية.

٢ - ذكر العلماء أن النبي ﷺ قال في هذه الغزوة فيما رواه الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي قتادة وغيره: «من قتل قتيلاً له عليه بيِّنة، فله سَلَبُه» وهذا في رأي الشافعية والحنابلة صادر عنه بطريق التبليغ والوحي، فهو حكم دائم لا يحتاج إلى إذن الإمام، وفي رأي الحنفية والمالكية: هذا الحكم صادر عنه ﷺ بطريق الإمامة والسياسة، فلا يستحق في كل معركة إلا بإذن الإمام، ولا يكون ذلك من الإمام إلا على وجه الاجتهاد. ولم ينقل أن رسول الله ﷺ قال ذلك إلا يوم حنين، وليس في مغازيه كلها.

٣ - في قصة هذه الغزوة استعار النبي ﷺ من صفوان بن أمية وهو مشرك أدراعاً وأسلحة. وهذا يدل على جواز استعارة السلاح، وجواز الاستمتاع بما استُعير إذا كان على المعهود مما يستعار مثله، وجواز استلاف الإمام المالَ عند الحاجة إلى ذلك ورده إلى صاحبه.

وفي هذه الغزوة أمر رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود وصححه الحاكم عن أبي سعيد الخدري «ألا تُوطأ حامل حتى تضَع، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة» وهو يدل على أن السَّبْيَ يقطع العصمة.

وفيها أيضاً أنه ﷺ استعان بصفوان في الحرب، وقد قال أبو حنيفة والشافعي: لا بأس بالاستعانة بالمشركين على المشركين، إذا كان حكم الإسلام هو الغالب، وإنما تكره الاستعانة بهم إذا كان حكم الشرك هو الظاهر.

وقال مالك: لم يكن خروج صفوان إلى حنين والطائف بأمر رسول الله ﷺ، ولا أرى أن يستعان بالمشركين على المشركين، إلا أن يكونوا خَدَماً أو نواتيِّة (بحارة).

٤ - أبان الله عز وجل في هذه الآية أن الغلبة إنما تكون بنصر الله لا بالكثرة، فلا يغلبون بكثرتهم، وقد قال: ﴿وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٠] . والنصر عند اشتداد المحنة من أعظم النعم الإلهية، والمحنة هي ماطرأ عليهم من الخوف، حتى لكأنهم لا يجدون في الأرض موضعاً يصلح لفرارهم من عدوهم.

٥ - أنزل الله في هذه المعركة مايسكن قلوب المؤمنين ويذهب خوفهم، حتى اجترؤوا على قتال المشركين بعد أن وَلَّوْا، وأنزل ملائكة يُقَوُّون المؤمنين بما يلقون في قلوبهم من الخواطر والتثبيت، ويُضعضعون الكافرين بالتجبِين لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال؛ لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر.

وروي - كما تقدم - أن رجلاً من بني نصر قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البُلْق، والرجال الذين كانوا عليها بيض، ماكنا فيهم إلا كهيئة الشامة، وما كان قتلنا إلا بأيديهم؟! فأخبروا النبي ﷺ بذلك، فقال: «تلك الملائكة».

٦ - عذب الله الكافرين في هذه المعركة بالقتل بأسياف المسلمين، وهو جزاؤهم المستحق في دار الدنيا، ثم تاب الله على من انهزم، فهداه إلى الإسلام، كمالك بن عوف النّصري رئيس حنين، ومن أسلم معه من قومه.

والخلاصة: حدثت أمور ثلاثة يوم حنين: إنزال الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين، وإنزاله جنوداً هم الملائكة، وتعذيب الكافرين بالقتل والسبي.

٧ - لما قسم رسول الله ﷺ غنائم حُنين بالجعرانة، أتاه وفد هوازن مسلمين، راغبين في العطف عليهم والإحسان إليهم، فخيرهم بين السبي والأموال، فاختاروا السبي، فرد عليهم رسول الله ﷺ نساءهم وأولادهم، واستطاب أنفس الغانمين عما بيدهم من الأموال، وعوّض من لم تطب نفسه بترك نصيبه من الغنائم أعواضاً رضوا بها.

وكان من جملة السبي الشَّيماء أخت النبي ﷺ من الرضاعة، وهي بنت الحارث بن عبد العُزّى من بني سعد بن بكر، وبنت حليمة السعدية، فأكرمها رسول الله ﷺ، وأعطاها وأحسن إليها، ورجعت مسرورة إلى بلادها بدينها وبما أفاء الله عليها.

وحدثت قصة طريفة عند رد السبي، أخرج مسلم عن ابن عباس قال: رأى رسول الله ﷺ يوم أوطاس امرأة تَعْدو وتصيح ولا تستقر، فسأل عنها فقيل: فَقَدَت بُنَيّاً لها، ثم رآها وقد وجدت ابنها وهي تقبّله وتدنيه، فدعاها وقال لأصحابه: «أطارحة هذه ولدها في النار» قالوا: لا، قال: لِمَ؟ قالوا: لشفقتها، قال: «الله أرحم بكم منها».

تحريم دخول المسجد الحرام على المشركين

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾

القراءات:

﴿شَآءَۚ إِنَّ﴾:

قرأ بتسهيل الهمزة الثانية وصلاً: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.

البلاغة:

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾: تفيد الحصر، وقوله: ﴿ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾: تشبيه بليغ أي كالنجس في خبث الاعتقاد، حذفت منه أداة الشبه ووجه الشبه، مثل: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ أي كالأرباب في طاعتهم. وقال الزمخشري: ﴿نَجَسٞ﴾: مصدر، ومعناه ذوو نجس؛ لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في وصفهم بها.

﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾ عبر عن الدخول بالقرب للمبالغة، أي إنما نهى عن الاقتراب للمبالغة، أو للمنع عن دخول الحرم. وذهب أبو حنيفة إلى أن المراد به النهي عن الحج والعمرة، لا عن الدخول مطلقاً. وقاس مالك سائر المساجد على المسجد الحرام في المنع.

المفردات اللغوية:

﴿نَجَسٞ﴾ ونجاسة: قذارة وعدم نظافة، وإذا وصف به الإنسان كان المراد

أنه شرير خبيث النفس، وإن كان طاهر البدن. والناجس والنجيس: داء خبيث لا دواء له. وفي اصطلاح الفقهاء: مايجب تطهيره، سواء كان قذراً كالبول أو غير قذر كالخمر مثلاً.

﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ المراد به في رأي عطاء: الحرم كله وهو مكة. وهو مذهب الشافعية أيضاً. ورأى المالكية أن المراد خصوص المسجد الحرام، أخذاً بظاهر اللفظ، ولكن بقية المساجد تقاس عليه؛ لأن العلة وهي النجاسة موجودة في المشركين، والحرمة موجودة في كل مسجد، فلا يجوز تمكينهم من دخول المسجد الحرام والمساجد كلها. ومذهب الحنفية: ليس المراد النهي عن دخول المسجد الحرام، وإنما المراد النهي عن أن يحج المشركون ويعتمروا، كما كانوا يعملون في الجاهلية.

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَاۚ﴾ العام التاسع من الهجرة ﴿عَيْلَةً﴾ فقراً بانقطاع تجارتهم عنكم، وفعله: عال يعيل عيلاً وعيلة فهو عائل. وأعال: كثر عياله، ويعول عِيالاً كثيرين، أي يمونهم ويكفيهم معاشهم ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ عطائه وتفضله وقد أغناهم بالفتوح والجزية.

سبب النزول:

نزول ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت، ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه، فلما منعوا عن أن يأتوا البيت، قال المسلمون: من أين لنا الطعام، فأنزل الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

وأخرج ابن جرير الطبري وأبو الشيخ بن حيان الأنصاري عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ شق ذلك على المسلمين، وقالوا: من يأتينا بالطعام والمتاع؟ فأنزل الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ الآية.

المناسبة:

لما أَمر النبي ﷺ علياً رضي الله عنه أن يقرأ على مشركي مكة أول سورة براءة، ويَنْبِذ إليهم عهدهم، سنة تسع من الهجرة، وأن الله بريء من المشركين ورسولَه، قال أناس: يا أهل مكة، ستعلمون ما تلقونه من الشدة؛ لا نقطاع السبل، وفقد الحمُولات، فنزلت هذه الآية لدفع هذه الشبهة.

التفسير والبيان:

يا أيها المؤمنون بالله ورسوله، إن المشركين أنجاس، فاسدو الاعتقاد، منغمسون في النجاسة، فهم أنجاس إما لخبث باطنهم وفساد عقيدتهم لعبادة الأصنام والأوثان، أو لأن معهم الشرك الذي هو مثل النجس الذي يجب اجتنابه، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات الحسية. وإذا كانوا أنجاساً، فلا يدخلوا المسجد الحرام، ولا أن يطوفوا به عراة.

فهذا نهي للمؤمنين أن يمكِّنوا المشركين من دخول المسجد الحرام بعد العام التاسع من الهجرة. وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ يدل على الحصر، أي لا نجس إلا المشرك.

والمراد بالمشركين في رأي الأكثرين هم عبدة الأوثان، وقال قوم: بل يتناول جميع الكفار، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/٤٨] . وهذا هو الأرجح الظاهر من الآية.

والمراد بالنجس: النجاسة المعنوية أي نجاسة الاعتقاد. ونقل الزمخشري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أعيان المشركين نجسة كالكلاب والخنازير، تمسكاً بظاهر هذه الآية(١). ولكن جمهور الفقهاء اتفقوا على خلاف ذلك وعلى

(١) وهو قول الهادي من أئمة الزيدية ورأي بعض الظاهرية، وروى ابن جرير عن الحسن: من صافح مشركاً توضأ.

طهارة أبدانهم، فليس المشرك أو الكافر نجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب.

والمقصود بالمسجد الحرام كما تبين في المفردات: الحرم كله في رأي عطاء والشافعية، وخصوص المسجد الحرام في مذهب المالكية أخذاً بظاهر اللفظ، ورأى الحنفية أن ليس المراد النهي عن دخول المسجد الحرام، وإنما المراد النهي عن أن يحج المشركون ويعتمروا، كما كانوا يعملون في الجاهلية، بدليل قوله تعالى: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ أي لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو العام التاسع من الهجرة، ولقول علي رضي الله عنه حين نادى بسورة براءة: «ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك» ولأن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ يدل على أن خشية العيلة بسبب انقطاع مواسم المشركين، لمنعهم من الحج والعمرة، ولإجماع المسلمين على منع المشركين من سائر أعمال الحج وإن لم تكن في المسجد.

ثم ألقى الله الطمأنينة في قلوب المسلمين بشأن توافر موارد الأطعمة وأنواع التجارات، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي وإن خفتم أيها المسلمون فقراً، بسبب قلة جلب الأقوات وأنواع التجارات التي كان المشركون يجلبونها، ومنعوا بعد هذا العام من دخول المسجد الحرام، فسوف يغنيكم الله من فضله وعطائه بوجه آخر، وييسر لكم موارد المعيشة والأرزاق والمكاسب.

إن الله عليم بأحوالكم وبما يكون في المستقبل من غنى وفقر، حكيم فيما يشرعه لكم من أمر ونهي، كالأمر بقتال المشركين بعد انقضاء عهودهم، والنهي عن قرب المشركين للمسجد الحرام بعد هذا العام، وهو أيضاً حكيم فيما يعطي ويمنع؛ لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره تعالى.

وهذا إخبار عن غيب في المستقبل، وقد تحقق الخبر، وأنجز الله وعده،

فأسلم أهل اليمن وأهل جدة وجرش وغيرهم، وصاروا يحملون الأطعمة إلى مكة، وأسلم المشركون أنفسهم، ولم يبق منهم أحد يمنع من الحرم، وأتتهم الثروات والخيرات من كل مكان، وجاءتهم الغنائم وأموال الجزية التي كانوا يأخذونها من أهل الذمة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على مايأتي:

١ - النص صريح في أن المشرك نجس، وفي أن المؤمن طاهر ليس بنجس. لذا كان مذهب المالكية والحنابلة: إيجاب الغسل على الكافر إذا أسلم، وقال الشافعي: أحبّ إلي أن يغتسل. روى أبو حاتم البُسْتي في صحيح مسنده أن النبي ﷺ مرّ بثمامة بن أُثال يوماً، فأسلم، فبعث به إلى حائط (بستان) أبي طلحة، فأمره أن يغتسل، فاغتسل وصلى ركعتين، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حَسُنَ إسلام صاحبكم» وأخرجه مسلم بمعناه. وكذلك أمر النبي ﷺ قيس بن عاصم أن يغتسل بماء وسدر.

٢ - المشرك ممنوع من دخول المسجد الحرام، والمقصود به لدى الشافعية: حرم مكة كله، سواء مساجدها وغيرها، فلا يمكَّن الكافر من دخول حرم مكة[١]. قال الشافعي: الآية عامة في سائر المشركين، وبخاصة في المسجد الحرام، ولا يمنعون من دخول غيره، كما دخل في المسجد ثمامة وأبو سفيان، وهما مشركان.

وقال المالكية: الآية عامة في سائر المشركين وسائر المساجد، إلا في حالة العذر، كدخول الذمي المسجد للتقاضي أمام الحاكم المسلم. وبذلك كتب عمر ابن عبد العزيز إلى عماله، واستدل بهذه الآية، ويؤيدهم قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ

(١) إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشي: ص ١٧٣ وما بعدها.

أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ [النور: ٣٦/٢٤] ودخول الكفار فيها مناقض لترفيعها، ولأن قوله عز وجل: ﴿إنما المشركون نجس﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة[1].

وأباح الحنفية للكافر دخول المساجد كلها في الحرم وغيره لحاجة أو لغير حاجة؛ لأن المقصود بالآية النهي عن حج المشركين واعتمارهم، كما تقدم بيانه. فلا يمنع اليهود والنصارى من دخول المسجد الحرام ولا غيره، ولا يمنع دخول المسجد الحرام إلا المشركون وأهل الأوثان.

٣ - قال الرازي: لا شبهة في أن المراد بقوله: ﴿بعد عامهم هذا﴾ السنة التي حصل فيها النداء من المشركين، وهي السنة التاسعة من الهجرة[2] أي إن المنع يبدأ من السنة العاشرة.

٤ - الفضل المذكور في الآية مطلق، يشمل كل ما أغناهم الله به، وهو الأصح، وقيل: المراد به حمل الطعام إلى مكة من البلاد التي أسلم أهلها كجدة وصنعاء وحنين، فإنه سدّ حاجتهم وأغناهم عما في أيدي المشركين. وقيل: المراد به الجزية، وقيل: الفيء.

وقوله تعالى: ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾إخبار عن غيب في المستقبل على سبيل الجزم، وقد وقع الأمر مطابقاً لذلك الخبر، فكان معجزة.

وفي هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بأسباب الرزق جائز، ولا ينافي ذلك التوكل، وإن كان الرزق مقدّراً، وأمر الله وقسمه مفعولاً، ولكنه علّقه بالأسباب، لحمل الناس على العمل، والسبب لا ينافي التوكل، بدليل ما أخرج البخاري من قوله ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٩٠١/٢، تفسير القرطبي: ١٠٤/٨ وما بعدها.

(٢) تفسير الرازي: ٢٦/١٦

يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً[1]» فأخبر أن التوكل الحقيقي لا يعارضه الغدو والرواح في طلب الرزق.

وقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾ يدل على أن الرزق ليس بالاجتهاد، وإنما هو فضل من الله تعالى تولّى قسمته، وذلك في قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٢] .

٥ - إقامة الكفار في ديار الإسلام:

بلاد الإسلام بالنسبة إلى دخول الكفار إليها وإقامتهم فيها ثلاثة أقسام:

الأول - الحرم المكي: يمنع الكافر من دخول الحرم المكي وهو قول الشافعية والحنابلة، عملاً بظاهر الآية، فلا يسمح لكافر بدخول الحرم، ولو كان حاملاً رسالة، وإنما يخرج إليه الإمام أو نائبه خارج الحرم ليسمع رسالته. وأجاز المالكية لغير المسلم دخول حرم مكة دون البيت الحرام بأمان لمدة ثلاثة أيام، أو بحسب الحاجة في تقدير المصلحة من قبل الإمام.

وأباح أبو حنيفة أيضاً للكافر دخول الحرم بإذن الإمام أو نائبه، ثلاثة أيام بلياليها.

الثاني - الحجاز: وهو مابين عدن إلى حدود العراق طولاً، ومابين جُدّة وما والاها من ساحل البحر إلى حدود الشام عرضاً. يجوز للكافر دخولها بالإذن لمدة ثلاثة أيام فقط. روى مسلم عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب، فلا أَتْرُكُ فيها إلا مسلماً» وفي رواية لمسلم: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».

والمراد من جزيرة العرب في رأي الشافعية والحنابلة هو الحجاز خاصة،

(١) أي تغدو بكرة وهي جياع، وتروح عشية وهي ممتلئة الأجواف والبطون.

كما حكى ابن حجر عن الجمهور، بدليل رواية أحمد: «أخرجوا اليهود من الحجاز» ولفعل عمر رضي الله عنه فيما رواه البخاري والبيهقي، حيث أجلى اليهود والنصارى من الحجاز فقط دون جزيرة العرب، وأقرهم في اليمن مع أنها من جزيرة العرب.

ولا يجوز عند المالكية لغير المسلم استيطان جزيرة العرب (الحجاز واليمن) لعموم الحديث السابق عن ابن عمر، وحديث عائشة عند أحمد: «لا يترك بجزيرة العرب دينان» وما أخرجه مالك في الموطأ عن الزهري مرسلاً: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب».

الثالث - سائر بلاد الإسلام: يجوز للكافر أن يقيم فيها بأمان، ولكن لا يدخل المساجد إلا بإذن المسلم، فيجوز للكافر دخول المسجد واللبث فيه، وإن كان جنباً، فإن الكفار كانوا يدخلون مسجده ﷺ، ولا شك أن فيهم الجنب، وقد ترجم البخاري: دخول المشرك المسجد[1].

قتال أهل الكتاب

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

الإعراب:

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ بيان للذين الأولى، وهي بدل.

﴿عَن يَدٍ﴾ في موضع حال.

(١) إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشي: ص ٣١٨

المفردات اللغوية:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لا يؤمنون إيماناً صحيحاً بالله لأن اليهود جعلوا عزيراً ابن الله، والنصارى جعلوا عيسى ابن الله، وهو الله، ولا يؤمنون باليوم الآخر على نحو صحيح؛ لأن النصارى يجعلون الدينونة والحساب لعيسى لا لله تعالى، ثم إنهم جميعاً كفروا بمحمد ﷺ الذي أمروا في كتبهم بالإيمان به، فلم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون أهواءهم فيما هم فيه، ولا يتبعون شرع الله ودينه ﴿مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ كالخمر والربا ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ الثابت الناسخ لغيره من الأديان، وهو دين الإسلام، يقال: دان بكذا: اتخذه ديناً وعقيدة ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾ بيان للذين الأولى. ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾أي اليهود والنصارى ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ يلتزموا أداء الجزية، وهي ضريبة مفروضة على الأشخاص القادرين، لا على الأرض، كضرائب الدخل اليوم ﴿عَنْ يَدٍ﴾ سعة وقدرة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ الصغار: التزام أحكام الإسلام وسيادته.

سبب النزول:

روى ابن المنذر عن الزهري قال: أنزلت في كفار قريش والعرب: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ ونزلت في أهل الكتاب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران قبل وفاته عليه الصلاة والسلام.

وروى ابن أبي شيبة وأبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن الحسن البصري قال: قاتل رسول الله ﷺ أهل هذه الجزيرة من العرب على الإسلام، لم يقبل منهم غيره، وكان أفضل الجهاد، وكان بعده جهاد على هذه الآية في شأن أهل الكتاب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى حكم المشركين في إظهار البراءة من عهودهم، وفي

وجوب مقاتلتهم، وإبعادهم عن المسجد الحرام، أعقبه ببيان حكم أهل الكتاب: وهو أن يقاتلوا إلى أن يعطوا الجزية. وفي ذلك توطئة للكلام عن غزوة تبوك مع الروم من أهل الكتاب، والخروج إليها في زمن العُسْرة والقيظ، حين طابت الثمار واشتد الحر، وما يتعلق بها من فضيحة المنافقين، وتمحيص المؤمنين.

التفسير والبيان:

لما كفر اليهود والنصارى بمحمد ﷺ، لم يبق لهم إيمان صحيح، ولا شرع ولا دين، وإنما يتبعون أهواءهم؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بأصل دينهم، لقادهم ذلك إلى الإيمان برسالة الإسلام وبنبوة محمد ﷺ؛ لأن جميع الأنبياء بشروا به، وأمروا باتباعه، ولم يعد ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء؛ لأن الإسلام من عند الله، وختمت به الديانات، فلم يكف الإيمان ببعض دون بعض، ما داموا قد كفروا بخاتم النبيين وأشرف المرسلين.

لهذا أمر الله بمقاتلة أهل الكتاب، إذا كانوا موصوفين بصفات أربع وهي:

أ - إنهم لا يؤمنون بالله: فإن أكثر اليهود مشبِّهة يعتقدون أن الإله جسم، والله منزه عن الجسمية والشبيه، فهم لا يؤمنون بوجود الله وتوحيده حقاً، وجوداً منزهاً عن التجسيم. والنصارى يعتقدون بالتثليث ثم التوحيد، فهم يقولون بوجود الأب والابن وروح القدس، ثم يعتقدون أن الإله حل في عيسى، فأصبح هو الرب، والله منزه عن الاتحاد والحلول في غيره، وعن الابن والشريك، فصاروا لا يؤمنون بوجود الإله الحق.

ثم إن اليهود يقولون: عزير ابن الله، وكل من اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، يشرِّعون لهم العبادات ويحرِّمون، ويطيعونهم في ذلك، فصاروا بمنزلة الرب.

٢ً - إنهم لا يؤمنون باليوم الآخر على النحو الصحيح، فهم يعتقدون بأن الأرواح هي التي تبعث دون الأجساد، كالملائكة، وأن أهل الجنة لا يأكلون ولا يشربون، وليس هناك متع مادية، ويرون أن نعيم الجنة وعذاب النار معانٍ روحية فقط كالسرور والهم، فهم لا يؤمنون بحياة كاملة مادية وروحية في عالم الآخرة، وهذا منافٍ لما أخبر به القرآن، ومن أنكر البعث الجسماني، فقد أنكر صريح القرآن.

٣ً - ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله: فهم لا يحرمون ما حرمه القرآن وسنة الرسول، ولا يحرمون ما حرمه موسى وعيسى عليهما السلام، بل حرفوا التوراة والإنجيل، وشرعوا لأنفسهم أحكاماً تخالف أصل دينهم المنسوخ بحكم الإسلام، فترى اليهود يستحلون أكل أموال الناس بالباطل كالربا وغيره، والنصارى استباحوا ما حرم عليهم في التوراة كالشحوم والخمور.

٤ً - ولا يدينون دين الحق: أي لا يعتقدون بصحة دين الإسلام الذي هو الدين الحق، وإنما يسيرون على وفق ما وضعه رجال الدين بحسب أهوائهم، فبدلوا التوراة والإنجيل، ولم يعد أصل الدين المطابق للإسلام والموحى به إلى موسى وعيسى عليهما السلام هو المعمول به.

فقاتلوا هؤلاء الموصوفين بأنهم من أهل الكتاب، لتمييزهم عن المشركين في الحكم، فالمشركون يجب في حقهم القتال أو الإسلام، وأهل الكتاب يجب فيهم أحد خصال ثلاث: القتال أو الإسلام أو الجزية.

وغاية قتالهم حتى يلتزموا الدخول في عهد مصحوب بأداء الجزية، وهم صاغرون أي ملتزمون الخضوع لأحكام الإسلام.

وكما أن قتال المشركين واجب إذا حاربوا المسلمين، كما تقدم بيانه عن ابن العربي[١]، كذلك قتال أهل الكتاب عند وجود مقتضيات القتال، كالاعتداء على المسلمين أو بلادهم أو أعراضهم أو فتنتهم عن دينهم أو تهديد أمنهم وسلامتهم، كما حصل من الروم، فكان ذلك سبباً لغزوة تبوك، أو حسبما يرى الإمام من المصلحة الحربية معتمداً على التحركات المشبوهة، والاستعدادات الحربية، والحشود العسكرية على حدود دار الإسلام.

وقد سموا بأهل الكتاب؛ لأن لهم في الأصل كتاباً سماوياً، ويعتقدون في الجملة بالإله وبالبعث والحساب والرسل والشرائع والملل.

ويسمون أيضاً «أهل الذمة» أي أهل العهد والميثاق الذي يوجب الإسلام معاملتهم بالعدل والمساواة بمقتضى ذمة الله ورسوله.

ويقال لهم أيضاً «المعاهدون» لأنهم يقيمون في دار الإسلام بموجب عهد أو معاهدة معقودة بيننا وبينهم، ويجب تنفيذ أحكامها واحترامها من الجانبين، ويحرم ظلمهم وتكليفهم مالا يطيقون.

والصَّغار كما تقدم وذكر بعض الفقهاء كالشافعية وابن القيم: هو التزام الأحكام، وليس الإذلال والإهانة.

والجزية ليست من مبتدعات الإسلام، وإنما كانت معروفة لدى الفرس، وأول من سنَّها كسرى أنو شَرْوان، فعمل بها عمر حينما افتتح بلاد الفرس.

ولم يحدد القرآن مقدارها، فاختلف الفقهاء في تقديرها، فقال الشافعي: هي في السنة دينار على الغني والفقير من الأحرار البالغين لا يُنقص منه شيء، لما روى أبو داود وغيره عن معاذ: أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن، وأمره أن

---

(١) أحكام القرآن: ٢/ ٨٨٩

يأخذ من كل حالم ديناراً في الجزية. قال الشافعي: وهو أي الرسول المبيِّن عن الله تعالى مراده. وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز. وتؤخذ في آخر السنة.

وقال المالكية: إنها أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورِق (الفضة)، الغني والفقير سواء، ولو كان مجوسياً، لا يُزاد ولا يُنقص على ما فرض عمر، لا يؤخذ منهم غيره.

وقال الحنفية: مقدار الجزية اثنا عشر درهماً على الفقراء، وأربعة وعشرون درهماً على الأوساط، وأربعون درهماً على الأغنياء. وتؤخذ في أول السنة.

ويعامل المجوس في أخذ الجزية معاملة أهل الكتاب، قال ابن المنذر: لا أعلم خلافاً أن الجزية تؤخذ منهم. روى مالك في الموطأ أن عمر بن الخطاب ذكر أمر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهدُ لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب» قال ابن عبد البر: يعني في الجزية خاصّة. وفي هذا القول دليل واضح على أنهم ليسوا أهل كتاب.

أما أهل الأوثان: فقال الشافعي رحمه الله وجمهور الفقهاء: لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب على التخصيص، عرباً كانوا أو عجماً لهذه الآية، فإنهم هم الذين خُصّوا بالذكر، فتوجه الحكم إليهم دون سواهم؛ لقوله عز وجل: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥/٩] ولم يقل: حتى يُعطوا الجزية، كما قال في أهل الكتاب. فلا تؤخذ الجزية من عبدة الأوثان من العرب.

وقال الأوزاعي والمالكية: تؤخذ الجزية من كل عابد وَثَن أو نار أو جاحد أو مكذِّب، عربياً أو عجمياً، تَغْلَبياً أو قرشياً، كائناً من كان؛ إلا المرتد.

والجزية تؤخذ من الرجال المقاتلين؛ لأنه تعالى قال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ﴾ إلى

قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ فيقتضي ذلك وجوبها على من يقاتل، وقد أجمع العلماء على أن الجزية تؤخذ من الرجال الأحرار المقاتلين.

وإذا أعطوا الجزية لم يؤخذ منهم شيء من ثمارهم ولا زروعهم ولا تجارتهم، إلا أن يتجروا في بلاد غير بلادهم التي أقرّوا فيها وصولحوا عليها، فحينئذ يؤخذ منهم العشر إذا باعوا أمتعة التجارة، وحصلوا على أثمانها، ولو كان ذلك في السنة مراراً، إلا في حملهم الطعام: الحنطةَ والزيت إلى المدينة ومكة على التخصيص، فإنه يؤخذ منهم نصف العشر، على مافعل عمر.

ويمنعون من إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين، فإن أظهروا شيئاً من ذلك أريقت الخمر عليهم، وأُدِّب من أظهر الخنزير. وإن أراقها مسلم من غير إظهارها فقد تعدّى، ويجب عليه الضمان في مذهبي المالكية والحنفية.

وإن امتنعوا من أداء الجزية وغيرها، وامتنعوا من حكم الإسلام من غير أن يظلموا، قوتلوا في رأي الجمهور غير الحنفية.

وإن قطعوا الطريق فهم بمنزلة المحاربين المسلمين إذا لم يمنعوا الجزية، أي يطبق عليهم حكم آية المحاربة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٥/٣٣].

وإذا أسلموا سقطت عنهم الجزية باتفاق الفقهاء، لما رواه أحمد وأبو داود والبيهقي والدارقطني عن ابن عباس من قوله ﷺ: «ليس على مسلم جزية» وفي رواية للطبراني عن ابن عمر: «من أسلم فلا جزية عليه». وكما تسقط الجزية بالإسلام تسقط بالموت. لذا فإنها تجب بدلاً عن عصمة الدم، وسكنى دار الإسلام.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه آية الجزية التي تدخل ضمن معاهدة بين المسلمين وغيرهم، ليستوطنوا

في دار الإسلام بأمان وسلام، مع إخضاعهم لأحكام الإسلام المدنية والجزائية، وما عدا ذلك فإنا في عباداتهم أمرنا بتركهم وما يدينون.

وقتالهم مثل قتال المشركين إذا حاربونا واعتدوا علينا، فإنما القتال لمن قاتلنا كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠] .

وربما تكون الإقامة في دار الإسلام من قبل هؤلاء المعقود لهم عقد الذمة سبباً في تعرفهم على محاسن الإسلام وقوة دلائله، فيتركون دينهم، وينتقلون من الكفر إلى الإيمان.

ومقتضى عقد الذمة: حقن الدماء، ومنع القتال، والتزام أحكام الإسلام، مع تقريرنا البقاء على دينهم؛ إذ لا إكراه في الدين، ولكن ليس يراد بذلك الرضا بكفرهم.

ودلت الآية على أن دين الحق هو الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩] والإسلام: هو التسليم لأمر الله وما جاءت به رسله، والانقياد له، والعمل به. والدِّين: يراد به الطاعة، أو القهر، أو الجزاء[١]. والكفر: إنكار وجود الله، أو نسبة الشريك له، أو عدم الإيمان برسالة النبي ﷺ، أو تكذيب أحد الأنبياء السابقين.

وأرى أن المراد بالدين هنا: النظام الموضوع من الله لعباده في العقيدة والعبادة والأخلاق والتشريع.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٩٠

عقيدة أهل الكتاب (اليهود والنّصارى)

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ
ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ
ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ
وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ
إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ
وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ
﴿٣٣﴾﴾

القراءات:

﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ﴾ :

قرئ:

١- (عزيرٌ ابن) منوناً على أنه عربي، وهي قراءة عاصم، والكسائي.

٢- (عزيرُ ابن) على المنع من الصرف، للعلمية، والعجمى، وهي قراءة الباقين.

﴿يُضَـٰهِـُٔونَ﴾ :

قرئ:

١- (يضاهئون) وهي قراءة عاصم.

٢- (يضاهون) وهي قراءة الباقين.

﴿يُؤْفَكُونَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، (يوفكون).

الإعراب:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ هذا لفظ خرج على العموم، ومعناه الخصوص؛ لأنه ليس كل اليهود قالوا ذلك.

﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ من قرأ بالتّنوين كان ﴿عُزَيْرٌ﴾ مبتدأ، و﴿ٱبْنُ﴾ خبره. ولا تحذف الألف في ﴿ٱبْنُ﴾ من الخط، ويكسر التّنوين لالتقاء السّاكنين. ومن قرأه بغير تنوين ففيه ثلاثة أوجه:

الأول - أن يكون ﴿عُزَيْرٌ﴾ مبتدأ، و﴿ٱبْنُ﴾ خبره، وحذف التّنوين لسكونه وسكون الباء من ﴿ٱبْنُ﴾ كقراءة من قرأ ﴿أَحَدٌ ، ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص: ١١٢/١-٢] فحذف التّنوين لسكونه وسكون اللام.

الثاني - أن يجعل ﴿ٱبْنُ﴾ صفة لعزير، وابن: إذا كان صفة لعَلَم مضافاً إلى علم، حذف التّنوين من الأول، مثل: زيدُ بن عمرو. ويكون خبر المبتدأ محذوفاً تقديره: وقالت اليهود عزير ابن الله معبودُهم، وحذف الخبر للعلم به، كما يحذف المبتدأ للعلم به.

الثالث - أن يكون ﴿عُزَيْرٌ﴾ ممنوعاً من الصّرف للعجمة والتّعريف كإبراهيم وإسماعيل، وهذا أضعف الوجوه؛ لأنه عند المحققين عربي مشتق من (عزّره): إذا عظّمه ووقّره.

البلاغة:

﴿يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ﴾ أراد نور الإسلام، فيه استعارة، شبّه الإسلام بوضوح أدلّته وقطعيّتها وإضاءتها بالشّمس السّاطعة في نورها وضيائها.

المفردات اللغوية:

﴿عُزَيْرٌ﴾ هو المعروف عند اليهود باسم (عِزْرا) المنسوب إلى العازار بن هارون. ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ يشابهون به في الكفر والشّناعة. ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لعنهم. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحقّ إلى غيره مع قيام الدّليل؟ ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ علماء اليهود، جمع حبر. ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ عبّاد النصارى المنقطعين للعبادة، جمع راهب. ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي يتّبعونهم في تحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحلّ. ﴿أَرْبَابًا﴾ جمع ربّ: وهو الخالق الذي يختصّ بالتّشريع حلاله وحرامه. ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ في التّوراة والإنجيل. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ﴾ أي بأن يعبدوا. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهاً له. ﴿يُرِيدُونَ﴾ يقصدون إلى الشيء، أو يفعلون فعلاً يفضي إلى المراد، وإن لم يقصدوه. ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ هو دين الإسلام وشرعه وبراهينه. ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بأقوالهم فيه. ﴿أَن يُتِمَّ﴾ يظهر. ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمداً ﷺ. ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ يُعْليه. ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ جميع الأديان المخالفة له.

سبب النّزول:

نزول الآية (٣٠):

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مِشْكم، ونعمان بن أبي أوفى، ومحمد بن دحية، وشاس بن قيس، ومالك بن الصَّيف، فقالوا: كيف نتّبعك وقد تركتَ قبلتنا؟ وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى في آية الجزية المتقدمة أن اليهود والنّصارى لا يؤمنون بالله، أوضح ذلك في هذه الآية، فنقل عنهم أنهم أثبتوا لله ابناً، وهذا شرك،

ومن جوّز ذلك فهو في الحقيقة قد أنكر الإله، وأنهم اتّخذوا علماءهم أرباباً من دون الله في التّحليل والتّحريم، وأنهم يسعون في إبطال الإسلام وهديه.

وهذه الآيات دليل واضح في بيان سبب قتال المؤمنين لأهل الكتاب.

التفسير والبيان:

قالت اليهود أي بعضهم: عزير ابن الله، وعزير: كاهن يهودي سكن بابل حوالي سنة ٤٥٧ ق. م، وأسّس المجمع الكبير، وجمع أسفار الكتاب المقدّس، وألّف أسفار: الأيام، وعزرا، ونحميا، وهو يعدّ ناشر اليهودية، بعد أن نسيت، فقدّسه اليهود ووصفوه بأنه ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾.

والثابت عند المؤرِّخين حتى اليهود أنفسهم أن التوراة التي كتبها موسى، ووضعها في تابوت العهد قد فُقدت عندما تغلّب العمالقة على بني إسرائيل، أو بختنصّر قبل عهد سليمان عليه السّلام، فإنه لما فتح التّابوت، لم يجد فيه غير لَوْحي الوصايا العشر، كما جاء في سفر الملوك الأوّل، وأنّ عزرا هو الذي كتب التّوراة بعد السّبي بالحروف الكلدانية مع بقايا العبرانية. ويرى النقّاد - كما جاء في دائرة المعارف البريطانية - أن أسطورة عزرا اختلقها الرّواة اختلاقاً.

وقالت النّصارى: المسيح ابن الله، وكان قدماؤهم يريدون بالبنوّة معنىً مجازياً لا حقيقياً، يعنون به أنه المحبوب المكرَّم عند الله، ثم تأثروا بوثنية الهنود، فصاروا يعنون بالبنوّة معنىً حقيقياً، وأن ابن الله هو الله، وهو روح القدس، إذ اندمجت هذه الأقانيم الثلاثة وصارت واحداً حقيقة، وكان أول من أعلن ذلك مجمع نيقية ٣٢٥ م أي بعد المسيح بثلاثة قرون، وصارت كلمة (الثّالوث) وهي الآب والابن وروح القدس تطلق على هذه الأقانيم الثّلاثة، التي حلّت في اللاهوت. وكتبت الأناجيل بعد المسيح عليه السّلام في مدّة تتراوح بين قرن وثلاثة قرون، وقد تأثّرت بوثنية الرّومان، بعد أن فقد الإنجيل الأصلي الذي نزل على عيسى عليه السّلام.

وبما أنّ كلاً من اليهود والنّصارى لا يعتمدون على أصل صحيح لديانتهم، وأن المكتوب لديهم مخترع موضوع من قبل علمائهم، لذا كذّبهم الله تعالى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي لا مستند لهم فيما ادّعوه سوى افترائهم واختلاقهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف: ١٨/٤-٥].

﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي يشابهون في كفرهم قول من قبلهم من الأمم، ضلّوا كما ضلّ هؤلاء، وهم الوثنيّون البراهمة والبوذيون في الهند والصين واليابان، وقدماء الفرس والمصريين واليونان والرّومان. كما أن مشركي العرب كانوا يقولون: الملائكة بنات الله.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي لعنهم الله، كيف يصرفون عن الحق وهو توحيد الله وتنزيهه إلى غيره وهو الشّرك الباطل، فما المسيح وعزير إلا مخلوقان عبدان لله، ولا يعقل أن يجعل المخلوق خالقاً، مع أنه يأكل ويشرب ويتعب ويألم، لذا قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٥/٧٥]، وقال تعالى عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٥٩]، وقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء: ٤/١٧٢].

ثم أوضح تعالى وجه مضاهاة من كفروا قبلهم، فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ﴾ أي اتّخذوا اليهود والنّصارى رؤساء الدّين فيهم أرباباً من دون الله، يقومون بحقّ التّشريع، فيحلّون الحرام، ويحرّمون الحلال، ويطيعونهم في ذلك، تاركين حكم الله.

أما اليهود فقد أضافوا لأحكام التّوراة ماشرعه رؤساؤهم، وأما النّصارى فقد غيّروا أحكام التّوراة وأوجدوا شرائع أخرى في العبادات والمعاملات.

ويوضح ذلك قصة إسلام عدي بن حاتم، روى الإمام أحمد والتِّرمذي وابن جرير الطَّبري عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشّام، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، فأُسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منَّ رسول الله ﷺ على أُخته، وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، فرغَّبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيء، وأبوه حاتم الطَّائي المشهور بالكرم، فتحدَّث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ - وفي عنُق عدي صليب من فضة - وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: بلى، إنّهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام، فاتَّبعوهم، فذلك عبادتهم إيّاهم.

وقال رسول الله ﷺ: «يا عدي ما تقول؟ أيضرّك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يضرّك؟ أيضرّك أن يقال: لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟».

ثم دعاه إلى الإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم، والنّصارى ضالّون».

ثم أبان الله تعالى ترك أولئك الرؤساء دينهم، فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي والحال أنهم ما أُمروا على لسان موسى وعيسى إلا أن يعبدوا إلهاً واحداً، وهو الله الذي شرّع لهم أحكام الدِّين، وهو ربّهم وربّ كل شيء، فهو الذي إذا حرّم الشيء فهو الحرام، وما حلَّله فهو الحلال، وماشرعه اتُّبع، وما حكم به نفذ.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي إنه تعالى شرعاً وعقلاً لا يوجد إله غيره، وأنه تعالى تنزه وتقدّس عن الشُّركاء والنُّظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا ربّ سواه.

ولكن هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب يريدون أن يطفئوا نور الإسلام الذي بعث به رسوله محمداً ﷺ، ويطفئوا شعلة الحقّ ومصباح الهداية، فيضلّ الناس أجمعون.

ويأبى الله إلا أن يتم نوره بتثبيته وحفظه والعناية به وإكماله وإتمامه، ولو كره الكافرون ذلك بعد تمامه، كما كرهوه حين بدء ظهوره. والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه. أما اليهود فكانوا أشدّ الناس عداوة للمؤمنين، فهم كمشركي العرب.

وأما النّصارى الرّوم فبدؤوا عدوانهم على المسلمين، ثم استمرّ الأوربيون في عدوانهم على الشرق الإسلامي، ثم جاءت الحروب الصّليبيّة التي مثّلت قمة العدوان على المسلمين، وما زالت السِّياسة الاستعمارية والتَّبشيرية تحتضن المخططات الرَّهيبة لتفريق المسلمين وإبعادهم عن دينهم بمختلف الوسائل الإعلامية والمواقف الحاقدة المتحيِّزة ضدّ مصالحهم في أي مكان.

وأما النّور الإسلامي فهو الذي أرسل الله به رسوله بالهدى ودين الحقّ الذي لا يغيِّره ولا يبطله شيء آخر. والهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع. ودين الحق: هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدُّنيا والآخرة.

والهدف من ذلك أن يعلي تعالى هذا الدِّين على جميع الأديان، ولو كره المشركون ذلك الإظهار. وقد وصفوا بالشّرك بعد الوصف بالكفر للدّلالة على أنهم جمعوا بين الكفر بالرّسول والشّرك.

وقد تحقَّق وعد الله ونصره، كما ثبت في الصَّحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أُمتي ما زُوي لي منها».

وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدَر ولا وبَر إلا دخلته كلمة الإسلام، يعزّ عزيزاً، ويذلّ ذليلاً، إما يعزّهم الله، فيجعلهم من أهلها، وإما يذلُّهم فيدينون لها».

وفي مسند أحمد أيضاً عن عدي بن حاتم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فوالذي نفسي بيده ليُتِمنَّ الله هذا الدِّين حتى تخرج الظَّعينة من الْحِيرة، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتَفْتَحُنَّ كنوز كسرى بن هُرمز، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: نعم كسرى بن هرمز، وليُبذَلَنَّ المالُ حتى لا يقبله أحد».

فقه الحياة أو الأحكام:

أثبتت الآيات أن أكثر اليهود وأكثر النّصارى مشركون؛ لأنهم نسبوا الابن لله، مقلِّدين في ذلك من سبقهم من الكفار كمشركي العرب الذين كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك، فإن حكاية الله عنهم أصدق، ولعلّ هذا المذهب كان فاشياً فيهم، ثم انتهى.

وقال ابن العربي: في هذا دليل من قول ربّنا تبارك وتعالى على أن من أخبر عن كفر غيره - الذي لا يجوز لأحد أن يبتدئ به - لا حرج عليه؛ لأنه إنما ينطق به على معنى الاستعظام له، والرَّدّ عليه، فلا يمنع ذلك منه، ولو شاء ربُّنا ما تكلم به أحد، فإذا مكَّن من إطلاق الألسن به، فقد أذن بالإخبار عنه؛ على معنى إنكاره بالقلب واللسان، والرَّدّ عليه بالحجّة والبرهان[1].

وقد كذَّبهم الله تعالى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي إنه قول ساقط باطل لا يتجاوز الفم، ولعنهم بقوله: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: كل شيء في القرآن قَتْل فهو لعن.

(١) أحكام القرآن: ٢/٩١٣

ثم وصفهم تعالى بنوع آخر من الشّرك بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والأكثرون من المفسّرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم، مع أن التّوراة والإنجيل والكتب الإلهية ناطقة بألا يعبدوا إلا إلهاً واحداً، وأنه لا إله إلا هو، تنزه من أن يكون له شريك في الأمر والتّكليف أو التّشريع، وأن يكون له شريك في كونه مسجوداً له أو معبوداً، وأن يكون له شريك يستحقّ التّعظيم والإجلال.

ثم أخبر الله تعالى عن نوع ثالث من الأفعال القبيحة الصادرة عن رؤساء اليهود والنّصارى، وهو سعيهم في إبطال دعوة محمد ﷺ، وإمعانهم في إخفاء أدلّة صحّة شرعه وقوّة دينه.

والمراد من النّور: الدّلائل الدَّالّة على صحّة نبوّته.

أوّلها - المعجزات القاهرة التي ظهرت على يده.

وثانيها - القرآن العظيم الذي ظهر على لسان محمد ﷺ مع أنه كان أُميّاً.

وثالثها - أنّ حاصل شريعته تعظيم الله والثّناء عليه، والانقياد لطاعته، وصرف النّفس عن حبِّ الدُّنيا أي الحرص عليها دون الآخرة، والتَّرغيب في سعادات الآخرة، والعقل يدلّ على أنه لا طريق إلى الله إلا من هذا الوجه.

ورابعها - أن شرعه كان خالياً عن جميع العيوب، فليس فيه دعوة إلى غير الله، وإلى إصلاح حياة البشر(١).

ثم إنه تعالى وعد محمداً ﷺ مزيد النّصر والقوة وإعلاء المنزلة، فقال: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) تفسير الرّازي: ١٦/٣٨. ٣٩

ثم بيّن الله تعالى بعد خيبتهم في إبطال دعوة الإسلام كيف يتم أمره بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾.

وفي هذه الآية الأخيرة دلالة على أن رسالة محمد ﷺ تمتاز بكثرة الدّلائل والمعجزات على صحّتها، وهو الهدى، وأنها دين الحقّ المشتمل على الصّواب والصّلاح ومطابقة الحكمة وموافقة المنفعة في الدُّنيا والآخرة، وأن دينه يعلو على كل الأديان، ويغلب كل الأديان، فلا دين يصمد أمام النّقاش العلمي والعقلي غير دين الإسلام. والتّاريخ على ممرّ الزّمان يؤكّد إنجاز هذه الوعود علانية في اقتناع كبار العلماء في كل اختصاص إنساني أو علمي بأحقيّته في التّديُّن والاعتقاد وإصلاح الحياة البشرية، وظهر الإسلام على كل الأديان في الماضي، فاندحر اليهود وأخرجوا من جزيرة العرب، وغلب المسلمون النّصارى في بلاد الشّام وغيرها، وغلبوا المجوس، وعبّاد الأصنام في كثير من بلاد التّرك والهند.

والخلاصة: تضمّنت الآيات أوصافاً قبيحة لليهود والنّصارى: نسبة البنوّة لله، إطاعة الرؤساء دون إطاعة الله، محاولتهم إبطال دعوة الإسلام وإخفات صوت الحقّ.

سيرة الأحبار والرهبان في معاملاتهم مع الناس

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

الإعراب:

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، والخبر: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ ﴿لَيَأۡكُلُونَ﴾ دخلت اللام على يفعل، ولا تدخل على فَعَل، لأن يفعل تشبه الأسماء. ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾: إنما قال: ﴿يُنفِقُونَهَا﴾ ولم يقل: ينفقونهما؛ لأن عادة العرب أن يخبروا عن أحد الشيئين إذا كان هناك دليل يدل على اشتراك بينهما، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ ولم يقل إليهما وإنما أريد التجارة لأنها أعم، وكقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أريد الصلاة؛ لأنها أهم، وكقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ أريد الرسول لتأكيد الاهتمام بسنته. وقيل: الضمير في «ينفقونها» يعود على الكنوز لدلالة يكنزون عليها، وقيل: يعود على الأموال؛ لأن الذهب والفضة أموال. والخلاصة: إن الضمير يعود إلى الفضة؛ لأنه قصد الأغلب والأعم.

﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ﴾ ﴿يَوۡمَ﴾: منصوب من ثلاثة أوجه: إما بفعل مقدر تقديره: اذكر يوم يحمى، أو بفعل يقال: أي يقال لهم: هذا في يوم يحمى، أو يكون بدلاً من ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي عذاب يوم يحمى، فحذف المضاف، فانتصب على الموضع، لا على اللفظ، كما انتصب قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ بالبدل على موضع ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾.

البلاغة:

﴿لَيَأۡكُلُونَ﴾ عبر تعالى عن أخذ الأموال بالأكل على سبيل الاستعارة؛ لأن المقصود الأعظم من جمع الأموال هو الأكل، فسمي الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلۡأَحۡبَارِ﴾ علماء اليهود. ﴿وَٱلرُّهۡبَانِ﴾ عبّاد النصارى، والقسيسون

علماؤهم . ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ المراد التصرف فيها بكل أوجه الانتفاع، وعبر عن ذلك بالأكل، والمراد به الأخذ والانتفاع؛ لأنه أهم حالات الانتفاع. ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ بغير حق كالرشاوى في الحكم . ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ يمنعون . ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه وطريق معرفته الصحيحة وعبادته القويمة . ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ الكنوز، والكنز: خزن الأموال في الصناديق دون إعطاء حق الله فيها . ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي لا يؤدون منها حق الزكاة . ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ أخبرهم . ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم، وهو تهكم بهم؛ لأن البشارة تكون في الخير لا في الشر. ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ تحرق . ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي نالوا جزاءه.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٤):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا﴾: قال الواحدي: نزلت في العلماء والقرّاء من أهل الكتاب كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم، وهي المأكل الذي كانوا يصيبونه من عوامهم[١].

نزول الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾:

روى البخاري عن زيد بن وهب قال: مررت بالرَّبَذة (موضع قريب من المدينة) فإذا أنا بأبي ذرّ، فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام، فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، وكان بيني وبينه كلام في ذلك، وكتب إلى عثمان يشكو مني، وكتب إلي عثمان أن: اقدم المدينة، فقدمتها، وكثر الناس علي حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال: إن شئت تنحيت

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ١٤٠

وكنت قريباً، فذلك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمّروا علي حبشياً لسمعت وأطعت.

والمفسرون أيضاً مختلفون، فعند بعضهم أنها في أهل الكتاب خاصة. وقال السدّي: هي في أهل القبلة. وقال الضحاك: هي عامة في أهل الكتاب والمسلمين[1]، وهو الأصح.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية، لادعائهم حق التشريع للناس، وصفهم في هذه الآية بالطمع والحرص على أخذ أموال الناس تحقيراً لشأنهم، فهم ذوو أطماع وحرص شديد على أخذ أموال الناس بالباطل، وما قاوموا الإسلام إلا خوفاً من ضياع مصالحهم المادية، فهم يتخذون الدين مطية لنيل الدنيا.

ووصفهم تعالى أيضاً بالبخل الشديد، وحب كنز المال في صناديقهم، والامتناع عن أداء الواجبات في أموالهم.

والوعيد على الكنز لا يقتصر عليهم في الحقيقة، وإنما يشمل المسلمين أيضاً، فبعد أن وصفهم الله تعالى بالحرص على أخذ أموال الناس بالباطل، أردفه بوعيد كل من امتنع عن إخراج الحقوق الواجبة من ماله.

التفسير والبيان:

هذه الآيات بيان لسيرة الأحبار (علماء اليهود) والرهبان (عبَّاد النصارى) وكشف لقبائحهم، حتى يعرف أهل الكتاب حقيقتهم، ويتبينوا خطأهم في الاقتداء بهم والثقة فيهم، وليعلم المسلمون سبب عنادهم وبقائهم على

(١) أسباب النزول، المرجع السابق.

كفرهم، ويكون الهدف من الآيات التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم.

يا أيها المؤمنون بالله ورسوله، اعلموا أن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأخذون أموال الناس بالباطل، لا بحق شرعي، ونسب ذلك لكثير منهم لا لكلهم إحقاقاً للحق، وإنصافاً للقلة الصالحة منهم.

وأمثلة أخذهم الأموال بالباطل كثيرة منها: قبول الرشاوى في الأحكام القضائية، وأخذ الربا وهو محرم عليهم، وأخذ الهدايا والنذور والأوقاف المخصصة لقبور الأنبياء والصالحين، وأخذ الأرثوذكس والكاثوليك مقابل صكوك الغفران التي شاعت في القرون الوسطى، أو في مقابل الدعاء والشفاعة للمخطئين عند الله. وبيع الفتاوى بالمال لتحليل الحرام وتحريم الحلال، بقصد إرضاء الملوك والأمراء والحكام، كما قال تعالى في حق اليهود: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩١].

ومنها: استباحة اليهود أخذ أموال كل من عداهم ولو بالخيانة أو السرقة، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٥].

ثم ذكرالله تعالى نوعاً آخر من قبائح رؤساء الدين اليهودي والنصراني، وهو صدهم عن سبيل الله، أي وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس ويمنعونهم عن اتباع الحق، إما بتكذيب رسالة الإسلام، أو التشكيك في مبادئها وأحكامها في العبادة والعقيدة والمعاملة، أو الطعن في النبي المصطفى ﷺ أو في القرآن الكريم.

وبه يتبين أن ما يحرص عليه الناس في الدنيا وهو المال والجاه، شغف به الأحبار والرهبان، فأخذوا المال بالباطل، ومنعوا الناس من معرفة الله معرفة صحيحة، وعبادته عبادة قويمة، وأمعنوا في المنع من متابعة محمد ﷺ، حفاظاً على مراكزهم الأدبية ومكاسبهم المادية.

ثم وصفهم الله بصفة أخرى هي البخل الشديد ومنع أداء حقوق الله في أموالهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ أي والذين يجمعون المال ويدخرونه في بيوتهم ولا يخرجون منه الحقوق الواجبة شرعاً كالزكاة، ولا ينفقون منه في سبيل الله، فيستحقون العذاب الشديد المؤلم في نار جهنم. وهذا الوعيد كما هو موجه للأحبار يشمل المسلمين أيضاً، فكان المراد به الكل. كما وأن المراد بالنفقة: الواجب؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولا يتوجه العذاب إلا على تارك الواجب.

ولا يكون الكنز حراماً إلا إذا لم تؤد زكاته، فإن أديت الزكاة فلا يحرم. قال مالك عن ابن عمر رضي الله عنه في الكنز: هو المال الذي لا تؤدى زكاته. وروى الثوري والشافعي وغيرهما عن ابن عمر قال: ما أُدّي زكاته، فليس بكنز، وإن تحت سبع أرضين؛ وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز. وهذا مروي أيضاً عن عمر وابن عباس وجابر وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً. أخرج ابن عدي والخطيب عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّ مال أُدِّيت زكاتُه فليس بكنز».

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والحاكم عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ كبُر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا ألا يُبقيَ لولده مالاً بعده، فقال عمر: أنا أُفرِّج عنكم، فانطلق وتبعه ثوبان، فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، إنه قد كبُر على أصحابك هذه الآية، فقال:

«إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليُطيِّب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث عن أموال تبقى بعدكم» فكبَّر عمر رضي الله عنه، ثم قال له النبي ﷺ:

«ألا أخبرك بخير ما يُكنَز؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها الرجل سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته».

وورد في مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منها أحاديث كثيرة منها ما رواه عبد الرزاق عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ قال النبي ﷺ: «تبّاً للذهب والفضة» فقال الصحابة: يا رسول الله، فأي المال نتخذ؟ قال: «لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تعين أحدكم على دينه».

ثم أخبر الله تعالى عن نوع العذاب الذي يطبق على أصحاب الكنوز، وهو أنه يحمى على ما جمعوه من الأموال المكنوزة في النار، أي توضع ويوقد عليها في النار حتى تحمى، ثم يحرق بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، وخصت هذه الأعضاء بالذكر؛ لأنهم بالوجوه يستقبلون الناس مغتبطين بالثروة، ويعبسون في وجوه الفقراء كيلا يعطوهم شيئاً، ويتنعمون على جوانبهم وظهورهم في أوساط النعمة، ثم إن الكي على الوجه أشهر وأشنع، وعلى الجنب والظهر آلم وأوجع، ويقال لهم من قبل الملائكة: هذا جزاء ما كنزتم، فذوقوا وبال ما كنزتم لأنفسكم، أي أن ما توهمتم فيه منفعة أصبح ضرراً ووبالاً عليكم، وهذه آفة المسلمين اليوم حيث إنهم اكتنزوا الأموال الضخمة ولم ينفقوا بعضاً منها في سبيل الله، أي في صالح الأمة والجماعة المسلمة.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً، فلم يؤدّ زكاته، مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً (حنشاً) أقرع له زبيبتان (نقطتان منتفختان في شدقيه) يُطَوَّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بِلهزِمَتَيْه - يعني شدقيه - ثم يقول له: أنا مالُك، أنا كنزك. ثم تلا: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٠] .

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات أحكاماً ثلاثة:

١ - تحريم أكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله تعالى: وهو المبالغة في منع الناس بجميع وجوه المكر والخداع من اتباع النبي ﷺ، ومتابعة الأخيار من العلماء والناس.

٢ - تحريم اكتناز المال دون إنفاقه في سبيل الله، والكنز: المال الذي لا تؤدى زكاته.

٣ - استحقاق الكانز العقاب الشديد في الآخرة في نار جهنم، مع التوبيخ والتهكم والهم.

أما الحكم الأول: فهو عام للأحبار والرهبان وغيرهم، إلا أنه كان مستقبحاً منهم؛ لأنهم يتاجرون في الدين، ويدعون أنهم مقربون إلى الله، وهم أشد الناس حرصاً على جمع المال وطمعاً فيه، وبخلاً به، فجمعوا بين حب المال والجاه. وقد سبق بيان مظاهر أكل أموال الناس بالباطل.

وأما الحكم الثاني: فالمراد به على الصحيح أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين؛ لأنه لوأراد أهل الكتاب على التخصيص لقال: ويكنزون، بغير: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ فلما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ فقد استأنف معنىً آخر يبيِّن أنه عطف جملة على جملة، فالذين يكنزون كلام مستأنف، مرفوع على الابتداء، وهذا

قول أبي ذرّ وغيره، وعلى هذا القول يكون في الآية دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

أما القولان الآخران فضعيفان، أحدهما - ما نقل عن معاوية أن المراد بالآية أهل الكتاب، والثاني - ما قاله السدّي وهو أن المراد مانعو الزكاة من المسلمين.

قال ابن خُوَيْز مَنْداد: تضمنت الآية زكاة العين (أي النقود) وهي تجب بأربعة شروط: حرية، وإسلام، وحول، ونصاب سليم من الدين. والنصاب مئتا درهم أو عشرون ديناراً[١]. أو يكمل نصاب أحدهما من الآخر، وأخرج ربع العشر (٢,٥٪) من هذا، وربع العشر من هذا[٢]. أما اشتراط الحرية، فلأن العبد ناقص المُلْك، وأما اشتراط الإسلام فلأن الزكاة تطهير للمال والكافر ليس أهلاً للتطهير، وأما اشتراط الحول فلأن النبي ﷺ قال فيما رواه الدارقطني عن أنس بن مالك: «ليس في المال زكاة حتى يحول عليه الحول» وأما اشتراط النصاب فلأن النبي ﷺ قال مامعناه فيما رواه أبو داود عن علي رضي الله عنه: «ليس في أقل من مئتي درهم زكاة، وليس في أقل من عشرين ديناراً زكاة» ويراعى كمال النصاب عند آخرالحول؛ لاتفاق العلماء على أن الربح في حكم الأصل، فيه الزكاة.

والصحيح ما نقل عن جماعة من الصحابة السابق ذكرهم: أن ما أُدّي زكاته فليس بكنز، وكل ما لم تؤد زكاته فهو كنز. ولا يصح ما نقل عن علي رضي الله عنه: أربعة آلاف فما دونها نفقة، وما كثر فهو كنز وإن أُدِّيت زكاته، فهو خبر غريب.

(١) الدرهم العربي ٢.٩٧٥غم، والدينار هو المثقال وهو ٤.٤٥٧غم.

(٢) تفسير القرطبي: ٨/ ١٢٤

وأما ما نقل عن أبي ذرّ: «الكنز: ما فضل عن الحاجة» فهو رأي خاص به، ومن شدائده، ومما انفرد به رضي الله عنه، ويحتمل أن يكون ذلك في وقت شدة الحاجة، ولم يكن في بيت المال ما يكفي المحتاجين، ولا يجوز ادّخار الذهب والفضة في مثل تلك الحال.

وأما زكاة الحلي فلم يوجبها الجمهور؛ لأنها غير مقصودة للنّماء لكن بشرط عدم قصد الكنز، وعدم تجاوز القدر المعتاد بين الناس وهو الوسط الذي لا إسراف فيه، كأن يكون دون الكيلو غرام، كما ذكر الشافعية. وأوجبها أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي عملاً بعموم الألفاظ في إيجاب الزكاة في النقدين (الذهب والفضة) ولم يفرّق بين حلي وغيره. قال الرازي: وهو الصحيح عندنا، لظاهر الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾.

وأما الحكم الثالث: وهو تعذيب الكانز بعذاب أليم، فقد فسر النبي ﷺ هذا العذاب - فيما يرويه مسلم - بقوله: «بشِّرْ الكنَّازين بكي في ظهورهم يخرج من جنوبهم، وبكي من قِبل أقفائهم يخرج من جباههم».

ثم إن ظاهر الآية تعليق الوعيد بمن كنز، ولم ينفق في سبيل الله، وهذا أي عدم الإنفاق هو الغالب عرفاً، فلذلك خُص الوعيد به، أما الصحيح فهو أنه لا بد من توافر صفة الكنز واعتبارها: وهو المال الذي لم تؤدّ زكاته، كما تبين، فمن أدّى زكاة المال لا يعد كانزاً، ويعد كانزاً أيضاً في رأي المالكية من لم يكنز ومنع الإنفاق الواجب في سبيل الله، فما فضل عن الحاجة ليس بكنز إذا كان معداً لسبيل الله.

وقد رتب الله سوء العقوبة والجزاء بقوله: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ﴾ على حال المعصية الحاصلة من الكانز المسلم والكافر بتعطيله خاصية المال، وهي إنفاقه في سبيل الله، فإن كان المكتنز كافراً فهذه بعض عقوباته، وإن كان مؤمناً، فهذه عقوبته إن لم يغفر له، ويجوز أن يُعفى عنه.

وتمثيل صورة العذاب في الآية والحديث حقيقة، ففي حال يمثَّل المال فيه ثعباناً، وفي حال يكون صفائح من نار، وفي حال يكون رَضْفاً (حجارة محماة) فتتغير الصفات والجسمية واحدة، فالشجاع الأقرع (الحنش) الذي يمثل به المال جسماً، والمال جسم. وخص الشجاع بالذكر؛ لأنه العدو الثاني للناس، والشجاع من الحيات: هو الحية الذكر الذي يواثِب الفارس والراجل، ويقوم على ذنَبه وربما بلغ الفارس، ويكون في الصحارى.

والأولى لطالب الدِّين ألا يجمع المال الكثير، وإن لم يمنع عنه في ظاهر الشرع؛ لأنه أقرب للتقوى، ولأن تكثير المال سبب لتكثير الحرص في الطلب، والحرص متعب للروح والنفس والقلب وضرره شديد على النفس، ولأن كسب المال شاق شديد، وحفظه بعد حصوله أشد وأشق وأصعب، ولأن كثرة المال والجاه تورث الطغيان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ، أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٩٦/٦-٧] ولأنه تعالى أوجب الزكاة بقصد تنقيص المال، ولو كان تكثيره فضيلة لما سعى الشرع في تنقيصه. وكذلك خيرية اليد العليا؛ لأنها تؤدي إلى نقصان المال.

عدد الشهور في حكم الله
وقتال المشركين كافة وتحريم النسيء

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ :

وقرأ ورش (النسيُّ).

﴿يُضَلُّ﴾ :

قرئ:

١- (يُضَل) وهي قراءة: حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (يَضِل) وهي قراءة الباقين.

﴿سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ :

قرأ بإبدال الهمزة الثانية واواً خالصة وصلاً: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو.

الإعراب:

﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ اثنا عشر: خبر ﴿إِنَّ﴾، و﴿شَهْرًا﴾: منصوب على التمييز .﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ ﴿فِى﴾: متعلقة بمحذوف، وهي صفة لاثني عشر، وتقديره: إن عدة الشهور اثنا عشر شهراً كائنةٌ في كتاب الله. ولا يجوز أن تكون متعلقة بـ ﴿عِدَّةَ﴾ لأنه يؤدي إلى الفصل بين الصلة والموصول بالخبر، وهو ﴿ٱثْنَا عَشَرَ﴾.

و ﴿كِتَٰبِ﴾: مصدر، أي كتابة الله، ولا يجوز أن يكون اسماً للقرآن ولا لغيره من الكتب؛ لأن الأسماء التي تدل على الأعيان لا تعمل في الظروف؛ لأنها ليس فيها معنى الفعل. و﴿يَوْمَ﴾: منصوب بـ ﴿كِتَٰبِ﴾ والتقدير: فيما كتب الله يوم خلق السماوات والأرض، ولا يجوز تعلقه بـ ﴿عِدَّةَ﴾ لما قدمنا في ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

والضمير في ﴿مِنۡهَآ﴾ يعود إلى الاثني عشر. والضمير في ﴿فِيهِنَّ﴾ يعود إلى الأربعة؛ لأن (ها) تكون لجمع الكثرة، وهن: لجمع القلة.

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾ ﴿كَآفَّةٗ﴾: منصوب على المصدر في موضع الحال، كقولهم: عافاه الله عافية، ورأيتهم عامةً وخاصةً. و﴿كَآفَّةٗ﴾: إما حال من الفاعل أي قاتلوا المشركين حال كونكم جميعاً متعاونين غير متخاذلين كما يفعلون ذلك معكم تماماً، وإما من المفعول، أي قاتلوا المشركين حال كونهم جميعاً دون تفرقة بين فئة وأخرى.

﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ اللام متعلقة بالفعل الثاني، وهو: ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾ أو بما دلَّ عليه مجموع الفعلين السابقين.

البلاغة:

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾: بين يحلون ويحرمون طباق. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وضع الظاهر وهو ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ موضع المضمر (أي معكم) للثناء عليهم بالتقوى ولحث القاصرين عليها، وتبيان أنها سبب الفوز والفلاح.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ أي عددها المكون للسنة، والشهور: جمع شهر: وهو اسم للهلال سميت به الأيام. ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ مصدر، وليس اسماً للقرآن ولا للوح المحفوظ؛ لأنه نصب كلمة ﴿يَوۡمَ﴾. ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ أي من الشهور أربعة محرمة وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، والحرم: جمع حرام: من الحرمة بمعنى التعظيم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تحريمها. ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ ﴿ٱلدِّينُ﴾: الشرع، و﴿ٱلۡقَيِّمُ﴾: المستقيم الذي لا عوج فيه. ﴿فِيهِنَّ﴾ أي في الأشهر الحرم. ﴿أَنفُسَكُمۡۚ﴾ أي لا تظلموا في الأشهر الحرم أنفسكم بالمعاصي فإنها فيها أعظم وزراً.

﴿كَآفَّةً﴾ أي جميعاً، في كل الشهور .﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصر. ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ أي تأخير حرمة شهر إلى آخر، كما كانت الجاهلية تفعله من تأخير حرمة المحرم إذا هلّ، وهم في القتال، إلى صفر. و﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾: من نسأ الشيء ينسؤه نسأ ومنسأة: إذا أخره عن موضعه .﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي زيادة لكفرهم بحكم الله فيه .﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ أي النسيء .﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ يوافقوا بتحليل شهر وتحريم آخر بدله .﴿عِدَّةَ﴾ عدد .﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ من الأشهر، فلا يزيدوا على تحريم أربعة، ولا ينقصوا، ولا ينظروا إلى أعيانها .﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ فظنوه حسناً.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٧):

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾: أخرج ابن جرير الطبري عن أبي مالك قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، فيجعلون المحرم صفر، فيستحلون فيه المحرمات، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

المناسبة:

الآيات عود للكلام عن المشركين في تعداد قبائحهم: وهو إقدامهم على السعي في تغييرهم أحكام الله، وذلك مثل فعل اليهود والنصارى الذين غيّروا حكم الله، فكان الكلام مناسباً عن حكم قتالهم ومعاملتهم، ثم العود إلى أحكام المشركين، فصار هناك تشابه بين المشركين وبين اليهود والنصارى في تعاطي أسباب القتال، وفي إيجاب القتال.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن أشهر السنة، فيقول: إن عدة الشهور في علمه تعالى وحكمه، وفيما كتبه الله وأوجب الأخذ به، وأثبته في نظام دورة القمر، وفي

اليوم الذي خلق الله فيه السماوات والأرض اثنا عشر شهراً، على هذا النحو المألوف اليوم.

والمراد: الأشهر القمرية؛ لأن الحساب بها يسير، يعتمد على رؤية القمر، من كل الناس المتعلمين والعوام.

والمراد بقوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي في كتابته ونظامه وحكمه التشريعي على وفق السنن الإلهية في نظام الكون، أو فيما أثبته وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصواباً. وقيل: في اللوح المحفوظ.

والمراد بقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: الوقت الذي تم فيه خلقهما، وهو ستة أيام من أيام التكوين والإيجاد.

﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾: ثلاثة سرد: ذو القَعْدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو رجب، أي ذات حرمة وتعظيم تمتاز بها عن بقية الشهور، فقد ورد أن المعصية فيها أشد عقاباً، وأن الطاعة فيها أعظم ثواباً، ولله تعالى أن يعظم بعض الأزمنة والأمكنة كما يشاء، فقد فضل البلد الحرام عن سائر البلاد، وميّز يوم الجمعة ويوم عرفة وعشر ذي الحجة عن سائر الأيام، وميز شهر رمضان وأشهر الحج عن بقية الشهور كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ [البقرة: ٢/١٩٧]، وإن كان ذلك محرماً في سائر الشهور، وميز بعض الليالي كليلة القدر، وبعض الأشخاص بالرسالة أو النبوة.

وكان القتال محرماً في هذه الأشهر الأربعة على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، واستمر العرب على ذلك، ثم نسخت حرمتها؛ عن عطاء الخراساني رضي الله عنه قال: أحلّت القتال في الأشهر الحرم: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾.

وجاءت السنة مبينة حرمة الأشهر وثباتها في وقتها الصحيح، روى الإمام أحمد والبخاري في التفسير عن أبي بكرة أن النبي ﷺ خطب في حجة الوداع، فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات: ذو القَعْدة، وذو الحجة، والمحرَّم، ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان» أي رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه، وعاد الحج في ذي الحجة، وبطل النسيء الذي كان في الجاهلية. وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة، وكانت حجة أبي بكر رضي الله عنه قبلها في ذي القعدة[1].

ثم قال: «أي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يومَ النحر؟ قلنا: بلى، ثم قال: أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى، ثم قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليست البلدة؟ قلنا: بلى؛ قال: فإن دماءكم وأموالكم - وأحسبه قال: وأعراضكم - عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

وستَلْقَوْن ربكم فيسألكم عن أعمالكم؛ ألا لا ترجعوا بعدي ضُلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض؛ ألا هل بلغت؟ ألا ليبلِّغ الشاهد منكم الغائب، فلعلَّ من يُبلَّغه يكون أوعى له من بعض من سمعه».

ثم قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾ أي إن تحريم الأشهر الأربعة هو الدين المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل، أي الحكم والشرع الذي لا التواء فيه ولا اعوجاج، فلا يجوز نقل تحريم المحرم مثلاً إلى صفر، خلافاً لما كان يفعل أهل الجاهلية من تقديم بعض أسماء الشهور وتأخير بعضها.

---

(١) الكشاف: ٢/٣٨

وكانت العرب قد تمسكت بتعظيم هذه الأشهر الحرم وراثة عن إبراهيم وإسماعيل، ويحرمون القتال فيها، حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو أخيه، لم يتعرض له. وسموا رجباً: الأصم، حتى أحدث النسيء، فغيروا وبدلوا وأخلّ أهل الجاهلية بحرمة هذه الأشهر.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا تظلموا في الأشهر الحرم أنفسكم، باستحلال حرامها، فإن الله عظَّمها، وإياكم أن تعملوا النسيء فتنقلوا الحج من شهره إلى شهر آخر، وتغيروا حكم الله تعالى.

والمراد النهي عن جميع المعاصي بسبب ما لهذه الأشهر من تعظيم الثواب والعقاب فيها، كما قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٧] .

وهذه الأمور وإن كانت حراماً في غير هذه الأشهر، إلا أنه أكد الله تعالى فيها المنع، زيادة في شرفها.

ثم أبان الله تعالى حكم قتال المشركين بنحو عام في كل زمان، فقال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي قاتلوا المشركين جميعاً أي مجتمعين متعاونين، كما يقاتلونكم جميعاً مجتمعين متعاونين، وهذا على أن ﴿كَافَّةً﴾ حال من الفاعل، ويصح كونها حالاً من المفعول، أي قاتلوا المشركين حال كونهم جميعاً، كما يقاتلونكم جميعاً من غير تفرقة بين فئة وأخرى.

وظاهر الآية: إباحة قتالهم في جميع الأشهر، حتى الأشهر الحرم، فيكون القتال فيها مباحاً، ويؤيده قول عطاء الخراساني المتقدم: أحلَّت القتال في الأشهر الحرم: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ما فيها من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾.

فهذه الآية تأذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام، إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩١] .

وحاصر النبي ﷺ أهل الطائف في شوال، واستمر الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، وهو بعض ذي القعدة.

وأما آيات البقرة الدالة على تحريم القتال في الأشهر الحرم [١٩٤، ٢١٧] وآية المائدة [٢] فهي منسوخة بآيات التوبة؛ لنزولها بعد سورة البقرة بسنتين. وهذا القول بإباحة القتال في الأشهر الحرم هو المعتمد شرعاً.

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ منقطعاً عما قبله وأنه حكم مستأنف، للتحريض على قتال المشركين، أي كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم، فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون.

ثم قال الله تعالى مطمئناً المؤمنين بالنصر: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي إن الله تعالى مؤيد وناصر الأولياء الأتقياء الذين يتخذون وقاية من مخالفة أمره، وهو معهم بالمعونة والنصر فيما يقومون به من أعمال القتال وغيره.

ثم أبان الله تعالى سبب استحقاق المشركين القتال والذم العظيم وهو تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الخاصة، وتحليلهم ما حرم الله، وتحريمهم ما أحلّ الله، وذلك بالتلاعب في الزمان والوقت بلجوئهم إلى كبس السنة القمرية لتساوي السنة الشمسية، وعملهم النسيء في الأشهر الحرم؛ لأنه كان يشق عليهم ترك القتال وشن الغارات ثلاثة أشهر متواليات.

أما كبس السنة القمرية: فهو تكميل النقص الذي في السنة القمرية لتساوي السنة الشمسية، فيزيدون كل ثلاث سنين شهراً في العام، وذلك لأن السنة القمرية تنقص عن السنة الشمسية أحد عشر يوماً تقريباً، إذ هي (٣٥٤+٣٦٦ / ١٠٠٠ يوماً) فتنتقل الشهور العربية من فصل إلى فصل، فيكملون النقص بأن يزيدوا في كل ثلاث سنوات شهراً، لتكون السنة قمرية شمسية، وليجعلوا وقت الحج في زمن معين وفقاً لمصلحتهم، لينتفعوا بتجاراتهم، فكانوا إذا حضروا للحج حضروا للتجارة، وربما يكون الوقت غير مناسب لحضور التجارات من أنحاء البلاد، فيختل بذلك نظام تجارتهم؛ إذ قد يكون الحج مرة في الشتاء، ومرة في الصيف، فيشق ذلك على العرب أيام الجاهلية، فاختاروا للحج وقتاً معيناً، وثبّتوا السنة القمرية كالسنة الشمسية لتنتظم علاقاتهم التجارية مع غيرهم من الشعوب الأخرى، مع احتفاظهم بمراعاة نظام السنة القمرية في المعاملات والعبادات الذي توارثوه عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وقد تعلموا كبس السنة من اليهود والنصارى الذين يعتمدون على السنة الشمسية، وهي (٣٦٥ + ١ / ٤ يوماً) وفي كل أربع سنوات يتكون من الكسر عندهم يوم كامل، فتصبح السنة (٣٦٦ يوماً) وفي كل مئة وعشرين سنة تزيد السنة شهراً كاملاً، فتكون ثلاثة عشر شهراً، وتسمى كبيسة. أما في عصرنا فيقتصر على زيادة يوم في آخر شهر شباط (فبراير) كل أربع سنوات.

وأما النسيء في الشهور: فهو تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر ليس له تلك الحرمة، بسبب أنه كان يشق عليهم أداء عباداتهم والقيام بتجاراتهم بالسنة القمرية، حيث كان حجهم يقع مرة في الشتاء، ومرة في الصيف، فيتألمون من مشقة الصيف، ولا ينتفعون بتجاراتهم التي يصطحبونها في موسم الحج، كما أنه كان يشق ترك القتال وشن الغارات ثلاثة أشهر متوالية، فتركوا اعتبار السنة القمرية، واعتمدوا على السنة الشمسية، ولزيادتها عن السنة القمرية

احتاجوا إلى الكبس، كما بينت، فنقلوا حرمة شهر المحرم إلى صفر لتبقى الأشهر الحرم أربعة ليوافقوا عدد ما حرمه الله في الاسم دون الحقيقة، اكتفاء بمجرد العدد، ونقلوا الحج من شهر إلى آخر، وإذا كانوا في حرب ودخل شهر رجب مثلاً قالوا: نسميه رمضان، ونطلق اسم رمضان على رجب.

وذلك لأن دورة القمر الشهرية: (٨.٢ ثانية + ٤٤ دقيقة + ١٢ ساعة + ٢٩ يوماً) فتكون السنة القمرية أنقص من السنة الشمسية.

وأول من عمل النسيء: نعيم بن ثعلبة الكناني.

وكان يفعل النسيء بعده رجل كبير من كنانة يقال له (القلَّمس) يقول في أيام منى حيث يجتمع الحجيج: أنا الذي لا يردُّ لي قضاء، فيقولون: صدقتَ، فأخِّر عنا حرمة المحرم، واجعلها في صفر؛ فيحل لهم المحرم، ويحرم عليهم صفراً، ثم يجيء العام المقبل بعده، فيقول مثل مقالته: إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم، ثم صاروا ينسئون غير المحرم، فتتغير حقائق الشهور كلها، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، وحرموا أربعة أشهر من شهور العام اكتفاء بمجرد العدد.

لذا ذم الله تعالى تصرفهم وتلاعبهم بالشهور القمرية، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي إن تأخير حرمة شهر إلى آخر، وقلب وضع التحريم والتحليل زيادة في أصل كفرهم القائم على الشرك وعبادة الأصنام، وتغيير لملة إبراهيم بسوء التأويل، ولأن الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفراً.

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي يوقع النسيء الذين كفروا في ضلال زيادة على ضلالهم القديم. وعلى قراءة (يُضِلّ) المبني للمعلوم معناه: يضلهم الله، فيحلون الشهر المؤخر عاماً، ويحرمونه عاماً.

﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي ليوافقوا في مجرد العدد الأربعة الأشهر الحرم.

﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي فيحلوا بهذه المواطأة ما حرمه الله تعالى من القتال، بتأخير هذا الشهر الحرام.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي حسَّن الشيطان لهم أعمالهم السيئة، فظنوا ما كان سيئاً حسناً، وتوهموا شبهتهم الباطلة أنها صواب.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يوفق ولا يرشد القوم الضالين الذين يختارون السيئات، إلى الحكمة والخير والصواب وفهم الحكمة من أحكام الشرع، وإنما يخذلهم ولا يلطف بهم؛ لأن الهداية المؤدية إلى السعادة في الدارين من آثار الإيمان والعمل الصالح، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ١٠/ ٩].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيتان على الأحكام التالية:

١ - إن عدد الشهور القمرية في علم الله تعالى وفي حكمه وإيجابه في اللوح المحفوظ يوم خلق السماوات والأرض اثنا عشر شهراً، فإنه تعالى وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على ما رتّبها عليه، يوم خلق السماوات والأرض، على وفق سنته الإلهية ونظامه البديع المتقن، وأنزل ذلك على أنبيائه في كتبه المنزلة. وحكمها باقٍ على ما كانت عليه، لم يُزِلْها عن ترتيبها تغيير المشركين لأسمائها.

والمقصود من ذلك اتباعُ أمر الله تعالى، ورفضُ ما كان عليه أهل الجاهلية، من تأخير أسماء الشهور وتقديمها، وتعليق الأحكام على الأسماء التي رتّبوها عليه.

٢ - الواجب في شريعتنا الاعتماد على السنة القمرية في العبادات كالصوم والحج وغيرها، كما عرفتها العرب، دون السنة الشمسية أو العبرية أو

القبطية وغيرها، وإن لم تزد على اثني عشر شهراً. وذلك بدليل الآية التي معنا، حيث ذكر فيها: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ والأربعة الحرم من الشهور القمرية وهي (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب) وقال النبي ﷺ عن رجب: «الذي بين جمادى وشعبان» وبدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ١٠/ ٥] فجعل تقدير القمر بالمنازل علة لمعرفة السنوات والحساب، وهو إنما يصحّ بالاعتماد على دورة القمر.

وبدليل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٩] وهو يدل على السنة القمرية واعتبارها في الصيام والزكاة والحج والأعياد والمعاملات وأحكامها.

٣ً - الإسلام دين الحق والصواب والاستقامة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي ذلك الشرع والطاعة، والقيِّم أي القائم المستقيم. وقيل: ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوفَى، وقيل: ذلك القضاء، وقيل: الحق.

٤ً - تحريم ظلم النفس بارتكاب المعاصي والذنوب في جميع السنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ على قول ابن عباس: راجع إلى جميع الشهور. وقال الأكثرون: راجع إلى الأشهر الحرم خاصة؛ لأنه إليها أقرب، ولها مزية في تعظيم الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ وهذا تعظيم لحرمتها وتأكيد لامتيازها، لا أن الظلم في غير هذه الأيام جائز، وإنما هو حرام في كل الأيام والشهور والسنين، وإذا عظم الله تعالى شيئاً عظّمه من جهتين، وصارت حرمته متعددة، فيضاعف فيه العقاب بالعمل السَّيِّئ، كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح، وذلك ثابت في البلد الحرام.

وقيل: إن الظلم هو إباحة القتال فيها، ثم نسخ بإباحة القتال في جميع

الشهور، كما قال قتادة وعطاء الخراساني والزهري وسفيان الثوري، وهو الصحيح المعتمد؛ لأن النبي ﷺ غزا هوازن بحنين وثقيفاً بالطائف، وحاصرهم في شوال وبعض ذي القَعْدة.

ونظراً لتعظيم حرمة الشهر الحرام، قال الشافعي فيمن قتل فيه شخصاً خطأً: تغلظ عليه الدية، وقال: تغلظ الدية في النفس وفي الجراح في الشهر الحرام وفي البلد الحرام وذوي الرحم. وقال الأوزاعي: القتل في الشهر الحرام تُغلَّظ فيه الدية فيما بلغنا، وفي الحرم، فتجعل دية وثلثاً.

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما وابن أبي ليلى: القتل في الحلّ والْحَرَم سواء، وفي الشهر الحرام وغيره سواء، قال القرطبي: وهو الصحيح؛ لأن النبي ﷺ سنَّ الديات، ولم يذكر فيها الحرم ولا الشهر الحرام. وأجمعوا على أن الكفارة على من قتل خطأً في الشهر الحرام وغيره سواء، فالقياس أن تكون الدية كذلك.

٥ - تعظيم حرمة الأشهر الحرم: خصَّ الله تعالى الأربعة الأشهر بالذكر، ونهى عن الظلم فيها تشريفاً لها، وإن كان منهياً عنه في كل الزمان، كما قال: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ وهذا رأي أكثر المفسرين، أي لا تظلموا في الأربعة الأشهر أنفسكم. وروي عن ابن عباس قال: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ في الاثني عشر.

٦ - الأمر بقتال المشركين كافة، قال ابن العربي: يعني محيطين بهم من كل جهة وحالة، فمنعهم ذلك من الاسترسال في القتال[1]. وهذا ترغيب في قتالهم وتحريض، معاملة بالمثل، وتوحيداً للصف وجمعاً للكلمة.

وقال بعض العلماء: كان الغرض بهذه الآية قد توجّه على الأعيان (أي أن القتال فرض عين) ثم نسخ ذلك، وجعل فرض كفاية.

(١) أحكام القرآن: ٢/٩٢٨

وفي هذا الكلام بُعْد؛ لأن النبي ﷺ لم يُلزم الأمة جميعاً النَّفْر، وكان القتال قد استقرَّ على أنه فرض كفاية بعد أن كان في مرحلة قصيرة فرض عين، وإنما معنى هذه الآية - كما ذكر القرطبي - الحض على قتالهم والتحزب عليهم وجمع الكلمة، ثم قيدها بقوله: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم(١).

فليس في هذه الآية إعلان شامل للحرب على المشركين، وإنما هي آمرة بتوحيد المؤمنين، وجعلهم جبهة واحدة عند قتال المشركين، فهي لتحريضهم على التعاون والتناصر، وعدم التخاذل والتقاطع، كما أن المشركين جبهة واحدة متعاونون متناصرون أثناء قتالهم المسلمين.

٧ - تحريم النسيء، أي تأخير حرمة شهر ووقته إلى شهر آخر، فذلك يضادّ الحقائق، ويظهر التلاعب بالسنن الإلهية، ويغير أوقات العبادة، وهو أيضاً زيادة في كفر المشركين، الذين أنكروا وجود الباري فقالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٠] في أصح الوجوه، وأنكروا البعث فقالوا: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٣٦/ ٧٨] وأنكروا بعثة الرسل فقالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر: ٥٤/ ٢٤]، وزعموا أن التحليل والتحريم عائد إليهم، فحللوا ما حرَّم الله وحرموا ما أحل الله على وفق شهواتهم وأهوائهم، وأضلوا الذين كفروا، وحافظوا على مجرد العدد في التحريم: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي لم يُحلّوا شهراً إلا حرموا شهراً لتبقى الأشهر الحرم أربعة، وذلك كله من تزيين الشيطان لهم هذا العمل السَّيِّئ، والله لا يرشد كل كفار أثيم.

وكان الهدف من النسيء شيئين ماديين لمصالح الدنيا: الأول - ترتيب وقت الحج في زمن يناسب ظروف تجاراتهم، بدلاً من تقلّبه تارة في الصيف وتارة في

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ١٣٦، تفسير الرازي: ١٦/ ٥٤

الشتاء، والثاني - شن الغارات والحروب، أو الاستمرار في القتال، على وفق رغباتهم وأهوائهم ومصالحهم.

وترتب على النسيء الاعتماد على السنة الشمسية في الواقع؛ لأنهم جعلوا السنة القمرية تساير السنة الشمسية، عن طريق الكبيسة، وأدى ذلك إلى جعل بعض السنين ثلاثة عشر شهراً، ونقل الحج من بعض الشهور القمرية إلى غير وقته المخصص له.

التحريض على الجهاد والتحذير من تركه ومعجزة الغار في الهجرة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم قرأ الكسائي.

وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ بإدغام لا في نون إن الشرطية، ومثلها: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾. ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ منصوب بـ ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ و﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي أحد اثنين، وهو منصوب على الحال من هاء ﴿أَخْرَجَهُ﴾ وهو النبي ﷺ. وقيل: هو حال من ضمير محذوف تقديره: فخرج ثاني اثنين .﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ جواب الشرط.

﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ منصوب على البدل من قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهو بدل الاشتمال.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ وهاء ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ يراد بها أبو بكر.

﴿لَا تَحْزَنْ﴾ جملة فعلية في موضع نصب بـ ﴿يَقُولُ﴾. وهاء ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ يراد بها النبي عليه الصلاة والسلام.

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ مرفوع، و﴿هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ خبره. وقرئ (كلمة) بالنصب، وفيه بُعْد؛ لأن كلمة الله لم تزل عالية، فيبعد نصبها بـ ﴿وَجَعَلَ﴾ لما فيه من إيهام أنها صارت عالية بعد أن لم تكن. والذي عليه جماهير القراء: هو الرفع.

﴿هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ ﴿هِىَ﴾ ضمير فصل أو مبتدأ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلو وأنها المختصة به دون سائر الكلم.

البلاغة:

﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ﴾ استفهام للإنكار واللوم أو التوبيخ.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي أرضيتم بنعيم الدنيا بدل نعيم الآخرة.

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ إظهار الدنيا في مقام الإضمار؛ لزيادة التقرير، والمبالغة في التهوين بشأن الدنيا وبيان حقارتها بالنسبة إلى الآخرة.

﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾: كلمة الذين ﴿كَفَرُواْ﴾ استعارة للشرك والدعوة إلى الكفر، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ استعارة للإيمان والتوحيد والدعوة إلى الإسلام.

المفردات اللغوية:

﴿ٱنفِرُواْ﴾ أقدموا على القتال بخفة ونشاط، والمصدر: النفْر والنفور، واستنفر الإمام الناس إلى القتال: أعلن النفير العام، وحثهم ودعاهم إلى جهاد العدو، واسم ذلك القوم الذين يخرجون: النفير. ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ تباطأتم وملتم عن الجهاد. ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قعدتم فيها، والاستفهام للتوبيخ. ﴿مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ آثرتم الدنيا على الآخرة، وقبلتم بدل نعيمها. ﴿مَتَٰعُ﴾ ما يتمتع به من لذائذ الدنيا. ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في جنب متاعها. ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ حقير. ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ إن لم تخرجوا مع النبي ﷺ للجهاد. ﴿أَلِيمًا﴾ مؤلماً. ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ﴾ أي يأت بهم بدلكم. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ أي الله أو النبي ﷺ. ﴿شَيۡـٔٗاۗ﴾ بترك نصره، فإن الله ناصر دينه. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ مقتدر، ومنه نصر دينه ونبيه.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ إن لم تنصروا النبي ﷺ. ﴿إِذۡ﴾ حين. ﴿أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من مكة، أي ألجؤوه إلى الخروج، لما أرادوا قتله أو حبسه أو نفيه، بدار الندوة. ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أحد اثنين، والآخر أبو بكر، والمعنى: نصره الله في مثل تلك الحالة، فلا يخذله في غيرها. ﴿ٱلۡغَارِ﴾ غار جبل ثور، والغار: النقب أو الفتحة في الجبل. ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أبي بكر الذي قال

للنبي ﷺ لما رأى أقدام المشركين: لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا .﴿لَا تَحْزَنْ﴾ المراد بالنهي عن الحزن مجاهدة النفس وتوطينها على عدم الاستسلام له. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بنصره وتأييده. ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ طمأنينته. ﴿عَلَيْهِ﴾ الضمير يعود على النبي ﷺ، وقيل: على أبي بكر .﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ أي النبي. ﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ملائكة في الغار، وفي مواطن قتاله. ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي دعوة الشرك والكفر. ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾ المغلوبة. ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ أي كلمة التوحيد أو الشهادة بتوحيد الإله. ﴿هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ الغالبة. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في ملكه. ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٨):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أخرج ابن جرير عن مجاهد في هذه الآية قال: هذا حين أُمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وحنين في الصيف حين طابت الثمار، واشتهوا الظلال، وشق عليهم المَخْرج، فأنزل الله هذه الآية.

نزول الآية (٣٩) ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾:

أخرج ابن أبي حاتم عن نجدة بن نفيع قال: سألت ابن عباس عن هذه الآية، فقال: استنفر رسول الله ﷺ أحياء من العرب، فتثاقلوا عنه، فأنزل الله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فأمسك عليهم المطر، فكان عذابهم.

والخلاصة: لا خلاف أن هذه الآيات نزلت عتاباً على تخلُّف من تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام.

قال المحققون: وإنما استثقل الناس الخروج لغزوة تبوك لجهاد الروم لأسباب.

أحدها - شدة الزمان في الصيف والقحط.

وثانيها - بُعْد المسافة والحاجة إلى الاستعداد الكثير الزائد على ما جرت به العادة في سائر الغزوات.

وثالثها - إدراك الثمار بالمدينة في ذلك الوقت.

ورابعها - شدة الحر في ذلك الوقت.

وخامسها - مهابة عسكر الروم(١).

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أسباب قتال الكفار من المشركين واليهود والنصارى، وذكر منافع مقاتلتهم، كقوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾. ذكر هنا ما يوجب قتال الروم وأتباعهم من النصارى من عرب الشام في غزوة تبوك. وتبوك في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق، تبعد عن الأولى ٦٩٠ كم وعن الثانية ٦٩٢ كم، وكانت هذه الغزوة في رجب السنة التاسعة للهجرة بعد رجوع النبي ﷺ من غزوة حنين والطائف.

ونزلت هذه الآيات لما دعا الرسول ﷺ إلى غزوة تبوك، وكانوا في عُسْرة وضيق. وشدة حر وقد حان قطاف التمر عندهم، فشق ذلك عليهم، فأبان تعالى أنه لا يصح ترك سعادة الآخرة والخير الكثير من أجل سعادة الدنيا وطيباتها، فذلك جهل وسفه.

والكلام من هنا إلى آخر السورة في غزوة تبوك، وما صاحبها من هتك ستر المنافقين وضعفاء الإيمان، وتطهير قلوب المؤمنين من عوامل الشقاق، إلا

---

(١) تفسير الرازي: ١٦/٥٩

آيتين في آخرها، وإلا ما جاء في أثنائها من أحكام وحِكَم، جرياً على منهج القرآن في أسلوبه الذي اختص به.

وسبب الغزوة: استعداد الروم والقبائل العربية المتنصرة من لخم وجذام وغيرهم، وتجهيز جيش كثيف، لغزو المدينة، بقيادة «قباذ» وعدد جنده أربعون ألفاً.

فندب النبي ﷺ الناس للخروج لقتالهم، وكان عثمان قد جهز عِيراً إلى الشام للتجارة، فقال: يا رسول الله، هذه مئتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومئتا أوقية (من الفضة) فقال النبي ﷺ: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم».

ولما لم يجد النبي من يقاتله عاد إلى المدينة، بسبب انسحاب الروم وعدولهم عن فكرة الزحف واقتحام الحدود. ولكن كان لهذه الغزوة أثر معنوي كبير في نظر العرب والروم، فكانت كفتح مكة؛ لأنها كانت احتكاكاً بأعظم قوة حينذاك، وأثرت على المدى البعيد في نفوس الأعداء، بعد أن كان العرب يخشون غزو الروم في عقر دارهم.

وقد مهد الله بهذا الغزو الذي كان له أثر عميق في نفوس العرب، لغزو المسلمين للشام في عهد الخليفتين: أبي بكر وعمر.

التفسير والبيان:

يا أيها المؤمنون بالله ورسوله، ما لكم تثاقلتم وتباطأتم عن الجهاد، حين قال لكم الرسول الأمين: انفروا في سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم ومهاجمتكم؟ فقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ ما: حرف استفهام معناه التقرير والتوبيخ، والتقدير: أي شيء يمنعكم عن كذا؟

ومعنى: ﴿ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ولإعلاء كلمته. و﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾: تكاسلتم وملتم إلى الراحة وطيب الثمار

والتفيؤ في الظلال. فهذا ليس من شأن الإيمان الذي يدعو إلى بذل النفس والمال في سبيل الله وطاعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٥] .

أرضيتم بلذات الحياة الدنيا بدلاً من الآخرة وسعادتها ونعيمها؟ إن كنتم فعلتم ذلك فقد تركتم الخير الكثير في سبيل الشيء الحقير، فما تتمتعون به في الدنيا متاعاً مقترناً بالهم والألم، إذا قيس بنعيم الآخرة الدائم المقيم، إلا شيء حقير، لا يصلح عوضاً عن الشيء الكثير.

روى الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن المستورد أخي بني فِهْر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع؟» وأشار بالسبابة.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة» ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

فالآية والحديث تزهيد في الدنيا، وترغيب في الآخرة.

ثم توعد الله تعالى من ترك الجهاد، فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ﴾ أي إن لم تخرجوا مع النبي ﷺ إلى ما دعاكم إليه، يعذبكم عذاباً مؤلماً في الدنيا كالهلاك بالقحط وغلبة العدو، ويستبدل بكم قوماً غيركم، لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٨] أي إنه تعالى يهلكهم ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع، وإنه غني عنهم في نصرة دينه، لا يؤثر تثاقلهم فيها شيئاً. قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب، فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القطر، فكان عذابهم.

ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، وتثاقلكم عنه؛ لأنه هو القاهر فوق عباده. وقيل: الضمير للرسول، أي ولا تضروه؛ لأن الله وعده أن يعصمه من الناس، وأن ينصره، ووعد الله كائن لا محالة: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٤] . ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٧] .

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٩] أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

ثم رغبهم الله تعالى في الجهاد ثانية ومناصرة النبي ﷺ فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي إن لم تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده، وكافيه وحافظه، كما تولى نصره عام الهجرة، لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه من بلده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٠] .

فخرج منهم هارباً بصحبة صدِّيقه وصاحبه أبي بكر، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام، ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيروا نحو المدينة. ففزع أبو بكر على النبي ﷺ لما رأى المشركين، حال كون النبي أحد اثنين، والثاني أبو بكر في غار جبل ثور، إذ قال لصاحبه: لا تخف ولا تحزن، إن الله معنا يؤيدنا بنصره وعونه وحفظه.

روى أحمد والشيخان عن أنس قال: «حدثني أبو بكر قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرأيت آثار المشركين، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه، لأبصرنا تحت قدمه، فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين، الله ثالثهما» وفي رواية أحمد: «لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه...».

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي فأنزل الله طمأنينته وتأييده ونصره عليه، أي على الرسول ﷺ، في أشهر القولين، وقيل: على أبي بكر، قال ابن عباس وغيره: لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة، وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال. والسكينة: ما ألقى في قلبه من الأمن. وقال ابن العربي:

عود الضمير على أبي بكر هو الأقوى؛ لأنه خاف على النبي ﷺ من القوم، فأنزل الله سكينته عليه بتأمين النبي ﷺ، فسكن جأشه، وذهب رَوْعه، وحصل الأمن، ورجح الرازي هذا القول؛ لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات، وأقرب المذكورات في هذه الآية: هو أبو بكر، ولأن الحزن والخوف كان حاصلاً لأبي بكر لا للرسول عليه الصلاة والسلام، ولو كان الرسول خائفاً لما أمكنه تسكين خوف أبي بكر بقوله: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾، وقال الجمهور: الضمير عائد على النبي ﷺ، لأن السكينة هنا بمعنى الصون وخصائص النبوة.

ثم قال: ﴿وَأَيَّـدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَـرَوْهَـا﴾ أي قوّاه وآزره بالملائكة. وجعل كلمة الشرك والكفر هي السفلى أي المغلوبة، وكلمةُ الله التي هي لا إله إلا الله أو الدعوة إلى الإسلام هي العليا الغالبة، والله عزيز غالب في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يضام من لاذ به، حكيم في أقواله وأفعاله، يضع الأشياء في مواضعها. وقد تم نصر الرسول ﷺ وارتقاء دولته، وهزمت كلمة المشركين وذلت دولة الشرك، وأظهر الله دينه على كل الأديان: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٦١/ ٩] .

قال ابن عباس: يعني بكلمة الذين كفروا: الشرك، وكلمة الله: هي لا إله إلا الله. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميّة، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتلَ لتكونَ كَلِمةُ الله هي العُلْيا، فهو في سبيلِ الله».

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام واحد.

ودلت الآية الأولى: ﴿ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على وجوب الجهاد في كل حال، وذلك ليس من صيغة الأمر عند القائلين بأن الأمر يقتضي الفعل فقط، وإنما من النص على العقاب، وإنكار التثاقل؛ لأنه تعالى نص على أن تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر، ولو لم يكن الجهاد واجباً، لما كان هذا التثاقل منكراً. ثم إن الآية التي بعدها وهي ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ فيها تهديد شديد، ووعيد مؤكد في ترك النفير، بعذاب أليم، ولا يكون العذاب أو العقاب إلا على ترك واجب، فوجب بمقتضى الآيتين النفير للجهاد والخروج إلى الكفار لمقاتلتهم، على أن تكون كلمة الله هي العليا، لكن قيل: المراد بهذه الآية الثانية وجوب النفير عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم.

وآية: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾ وإن دلت على خطاب كل المؤمنين، إلا أن المراد بها بعضهم، وخطاب الكل وإرادة بعضه مجاز مشهور في القرآن، وفي سائر أنواع الكلام، كقول بعضهم: إياك أعني واسمعي يا جارة.

ثم إن فرضية الجهاد العينية المستفادة من هاتين الآيتين قد نسخت بما يدل على أن فرض الجهاد استقر كونه فرض كفاية؛ روى أبو داود عن ابن عباس قال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ - إلى قوله - ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢١] نسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٢] . وهو قول الضحاك والحسن البصري وعِكْرمة.

وقال المحققون: إن هذه الآية خطاب لمن استنفرهم رسول الله ﷺ فلم ينفروا، وعلى هذا التقدير فلا نسخ.

وتضمنت آية ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ عتاب الله أيضاً للمؤمنين بعد انصراف نبيه ﷺ من تبوك؛ لأن معناها كما عرفنا: إن تركتم نَصْره، فالله يتكفّل به؛ إذ قد نصره الله في مواطن القلة، وأظهره على عدوه بالغلبة والعزة.

وأبانت الآية في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فضل أبي بكر بسبب صحبته النبي ﷺ في أحلك الظروف وشدة الخوف، وتعرضه للقتل إن عثر المشركون عليه وعلى النبي، واختيار النبي له لعلمه بأنه من المؤمنين الصادقين، ولأن الظاهر يدل على كون الاختيار بأمر الله. ولتسميته بأنه ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ ولوصف الله تعالى أبا بكر بكونه صاحباً للرسول ﷺ.

قال الليث بن سعد: ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبي بكر الصديق.

وقال سفيان بن عيينة: خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ ما يدل على أن الخليفة بعد النبي ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ لأن الخليفة لا يكون أبداً إلا ثانياً. وجاء في السنة أحاديث صحيحة، يدل ظاهرها على أنه الخليفة بعده، وقد انعقد الإجماع على ذلك، ولم يبق منهم مخالف. روى البخاري عن ابن عمر قال: كنا نخيِّر بين الناس في زمن رسول الله ﷺ، فنخيِّر أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان.

وجمهور أئمة السلف على تقديم عثمان على علي رضي الله عنهم أجمعين. وتضمنت آية ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أيضاً معجزتين هما: تأييد الله نبيه بجند من الملائكة في قوله: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ والضمير يعود إلى النبي ﷺ، وحماية الله نبيه في الغار من أذى المشركين في قوله: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ والمراد غار ثور.

وقصة الهجرة ومعجزة الغار هي بإيجاز: لما رأت قريش أن المسلمين قد صاروا إلى المدينة، قالوا: هذا شر شاغل لا يطاق؛ فأجمعوا أمرهم على قتل

رسول الله ﷺ، فبيَّتوه ورصَدُوه على باب منزله طوال ليلتهم، ليقتلوه إذا خرج؛ فأمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه[١]، ودعا الله أن يعمِّي عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم، فخرج وقد غشِيَهم النوم، فوضع على رؤوسهم تراباً ونهض، فلما أصبحوا، خرج عليهم علي رضي الله عنه، وأخبرهم أن ليس في الدار أحد، فعلموا أن رسول الله ﷺ قد فات ونجا.

وتواعد رسول الله ﷺ مع أبي بكر الصديق للهجرة، فدفعا راحلتيهما إلى عبد الله بن أَرْقط، ويقال: ابن أريقط، وكان كافراً، لكنهما وثقا به، وكان دليلاً بالطرق، فاستأجراه ليدل بهما إلى المدينة.

وخرج رسول الله ﷺ من خَوْخة (ثغرة) في ظهر دار أبي بكر التي في بني جُمَح، ونهضا نحو الغار في جبل ثور.

وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع ما يقول الناس، وأمر مولاه عامر بن فُهَيْرة أن يرعى غنمه، ويريحها (يردّها) عليهما ليلاً، فيأخذا منها حاجتهما. ثم نهضا فدخلا الغار.

وكانت أسماء بنت أبي بكر الصديق تأتيهما بالطعام، ويأتيهما عبد الله بن أبي بكر بالأخبار، ثم يتلوهما عامر بن فهيرة بالغنم، فيُعَفِّي آثارهما. فلما فقدته قريش جعلت تطلبه بقائف معروف بقفاء الأثر، حتى وقف على الغار، فقال: هنا انقطع الأثر. فنظروا فإذا بالعنكبوت قد نسج على فم الغار من ساعته[٢]؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن قتله. فلما رأوا نسج العنكبوت أيقنوا أن لا أحد فيه،

(١) وفي هذا مخاطرة وفضل كبير أيضاً لسيدنا علي كرم الله وجهه، وهي طاعة عظيمة ومنصب رفيع.

(٢) هذا ثابت في صحاح السيرة، وإن لم يثبته أهل الحديث.

فرجعوا وجعلوا في النبي ﷺ مئة ناقة لمن ردّه عليهم، والخبر مشهور، وقصة سراقة بن مالك بن جُعْشُم في ذلك مشهورة أيضاً.

وقد رُوي من حديث أبي الدرداء وثَوْبان رضي الله عنهما: أن الله عز وجل أمر حمامة، فباضت على نسج العنكبوت، وجعلت ترقد على بيضها، فلما نظر الكفار إليها ردّهم ذلك عن الغار.

روى البخاري عن عائشة قالت: استأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيل هادياً خرِّيتاً[(١)]، وهو على دين كفار قريش، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ثلاث، فارتحلا وارتحل معهما عامر بن فُهيرة والدليل الدّيلي، فأخذ بهما طريق الساحل، أي موضعاً بعينه، ولم يرد به ساحل البحر.

قال المهلب: وفي هذا من الفقه ائتمان أهل الشرك على السرّ والمال إذا علم منهم وفاء ومروءة، كما ائتمن النبي ﷺ هذا المشرك على سِرّه في الخروج من مكة وعلى الناقتين. وقال ابن المنذر: فيه استئجار المسلمين الكفار على هداية الطريق[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ دلالة واضحة على أنه تعالى جعل يوم بدر كلمة الشرك مغلوبة خاسئة حقيرة، وأن ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾، وهي قوله: لا إله إلا الله.

وختام الآية: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيه بيان مقتضب يدل على قدرة الله الباهرة وحكمته العالية، فالله قاهر غالب، لا يفعل إلا الصواب.

---

(١) الخرِّيت: الدليل الحاذق والماهر بطرق المفاوز.

(٢) تفسير القرطبي: ٨/ ١٤٤ وما بعدها.

النفر للجهاد في سبيل الله

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

الإعراب:

﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ منصوبان على الحال من واو ﴿ٱنفِرُواْ﴾.

البلاغة:

﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿ٱنفِرُواْ﴾ أصل النفر: الخروج إلى مكان، لأمر واجب، والمراد هنا الحث على الجهاد والدعوة إليه، ومنه قول النبي ﷺ فيما رواه النسائي عن صفوان بن أمية: «إذا استنفرتم فانفروا» واسم ذلك القوم الذين يخرجون: النفير، ومنه قولهم: فلان لا في العير ولا في النفير. ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ نشاطاً وغير نشاط، وقيل: أقوياء وضعفاء، كهولاً وشباناً، في العسر واليسر، أو أغنياء وفقراء، ثم خفف الأمر على الضعفاء بآية: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ [التوبة: ٩/ ٩١]. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم فلا تتثاقلوا.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير عن حضرمي: أنه ذكر له أن أناساً ربما كان أحدهم عليلاً أو كبيراً، فيقول: إني آثم، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وعن أبي طلحة: كهولاً وشباناً، ما سمع الله عذر أحد. ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل.

وعن مجاهد: قالوا: فإن فينا الثقيل وذا الحاجة والضيعة والشغل والمتيسر به أمره، فأنزل الله تعالى، وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي على ما كان منهم.

والخلاصة: نزلت الآية في الذين اعتذروا بالضيعة والشغل، فأبى الله أن يعذرهم دون أن ينفروا على ما كان منهم.

التفسير والبيان:

موضوع الآية: أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال، في المنشط والمكره والعسر واليسر. والمعنى: اخرجوا إلى الجهاد على كل حال من يسر أو عسر، صحة أو مرض، غنى أو فقر، شغل أو فراغ منه، كهولة أو شباب، نشاط وغير نشاط، أي خفاف في النّفْر لنشاطكم له، وثقال عنه لمشقته عليكم.

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي قاتلوا أعداءكم الذين يقاتلونكم، وفيه إيجاب للجهاد بالنفس والمال إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال، فمن قدر على الجهاد بنفسه وماله، وجب عليه ذلك، ومن قدر على الجهاد بالنفس فقط، أو بالمال فقط، وجب عليه.

ذلكم المأمور به من النفْر والجهاد خير لكم في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ فيما رواه الشيخان والنسائي عن أبي هريرة: «تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة».

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك وأنه خير، فانفروا ولا تتثاقلوا.

فقه الحياة أو الأحكام:

الآية تدل على إيجاب الجهاد والنفير العام في غزوة تبوك، لكن روي عن

ابن عباس وآخرين أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: ٩/ ٩١] .

قال القرطبي: والصحيح أنها ليست بمنسوخة. ويبقى الجهاد فرض عين إذا تعيَّن بغلبة العدو على قطر من الأقطار، فيجب حينئذ على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إلى الجهاد خفافاً وثقالاً، شباناً وشيوخاً، كلٌّ على قدر طاقته، يخرج الابن بغير إذن أبيه، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج. فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بدحر العدو، كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا لتحقيق الهدف المرجو، فالمسلمون كلهم يدٌ واحدة على من سواهم، حتى إذا قام هؤلاء بدفع العدو سقط الفرض عن الباقين.

ولو قارب العدو دار الإسلام، ولم يدخلوها، لزم المسلمين أيضاً الخروج إليه، حتى تعلو كلمة الله، وتصان البلاد، ويُخزى العدو.

وفرض أيضاً على الإمام غزو الأعداء كل سنة مرة، حتى يدخلوا الإسلام، أو يُعطوا الجزية عن يد[(١)].

وقد بادر الصحابة لتنفيذ هذا الأمر الإلهي الحاسم العام، فقال أبو أيوب الأنصاري - وقد شهد المشاهد كلها إلا غزاة واحدة -: قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً.

وروى ابن جرير الطبري عن أبي راشد الحُرَّاني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فصل عنها من عُظْمه، يريد الغزو، فقلت: قد أعذر الله إليك، فقال: أتت علينا سورة البعوث (أي سورة براءة): ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ١٥٠ ـ ١٥٢

وروى ابن جرير أيضاً عن صفوان بن عمرو قال: كنت والياً على حمص، فلقيت شيخاً قد سقط حاجباه، من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو، قلت: يا عم، أنت معذور عند الله، فرفع حاجبيه، وقال: يا ابن أخي، استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، ألا إن من أحبه الله ابتلاه.

والجهاد واجب بالنفس والمال إذا قدر عليهما، أو على أحدهما، على حسب الحال والحاجة، فقد كان المسلمون ينفقون على أنفسهم من أموالهم، وهم يُعدّون السلاح، وقد ينفقون على غيرهم، كما فعل عثمان رضي الله عنه في تجهيز جيش العُسْرة في غزوة تبوك، وكما فعل غيره من أغنياء الصحابة. فهذه الآية: ﴿انفِرُوا﴾تتناول القادر المتمكن؛ إذ عدم الاستطاعة عذر في التخلف.

ولما أصبح في بيت المال وَفْر وسعة، صار الحكام يجهزون الجيوش من بيت المال، وهذا هو المتبع الآن، حيث تخصص بنود من الميزانية كل عام لنفقات الحرب والدفاع، وتزاد الميزانية عند الحاجة.

وللجهاد ثمرة يانعة عظيمة، فهو يحقق إحدى الحسنيين: إما النصر، وإما الشهادة في سبيل الله، وفي ذلك من الخير العظيم ما لا يوصف، سواء في الدنيا بإعلاء كلمة الله وإعزاز المسلمين، وفي الآخرة بالقرار في نعيمها والاستمتاع بخلود الجنة، ولا يقدِّر هذا إلا المؤمن الصادق الإيمان، الذي يؤمن بأن القيامة حق، وبأن الثواب والعقاب فيها حق وصدق.

فما يستفاد بالجهاد من نعيم الآخرة خير وأعظم مما يستفيده القاعد عنه من الراحة والدعة والتنعم بهما، ولا تدرك هذه الخيرات إلا بالتأمل، ولا يعرفها إلا المؤمن بالآخرة، لذا قال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

تخلف المنافقين عن غزوة تبوك وقضية الإذن لهم

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

القراءات:

﴿يَسْتَأْذِنُكَ﴾:

وقرأ السوسي، وورش، وحمزة وقفاً (يستاذنك).

الإعراب:

﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ أو هو من جملة كلامهم، والقول مراد في الوجهين، أي سيحلفون، يعني المتخلفين، عند رجوعك من غزوة تبوك، معتذرين يقولون: ﴿بِاللَّهِ﴾.

﴿لَخَرَجْنَا﴾ سادّ مسدّ جوابي القسم والشرط. وهذا من المعجزات؛ لأنه إخبار عما وقع قبل وقوعه.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ إما أن يكون بدلاً من ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ أو حالاً بمعنى: مهلكين. ويحتمل أن يكون حالاً من قوله: ﴿لَخَرَجْنَا﴾ أي لخرجنا معكم، وإن أهلكنا أنفسنا وألقيناها في التهلكة بما نحملها من المسير في تلك المشقة.

﴿أَن يُجَـٰهِدُواْ﴾ في موضع نصب بإضمار: في، وقيل: التقدير كراهية أن يجاهدوا، مثل: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ٤/١٧٦].

البلاغة:

﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ استعار الشقة للمسافة الطويلة البعيدة الشاقة.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن خطئه في الإذن؛ لأن العفو يعقب الخطأ، وهو خبر قصد به تقديم المسرة على المضرة، وإن من لطف الله بالنبي أن بدأه بالعفو قبل العتاب.

﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بيان لما كني عنه بالعفو، ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك وهلا استأنيت بالإذن؟

المفردات اللغوية:

﴿لَوْ كَانَ﴾ ما دعوتهم إليه من الخروج للجهاد ﴿عَرَضًا﴾ متاعاً من الدنيا قريباً سهل المأخذ، أو ما يعرض من منافع الدنيا، ويكون غنيمة قريبة ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي سهلاً لا عناء فيه ولا مشقة، أي وسطاً معتدلاً ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ طلباً للغنيمة ﴿ٱلشُّقَّةُ﴾ المسافة البعيدة التي تحتاج لعناء ومشقة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ إذا رجعتم إليهم ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ الخروج ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالحلف الكاذب ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ العفو: التجاوز عن الخطأ وترك المؤاخذة عليه ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ في التخلف ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكت قلوبهم في الدين ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيرون.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٣):

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾: أخرج ابن جرير الطبري عن عمرو بن ميمون

الأزدي قال: اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين، وأخذ الفداء من الأسارى، فأنزل الله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾. وهذا مروي أيضاً عن قتادة.

قال بعض العلماء: إنما بدر منه ترك الأوْلى، فقدَّم الله العفو على الخطاب الذي هو في صورة العتاب.

وهو عتاب تلطف؛ إذ قال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾. وكان ﷺ أذن من غير وحي نزل فيه.

المناسبة:

بعد أن بالغ الله تعالى في ترغيب المؤمنين في الجهاد في سبيل الله، ووبخ المتثاقلين عنه بقوله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ عاد إلى تقرير كونهم متثاقلين، وبيَّن أن أقواماً، مع كل ماتقدم من الوعيد والحث على الجهاد، تخلفوا عن غزوة تبوك، وأما الأكثر فكان يلبي نداء الجهاد بسرعة ونشاط؛ لأنهم ينتظرون إحدى الحسنيين: إما الشهادة، وإما النصر.

فهذه الآيات نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وهي أول مانزل في التفرقة بين المنافقين والمؤمنين في القتال، لذا سميت سورة ﴿بَرَآءَةٌ﴾ كما بينت آنفاً «الفاضحة» لأنها فضحت أحوال المنافقين، قال ابن عباس: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين حتى نزلت سورة ﴿بَرَآءَةٌ﴾ أي لم يعرف شؤونهم مفصلة، فلما رجع من غزوة تبوك أظهر الله نفاق قوم.

التفسير والبيان:

وبخ الله تعالى في هذه الآيات المتخلفين عن غزوة تبوك، الذين استأذنوا النبي ﷺ في التخلف، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾.

أي لو كان الأمر الذي دعوتهم إليه غنيمة أو منفعة قريبة المنال، أو سفراً سهلاً قريباً لا عناء فيه، لاتبعوك أي لجاؤوا معك، وسارعوا إلى الذهاب، ولكنهم تخلفوا حينما رأوا أن السفر شاق إلى مسافة بعيدة إلى الشام، وأن القتال لأكبر قوة في العالم وهم الروم حينذاك، فآثروا الجبن والراحة والسلامة، والتفيؤ في الظلال وقت الحر والقيظ، فدل ذلك على أنهم جماعة نفعيون ماديون دنيويون، كما قال ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة: «لو يعلم أحدهم أنه يجد عَرْقاً - أي عظماً عليه لحم - سميناً أو مِرْماتين[(١)] حسنتين، لشَهِد العِشاء» أي لو علم أحدهم أنه يجد شيئاً مادياً حاضراً معجَّلاً يأخذه، لأتى المسجد من أجله.

ثم أخبرالله تعالى عن شيء سيقع منهم فقال: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي سيقسمون بالله اليمين الكاذبة عند رجوعك من غزوة تبوك، كما قال: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٤] ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٦] قائلين: لواستطعنا لخرجنا معكم، أي لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم.

يهلكون أنفسهم في العذاب باليمين الكاذبة أو بالكذب والنفاق، كما قال النبي ﷺ فيما رواه خيثمة بن سليمان: «اليمين الغموس تدع الديار بلاقع».

والله يعلم، إنهم لكاذبون في الاعتذار والاعتلال وحلفهم بالله، وقولهم: لو استطعنا الخروج لخرجنا معكم، فإنهم لم يكونوا ذوي أعذار، وإنما كانوا أقوياء الأجسام، وأصحاب يسار. قال قتادة: لقد كانوا يستطيعون الخروج، ولكن كان تبطئة من عند أنفسهم وزهادة في الجهاد.

ثم عاتب الله نبيه ﷺ في إذنه لطائفة ممن تخلف من هؤلاء المنافقين، فقال:

---

(١) المرماتان: تثنية مرماة: وهي ظلف الشاة، أو مابين ظلفها من اللحم.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ أي سامحك الله بإذنك لهم، لم أذنت لهم بالتخلف، وهلا استأنيت بالإذن وتوقفت عنه حتى تظهر لك الحقيقة، ويتبين لك الفريقان: الذين صدقوا، والذين كذبوا في إبداء الأعذار، وهلا تركتهم لما استأذنوك لتعلم الصادق منهم من الكاذب، فإنهم كانوا مصرين على التخلف وإن لم تأذن لهم فيه. على أن الله كره انبعاثهم، وكان في خروجهم ضرر وخطر على المسلمين.

قال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذِنُوا رسول الله ﷺ، فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا.

لهذا أخبر الله تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي لا يستأذنك في القعود عن الغزو المؤمنون بالله واليوم الآخر في أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بل يقدمون على الجهاد من غير استئذان؛ لأنهم يرون أن الجهاد قربة وسبيل إلى الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/١٥] .

فليس من شأن المؤمنين ولا من عادتهم أن يستأذنوك في الجهاد، وكان أكابر المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي ﷺ في الجهاد، فإن ربنا ندبنا إليه مرة بعد أخرى، فأي فائدة في الاستئذان؟

والله عليم بالمتقين خبير بمن خافه فاتقاه، باجتناب مايسخطه، وفعل مايرضيه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة: «من خير معاش الناس لهم: رجل مُمْسك بعنان فرسه في سبيل الله، يطير على مَتْنه، كلما سمع هَيْعة أو فزعاً، طار على متنه، يبتغي

القتل والموت في مظانّه..» أي خيرأعمال الرجل إعداد فرسه في سبيل الله، كلما سمع صيحة لقتال أو دعوة لجهاد، أقدم قاصداً الاستشهاد في المواضع التي يظن فيها ذلك.

وإذا كان أهل الإيمان لا يستأذنون للجهاد عادة، فإن الذي يستأذنك في التخلف عن الجهاد من غير عذر، إنما هم المنافقون الذين لا يصدّقون بالله واليوم الآخر، ولا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، وشكّت قلوبهم في صحة ما جئتم به، فهم في شكهم أو ريبهم يتحيرون، ليس لهم ثبات على شيء، فهم قوم حيارى هلكى.

روي أن عدد هؤلاء كان تسعة وثلاثين رجلاً.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على مايلي:

١ - إن الأيمان الكاذبة توجب الهلاك، كما قال ﷺ في الحديث المتقدم عن خيثمة بن سليمان: «اليمين الغموس تدع الديار بلاقع».

٢ - الجهاد يتطلب التضحية والإيمان، للتغلب على أهواء النفس، وميلها إلى حب المنافع المادية العاجلة، وإيثارها على الباقي الدائم الخالد.

٣ - القرآن معجز لأسباب كثيرة منها إخباره عن المغيبات في المستقبل، مثل إخباره تعالى هنا أنهم سيحلفون، والأمر لما وقع كما أخبر، كان هذا إخباراً عن الغيب، فكان معجزاً.

٤ - كان تقديم العفو على العتاب واللوم بالإذن للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك لطفاً عظيماً من الله برسوله، ومبالغة في تعظيمه وتوقيره، وهو أخف من العتاب على قبوله مفاداة أسرى بدر، الذي صدر بتقرير حازم صارم في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٧] .

أما ما احتج به بعضهم بهذه الآية على صدور الذنب عن الرسول من وجهين: الأول - إصدار العفو، والعفو يستدعي سابقة الذنب، والثاني - الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ فيجاب عن الأول بأنا لا نسلم أن قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ يوجب الذنب، وإنما ذلك دليل على مبالغة الله في تعظيم نبيه وتوقيره. ويجاب عن الثاني بأنه بعد حصول العفو عنه يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه، ويحمل قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ على ترك الأولى والأكمل، ولاسيما هذه الوقعة من قضايا الحرب ومصالح الدنيا التي يجوز للنبي ﷺ الاجتهاد فيها اتفاقاً، فكان ما حكم به صادراً بمقتضى الاجتهاد.

٥ً - دل قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ على وجوب الاحتراز عن العجلة، ووجوب التثبت، والتأني، وترك الاغترار بظواهر الأمور، والمبالغة في التفحص والتريث.

٦ً - قال قتادة: عاتبه الله كما تسمعون في هذه الآية، ثم رخص له في سورة النور، فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [٦٢].

٧ً - لا ينبغي الاستئذان في أداء شيء من الواجبات، وفضائل العادات مثل إكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، وفعل المعروف، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ٤/ ١١٤] .

٨ً - المنافقون غير مؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر، وعدم إيمانهم إنما كان بسبب الشك والريب، لا بسبب الجزم والقطع بعدمه، وهذا يدل على أن الشاك المرتاب غير مؤمن بالله تعالى.

٩ً - قوله: ﴿أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ دليل على أن الجهاد نوعان:

جهاد بالمال وجهاد بالنفس. والجهاد بالمال له وجهان: إنفاق المال في التسليح والإعداد المادي الذي تتطلبه المعارك عادة، وإنفاق المال على المجاهدين وأسرهم وإعانتهم بالزاد والعتاد. والجهاد بالنفس أنواع منها: مباشرة القتال بالفعل وهو الأفضل، ومنها التحريض على القتال والأمر به، ومنها الإخبار بعورات العدو ومواطن الضعف لديه، والإرشاد إلى مكايد الحرب، وتنبيه المسلمين إلى الأولى والأصلح في أمر الحروب، كما قال الحَبَاب بن المنذر حين نزل النبي ﷺ ببدر، فقال: يارسول الله، أهذا رأي رأيتَه أم وحي؟ فقال: بل رأي رأيته، قال: فإني أرى أن تنزل على الماء وتجعله خلف ظهرك، وتغوِّر الآبار التي في ناحية العدو، ففعل النبي ﷺ ذلك. ومنها بيان ما افترض الله من الجهاد وذكر الثواب الجزيل لمن قام به والعقاب لمن قعد عنه.

وأي الجهادين أفضل، أجهاد النفس والمال، أم جهاد العلم؟ الحقيقة أن جهاد العلم أصل، وجهاد النفس فرع، والأصل أولى بالتفضيل من الفرع.

فإذا كان النفير عاماً: تعين فرض الجهاد على كل أحد، فيكون الاشتغال في هذه الحال بالجهاد أفضل من تعلم العلم؛ لأن ضرر العدو إذا وقع بالمسلمين لم يمكن تلافيه، وتعلم العلم ممكن في سائر الأحوال، ولأن تعلم العلم فرض على الكفاية، لا على كل أحد في خاصة نفسه.

وأما إذا لم يكن النفير عاماً: ففرض الجهاد على الكفاية، مثل تعلم العلم، إلا أن الاشتغال بالعلم في هذه الحال أولى وأفضل من الجهاد، لعلو مرتبة العلم على مرتبة الجهاد؛ لأن ثبات الجهاد بثبات العلم، ولأن الجهاد فرع عن العلم ومبني عليه[1].

ويجوز الجهاد وإن كان أمير الجيش فاسقاً، وجنوده فساقاً، وقد كان

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ١١٩

أصحاب النبي ﷺ يغزون بعد الخلفاء الأربعة مع الأمراء الفساق، وقد غزا أبو أيوب الأنصاري مع يزيد بن أبي سفيان. وإذا جاهد الفساق فهم مطيعون في ذلك. ثم إن الجهاد نوع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو رأينا فاسقاً يأمر بمعروف وينهى عن منكر، كان علينا معاونته على ذلك، فكذلك الجهاد[1].

الدليل على تخلف المنافقين بغير عذر وخطر خروجهم للقتال

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

القراءات:

﴿وَقِيلَ﴾ :

بإشمام كسرة القاف الضم قرأ الكسائي.

وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من الواو في ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾. و﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ : مفعول به ثانٍ.

---

(١) المرجع السابق.

البلاغة:

﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ و﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ الأصل: ولأوضعوا ركائبهم بينكم بالنميمة، والتضرية أو الهزيمة، أو لسعوا بينكم بالنمائم وإفساد ذات البين، يقال: وضع البعير وضعاً: إذا أسرع، وأوضعته أنا. فيه استعارة تبعية حيث شبه سرعة إفسادهم ذات البين بالنميمة بسرعة سير الراكب، ثم استعير لها الإيضاع وهو للإبل.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ معك ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أهبة من السلاح والزاد، فالعدة: هي مايعده الإنسان ويهيئه لما يفعله في المستقبل، وهو نظير الأهبة ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ استدراك عن مفهوم قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ كأنه قال: ما خرجوا، ولكن تثبطوا، لأنه تعالى كره انبعاثهم، أي نهوضهم للخروج ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فحبسهم وعوقهم بالجبن والكسل ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود، أو حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول لهم، والقاعدين يحتمل المعذورين وغيرهم، وعلى الوجهين لا يخلو عن ذم ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم شيئاً ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ فساداً وشراً ونميمة وزرع الاختلاف، وأصل الخبال: مرض في العقل كالجنون، ينشأ عنه اضطراب في الرأي وفساد في العمل. وهذا ليس من الاستثناء المنقطع في شيء، كما يقولون؛ لأن الاستثناء المنقطع: هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كقولك: ما زادوكم خيراً إلا خبالاً، والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور، وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء، فكان استثناء متصلاً؛ لأن الخبال بعض أعم العام، كأنه قيل: ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً.

﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ﴾ أسرعوا بالمشي بينكم بالنميمة ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم أو الرعب في قلوبكم، و﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾: التشكيك في الدين والتخويف من الأعداء. وخلال الأشياء: ما يفصل بينها من الفرجة ونحوها.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي فيكم قوم ضعاف يسمعون قول المنافقين ويطيعونهم، أو فيكم نمامون يسمعون حديثكم وينقلونه إليهم ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي لقد طلبوا وأرادوا لك تشتيت أمرك وتفريق أصحابك من قبل، أول ماقدمت المدينة، يعني يوم أحد، فإن عبد الله بن أبي وأصحابه المنافقين، كما تخلفوا عن تبوك، بعدما خرجوا مع الرسول ﷺ إلى ذي جدّة أسفل من ثنية الوداع[1]، انصرفوا يوم أحد ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أجالوا الفكر في تدبير المكايد والحيل لك، ونظروا في إبطال دينك وأمرك ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ النصر والتأييد الإلهي ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ علا دينه وغلب شرعه ﴿وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ أي على رغم منهم.

المناسبة:

بعدما ذكر الله تعالى أن استئذان المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك كان بغير عذر، وأنهم أرادوا التخلف ثم استأذنوا ستراً لنفاقهم، أقام الدليل هنا على ذلك وهو تركهم الاستعداد للمشاركة في هذه الغزوة، وأوضح أن خروجهم مع الرسول ﷺ ماكان مصلحة، وإنما يؤدي إلى مفاسد ثلاثة: هي الإفساد والشر، وتفريق كلمة المؤمنين بالنميمة، والتسبب في سماع بعض ضعفاء الإيمان كلامهم وقبول قولهم.

فكانت الآية الأولى فضحاً لاعتذارهم ونفاقهم، والآيتان الأخريان لتسلية

(١) الثنية: الطريق في الجبل كالنقب، والوداع: واد بمكة، وثنية الوداع منسوبة إليه.

الرسول ﷺ والمؤمنين على تخلفهم، وبيان ما ثبطهم الله لأجله، وكره انبعاثهم له، وهتك أستارهم، وكشف أسرارهم، وإزاحة اعتذارهم، تداركاً لأسباب عتاب الرسول عليه الصلاة والسلام على الإذن.

والخلاصة: تستمر الآيات في توضيح قبائح المنافقين، وبيان أخطارهم، وتحذير المؤمنين من مكائدهم.

التفسير والبيان:

ولو قصدوا الخروج معك إلى القتال لاستعدوا وتأهبوا له بإعداد السلاح والزاد والراحلة ونحوها، وقد كانوا مستطيعين ذلك، ولكن كره الله انبعاثهم، أي أبغض الله خروجهم مع المؤمنين، لما فيه من أضرار، فثبطهم أي أخرهم بما أحدث في قلوبهم من المخاوف، وفي نفوسهم من الكسل والفتور، وقيل لهم من الرسول ﷺ: اقعدوا مع القاعدين من النساء والأطفال والمرضى والعَجَزة الذين شأنهم القعود في البيوت، كما قال تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٩/ ٨٧] وهم القاعدون والخالفون.

ثم ألقى الله الطمأنينة في نفوس المؤمنين، وبيّن أن عدم خروجهم مصلحة للجيش، إذ لو خرج هؤلاء المنافقون ما زادوكم شيئاً من القوة والمنعة، بل زادوكم اضطراباً في الرأي وفساداً في العمل والنظام، ولأسرعوا بالسعي بينكم بالنميمة والبغضاء، وتفريق الكلمة، وبذر بذور التفرقة والاختلاف، وإشاعة الخوف والأراجيف من الأعداء، وتثبيط الهمة.

علماً بأن فيكم قوماً ضعاف العقل والإيمان والعزيمة يسمعون كلامهم، ويصدقونهم في قولهم، ويطيعونهم، فتفتر عزائمهم عن القيام بأمر الجهاد، وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير.

والله عليم علم إحاطة بأحوال الظالمين الظاهرة والباطنة، فهو يعلم ماكان ومايكون ومالم يكن، ومجازيهم على أعمالهم كلها.

وفي هذا دلالة واضحة على أن خروجهم شر لا خير فيه، وضعف لا قوة.

ثم ذكّر الله تعالى بموقفهم المتخاذل في الماضي، وحرّض نبيه ﷺ على مهادنة المنافقين، فقال تعالى ذاكراً نوعاً آخر من مكر المنافقين وخبث باطنهم: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي لقد أرادوا إيقاع الفتنة بين المسلمين من قبل ذلك، في غزوة أحد، حين اعتزلهم عبد الله بن أُبَيّ زعيم المنافقين بثلث الجيش، في موضع يسمى الشوط بين المدينة وأحد، ثم قال للناس: أطاع النبي الولدان ومن لا رأي له، فعلامَ نقتل أنفسنا؟ وكاد يتبعه بنو سلمة وبنو حارثة، ولكن عصمهم الله من الهوان: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٢] فكان خروجهم مع المؤمنين خطراً عليهم، وشراً محققاً بهم.

وأرادوا أيضاً تدبير الحيل والمكايد للنبي، وفكروا في إبطال أمره، حتى جاء النصر والتأييد، وظهر أمر الله، أي وغلب دينه وعلا شرعه، بالتنكيل باليهود، وإبطال الشرك بفتح مكة، وانتشار الإسلام، وهم كارهون لذلك.

قال ابن كثير: لما قدم النبي ﷺ المدينة، رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر، وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه (أي أقبل). فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله، غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[1].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على مايلي:

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٦١

١ - ترك المنافقين الاستعداد للمعركة دليل واضح على أنهم أرادوا التخلف، سواء أذن لهم النبي ﷺ أم لم يأذن، مع أنهم كانوا موسرين قادرين على تحصيل الأهبة والعدة.

٢ - إن لوم هؤلاء على ترك الإعداد للقتال يدل على وجوب الاستعداد للجهاد قبل وقت وقوعه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠].

٣ - لم تكن مشاركة المنافقين وخروجهم للقتال مع المؤمنين في غزوة تبوك وغيرها خيراً ومصلحة، وإنما كانت شراً ومفسدة، وقد شرح تعالى المفاسد وحصرها في ثلاث:

إفساد النظام والعمل، وتفريق كلمة المسلمين بالنميمة، واستدراج فئة من ضعاف الإيمان والعقل والحزم إلى صفوفهم وسماع كلامهم.

ثم تأكد ذلك بآيات أخرى، منها: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٩/ ٨٣] ومنها: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ - إلى قوله - ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٥].

٤ - كراهية انبعاثهم: معناها إرادة الله عدم ذلك الشيء(١)، أي عدم خروجهم؛ لأن خروجهم يؤدي إلى الفساد وتخذيل المسلمين وتخويفهم من العدو وإثارة الخلافات والمنازعات، والخروج على هذا النحو معصية وكفر، فكرهه الله تعالى وثبطهم عنه، إذ كان معصية، والله لا يحب الفساد(٢).

٥ - المقصود من قوله: ﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ التنبيه على ذمهم

(١) تفسير الرازي: ١٦/ ٧٩

(٢) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ١٢٠

وإلحاقهم بالنساء والصبيان والعاجزين الذين شأنهم القعود في البيت، وهم القاعدون والقواعد، والخالفون والخوالف.

٦ - لن تفلح مكائد البشر من منافقين ويهود ومشركين وغيرهم، ولن تقف أي قوة في الدنيا أمام إرادة الله القاهرة إعلاء دينه، وغلبة شرعه، ونصرة نبيه ﷺ.

انتحال المنافقين أعذاراً أخرى للتخلف عن غزوة تبوك وفرحهم عند السيئة التي تصيب المؤمنين وترحهم عند الحسنة

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٞ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل
لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن
يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم
مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

القراءات:

﴿يَقُولُ ٱئْذَن﴾:

قرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً، بإبدال الهمزة التي بعد همزة الوصل واواً مدِّيَّة وصلاً (يقولُوذن).

وقرأ الباقون بالهمزة الساكنة بعد همزة الوصل الساقطة وصلاً.

الإعراب:

﴿أَلَا﴾ للتنبيه وافتتاح الكلام.

البلاغة:

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ فيها المقابلة بين أمرين.

﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ اللام هنا مفيدة معنى الاختصاص، كأنه قيل: لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله بإثباته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ تقديم الجار والمجرور على الفعل لإفادة القصر، وإظهار لفظ الجلالة

مكان الإضمار لتربية المهابة والخوف منه تعالى.

﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ اللفظ استفهام، والمعنى توبيخ.

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ أمر يراد به التهديد والوعيد.

المفردات اللغوية:

﴿ٱئْذَن لِّي﴾ في التخلف والقعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم بألّا تأذن لي، فإني إن تخلفت بغير إذنك أثمت. وقيل: ولا تلقني في الهلكة، فإني إذا خرجت معك، هلك مالي وعيالي .﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ أي إن الفتنة هي التي وقعوا فيها وهي فتنة التخلف ﴿لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني أنها تحيط بهم يوم القيامة، أو هي محيطة بهم؛ لأن أسباب الإحاطة معهم، فكأنهم في وسطها، والمعنى: لا محيص ولا مهرب لهم عنها.

﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ﴾ أي إن تصبك في بعض الغزوات حسنة كنصر وغنيمة ﴿وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ﴾ نكبة وشدة ﴿يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي لقد احتطنا بالحزم حين تخلفنا من قبل هذه المصيبة ﴿فَرِحُونَ﴾ بما أصابك ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ إصابته ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ ناصرنا ومتولي أمورنا ﴿هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ أي تنتظرون أن يقع، والأصل: تتربصون، فحذفت إحدى التاءين. ﴿إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ إلا إحدى العاقبتين: النصر أو الشهادة، وهي تثنية حسنة تأنيث أحسن ﴿نَتَرَبَّصُ﴾ ننتظر ﴿بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾ بقارعة من السماء ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ بأن يؤذن لنا في القتال ﴿مُّتَرَبِّصُونَ﴾ عاقبتكم.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٩):

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي﴾: أخرج الطبراني وأبو نعيم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك قال للجدّ بن قيس: يا جَدّ بن قيس، «ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟ فقال: يارسول الله، إني امرؤ صاحب نساء، ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتتن، فأذن لي، ولا تفتني، فأنزل الله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ أي لا تفتني بصباحة وجوههن.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله مثله، وعبارته قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لجد بن قيس: «ياجدُّ، هل لك في جِلاد بني الأصفر؟ قال جَدُّ، وكان من شيوخ المنافقين: أتأذن لي يارسول الله، فإني رجل أحبّ النساء، وإني أخشى إن أنا رأيت نساء بني الأصفر أن أفتتن، فقال رسول الله ﷺ، وهو معرِض عنه: قد أذنت لك»، فنزلت الآية.

ولما نزلت قال النبي ﷺ لبني سلمة - وكان الجد بن قيس منهم - «من سيدكم يابني سلمة؟» قالوا: جدّ بن قيس، غير أنه بخيل جبان. فقال النبي ﷺ: «وأي داء أدوى(١) من البخل؟ بل سيدكم الفتى الأبيض بشر بن البراء ابن مَعْرور».

نزول الآية (٥٠):

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة، يُخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء، يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جَهِدُوا في سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم، وعافية النبي ﷺ وأصحابه، فساءهم ذلك، فأنزل: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ الآية.

المناسبة:

الآيات السابقة واللاحقة في تعداد قبائح المنافقين، وبيان نوع آخر من كيدهم ومن خبث بواطنهم، وشماتتهم بالمؤمنين إذا أصيبوا بمصيبة، وترحهم إذا تعرضوا لحسنة.

التفسير والبيان:

ومن المنافقين من يقول لك: يامحمد ائذن لي في القعود والتخلف عن القتال، ولا توقعني في الإثم والهلاك بالخروج معك، حتى لا أفتتن بنساء الروم، منتحلين الأعذار الواهية، مظهرين التمسك بالفضيلة، فيرد الله عليهم مكذباً دعواهم، كاشفاً حقيقتهم فقال: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي إنهم

---

(١) أي: أيُّ عيب أقبح منه؟ قال ابن الأثير: والصواب: أدوأ بالهمز، ولكن هكذا يروى، إلا أن يجعل من باب دوى: إذا هلك بمرض باطن.

بهذه المقالة وقعوا فعلاً في الفتنة، حين انتحلوا الأعذار الكاذبة، وقعدوا عن الجهاد، فقوله: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي في الإثم والمعصية وقعوا.

وإن نار جهنم لمحيطة بهم، لا يجدون عنها محيداً ولا محيصاً ولا مهرباً. وهذا وعيد شديد لهم بأنهم أهل جهنم؛ لكثرة خطاياهم، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٨١] .

ثم ذكر الله تعالى نوعاً آخر من كيد المنافقين وخبث باطنهم، معلماً نبيه ﷺ بعداوتهم، فقال: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ أي إن عرضت لك في بعض الغزوات حسنة، أي فتح ونصر وغنيمة، كيوم بدر، ساءهم ذلك؛ وإن أصابتك مصيبة، أي نكبة وشر وشدة كانهزام وتراجع في معركة، كما حدث يوم أحد، قالوا: قد اتخذنا ما يلزم من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم، واحترزنا من متابعته من قبل هذا الذي وقع، إذ تخلفنا عن القتال، ولم نتعرض للهلاك؛ لأنا متوقعون هذه الهزيمة، وانصرفوا إلى أهاليهم عن موضع التحدث والمفاخرة بآرائهم هذه، وهم مسرورون للنتيجة.

والحسنة: ما يسرّ النفس حصوله، والسيئة: مايسوء النفس وقوعه.

فأرشد الله تعالى رسوله إلى إجابتهم عن هذا الموقف الشامت فقال: قل لهم: لن يصيبنا أبداً إلا ماكُتب وخُطّ لنا في اللوح المحفوظ، فنحن تحت مشيئته وقدره، هو مولانا، أي ناصرنا ومتولي أمورنا ونتولاه، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ١١] فكل ماكتب لنا هو الخير والصلاح.

وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون، أي ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وحق المؤمنين ألا يتوكلوا على غير الله، فليفعلوا ماهو حقهم، ومن حقهم اتخاذ مايجب من أسباب النصر المادية والمعنوية، كإعداد العدة

اللازمة، وتوقي كل المنازعات التي تؤدي الى الفشل وتفرق الكلمة. والتوكل: تفويض الأمر إلى الله، بعد اتخاذ الأسباب المطلوبة عادة.

ثم أرشد الله تعالى إلى جواب ثانٍ عن فرح المنافقين بمصائب المؤمنين، فقال: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾أي قل لهم يامحمد: هل تنتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين الحسنتين: إما النصر والظفر، وإما الشهادة والثواب العظيم، فإن عشنا عشنا أعزة كراماً مؤمنين، وإن متنا متنا شهداء مأجورين.

أما نحن فننتظر بكم إحدى السوأتين من العواقب: إما أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، وهو قارعة من السماء، كما نزلت على عاد وثمود، أو بعذاب بأيدينا وهي السبي أو القتل على الكفر أو الإذن لنا في قتالكم، فانتظروا بنا ما ذكرنا من عواقبنا، إنا معكم منتظرون ما هو عاقبتكم، فلا بد أن يلقى كلنا ما يتربصه، لا يتجاوزه، فنحن على بيِّنة من ربِّنا، ولا بينة لكم، لا تشاهدون إلا ما يسرُّنا، ولا نشاهد إلا ما يسوؤكم، وانتظروا أنتم مواعد الشيطان، إنا منتظرون مواعد الله.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن الأعذار الكاذبة لا تخفى على الله المطَّلع على الغيوب وأسرار النفوس وخفايا ما في الصدور، فلا يغترن أحد بذكائه وفطنته في تعمية الحقائق، فإن الله كاشف كل شيء، ولكن المنافقين قوم أغرار جاهلون لا يعلمون هذه الحقيقة.

٢ - المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في الخروج معه إلى غزوة تبوك هم الواقعون في الإثم والمعصية، قال أهل المعاني في قوله: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾: فيه تنبيه على أن من عصى الله لغرض ما، فإنه تعالى يبطل

عليه ذلك الغرض، ألا ترى أن القوم إنما اختاروا القعود لئلا يقعوا في الفتنة، فالله تعالى بيَّن أنهم في عين الفتنة واقعون ساقطون.

٣ - المنافقون حصب جهنم وهم لها واردون، وهي تحيط بهم إحاطة شاملة، لا يفلت من حرها أحد منهم يوم القيامة. وقد عبَّر قوله تعالى عن ذلك ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وأفاد التعبير أنهم كانوا في أشد الخوف على أنفسهم وأموالهم وأولادهم بسبب تزايد دولة الإسلام واستعلائها وامتدادها والخوف الشديد مع الجهل الشديد أعظم العقوبات الروحانية، كما قال الرازي[١].

٤ - هناك نوع آخر من كيد المنافقين وخبث بواطنهم، وهو إساءتهم إن أصاب المؤمنين في بعض المعارك حسنة كظفر أو غنيمة، وفرحهم إن أصاب المؤمنين سيئة من نكبة وشدة ومصيبة ومكروه، ثم قولهم: قد أخذنا أمرنا الذي نحن مشهورون به، وهو الحذر والتيقظ والعمل بالحزم، من قبل وقوع ما وقع، ثم توليهم عن مقام التحدث بذلك إلى أهاليهم، وهم فرحون مسرورون.

٥ - كان الرد الحاسم الأول على كل تلك المكائد: أنه لن يصيب الإنسان خير ولا شر، ولا خوف ولا رجاء، ولا شدة ولا رخاء، إلا وهو مقدر عليه مكتوب عند الله، معلوم لله، مقضي به عند الله تعالى.

وهذا دليل في رأي أهل السنة على أن قضاء الله شامل لكل المحدثات، وإن تغير الشيء، عما قضى الله به محال.

ويؤكد مضمون الآية قوله ﷺ: «من علم سر الله في القدر، هانت عليه المصائب» .

(١) تفسير الرازي: ١٦/ ٨٤.

٦ - التوكل على الله بمعنى تفويض الأمر إليه بعد اتخاذ الأسباب من أصول الإيمان.

٧ - الجواب الثاني الحاسم عن فرح المؤمنين بمصائب المؤمنين: أن المؤمنين ينتظرون إحدى الحسنيين: إما النصر أو الشهادة، وأما المنافقون فينتظرون إحدى السوأتين: العذاب الإلهي بالإهلاك الشامل في الدنيا كما عذبت الأمم الخالية، كعاد وثمود، أو العذاب على أيدي المؤمنين بالقتل أو غيره.

إحباط ثواب المنافقين على نفقاتهم وصلواتهم وتعذيبهم في الدنيا والآخرة

﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ
﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ
وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا
تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

القراءات:

﴿كَرْهًا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: (كُرْهاً).

﴿أَن تُقْبَلَ﴾:

وقرأ حمزة والكسائي (أن يُقْبل).

الإعراب:

﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ نصب على الحال، أي طائعين أو مكرهين.

﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ فاعل منع، و﴿أَن تُقْبَلَ﴾: مفعول منع.

﴿وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة حالية.

البلاغة:

﴿أَنفِقُوا﴾: أمر في معنى الخبر، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ١٩/٧٥].

﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿أَنفِقُوا﴾ في طاعة الله كالجهاد ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ ما أنفقتموه ﴿إِنَّكُمْ﴾ تعليل لرد إنفاقهم ﴿فَاسِقِينَ﴾ الفسق: التمرد والعتو ﴿كُسَالَىٰ﴾ متثاقلون ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ النفقة؛ لأنهم يعدونها مغرماً ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أي لا تستحسن نِعَمنا عليهم، فهي استدراج ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾ أي أن يعذبهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما يلقون في جمعها من المشقة وما فيها من المصائب ﴿وَتَزْهَقَ﴾ تخرج ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فيعذبهم في الآخرة أشد العذاب.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٣):

﴿قُلْ أَنفِقُوا﴾: أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال: قال الجدّ بن قيس: إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أُفتتن، ولكن أُعينُك بمالي، قال: ففيه نزلت: ﴿أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أي لقوله: أعينك بمالي. فهذه الآية نزلت في الجدِّ بن قَيْس حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول الله ﷺ: هذا مالي أعيُنك به، فاتركني.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى عاقبة المنافقين وهي العذاب في الدنيا والآخرة، أعقب ذلك ببيان أنهم وإن أتوا بشيء من أعمال البر كالإنفاق على الجهاد، فإنهم لا ينتفعون به في الآخرة؛ لأنهم يفعلونه رياء وستراً على نفاقهم من الفضيحة.

والمقصود بيان أن أسباب العذاب في الدنيا والآخرة مجتمعة في حقهم، وأن أسباب الراحة والخير زائلة عنهم في الدنيا والآخرة، فأموالهم الكثيرة إنما هي عذاب لهم في الدارين.

والآيات من [٤٢] وما بعد هذه الآية إلى الآية [٥٩] كلها في المنافقين، ثم جاءت آية مصارف الزكاة.

التفسير والبيان:

قل أيها النبي للمنافقين: مهما أنفقتم من نفقة في سبيل الله ووجوه البر طائعين أو مكرهين، لن يتقبل منكم؛ لأنكم كفرتم بالله ورسوله، وما زلتم في شك مما جاء به الرسول من الدين والجزاء على الأعمال في الآخرة، ولأنكم قوم فاسقون أي عتاة متمردون خارجون على الإيمان، والأعمال إنما تصح بالإيمان، و﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٥/٢٧] وقوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ تعليل لرد إنفاقهم وعدم القبول منهم في الدنيا والآخرة: وهو أن عدم القبول معلل بكونهم فاسقين، أي كافرين.

وقوله: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ معناه: طائعين من غير إلزام من الله ورسوله، أو ملزمين، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم؛ لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق، لما يرون من المصلحة فيه، أو مكرهين من جهتهم.

وعدم القبول غير معلل بعموم كونه فسقاً، بل بخصوص وصفه: وهو كون

ذلك الفسق كفراً، لذا صرح الله تعالى في الآية التالية بذلك فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ﴾ أي وما منع قبول نفقاتهم إلا مجموع هذه الأمور الثلاثة: وهي الكفر بالله ورسوله، وعدم الإتيان بالصلاة إلا في حال الكسل، والإنفاق على سبيل الكراهية.

فهم كفروا بالله ورسوله وبما جاء به، والأعمال إنما تصح بالإيمان، كما ذكرت، ولا يصلون إلا وهم متكاسلون؛ لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثواباً، ولا يخشون بتركها عقاباً، فهي ثقيلة عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٥] .

ولا ينفقون نفقة في سبيل الجهاد وغيره إلا وهم كارهون لها، لا تطيب بها أنفسهم؛ لأنهم لا ينفقون لغرض الطاعة، بل رعاية للمصلحة الظاهرة، وستراً للنفاق، ويعدون الإنفاق مغرماً وخسارة بينهم. وقد أخبر النبي ﷺ أن الله لا يمل حتى تملوا، وأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء المنافقين نفقة ولا عملاً؛ لأنه إنما يتقبل من المتقين، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار، لا عن رغبة واختيار.

فلا تعجبك أيها النبي وأيها السامع أموالهم ولا أولادهم ولا سائر نعم الله عليهم، فإنما هي من أسباب المحن والآفات عليهم. والإعجاب بالشيء: السرور به مع التعجب والافتخار من حسنه، والاعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه.

أما أموالهم في الدنيا فهي سبب لتعذيبهم بها حيث يتعبون في جمعها، ويصحبها الهم والقلق، ثم ينفقونها كارهين في الجهاد والزكاة وفي سبيل الله وتقوية المسلمين، وكذلك أولادهم ربما يموتون في الحروب، فيحزنون عليهم أشد الحزن، وفي الآخرة يعذبون عذاباً شديداً، حيث يموتون على الكفر الذي يحبط العمل الصالح، وهذا من قبيل الاستدراج لهم فيما هم فيه، وتكون

النتيجة أنهم خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. والاستدراج بالنعم: الإمداد بها مع البقاء على المعصية، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٨].

فما يظنون أنه من منافع الدنيا هو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم، وبه يظهر أن النفاق مرض خطير جالب لجميع الآفات في الدين والدنيا، ومبطل لجميع الخيرات فيهما.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٣١] وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥٥-٥٦].

فقه الحياة أو الأحكام:

في الآيتين دلالة على ما يأتي:

١ً - إن أفعال الكافر الخيرية كصلة القرابة وإغاثة الملهوف قد تفيده في الدنيا بدفع ضرر أو سوء، ولكن لا يثاب عليها، ولا ينتفع بها في الآخرة. بدليل ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت: يا رسول الله، ابن جُدْعان كان في الجاهلية يَصِل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً رَبِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين». وروي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم: «إن الله لا يَظْلِمُ مؤمناً حسنة، يُعْطَى بها في الدنيا، ويُجْزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطْعَم بحسنات ما عمل لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم يكن له حسنة يُجزى بها».

والصحيح أن إفادته من حسناته في الدنيا مقيَّد بمشيئة الله المذكورة في قوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٨].

والخلاصة: أن شيئاً من أعمال البر لا يكون مقبولاً عند الله، مع الكفر بالله. أما قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧/٩٩] فيراد به بالنسبة إلى الكافر تأثير الخير في تخفيف العقاب أو العذاب عنه.

٢ً - لم تكن أعمال الخير في الظاهر، الصادرة من المنافقين عن إيمان وقناعة وطيب نفس، وإنما كانت في الواقع عن إكراه نفسي، ستراً على نفاقهم، فهم لم يؤدوا الصلاة إلا وهم كسالى متثاقلون في أدائها، ولم ينفقوا نفقة في سبيل الله كالزكاة والجهاد، لغرض الطاعة، بل رعاية للمصلحة الظاهرة؛ لأنهم يعدّون النفقة مَغْرماً، ومنعها مَغْنماً، وإذا كان الأمر كذلك فهي غير متقبّلة ولا مثاب عليها، حسبما تقدم.

٣ً - الأموال والأولاد قد تكون سبباً للعذاب في الدنيا، وقد تكون سبباً للعذاب في الآخرة. أما الأموال في الدنيا فهي عذاب على المنافقين في كسبها وفي إنفاقها، فكسبها يحتاج إلى عناء شديد، والحفاظ عليها يتطلب الحذر، ويصحبها القلق والهم، والتهديد بالضياع والخسارة، وقد تؤدي إلى قسوة القلب والطغيان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ، أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٩٦/٦-٧] وإنفاقها يكون كرهاً لا طواعية، فيعذبون بما ينفقون، وأما الأولاد فقد يموتون في الجهاد، فيعقب موتهم الحزن والغم والندم، وقد يؤمنون فيحترق الآباء غيظاً عليهم، مثل حنظلة بن أبي عامر غسلته الملائكة، وعبد الله بن عبد الله بن أبي شهد بدراً وكان من الله بمكان. وأما في الآخرة فيعذبون إذا اكتسبوا الأموال من حرام، وإذا آمن الأولاد وتبرموا من نفاق الآباء نجوا من العذاب الدائم.

حلف المنافقين الأيمان الكاذبة وانتهازهم الفرصة للطعن بالنبي ﷺ

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾
لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم
مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ
يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ
سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

القراءات:

﴿سَيُؤْتِينَا﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (سيوتينا).

الإعراب:

﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ إذا للمفاجأة، أي وإن لم يعطوا منها فاجؤوا النبي بالسخط.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا﴾ جواب (لَوْ) محذوف، تقديره: ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم.

البلاغة:

﴿رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ هنا طباق بين الرضا والسخط.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي مؤمنون ﴿يَفْرَقُونَ﴾ يخافون أن تفعلوا بهم

كالمشركين، فيحلفون تقية. والفَرَق: الخوف الشديد الذي يحجب الإدراك الصحيح ﴿مَلْجَئًا﴾ مكاناً يلتجئون إليه للاعتصام به، كالقلعة أو الحصن أو الجزيرة أو نحوها ﴿مَغَـٰرَٰتٍ﴾ سراديب، جمع مغارة: وهي الكهف أو الغار في الجبل، سمي بذلك لأنه يستتر فيها ﴿مُدَّخَلًا﴾ موضعاً يدخلونه، أو سرباً في الأرض للدخول فيه بمشقة ﴿يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون في دخوله إسراعاً لا يقاوم ﴿يَلْمِزُكَ﴾ يعيبك، والهمز: العيب في الغيبة، واللمز: العيب في الوجه، وأصله: الإشارة بالعين ونحوها، وقال الزجاج والجوهري: الهمز كاللمز وزناً ومعنى، أي لا فرق بينهما ﴿حَسْبُنَا﴾ كافينا ﴿رَٰغِبُونَ﴾ محبون أن يغنينا، يقال: رغب ورغب فيه: أحبه، ورغب عنه: كرهه، ورغب إليه: طلبه وتوجه إليه.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٨):

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾: روى البخاري والنسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ يقسم قَسْماً، إذ جاءه ذو الخُوَيْصِرة التميمي - وهو حرقوص بن زهير أصل الخوارج - فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: وَيْلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب: ائذن لي أن أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: دَعْه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يَمْرُقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة، فنزلت فيهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر نحوه. وروى ابن جرير عن داود بن أبي عاصم قال: «أُتي النبي ﷺ بصدقة، فقسمها هاهنا وهاهنا، حتى ذهبت، ورأى ذلك رجل من الأنصار، فقال: ما هذا بالعدل، فنزلت هذه الآية» ومجموع الروايات يدل على أن الطاعنين من المنافقين.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أن المنافقين جامعون لكل مضار الآخرة والدنيا، كاستئذانهم كاذبين، بيَّن هنا إقدامهم على الأيمان الكاذبة، وانتهازهم الفرصة للطعن بالنبي ﷺ، وقد طعنوا فيه بسبب أخذ الصدقات من الأغنياء، ويقولون: إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته، وينسبونه إلى أنه لا يراعي العدل.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن فزع المنافقين وهلعهم أنهم يحلفون بالله يميناً مؤكدة: إنهم لمنكم أي لمن جملة المسلمين أهل الملة والدين، وما هم منكم في نفس الأمر فليسوا على دينكم، بل هم أهل شك ونفاق، ولكنهم قوم يخافونكم فيحلفون، فالخوف من القتل هو الذي حملهم على الحلف، فأظهروا الإيمان وأسروا النفاق، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٤].

ومن مظاهر خوفهم أنهم يتمنون الفرار منكم والمعيشة بعيداً عنكم، فلو وجدوا مفراً يتحصنون فيه آمنين على أنفسهم منكم، لفروا إليه ولفارقوكم.

ولو وجدوا ملجأ، أي مكاناً يتحصن فيه، أو مغارة أي كهفاً في الجبال، أو مُدّخلاً أي سرباً تحت الأرض كالآبار والقنوات، لولّوا إليه أي رجعوا إليه من أحد هذه المواضع مع أنها شر الأمكنة، وهم يجمحون أي يسرعون إسراعاً في ذهابهم عنكم على نحو لا يقاوم؛ لأنهم إنما يعيشون معكم كرهاً لا محبة ووداً، ولكنْ للضرورة أحكام. ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم؛ لأن الإسلام وأهله في تقدم ورفعة، وعز ونصر، وذلك كله يسوؤهم.

ومن المنافقين من يعيب عليك ويطعن بك يا محمد في قسمة الصدقات وهي

إما المغانم أو أخذ الصدقات من الأغنياء وهي أموال الزكاة المفروضة، قيل: هم المؤلفة قلوبهم كان يعطيهم النبي ﷺ للتأليف، وقيل: هو ابن ذي الخوَيْصِرة رأس الخوارج، كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال صلوات الله وسلامه عليه: «ويلك إن لم أعدل فمن يعدل؟!».

وقيل: هو أبو الجوَّاظ من المنافقين قال: ألا ترون إلى صاحبكم؟ إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم، وهو يزعم أنه يعدل، فقال رسول الله ﷺ: «لا أبا لك، أما كان موسى راعياً، أما كان داود راعياً؟» فلما ذهب، قال عليه الصلاة والسلام: « احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون ».

ثم وصفهم الله تعالى بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم، لا للدين، وما فيه صلاح أهله؛ لأن رسول الله ﷺ استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم، فضجر المنافقون منه. فقال تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾ أي إن أعطوا من الزكاة أو من الغنائم ولو بغير حق رضوا، وإن لم يعطوا منها فاجؤوك بالسخط، وإن لم يستحقوا العطاء، فهم إنما يغضبون لأنفسهم ولمنافعهم، لا للمصلحة العامة، فليس طعنهم أو نقدهم بريئاً، ولكن لهدف خاص.

ولو أنهم رضوا ما أعطاهم الرسول من الغنائم وطابت به نفوسهم، وإن قلّ نصيبهم، وقالوا: كفانا فضل الله وصنعه، وحسبنا ما أصبناه، وسيرزقنا الله غنيمة أخرى، فيؤتينا رسول الله ﷺ أكثر مما آتانا اليوم، إنَّا إلى الله في أن يمنحنا من فضله لراغبون، لا نرغب إلى غيره أبداً.

وقد تضمنت هذه الآية أدباً عظيماً حيث إنها ترشدهم وتعلمهم الرضا بما آتاه الله ورسوله، والتوكل على الله وحده، وهو قوله: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾.

والمقصود إنما هو التعليم بأن يرضوا بنعمة الله، وبقسمة الرسول، فهو لا يفعل إلا العدل وما فيه المصلحة العامة للإسلام وأهله، وما على المؤمن إلا أن يرضى بما قسمه الله له، ولا يطمع بأكثر من ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يلي:

١ً - إن من أخلاق المنافقين الحلف بأنهم مؤمنون، والإقدام على الأيمان الكاذبة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ١] .

٢ً - المنافقون جماعة حيارى مضطربون قلقون كارهون العيش في الحقيقة مع المؤمنين، خوفاً من افتضاح أمرهم، ويخافون أن يظهروا على ما هم عليه فيُقتلوا، لذا يتمنون النجاة بأنفسهم واللجوء إلى شر الأمكنة كالحصون (الملاجئ) والمغارات (الكهوف في الجبال) والمداخل (السراديب المحفورة تحت الأرض).

٣ً - ومن أسوأ أخلاق المنافقين وقبائحهم وفضائحهم طعنهم في الرسول ﷺ بسبب أخذ الصدقات المفروضة من الأغنياء، ويقولون: إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته، أو بسبب قسمة غنائم الحرب المغنومة من الأعداء، كغنائم حنين التي تألف بها النبي المؤلفة قلوبهم من أهل مكة، وينسبونه إلى أنه لا يراعي العدل.

٤ً - تدل الآية على أن من طلب الدنيا وحدها آل أمره إلى النفاق، وأما من طلب الدنيا بقدر ما أذن الله فيه، وكان غرضه من الدنيا أن يتوسل إلى مصالح الدين، فهذا هو الطريق الحق. والأصل في هذه الأمور المادية الرضا بقضاء الله وقدره، بعد اتخاذ الأسباب، لذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ

ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾».

٥ً - اشتملت هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ﴾ على مراتب أربع:

الأولى - الرضا بما آتاهم الله ورسوله؛ لأنه تعالى حكيم منزه عن العبث والخطأ، فحكمه حق وصواب.

الثانية - أن تظهر آثار الرضا على اللسان، وهو قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي الرضا بحكم الله وقضائه.

الثالثة - أن يقول الإنسان إن لم يقل: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي إما في الدنيا أو في الآخرة.

الرابعة - أن يقول: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ أي لا نبغي بالإيمان مكاسب الدنيا من مال وجاه، وإنما نريد الفوز بسعادة الآخرة.

مصارف الزكاة الثمانية

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ﴾:

وقرأ ورش، وحمزة وقفاً: (والموَلَّفة).

الإعراب:

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ منصوب بفعل مقدر، وهو في معنى المصدر المؤكد

لما دلت عليه الآية، أي فرض الله لهم الصدقات فريضة، أو حال من الضمير المستكن في ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ وقرئ بالرفع على تقدير: تلك فريضة.

البلاغة:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كلاهما بصيغة فعيل التي هي للمبالغة، أي واسع العلم، عالي الحكمة يضع الأشياء في مواضعها.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ الزكوات المفروضة مصروفة لهؤلاء الثمانية، أفادت اللام وجوب إعطائها لهم، وأنها مختصة بهم لا تتجاوزها إلى غيرهم، فظاهر الآية يقتضي تخصيص استحقاق الزكاة بالأصناف الثمانية ووجوب الصرف إلى كل صنف وجد منهم، ومراعاة التسوية بينهم بسبب الاشتراك في الحق. وهو مذهب الشافعي رضي الله عنه. وعن عمر وحذيفة وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين جواز صرفها إلى صنف واحد، وبه قال الأئمة الثلاثة.

والمعنى: إنما الزكوات مستحقة لهؤلاء المعدودين دون غيرهم، وهو دليل على أن المراد باللمز في الآية السابقة لمزهم في قسم الزكوات دون الغنائم.

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ الفقير: من لا مال له ولا كسب يقع موقعاً من حاجته، من الفقار كأنه أصيب فقاره. ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ المسكين: من له مال أو كسب لا يكفيه، من السكون كأن العجز أسكنه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ [الكهف: ١٨/٧٩] وأنه عليه الصلاة والسلام كان يسأل المسكنة، ويتعوذ من الفقر. وقيل: المسكين: هو عديم المال، لقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ٩٠/١٦] والمسألة خلافية بين الشافعية والحنفية. والفقر والمسكنة يتحددان بما دون الحد الأدنى اللازم للمعيشة، بحسب كل زمان ومكان.

﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ الساعين في تحصيلها وجمعها وهم الجباة. ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة بالإسلام فتستألف قلوبهم، أو هم أشرافٌ قد يترقب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نظرائهم، وقد أعطى رسول الله ﷺ عُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، والعباس بن مِرْداس لذلك. وقيل: أشراف يستألفون على أن يسلموا، فإنه عليه الصلاة والسلام يعطيهم، والأصح أنه كان يعطيهم من خمس الخمس الذي كان خاص ماله من الغنائم.

وقد عدّ منهم من يؤلف قلبه بشيء منها على قتال الكفار ومانعي الزكاة، فهم أقسام: إما أن يعطوا ليسلموا، أو يثبت إسلامهم، أو يسلم نظراؤهم، أو يدافعوا عن المسلمين. والأول والأخير لا يعطيان اليوم عند الشافعي رضي الله عنه؛ لعز الإسلام، بخلاف الآخرين، فيعطيان على الأصح.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي وفي فك المكاتبين، بأن يعاون المكاتب بشيء من الزكاة على أداء الأقساط (النجوم) أو بأن يبتاع الرقاب فتُعتق، وبه قال مالك وأحمد، أو بأن يفدى الأسارى. والعدول عن اللام إلى (في) للدلالة على أن الاستحقاق للجهة، لا للرقاب.

﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾ المديونين إن استدانوا لأنفسهم في غير معصية ولا إسراف ولم يكن لهم وفاء للديون، أو استدانوا لإصلاح ذات البين ولو أغنياء؛ لقوله ﷺ فيما رواه أبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري: «لا تحل الصدقة إلا لخمسة: لغاز في سبيل الله، أو لغارم، أو رجل اشتراها بماله، أو رجل له جار مسكين فتصدق على المسكين، فأهدى المسكين للغني، أو لعامل عليها».

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي القائمين بالجهاد ولو أغنياء، أو للصرف في مصالح الجهاد بالإنفاق على المتطوعة وشراء السلاح. وقيل: وفي بناء القناطر والمصانع.

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ المسافر المنقطع في سفره عن ماله.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فرض الله ذلك فريضة، ليس لأحد فيها رأي.

المناسبة:

لما لمز المنافقون الرسول ﷺ في الصدقات، بيَّن لهم أن مصرف الصدقات هؤلاء الأصناف الثمانية، فلا يبقى لأحد حق الاعتراض أو النقد والطعن في الرسول ﷺ بسبب أخذ الصدقات. فهم مخطئون في اعتراضهم، والرسول ﷺ محق فيما صنع، والآية قاضية على أطماعهم.

وورود الآية ضروري أيضاً لبيان طريق الحق والعدل في صرف الزكاة، فلا يجور الأغنياء، وليس لهم أن يتحايلوا في صرفها إلى غير هؤلاء المستحقين، كما أن الآية تنبيه وتذكير دائم بهؤلاء المحتاجين، وحمل للأغنياء على إعطاء حقوق الله في أموالهم دون أن يكون لهم منَّة، وحدّ من أطماعهم وحبهم للمال.

وأما السبب في ذكر هذه الآية بين آيات المنافقين ومكايدهم فللتنبيه على أنهم ليسوا من مستحقي الزكاة، حسماً لأطماعهم، وإشعاراً باستحقاقهم الحرمان، وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها.

التفسير والبيان:

إنما مصارف الزكاة الواجبة لهؤلاء الأصناف الثمانية، وقد أفادت ﴿إِنَّمَا﴾ حصر الصدقات في هذه الأصناف، دون غيرهم.

والدليل على أن المراد بالصدقات هنا هو الزكوات الواجبة: أن (أل) في الصدقات للعهد الذكري، والمعهود هو الصدقات الواجبة المشار إليها في الآية المتقدمة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ ولأن الله أثبت الحق في هذه الصدقات بلام التمليك للأصناف الثمانية، والمملوك لهم إنما هو الزكاة الواجبة؛ ولأنه ذكر في الآية سهماً للعاملين، والعمال يوظفون لجباية

الصدقات الواجبة لا المندوبة، ولأن الصدقات المندوبة يجوز صرفها في غير هذه الأصناف. والزكوات الواجبة هي زكاة النقود والأنعام والزروع والتجارة.

وقد أوجب الإمام الشافعي صرف جميع الصدقات الواجبة من الفطرة وزكاة الأموال إلى الأصناف الثمانية؛ لأن الآية أضافت جميع الصدقات إليهم بلام التمليك، وشرَّكت بينهم بواو التشريك، وحصرت صرفها في الأصناف الثمانية؛ لأن لفظة ﴿إِنَّمَا﴾ تقتضي الحصر فيهم، فدلت الآية على أن الصدقات كلها مملوكة لهم، مشتركة بينهم. ولا يجوز الصرف لأقل من ثلاثة أشخاص من كل صنف؛ لأن أقل الجمع ثلاثة.

وأجاز الأئمة الثلاثة الآخرون صرفها إلى صنف واحد، وإلى شخص واحد من كل صنف في رأي أبي حنيفة ومالك؛ لأن الآية للتخيير في هذه الأصناف دون غيرهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧١] وقوله ﷺ فيما رواه الجماعة عن معاذ بن جبل: «أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم، وأردها إلى فقرائكم» والمذكور فقط في الآية والحديث هو صنف واحد وهم الفقراء.

ودليلهم على جواز الاقتصار على شخص واحد: هو أن (أل) في الجمع المعرف هنا مجاز في الجنس، أي جنس الصدقة لجنس الفقير، وجنس الفقير يتحقق بواحد، فتصرف إليه. وتحمل (أل) على المجاز؛ لتعذر حملها على الحقيقة، وهو استغراق جميع الفقراء، وإعطاء الصدقة لكل فقير.

والسر في التعبير باللام المفيدة للملك في ستة أصناف (وهم الفقراء والمساكين والعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، والغارمون، وابن السبيل) أن أصحابها أشخاص يملكون. وأما التعبير بـ (في) في صنفين (وهما: في الرقاب، وفي سبيل الله) فلأن المراد الجهة أوالأوصاف والمصالح العامة للمسلمين،

وليس المراد الأشخاص، وللإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره، فالتعبير بفي في قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فيه ترجيح لهذين الصنفين على الرقاب والغارمين.

وأما بيان الأصناف الثمانية فهو فيما يأتي:

١ - الفقراء: وهم المحتاجون غير الأغنياء، الذين لا يجدون كفايتهم.

٢ - المساكين: وهم فئة أخرى من المحتاجين.

وقد اختلف الفقهاء فيمن هو أسوأ حالاً: الفقير أم المسكين، فقال الشافعية والحنابلة: الفقير أسوأ حالاً من المسكين، فهو المعدم الذي لا يملك شيئاً من مال ولا كسب يغطي حاجته، وأما المسكين: فهو من يملك أقل من كفايته. وقال الحنفية والمالكية: المسكين أسوأ حالاً من الفقير.

وليس للخلاف ثمرة في الزكاة، وإنما تظهر فائدة الخلاف في الوصية للفقراء دون المساكين أو العكس، وفيمن أوصى بشيء للفقراء وبشيء آخر للمساكين.

وأدلة الشافعية والحنابلة هي: أنه تعالى قدم الفقراء؛ لأنهم أحوج من غيرهم، وأنه تعالى بقوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: ١٨/٧٩] وصف بالمسكنة من له سفينة، وأنه ﷺ كان يتعوذ من الفقر، ويقول فيما رواه الحاكم عن أبي سعيد الخدري: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين» ولا يعقل أن يتعوذ من شيء، ثم يسأل حالاً أسوأ منه، فالمسكين يملك شيئاً؛ وقد نقل جماعة من أهل اللغة كابن الأنباري: أن المسكين: الذي له ما يأكل، والفقير: الذي لاشيء له. وقالوا: والفقير: معناه في كلام العرب: الذي نزعت بعض فقرات ظهره من شدة الفقر، فلا حال أشدّ من هذه.

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس

المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس، فترده اللُّقْمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطَنَ له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً».

وأدلة الحنفية والمالكية على أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير هي: أنه تعالى وصفه بقوله: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١٦/٩٠] أي ألصق جلده بالتراب لمواراة جسده، مما يدل على شدة حاجته؛ وأن بعض أهل اللغة كالأصمعي وابن السِّكِّيت قالوا: المسكين: الذي لا شيء له، والفقير: هو الذي له بعض ما يكفيه؛ وأن المسكين: هو الذي يسكن حيث يحل، مما يدل على نهاية الضرر والبؤس.

والظاهر أن المنقول في اللغة متعارض، فيعذر الفريقان فيما ذهبا إليه، وهما متفقان على أنهما صنفان. وروي عن أبي يوسف ومحمد: أنهما صنف واحد. وفائدة الخلاف: تظهر فيمن أوصى بثلث ماله لفلان وللفقراء والمساكين؛ فمن قال: هما صنف واحد قال: يكون لفلان نصف الثلث وللفقراء والمساكين النصف الآخر، ومن جعلهما صنفين قسم الثلث بينهم أثلاثاً.

حدّ الفقر الذي يجوز معه الأخذ:

أجمع العلماء على أن من له دار وخادم لا يستغني عنهما: أن له أن يأخذ من الزكاة، وللمعطي أن يعطيه. واختلفوا فيما عدا ذلك. فقال أبو حنيفة: من معه عشرون ديناراً أو مئتا درهم (نصاب الزكاة) فلا يأخذ من الزكاة. فاعتبر النصاب، لقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه الجماعة عن معاذ: «أُمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم، وأردّها في فقرائكم».

وقال أحمد والثوري وإسحاق وغيرهم: لا يأخذ من له خمسون درهماً أو قدرها من الذهب، ولا يعطى منها أكثر من خمسين درهماً إلا أن يكون

غارماً؛ لما رواه الدارقُطني عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لرجل له خمسون درهماً» لكن في إسناده ضعف.

والمشهور عن مالك: ما رواه ابن القاسم عنه أنه سئل: هل يُعطَى من الزكاة من له أربعون درهماً؟ قال: نعم. والفقير عند المالكية: هو من ملك من المال أقل من كفاية السنة.

وقال الشافعي وأبو ثور: من كان قوياً على الكسب والتحرّف، مع قوة البدن وحسن التصرف، حتى يغنيه ذلك عن الناس، فالصدقة عليه حرام؛ لما أخرجه أبو داود والترمذي والدارقطني عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «لا تحلّ الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّة سوي»[1].

هل تعطى الزكاة للكفار وآل البيت؟

ظاهر الآية وإطلاق اللفظ يقتضي إعطاء الزكاة لمن اتصف بصفة الفقير والمسكين، سواء في ذلك آل البيت وغيرهم، وسواء الأقارب وغيرهم، والمسلمون والكفار، ولكن رأى الفقهاء أن الزكاة محصورة في المسلمين، فلا يجوز دفع شيء منها إلى كافر؛ لما جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فتردّ على فقرائهم».

وأباح أبو حنيفة رحمه الله دفع الفطرة إلى الكفار؛ لأن الحديث مختص بالزكاة.

وكذلك رأى الفقهاء أنه لا يجوز دفع الزكاة إلى من تلزم المزكي نفقته من الأقارب (وهم الأصول والفروع) والزوجات؛ لأن الزكاة لدفع الحاجة، ولا حاجة بهم مع وجود النفقة لهم، ولأنه بالدفع إليهم يجلب لنفسه نفعاً.

---

(١) المرّة: القوة والشدة، والسوي: الصحيح الأعضاء.

واتفق العلماء على أنه لا يجوز دفع الزكاة إلى هاشمي؛ لما رواه مسلم عن المطّلب بن ربيعة أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذه الصدقة إنما هي أوساخ الناس، وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد».

ولم يجز الشافعي أيضاً دفعها إلى مطّلبي؛ لما رواه البخاري عن جبير بن مُطْعِم أن رسول الله ﷺ قال: «إن بني هاشم وبني المطلب شيء واحد، وشبَّك بين أصابعه».

مقدار ما يعطى للفقير والمسكين:

للعلماء آراء متفاوتة في ذلك، فرأى أبو حنيفة: أنه لا يزاد على النصاب، أي أنه يكره أن يعطى إنسان من الزكاة مئتي درهم.

وذهب مالك إلى أن الأمر راجع إلى الاجتهاد، وأجاز مع الإمام أحمد إعطاء ما يكفي سنة.

ورأى الشافعي أنه يعطى الفقير والمسكين ما تزول به حاجته؛ لأن المقصود من الزكاة سدّ الحاجة.

نقل الزكاة لفقراء بلد آخر:

للعلماء رأيان: فذهب الجمهور إلى أنه لا يجوز نقل الزكاة عن البلد الذي فيه المال إلى بلد آخر، لكن أجاز المالكية والشافعية والحنابلة نقلها إلى بلد آخر دون مسافة القصر (٨٩ كم) لأنه في حكم موضع الوجوب. وأوجب الشافعية نقلها إلى أقرب البلاد لبلد الوجوب إذا لم توجد الأصناف الثمانية في بلد الزكاة، أو فضل شيء عن بعض منهم.

وأباح ابن القاسم وسُحْنون نقلها لبلد آخر لضرورة أو حاجة شديدة؛ فإن

الحاجة إذا نزلت وجب تقديمها على من ليس بمحتاج، «والمسلم أخو المسلم، لا يُسْلِمُه[١]، ولا يظلمه» قال ابن العربي: وهو الصحيح.

وقال الحنفية: يكره تنزيهاً نقل الزكاة من بلد إلى آخر إلا أن ينقلها إلى قرابته المحتاجين ليسد حاجتهم، أو إلى قوم هم أحوج إليها وأصلح أو أورع أو أنفع للمسلمين، أو من دار الحرب إلى دار الإسلام، أو إلى طالب علم، أو إلى الزهاد، أو كانت معجلة قبل تمام الحول، فلا يكره نقلها. ولو نقلها لغير هذه الأحوال جاز؛ لأن المصرف مطلق الفقراء. والدليل قول معاذ لأهل اليمن: إيتوني بخميس[٢] أو لَبِيس آخذه منكم مكان الذرة والشعير في الصدقة، فإنه أيسر عليكم، وأنفع للمهاجرين بالمدينة. وقد دلَّ هذا الحديث على أمرين:

أحدهما - نقل الزكاة من اليمن إلى المدينة، فيتولى النبي ﷺ قسمتها، ويُعْضد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ ولم يفرق بين فقير بلد وفقير آخر.

والثاني - أخذ القيمة في الزكاة. وهو رأي الحنفية؛ لأن المقصود من الزكاة سدّ حاجة الفقراء، وأي شيء سدّ حاجتهم جاز، وقال الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ ولم يخص شيئاً من شيء.

ولم يجز الجمهور إخراج القيمة في شيء من الزكاة؛ لأن الحق لله تعالى، وقد علقه على ما نص عليه، فلا يجوز نقل ذلك إلى غيره، كالأضحية لما علقها على الأنعام، لم يجز نقلها إلى غيرها، وإنما يجب العلم بالمنصوص عليه.

---

(١) أي لا يتركه مع من يؤذيه، بل يحميه. والحديث رواه أبو داود عن سويد بن حنظلة.

(٢) الخميس: لفظ مشترك: وهو هنا الثوب طوله خمسة أذرع، وأول من عمله الخِمْس أحد ملوك اليمن.

والمعتبر عند الحنفية والشافعية والحنابلة في زكاة المال: المكان الذي فيه المال، والمعتبر في صدقة الفطر مكان وجود الصائم.

وعند المالكية قولان: قول يعتبر مكان المال وقت تمام الحول، فتفرق الصدقة فيه، وقول يعتبر مكان المالك، إذ هو المخاطب بإخراج الزكاة، فصار المال تبعاً له.

ومن أعطى فقيراً مسلماً، ثم تبين له أنه عبد أو كافر أو غني، أجزأه على الأصح عند مالك، بدليل حديث مسلم عن أبي هريرة المتضمن قبول الصدقة على زانية وغني وسارق، ولأن المطلوب منه الاجتهاد في المعطى، فإذا اجتهد وأعطى من يظنه من أهل الزكاة، فقد أتى بالواجب عليه.

ومن أخرج الزكاة عند حلول الحول، فهلكت من غير تفريط، لم يضمن عند المالكية؛ لأنه وكيل للفقراء. فإن أخرجها بعد ذلك بمدة، فهلكت ضمن؛ لتأخيرها عن محلّها، فتعلقت بذمته، فلذلك ضمن.

وإذا كان الإمام يعدل في الأخذ والصرف، لم يَسُغ للمالك أن يتولى الصرف بنفسه في الناضّ[1] ولا في غيره.

٣ - **العاملون عليها**: وهم السُّعاة والجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة بالتوكيل على ذلك. روى البخاري عن أبي حُميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأسْد على صدقات بني سُليم يُدعى ابن اللُّتْبِيَّة، فلما جاء حاسبه.

واختلف العلماء في المقدار الذي يأخذونه على ثلاثة أقوال:

(١) الناض من المال: هو الدرهم والدينار، وإنما يسمى ناضاً إذا تحوّل نقداً بعد أن كان متاعاً، أي صار ذا سيولة.

الأول - قال مجاهد والشافعي: هو الثمن، فإن زادت أجرتهم على سهمهم، تمم لهم من بيت المال، وقيل: من سائر السهمان. وهذا رأي موافق لظاهر الآية.

الثاني - قال الحنفية والمالكية: يُعْطَون قدر عملهم من الأجرة؛ لأنهم عطّلوا أنفسهم لمصلحة الفقراء، فكانت كفايتهم وكفاية أعوانهم في مال الفقراء. وإذا استغرقت كفايتهم الزكاة، فلا يزيدهم الحنفية على النصف، ويعطون الوسط.

الثالث - يُعطون من بيت المال، وهو قول ضعيف الدليل؛ فإن الله سبحانه أخبر بسهمهم في الزكاة، فكيف لا يعطونه؟

والذي يعطى للعامل هو بمنزلة الأجرة على العمل، فيعطاها ولو كان غنياً، لذا فإنه يعطاها ولو كان هاشمياً في رأي مالك والشافعي؛ لأن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب مصدّقاً، وبعثه عاملاً إلى اليمن على الزكاة، وولّى جماعة من بني هاشم، وولى الخلفاء بعده كذلك، ولأن العامل أجير على عمل مباح، فوجب أن يستوي فيه الهاشمي وغيره كسائر الصناعات.

وقال أبو حنيفة: لا يعطى العامل الهاشمي؛ لأن سهمه جزء من الصدقة، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم عن المطّلب بن ربيعة: «إن الصدقة لا تحلّ لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس».

ودلَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ على أن كل ما كان من فروض الكفايات كالساعي والكاتب والقسَّام والعاشر والعريف والحاسب وحافظ المال، يجوز للقائم به أخذ الأجرة عليه. ومن ذلك الإمامة، فإن الصلاة وإن كانت فرضاً عينياً على كل واحد، فإن التفرغ للإمامة من فروض الكفايات، كما ذكر القرطبي.

ودلَّ هذا القول أيضاً على أنه يجب على الإمام أن يبعث السعاة لأخذ الصدقة (الزكاة)؛ لأن بعض من يملك المال لا يعرف ما يجب عليه، وبعضهم قد يبخل، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الصدقات. وروى أبو داود عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: ولى رسول الله ﷺ رجلاً من بني مخزوم على الصدقة.

والنص على العامل في الآية يدل على أن أخذ الزكاة إلى الإمام، ويجب دفعها له، ولا يجزي رب المال أن يعطيها إلى المستحقين، ويؤكده قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ٩/١٠٣] .

لكن يعارض ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٢٤-٢٥] والحق يجوز لمن يجب عليه دفعه للسائل والمحروم مباشرة. لذا فصل العلماء فقالوا:

أ - إن كان مال الزكاة خفياً (باطناً) كالنقود: فيجوز بالإجماع للمالك أن يفرقه بنفسه أو أن يدفعه إلى الإمام.

ب - وإن كان مال الزكاة ظاهراً كالماشية والزرع والثمر: فيجب دفعه إلى الإمام في رأي الجمهور؛ لأن حق المطالبة فيه للإمام، فيدفع إليه كالخراج والجزية.

وقال الشافعي في الجديد: يجوز للمالك توزيعه بنفسه؛ لأنه زكاة كزكاة المال الخفي.

٤ً - المؤلفة قلوبهم: وهم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام، يُتألّفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم. وهم نوعان: مسلمون وكفار، يعطون ليتقوى إسلامهم.

أما الكفار حال كونهم كفاراً: فيعطون من الزكاة في مذهب الحنابلة

والمالكية، ترغيباً في الإسلام؛ لأن النبي ﷺ «أعطى المؤلفة قلوبهم من المسلمين والمشركين»(١).

ولا يعطون من الزكاة في مذهب الحنفية والشافعية، لا لتأليف ولا لغيره؛ لأن إعطاءهم في صدر الإسلام إنما كان في حال قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم، وقد أعزَّ الله الإسلام وأهله، واستغنى بهم عن تألف الكفار، ولم يعطهم الخلفاء الراشدون بعد النبي ﷺ، قال عمر رضي الله عنه: «إنا لا نعطي على الإسلام شيئاً، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر».

وأما المسلمون من المؤلفة: فهم أصناف، يعطون لتثبيت إسلامهم:

أولاً - ضعفاء النية في الإسلام: يعطون ليتقوى إسلامهم.

ثانياً - الشريف المسلم في قومه الذي يتوقع بإعطائه إسلام نظرائه، فقد أعطى النبي ﷺ أبا سفيان بن حرب وآخرين، وأعطى الزبرقان بن بدر وعدي ابن حاتم، لشرفهما في قومهما.

ثالثاً - المقيم في ثغر من ثغور المسلمين المجاورة للكفار، ليكفينا شر من يليه من الكفار بالقتال.

رابعاً - من يجبي الصدقات من قوم يتعذر إرسال ساع إليهم، وإن لم يمنعوها. وقد ثبت أن أبا بكر أعطى عدي بن حاتم حين قدم عليه بزكاته وزكاة قومه عام الردة.

وهل بقي سهم المؤلفة قلوبهم أو نسخ؟ رأيان:

قال الحنفية ومالك: قد سقط سهم المؤلفة بانتشار الإسلام وقوته، فيكون عدد الأصناف من بعد صدر الإسلام وإلى الآن سبعة لا ثمانية، ويكون سقوط

(١) نيل الأوطار: ٤/١٦٦

هذا السهم من قبيل انتهاء الحكم بانتهاء علته، كانتهاء جواز الصوم بانتهاء وقته وهو النهار.

وقال الجمهور منهم العلامة خليل من المالكية: حكم المؤلفة قلوبهم باق لم ينسخ، فيعطون عند الحاجة، ويحمل ترك عمر وعثمان وعلي إعطاءهم على عدم الحاجة إلى إعطائهم في خلافتهم، لا لسقوط سهمهم، فإن الآية من آخر ما نزل من القرآن، ولأن المقصود من إعطائهم ترغيبهم في الإسلام، لا لإعانتهم لنا، حتى يسقط بانتشار الإسلام.

والخلاصة: إن هذا السهم حق للإمام يفعل فيه ما يراه محققاً للمصلحة.

٥ - وفي الرقاب: أي في فكِّ الرقاب، كما قال ابن عباس وابن عمر، أي إن فيه محذوفاً، والمراد به عند أكثر العلماء: المكاتَبون[1] المسلمون الذين لا يجدون وفاء ما يؤدون لسادتهم، ولو مع القوة والتكسب؛ لأنه لا يمكن الدفع إلى الشخص الذي يراد فكّ رقبته إلا إذا كان مكاتَباً، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٢٤/٣٣] إلا أن أبا حنيفة وأصحابه قالوا: لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة، ولكن يعطى منها في رقبة، ويعاون بها مكاتب؛ لأن قوله: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ يقتضي مشاركة المزكي في عتق الرقبة، لا أن يستقل بالعتق.

وقال المالكية: يشترى بسهمهم رقيق، فيعتق؛ لأن كل موضع ذكرت فيه الرقبة: يراد بها عتقها، والعتق والتحرير لا يكون إلا في القن (العبد الخالص العبودية) كما في الكفارات. ويكون ولاؤهم لبيت المال.

وقد ورد حديث يدلُّ على جواز عتق الرقبة وإعانة المكاتَب معاً، روى أحمد

(١) المكاتب: من كاتبه سيده على أقساط معينة، فإذا وفاهاصارحراً. والكتابة مندوبة لقوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٢٤/٣٣] من أجل تحرير الرقاب.

والبخاري والدارقطني عن البراء بن عازب قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: دُلَّني على عمل يقرِّبني من الجنة، ويباعدني عن النار، فقال: «أعتق النسمة، وفكّ الرقبة» فقال: يا رسول الله، أو ليستا واحدة؟ قال: «لا، عِتق النسمة، أن تنفرد بعتقها، وفكُّ الرقبة: أن تُعين في ثمنها». وشرط إعطاء المكاتَب، هو كونه مسلماً محتاجاً.

وقال بعض العلماء كابن حبيب المالكي: يفدى من هذا السهم الأسارى، ويؤخذ بهذا القول اليوم لإنهاء الرِّق في العالم.

٦ - **الغارمون**: وهم المدينون الذين ركبهم الدَّيْن ولا وفاء عندهم به، سواء استدان المدين في رأي الشافعية والحنابلة لنفسه أو لغيره، وسواء كان دينه في طاعة أو في معصية. فإن استدان لنفسه لم يعطَ إلا إذا كان فقيراً، وإن استدان لإصلاح ذات البين، ولو بين أهل الذمة، بسبب إتلاف نفس أو مال أو نهب، فيعطى من سهم الغارمين، ولو كان غنياً؛ لقوله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لغاز في سبيل الله، أو لعامل عليها، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل له جار مسكين، فتصدق على المسكين، فأهدى المسكين إليه»(١).

وقال الحنفية: الغارم: من لزمه دين، ولا يملك نصاباً فاضلاً عن دَيْنه، أي إنه الفقير.

وقال المالكية: الغارم: هو من فدحه الدين للناس في غير سفه ولا فساد، أي من ليس عنده ما يوفي به دينه، أي إنه الفقير، إذا كان الدين في غير معصية كشرب خمر وقمار، ولم يستدن لأخذ الزكاة، كأن يكون عنده ما يكفيه وتوسع في الإنفاق بالدين لأجل أن يأخذ من الزكاة، فلا يعطى منها؛ لأنه قصد

(١) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

مذموم، بخلاف فقير استدان للضرورة، ناوياً الأخذ من الزكاة، فإنه يعطى قدر دينه منها لحسن قصده. لكن إن تاب من استدان لمعصية، أو بقصد ذميم، فإنه يعطى على الأحسن.

وقال الجمهور: يقضى من الزكاة دين الميت؛ لأنه من الغارمين؛ قال ﷺ: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه: من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك دَيْناً أو ضَياعاً[١] فإليَّ وعلي»[٢].

٧ - **وفي سبيل الله:** وهم في رأي الجمهور الغُزاة المجاهدون الذين لا حق لهم في ديوان الجند، يُعطون ما ينفقون في غزوهم، كانوا أغنياء أو فقراء؛ لأن السبيل عند الإطلاق هو الغزو، وهو المستعمل في القرآن والسنة. وأما من له شيء مقدر في الديوان فلا يعطى؛ لأن من له رزق راتب يكفيه، فهو مستغن به. ولا يحج أحد بزكاة ماله، ولا يغزو بزكاة ماله، ولا يُحج بها عنه، ولا يُغزى بها عنه، لعدم الإيتاء المأمور به. وعلى هذا الرأي: لا يعطى الجيش الحالي من الزكاة لأن الجنود والضباط تصرف لهم اليوم رواتب شهرية دائمة، وإنما يمكن المساهمة عند الضرورة أو الحاجة العامة في شراء السلاح، أو إعطاء المتطوعة في الجهاد.

وقال أبو حنيفة: لا يعطى الغازي في سبيل الله إلا إذا كان فقيراً.

وقال أحمد في أصح الروايتين عنه: الحج في سبيل الله، فيعطى مريد الحج من الزكاة؛ لما روى أبو داود عن ابن عباس: «أن رجلاً جعل ناقة في سبيل الله، فأرادت امرأته الحج، فقال لها النبي ﷺ: اركبيها، فإن الحج من سبيل

(١) الضياع: مصدرضاع، فسمي العيال بالمصدر، كما تقول: من مات وترك فقراً، أي فقراء.

(٢) رواه أحمد والشيخان والنسائي والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو صحيح.

الله» ، وأجاب الجمهور بأن الحج سبيل الله، ولكن الآية محمولة على الجهاد، قال مالك: سبل الله كثيرة، وقال ابن العربي: ولكني لا أعلم خلافاً في أن المراد بسبيل الله ههنا الغزو، ومن جملة سبيل الله، إلا ما يؤثر عن أحمد وإسحاق فإنهما قالا: إنه الحج.

وفسر بعض الحنفية سبيل الله بطلب العلم، وفسره الكاساني بجميع القُرَب، فيدخل فيه جميع وجوه الخير مثل تكفين الموتى وبناء القناطر والحصون وعِمارة المساجد؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عام في الكل.

والخلاصة: المراد بسبيل الله: إعطاء المجاهدين ولو كانوا أغنياء عند الشافعية، وبشرط كونهم فقراء عند الحنفية، والحج من سبيل الله عند أحمد والحسن وإسحاق. واتفق العلماء إلا ما يروى عن بعضهم أنه لا يجوز صرف الزكاة لبناء المساجد والجسور والقناطر وإصلاح الطرقات، وتكفين الموتى، وقضاء الدين، وشراء الأسلحة ونحو ذلك من القُرَب التي لم تذكر في الآية، مما لا تمليك فيه.

٨ - **ابن السبيل:** هو المسافر المنقطع في أثناء الطريق عن بلده، أو الذي يريد السفر في طاعة غير معصية، فيعجز عن بلوغ مقصده إلا بمعونة. والطاعة: مثل الحج والجهاد وزيارة مندوبة. وأما السفر المباح كالرياضة والسياحة فلا يعطى في رأي بعض الشافعية لعدم حاجته، ويعطى في رأي آخرين بدليل جواز القصر والفطر له.

ويعطى ابن السبيل ما يبلغ به مقصده إذا كان محتاجاً في سفره، ولو كان غنياً في وطنه.

ومن جاء مدعياً وصفاً من الأوصاف السابقة، فيطالب بإثبات ما يقول، وعليه أن يثبت الدَّيْن، وأما سائر الصفات فظاهر الحال يشهد لها، ويُكتفى به فيها، كما ذكر ابن العربي والقرطبي المالكيان.

وذكر الرافعي الشافعي أن الوصف الخفي كالفقر والمسكنة لا يطالب المدعي بإثباته، ويعطى بلا بيِّنة، وأما الوصف الجلي فيطالب العامل والمكاتب والغارم بإثباته، ولا يطالب المؤلف قلبه بإثبات ما يدعيه من ضعف نيته في الإسلام، فإن ادعى أنه شريف مطاع في قومه طولب بالبينة. واشتهار الحال أو الاستفاضة قائم مقام البينة في حق من يطالب بها.

ولا يجوز إعطاء الزكاة من تلزمه نفقته وهم الوالدان والولد والزوجة. أما إن أعطى الإمام صدقة الرجل لولده ووالده وزوجته جاز.

والأفضل إعطاء الزكاة للأقارب المحتاجين، قال مالك: أفضل من وضعتَ فيه زكاتك قرابتُك الذين لا تعول. والدليل قول النبي ﷺ لزوجة عبد الله بن مسعود زينب فيما رواه البخاري ومسلم: «لك أجران: أجر الصدقة، وأجر الصلة».

وقدر المُعْطَى مختلف فيه، فالغارم يُعطى قدر دينه، والفقير والمسكين يعطيان كفايتهما وكفاية عيالهما مدة سنة عند مالك وأحمد كما تقدم، وبقدر الحاجة عند الشافعية، وألا يزاد على نصاب الزكاة عند الحنفية.

ويلاحظ ضرورة الاهتمام في توزيع الزكاة بالترتيب المذكور في الآية، فإن الترتيب مقصود ومراد، لكن ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ صنفان مفضلان على الرقاب والغارمين للتعبير بفي كما تقدم بيانه.

ثم قال الله تعالى بعد بيان أصناف مستحقي الزكاة: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي فرض الله الصدقات فريضة، أي حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه،

وذلك كالزجر عن مخالفة هذا الظاهر.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، لا يشرع إلا ما فيه الخير والصلاح للعباد، فإنه سبحانه شرع الزكاة

تطهيراً للنفس، وتحصيناً للمال، وشكراً للخالق على ما أنعم به، كما قال: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ٩/١٠٣] .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على بيان مصارف الزكاة، وأنها لثمانية أصناف، لكن اليوم تعطى الزكاة في الغالب من بعض الأغنياء لا من جميعهم للفقراء والمساكين، وإعطاؤها نادر للغارمين المديونين وأبناء السبيل. أما الرقاب والعاملون على الزكاة وفي سبيل الله والمؤلفة قلوبهم فلا يصرف من الزكاة عليهم شيء؛ لأن سهم ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ قد انتهى بسبب انتهاء الرق في العالم، وأما العاملون أو الموظفون على جباية الزكاة فلم يعد لهم وجود بسبب ترك توزيع الزكاة لأصحابها، وعدم جباية الحاكم لها، إلا في بعض محاولات تقوم بها بعض الدول الإسلامية المعاصرة، وأما سهم ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فإن الجيوش النظامية أصبحت تزود بالمؤن والذخائر والأسلحة والرواتب الشهرية الدائمة من خزينة الدولة العامة، ولم تعد تنتظر زكوات المزكين وإنما يمكن الإنفاق في شراء السلاح أو دعم المتطوعين للجهاد، وأما المؤلفة قلوبهم حتى عند القائلين ببقاء سهمهم فقد أصبح وجودهم وتشجيعهم وترغيبهم في الإسلام نادراً، ومحدوداً جداً؛ لأن نشاط الدول طغا على نشاط الأفراد، ولم تعد الدول المعاصرة تفكر غالباً في أمر انتشار الإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

وفي الآية أحكام سبعة هي:

أ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ يدل على أن مصارف الصدقات لثمانية أصناف، والمراد من لفظ الصدقات هنا هو الزكوات الواجبة، بدليل إثباته تعالى هذه الصدقات بلام التمليك للأصناف الثمانية، والصدقة المملوكة لهم ليست إلا الزكاة الواجبة، ولأن الحصر المستفاد من ﴿إِنَّمَا﴾ في هؤلاء الثمانية يصحّ لو حملنا هذه الصدقات على الزكوات الواجبة، أما لو أدخلنا فيها

المندوبات فلم يصح هذا الحصر؛ لأن الصدقات المندوبة يجوز صرفها إلى بناء المساجد والرباطات في الثغور، والمدارس، وتكفين الموتى وتجهيزهم وسائر الوجوه. ثم إن قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ منصرف إلى الصدقات التي سبق بيانها وهي الصدقات الواجبة.

٢ً - دلت الآية على أن هذه الزكاة يتولى أخذها وتفرقتها الإمام أو من يليه من قبله، بدليل تعيين نصيب أو سهم للعاملين فيها، فيدل على أنه لا بد في أداء هذه الزكوات من عامل، والعامل: هو الذي يعينه الإمام لأخذ الزكوات، فدلَّ هذا النص على أن الإمام هو الذي يأخذ هذه الزكوات. وتأكد هذا النص بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ٩/١٠٣] . أما إخراج المالك زكاة أمواله الباطنة بنفسه فيستفاد من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٢٤-٢٥] وحق السائل والمحروم يجوز دفعه إليه من غير واسطة الإمام.

٣ً - للعامل في مال الزكاة حق، وإن كان غنياً في رأي الأكثرين.

٤ً - ظاهر الآية يدل على وجوب تعميم الزكاة للأصناف الثمانية، وقد ذكرت آراء العلماء وأدلتهم في جواز الصرف إلى ثلاثة منهم أو إلى واحد.

٥ً - العامل والمؤلفة والرقاب مفقودون في هذا الزمان. وأما مصرف ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي للمجاهدين فلم يعودوا بحاجة للزكاة، لأخذهم مرتبات شهرية دائمة، وإنما يعطى المتطوعون أو من أجل شراء السلاح عند الضرورة أوالحاجة الملحة.

٦ً - قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ يشمل بعمومه الكافر والمسلم، لكنه خصص بالسنة النبوية التي دلت على أنه لا يجوز صرف الزكاة إلى الفقراء والمساكين إلا إذا كانوا مسلمين.

٧ً - المقصود من قوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الزجر عن مخالفة هذا الظاهر، وتحريم إخراج الزكاة عن هذه الأصناف، قال النبي ﷺ فيما رواه أبو داود عن زياد بن الحارث الصدائي، وهو ضعيف: «إن الله تعالى لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أجزاء».

حكمة الزكاة:

أبان الرازي في تفسيره[1] الحكمة في إيجاب الزكاة، وذكر اثني عشر وجهاً من المصالح عائدة إلى معطي الزكاة، وثمانية وجوه من المصالح عائدة إلى آخذ الزكاة، أشير إليها بإيجاز وتصرف.

أما فوائد الزكاة للمزكي فهي ما يلي:

١ً - الزكاة علاج صالح متعين لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب، وكسر شدة الميل إلى المال، والمنع من انصراف النفس بالكلية إليه، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ٩/١٠٣] أي تطهرهم وتزكيهم عن الاستغراق في طلب الدنيا.

٢ً - الحد من ملذات الدنيا، والتوجه إلى عالم عبودية الله وطلب رضوانه، بالإنفاق في طلب مرضاة الله.

٣ً - الوقوف أمام طغيان المال وقسوة القلب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ، أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٩٦/٦-٧] فإيجاب الزكاة يقلل الطغيان ويرد القلب إلى طلب رضوان الرحمن.

٤ً - تربية النفس عن طريق الشعور بآلام الآخرين، والإحسان إلى الناس، والسعي في إيصال الخيرات إليهم، ودفع الآفات عنهم، وهذا من صفات الله، والنبي ﷺ يقول: «تخلقوا بأخلاق الله».

---

(١) انظر ١٦/١٠٠ ـ ١٠٤

٥ً - توفير محبة الفقراء للأغنياء؛ لأن الإنفاق عليهم يستدعي حبهم، على ما قال ﷺ فيما رواه ابن عدي وأبو نعيم البيهقي عن ابن مسعود وصححه: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها» وإذا أحبوه دعوا له بالخير، فيصير الدعاء سبباً لبقاء الإنسان في النعمة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: ١٣/١٧] وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الطبراني وأبو نعيم والخطابي عن ابن مسعود، وهو ضعيف: «حصّنوا أموالكم بالزكاة».

٦ً - الزكاة تنقل الإنسان من درجة الاستغناء بالشيء إلى مقام أعلى وهو الاستغناء عن الشيء، والأول صفة الخلق، والثاني صفة الحق.

٧ً - الإنفاق من المال في وجوه البر والخير والمصالح العامة يوجب المدح الدائم في الدنيا، والثواب الدائم في الآخرة، فيكون ذلك سبباً لنقل المال إلى القبر وإلى القيامة، بعد أن كان معرضاً للزوال؛ لأن المال غاد ورائح.

٨ً - إن بذل المال تشبّه بالملائكة والأنبياء، وإمساكه تشبه بالبخلاء المذمومين، فكان البذل أولى.

٩ً - إن إفاضة الخير والرحمة من صفات الحق تعالى، والإنفاق يؤدي إلى التخلق بأخلاق الله.

١٠ً - الإنفاق من المال يحقق السعادة الاجتماعية، كما أن الإيمان يحقق السعادة الروحانية، والصلاة تحقق السعادة البدنية.

١١ً - الزكاة: شكر النعمة، وشكر المنعم واجب، وشكر النعمة: صرفها إلى طلب مرضاة المنعم.

١٢ً - إن إيجاب الزكاة يوجب حصول الألفة بالمودة بين المسلمين، وزوال الحقد والحسد عنهم.

وأما فوائد الزكاة للآخذ، فهي ما يأتي:

١ً - دفع الحاجة وسد الخلَّة، وذلك مقصد راجح على مراعاة جانب المالك الذي اكتسب المال وتعلق قلبه به، لكنه فضل عنده فائض زائد على قدر حاجته، فأبقينا له الكثير، وأخذنا منه اليسير.

٢ً - عدم تعطيل المال الفاضل عن الحاجات الأصلية، وقد خلق الله تعالى المال وسيلة لتوفير الحوائج، لا للاكتناز والادخار والإمساك.

٣ً - المال مال الله، والأغنياء خزّان الله، والفقراء عيال الله، ولا بد من تضامن الفريقين وتعاطفهم وتعاونهم، وتنفيذ أمر الله المالك الحقيقي للكون بالإنفاق على المحتاجين من عباده، والإنفاق على عيال الله تعالى.

٤ً - الحكمة والرحمة تقتضيان صرف الغني بعض ماله غير المحتاج إليه إلى الفقير العاجز عن الكسب بالكلية الذي هو أحوج إليه، وهذا يحقق معنى التكافل الاجتماعي في الإسلام.

٥ً - الزكاة جبران للنقص الحادث عند الفقير، ويستطيع المالك جبر النقصان الذي حدث بسبب الزكاة، عن طريق الاتجار فيه.

٦ً - الحد من ارتكاب الجرائم واللحاق بالأعداء، فلو لم ينفق الأغنياء على مهمات الفقراء، لأقدم هؤلاء على الأفعال المنكرة كالسرقة وغيرها، أو على الالتحاق بأعداء المسلمين.

٧ً - أداء الزكاة يساعد جميع المكلفين على الاتصاف بصفة الصبر والشكر معاً، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البيهقي عن أنس، وهو ضعيف: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر» فإذا أدى الغني الزكاة شكر النعمة، وصبر على نقصان جزء من المال، وإذا أعطي الفقير الزكاة، صار شاكراً بعد أن كان صابراً.

٨ - أخذ الزكاة فيه مساعدة الفقير الغني بتخليصه في الدنيا من الذم والعار، وفي الآخرة من عذاب النار، فيكون الفقير كالمنعم على الغني بتخليصه من النار.

إيذاء المنافقين النبي ﷺ وتصحيح مفاهيمهم

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِيَّ﴾:

وقرأ نافع: (والنبيء).

﴿أُذُنٌ﴾:

وقرأ نافع (أُذْن).

﴿وَرَحْمَةٌ﴾:

وقرأ حمزة: (ورحمةٍ).

الإعراب:

﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ خبر مبتدأ مقدر، أي هو أذن خير، أي هو مستمع خير وصلاح، لا مستمع شر وفساد، والمراد بالأذن: صاحب الأذن. ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ اللام زائدة للفرق بين إيمان التسليم وغيره.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ مرفوعاً معطوف على ﴿أُذُنُ﴾ وقرئت بالجر عطفاً على ﴿خَيْرٍ﴾

أي وهو أذن رحمة، فكما أضاف أذناً إلى الخير أضافه إلى الرحمة؛ لأن الرحمة من الخير، والخير من الرحمة. وعدّى فعل الإيمان بالباء لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به، وعدَّى المؤمنين باللام؛ لأنه قصد السماع من المؤمنين، وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقهم؛ لكونهم صادقين عنده.

البلاغة:

﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ تشبيه بليغ، حذف منه أداة التشبيه أي هو كالأذن يسمع كل ما يقال له، كأن جملته أذن سامعة، مثل قولهم للربيئة: عين.

﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أظهر كلمة ﴿رَسُولَ﴾ مقام الإضمار، تعظيماً لشأنه عليه الصلاة والسلام، وجمعاً بين رتبتي النبوة والرسالة. وأضافها إلى الله زيادة في التكريم.

المفردات اللغوية:

﴿وَمِنْهُمُ﴾ من المنافقين. ﴿يُؤْذُونَ﴾ الإيذاء: ما يؤلم الإنسان في نفسه أو بدنه أو ماله، قليلاً كان أو كثيراً، والمراد هنا: عيبه ونقل حديثه. ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي يسمع من كل واحد ما يقول، ويصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد، وهذا من باب تسمية الإنسان باسم جزء منه وهو آلة السماع للمبالغة في وصفه، وكأن جملته أذن سامعة، كما يقال للجاسوس: عين. وإيذاؤهم له: هو قولهم فيه: هو أذن. و﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ مثل قولك: رجل صدق وشاهد عدل، تريد الجودة والصلاح، كأنه قيل: نعم هو أذن، ولكن نِعْم الأذن ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي يصدق بالله، لما قام عنده من الأدلة ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقبل من المؤمنين الخُلَّص من المهاجرين والأنصار لا من غيرهم، ويصدقهم بسبب إيمانهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي وهو رحمة لمن آمن منكم، أي أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم، ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يفضح أسراركم،

ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، فهو أذن كما قلتم، إلا أنه أذن خير لكم، لا أذن سوء، ومستمع خير لا مستمع شر.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان نَبْتَل بن الحارث[١] يأتي رسول الله ﷺ، فيجلس إليه، فيسمع منه، وينقل حديثه إلى المنافقين، فأنزل الله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ الآية.

وذكر القرطبي: أن الآية نزلت في عَتَّاب بن قُشير قال: إنما محمد أذن، يقبل كل ما قيل له.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن جماعة من المنافقين ذكروا النبي ﷺ بما لا ينبغي من القول، فقال بعضهم: لا تفعلوا، فإنا نخاف أن يبلغه ما نقول، فقال الجلاس بن سويد بن الصامت: بل نقول ما شئنا، ثم نذهب إليه، ونحلف أنا ما قلنا، فيقبل قولنا، إنما محمد أذن سامعة، فنزلت هذه الآية.

والغرض من كلامهم أنه ليس له ذكاء ولا تعمق في الأمور، بل هو سليم القلب، سريع الاغترار بكل ما يسمع، فلهذا سموه بأنه أذن، كما أن الجاسوس يسمى بالعين.

المناسبة:

هذا نوع آخر من جهالات المنافقين، وهو أنهم كانوا يقولون في رسول الله ﷺ: إنه أذن على وجه الطعن والذم، وإنه يصدق كل من حلف له. وقد ذكر تعالى في الآيات السابقة أنهم طعنوا في أفعاله ﷺ ولمزوه في قسمة الصدقات.

---

(١) كان نبتل رجلاً جسيماً ثائر شعر الرأس واللحية، آدَم أحمر العينين، أسفع الخدين، مشوَّه الخلْقة، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث» والسُّفعة: سواد مُشْرب بحمرة.

التفسير والبيان:

ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه، ويعيبونه، فيقولون: هو أذن سامعة، يسمع كل ما يقال له، ويصدقه، فمن قال له شيئاً صدقه، ومن حدثه صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا. يقصدون بقولهم أنه سليم القلب، سريع الاغترار بكل ما يسمع، دون أن يتدبر فيه ويميز بين الأمور، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام كان يعاملهم بالظاهر، ولا يكشف أسرارهم.

فرد الله عليهم بأنه أذن خير لا أذن شر، أي مستمع خير، لا مستمع شر أي هو مستمع ما يجب استماعه، كما يقال: فلان رجل صدق وشاهد عدل، فهو يعرف الصادق من الكاذب، لكنه يعامل المنافقين بأحكام الشريعة وآدابها، فلا يفتضح أحداً منهم، وهو صاحب الخلق الكامل والإنسان المثالي.

وهو يصدق بالله لما قام عنده من الدلائل، وبما أوحي إليه مما فيه خيركم وخير غيركم، ويصدق المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار، لا غيرهم، وهو رحمة لمن آمن منكم أي أظهر الإيمان أيها المنافقون، ويقبل إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم، فهو أذن خير ورحمة، لا يسمع غيرهما ولا يقبله، ويصدق ما أخبره به المؤمنون، ولا يصدق خبر المنافقين، وهو رحمة للناس بهدايتهم إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة.

والذين يؤذون الرسول بالقول أو بالفعل كوصفه بالسحر أو الكذب، وعدم الفطنة، والطعن في عدالته، فلهم عذاب شديد مؤلم في الآخرة بسبب إيذائه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على أن النبي ﷺ صاحب الخلق الكامل، والفهم الشامل العميق، والذكاء الخارق، فسكوته عن المنافقين ليس عن غباء واغترار، وإنما لحكمة هي أن يترك الفرصة للمنافقين بالعدول التلقائي عن قبائحهم، وكيلا يعطي الفرصة للمشركين باستغلال حال المنافقين، والقول بأن هذا النبي يقتل من آمن به.

ودلت الآية أيضاً على أن هذا النبي أذن خير لا أذن شر، يستمع ما فيه الصلاح والخير، ويعرض ترفعاً وإباء عن سماع الشر والفساد، وهو أيضاً رحمة للمؤمنين، لأنه هداهم إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وأرشدت الآية إلى أن النبي لا يؤمن بأخبار المنافقين إيمان تسليم، ولا يصدقهم فيما يقولون، وإن أكدوا القول بالأيمان، لأن أدبه ﷺ يمنعه من مواجهة الناس بما يكرهون، فهو يجري أمر المنافقين على الظاهر، ولا يبالغ في التفتيش عن بواطنهم.

وقد وصفه الله بأوصاف ثلاثة هي أنه يؤمن بالله، ويؤمن للمؤمنين أي يسلم لهم قولهم، ورحمة لمن آمن، وهذه الأوصاف توجب كونه ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾.

ويستنبط من الآية أيضاً أن إيذاء الرسول ﷺ فيما يتعلق برسالته كفر، يترتب عليه العقاب الشديد. أما الإيذاء الخفيف المتعلق بشخصه وشؤونه البشرية وعاداته الدنيوية، وكذا إيذاء أهل بيته، فحرام، لا كفر، مثل إيذائه في إطالة المكث عنده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٣] ومثل رفع الصوت في ندائه وتسميته باسمه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٢].

بيان أحوال المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك الإقدام على اليمين الكاذبة، وتخوفهم من نزول القرآن فاضحاً لهم، واستهزاؤهم بآيات الله

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟
مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ
سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾
وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ
كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ
مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

القراءات:

﴿أَن تُنَزَّلَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (أن تُنْزَل).

الإعراب:

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ﴾ أحق: خبر ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ وحذف خبر الأول لدلالة خبر الثاني عليه، في مذهب سيبويه، وتقديره: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه. وفي مذهب المبرد: لا حذف في الكلام، ولكن فيه تقديم وتأخير، وتقديره: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك. وإنما وحّد الضمير؛ لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله، فكانا في حكم مرضيّ واحد.

﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ فيه أربعة أوجه: إما خبر مبتدأ محذوف،

تقديره: فالواجب أن له نار جهنم، أو بتقدير محذوف بين الفاء وأن، أي فله أن له نار، أو بدل من (أنَّ) الأولى المنصوبة بيعلموا، أو مؤكِّدة للأولى في موضع نصب، والفاء زائدة.

﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أن وصلتها في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، وتقديره: من أن تنزل، ويجوز أن تكون في موضع جر على إرادة حرف الجر؛ لأن حرف الجر يكثر حذفه معها دون غيرها.

﴿وَلَئِن﴾ اللام لام القسم.

البلاغة:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب للإشعار ببعد درجته في الهول والشناعة.

المفردات اللغوية:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين، أي لترضوا عنهم ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق، وتوحيد الضمير لتلازم الإرضاءين ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ حقاً ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿مَن يُحَادِدِ﴾ يشاقق، والمحادَّة مفاعلة من الحد، كالمشاقة من الشِّق، والحد: طرف الشيء، والشق: الجانب، أي يصبح كلٌّ في ناحية وشق بالنسبة إلى خصمه وعدوه، وهما بمعنى المعاداة من العُدْوة: وهي جانب الوادي.

﴿يَحْذَرُ﴾ يخاف في المستقبل أو يتحرّز ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي على المؤمنين ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق، وهم مع ذلك يستهزئون ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ أمر تهديد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ مظهر الشيء الخفي المستتر، ويشمل إظهار مكنون الصدور، وإخراج الحب من الأرض، والنفي من الوطن ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ إخراجه من نفاقكم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ عن استهزائهم بك والقرآن، وهم سائرون معك إلى تبوك ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ معتذرين ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ في الحديث، لنقطع به الطريق، ولم نقصد ذلك. والخوض في الأصل: الدخول في الماء أو في الوحل، كثر استعماله في الباطل، لما فيه من التعرض للأخطار، والمراد: الإكثار من العمل الذي لا ينفع ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ عنه، والاعتذار: الإدلاء بالعذر: أي لمحو أثر الذنب ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي ظهر كفركم بعد إظهار الإيمان ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بإخلاصها وتوبتها كمخشّ بن حمير ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ الطائفة: الجماعة من الناس، والقطعة من الشيء ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مصرّين على النفاق والاستهزاء.

سبب النزول:

نزول الآية (٦٢):

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾: روى ابن المنذر عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال في شأن المتخلّفين في غزوة تبوك الذين نزل فيهم مانزل: والله، إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان مايقول محمد حقاً، لهم[١] شر من الحمير، فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله، إن مايقول محمد لحق، ولأنت شر من الحمار، وسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: ماالذي حملك على الذي قلت؟ فجعل يتلعن (يلعن نفسه) ويحلف بالله ماقال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدّق الصادق، وكذّب الكاذب، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الآية. وروي ذلك أيضاً عن السدّي.

نزول الآية (٦٥):

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: قال رجل من

(١) وفي عبارة السدّي: لنحن أشرّ من الحمر.

المنافقين في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأينا مثل قرآن هؤلاء، ولا أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء! فقال له رجل: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن.

وسمي الرجل في رواية أخرى: عبد الله بن أُبَيْ، والأصح أنه وديعة بن ثابت لأن عبد الله لم يشهد تبوك.

وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً عن كعب بن مالك: قال مَخشّ بن حمير: لوددتُ أني أُقاضى على أن يضرب كل رجل منكم مئة، على أن ننجو من أن ينزل فينا قرآن، فبلغ النبي ﷺ، فجاؤوا يعتذرون، فأنزل الله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ الآية، فكان الذي عفا الله عنه مَخشّ بن حِمْيَر، فسمي عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمقتله، فقتل يوم اليمامة، لا يعلم مقتله إلا من قتله.

وقال السُّدِّيّ: قال بعض المنافقين: والله وددْتُ لو أني قُدِّمت، فجلدت مئة، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا؛ فنزلت الآية.

وأخرج ابن جرير الطبري وابن المنذر وأبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن قتادة أن ناساً من المنافقين قالوا: في غزوة تبوك: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات له ذلك، فأطلع الله نبيه على ذلك، فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا، قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، فنزلت.

المناسبة:

هذا نوع آخر من قبائح المنافقين وهو إقدامهم على اليمين الكاذبة، ومشاقة (معاداة) الله ورسوله، وتحرزهم من نزول القرآن فاضحاً لهم، واستهزاؤهم بآيات الله (القرآن) وهي آيات في الجملة لشرح أحوال المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

أخرج أبو الشيخ بن حيان عن قتادة قال: كانت هذه السورة تسمى الفاضحة فاضحة المنافقين، وكان يقال لها المنبئة؛ لأنها أنبأت بمثالبهم وعوراتهم.

التفسير والبيان:

يخاطب الله المؤمنين مبيناً لهم أن المنافقين يقدمون على حلف الأيمان الكاذبة لترضوا عنهم والله يعلم إنهم لكاذبون، وذلك يدل على أنهم شعروا بموقفهم الحرج، وظهور نفاقهم، وافتضاح أمرهم.

يحلفون لكم معتذرين عما صدر منهم من قول أو فعل ليرضوكم، والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين، وذلك يكون بالطاعة والوفاق والإيمان الصادق والعمل الصالح.

والتعبير بإفراد ضمير ﴿يُرْضُوهُ﴾ للإعلام بأن إرضاء الرسول إرضاء لله، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٤/ ٨٠] لأن مصدر الرسالة واحد، والأوامر والنواهي واحدة.

هذا إذا كانوا مؤمنين حقاً كما يدَّعون ويحلفون، فمن كان مؤمناً فليرض الله ورسوله، وإلا كان كاذباً.

ثم وبخهم الله تعالى مبيناً خطورة الأمر والشأن الذي أقدموا عليه وفي ذلك مزيد تعظيم وتهويل، فقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون ويتحققوا أن من يعاد الله ورسوله ويخالفه، بتجاوز حدوده، أو يَلْمز رسوله في أعماله كقسمة الصدقات، أو في أخلاقه كقولهم: هوأُذُن يسمع كل مايقال له، وكان في حد، والله ورسوله في حد، فجزاؤه جهنم خالداً فيها أبداً، أي مهاناً معذباً، وذلك العذاب هوالخزي العظيم أي هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

والحقيقة أن المنافقين يعرفون حقيقة أمرهم، فهم غير مؤمنين بالله والرسول، وهم شاكّون مرتابون في الوحي، قلقون مضطربون، والشك والقلق يدعوهم إلى الحذر والخوف، لذا وصفهم تعالى بقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي يخاف المنافقون ويتحرزون أن تنزل على المؤمنين سورة تكشف أحوالهم، وتفضح أسرارهم، وتبين نفاقهم، كهذه السورة التي سميت: الكاشفة والفاضحة والمُنْبئة، التي تنبئ المؤمنين بما في قلوب المنافقين، وتخبرهم بحقيقة وضعهم، فيفتضح أمرهم، وتنكشف أسرارهم.

وقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ خبر وليس بأمر بدليل مابعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ لأنهم كفروا عناداً. وقوله: ﴿مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي أن الله مظهر ماكنتم تحذرونه من إظهار نفاقكم.

وهم مع ذلك كانوا دائماً يستهزئون بالقرآن وبالنبي والمؤمنين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤] ، فهددهم الله وأوعدهم بقوله: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ أي قل لهم يامحمد: استهزئوا بآيات الله كما تشاؤون، وهو أمر يقصد به التهديد والوعيد، إن الله مظهر ما تخافون حصوله، وسينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم، مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ - إلى قوله - ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٩-٣٠] .

ثم يقسم الله بأنه إن سألتهم أيها الرسول عن أقوالهم هذه وهزئهم، لاعتذروا عنها بأنهم لم يكونوا جادّين فيها، بل هازلين لاعبين خائضين في اللغو بقصد التسلي واللهو، فوبخهم الله وأنكر عليهم بقوله: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي إن هذا ليس مجال استهزاء، ألم تجدوا ما تستهزئون به غير ذلك؟ فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر محض، وشر مستطير. والمراد بالاستهزاء بالله: الاستهزاء بذكر الله وصفاته، وتكاليف الله

تعالى. والمراد بآيات الله: القرآن وسائر أحكام الدين، والاستهزاء بالرسول معلوم كالطعن برسالته وتطلعاته وأخلاقه وأعماله.

فليس قولكم عذراً مقبولاً، ولا تعتذروا أبداً بهذا أو بغيره، للتخلص من هذا الجرْم العظيم، فإنكم قد كفرتم وظهر كفركم، كما أظهرتم إيمانكم، وتبين أمركم للناس قاطبة. وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ على جهة التوبيخ، كأنه يقول: لا تفعلوا مالا ينفع.

فإن نعف عن بعضكم لتوبتهم الخالصة كمخَشّ بن حُمَيِّر، نعذِّب طائفة أي جماعة أخرى لبقائهم على النفاق، وارتكابهم الآثام، وإجرامهم في حق أنفسهم وغيرهم، فتعذيبكم بسبب إجرامكم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على مايأتي:

١ - تعداد قبائح المنافقين وهي الإقدام على الأيمان الكاذبة، ومعاداة الله ورسوله، والاستهزاء بالقرآن والنبي والمؤمنين، والتخوف من نزول سورة في القرآن تفضح شأنهم، واعتذارهم بأنهم هازلون لاعبون، وهو إقرار بالذنب، بل هو عذر أقبح من الذنب.

٢ - لا يقبل الهزل في الدين وأحكامه، ويعتبر الخوض في كتاب الله ورسله وصفاته كفراً، ولا خلاف بين الأمة في أن الهزل بالكفر كفر؛ لأن الهزل أخو الباطل والجهل، كما قال ابن العربي.

٣ - دل قوله تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ على أربعة أحكام هي:
أولاً - الاستهزاء بالدين كفر بالله تعالى؛ لمنافاته مقتضى الإيمان وهو تعظيم الله تعالى.

ثانياً - لا يقتصر الكفر على القلب، وإنما يشمل الأقوال والأفعال المكفرة.

ثالثاً - قولهم الذي صدر منهم كفر حقيقي، وإن كانوا منافقين من قبل، وأن الكفر يتجدد.

رابعاً - حدث الكفر بعد أن كانوا مؤمنين في الظاهر.

والخلاصة: أنه تعالى حكم عليهم بالكفر وعدم قبول الاعتذار من الذنب، مالم يتوبوا من النفاق.

٤ - التوبة عن النفاق أو الكفر مقبولة، فمن تاب عفي عنه، ومن أصر على الكفر أو النفاق عوقب في جهنم.

هذا في أساسيات العقيدة، أما حكم الهزل في العقود كالبيع والزواج، والفسوخ كالطلاق، فمختلف فيه بين العلماء على ثلاثة أقوال:

لا يلزم مطلقاً، يلزم مطلقاً، التفرقة بين البيع وغيره، فيلزم في الزواج والطلاق، ولا يلزم في البيع. والقول الثالث هو المشهور في المذاهب، لما روى أبو داود والترمذي والدارقطني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جِدّهن جِدّ، وهَزْلهن جِدّ: النكاح، والطلاق، والرجعة» وفي موطأ مالك عن سعيد بن المسيِّب قال: ثلاث ليس فيهن لَعِب: النكاح، والطلاق، والعتق. وذكر ابن المسيب عن عمر قال: أربع جائزات على كل أحد: العتق، والطلاق، والنكاح، والنذور.

٥ - تضمنت آية ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ قبول يمين الحالف، وإن لم يلزم المحلوف له الرضا. واليمين حق للمدّعي. وتضمنت أن يكون اليمين بالله عز وجل. وقال النبي ﷺ: «من حلف فليحلف بالله أو ليَصْمُت، ومن حُلف له فليصدّق».

أوصاف المنافقين وجزاؤهم الأخروي

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ
(٦٧) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ
حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟
أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ
كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ
يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ
مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)﴾

القراءات:

﴿رُسُلُهُم﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلهم).

الإعراب:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ حال، والعامل فيه محذوف أي يصلونها خالدين ﴿هِىَ حَسْبُهُمْۚ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الكاف في موضع نصب؛ لأنها صفة مصدر محذوف، وتقديره: وعداً كما وعد الذين من قبلكم، بدليل قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ﴾ الكاف في موضع نصب أيضاً صفة لمصدر محذوف، وتقديره: استمتاعاً كاستمتاع الذين من قبلكم. وكذلك كاف ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ في موضع نصب أيضاً صفة محذوف دل عليه الفعل، وتقديره: وخضتم خوضاً كالخوض الذي خاضوا.

البلاغة:

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قبض اليد: كناية عن الشح والبخل، كما أن بسط اليد كناية عن الجود.

﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ من باب المشاكلة؛ لأن الله لا ينسى، أي تركوا طاعته، فتركهم تعالى من رحمته.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ﴿وَخُضْتُمْ﴾: فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التقريع والذم.

﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ فيه إطناب، قصد منه الذم والتوبيخ، لاشتغالهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة.

المفردات اللغوية:

﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي متشابهون في صفة النفاق والبعد عن الإيمان كأبعاض الشيء الواحد كما يقال: أنت مني وأنا منك، أي أمرنا واحد لا مباينة فيه. وقال الزمخشري: المراد به نفي أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم في حلفهم بالله: ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾، وتقرير لقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٥٦] ومابعده كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادّة حالهم لحال المؤمنين، وهو قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾أي بالكفر والمعاصي. والمنكر: إما شرعي: وهو ما يستقبحه الشرع ويمنعه، وإما عقلي: وهو ما تستنكره العقول السليمة والفطر النقية، لمنافاته الأخلاق والمصالح العامة. وضده المعروف. ﴿وَيَنْهَوْنَ

عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي الإيمان والطاعة، والمعروف: كل ما أمر به الشرع، أو استحسنه العقل والعرف الصحيح غير المصادم للشرائع والأخلاق.

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في الطاعة، ويراد به الكف عن البذل فيما يرضي الله، وضده: بسط اليد ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تركوا طاعته وأوامره حتى صارت بمنزلة المنسيّ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم من فضله ولطفه ورحمته، وجازاهم على نسيانهم وإغفالهم ذكر الله ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن الطاعة، المنسلخون عن أصول الإيمان، الكاملون في التمرد والتنكر للخير.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ الوعد: يستعمل في منح الخير والشر، والوعيد خاص بالشر ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدِّرين الخلود ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ كفايتهم عقاباً وجزاء، وفيه دلالة على عظم عذابها ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته وأهانهم مع التعذيب، وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين، كما عظم أهل الجنة وألحقهم بالملائكة المكرّمين. واللعن: الطرد أو الإبعاد من الرحمة والإهانة والإذلال ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم ثابت لا ينقطع، والمراد أن لهم نوعاً من العذاب غير الصلي بالنار، أو لهم عذاب ملازم لهم في الدنيا وهو ما يقاسونه من تعب النفاق.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي أنتم أيها المنافقون مثل الذين من قبلكم من الكفار، أو فعلتم مثل ما فعل الذين من قبلكم، وهو أنكم استمتعتم وخضتم كما استمتعوا وخاضوا ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟﴾ تمتعوا ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ نصيبهم من ملاذ الدنيا ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم﴾ أيها المنافقون ﴿وَخُضْتُمْ﴾ دخلتم في الباطل والطعن بالنبي ﷺ ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ أي كخوضهم. وفائدة ذكر ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ وقوله: ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾: أن يذم الأولين بالاستمتاع بحظوظ الدنيا ورضاهم بها، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة والسعي في تحصيل الفلاح في الآخرة، تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم.

﴿حَبِطَتۡ﴾ بطلت وفسدت أعمالهم وذهبت فائدتها في الدنيا والآخرة، ولم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ﴾ خبر ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أغرقوا بالطوفان ﴿وَعَادٖ﴾ قوم هود أهلكوا بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح أهلكوا بالرجفة ﴿وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أهلك نمروذ ببعوض، وأهلك أصحابه ﴿وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ﴾ هم قوم شعيب أهلكوا بالنار يوم الظلة ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ قرى قوم لوط، أي أهلها، ائتفكت بهم، أي انقلبت، فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجّيل ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ أتتهم يعني الكل بالمعجزات، فكذبوهم فأهلكوا ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ أي لم يكن من عادته أن يعذبهم من غير ذنب ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بارتكاب الذنب وتعريضها للعقاب بالكفر والتكذيب.

المناسبة:

تستمر الآيات في بيان فضائح المنافقين وقبائحهم، وهذا نوع آخر قصد به بيان الفرق بينهم وبين المؤمنين، وتشبيههم بمن قبلهم من المنافقين والكفار، وتمثيل حالهم بحال من سبقهم، وعقد قياس أو موازنة بينهم وبين أناس غابرين، لهم شبَه بهم، كما قصد به بيان أن إناثهم كذكورهم في تلك الأعمال المنكرة، والأفعال الخبيثة.

التفسير والبيان:

تبيّن هذه الآيات وما بعدها الفروق الواضحة بين صفات المؤمنين وصفات المنافقين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان المنافقون عكسهم.

المنافقون والمنافقات أي الرّجال والنّساء يشبه بعضهم بعضاً في صفة النفاق والبعد عن الإيمان وفي الأخلاق والأعمال، فهم ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ﴾: وهو ما أنكره الشّرع ونهى عنه، ولم يقرّه الطّبع السليم والعقل الصحيح، كالكذب والخيانة وخُلْف الوعد ونقض العهد، كما جاء في الحديث الصَّحيح الذي أخرجه الشَّيخان والتّرمذي والنّسائي عن أبي هريرة: «آية المنافق ثلاث: **إذا حدَّث كذب، وإذا وعدَ أخلف، وإذا ائتمن خان**». ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: وهو ما أمر به الشرع وأقرّه العقل والطّبع كالجهاد وبذل المال في سبيل الله، كما قال تعالى عنهم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٧] .

ونسوا ذكر الله، وأغفلوا تكاليف الشرع مما أمر به الله ونهى عنه، فنسيهم أي جازاهم بمثل فعلهم، وعاملهم معاملة من نسيهم، بحرمانهم من لطفه ورحمته، وفضله وتوفيقه في الدُّنيا، ومن الثواب في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٣٤] ، وذلك لتركهم التّمسك بطاعة الله.

إن المنافقين هم الفاسقون، أي الخارجون عن طريق الحقّ والاستقامة، الدّاخلون في طريق الضّلالة، المتمرّدون في الكفر، المنسلخون عن كل خير.

ثم بيَّن الله تعالى جزاءهم فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾.

أي إنه تعالى أكَّد وعيده السابق بمجازاتهم وضمهم إلى الكفار، فأوعدهم جميعاً نار جهنم يدخلونها، ماكثين فيها أبداً، مخلدين هم والكفار فيها، هي كفايتهم في العذاب ووفاء لجزاء أعمالهم، ولعنهم أي طردهم وأبعدهم من رحمته، ولهم عذاب دائم مستمر غير عذاب جهنم والخلود فيها، أو لهم عذاب ملازم في الدُّنيا وهو ما يقاسونه من مرض النفاق، والخوف من اطِّلاع الرّسول والمسلمين على بواطنهم، وحذرهم من أنواع الفضائح.

وفي ذكر النساء مع الرّجال دليل على عموم الوصف وتأصُّل الدّاء، وأما تأخير ذكر الكفار عن المنافقين فهو دليل على أنهم شرّ من الكفار، وأن النّفاق أخطر من الكفر الصريح.

ثم بيّن الله تعالى أن ما أصاب هؤلاء المنافقين من العذاب في الدُّنيا والآخرة، له شبه بعذاب أولئك المنافقين والكفار السابقين مع أنبيائهم، فأنتم مثلهم مغرورون بالدّنيا ومتاعها الفاني، لكنهم كانوا أشدّ منكم قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، فتمتعتم وخضتم كما تمتعوا وخاضوا، وانصرفتم مثلهم إلى الاستمتاع بنصيبكم من المال والولد، وبلذائذ الدُّنيا وحظوظها الزائلة، وشغلتم عن التّمتع بكلام الله وهدي رسوله ﷺ، ولم تنظروا في عواقب الأمور، ولم تعملوا على طلب الفلاح في الآخرة، وتوافرت دواعي الخير عندكم، كما توافرت دواعي الشّرّ عندهم، فكنتم أسوأ حالاً منهم، وأحقّ بالعقاب منهم. فقوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي بنصيبهم من ملاذ الدُّنيا، أو بنصيبهم من الدِّين، كما فعل الذين من قبلهم.

وخضتم كالذي خاضوا، أي دخلتم في الباطل كما دخلوا، أو خضتم خوضاً كالذي خاضوا.

وفائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق (النصيب) في حقّ المتقدمين أولاً، ثم ذكره في حق المنافقين ثانياً، ثم العود إلى ذكره مرة أخرى في حق المتقدمين ثالثاً: هو ذمّ الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدُّنيا، وحرمانهم عن سعادة الآخرة، بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ العاجلة، ثم شبَّه منافقي العهد الإسلامي بأولئك، نهاية في المبالغة، وزيادة في قبح وجه الشَّبه، كمن أراد أن ينبّه بعض الظَّلمة على قبح ظلمه، فيقول له: أنت مثل فرعون، كان يقتل بغير جرم، ويعذِّب من غير موجب، وأنت تفعل مثل فعله. وبالجملة فالتّكرار هاهنا للتّأكيد.

وبعد أن بيَّن الله تعالى مشابهة هؤلاء المنافقين لأولئك الكفار المتقدّمين في طلب الدُّنيا، وفي الإعراض عن طلب الآخرة، بيَّن شبهاً آخر بين الفريقين: وهو تكذيب الأنبياء، والاتِّصاف بالمكر والخديعة والغدر بهم، فقال: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓا۟﴾ أي كخوضهم الذي خاضوا، وقد خاضوا في الكذب والباطل.

ثم بيَّن الله تعالى مصير أعمال جميع المنافقين والكفار المتقدّمين واللاحقين، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ﴾ أي إن أولئك المنافقين والكفار بطلت مساعيهم وحسناتهم وفسدت أعمالهم في الدُّنيا؛ لأنها أعمال رياء وسمعة، وفي الآخرة، فلم يكن لهم أجر أو ثواب؛ لأنهم لم يقصدوا وجه الله، ولأن شرط الثواب عليها الإيمان، وهم لم يؤمنوا حقّاً، بل أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، فكانوا منافقين. وأولئك هم الخاسرون الذين خسروا في مظنة الرّبح والمنفعة؛ لأنهم لم يحصلوا على الثَّواب، وأتعبوا أنفسهم في الرّدّ على الأنبياء والرُّسل، فما وجدوا إلا فوات الخيرات في الدُّنيا والآخرة، وإلا حصول العقاب في الدُّنيا والآخرة.

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٨/١٠٣-١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ نقيض فعل الصَّالحين المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢٧].

والمقصود: أنه تعالى بعد أن شبَّه حال هؤلاء المنافقين بأولئك الكفار، بيَّن أن أولئك الكفار لم يحصل لهم إلا حبوط الأعمال، وإلا الخزي والخسار، مع أنهم كانوا أقوى من هؤلاء المنافقين وأكثر أموالاً وأولاداً منهم، مما جعل

هؤلاء المنافقين أولى بالوقوع في عذاب الدُّنيا والآخرة، والحرمان من خيرات الدُّنيا والآخرة[١].

ثم وعظ الله تعالى هؤلاء المنافقين المكذِّبين للرُّسل وأنذرهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ أي ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذِّبة للرُّسل، وذكر طوائف ستّة، وهم قوم نوح الذين أغرقوا بالطُّوفان الذي عم جميع أهل الأرض القديمة إلا من آمن بنوح عليه السّلام، وعاد قوم هود الذين أهلكوا بالرِّيح العقيم لما كذَّبوا هوداً عليه السّلام، وثمود قوم صالح الذين أخذتهم الصَّيحة لما كذَّبوا صالحاً عليه السّلام وعقروا النّاقة، وقوم إبراهيم الذين أهلكهم الله بسلب النعمة عنهم، وبتسليط البعوضة على ملكهم نَمْرُود بن كنعان بن كوش الكنعاني، ونصر الله إبراهيم عليه السّلام عليهم، وأيَّده بالمعجزات الظاهرة وأنقذه من النار، وأصحاب مدين قوم شعيب عليه السّلام الذين أصابتهم الرّجفة وعذاب يوم الظّلّة، والمؤتفكات[٢] قوم لوط الذين كانوا يسكنون في مدائن، فأهلكهم الله بالخسف، وجعل عالي أرضهم سافلها، وأمطر عليهم الحجارة، قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم: ٥٣/٥٣] أي الأمة المؤتفكة، وأمُّ قراهم: سدوم، أهلكهم الله عن آخرهم، بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السّلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

ذكر الله تعالى هؤلاء الطوائف السّتة؛ لأنه أتاهم نبأ هؤلاء تارة، بأن سمعوا أخبارهم في التاريخ المنقول من الناس، وتارة لأجل أن بلاد هؤلاء، وهي بلاد الشام، قريبة من بلاد العرب، وقد بقيت آثارهم مشاهدة.

---

(١) تفسير الرّازي: ١٦/ ١٢٩

(٢) قال الواحدي: المؤتفكات: جمع مؤتفكة، ومعنى الائتفاك في اللغة: الانقلاب، وتلك القرى ائتفكت بأهلها، أي انقلبت فصار أعلاها أسفلها، فالمؤتفكات صفة القرى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾ استفهام للتقرير والتوبيخ، أي أتاهم نبأ هؤلاء الأقوام، فلم يعتبروا.

هؤلاء أتتهم رسلهم بالبينات، أي بالمعجزات والحجج والدلائل القاطعات، وهنا لا بدّ من إضمار محذوف في الكلام، تقديره: فكذَّبوا، فعجَّل الله هلاكهم.

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجّة بإرسال الرُّسل، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بسبب أفعالهم القبيحة، وتكذيبهم الرُّسل، ومخالفتهم الحقّ، فالظُّلم كان من أنفسهم لا من الله تعالى، فاستحقّوا ذلك العذاب.

والهدف من التذكير بهؤلاء الأقوام أن يعرف المنافقون والكفار أنّ سنّة الله في عباده واحدة لا تتغير ولا تتبدل، فإذا ما أصرّوا على كفرهم، فإن العذاب سينزل بهم؛ لأن ما جرى على النّظير يجري على نظيره، قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٣].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

١ - النِّفاق: مرض عضال متأصِّل في البشر، وأصحاب ذلك المرض متشابهون في كل عصر وزمان في الأمر بالمنكر والنّهي عن المعروف، وقبض أيديهم وإمساكهم عن الإنفاق في سبيل الله للجهاد، وفيما يجب عليهم من حق.

٢ - للمنافقين عذابان: عذاب في نار جهنم، ونوع آخر من العذاب المقيم الدائم، غير العذاب بالنار والخلود فيها.

٣ً - الجزاء من جنس العمل، فقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾معناه أنهم تركوا أمره وطاعته حتى صار ذلك بمنزلة المنسي، فتركهم من رحمته، وسماه باسم الذّنب لمقابلته؛ لأنه جزاء وعقوبة على الفعل، وهو مجاز كقولهم: الجزاء بالجزاء، وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٢/٤٠] ونحو ذلك.

٤ً - سبب العذاب للكفار والمنافقين واحد في كل العصور: وهو إيثار الدُّنيا على الآخرة والاستمتاع بها، وتكذيب الأنبياء والمكر والخديعة والغدر بهم. وقد وعد الله الكفار نار جهنم وعداً كما وعد الذين من قبلهم، لفعلهم أفعال الذين من قبلهم كالأمر بالمنكر والنّهي عن المعروف. جاء في الصَّحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ: «لتتَّبِعُنَّ سنَنَ من قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنّصارى؟ قال: فمن؟».

وقال ابن عباس ونحوه عن ابن مسعود: ما أشبه الليلة بالبارحة، هؤلاء بنو إسرائيل، شُبِّهنا بهم.

٥ً - آية ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ دلَّت على مشروعية القياس، وإلحاق النظائر والأشباه ببعضها، ويؤيِّدها قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٥٩/٢] .

٦ً - لا ثواب على أعمال الكفار في الآخرة: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بطلت حسناتهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فلم يحصلوا على الثواب.

٧ً - إن إهلاك الأمم والأقوام الغابرة بسبب كفرهم وتكذيبهم الأنبياء فيه عظة وعبرة للمعتبر من العقلاء.

٨ً - لا عقوبة إلا بذنب: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي ليهلكهم حتى

يبعث إليهم الأنبياء، ويصدر منهم ما يستحقون به العذاب ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بعد قيام الحجة عليهم.

أوصاف المؤمنين وجزاؤهم الأخروي

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

البلاغة:

في هذه الآيات مقابلة لطيفة بين صفات المؤمنين وصفات المنافقين، ومقابلة أيضاً في الجزاء بين نار جهنم والجنة، فهي مقابلة في الصفات وفي الجزاء.

المفردات اللغوية:

﴿أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون، من الولاية: وهي النصرة في الشدائد، والأخوة والمحبة، وهي ضد العداوة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء عن إنجاز وعده ووعيده، فيعز من أطاعه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٞ﴾ لا يضع شيئاً إلا في محله ﴿جَنَّٰتٖ﴾ هي البساتين، الكثيرة الأشجار، الملتفة الأغصان، التي تستر ما حولها من الأرض ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ أي حسنة البناء طيبة القرار ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ عدن: اسم مكان خاص في الجنة كالفردوس، بدليل قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [مريم: ٦١/١٩] ويدل عليه ما روى أبو الدرداء رضي الله عنه عن

رسول الله ﷺ: «عدن: دار الله التي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون، والصدّيقون، والشهداء، يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك».

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي وشيء من رضوان الله أكبر وأعظم من ذلك كله؛ لأن رضاه هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما وعد الله، أو إلى الرضوان ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وحده دون ما يعدّه الناس فوزاً.

المناسبة:

لما ذكر الله تعالى صفات المنافقين الذميمة وما أعده لهم من العذاب، أعقبه بذكر صفات المؤمنين المحمودة وما أعده لهم من الثواب الدائم والنعيم المقيم.

وهكذا الشأن في الأسلوب القرآني يذكر المتقابلات والأضداد، للعبرة والعظة، وبيان الفروق، لاختيار الإنسان ما فيه المصلحة. وهنا يتجلى الفرق الواضح بين أفعال المنافقين الخبيثة وما يستحقونه من العذاب، وبين أفعال المؤمنين الحميدة وما يلاقونه من ثواب، ليعلم المنافقون أنهم غير مؤمنين في الحقيقة، وأن ما يظهرونه من إيمان نفاق وخداع، سرعان ما ينكشف، ولا يفيدهم مطلقاً.

وأما السبب في ذكر لفظ ﴿مِّنۢ﴾ في المنافقين: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ وفي المؤمنين لفظ ﴿أَوْلِيَآءُ﴾: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾: فهو أن تجمع المنافقين على النفاق إنما هو بسبب التقليد والميل والعادة، وأما تجمع المؤمنين على الإيمان فهو بسبب المشاركة في القناعة والاستدلال والتوفيق والهداية.

التفسير والبيان:

إن أهل الإيمان من الذكور والإناث متناصرون متعاضدون، كما جاء في الحديث الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه، وفي الصحيح أيضاً: «مَثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وقد كان التعاون بين المسلمين والمسلمات قائماً في الميادين والمواقف الحاسمة كلها كالهجرة والجهاد، مع اعتصام الرجال بالعفة وغض البصر، واعتصام النساء بالأدب الجم والحياء والتعفف وغض البصر والاحتشام في الحديث واللباس والعمل. فقد كان للمرأة دور بارز في إنجاح الهجرة كأسماء ذات النطاقين، وكانت النسوة في المعارك والحروب مع الأعداء يسقين الماء، ويجهزن الطعام، ويحرضن على القتال، ويرددن المنهزم من الرجال، ويواسين الجرحى، ويعالجن المرضى.

وقوله في أهل الإيمان: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في مقابلة قوله في المنافقين: بعضهم من بعض؛ لأن المؤمنين إخوة تسودهم المحبة والمودة والتعاون والتعاطف، وأما المنافقون فلا رابطة قوية بينهم ولا عقيدة تجمعهم، وإنما هم أتباع بعضهم بعضاً في الشكوك والجبن والبخل والانهزام والتردد؛ لأن قلوبهم مختلفة.

وقد ذكر الله تعالى هنا للمؤمنين أوصافاً خمسة غير الولاية مع بعضهم يتميز بها المؤمن من المنافق، وهي في قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

فالمؤمنون يأمرون بالمعروف، والمنافقون يأمرون بالمنكر كما في الآية المتقدمة.

والمؤمنون ينهون عن المنكر، والمنافقون ينهون عن المعروف كما تقدم.

والمؤمنون يقيمون الصلاة على أكمل وجه وفي خشوع لله، والمنافقون لا يقومون إلى الصلاة إلا وهم كسالى، يراؤون الناس.

والمؤمنون يؤتون الزكاة المفروضة عليهم مع التطوع بالصدقات، والمنافقون يبخلون ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، كما في الآية السابقة.

والمؤمنون يطيعون الله ورسوله، بفعل ما أمرا به، وترك ما نهيا عنه، والمنافقون فاسقون متمردون خارجون على الطاعة.

وبسبب هذه الصفات التي يتصف بها أهل الإيمان استحقوا الرحمة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ أي سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، ويتعهدهم برحمته في الدنيا والآخرة، وذكر حرف السين في قوله ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ للتوكيد والمبالغة، ويقابل هذا نسيانه تعالى المنافقين من رحمته: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ فهو تعالى كما وعد المنافقين نار جهنم، فقد وعد المؤمنين الرحمة المستقبلة وهي ثواب الآخرة.

إن الله عزيز لا يمتنع عليه شيء من وعد ولا وعيد، حكيم لا يضع شيئاً في غير موضعه، فلا حائل يحول بينه وبين عباده من رحمة أو عقوبة، وهو الحكيم المدبر أمر عباده على وفق العدل والحكمة والصواب، فيخص المؤمنين بالجنة والرضوان، ويخص المنافقين بالنار والعذاب والغضب.

ثم فصل الله تعالى ما وعد به المؤمنين من الرحمة، فأبان أن تلك الرحمة تشمل خيرات كثيرة ونعيماً مقيماً في جنات: بساتين مشجرة تغطي ما تحتها، تجري الأنهار من تحت أشجارها، فتزيدها جمالاً، وهم خالدون ماكثون فيها أبداً، ولهم فيها مساكن طيبة أي حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: «جنتان: من ذهب آنيتهما وما

فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه، في جنة عدن» ثم قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضاً».

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إن في الجنة مئة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تُفجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

وجنات عدن: اسم مكان ومنزل من منازل الجنة كالفردوس، بدليل قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ [مريم: ٦١/١٩] وبدليل حديث أبي الدرداء المتقدم في شرح المفردات. وقيل: العدن: الإقامة والاستقرار، فجنات عدن: هي جنات الإقامة والخلود، كقوله تعالى: ﴿جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ [الفرقان: ١٥/٢٥] و﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٥/٥٣] فالجنات كلها جنات عدن.

وللمؤمنين أيضاً رضوان من الله أكبر وأعظم من الجنان، أي رضا الله عنهم أجل مما هم فيه من النعيم، وذلك دليل قاطع على أن السعادة الروحية أكمل وأشرف من السعادة الجسدية. ويؤيده ما رواه الإمام مالك والشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبّيك ربنا وسَعْديك، والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحلّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

وقيل: إن الرضوان هو رؤية الله يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٠/٢٦] .

ولما ذكر تعالى هذه الأمور الثلاثة (الجنات، والمساكن الطيبة في جنات عدن، والرضوان الإلهي الأكبر) قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الوعد الصادر من الله، أو ذلك الرضوان أو هما معاً أي النعيم الجسدي والروحي هو الفوز العظيم وحده، دون ما يعده الناس فوزاً، وهو الذي يجزى به المؤمنون الخلّص، لا غيره من طيبات الدنيا الفانية التي يحرص عليها المنافقون والكفار ويطلبونها دائماً.

فقه الحياة أو الأحكام:

موضوع الآيات في صفات المؤمنين لتمييزهم عن المنافقين، وما وعدهم به ربهم في الآخرة، أما الصفات فهي ست، وأما الوعود فهي ثلاثة، والصفات الست هي ما يأتي:

١ - إن أهل الإيمان رجالاً ونساء أمة واحدة مترابطة متعاونة متناصرة، قلوبهم متحدة في التوادّ والتحابّ والتعاطف. أما المنافقون بعضهم من بعض؛ لأن قلوبهم مختلفة، لا رابطة تربطهم غير الاتصاف بالنفاق وضم بعضهم إلى بعض في الحكم.

٢ - يأمر أهل الإيمان بالمعروف أي بعبادة الله تعالى وتوحيده وما يتبع ذلك من أوامر الشرع ومحاسنه وآدابه. والمنافقون يأمرون بالمنكر.

٣ - ينهى أهل الإيمان عن المنكر من عبادة الأوثان وما تبع ذلك مما منعه الشرع، والمنافقون ينهون عن المعروف.

٤ - أهل الإيمان يقيمون الصلوات المفروضة الخمس، والمنافقون إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس.

٥ - أهل الإيمان يؤدون الزكاة المفروضة عليهم، والمنافقون كانوا يزكون خوفاً أو رياء، لا طاعة لله تعالى، ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله.

٦ - أهل الإيمان يطيعون الله في الفرائض ورسوله فيما سنّ لهم، والمنافقون متنكرون للطاعة.

وأما وعد الله تعالى للمؤمنين فيشمل ثلاثة أشياء مفسِّرة للرحمة التي وعدهم بها في الآية المتقدمة:

١ - الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، أي البساتين التي ينعم بها الناظر، وتجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار، وهي تجري منضبطة بالقدرة الإلهية في غير أخدود (شِقّ).

٢ - المساكن الطيبة في جنات عدن، أي القصور من الزبرجد (جوهر معروف هو الزمرّد الأخضر) والدُّرّ والياقوت (ذي اللون الأحمر) يفوح طيبها من مسيرة خمس مئة عام، في جنات عدن (اسم موضع معين في الجنة، أو دار إقامة). قال مقاتل والكلبي: عَدن: أعلى درجة في الجنة، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها محفوفة بها وهي مغطاة من يوم خلقها الله حتى ينزلها الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون ومن يشاء الله.

٣ - رضوان من الله أكبر وأعظم وأجل من كل ما ذكر. وفي هذا دلالة واضحة على أن السعادة الروحانية أفضل من الجسمانية.

جهاد الكفار والمنافقين وأسبابه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ
وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟
بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ
فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ
وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ :

وقرأ نافع: (والنبيء).

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً: (ماواهم).

﴿وَبِئْسَ﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، ووقفاً حمزة (وبيس).

الإعراب:

﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟﴾ اللام لام القسم.

﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ الاستثناء مفرّغ.

البلاغة:

﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه تأكيد المدح بما يشبه الذّم، كما قال الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قِراع الكتائب

المفردات اللغوية:

﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ بالسّلاح. والجهاد: استفراغ الجهد والوسع في مدافعة العدوّ. ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ باللسان والحجّة. ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ بالانتهار والمقت، والغلظة: الخشونة والقسوة في المعاملة وهي ضدّ اللين. ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ المرجع.

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي المنافقون. ﴿مَا قَالُواْ﴾ وهو ما بلغك عنهم من السّبّ والطّعن. ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام. ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾ من الفتك بالنّبي ﷺ ليلة العقبة، عند عوده من تبوك، وهم بضعة عشر رجلاً، فضرب عمار بن ياسر وجوه الرّواحل لما غشوه، فردّوا. ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ أنكروا وكرهوا وعابوا عليه. ﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ أي أثراهم بالغنائم بعد شدّة حاجتهم. ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ عن النّفاق ويؤمنوا بك. ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ﴾ عن الإيمان. ﴿عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالقتل. ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بالنّار. ﴿وَلِيّٖ﴾ يحفظهم منه. ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾ يمنعهم منه.

سبب النزول:

نزول الآية ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾:

قال الضّحّاك: خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، وكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبّوا رسول الله ﷺ وأصحابه، وطعنوا في الدِّين، فنقل ما قالوا حُذيفة إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا أهل النِّفاق، ما هذا الذي بلغني عنكم؟»، فحلفوا ما قالوا شيئاً من ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية كِذّاباً لهم[١].

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ١٤٤

وقال قتادة فيما أخرجه عنه ابن جرير: ذكر لنا أن رجلين اقتتلا، أحدهما من جهينة، والآخر من غفار، فظهر الغفاري على الجهني، فنادى عبد الله بن أبي، يا بني الأوس انصروا أخاكم، فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، فوالله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، فسمع بها رجل من المسلمين، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فأخبره، فأرسل إليه، فجعل يحلف بالله ما قال، وأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن الجُلاس بن سُويد أحد المتخلّفين عن غزوة تبوك قال: لئن كان هذا الرّجل صادقاً (يعني محمداً ﷺ) على إخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا، لنحن شرّ من الحمير (يقصد الآيات التي نزلت فيمن تخلّف من المنافقين) فرفع عمير بن سعيد ذلك إلى رسول الله ﷺ، فحلف بالله: ما قلت، فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية. فزعموا أنه تاب وحسنت توبته.

ولعل أصحّ ما ذكر في سبب نزول هذه الآية: ما رواه ابن جرير والطّبراني وأبو الشيخ بن حيان وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ جالساً في ظلّ شجرة، فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموا، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال له: علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرّجل، فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فتجاوز عنهم، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية».

والخلاصة: إنه عليه الصّلاة والسّلام أقام في غزوة تبوك شهرين، ينزل عليه القرآن، ويعيب المتخلّفين، فنطق بعضهم بكلمة الكفر التي لم تذكر في القرآن، لئلا يتعبّد المسلمون بتلاوتها، فاختلف الرّواة فيها، كما ذكر، ولا مانع من تعدد أسباب النّزول.

---

(١) أسباب النزول، المرجع السابق، تفسير الرازي: ١٦/١٣٦، تفسير ابن كثير: ٢/٣٧١

نزول: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ :

قال الضَّحّاك: هموا أن يدفعوا ليلة العقبة، وكانوا قوماً قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ، وهم معه يلتمسون غرّته حتى أخذ في عقبة، فتقدّم بعضهم وتأخَّر بعضهم، وذلك كان ليلاً، قالوا: إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي، وكان قائده في تلك الليلة عمار بن ياسر، وسائقه حذيفة، فسمع حذيفة وَقْع أخفاف الإبل، فالتفت فإذا هو بقوم متلثِّمين، فقال: إليكم يا أعداء الله فأمسكوا، ومضى النَّبي ﷺ حتى نزل منزله الذي أراد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ (١).

المناسبة:

بعد أن قارن الله تعالى صفات المؤمنين مع صفات المنافقين، وقابل بين جزاء كل من الفريقين، عاد مرة أخرى إلى تهديد الكفار والمنافقين وإنذارهم بالجهاد، وأبان أسبابه من إظهار الكفر، وحلف الأيمان الكاذبة، وقول كلمات فاسدة، ثم فتح لهم باب الأمل وهو التوبة، وهددهم بالعذاب الأليم إن أصروا على الكفر.

التفسير والبيان:

الجهاد ثلاثة أنواع: جهاد العدو الظاهر، وجهاد الشيطان، وجهاد النفس والهوى. ويشملها كلها قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٨] وقوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٤١]. وقال ﷺ فيما رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن أنس بن مالك: «جاهِدُوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» والجهاد باللسان: إقامة الحجة والبرهان.

(١) أسباب النزول، المرجع السابق: ص ١٤٥، تفسير الرّازي، المرجع السابق.

وروى ابن كثير عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٩/٥] وسيف للكفار: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٩/٢٩] وسيف للمنافقين: ﴿جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٩/٧٣] وسيف للبغاة: ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٤٩/٩] .

وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، كما اختار ابن جرير الطبري. فإن لم يظهروا النفاق يعاملون باتفاق الأئمة معاملة المسلمين إلا إذا ارتدوا، أو بَغَوْا على جماعة المسلمين بالقوة، أو امتنعوا من إقامة شعائر الإسلام وأركانه. قال ابن عباس رضي الله عنه: جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين باللسان، أي بالحجة والبرهان.

والكافر: هو كل من لم يؤمن بالإسلام، أو من لم ينطق بالشهادتين، والكفر: ستر نعمة الله تعالى وجحود الإسلام. والمنافق: هو الذي يستر كفره وينكره بلسانه.

ومعنى الآية: يا أيها النبي جاهد كلاً من الكفار والمنافقين، واغلظ عليهم أي عاملهم بالخشونة والشدة، ولا تحابهم ولا تلن لهم واعلم أن مقرهم جهنم لا مقر لهم سواه، وبئس المصير مصيرهم: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٦] . أي إن لهم عذابين: عذاب الدنيا بالجهاد، وعذاب الآخرة في جهنم.

والجهاد: عبارة عن بذل الجهد، وليس في الآية ما يدل على أن ذلك الجهاد بالسيف أو باللسان، أو بطريق آخر، وإنما تدل على وجوب الجهاد مع الفريقين، فأما كيفية تلك المجاهدة فلفظ الآية لا يدل عليها، بل إنما يعرف من دليل آخر، وهذا هو الرأي الصحيح الذي اختاره الرازي.

وقد دلت الدلائل الأخرى من غير الآية على أن جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين تارة بإقامة الحجة والبرهان، وبترك الرفق أحياناً، وبالانتهار أحياناً أخرى. قال ابن مسعود في قوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: تارة باليد (أي بالسلاح الحربي) وتارة باللسان، فمن لم يستطع فليكشر في وجهه، فمن لم يستطع فبالقلب.

وقد أدت سياسة الإسلام الحكيمة بأمر الله وحكمة رسوله، ومعاملة المنافقين معاملة المسلمين في الظاهر، إلى توبة أكثرهم وإسلام الألوف منهم.

ثم ذكر الله تعالى أسباب جهاد الكفار والمنافقين، وهي إظهار الكفر بالقول، والهمّ بالفتك برسول الله ﷺ، والاستهزاء بآيات الله وبالنبي والمؤمنين، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾.

أي إن القرآن يثبت للمنافقين الكذب الصريح واليمين الفاجرة، فهم يحلفون بالله، أنهم ما قالوا كلمة الكفر التي رويت عنهم، ولم يذكر القرآن تلك الكلمة، ترفعاً من ذكرها، ولئلا يردد المسلمون تلاوتها، ولكنهم قالوها، وهي كما ذكر في سبب النزول: إنهم لما اجتمعوا إثر رجوع النبي ﷺ من تبوك، وكانوا خمسة عشر، بقصد الفتك به، ودفعه عن راحلته، فقد طعنوا في نبوته، ونسبوه إلى الكذب، والتصنع في ادعاء الرسالة، وذلك هو قول كلمة الكفر، كما اختار الزجاج والرازي.

وكفروا بعد إسلامهم: معناه أظهروا الكفر بعد أن أظهروا الإسلام.

وهمهم بما لم ينالوا: هو اغتيال الرسول في العقبة، بعد رجوعه من تبوك. والصحيح أن عددهم كما جاء في رواية مسلم اثنا عشر منافقاً.

وما أنكر هؤلاء المنافقون وما عابوا من أمر الإسلام أو الدين وبعثة النبي ﷺ شيئاً، إلا أن أغناهم الله تعالى من فضله ورسوله، بالغنائم الحربية،

وكانوا كسائر الأنصار في المدينة فقراء، كما قال النبي ﷺ للأنصار: «كنتم عالة، فأغناكم الله بي» أي أن أكثر أهل المدينة كانوا بحاجة وضنك من العيش، فلما قدمهم رسول الله ﷺ أثروا بالغنائم.

وروي أنه قتل للْجُلاس بن سويد (أحد المتخلفين عن تبوك) مولى، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً، فاستغنى.

فليس هناك شيء ينقمون منه إلا أن الإسلام كان سبباً في غناهم. وهذا مدح بما يشبه الذم.

فإن يتوبوا من النفاق ومساوئ أقوالهم وأفعالهم، يكن ذلك خيراً لهم وأصلح، ويفوزوا بالخير، ويقبل الله توبتهم. وفي هذا ترغيب لهم بالتوبة، وفتح باب الأمل والرجاء بالرحمة أمامهم.

وإن يتولوا عن التوبة بالإصرار على النفاق، يعذبهم الله عذاباً مؤلماً في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فهو قتلهم وسبي أولادهم ونسائهم واغتنام أموالهم، وعيشهم في قلق وهم وخوف، كما قال تعالى عنهم: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة: ٩/٥٧] وقال: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٦٣/٤] . وأما عذابهم في الآخرة فهو معروف، وهو إلقاؤهم في الدرك الأسفل من النار.

وما لهم في الأرض كلها من ولي يتولى أمورهم ويدافع عنهم، ولا نصير ينصرهم وينجّيهم من العذاب، إذ إن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وأما المنافقون فلا ولاية لهم ولا نصرة بينهم، فليس لهم أحد يجلب لهم خيراً أو يدفع عنهم شراً.

فقه الحياة أو الأحكام:

موضوع الآيات جهاد الكفار والمنافقين وأسباب ذلك، وقد دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - وجوب مجاهدة الكفار والمنافقين، والخطاب للنبي ﷺ ولأمته من بعده.

وجهاد الكفار بالسيف وسائر أنواع الأسلحة الحربية، وجهاد المنافقين باللسان، وشدة الزجر والتغليظ، أي بإقامة الحجة والبرهان تارة، وبالانتهار أوالكَهْر تارة أخرى. ويلاحظ أن إقامة الحجة باللسان دائمة.

٢ً - أسباب جهادهم: إعلان الكفر، وسبّ النبي ﷺ، والطعن في الإسلام، وتآمرهم على اغتيال النبي ﷺ، واستهزاؤهم بآيات الله وبالرسول والمؤمنين.

٣ً - حلفهم الأيمان الفاجرة الكاذبة. والصحيح أن هذه الأقوال والأفعال الخبيثة هي ظاهرة عامة بين المنافقين؛ لعموم القول، ووجود المعنى في عبد الله ابن أبي والجُلاس بن سُويد، ووديعة بن ثابت وفي غيرهم. وأساس اعتقادهم في النبي أنه ليس بنبي.

٤ً - كلمة الكفر التي قالوها قيل: هي تكذيبهم بما وعد الله من الفتح، أو قول الجُلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن أشرّ من الحمير، أو قول عبد الله بن أبي: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨] ، وقيل: هي سبّ النبي ﷺ والطعن في الإسلام. والظاهر هو المعنى الأخير.

٥ً - دل قوله: ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي بعد الحكم بإسلامهم، على أن المنافقين كفار، ويدل عليه دلالة قاطعة قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ [المنافقون: ٦٣/٣] .

ودلَّ هذا القول أيضاً على أن الكفر يكون بكل ما يناقض التصديق بالله وبالنبوة، والمعرفة لله عز وجل، وإن كان الإيمان لا يكون إلا بلا إله إلا الله،

دون غيره من الأقوال والأفعال إلا في الصلاة. فمن شوهد يصلي الصلاة في وقتها، حتى صلى صلوات كثيرة حكم عليه بالإيمان.

٦ - دلَّ قوله: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ على مؤامرة جماعية من المنافقين، وكانوا في الأصح اثني عشر منافقاً، لقتل النبي ﷺ ليلة العقبة في غزوة تبوك. تشبه مؤامرة كفار قريش ليلة الهجرة.

٧ - المنافقون من شرّ الناس؛ لأنهم كما ذكر تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ﴾ غادرون، يقابلون الإحسان بالإساءة، فقد استغنوا بالغنائم، ومع ذلك هموا بقتل النبي ﷺ، فانطبق عليهم المثل المشهور: «اتق شرّ من أحسنت إليه».

٨ - أرشد قوله: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ على توبة الكافر الذي يسرّ الكفر، ويُظهر الإيمان، وهو الذي يسميه الفقهاء: الزنديق. وقد اختلف العلماء في شأن توبته، فقال الشافعي والجمهور: تقبل توبته، وقال مالك: توبة الزنديق لا تعرف؛ لأنه كان يظهر الإيمان ويُسرُّ الكفر، ولا يعلم إيمانه إلا بقوله. فإذا عثر عليه وقال: تبت، لم يقبل قوله، وإذا جاءنا تائباً من قبل نفسه قبل أن يعثر عليه، قُبلت توبته. وهو المراد بالآية.

٩ - المنافقون خسروا الدنيا والآخرة، فإن هم أصروا على النفاق يعذبهم الله عذابين: في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار، وما لهم في الأرض كلها ولي أي مانع يمنعهم، ولا نصير أي معين ينصرهم.

كذب المنافقين وإخلافهم العهد والوعد
قصة ثعلبة بن حاطب المزعومة

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾
فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟
يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ
ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

القراءات:

﴿ٱلْغُيُوبِ﴾:

وقرأ حمزة (الغِيوب).

الإعراب:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ ﴿مَّنْ﴾: مبتدأ ﴿وَمِنْهُم﴾ متعلق بالخبر المحذوف، وتقديره: كائن منهم. وهي صيغة قسم في المعنى، بدليل اللام في قوله: ﴿لَئِنْ﴾ وهي لام القسم، وأما لام: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ فهي لام الجواب. وكلاهما للتأكيد.

البلاغة:

﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ و﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فيهما جناس اشتقاق.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع.

المفردات اللغوية:

﴿وَمِنْهُم﴾ أي ومن المنافقين. ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال ابن عباس

رضي الله عنه: يريد الحج. ﴿وَتَوَلَّوا﴾ عن طاعة الله. ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ فأورثهم البخل، والضمير يعود للبخل، في رأي الحسن وقتادة رحمهما الله، والظاهر أن الضمير لله عز وجل. ﴿نِفَاقًا﴾ ثابتاً متمكناً. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لأنه كان سبباً فيه وداعياً إليه، وبما أن الضمير يعود لله تعالى في الراجح فالمعنى: فخذلهم حتى نافقوا، وتمكن في قلوبهم نفاقهم، فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصدق والصلاح. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ إلى يوم لقاء الله وهو يوم القيامة.

سبب النزول:

هناك قصة مشهورة بين الناس تروي سبب نزول هذه الآيات رددتها كتب التفسير، لكنها لم تصح لدى المحدثين، وهي ما أخرجه الطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل بسند ضعيف عن أبي أمامة: أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: وَيْحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، قال: والله، لئن آتاني الله مالاً، لأوتين كل ذي حقّ حقه، فدعا له، فاتخذ غنماً، فنمت، حتى ضاقت عليه أزقّة المدينة، فتنحَّى بها، وكان يشهد الصلاة، ثم يخرج إليها، ثم نمت حتى تعذرت عليه مراعي المدينة، فتنحى بها، فكان يشهد الجمعة، ثم يخرج إليها، ثم نمت فتنحى بها، فترك الجمعة والجماعة، ثم أنزل الله على رسوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فاستعمل على الصدقات رجلين، وكتب لهما كتاباً، فأتيا ثعلبة، فأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال: انطلقا إلى الناس، فإذا فرغتما، فمرا بي، ففعلا، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية! فانطلقا، فأنزل الله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس نحوه.

فجاء ثعلبة بالصدقة، فقال النبي ﷺ: إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك. فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال: هذا جزاء عملك، قد أمرتك، فلم تطعني؛ فقُبض رسول الله ﷺ، فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فلم يقبلها، ثم جاء بها إلى عمر في خلافته فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان رضي الله عنه.

والحقيقة أن ما روي عن ثعلبة هذا غير صحيح لدى المحدثين، وثعلبة . قال ابن عبد البر: ولعلَّ قول من قال في ثعلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح، والله أعلم.

وقال الضحاك: إن الآية نزلت في رجال من المنافقين: نَبْتَل بن الحارث، وجَدّ بن قيس، ومُعَتِّب بن قُشَير. قال القرطبي: وهذا أشبه بنزول الآية فيهم؛ إلا أن قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾ يدل على أن الذي عاهد الله تعالى لم يكن منافقاً من قبل، إلا أن يكون المعنى: زادهم نفاقاً ثبتوا عليه إلى الممات، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾(١).

وذكر عن ابن عباس في سبب نزول الآية أن ثعلبة بن حاطب أبطأ عنه ماله بالشام، فحلف في مجلس من مجالس الأنصار: إن سلم ذلك لأتصدقن منه، ولأصِلَنّ منه، فلما سلم بخل بذلك، فنزلت. وهذا أيضاً غير صحيح.

المناسبة:

لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين، وتفضح أسرارهم، وتكشف أحوالهم للناس، وبما أنهم أقسام وأصناف ذكرهم تعالى على التفصيل، فقال: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التوبة: ٩/٦١] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٩/٥٨] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التوبة: ٩/٤٩] ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾.

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ٢١٠

التفسير والبيان:

وبعض المنافقين عاهد الله ورسوله: لئن أغناه الله من فضله، ليصدّقن وليكونن من الصالحين الذين ينفقون أموالهم في مرضاة الله، كصلة الرحم والجهاد. فقوله: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ إشارة إلى إخراج الزكاة الواجبة، وقوله: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إشارة إلى إخراج كل مال يجب إخراجه على الإطلاق.

فلما رزقهم الله تعالى، وأعطاهم من فضله ما طلبوا، لم يوفوا بما قالوا، ولم يصدقوا فيما وعدوا، وإنما بخلوا به وأمسكوه، فلم يتصدقوا منه بشيء، ولم ينفقوا منه في مصالح الأمة كما عاهدوا الله عليه، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة عن العهد وطاعة الله، وأعرضوا إعراضاً جازماً عن النفقة وعن الإسلام، بسبب تأصل طبع النفاق في نفوسهم.

و بخلوا به أي بإعطاء الصدقة وبإنفاق المال في الخير، وبالوفاء بما ضمنوا والتزموا. وهم معرضون أي عن الإسلام. وهذا يدل على أنه تعالى وصفهم بصفات ثلاث: الأولى: البخل: وهو عبارة عن منع الحق، والثانية: التولي عن العهد، والثالثة: الإعراض عن تكاليف الله وأوامره.

فأعقبهم الله تعالى أي صيّر عاقبة أمرهم نفاقاً دائماً في قلوبهم، بمعنى زادهم نفاقاً، وقيل: أعقبهم ذلك البخل نفاقاً، ولهذا قال: ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ والأول أصح؛ لأن البخل لا يؤدي عادة إلى النفاق فقد يوجد لدى كثير من الفساق، ولأن الضمير في قوله تعالى: ﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾ عائد إلى الله تعالى.

واستمر ذلك النفاق ثابتاً متمكناً ملازماً قلوبهم إلى يوم الحساب في الآخرة. وفي هذا دليل على أنهم ماتوا منافقين.

وهذا دليل آخر على أن المنزل فيه هو ثعلبة بن حاطب ويقال له: ابن أبي

حاطب وهو من بني أمية بن زيد، وليس هو البدري لأنه قد استشهد بأحد رضي الله تعالى عنه.

ثم ذكر الله تعالى سببين للموت على النفاق وهما: إخلاف الوعد والكذب، فقال: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ أي أن ملازمة النفاق لهم كان بسبب إخلافهم ما وعدوا الله تعالى من التصدق والصلاح، وكونهم كاذبين، وكذبهم: نقضهم العهد وتركهم الوفاء بما التزموه من ذلك.

أي إنه تعالى أعقبهم النفاق في قلوبهم إلى الموت بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، وخلف الوعد والكذب من أخص صفات المنافقين، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان». وخرّج البخاري أن النبي ﷺ قال: «أربع من كنَّ فيه، كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خَصْلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدَر، وإذا خاصم فجر».

ثم ندد الله تعالى بالمنافقين ووبخهم فقال: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم السر وأخفى، ويعلم ما يسرونه من الكلام، ويتناجون أو يتحدثون به فيما بينهم من المطاعن في الدين، وأنه أعلم بضمائرهم، فإنهم إن قالوا: ليتصدقن بشيء من أموالهم، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم، وأنه علام الغيوب، يعلم كل غيب وشهادة، وكل سرّ ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم الله كل ذلك وما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به، وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه؟!

والفرق بين السرّ والنجوى والغيب: أن السر: ما ينطوي عليه صدورهم، والنجوى: ما يتحدث به الناس فيما بينهم. والغيب: ما كان غائباً عن الخلق.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

١ - المعاهدة مع الله توجب الوفاء بالعهد، وهل من شرط المعاهدة التلفظ بها باللسان أو لا حاجة إلى التلفظ، وإنما تكفي النية في القلب؟ خلاف بين العلماء، قال المالكية: العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المرء، ولا يفتقر إلى غيره فيه، فإنه يلزمه منه ما يلتزمه بقصده، وإن لم يتلفظ به. سئل مالك: إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه، فقال: يلزمه؛ كما يكون مؤمناً بقلبه، وكافراً بقلبه. وروي عنه غير ذلك كما سيأتي.

وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا يلزم أحداً حكم إلا بعد أن يلفظ به، وذلك يشمل النذور والأيمان والطلاق ونحوها. ودليلهم ما رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم به» قال ابن عبد البر: هذا هوالأشهر عن مالك، وقال القرطبي: وهذا هوالأصح في النظر وطريق الأثر؛ لقول رسول الله ﷺ فيما رواه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، مالم تتكلم به أو تعمل به».

وبناء عليه: إن كان المعاهد به نذراً، فالوفاء بالنذر واجب من غير خلاف، وتركه معصية. وإن كان يميناً فليس الوفاء باليمين واجباً باتفاق.

٢ - دلَّ قوله تعالى: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ على أن من قال: «إن ملكتُ كذا وكذا فهو صدقة» فإنه يلزمه، وبه قال أبو حنيفة. وقال الشافعي: لا يلزمه. ويجري الخلاف في الطلاق والعتق. وقال أحمد: يلزمه ذلك في الطلاق، ولا يلزمه في العتق؛ لأن العتق قُرْبة، وهي تثبت في الذمة بالنذر، بخلاف الطلاق، فإنه تصرف في محل.

واحتج الشافعي بما رواه أبو داود والترمذي وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نذرَ لابن آدم فيما لا يملك، ولا عتق له فيما لا يملك، ولا طلاق له فيما لا يملك» وهو قول أكثر الصحابة والتابعين وغيرهم.

٣ً - مظاهر نقض المنافقين العهد تمثلت في أوصاف ثلاثة:

أ - البخل بإعطاء الصدقة وبإنفاق المال في الخير وبالوفاء بما ضمنوا والتزموا.

ب - والتولي عن العهد وعن طاعة الله تعالى.

ج - وإظهار الإعراض عن الإسلام أي عن تكاليف الله وأوامره.

٤ً - ظاهر هذه الآية يدل على أن نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق، فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه، فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به.

٥ً - دلَّ قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ على أن ذلك المعاهِد مات منافقاً، وهذا إخبار بالغيب الذي هو أحد وجوه إعجاز القرآن.

٦ً - قوله تعالى: ﴿نِفَاقًا﴾: إذا كان النفاق في القلب فهو الكفر، وأما إذا كان في الأعمال فهو معصية. وعلى هذا فإن الخيانة والكذب ونقض العهد والفجور عند الخصام التي هي آية المنافق في الحديث تعتبر معاصٍ لا تكفّر مرتكبها، قال ابن العربي: قد قام الدليل الواضح على أن متعمد هذه الخصال لا يكون كافراً، وإنما يكون كافراً باعتقاد يعود إلى الجهل بالله وصفاته أو التكذيب له، تعالى وتقدس عن اعتقاد الجاهلين وعن زيغ الزائغين. ثم قال: والذي عندي أنه لو غلبت عليه المعاصي ما كان بها كافراً ما لم يؤثر في الاعتقاد[١].

---

(١) أحكام القرآن: ٢/ ٩٧٤ وما بعدها.

وقالت طائفة عن الحديث: ذلك مخصوص بالمنافقين زمان رسول الله ﷺ.

٧ - يوصف الله تعالى بأنه علام الغيوب، أي إن ذاته تقتضي العلم بجميع الأشياء، فيعلم بجميع المعلومات، وهو عالم بما في الضمائر والسرائر. فأما وصف الله بالعلامة فإنه لا يجوز؛ لأنه مشعر بنوع تكلف بالعلم، والتكلف في حق الله تعالى محال.

طعن المنافقين بالمؤمنين وعدم المغفرة لهم

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

الإعراب:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبتدأ، و﴿يَلْمِزُونَ﴾: صلته، و﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ من صلة ﴿يَلْمِزُونَ﴾. وما بين ﴿يَلْمِزُونَ﴾ و﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ داخل في صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾: عطف على ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ وخبر المبتدأ: إما أن يكون ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أو أن يكون مقدراً، تقديره: ومنهم الذين يلمزون.

البلاغة:

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التنوين في ﴿عَذَابٌ﴾: للتهويل والتفخيم.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ بينهما طباق السلب، والمراد بالأمر التسوية.

﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ هذا جار مجرى المثل للمبالغة، وليس لتحديد العدد. وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبع مئة ونحوها في التكثير، لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد، فكأنه العدد بأسره.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ يعيبون. ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوعين أو المتنفلين المؤدي النفل بعد الواجب. ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ طاقتهم: وهي أقصى ما يستطيعه الإنسان، فيأتون به. ﴿سَخِرَ﴾ استهزأ بهم احتقاراً، والمراد هنا جازاهم على سخريتهم، مثل: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥] فهو خبر غير دعاء. ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يا محمد. ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يراد به التسوية بين الأمرين. ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ المراد بالسبعين: المبالغة في كثرة الاستغفار.

سبب النزول:

روى الشيخان عن أبي مسعود البدري قال: «لما نزلت آية الصدقة، كنا نُحامل[(١)] على ظهورنا فجاء رجل (أبو عقيل اسمه الحبْحاب) بشيء كثير، فقالوا: مراءٍ، فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزل: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ الآية.

المناسبة:

هذا نوع آخر من أعمال المنافقين القبيحة، وهو لمزهم من يأتي بالصدقات طوعاً وطبعاً.

---

(١) المعنى: نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة، ونتصدق من تلك الأجرة، أو نتصدق بها كلها، وبعبارة أخرى: نؤاجر أنفسنا في الحمل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه عنه ابن جرير: إن رسول الله ﷺ خطبهم ذات يوم، وحث على أن يجمعوا الصدقات، فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف درهم، فأمسكت لنفسي وعيالي أربعة، وهذه الأربعة أقرضتها ربي، فقال: بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت. قيل: قبل الله دعاء الرسول ﷺ فيه، حتى صالحت امرأته ناضر عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً.

وجاء عمر بنحو ذلك، وجاء عاصم بن عدي الأنصاري بسبعين وَسْقاً من تمر الصدقة، وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر، وقال: آجرت الليلة الماضية نفسي من رجل لإرسال الماء إلى نخيله، فأخذت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما لعيالي، وأقرضت الآخر ربي، فأمر رسول الله ﷺ بوضعه في الصدقات.

فقال المنافقون على وجه الطعن: ما جاؤوا بصدقاتهم إلا رياء وسمعة. وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكر مع سائر الأكابر، والله غني عن صاعه، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

التفسير والبيان:

إن شأن المنافقين في كل أمة عجيب وغريب، ديدنهم تثبيط الهمم، وتدمير القيم، فلا يسلم أحد من طعنهم، ولو كان العمل خيراً محضاً؛ فهم يعيبون المتطوعين في الصدقات، والمراد بها هنا النوافل، سواء أكان المتطوع غنياً يأتي بالكثير كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، أم فقيراً كأبي عقيل، الذي يأتي بالقليل، وهو جهد المقلّ، فلا يجدون ما ينفقون في سبيل الله إلا غاية جهدهم ومنتهى طاقتهم، فيهزؤون منهم، وذكر هؤلاء، وإن كانوا داخلين في المتطوعين؛ لأن السخرية منهم كانت أشد وأوقع.

---

(١) تفسير الرازي: ١٦/ ١٤٤ ـ ١٤٥

ولكن الله تعالى سخر منهم، أي جازاهم على سخريتهم بمثل ذنبهم، حيث صاروا إلى النار، فقوله: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ من باب المقابلة أو المشاكلة على سوء صنيعهم، واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر منهم، انتصاراً للمؤمنين في الدنيا.

وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً شديداً مؤلماً؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

ثم أبان الله تعالى أنهم كالكفار ليسوا أهلاً للاستغفار، ولا ينفعهم الدعاء، فسواء استغفر لهم الرسول أو لم يستغفر لهم، فلن يستر الله عليهم ذنوبهم بالعفو عنها، وترك فضيحتهم بها، وإنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ولن يعفو عنهم، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ [المنافقون: ٦٣/٦] .

وليس المراد بالسبعين هنا التحديد بعدد معين، فيكون ما زاد عليها بخلافها، وإنما المراد المبالغة في الكلام بحسب أسلوب العرب.

وقد كان النبي ﷺ إظهاراً لرحمته بالأمة، ولطلبهم الاستغفار منه، يدعو الله لهم بالهداية، ويستغفر لهم، كما كان يدعو للمشركين كلما اشتد إيذاؤهم له، فيقول كما روى ابن ماجه: «اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون» فمنعه الله من ذلك.

وكان عذر الرسول ﷺ في استغفاره: هو عدم يأسه من إيمانهم، ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ٩/١١٣] .

وقد ذكر الله تعالى هنا سبب عدم قبول الاستغفار والدعاء لهم بقوله:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ أي إنهم كفروا وجحدوا بالله ورسوله، فلم يقروا بوحدانية الله تعالى، ولم يعترفوا ببعثه النبي ﷺ، وأصروا على الجحود والإنكار، فلم تعد قلوبهم مستعدة لقبول الخير والنور، وإن سنة الله ألا يوفق للخير القوم المتمردين في الكفر، الخارجين على الطاعة، الذين فقدوا الاستعداد للإيمان والتوبة. فاليأس من المغفرة وعدم قبول الاستغفار لهم ليس لبخل من الله، ولا قصور في النبي، بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عن المغفرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن المنافقين قوم حيارى مرضى القلوب لا يدركون حقيقة الأمور، فتراهم يعيبون غيرهم من المؤمنين، تستراً على النفاق، وحماية لأنفسهم من افتضاح أمرهم، وحباً في النقد والطعن، فافتضح القرآن أسرارهم، وأبان سوء تصرفاتهم.

٢ - لقد كان جزاء لمزهم وعيبهم المؤمنين المتطوعين بالإنفاق في سبيل الله هو النار والعذاب الأليم فيها؛ لأن الجزاء من جنس العمل كما تبين.

٣ - لن ينفعهم استغفار الرسول ما داموا كفاراً مصرين على النفاق. قال الشعبي: سأل عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله ﷺ، وكان رجلاً صالحاً أن يستغفر لأبيه في مرضه، ففعل، فنزلت الآية. أي إن استغفار الرسول ﷺ لبعض المنافقين كان بطلبهم، لكن رجح الرازي أنه ﷺ لم يستغفر لهم؛ لأنه يعلم أن المنافق كافر، والاستغفار للكافر لا يجوز في شرعه، وإنما لما طلب القوم منه أن يستغفر لهم، منعه الله منه[1].

---

(١) تفسير الرازي: ١٦/ ١٤٧

فرح المنافقين المتخلفين عن الجهاد في غزوة تبوك

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟
يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

الإعراب:

﴿خِلَٰفَ﴾ منصوب؛ لأنه مفعول لأجله، وقيل: لأنه مصدر.

﴿جَزَآءًۢ﴾ مفعول لأجله، أي للجزاء.

البلاغة:

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ فيه ما يسمى بالمقابلة من أنواع الجناس.

المفردات اللغوية:

﴿فَرِحَ﴾ سرّ وطرب، والفرح: شعور النفس بالارتياح والسرور. ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ المتروكون في المدينة عن تبوك، من خلّف فلاناً، أي تركه خلفه. ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ بقعودهم. ﴿خِلَٰفَ﴾ أي بعد، أو هو مصدر كالمخالفة، ويصح المعنيان هنا. ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي قال بعضهم لبعض. ﴿لَا تَنفِرُوا۟﴾ تخرجوا إلى الجهاد. ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ من تبوك، فالأولى أن يتقوها بترك التخلف. ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ يعقلون أو يعلمون ذلك ما تخلفوا. ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا﴾ في الدنيا. ﴿وَلْيَبْكُوا۟﴾ في الآخرة. وهو خبر عن حالهم وارد بصيغة الأمر.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا

معه، وذلك في الصيف، فقال رجال: يا رسول الله، الحر شديد، ولا نستطيع الخروج، فلا ننفر في الحر، فأنزل الله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾.

وأخرج ابن جرير أيضاً عن محمد بن كعب القرظي قال: خرج رسول الله ﷺ في حر شديد إلى تبوك، فقال رجل من بني سلمة: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى بعض قبائح المنافقين من اعتذارهم عن الخروج للقتال في تبوك، ولمزهم في قسمة الصدقات، عاد إلى بيان حال أولئك الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وهو نوع آخر من قبائحهم، وهو فرحهم بالقعود وكراهتهم الجهاد.

وسموا بالمخلّفين لا بالمتخلفين أي المتأخرين عن الجهاد، لأنهم تخلفوا عن الرسول ﷺ بعد خروجه إلى الجهاد، من حيث إنهم لم ينهضوا، فبقوا وأقاموا، ولأن الرسول منع أقواماً منهم من الخروج معهم، لعلمه بأنهم يفسدون ويشوشون، ولأن الله تعالى لما منعهم في الآية التالية عن الخروج معه بقوله: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾ صاروا بهذا السبب مخلّفين.

التفسير والبيان:

هذه الآيات ذمّ واضح للمنافقين المتخلفين عن المشاركة في القتال في غزوة تبوك، وإخبار عن مصيرهم السَّيِّئ في الآخرة، وقد نزلت في أثناء السفر.

والمعنى: فرح أولئك المنافقون المخلّفون في المدينة بقعودهم في بيوتهم، بعد أن تركهم رسول الله ﷺ عند خروجه إلى غزوة تبوك، وسبب فرحهم عدم إيمانهم بأن في الجهاد خيراً، وكراهيتهم الجهاد مع النبي ﷺ بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. والفرح بالإقامة يدل على كراهة الذهاب، إلا أنه تعالى أعاده للتأكيد.

والخلاصة: إنهم فرحوا بسبب التخلف، وكرهوا الذهاب إلى الجهاد.

ولم يقتصر الأمر على فرحهم بأنفسهم، بل أغروا غيرهم بعدم الخروج، وقال بعضهم لبعض: لا تخرجوا للجهاد؛ لأن غزوة تبوك في شدة الحر، وقد طابت الثمار والظلال.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ أي إن نار جهنم التي أعدت للعصاة والتي تصيرون إليها بمخالفتكم أشدُّ حراً مما فررتم منه من الحر، فلو كانوا يعقلون ذلك ويعتبرون به، لما خالفوا وقعدوا، ولما فرحوا بل حزنوا، كما روى الإمام مالك والشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم».

ثم أخبر الله تعالى عن عاقبة أمرهم فقال: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ﴾ أي إن الأولى بهم أن يضحكوا ويفرحوا قليلاً، ويبكوا كثيراً، وهو خبر عن حالهم وارد بصيغة الأمر، يقصد به التهديد وانتظار ما سيلاقون من عذاب شديد، جزاءً على ما اقترفوه أو اكتسبوه من الجرائم والنفاق. أخرج الشيخان في الصحيحين عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشِراكان من نار جهنم، يغلي منهما دماغه، كما يغلي المِرْجَل، لا يرى أن أحداً من أهل النار أشدَّ عذاباً منه، وإنه أهونُهم عذاباً».

فقه الحياة أو الأحكام:

الآيات تدل على قصر نظر الإنسان، فهو ينظر غالباً إلى الحال والواقع الذي هو فيه، ولا ينظر إلى المستقبل وما يتمخض عنه من أحداث. فهؤلاء المنافقون فرحوا بالقعود والراحة في المدينة لعدم إيمانهم بجدوى الجهاد، وكرهوا الجهاد؛ لأنه يحرمهم نعمة التفيؤ بالظلال وقطاف الثمار.

ولكن القرآن لامَهُمْ ونبَّه عقولهم، فإن شدة الحر في نار جهنم التي يصيرون

إليها بسبب تخلفهم عن جهاد الأعداء ونصرة الإسلام أكثر بكثير جداً من حر الصيف في الدنيا.

ثم هددهم تعالى بأنهم إن فرحوا قليلاً في الدنيا، فليبكوا وليحزنوا كثيراً في جهنم، أو إنهم سيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً، جزاءً بما كسبت أنفسهم، واقترفته أيديهم.

ولا يقتصر هذا التهديد على المنافقين، بل يشمل العباد الصالحين الذين يتحسسون شدة الخوف من الله تعالى، أخرج الترمذي أن النبي ﷺ قال: «والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولخرجتم إلى الصُّعُدات[1] تجأرون إلى الله تعالى، لودِدت أني كنت شجرة تُعْضَد».

ولا يعني هذا منع الضحك الخفيف؛ لأن الله أضحك وأبكى، ولكن الإكثار منه وملازمته حتى يغلب على صاحبه مذموم منهي عنه، وهو من فعل السفهاء والبَطالة، وفي الخبر: «أن كثرته تميت القلب».

والخلاصة: لقد صدرت من المنافقين مخالفات خطيرة ثلاثة: هي التخلف في المدينة عن غزوة تبوك، وكراهة الجهاد، وإغراء إخوانهم بعدم الجهاد، فاستحقوا نار جهنم، فهم إن فرحوا وضحكوا في كل عمرهم، فهذا قليل؛ لأن متاع الدنيا قليل، وسيكون حزنهم وبكاؤهم في الآخرة كثيراً؛ لأنه عقاب دائم لا ينقطع، بسبب ما كانوا يكسبون في الدنيا من النفاق.

(١) الصعدات: هي الطرق، وهي جمع صُعُد، وصعُد جمع صعيد؛ كطريق وطرق وطرقات.

منع المنافقين من الجهاد والمنع من الصلاة على موتاهم والتحذير من الاغترار بأموالهم وأولادهم

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ
أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ
﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن
يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

القراءات:

﴿مَعِىَ أَبَدًا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (معيْ أبداً).

﴿مَعِىَ عَدُوًّا﴾:

وهي قراءة حفص، وقرأ الباقون (معيْ عدواً).

الإعراب:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ﴾ الكاف: منصوب برجع، وهو يكون متعدياً، كما يكون لازماً. يقال: رجع ورجعته، نحو زاد وزِدْته، ونقص ونقصته، في أفعال تزيد على ثمانين فعلاً.

﴿مَّاتَ﴾ صفة لأحد، وإنما قيل: مات وماتوا بلفظ الماضي بالنسبة إلى سبب النزول وزمان النهي، لكن معناه على الاستقبال على تقدير الكون والوجود؛ لأنه كائن موجود لا محالة.

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ تعليل للنهي.

﴿أَبَدًا﴾ ظرف متعلق بالنهي.

المفردات اللغوية:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ﴾ ردك. ﴿اللَّهُ﴾ من تبوك. ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ ممن تخلف بالمدينة من المنافقين. ﴿الْخَالِفِينَ﴾ المتخلفين من النساء والصبيان. ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ لدفن أو زيارة والمراد النهي عن الوقوف على قبره حين دفنه أو لزيارته، والقبر هو مدفن الميت. ﴿فَاسِقُونَ﴾ كافرون. ﴿وَتَزْهَقَ﴾ تخرج.

سبب النزول:

نزول الآية (٨٤):

﴿وَلَا تُصَلِّ﴾: روى الشيخان عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أُبي، جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام ليصلي عليه، فقام عمر بن الخطاب، وأخذ بثوبه، وقال: يا رسول الله، أتصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي على المنافقين؟ قال: إنما خيرني الله، فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وسأزيده على السبعين، فقال: إنه منافق، فصلى عليه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ فترك الصلاة عليهم. وقد فهم عمر ذلك من قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية، على أنه تقدم نهي صريح. أو أنه فهم ذلك من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٣] لأنها نزلت بمكة.

وورد ذلك من حديث عمر وأنس وجابر وغيرهم.

وجاء في رواية عن ابن عباس: فقال عمر رضي الله عنه، لِمَ تعطي قميصك

الرجسَ النجسَ[١]؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً، فلعل الله أن يدخل به ألفاً في الإسلام». وكان المنافقون لا يفارقون عبد الله، فلما رأوه يطلب هذا القميص، ويرجو أن ينفعه، أسلم منهم يومئذ ألف.

وقوله ﷺ: «إنما خيرني الله» مشكل، والظاهر أن الاستغفار للمنافقين الذي خير فيه إنما هو استغفار لساني لا ينفع، وغايته تطييب قلوب بعض الأحياء من قرابات المستغفر له.

وصلّى الرسول ﷺ عليه بعد أن علم كونه كافراً، وقد مات على كفره؛ لأنه لما طلب منه أن يرسل إليه قميصه الذي مسّ جلده ليدفن فيه، غلب على ظنه أنه انتقل إلى الإيمان؛ لأن ذلك الوقت وقت يتوب فيه الفاجر، ويؤمن فيه الكافر. أو إنما صلى عليه بناء على الظاهر من إعلان إسلامه. وأخرج أبو يعلى وغيره عن أنس أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن أبي، فأخذ جبريل بثوبه، فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ الآية. فهذه الرواية تدل على أنه ﷺ لم يصل على عبد الله بن أبي.

وأمام هذا التعارض في الروايات رجح بعض العلماء رواية البخاري، وجمع بعضهم بين الروايتين، فقال: المراد من الصلاة في رواية عمر وابنه: الدعاء، أو الهم بالصلاة عليه ثم منعه جبريل.

المناسبة:

ما تزال الآيات تتحدث عن مخازي المنافقين وسوء طريقتهم، فبعد أن بيّن

---

(١) وهذا يدل على منقبة عظيمة من مناقب عمر رضي الله عنه؛ وذلك لأن الوحي نزل على وفق قوله في آيات كثيرة، منها آية الفداء عن أسارى بدر، وآية تحريم الخمر، وآية تحويل القبلة، وآية أمر النسوان بالحجاب، وهذه الآية. لهذا قال عليه الصلاة والسلام في حقه: «لو لم أبعث لبعثت يا عمر نبياً».

تعالى قبائحهم، بيَّن بعض المواقف الحاسمة في معاملتهم، بعد رجوعه من غزوة تبوك، فمنعهم الله تعالى من الخروج مع النبي إلى الجهاد في غزوات أخرى؛ لأن خروجهم يؤدي إلى الفساد، ومنع النبي ﷺ من الصلاة على موتاهم؛ لأن الصلاة على الميت دعاء واستغفار واستشفاع له، والكافر ليس بأهل لذلك، ونهاه عن الاغترار بأموالهم وأولادهم أو استحسان ما لديهم؛ لأنها ليست لخيرهم، وإنما هي طريق لتعذيبهم بها في الدنيا، وانشغالهم بها عن الآخرة.

التفسير والبيان:

يأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام بأنه إن ردك الله من سفرك هذا حين رجوعك من غزوة تبوك إلى طائفة من المنافقين المتخلفين، وكانوا كما ذكر قتادة اثني عشر رجلاً، فاستأذنوك للخروج معك إلى غزوة أخرى، فقل لهم تعزيراً وعقوبة: لن تخرجوا معي أبداً على أية حال، ولن تقاتلوا معي أبداً عدواً بأي وضع كان.

ثم علل ذلك وبيّن سبب المنع بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ أي إنكم اخترتم القعود عني أول مرة، وتخلفتم بلا عذر، وكذبتم في أيمانكم الفاجرة، وفرحتم بالقعود، بل وأغريتم بالتخلف عن الجهاد، فاقعدوا أبداً مع الخالفين أي الرجال المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد كما قال ابن عباس، أو مع فئة النساء والصبيان والعجزة كما قال الحسن، لكن قال ابن جرير: وهذا لا يستقيم؛ لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أريد النساء لقال: فاقعدوا مع الخوالف أو الخالفات. وقيل: المعنى فاقعدوا مع الفاسدين، وهذا يدل على أن استصحاب المخذِّل في الغزوات لا يجوز. وقوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هي الخرجة إلى غزوة تبوك.

وعلى كل حال، فالآية تأمر بعقابهم بألا يصاحبوا النبي ﷺ أبداً، وذلك كما قال تعالى في سورة الفتح: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [١٥].

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يبرأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا عليه. وهذا نص في الامتناع من الصلاة على الكفار، وهو حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أُبي ابن سلول رأس المنافقين. ومعنى الآية: ولا تصل أيها النبي على أحد من المنافقين سيموت في المستقبل، ولا تقم على قبره حين دفنه أو لزيارته، داعياً له ومستغفراً، ويجوز أن يراد بالقبر: الدفن، ويكون المعنى: لا تتولّ دفنه.

ثم بيَّن الله تعالى سبب النهي عن الصلاة والقيام على القبر للدعاء بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لأنهم كفروا بوجود الله وتوحيده وأنكروا بعثة نبيه؛ لأن الصلاة على الميت استشفاع له، والقيام على قبره احتفال بالميت وإكرام له، وليس الكافر من أهل الاحترام والإكرام.

وماتوا وهم فاسقون أي إنهم ماتوا والحال أنهم خارجون من دين الإسلام، متمردون على أحكامه، متجاوزون حدوده وأوامره ونواهيه.

ثم نهى الله رسوله عن استحسان بعض مظاهر المنافقين، فقال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ أي لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد، فلا يريد الله بهم الخير، إنما يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بالمصائب، وتخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر وهم مشغولون بالتمتع بها عن النظر في عواقب الأمور.

وقد سبق ذكر هذه الآية في هذه السورة رقم (٥٥) مع تفاوت في بعض الألفاظ: فلا تعجبك = ولا تعجبك. أموالهم ولا أولادهم = أموالهم وأولادهم، ليعذبهم = أن يعذبهم، في الحياة الدنيا = في الدنيا، ويفهم من اللفظ السابق: ﴿وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ﴾ أن إعجابهم بأولادهم كان أكثر من إعجابهم بأموالهم، وأما هنا رقم [٨٥] فلا تفاوت بين الأمرين. وفائدة التكرار التأكيد

والتحذير من الاشتغال بالأموال والأولاد، مرة بعد أخرى، بسبب شدة تعلق النفوس بها، حتى لا تحجب عن طلب ما هو أولى وهو الاشتغال للآخرة، فهي تحذير ونهي صريح عن الاغترار بالأموال والأولاد.

فقه الحياة أو الأحكام:

تتضمن الآيات اتخاذ مواقف حاسمة من المنافقين، بعد أن أمهلوا لمدة طويلة، وعوملوا في الظاهر معاملة المسلمين. وهي مواقف ثلاثة: منعهم من الخروج إلى الجهاد مع المسلمين، وعدم الصلاة على موتاهم، وعدم الاغترار بأموالهم وأولادهم التي يتباهون بها، وتلك المواقف تدل على أنهم جماعة كفار، كفروا بالله ورسوله.

أما الموقف الأول: فاقتصر على طائفة من المنافقين؛ لأن جميع من أقام بالمدينة ما كانوا منافقين، بل كان فيهم معذورون ومن لا عذر له، ثم عفا عنهم وتاب عليهم، كالثلاثة الذين خلِّفوا.

وأما الموقف الثاني: فإسقاط لاعتبارهم؛ لأن الصلاة على الميت والقيام على قبره للدعاء له إكرام له واحترام، والكافر ليس من أهل الاحترام.

وعلى العكس من ذلك أهل الإيمان، فإن النبي ﷺ كان يبادر إلى الصلاة عليهم؛ لأن صلاته شفاعة وسكن لهم واطمئنان وكان يطلب من المؤمنين الدعاء لهم والاستغفار تكريماً وتعظيماً. روى أبو داود والحاكم والبزار عن عثمان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم، وسلوا له التَّثبيت، فإنه الآن يُسأل».

وهذه الآية نص في الامتناع من الصلاة على الكفار وحظر الوقوف على قبورهم حين دفنهم، وكذلك تولي دفنهم، وليس فيه دليل على الصلاة على المؤمنين، وإنما يستفاد وجوب الصلاة على الميت المسلم من الأحاديث

الصحيحة، مثل ما روى مسلم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخاً لكم قد مات، فقوموا فصلوا عليه» قال: فقمنا فصففنا صفين، يعني النجاشي. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ نعى للناس النجاشيّ في اليوم الذي مات فيه، فخرج بهم إلى المصلّى، وكبر أربع تكبيرات.

وأجمع المسلمون على أنه لا يجوز ترك الصلاة على جنائز المسلمين، وراثة عن نبيهم ﷺ قولاً وعملاً.

وألحق بعض العلماء بذلك تشييع جنائز المسلمين، ويفهم من الآية من طريق دليل الخطاب مشروعية الوقوف على قبر المسلم إلى أن يدفن، وكان النبي ﷺ يفعله، وقد قام على قبر حتى دفن الميت، ودعا له بالتثبيت، وكان ابن الزبير إذا مات له ميت، لم يزل قائماً على قبره حتى يدفن. وجاء في صحيح مسلم أن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال عند موته: إذا دفنتموني فسُنّوا عليَّ التراب سَنّاً (صُبّوه برفق)، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر الجزور، ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي.

وجمهور العلماء على أن التكبير على الجنائز أربع. روى الدارقطني عن أبي ابن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «إن الملائكة صلّت على آدم، فكبّرت عليه أربعاً، وقالوا: هذه سنتكم يا بني آدم».

ولا قراءة في هذه الصلاة في المشهور من مذهب مالك، وكذلك أبو حنيفة والثوري؛ لقوله ﷺ فيما رواه أبو داود عن أبي هريرة: «إذا صليتم على الميت، فأخلصوا له الدعاء».

وذهب الشافعي وأحمد وداود وجماعة إلى أنه يقرأ بالفاتحة؛ لقوله ﷺ فيما رواه الجماعة عن عبادة بن الصامت: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» حملاً له على عمومه، وبما أخرجه البخاري عن ابن عباس، وصلّى على جنازة، فقرأ بفاتحة الكتاب، وقالوا: لتعلموا أنها سنة.

وسنة الإمام أن يقوم عند رأس الرجل وعجيزة المرأة، وهو رأي الشافعي؛ لما رواه أبو داود عن أنس، وصلّى على جنازة، فقال له العلاء بن زياد: يا أبا حمزة، هكذا كان رسول الله ﷺ يصلّي على الجنائز كصلاتك، يكبر أربعاً، ويقوم عند رأس الرجل وعجيزة المرأة؟ قال: نعم. وروراه مسلم عن سَمُرة بن جُنْدُب قال: صلّيت خلف النبي ﷺ، وصلّى على أم كعب، ماتت وهي نُفَساء، فقام رسول الله ﷺ للصلاة عليها وَسَطها.

وأما الموقف الثالث مع المنافقين الذي دلت عليه الآية فهو النهي عن الاغترار بأموالهم وأولادهم، والتحذير منه مرة بعد أخرى؛ لشدة تعلق النفوس بذلك، وحملاً للإنسان المؤمن على الاشتغال بما هو خالد باقٍ، وطلب مغفرة الله تعالى. والتكرار مع ما سبق لهذه الآية لأجل التأكيد والمبالغة في التحذير، كما كرر تعالى مرتين قوله في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/٤٨ و ١١٦].

قصة حديث الصلاة على عبد الله بن أبي:

ضعَّف جماعة من العلماء كالقاضي أبي بكر الباقلاني، وإمام الحرمين الجويني، والغزالي حديث الصلاة على زعيم المنافقين، لمخالفته لظاهر الآية من أوجه هي:

١ - إن الآية نزلت أثناء رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك، وابن أبي مات في السنة التي بعدها.

٢ - اعتراض عمر وقوله للنبي ﷺ: «وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟» يدل على أن النهي عن هذه الصلاة سابق لموت ابن أبي. وهذا يعارض قوله بعدئذ: فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم﴾ وهو صريح في أن الآية نزلت بعد الصلاة عليه.

٣ - قول النبي ﷺ: «إن الله خيرني» يعارض صريح الآية بأن الله لن يغفر لهم بسبب كفرهم، فأو فيها للتسوية، لا للتخيير.

وأما محاولة الجمع بين الآية والحديث فلا تخلو من تكلّف غير مقنع.

استئذان زعماء المنافقين للتّخلف عن الجهاد وإقدام المؤمنين عليه

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

الإعراب:

﴿مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ عاطف ومعطوف، و﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾: جمع خالفة، فإن فاعلة يجمع على فواعل، كقاتلة وقواتل، وضاربة وضوارب، و﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾: النساء.

البلاغة:

﴿مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ فيها استعارة، إذ شبَّه النِّساء المقيمات في البيوت بعد رحيل الرِّجال بالخوالف، وهي الأعمدة التي تكون في أواخر البيوت؛ لكثرة لزوم الخوالف للبيوت.

المفردات اللغوية:

﴿سُورَةٌ﴾ طائفة من القرآن. ﴿أَنۡ﴾ أي بأن. ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ﴾ أولو الغنى والثروة، والمقدرة على الجهاد. ﴿ذَرۡنَا﴾ اتركنا ودعنا. ﴿ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ المتخلفين.

﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ جمع خالفة، أي النِّساء اللاتي تخلفن في البيوت .﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ خُتم عليها، فلم تعد قابلة لشيء جديد .﴿لَا يَفۡقَهُونَ﴾ لا يعقلون الخير .﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ في الدُّنيا والآخرة .﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أنّ المنافقين احتالوا في التّخلف عن رسول الله ﷺ والقعود عن الجهاد، أوضح أمراً آخر: وهو أنه متى نزلت آية مشتملة على الأمر بالإيمان وعلى الأمر بالجهاد، استأذن أولو الثروة والقدرة منهم في التّخلف عن الجهاد، وقالوا لرسول الله ﷺ: ذرنا نكن مع القاعدين، أي مع الضعفاء والعاجزين عن القتال.

التفسير والبيان:

يذمّ الله تعالى في هذه الآيات فريقاً ويمدح فريقاً آخر، فيذمّ المتخلفين عن الجهاد، مع القدرة عليه، ووجود الثّروة والغنى (أو السعة والطّول) واستأذنوا الرّسول في القعود.

فكلما أُنزلت سورة - والمراد بالسّورة إما تمامها وإمّا بعضها، كما يقع القرآن والكتاب على كله وبعضه - فيها الأمر بالإيمان والدّعوة إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ، استأذنك أولو الطول، أي ذوو الفضل والسّعة، وأولو المقدرة على الجهاد بالمال والنّفس، في التّخلف قائلين: اتركنا مع القاعدين في بيوتهم من النِّساء والصِّبيان والعجزة والضعفاء، وقوله تعالى: ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ﴾ الأمر للمؤمنين باستدامة الإيمان، وللمنافقين بابتداء الإيمان. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٠] .

وهذا دليل على الجبن والذّل والهوان. وفي تخصيص ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾ بالذكر فائدتان: الأولى: أنّ الذّم لهم ألزم لكونهم قادرين على السفر والجهاد، والثانية: أن من لا مال له ولا قدرة على السّفر لا يحتاج إلى الاستئذان؛ لأنه معذور.

هؤلاء رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالف من النساء، وفي هذا طعن برجولتهم، وتشبيه لهم بالنّساء.

وعلّة ذلك أن الله ختم على قلوبهم، بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرّسول في سبيل الله، فلم تعد قابلة لنور العلم والهداية، حتى كأنها قد ختم عليها، فأصبحوا لا يفقهون أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرّة لهم فيجتنبوه، ولا يدركون أسرار حكمة الله في الأمر بالجهاد.

ثم قارن الله تعالى وضعهم بوضع المؤمنين، وبيّن ثناءه عليهم ومآلهم في الآخرة، فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي بيّن تعالى حالهم ومآلهم، وهو أنّ الرّسول والمؤمنين معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وأدوا واجبهم، فنالوا الخيرات العظمى في الدُّنيا كالنّصر وهزيمة الكفر، وفي الآخرة بالاستمتاع في جنات الفردوس والدرجات العلى، وأولئك هم الفائزون بالسعادتين: سعادة الدُّنيا وسعادة الآخرة، خلافاً للمنافقين الذين حرموا منهما.

وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ إما تفسير للخيرات والفلاح، وإما أن الخيرات والفلاح هي منافع الدُّنيا كالعزة والكرامة والنّصر والثَّروة، والجنّات ثواب الآخرة. والفوز العظيم: هو المرتبة الرَّفيعة والدّرجة العالية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على أن رؤساء المنافقين القادرين على الجهاد بالمال والنّفس

تخلّفوا عن الجهاد مع النّبي ﷺ، ورضوا لأنفسهم المذلّة والمهانة بالقعود مع العاجزين عن الخروج للجهاد. وقد أدى ذلك إلى الطبع على قلوبهم، فأصبحوا لا يميزون بين الخير والشّرّ، ولا بين المصلحة والضَّرر، أي إن حالهم التّخلف ومآلهم انعدام الخير فيهم.

قال الحسن البصري: الطبع: عبارة عن بلوغ القلب في الميل في الكفر إلى الحدّ الذي كأنه مات عن الإيمان. وعند المعتزلة: عبارة عن علامة تحصل في القلب.

ودلّت الآيات أيضاً على حال المؤمنين ومآلهم، فحالهم أنهم بذلوا المال والنّفس في طلب رضوان الله والتّقرُّب إليه، ومآلهم تحصيل الخيرات أي منافع الدّارين، والفوز بالجنّة والتّخلُّص من العقاب والعذاب. وذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز غيره، وهو المرتبة الرّفيعة والدّرجة العالية.

نفاق الأعراب واستئذانهم للتّخلف عن الجهاد

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ المعذِّر: هو المجتهد البالغ في العذر، وهو المحق، أو المقصر من عذر في الأمر: إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدّ، أو من اعتذر: إذا مهد العذر، أي إن في تفسيره قولين:

أحدهما - أنه يكون المحقّ، فهو بمعنى المعتذر أو المعذور؛ لأن له عذراً.

والثاني - أنه غير المحق وهو الذي يعتذر ولا عذر له. وسياق الكلام يدل

على أنهم مذمومون لا عذر لهم؛ لأنهم جاؤوا ليؤذن لهم، ولو كانوا من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون لم يحتاجوا أن يستأذنوا. فهم الذين يعتذرون بالباطل، كقوله تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٩/٩٤] .

﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾هم سكان البادية وهم أسد وغطفان، استأذنوا في التّخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال .﴿كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ أظهروا الإيمان بهما كذباً أو ادَّعوا الإيمان، يقال: كذبته عينه: إذا رأى ما لا حقيقة له.

سبب النّزول:

قال الضَّحّاك: هم رهط عامر بن الطُّفَيل جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يارسول الله إنا إن غَزَوْنا معك، أغارت أعراب طيّ على أهالينا ومواشينا، فقال ﷺ: «سيغنيني الله عنكم». وعن مجاهد: هم نفر من غِفار أو من غطفان اعتذروا، فلم يعذرهم الله تعالى. وعن قتادة: اعتذروا بالكذب.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أحوال المنافقين من سكان المدينة، قَفّى على ذلك ببيان أحوال المنافقين من الأعراب البدو.

التفسير والبيان:

وجاء المعتذرون من الأعراب يطلبون الإذن من النَّبي ﷺ في التّخلف عن غزوة تبوك، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قد أنبأني الله من أخباركم، وسيغني الله عنكم».

وقعد عن الجهاد الذين كذبوا الله ورسوله بادّعائهم الإيمان، وهم منافقو الأعراب الذين جاؤوا وما اعتذروا، وظهر بذلك أنهم كاذبون.

ثم أوعدهم بالعذاب، فقال: سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم في الدُّنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنّار؛ لاعتذار الأولين بغير حقّ، وقعود الآخرين عن القتال وعن المجيء للاعتذار الذين كذبوا الله ورسوله من منافقي الأعراب، فالآية بشقيها في منافقي الأعراب، سواء من انتحل العذر بالباطل، ومن لم ينتحل وتخلّف عن الجهاد، وعاقبتهم العقاب الشديد الأليم في الدُّنيا والآخرة بالقتل والنّار. وإنما قال: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ الدّال على التّبعيض؛ لأنه تعالى كان عالماً بأن بعضهم سيؤمن ويتخلّص من هذا العقاب.

ومن المفسّرين من جعل القسم الأول معذورين صادقين، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة، أو هم أسد وغطفان جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه بسبب الضعف وعدم القدرة على الخروج، بدليل أنه تعالى لما ذكرهم قال بعدهم: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ فلما ميّز أولئك عن الكاذبين، دلّ ذلك على أنهم ليسوا بكاذبين. ورجح ابن كثير هذا القول لما ذكر، ورجح الرّازي والزّمخشري القول الأول بدلالة سياق الكلام؛ لأنهم جاؤوا ليؤذن لهم، ولو كانوا معذورين بحقّ لم يحتاجوا إلى الاستئذان.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآية على أن مصير المنافقين الذين كذبوا الله ورسوله بادّعائهم الإيمان، والكاذبين من المعتذرين هو العقاب في نار جهنّم، بسبب عدم إيمانهم، وبسبب كذبهم، وكل من الكفر أو ادّعاء الإيمان في الظاهر، والكذب التابع له أمر عظيم يستحق فاعله العقوبة عليه.

وأما المعتذر بحق فيقبل عذره، وهم ذوو الأعذار في ترك الجهاد الذين أعفاهم الله، وتتحدث عنهم الآية التالية: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾.

أصحاب الأعذار المقبولة لعدم الجهاد

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾

الإعراب:

﴿تَوَلَّوا۟﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ حال من كاف ﴿أَتَوْكَ﴾ بإضمار: وقد .﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ الجملة في موضع نصب على الحال.

﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ ﴿مِنَ﴾ للبيان، وهي مع المجرور في محل نصب على التمييز، وهو أبلغ من يفيض دمعها؛ لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فياضاً ﴿حَزَنًا﴾ نصب على أنه مفعول لأجله، أو على الحال، أو المصدر لفعل دل عليه ماقبله .﴿أَلَّا يَجِدُوا۟﴾ أي لئلا يجدوا، متعلق بـ ﴿حَزَنًا﴾ أو بـ ﴿تَفِيضُ﴾

البلاغة:

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ عطف على ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾، أو على ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وهو من عطف الخاص على العام اعتناءً بشأنهم. وهو مبتدأ معطوف على ما قبله بغير واو.

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير، للدلالة على أنهم من جملة المحسنين غير المعاتبين بالتخلف.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾ كالشيوخ أو الهرمى جمع ضعيف وهو غير القوي، والمرضى جمع مريض، كالزمنى والعمي ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ في الجهاد ﴿حَرَجٌ﴾ ذنب أو إثم في التخلف عن الجهاد ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في حال قعودهم بعدم الإرجاف والتثبيط، وبالطاعة ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ ما عليهم بذلك من طريق بالمؤاخذة ﴿غَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم في التوسعة عليهم ﴿حَزَنًا﴾ الحزْن والحزَن: ضد السرور. والحزْن: الصعب وما غلظ من الأرض، وفيها حُزُونة.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ معك إلى الجهاد وهم البكاؤون سبعة من الأنصار: معقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وعبد الله بن كعب، وسالم بن عمير، وثعلبة بن عتمة، وعبد الله بن مغفل، وعلية بن زيد، أتوا رسول الله ﷺ، وقالوا: نذرنا الخروج، فاحملنا على الخفاف المرفوعة، والنعال المخصوفة، نَغْزُ معك، فقال ﷺ: لا أجد ما أحملكم، فتولوا وهم يبكون.

وقيل: هم بنو مُقَرِّن من مزينة: مَعْقِل وسويد والنعمان وعقيل وسنان، وسابع لم يُسَمَّ، وعلى هذا جمهور المفسرين. وقيل: أبو موسى وأصحابه.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب ﴿بَرَآءَةٌ﴾ فإني لواضع القلم في أذني، إذ أُمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاءه أعمى، فقال: كيف بي يارسول الله، وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ الآية.

وأما آية: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾ فذكر في سبب نزولها ثلاث روايات:

الأولى - أخرج ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مُغَفَّل المزني، فقالوا: يارسول الله، احملنا، فقال: والله ما أجد ما أحملكم عليه، فتولوا ولهم بكاء، وعز عليهم أن يُحبَسوا عن الجهاد، ولا يجدوا نفقة ولا محملاً، فأنزل الله عذرهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ الآية. وقد ذكرت أسماؤهم في المبهمات، وكانوا يسمون البكائين.

الثانية: قال مجاهد: هم ثلاثة إخوة: معقل، وسويد، والنعمان بن مقرِّن، سألوا النبي ﷺ أن يحملهم على الخفاف المدبوغة، والنعال المخصوفة، فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ وهذا رأي الجمهور.

والثالثة: قال الحسن البصري: نزلت في أبي موسى الأشعري وأصحابه، أتوا رسول الله ﷺ يستحملونه، ووافق ذلك منه غضباً، فقال: «والله ما أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه».

المناسبة:

هناك ارتباط واضح بين هذه الآيات وماقبلها، فبعد أن ذكر تعالى الوعيد لمن يوهم العذر أو ينتحل الأعذار، مع أنه لا عذر له، ذكر أصحاب الأعذار الحقيقية، وبيَّن إسقاط فريضة الجهاد عنهم.

التفسير والبيان:

أبان الله تعالى في هذه الآيات الأعذار التي يقبل بها القعود عن القتال، وذكر أصنافاً ثلاثة من ذوي الأعذارالمقبولة: وهم الضعفاء، والمرضى، والفقراء.

فقال: ليس على الضعفاء والمرضى والفقراء العاجزين عن الإنفاق في الجهاد إثم أو ذنب أو عتاب في عدم الجهاد إذا نصحوا لله ورسوله، بأن

أخلصوا الإيمان لله، وللرسول في الطاعة في السر والعلن، وعرفوا الحق وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه، وللأمة بالحفاظ على مصلحتها العامة العليا من كتمان السر، والحث على البر، وعدم الإرجاف والتثبيط والقضاء على الإشاعات الكاذبة أو المغرضة، روى مسلم عن تميم الداري أن رسول الله ﷺ قال: «الدّين النصيحة، قالوا لمن يارسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

والنصيحة لله وللرسول: إخلاص الإيمان بهما وطاعتهما والحب والبغض فيهما، والنصيحة لكتابه: تلاوته وتدبر معانيه والعمل بما فيه، والنصيحة لأئمة المسلمين: مؤازرتهم وترك الخروج عليهم، وإرشادهم إن أخطؤوا، والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى طريق الحق، والعمل على تقويتهم. والنصح: إخلاص العمل من الغش.

والضعفاء: كل من لا قدرة لهم على القتال كالشيوخ والعجزة والنساء والصبيان.

والمرضى: من طرأ لهم مرض مزمن أو مؤقت لا يتمكنون معه من الجهاد، كالزمنى والعُمي والعرج، والمحمومين.

والفقراء: الذين عدموا النفقة على أنفسهم في أثناء الجهاد، وعلى عيالهم.

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ أي ليس عليهم جناح ولا مؤاخذة، ولا إلى معاتبتهم طريق، ولا إثم عليهم بسبب القعود عن الجهاد.

وهذا نص عام يشمل كل من أحسن عملاً من أعمال البر والخير، وهو أصل معتبر في الشريعة، في تقرير أن الأصل براءة الذمة أو البراءة الأصلية، وعدم مطالبة الغير له في نفسه وماله، فالأصل في نفسه حرمة القتل، والأصل في ماله حرمة الأخذ إلا لدليل ثابت، والأصل عدم مطالبته بشيء من التكاليف إلا بدليل مستقل.

فما دام هؤلاء المعذرون عذراً شرعياً ناصحين لله ورسوله، مخلصين أعمالهم لله، فلا مؤاخذة عليهم.

والله غفور، كثير المغفرة لهم ولأمثالهم، رحيم بهم، فلا يكلفهم ما لا طاقة لهم به. أما العصاة والمنافقون فلا يغفر لهم إلا إذا تابوا وأقلعوا عن العصيان والنفاق الذي كان سبباً في الإثم.

وكذلك لا حرج ولا إثم على من استعد للقتال بنفسه، ولكنه لا يجد مركباً أو نفقة ينفقها في أثناء الجهاد على نفسه وعياله، بسبب فقره، ومن أخصهم أولئك النفر من الأنصار البكاؤون، أو من بني مُقَرِّن من مزينة الذين جاؤوا للنبي ﷺ، ليحملهم على الرواحل، أو ليمدهم بالزاد والماء والنفقة في غزوهم، فيخرجوا معه، فلم يجد ما يحملهم عليه، فانصرفوا من مجلسه، وهم يبكون بكاء شديداً بسبب حزنهم على ما فاتهم من شرف المشاركة في الجهاد، وبسبب فقدهم النفقة التي تساعدهم على الجهاد.

والتعبير بقوله: ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ يفيد عموم سائر وسائل النقل والحرب والقتال القديمة والحديثة. قال ابن عباس: سألوه أن يحملهم على الدواب.

قال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ، وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعلي بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة، وعبد الله بن المغفل المزني. وبعض الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وحرمى بن عبد الله أخو بني واقف، وعياض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة، فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلَّفتم بالمدينة أقواماً، ما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً، ولا نلتم من عدو نيلاً إلا وقد شركوكم في الأجر» ثم قرأ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية.

وأصل الحديث في الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً، ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: نعم، حبسهم العذر» وفي رواية أحمد: «حبسهم المرض».

فقه الحياة أو الأحكام:

أوضحت الآيات إسقاط فرضية الجهاد بسبب العذر عن أصناف ثلاثة من ذوي الأعذار وهم الضعفاء والمرضى والفقراء، وأنه لا حرج ولا إثم على المعذورين بسبب القعود عن الجهاد، وهم قوم عرف عذرهم، كأرباب الزَّمانة والهرم والعمى والعرج، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون.

والجمهور من العلماء على أن من لا يجد ما ينفقه في غزوه: لا يجب عليه الجهاد. وقال المالكية: إذا كانت عادته المسألة، لزمه كالحج، وخرّج على العادة؛ لأن حاله إذا لم تتغير، يتوجه الفرض عليه كتوجهه على الواجد المليء.

ودلت الآيات على أصلين عظيمين من أصول الشريعة وهما:

الأصل الأول - سقوط التكليف عن العاجز، لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ فكل من عجز عن شيء سقط عنه، فتارة إلى بدل هو فعل، وتارة إلى بدل هو غرم، ولا فرق بين العجز من جهة القوة البدنية، أو العجز من جهة المال. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦] وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٢٤/٦١] .

الأصل الثاني - الأصل في الإنسان براءة الذمة، أو براءة المتهم حتى تثبت إدانته، ويعبر عنه بعبارة: الأصل براءة الذمة، وهذا مبدأ البراءة الأصلية. وذلك لقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ فالأصل في النفس حرمة القتل، والأصل في المال حرمة الأخذ، إلا لدليل ثابت أو لدليل منفصل مستقل.

ولا تكرار بين هؤلاء وبين قوله تعالى سابقاً: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ لأن الذين لا يجدون ما ينفقون: هم الفقراء الذين ليس معهم نفقة، وهؤلاء في الآية الأخيرة هم الذين ملكوا قدر النفقة، إلا أنهم لا يجدون المركوب.

انتهى الجزء العاشر ولله الحمد

فهرس المجلد الخامس

فهرس الجزء التاسع

الموضوع	الصفحة
بقية قصة شعيب مع قومه - محاورته الملأ وعقابهم بالزلزلة	٥
سنة الله في التضييق والتوسعة قبل إهلاك الأمم	١٣
الترغيب بالإيمان لزيادة الخير والترهيب من الكفر بالعذاب المبكر	١٧
العبرة من قصص أهل القرى	٢٣
قصة موسى عليه السلام مع فرعون والملأ من قومه	٢٧
إيمان السحرة برب العالمين	٤٦
تهديد فرعون للسحرة وإصرارهم على الإيمان بالله	٤٩
تمالؤ فرعون ومثله على موسى وقومه ونصيحة موسى لقومه وحوارهم معه	٥٤
أنواع عذاب الدنيا بآل فرعون - الآيات التسع	٥٩
اللجوء إلى موسى لرفع العذاب ونقض العهد وإغراق فرعون وقومه	٧٠
وراثة بني إسرائيل أرض مصر والشام بعد الفراعنة والعمالقة	٧٣

الموضوع	الصفحة
جحود بني إسرائيل نعم الله عليهم	٧٧
مناجاة موسى لربه أو مكالمة موسى ربه وطلبه رؤية الله وإنزال التوراة عليه	٨٤
عقوبة التكبر والكفر بصرف المتكبرين عن فهم أدلة العظمة الإلهية	٩٤
قصة اتخاذ السامري العجل	٩٩
غضب موسى وتعنيفه وهارون لاتخاذ العجل إلهاً	١٠٥
جزاء الظالمين باتخاذ العجل وقبول توبة التائبين	١١١
نهاية قصة اتخاذ العجل إلهاً	١١٥
اختيار موسى سبعين رجلاً لميقات الكلام والرؤية ومناجاته ربه	١١٨
بقية دعاء موسى عند مشاهدة الرجفة وربط الإيمان برسالته برسالة النبي ﷺ	١٢٣
عموم الرسالة الإسلامية	١٣٤
اتباع الحق لدى بعض قوم موسى ونعم الله على بني إسرائيل في صحراء التيه	١٣٨

الموضوع	الصفحة
أمر بني إسرائيل بسكنى القرية (بيت المقدس)	١٤٣
حيلة اليهود على صيد الأسماك يوم السبت وعقاب المخالفين	١٤٧
رفع الجبل فوق اليهود وإذلالهم إلى يوم القيامة وتفريقهم في الأرض واستثناء الصالحين	١٥٥
الميثاق العام المأخوذ على بني آدم	١٦٥
قصة بلعم بن باعوراء وأمثاله الضالين المكذبين	١٧١
أسباب الهداية والضلالة	١٧٦
أسماء الله الحسنى	١٨٢
المهتدون والمكذبون من أمة الدعوة الإسلامية	١٨٩
هل التفكر أفضل أم الصلاة؟	١٩٨
علم الساعة عند الله	٢٠٠
الأمور كلها بيد الله وحده وعلم الغيب مختص بالله تعالى وحقيقة الرسالة	٢٠٧
التذكير بالنشأة الأولى والأمر بالتوحيد واتباع القرآن والنهي عن الشرك	٢١٠

الموضوع	الصفحة
واقع الأصنام والأوثان المعبودة	٢٢٠
أصول الأخلاق الاجتماعية ومقاومة الشيطان	٢٢٧
اتباع النبي ﷺ الوحي الإلهي وخصائص القرآن	٢٣٧
الاستماع للقرآن وطريقة الذِّكْر	٢٣٩
سورة الأنفال	٢٤٩
مدنيتها ومناسبتها لسورة الأعراف وما اشتملت عليه	٢٤٩
السور المكية والمدنية	٢٥٢
السؤال عن حكم قسمة الغنائم وبيان أوصاف المؤمنين	٢٥٣
كراهية بعض المؤمنين قتال قريش في بدر	٢٦٥
أضواء من السيرة على موقعة بدر	٢٦٨
الإمداد بالملائكة في معركة بدر وإلقاء النعاس وإنزال المطر	٢٧٤
الفرار من الزحف والنصر من عند الله	٢٨٨
الأمر بطاعة الله والرسول والتحذير من المخالفة	٢٩٩
الاستجابة لما فيه الحياة الأبدية	٣٠٣
خيانة الله والرسول وخيانة الأمانة	٣١١

الموضوع	الصفحة
تقوى الله وفضلها	٣١٧
ألوان الكيد والمؤامرة من المشركين على النبي ﷺ	٣٢٠
المشركين الإتيان بالعذاب ومنع تعذيبهم إكراماً للنبي ﷺ وأوضاع صلاتهم عند البيت الحرام	٣٢٦
إهدار ثواب الإنفاق للصدِّ عن سبيل الله	٣٣٣
المغفرة للكفار إذا أسلموا وقتالهم إذا لم يسلموا لمنع الفتنة في الدين	٣٣٧

* * *

فهرس الجزء العاشر

الموضوع	الصفحة
كيفية قسمة الغنائم	٣٤٥
تكثير المؤمنين ببدر في أعين المشركين وتقليل المشركين في أعين المؤمنين	٣٥٥
ذكر الله والثبات أمام العدو والطاعة وعدم التنازع	٣٦٣
تبرؤ الشيطان من الكفار وقت أزمة بدر وحين تهكم المنافقين بالمؤمنين	٣٧٢
إهلاك الكفار المشركين لسوء أعمالهم كإهلاك آل فرعون	٣٧٨
معاملة من نقض العهد ومن ظهرت منه بوادر النقض	٣٨٤
الإعداد الحربي لقتال الأعداء بحسب الطاقة والاستطاعة	٣٩٢
إيثار السلام وتوحيد الأمة وتحريضها على القتال	٣٩٦
شرط اتخاذ الأسرى وقبول الفداء منهم وإباحة الانتفاع به	٤١٠
أصناف المؤمنين في عهد النبي ﷺ بمقتضى الإيمان والهجرة	٤٢٤
سورة التوبة	٤٣٧
تسميتها	٤٣٧

الموضوع	الصفحة
السبب في إسقاط التسمية من أولها ومناسبتها لما قبلها	٤٣٨
تاريخ نزولها	٤٣٩
ما اشتملت عليه السورة	٤٤٠
أضواء من التاريخ على صلح الحديبية	٤٤١
نقض عهود المشركين وإعلان الحرب عليهم والبراءة منهم	٤٤٣
فرضية قتال مشركي العرب في أي مكان وجدوا	٤٥٢
مشروعية الأمان	٤٥٧
أسباب البراءة من عهود المشركين وقتالهم	٤٦٣
مصير المشركين إما التوبة وإما القتال	٤٦٨
التحريض على قتال المشركين الناكثين أيمانهم وعهودهم	٤٧٣
اختبار المسلمين واتخاذ البطانة	٤٧٩
عمارة المساجد	٤٨٢
فضل الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله	٤٩٠
ولاية الآباء والإخوان الكافرين وتفضيل الإيمان والجهاد على ثمانية أشياء	٤٩٦
نصر المؤمنين في مواطن كثيرة	٥٠٤

الموضوع	الصفحة
أضواء من التاريخ على وقعة حنين	٥٠٦
تحريم دخول المسجد الحرام على المشركين	٥١٤
قتال أهل الكتاب	٥٢١
عقيدة أهل الكتاب (اليهود والنصارى)	٥٢٩
سيرة الأحبار والرهبان في معاملاتهم مع الناس	٥٣٨
عدد الشهور في حكم الله وقتال المشركين كافة وتحريم النسيء	٥٤٨
التحريض على الجهاد والتحذير من تركه ومعجزة الغار في الهجرة	٥٦٢
النفر للجهاد في سبيل الله	٥٧٥
تخلف المنافقين عن غزوة تبوك وقضية الإذن لهم	٥٧٩
الدليل على تخلف المنافقين بغير عذر وخطر خروجهم للقتال	٥٨٧
انتحال المنافقين أعذاراً أخرى للتخلف عن غزوة تبوك وفرحهم عند السيئة التي تصيب المؤمنين وترحهم عند الحسنة	٥٩٣
إحباط ثواب المنافقين على نفقاتهم وصلواتهم وتعذيبهم في الدنيا والآخرة	٦٠٠

الموضوع	الصفحة
حلف المنافقين الأيمان الكاذبة وانتهازهم الفرصة للطعن بالنبي ﷺ	٦٠٦
مصارف الزكاة الثمانية	٦١١
حكمة الزكاة	٦٣٢
إيذاء المنافقين النبي ﷺ وتصحيح مفاهيمهم	٦٣٥
بيان أحوال المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك	٦٤٠
الإقدام على اليمين الكاذبة وتخوفهم من نزول القرآن فاضحاً لهم واستهزاؤهم بآيات الله	٦٤٠
أوصاف المنافقين وجزاؤهم الأخروي	٦٤٨
أوصاف المؤمنين وجزاؤهم الأخروي	٦٥٨
جهاد الكفار والمنافقين وأسبابه	٦٦٥
كذب المنافقين وإخلافهم العهد والوعد - قصة ثعلبة بن حاطب المزعومة	٦٧٤
طعن المنافقين بالمؤمنين وعدم المغفرة لهم	٦٨١
فرح المنافقين المتخلفين عن الجهاد في غزوة تبوك	٦٨٦
منع المنافقين من الجهاد والمنع من الصلاة على موتاهم والتحذير من الاغترار بأموالهم وأولادهم	٦٩٠

الموضوع **الصفحة**

استئذان زعماء المنافقين للتخلف عن الجهاد وإقدام المؤمنين عليه ٦٩٨

نفاق الأعراب واستئذانهم للتخلف عن الجهاد ٧٠١

أصحاب الأعذار المقبولة لعدم الجهاد ٧٠٤

فهرس الجزء التاسع والعاشر ٧١١

* * *